

المستشرقون والرسول صلى الله عليه وسلم

دكتور

محمد عبد الرحيم الزيني

أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية العلوم الشرعية

مسقط - سلطنة عمان



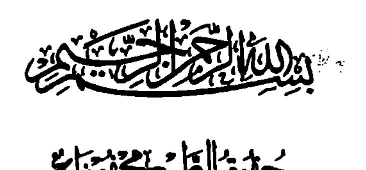


المستشرقون والرسول ﷺ

الدكتور / محمد عبد الرحيم الزيني

أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية العلوم الشرعية - مسقط



الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨م

رقم الإيداع

2017 / 2258

الترقيم الدولي

ISBN: 978 - 997- 336 -724 - 4



48 ش الشهيد أحمد البلكى - المعادى الجديدة القاهرة - جمهورية مصر العربية
00201008690860 - 00201002430524 - 0020285420642
e- mail: a_althkafa@hotmail.com



الإهــــداء

إلى روح أستاذي الأثير، العالم الجليل، والفقيه الموسوعي

فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور/

إبراهيم عبد الحميد إبراهيم[1]

أستاذ الفقه الإسلامي - بكلية الشريعة جامعة الأزهر.

اعترافا بدوره العظيم في توجيهي للاهتمام بالفكر الإسلامي،

ونصائحه الأبوية وعطفه الدائم ومحاولته الناجحة في توجيه بوصلة فكرنا، ونحن في شرخ الشباب ومرحلة التمرد، إلى خدمة الدعوة الإسلامية ورسالة الرسول ﷺ الخالدة.

ونزع إعجابنا الشديد بمفكري الغرب ومذاهبه الفلسفية وحضارته المادية،

وتدريبنا على أسس منهج البحث العلمي،

فله دين في عنقي، وميراث من المحبة، رحمه الله رحمة واسعة،

وغمره بفيض غفرانه وأسكنه الفردوس الأعلى.

محمد الزيني

---

(١) الدكتور ابراهيم عبد الحميد من مواليد مركز دكرنس عام (١٩١٠ - ١٩٨٩) حفظ القرآن الكريم، التحق بمعهد دمياط الأزهري، ثم معهد الزقازيق، تخرج في كلية الشريعة بجامعة الأزهر، عين مدرسا بالكلية، حصل على الدكتوراه في موضوع «العلاقات الدولية في الإسلام» عام ١٩٤٥، ثم سافر في بعثة إلى جامعة كمبردج بصحبة الشيخ عبد الرحمن بيصار (عام ١٩٥١) وحصل منها على الدكتوراه في موضوع «موقف المرأة في الفقه الإسلامي»، عين مديرا للمركز الثقافي الإسلامي بلندن، ثم عمل باحثا في المؤتمر الإسلامي الذي كان يرأسه أنور السادات شارك في تحرير موسوعة الفقه الإسلامي بالكويت بدرجة خبير، ثم عمل أستاذا للدراسات العليا، له مؤلفات عديدة أهمها. العلاقات الدولية في الإسلام، نظام القضاء في الإسلام، الأقليات في المجتمع الإسلامي، المقدمات المالية وغيرها رحم الله شيخنا الجليل وأكرم مثواه.





دعـــــاء

اللهم إني أبرأ من الثقة إلا بك،

ومن الأمل إلا فيك؛

ومن التسليم إلا لك،

ومن التفويض إلا إليك،

ومن التوكل إلا عليك؛

ومن الطلب إلا منك،

ومن الرضا إلا عنك،

ومن الذل إلا في طاعتك؛

ومن الصبر إلا على بلائك .

اللهم تتابع برك، واتصل خيرك،

وعظم رِفدك، وتناهي إحسانك،

وصدق وعدك، وبر قسمك،

وعمت فواضلك،وتمت نوافلك،.

ولم تبق حاجة إلا وقد قضيتها أو تكفلت بقضائها .

فاختم ذلك كله بالرضا والمغفرة .

إنك أهل ذلك والقادر عليه .

(أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم بيروت، ١٩٨١).

فهرس الموضوعات

***





مقدمة

١- هذا الكتاب وضعته في المقام الأول دفاعا عن سيرة الرسول ﷺ وكل ما يتعلق بمشوار حياته وسيرته وتاريخه وكفاحه على هذه الأرض المعذبة بالكذب والنفاق والحرب والدمار؛ من حياة نقية وسلوك قويم ومبادئ سامية وأخلاق مثالية ورؤى صادقة وخطط محكمة ومنهجا سليما يستطيع أن يحقق لنا عالما من الكمال الإنساني إذا أردنا أن نحقق إنسانيتنا على الأرض التي كرمها الله ونخلق السعادة للبشرية، ليس هذا فحسب بل نستطيع أن نقترب من صفات الملائكة إذا انتصرنا على طبيعة الشر الكامنة في أعماقنا متربصة بنا، وقتلنا الوحش الخبيس الكامن بين ضلوعنا، واجتثثنا خميرة الحقد والكراهية الممتزجة مع صفاء نفوسنا وإخلاص ضمائرنا، وأنى للإنسان الكفور العجول الكنود، وأيضا المؤمن الصبور الشكور العالم كي ينهض برسالته وقد امتزج بالتراب وبدأ خلقه من الطين الذي يحن إليه، ولا يريد أن يتعلق بالروح التي تجذبه إلى مراقي العلا والمرتقى السامق وأنوار السماء.

هذا الكتاب أكتبه حبا للرسول الكريم ﷺ، وإيمانا بمنهجه القويم واعتقادا في صدق ما جاء به اعتقادا لا يشوبه أي شك، ولا يخالجه أي ريب أو يشغله تردد أمام أقواله و أفعاله و تقريراته وأوامره ونواهيه، " فالحق سبحانه حين نادى رسوله ﷺ لم يُنَاده باسمه أبداً، فلم يقُل يا محمد، إنما بلقبه الذي يُشعر برفعته عند الحق سبحانه، فقال في ندائه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] (١).

أكتبه دفاعا عنه في مواجهة الهجمة العنيفة التي تعرض إليها من المستشرقين القدامى طوال عصور الحضارة الإسلامية، الذين لم يستوعبوا أبدا كونه رسولا من عند الله مثل باقي الرسل والأنبياء الذين أرسلتهم السماء لانتشال الإنسان من طريق الرذيلة والفساد والشر وإرشاده إلى طريق الفضيلة والإصلاح والخير.

وكذلك دفاعا عنه ضد المستشرقين العرب الجدد الذين نبتوا بيننا ونشأوا على أرضنا واستظلوا بشمسها، وخرجوا علينا بمقولات أسوأ من أطروحات المستشرقين الغربيين؛ وأعني بهم جمهرة الكتاب العرب والمصريين العلمانيين والليبراليين والناصريين والماركسيين؛ الذين ظلوا طوال فترات مديدة وأعصر عديدة يدمرون صرح الإسلام الشامخ ، ويحاولون أن يأتوا عليه من القواعد، وقد انتهزوا التغيرات المعاصرة وفرصة الأزمة الراهنة إلى ركوب الموجة العاتية، والانضمام إلى الصف الطويل من المنافقين والانتهازيين والمأجورين والحاقدين على الإسلام، والعمل بخبث واضح وهمة غير محمودة لهدم أركان الإسلام وطي مبادئه لا سيما بعد أن انفتحت أمامهم أذرع الإعلام الموجه ضد الإسلام والمسلمين!! وهيهات هيهات!!

٢ - انبثقت فكرة هذا الكتاب من النقد اللاذع والهجوم الشرس الذي تعرض له الدين الإسلامي ومقرراته وأركانه في أجهزة الإعلام العربية، ولم تسلم من ذلك حتى حياة رسول الإسلام ﷺ وسيرته العطرة ومكانته في قلوب المصريين بخاصة والعالم الإسلامي بعامة، وصحابته الكرام وجهودهم في الفتوحات الإسلامية وتشييد أركان الحضارة وبناء الإنسان علما وخلقا وأدبا ليس هذا فحسب بل انتقل الهجوم خطوة أخرى للهجوم على شعائر

---

(١) تفسير الشعراوي، سورة الأحزاب.

الإسلام وطقوسه كافة ، وقاد هذا التشويه المتعمد والحرب المعلنة الصريحة؛ كتاب مصريون، ومثقفون كنا نعتز برأيهم ونقرأ مقالاتهم ونسمع أحاديثهم، ومشايخ كبار لهم وضعيتهم داخل الحقل الإسلامي وكتابات علمية معتبرة وكتب رصينة تعد مراجع في الفقه وعلم الكلام والتفسير وعلوم الحديث، وإسهامات دينية. مهما اختلفنا معهم - لا ينكرها أحد، أضف إلى ذلك دورهم في أجهزة الإعلام، فبدا لنا أنهم مشايخ محترمون وعلماء جهابذة وقضاة منصفون.

نعم قام الغزاة الأجانب بقتل المصريين، لكننا نتكلم على أنه لا يوجد في تاريخ مصر كلها أن قام المصري بقتل أخيه المصري بهذه الطريقة الفظيعة والمرعبة ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٠] هذا الدمار الهائل والقتل والسحق والحرق وتجريف الجثث بهذه الطريقة البشعة التي تعد جرائم ضد الإنسانية ،لاسيما وحادث الموت عندنا يعد من الحوادث الكارثية، ونحن شعب عاطفي انفعالي، قمنا ببناء الأهرام حتى ينام الفرعون وزوجته في هدوء وسكينة وأمن وطمأنينة . وإذا كان عند أمريكا مبررا أن تلقي على اليابان القنبلة الذرية، لأن الأخيرة دمرت أسطولها في بير هاربر، وكانت ضمن دول المحور وكانوا في حرب عالمية طاحنة بين الطرفين، لكن أمريكا تمثل أمة تختلف كل الاختلاف في الديانة واللغة والتاريخ والدين عن اليابان، أما في حالتنا لا يوجد أي مبرر ديني ولا أخلاقي ولا عقلي ولا تاريخي ولا سياسي أن يقتل المصري أخيه المصري بهذه الطريقة البشعة المروعة التي رآها العالم وصمت صمت القبور بعد أن مات ضميره، وفقد إنسانيته لأنه لا يؤمن إلا بالمذهب النفعي (البرجماتي)، ولاشك أن الحساب والجزاء قادم في الدنيا وليس في الآخرة ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧].

الشاهد لقد كشفت لنا المواقف الحرجة والأزمات العنيفة والأوقات العصيبة التي مرت بها مصر زيف موقف المشايخ وما يسمى بصفوة المفكرين، إنهم في أحسن الأحوال

تجار دين وموظفون عموميون وخدام السلطة أيا كانت السلطة، ومتخصصون في فن النفاق واختراع فنون الكذب، وعندهم مهارة الحاوي وصبيان السيرك وبراعة البهلوان على تغيير مواقفهم دون خجل أو حياء، وفي أسوأها عملاء لمن يدفع لهم أكثر وطلاب مناصب يسيل لعابهم للجلوس على أي كرسي يعطيهم تميزا عن باقي البشر، ونسوا أن التاريخ له أعين وصحائف وذاكرة حافظة تسجل كل ما يصدر عنهم، ومع هذه الوثبة العلمية في مجال الاتصالات الحديثة ووسائل التواصل الاجتماعي أصبح استحضار هذه المواقف أسرع من لمح البصر وأقوى من البرق، يشبه جن سليمان النبي، وأصبحنا غير محتاجين أن نبحث وأن نتعقب مواقفهم في الكتب، لأن أجهزة التسجيل أصبحت شاهدة ودامغة ، ونضيف إلى ما سبق مشايخ صنيعة السلطة وأجهزة المخابرات ظهروا على الساحة فجأة مثل النباتات الطفيلية، أو الثعابين الجائعة التي تخرج بعد البيات الشتوي، كانوا نكرات ليس لهم ماض يذكر أو بحوث علمية، ولكن فجأة احتلوا مساحات واسعة من أجهزة الإعلام المرئية وراحوا يشوهون كل ما يتصل بالإسلام بصلة، بدءً بالهجوم على القرآن الكريم ووسمه أنه نص تاريخي ليبس له صفة الثبات والاستمرارية وأنه لا يساير العصر وغير صالح للتطور، فنحن لم نعد نركب الجمال[1]، وانتهاء بالهجوم على العبادات كالصلاة والصوم والحج، و حجاب المرأة المسلمة والسخرية منها، ومن الرجال الملتحين، مرورا برجال الإسلام وعلمائه الكبار ولم ينج منهم كتاب الأحاديث وعلى رأسهم الإمام البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، وقد ذهب بعضهم إلى القول بان أحاديث الرسول متحيزة إلى الرجال وغمطت حق النساء، وخرجت دكتورة معروفة بركوبها موجة الانتهازية والرقص في كل زفة إذ وصفت الشعب المصري بخوار الهمة وضعف الإرادة وذهبت إلى " أن النقاب شريعة يهودية "، ودخل هذه

---

(١) قالت كاتبة مصرية: لماذا تقرأ آية ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] فنحن لم نعد نركب الجمال، كأنها الآية وقتية لعصر معين، وأن الله ليس هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنه سبحانه ظهر في التاريخ ثم اختفى.!! تعالى الله عما يقول الجاحدون علوا كبيرا.

الساحة المشبوهة وسط هذا التدافع الغثائي والهجوم التتاري وتسلق الأكتاف؛ كل من أراد أن يكيد للإسلام أو يتقرب إلى النظام القائم وينافقه ، وأصبحت ساحة الدين مأوى لكل من هب ودب وناقد وحاقد، ولم يتورع بعض القساوسة أن يركبوا الموجة ويهاجموا فتح الإسلام لمصر بقيادة عمرو بن العاص وقالوا: حان للعرب الرحل أن يعودوا أدراجهم إلى صحراء الجزيرة العربية.!!

ولاشك أن هذه الحملة الشائنة الجهنمية تعد تنفيذا لخطة اللورد كرومر المندوب السامي على مصر حينما ذكر في كتابه " مصر الحديثة "(١٩٠٨): " أن القرآن هو المسؤول عن تأخر مصر في مضمار الحضارة الحديثة ".

وغني عن البيان أن هذه الحملة من أسوأ الحملات المسلحة والإعلامية التي وجهت لتاريخ الحركات الإسلامية كافة منذ ظهورها في عشرينات القرن الماضي .

إن المتابع لمجريات الأمور في الوطن العربي بعامة ومصر بخاصة وأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، يدرك أنها تعيش فترة من أقسى فتراتها التي مرت بها عبر تاريخها الطويل وأشدها سوادا؛ حالة من الانهيار الحضاري؛ تتمثل في الانحدار الأخلاقي وتدني الذوق العام في معاملاته اليومية، وعدم مراعاة الآداب المستمدة من تعاليم القرآن وسلوك الرسول، وتدمير القيم الدينية الراسخة التي تربى عليها شعبها واستقرت في ضميره وتشبع بها وجدانه ، وتفكيك بنية المجتمع المتماسكة الصلبة بطريقة متعمدة، وإثارة روح من الكراهية بين فئات الشعب التي تمثل نسيجا واحدا وهوية واحدة ، وتقوم أجهزة الإعلام بطريقة مباشرة وغير مباشرة بخلخلة القيم الخلقية وآداب السلوك التي تربى عليها الأبناء والآباء، واستعداء شرائح من الشعب على الأخرى، وإثارة فتنة طائفية من الممكن أن تندلع في أي وقت فلا تبقي ولا تذر، ناهيك عن ذلك تسطيح وعي الشعب بنشر الخرافات وإذاعة الأباطيل والكذب الفج على الشعب والإخفاء المتعمد للحقيقة وترويج منظومة جديدة من الفوضى والفهلوة والنزعة الفردية في مقابل قيم العمل والجد والانضباط واحترام الملكية الخاصة و العامة، وتمارس النخبة المثقفة؛ العلمانية والشيوعية والناصرية دور

شديد الخطر في ترسيخ هذه المفاهيم الطارئة على قيم المجتمع، وتأكيد النظرة الدونية لباقي فئات الشعب، وخنق صوت القيادة الفكرية الإصلاحية المستنيرة ومنعها من ممارسة أي نوع من النقد لهذه الموجة أو إتاحة الفرصة لها للتعبير عن وجهة نظرها. هذه نقطة [١].

الثانية: هذه اليد الباطشة القاتلة بهذه الصورة المروعة المفزعة وتصفيتهم جهارا نهارا دون أدنى شعور بالمسؤولية الأخلاقية والوطنية أو التعاطف الإنساني، سيكون لها مردودات سلبية خطيرة على حركة المجتمع في المدى الطويل؛ إذ تؤدي إلى نشر حالة من الخوف والفزع بين الشباب الذي بدأ يهاجر فعلا إلى الخارج، ويغامر بحياته إلى درجة الموت، وأصبح البحر المتوسط مأوى لجثث المهاجرين اليائسين، وتنتاب الباقي حالة من الترقب والخوف والانطواء على الذات، وتدهور الروح المعنوية والشعور بالهزيمة النفسية وقلة حيلتهم في مواجهة هذا البطش الساحق الأحمق غير المسبوق في تاريخ مصر، كل هذا سيفضي إلى انخفاض في الإنتاج وتدهور مستوى جودته وقتل روح المبادرة والابتكار في نفوس الشباب، وزرع روح من العداء المستحكم بين جماهير الشعب والسلطة الحاكمة لاسيما قيادة

---

(١) اختارت الدولة إحدى الراقصات لتلقيبها بلقب الأم المثالية، وذهب أحد المحافظين بجلالة قدره لافتتاح محل كوافير. وقالت إحدى الممثلات: أنها ستعلمنا الإسلام الوسطي، وقالت ثانية: إن عمرو بن العاص من الأربعة المبشرين بالجنة!! وسخر أحد الممثلين من حديث الرسول عن إباحة الإسلام تعدد الزوجات وما ملكت اليمين. وطالبت أستاذة جامعية كل فتاة مرتبطة بشاب متدين فسخ خطبتها!! وقال باحث دأب على مهاجمة الإسلام بصراحة: إن المساجد تعلم أولادنا الإرهاب، وأن الغيظ يتملكه حينما يسمع التلاميذ ينشدون نشيد الله أكبر. وأعلنت وزارة الأوقاف منع الاعتكاف داخل المساجد في رمضان .، وتحديد مدة صلاة التراويح، واستبعاد جميع الأئمة المتعاطفين مع التيارات الإسلامية، وتركيب كاميرات مراقبة داخل المساجد، وأخيرا منع الأذان بمكبرات الصوت. وخرجت إحدى الكاتبات الصحفيات تعترف بخيانتها لزوجها مع زميلها، وذهبت للقسيس فغفر لها وتابت إلى الله!!؟ وقالت إحدى المذيعات جهارا: بأن أي مذيعة تريد أن تشتهر عليها بالتضحية بشرفها!!؟ وذهبت إحدى الراقصات الشهيرات تقدم أوراقها للترشيح لمجلس النواب القادم؛هذه عينة من الإسفاف والابتذال الذي ينشر ويقال في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة .فيا ترى ما القيم التي من الممكن أن يتعلمها أبناؤنا من هذا المستنقع الفاسد والكذب الفاضح والتدهور الأخلاقي ؟ وما المردود الفكري الذي يعود علينا من هذا الهذيان والجنون ؟؟.اللهم لطفك بالمحروسة ، ارحم شعبها من تفاهات ودعاوى الناصريين وغوغائية الشيوعيين ومناورات العلمانيين.وتبريرات الانتهازيين .

الجيش والشرطة والقضاء، وهناك فرق كبير بين سلطة حاكمة يرضى عنها الشعب ويؤيدها ويباركها، وسلطة باطشة تحكم بالحديد النار، ويصمت الشعب صمت الذل والخوف و القهر؛ القهر الفكري والقهر الاجتماعي ويكظم غيظه وغضبه؛ غضب الثورة القادم، فالجمر المتقد تحت الرماد وبوادر بركان الغضب بدأت تسطع في الأفق.

إن قوى الشر والفساد والإفساد، والشنشنة والخطابات الفارغة، تدفع مصر إلى السقوط في نهاية هذه المرحلة الحزينة البائسة.

في وسط هذه الأجواء المشحونة والكراهية المركبة والاستعداء السافر على مبادئ الدين، واستنقاص الفكر الإسلامي وازدراء رموزه استدعت الذاكرة موقف المستشرقين من رسول الإسلام ﷺ وقلت في نفسي هؤلاء هم المستشرقون الجدد، وعلينا الرد على جميع المستشرقين القدامى الذين هاجموا الرسول ﷺ عن علم واسع و ذكاء وافر ومنهج محكم وإحاطة بالتراث الإسلامي، والمستشرقين المصريين المعاصرين الذين ركبوا الموجة، وصفقوا مع المصفقين ورقصوا مع الراقصين وانضموا إلى ركب المنافقين الانتهازيين[1]. وآذوا أسماعنا بافتراءاتهم، ومزاعمهم الكاذبة، وتفسيراتهم المتعسفة وتخريجاتهم المغرضة وهجومهم على الإسلام والمسلمين. فهؤلاء ليسوا بعلماء بل " كالغثاء يطفو على الماء، فلا تُسمهم إلا بالحملة الرواةِ، وادعُهُم زَوامِل الكتابِ والدّواةِ " على ما يقول الزمخشري[2].

---

(١) قررت الأوقاف المصرية منع رفع الأذان بواسطة مكبرات الصوت، (يوليو ٢٠١٦) وخرج أحد المحسوبين على الدعاة يصف صوت المؤذن بنهيق الحمار. ولاشك أن هذا تصرف أحمق لأن الأذان ينبه المسلم لأداء فريضة الصلاة، ثم إن شوارعنا تضج بالهرج والمرج والضوضاء ونحن المصريين نفتقد فضيلة الكلام بصوت خفيض.، ثم إننا إذا نظرنا نظرة محايدة لوجدنا أن أجراس الكنائس هي المقلقة والمزعجة، فهل يستطيع الوزير الهمام أن يمنع أجراس الكنائس. من المؤكد لا يستطيع وإلا وضعوه على الصليب. عظة وعبرة لمن يجرؤ أن يتكلم عن تصرفات الكنيسة.وسلوك القساوسة.

(٢) أطواق الذهب، تحقيق أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة القاهرة، ص ١٢٠ (زوامل جمع زاملة وهي الناقة) ويقول: ما لعلماء السوء جمعوا عزائم الشرع ودونوها، ثم رخصوا فيها لأمراء السوء وهونوها، ليتهم إذ لم يرعوا شروطها لم يعوها، إنما حفظوا وعلقوا وحلقوا، ليقمروا المال ويفقروا الأيتام .(أطواق الذهب ص ١٢١).

" إن المؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته وموازينه من الناس حتى يأسى على تقدير الناس، إنما يستمدها من رب الناس وهو حسبه وكافيه، إنه لا يستمدها من شهوات الخلق حتى يتأرجح مع شهوات الخلق؛ إنما يستمدها من ميزان الحق الثابت الذي لا يتأرجح ولا يميل، إنه لا يتلقاها من خلال العالم الفاني ، إنما تنبثق من خلال ضميره من ينابيع الوجود، فأنى يجد في نفسه وهناً، أو يجد في قلبه حزنا، وهو موصول برب الناس وميزان الحق وينابيع الوجود ؟.

إنه على الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وليكن للضلال سلطانه، وليكن له هيله وهيلمانه، ولتكن معه جموعه وجماهيره، إن هذا لا يغير من الحق شيئا، إنه على الحق وليس بعد الحق إلا الضلال "(١).

على أن يوم الحساب قادم لا محالة، وأقرب مما يتصور هؤلاء الفتانون المغرضون؛ عبدة الدرهم والدينار، قراصنة الفكر وملأ فرعون، الذين باعوا ضمائرهم وتاريخهم العلمي في سبيل كرسي بائر ومنصب داثر وعرض زائل، لا نقصد حساب الآخرة فهذا أمر لا نقاش فيه ولا جدال، فنحن جميعا ذاهبون إلى الله، وعنده الجزاء العادل ، ولكن نقصد في هذه الحياة الدنيا، فلا يُمْكِن هؤلاء القتلة الفجرة أن يفلتوا من عقاب الدنيا، ويتركهم الله بلا قصاص، اقتصاص عادل قادر قاهر، ويشف صدور قوم مؤمنين.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

[آل عمران: ١٩٧]

٣ - الحقيقة المؤكدة التي لا تقبل الجدل من المؤمن صادق الإيمان أن الكتابة عن الرسول ﷺ تسكب الطمأنينة في النفس وتسري روحا من النشوة الخفية في كيان الإنسان، وراحة داخلية تدعو للتفاؤل بقرب النصر على الرغم مما يحيط بنا من هوان وعذاب ويأس ،

(١) سيد قطب: معالم في الطريق، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٨٧

وفيها أيضا سلوى عن الأحزان التي تعيشها المنطقة العربية ومنها مصر في أزمتها المعاصرة وتفريج عن الهموم التي تلم بالأمة وتضرب خاصرتها وقلبها النابض فنراها جريحة تتقلب في بحر من الدماء والأشلاء. إن الكتابة عن الرسول ﷺ بلسم شاف للنفوس الحزينة، وتحرر للروح من أسر الجسد وشوائب المادة ورغبات النفس وانعتاق من نفاق هذا العالم المادي وصعود إلى أعلى في معراج من الأنوار والفيوضات الربانية ، وتمثُل لسيرته العطرة ونضاله المستمر وكفاحه العظيم وجهاده الدائم من أجل انتشال البشرية من سقوطها المريع في حمأة الرذيلة والفساد والعفن .

أكتب هذه السطور بنية خالصة وعاطفة مشبوبة وصدق في التوجه و حماس زائد وإرادة قوية وعزيمة لا تلين، بعد خبرة السنين، ، خبرت الحياة وخضت تجارب الأيام وتقلبت بين النظريات السياسية والمذاهب الفكرية والمدارس الفلسفية حتى وصلت إلى شاطئ الأمان وبر الإيمان الصادق، والوقوف على أرض صلبه، أضف إلى ذلك اعتقادا في سلامة منهج الإسلام لشفاء الحضارة المعاصرة من مشكلاتها العويصة وأمراضها المزمنة التي نشأت عن انحرافها عن هذا المنهج السليم، واقتناعا بقواعده الكلية وخريطته العريضة التي وضعها صاحب الرسالة الخالدة لإنقاذ البشرية من الوهدة التي سقطت فيها، ومازالت تتقلب في أوحال الرذيلة ودروب النفاق وأطماع النفس الأمارة بالسوء التي لا تنظر إلا للحظة التي تعيشها دون أن تعتقد أن وراء ذلك يوم طويل وحساب عسير ومحاكمة عادلة.

كتبت هذا الكتاب، تأسيا بمئات من الكتاب في هذا المضمار بل آلاف ، الذين شمروا عن سواعد الجد وعرضوا حياة الرسولﷺ نقية من كل شائبة، صافية من كل كدر وتصدوا لادعاءات المستشرقين، وتوقفوا أمام هجومهم وافتراءاتهم وخيالاتهم التهويمية وتصوراتهم المريضة وموروثهم العدائي، وفندوها بالدليل العلمي والحجة القاطعة، وكذلك من لف لفهم من المفكرين العرب الذين انخرطوا في حملتهم ثم أبصروا الطريق المستقيم وثابوا لرشدهم وأعلنوا عودتهم واعترفوا بخطئهم وفي مقدمتهم الدكتور منصور فهمي(١٨٨٦ –

١٩٥٩) عميد آداب القاهرة.[١] وإسماعيل مظهر (١٨٩١ - ١٩٦٢) صاحب مجلة العصور التي سخرها لمهاجمة رسول الإسلام والمسلمين.[٢] ولا مانع أن نضيف لهم طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) الذي عدل عما سطره في كتابيه الشعر الجاهلي ومستقبل الثقافة في مصر، وكتب لنا على هامش السيرة ومرآة الإسلام والفتنة الكبرى.

٤ - ليس من هدي قرآننا وإرشاداته، ولا من تعاليم رسولنا ونصائحه، ولا من أخلاقنا الإسلامية وآدابه، ولا من موازين الحق؛ أن ننكر جهود المستشرقين حول إبداع علماء المسلمين في الحضارة الإسلامية بعامة[٣]، وكتاباتهم حول شخصية الرسول ﷺ بما لها وعليها من وجهة نظرهم بخاصة، ودورهم في تعريف الأوربيين بشخصيته وسيرته وتعبده في غار حراء وعزلته الاختيارية و عبادته المتواصلة وتوجهه إلى الله رب العالمين، وحقيقة الوحي ومبادئ الإسلام وأبعاد جهاده في سبيل نشر الإسلام، بصرف النظر عن بعض الهنات والانحرافات والاتهامات والنزغات التي لا يخلو منها كتاب من كتبهم، حتى من نعدهم عادلين منصفين موضوعيين منهم مثل؛ توماس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١) و آدم متز (١٨٦٩ - ١٩١٧) وتوماس أرنولد (١٨٦٤ - ١٩٣٠) وجوستاف لوبون (١٨٤١- ١٩٣١) و آسين بلاثيوس (١٨٧١ - ١٩٤٤)، وجوزيف هل (١٨٧٥ - ١٩٥٠) ورينولد

---

(١) من مواليد مدينة طلخا دقهلية، دكتوراه في الفلسفة من السوربون بفرنسا، تولى عمادة آداب القاهرة ومدير لدار الكتب ومدير لجامعة الإسكندرية.، ترجمته في الأعلام ج ٧ / ٣٠٢ .

(٢) ترجمته في الأعلام ج ١ / ٣٢٧.

(٣)- لا يجوز نكران قيمة إنتاج المستشرقين العلمية، بل نراه أحيانا يستحق كل التقدير لما يتسم بالإضافة إلى طابعه العلمي، بطابع أخلاقي ممتاز لا يمكن نكرانه كشهادة نزيهة من طرف شهود نعرف قيمتهم كعلماء. (مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩، ص ٤٢) (ويقول حسني الخربوطلي: تتميز مناهج المستشرقين بالجد وبالدأب على البحث والتعمق والتحليل والاستقراء. (المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٨ ص ١٢٣).

نيكلسون (١٨٦٨ - ١٩٥٤)، فهؤلاء جميعا سنجد عندهم جملة من الأفكار ووجهات نظر لا نوافق عليها البتة ، وآراء منحرفة من منظور الإسلام.وفي ميزان الحق والبرهان.

ومع ذلك لا نغمط حق هؤلاء المستشرقين في كتاباتهم حول الرسول ﷺ حتى لو لم يكن لهم حسنة واحدة إلا أنهم حركوا همتنا، وشحذوا إرادتنا، وبعثوا الغيرة في نفوسنا أن نقرأ ما كتبوه ونرد عليهم ردا علميا بعيدا عن العصبية و الانفعال، أضف إلى ذلك أنهم عرفوا أبناء وطنهم بسيرة الرسول فأقبلوا يقرؤون لمزيد من الفهم والدراسة والرغبة في الاطلاع على دعوة الدين الذي جاء بعد المسيحية ليتعرفوا على مبادئه، بعد أن توطد في وجدانهم أن المسيحية هي آخر الديانات.

هذا يتجلى أعظم ما يكون في الكتابات التي كتبت حول سيرة الرسول ﷺ وأطوار حياته وزيجاته ومبادئ الإسلام ودوره في نشره وعلاقاته بالدول الكبرى المحيطة بالعرب أعني رسائله إلى كسرى وقيصر والمقوقس حاكم مصر، ويؤكد المؤرخون أن هذه الكتابات بلغت أكثر من ثلاثة آلاف كتاب، ومن يقرأ كتاب "محمد عند علماء الغرب " يستطيع أن يدرك ذلك ويلمسه لمس اليد فقد أورد صاحب الكتاب شهادات أكثر من ثلاث مئة وخمسين من القادة العسكريين والأدباء والشعراء والفلاسفة وعلماء الحياة والكيمياء والطبيعة، الذين درسوا سيرة الرسول ﷺ دراسة دقيقة ، وتتبعوا سيرته بدقة يحسدون عليها وصبر جاهد وجهد محمود، وقد أشادوا جميعا بنقاء سريرته وسمو أخلاقه وعظمة سلوكه، وسعة أفقه وذكائه الاجتماعي، ورقة مشاعره ومعاملته الإنسانية مع ألد أعدائه اليهود والمنافقين والمشركين.

وبعض هؤلاء الكتاب والأدباء أقر بنبوته ونزول الوحي عليه واعترف بالرسالة والرسول ﷺ، وبعضهم الآخر نظر إليه على أنه بطل من أبطال التاريخ المعدودين، واعترف بعبقريته اليتيمة وعقليته الفذة وبطولته المشهودة وحنكته السياسية وكماله الإنساني.

لعل من نافلة القول التنبيه على أن المتأمل في كتب المستشرقين وأمعن النظر في سطورها وفي قراءة الكلمات التي تحتها كلمات (١)، يشعر لأول وهلة أنه يمشي في حديقة غناء وارفة الظلال رائعة الزهور محملة بالثمار مفعمة بعبير فواح ينتشر منه عبق المسك والفل والياسمين، يأسر النفس الهائمة ويجلو همومها، وحينما يمضي خطوة أخرى في تفحص أركانها ويتملى جمالها ويحدق في حسنها، ثم يدقق في أنحائها كأنه عالم نباتات، يرى الأشجار الذابلة والجذور الجافة والأغصان المائلة والأوراق الساقطة والثمار المعطنة، وكلما أوغل في اختراق أرضها كأنه "حي بن يقظان " في جزيرته، يريد أن يفهم كل ما حوله، ويتأكد من أنها حديقة فعلا كما رآها أول مرة ، يرى بعين بصره و بصيرته أن الحديقة تحولت إلى صحراء جرداء مليئة بالأشواك ، وثمار الحنظل، وتقابله عواصف متربة، ورياح عنيفة وتزكم أنفه روائح كريهة فيجري هنا وهناك يبحث عن مخرج من هذا السرداب المظلم الذي دخله بطريق الخطأ.

الحقيقة أن القارئ لكتب المستشرقين ممكن أن تنتابه هذه الأطوار الشعورية، والخواطر النفسية المتباينة والمشاعر المتناقضة؛ مابين الفرح والسرور والتهليل قد يصل إلى درجة التصفيق، ثم في الحالة الثانية العبوس والتقطيب والكآبة، أما في الحالة الثالثة يغمرك الغضب والاستفزاز والهياج، فتقوم منفعلا تبحث عن أقرب مدفأة تلقي فيها الكتاب، أو أقرب نافذة لتقذفه بكل قوتك في الفضاء الخارجي (٢).

---

(١) كتب أستاذنا زكي نجيب محمود مقالة بعنوان " كلمات تحت كلمات "يقصد منها أن بعض الكلمات تحمل في باطنها معنى مغاير للمعنى الظاهر ، لذلك ، تحتاج أن نستبطن غرضها ونتوقف أمامها بالتأمل والتحليل. (قيم من التراث ، دار الشروق، القاهرة، ص ٢٠١).

(٢) لعل أفضل تصوير لكتب بعض المستشرقين ما قاله السيد المسيح عن الكتبة المرائين:إنها مثل القبور المطلية تبدو جميلة زاهية من الخارج و من الداخل تحوي العظام النخرة والروائح الكريهة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

٥ - لقد حاولت أن أكون موضوعيا قدر الطاقة البشرية، و أنخلع قدر ما أستطيع من معتقداتي السابقة، ونشأتي الإسلامية وتربيتي الدينية ووسطي الاجتماعي الضاغط عليَ، وأتحرر بكل جهدي وما وسعتني إرادتي من ثقافتي التي تشربتها طوال رحلة حياتي الثقافية وتكويني العلمي وغلب عليها الطابع الديني، وأقف موقفا محايدا من سيرة الرسول ﷺ وأنظر إليه كرجل من ملايين البشر، وأُقيّم مواقفه برؤية موضوعية، ونظرة محايدة، وأضع مواقفه وأقواله وأفعاله وسلوكه اليومي، وتصرفاته مع الآخرين، تحت مجهر العقل الذي يزن الأشياء، والاستدلال المنطقي الذي يقره العقلاء، وما تقبله الفطرة النقية التي ترفض الإغواء، وأحاكمه بمعيار العقل السليم الذي هو قسمة مشتركة بين البشر.

فإذا كنا نطالب المستشرقين بالموضوعية، والعدل والإنصاف، لذلك حاولت تطبيق المنهج العلمي على مشروعي في دفاعي عن الرسول ﷺ، واستبعدت مشاعري الذاتية وعواطفي الجياشة، وحبه المتغلغل في أعماقي، وميلي الجارف تجاهه،

وأفرغ من ذهني قدر ما أستطيع ، صورة الرسول ﷺ الموصول بالسماء أو الشخصية المقدسة، وأنظر لشخصيته و لكل ما يصدر عنه أنني أحاكم " بشر " يصيب ويخطئ، أو أحد من الناس " وأزن أعماله وأقواله بمعيار الإنسان الذي فطره الله على حب الخير والعدل والنور وينفر من الشر والظلم والظلام.

من قلب هذا المنهج العلمي الذي يعول على الاستدلال العقلي والموضوعية في التحليل، والدقة في التعبير واستخدام المفردات الدقيقة التي تصور القضية كما هي في الواقع دون تزيد أو إضافة، والبعد عن الأسلوب الإنشائي الخطابي الدعائي المتكلف ، وكذلك مراجعة صدق النتائج التي توصلنا إليها وإعادة النظر والتأمل فيها وتطبيق قواعد المنهج النقدي، و التعويل على تجارب البشرية الصادقة ومبادئها التي اتفقت عليها؛ مثل حب الحق والنفور من الكذب ومدح الكريم وذم البخيل، والفخر بقيمة الشجاعة والحط من شأن الجبن والجبناء، وتحقيق العدل والإنصاف وكراهية الظلم والطغيان ، وتحليل كل موقف من

المواقف أو عبارة أو جملة أو اتهام إلى عناصره الجزئية ومفرداته البسيطة لوضع اليد على نقطة الخلاف ثم إعادة تركيب القضية مرة أخرى للتأكد من أن هذه العناصر هي المؤثرة في الظاهرة التي نتكلم عنها، والاتهام الذي قمنا بمناقشته، أو استدراك أي عامل نكون قد أغفلناه في أثناء النظر في الظاهرة .[١]

أقول من هذا المنطلق يأتي حواري مع المستشرقين ومناقشتهم مناقشة منصفة في جملة الاتهامات التي كالوها للرسول ﷺ، والمزاعم الطويلة التي رموه بها والغارة الفكرية التي صوبوها لسيرته وتاريخه ونضاله الديني ، والتي أسميها " عذاب المستشرقين " بل " عذابات المستشرقين " لأننا نشقى بهذه الاتهامات ونتألم شديد الألم منها؛ فترهق نفوسنا وتقض مضاجعنا وتؤرق ضمائرنا من هذا الفهم المعوج، وتنزل على رؤوسنا مثل قنابل إسرائيل التي كانت تمطرنا بها في حرب الاستنزاف في القصاصين وأبي صوير وصحراء الصالحية ووصلة اليوغسلاف، وقواعد الصواريخ التي كانت تحت الإنشاء (عام ٦٨: ١٩٦٩)[٢].

الشاهد يأتي ردي عليهم هينا لينا، توخيت فيه طرح الدليل بالدليل ، والحجة بالحجة. متسلحا بالصبر الجميل والنفس الطويل والخلق الكريم دون أي تعصب أو تشنج أو السماح لهم باستفزازي. وهي مستفزة ومستنفرة . مهما كانت رؤيتهم مناقضة لوجهة نظري.

---

(١) زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٤، ج٢ / ٣: ٣٦ .

(٢) في يوم (٢٣ مارس ٢٠١٦).طلب أحد أعضاء مجلس النواب المصري تشكيل وفد من عشرة أعضاء لزيارة الكنيست الإسرائيلي للاستفادة من تجربتهم الديمقراطية . هذا الكلام المزيل التافه دليل على الإفلاس السياسي والانحطاط الأخلاقي والتدهور الحضاري ، ونسى هذا العضو الفاشل عميل إسرائيل فاقد الذاكرة أن أول مجلس للنواب أنشئ في مصر عام ١٨٦٨، قبل إنشاء الكيان الإسرائيلي العنصري بأكثر من مائة عام فأي خبرة سوف نستفيد منهم، وهل نحن فقدنا الذاكرة، ومحونا تاريخنا وأسقطنا الحروب التي شنتها علينا إسرائيل في عام ١٩٤٨، و٥٦ ١٩، ١٩٦٧، ١٩٧٣، وتدميرها مدن القناة، ودخول شارون بيروت، وتدمير إسرائيل للمفاعل النووي العراقي وعدوانها على جنوب لبنان (٢٠٠٦)، زد على ذلك عدوانها المستمر على فلسطين في كل عام مرة. لاشك أن هذه الدعوة المشبوهة توضح رغبته في التطبيع مع إسرائيل ، وأول مظاهر ذلك سماح البنك المركزي المصري بإدراج " الشيكل " الإسرائيلي ضمن العملات المعتمدة.

معتمدا على معطيات قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

هذا المنهج العلمي نفسه بأسسه السابقة تحليت به حينما قمت بالرد عليهم في موقفهم من القرآن ، نعم حاولت أن أتقمص شخصية المستشرق الذي ينظر إلى النص أنه قطعة أدبية أو نص فلسفي أو وثيقة تاريخية أو قصيدة شعرية، مع استبعاد مسألة القدسية المترسبة في وجداني من أثر النشأة والتربية والثقافة.

وأضع نفسي مكانه متجردا من عوامل النشأة والميول الذاتية والقناعات المتجذرة في ذاكرتي وعقلي ووجداني، وأتعامل مع النص القرآني من الخارج ، كأنني باحث قد ولد في الغرب ليس له أدنى صلة بالرسول ﷺ وقرآنه، وأطالع الأخبار والحوادث والوقائع والقصص الواردة، بحيادية كاملة، ثم بعد التسلح بهذا المنهج الذي يحتاج إلى جهد جاهد وإرادة تفل الحديد، وصبر قريب من صبر أيوب، دخلت حلبة النقاش مع المستشرقين " والعذاب الذي يصبونه فوق رؤوسنا " والخلخلة الفكرية التي يهزون بها منظومتنا الدينية، وتناولت معظم ما طرحوه من قضايا، وكثيرا من الاتهامات التي سجلوها والشكوك التي أثاروها، وقمت بالرد عليها، معولا على الدليل العقلي، والاستدلال المنطقي، والبرهان الساطع، مستشهدا بآراء مستشرقين من بني جلدتهم الذين يناقضونهم في هذه المواقف حتى أظهر لهم تباين وجهة نظرهم واختلاف الرؤى في القضية الواحدة.

ولم أعتمد على الدليل النقلي؛ إلا في مواقف قليلة على حسب الضرورة، لأن جمهرة المستشرقين لا يؤمنون به، وحينما استشهدت به أخضعته للمناقشة والتأمل العميق والتحليل الدقيق والفحص والاستنباط.

٦ - أحيانا أتساءل - بيني وبين نفسي - لماذا البحث عن كتب المستشرقين في مظانها والعكوف على قراءتها والمعاناة في متابعة أفكارها وقضاياها؛ غثها وسمينها، إيجابياتها وسلبياتها لاسيما إذا كان يكمن في صفحات بعضها ما يؤذي مشاعرنا ويعكر مزاجنا ويرهق

أرواحنا بهجومها على قرآننا ورسولنا وإسلامنا، ولغتنا وتاريخنا وفلسفتنا وحتى تصوفنا، ثم المعاناة ثانية وتحمل المشاق في الرد عليهم، وربما يعن هذا السؤال لكثير من المتابعين لحركة الاستشراق، وكل سؤال مشروع مادام يظهر في أفق العقل وأعماق النفس، ويقلق الإنسان ويحير ضميره ويعذب وجدانه، ولا داع لمصادرة أي سؤال مادام يطرح قضية دينية أو تاريخية أو ميتافيزيقية، ولا شك أن هذه الأسئلة تحتاج إلى إجابة شافية، ورد مقنع .ونجتهد في الإجابة ونلخصها في الأفكار الآتية:

أ - لا غرو أن نقرر أن هؤلاء المستشرقين خلفوا لنا إنتاجا واسعا وأبدعوا في دراستهم لعلوم الحضارة الإسلامية، ويقال أنهم أنتجوا أكثر من ستين ألف كتاب ما بين مؤلف ومترجم ومحقق، ومادام هذا الإنتاج العلمي الغزير موجود ومتحقق في العالم الخارجي ومداره حول حضارتنا وهويتنا وشخصيتنا، فمن المنطق أن نطلع عليه ونقرأه ونحيط بأبعاده، ونفهم كيف يفكروا فينا وما حقيقة انطباعهم عن شخصية رسولنا ﷺ وقرآننا وإسلامنا. وما حقيقة رؤيتهم لنا ولحضارتنا.

ب ـ يترتب على القضية الأولى أن من الضرورة المنطقية والدينية، بل من البديهيات أن نرد على جمهرة المستشرقين ونديرمعهم حوارا واسعا، ونقاشا إيجابيا، وندافع عن ثوابت ديننا، وهويتنا، لتبيان الحقيقة وتصحيح المفهومات الخاطئة، والأفكار المغلوطة، وتبصرتهم بمواضع الأخطاء الشنيعة التي وقعوا فيها، وضعف مناهجهم في استيعاب أبعاد اللغة العربية، وعسر فهمهم لآيات القرآن الكريم، وإرشادهم إلى المصادر الأصلية التي يجب أن يغترفوا منها وينهلوا منها معالم الصواب ومواطن الحق. ثم عرض وجهة نظرنا، وحقيقة مبادئنا وقواعد ديننا، وعلوم حضارتنا.

ج - هذا الحوار المثمر، والجدل المحمود له ثماره الطيبة ونتائجه المثمرة، إذ نستطيع أن نصحح الأخطاء التي وقعوا فيها وتغيير أفكارهم من ناحية، ومن ناحية أخرى فهناك جمهرة واسعة منهم تقبلوا ذلك وراجعوا أفكارهم، بدليل أن عددا لا يستهان به قد أسلموا حينما تعرفوا على حقيقة رسالة الرسول ﷺ وجهاد ه الطويل في إرساء أسس العدالة الاجتماعية،

ومبادئ الشورى وقواعد السلام الإيجابي سلام الأقوياء - وليس سلام الاستسلام والاستخذاء - والإعلاء من قيمة الإنسان وكرامته بصرف النظر عن لونه وجنسه ودينه.

د - تحصين عقول شبابنا من هذه الأفكار السلبية التي تزعزع منظومتهم الدينية وتبث الشك في نفوسهم، وتتركهم في تردد وحيرة ويصبحوا في مهب الغزو الثقافي مثل الأشجار التي تعصف بها العواصف العنيفة، لا شك أن هذه الردود العلمية تزيل اللبس من نفوس هؤلاء الشباب ، وتقودهم إلى الطريق الصحيح، وتقوي عزائمهم وتشد أزرهم وتستل كل حيرة أو شك من ضمائرهم وعقولهم. وقديما أوصى إخوان الصفاء بالشباب الغض لأن نفوسهم طاهرة وقلوبهم نقية وعقولهم مثل الصفحة البيضاء تستطيع أن تخط فيها ما تشاء.

٧- هذه رحلة فكرية أو منازلة عقلية ومصارعة فلسفية أو حرب فكرية مع المستشرقين وأعوانهم من المستشرقين الجدد الذين نزلوا حلبة الصراع للنيل من الإسلام ورسوله ﷺ والكيد لهما والتقليل من شأنهما في وجدان الشعوب المسلمة، نُروح بها عن النفس الحزينة ونخفف من عذابات القلب المكلوم والروح الهائمة، التي تعاني من الهموم التي أحاطت بأوطاننا والمصائب التي حلت بمصر المحروسة وأخواتها العربيات المسلمات، فإذا كنا لا نستطيع أن نغير هذه الأوضاع المأساوية باليد، وندفع هذه الحوادث المرعبة التي نزلت بوادي النيل وحصدت أرواح آلاف من شبابه الغض وعلمائه المتميزين وصفوة رجاله النابهين وخلاصة علمائه في كافة المجالات، وامتدت يد الغدر الطويلة الباطشة الغادرة فأودعتهم بطون السجون والمعتقلات التي هي أسوأ من "المطبق "[1]، فلا أقل من أن نغير

---

(١) المطبق: سجن رهيب تحت الأرض، اشتهر في عصر الدولة العباسية، وبخاصة في عصر المهدي، وهو عبارة عن حجرة مظلمة تحت طبقات الأرض يوضع فيه المساجين ومعه الحيات والثعابين، ومن يخرج منه حيا يخرج أعمى تماما، يشبه الإنسان البدائي لا يصلح أن يمارس حياته ثانية، هذا إذا خرج حيا من أصله.

راجع عبود الشالجي (١٩١١ - ١٩٩٦): موسوعة العذاب، الدار العربية للموسوعات، بيروت، بدون، وهو من أطرف الكتب التي قرأتها في حياتي، وأشدها غرابة في موضوعها العجيب، حيث يقوم المؤلف بدراسة استقرائية لأنواع العذاب الذي كان ينزله الخلفاء والأمراء والوزراء بالمعارضين لسياستهم، ربما تعلمها إبليس وإخوانه من هؤلاء الذين يدعون أنهم ينتسبون لجنس البشر، يكفي أن نعلم أنهم يضعون المعارض في قدر مغلي من الزيت، أو يسلخون جسمه وهو حي، أو يقطعون جسمه عضوا عضوا ثم يحرقونه بالنار. راجع أيضا =

هذا المنكر الفظيع بالكلمة الصادقة والقول الحسن والإقناع العقلي، تطبيقا لحديث الرسول ﷺ: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان"، وإعلان تطبيق مبدأ الولاية والبراءة من الخونة والانتهازيين والشيوعيين وعملاء إسرائيل (١)، فلعل الجيل القادم ينهض بما عجزنا القيام به، ويحقق الثورة الخضراء على امتداد وادي النيل وتكون ثورة شاملة تعيد لمصر وأخواتها العربيات المسلمات، وجهها المشرق، وبسمتها المتألقة وضحكتها المجلجلة في الفضاء، يسترد وجهها هذا الألق البديع؛ الذي يبدو من بعيد ويشع نورا وبهجة وعظمة وصناعة وزراعة وتجارة، وحبا وودا وتعاونا ورقة ورحمة وعدلا وصدقا وخيرا ونهضة شاملة، تعيد الحضارة الإسلامية إلى مكانتها كما كانت في القرون الأولى .

لقد عانيت معاناة شديدة في كتابة هذا البحث ونحن نسمع اتهامات المستشرقين وتجديفهم على قرآننا ورسولنا ﷺ، وتحملت المشاق والمصاعب والشدائد والآلام الجسمية والنفسية لتوصيل الرسالة الصحيحة إلى شباب اليوم، كما تحمل:الشاب ميشيل ستروجوف في " قصة رسول القيصر "للكاتب الفرنسي جول فيرن (١٨٢٨- ١٩٠٩)(٢) المتاعب والأهوال لتوصيل رسالته.وقد بذلت غاية جهدي وقدر استطاعتي ومنتهى وسعي، ولم

= ما قاساه شيخنا محمد الغزالي في سجون عبد الناصر ومعاناته الرهيبة في كتابه: قذائف الحق، نهضة مصر، وكذلك ما شرحته زينب الغزالي في كتابها أيام من حياتي، وأحمد رائف عن أصناف العذاب في السجن الحربي وسجل ذلك في كتابه: البوابة السوداء، الزهراء للإعلام، القاهرة.وسراديب الشيطان.

(١) قام وزير خارجية مصر بزيارة إسرائيل يوم ١١ /يوليو / ٢٠١٦، واستقبله نتنياهو رئيس وزراء الكيان الصهيوني في القدس، كأنما يعترف باحتلال إسرائيل لها، وقال في كلمته، أنه يحمل تحيات الشعب المصري له زورا وبهتانا، وأقول له كمواطن مصري أنني لا أعترف أصلا بهذا الكيان الغاصب الذي احتل أرضنا، وأعارض الزيارة معارضة تامة ومعي ملايين من الشعب المصري، الذين يرفضون أي نوع من التطبيع مع هذا العدو النازي، وبعد أكثر من أربعين سنة لا أنسى ما أنزله هذا العدو بنا وبمدننا في قناة السويس من قتل وتشريد ودمار وتدمير، ولا يغيب عن ذاكرتي ما حييت الغارات التي كان يشنها علينا ليلا ونهارا طوال سنوات الحرب (٦٧ - ١٩٧٣).

(٢) مازلت أتذكر أحداث القصة حينما قرأتها في شبابي في طبعة كتابي التي كان يصدرها حلمي مراد، وقد اشتهر جول فيرن بسعة أفق وخيال خصب وأسلوب رومانسي وقد تنبأ في قصصه باختراعات تمت فيما بعد ذلك.

أدخر جهدا إلا بذلته لكنه في نهاية الأمر عمل بشري قابل للنقصان، ومعرض للنقد والمؤاخذة ، ولا يخطر على بالي القرب من الكمال ناهيك عن الوصول إلى الكمال أصلا.

وقد عبر أبو حيان عن هذه الحقيقة الخالدة بأجمل أسلوب وأروع تعبير وأرقى سبك في قوله: "ولابد من نقصان يعتري الإنسان في كل زمان ومكان، كيلا يستبد باستطاعته ولا يغتر بكماله، ولا يختال في مشيته ولا يتهكم في لفظه، ولا يتحكم على ربه ولا يعدو على بني جنسه، ولئلا يعري من مذكر بالله، وزاجر من أمر الله، وداع إلى ما عند الله، ومحذر من عقاب الله ومرغب في ثواب الله، وليعلم أن الذي امتحنه بالنقص هو الذي يملك الزيادة، وأن الذي ضربه بالبلاء هو الذي ضمن له الجنة" (١).

٨ - هكذا تمضي بنا الحياة، ما بين شد وجذب ونجاح وإخفاق وأفراح وأحزان، وسعادة وآلام، والإنسان وهو يصعد درجات السلم يدرك في كل درجة أنه كاد يصل إلى نهاية الشوط، أو يتابع خطواته في مشوار الحياة يشعر شعورا غامرا أن نهاية الرحلة أوشكت بوادرها وملامحها تظهر في الأفق القريب، ولا تحتاج إلى مجهود فكري للتيقن من ذلك، ويصبح مهيئا نفسيا وشعوريا وعقليا " ومتوقعا ما لابد من حلوله ؛ فشمس العمر على شفا، وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أفول." (٢) على حد تعبير أبي حيان التوحيدي.

وإذا كان في العمر بقية، ووهبنا الله مزيدا من فيضه ورحمته، وأفاض علينا من كرمه سوف نمضي في طريقنا ننافح عن الفكر الإسلامي وننحاز إلى الحق والعدل والإعلاء من كرامة الإنسان مهما كان من وعورة هذا الطريق فهو محفوف بالمخاطر والمصائب، ويحتاج إلى عزيمة قوية فالضريبة غالية وتكاليفها مرهقة في هذه المرحلة من العمر؛ "اللّهم لا تدخلنا في تجربة مع الأشرار ".

---

(١) أبو حيان التوحيدي: ثمرات العلوم، تحقيق، أنور محمود زناتي، نينوى، دمشق، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩.

(٢) الصداقة والصديق ص ٥.

من الواجب علينا تسديد الدين لأصدقائنا وزملائنا الذين عاونونا ولو بكلمة طيبة ونحن نمضي في سطور هذا البحث، ونقدم لهم الشكر الجزيل، والمدح العظيم، زميلي وصديقي الدكتور جمال عبد العزيز أحمد أستاذ النحو بدار العلوم بالقاهرة، والمستشار الفني لمعالي وزير الشؤون القانونية بسلطنة عمان، وتلميذي النجيب محمد بن سعيد الحارثي خريج كلية العلوم الشرعية بمسقط، شاعر وباحث في تاريخ الأدب العربي ، الذي راجع البحث مراجعة لغوية ونحوية دقيقة، وكذلك الأخ الداعية هشام الغنيمي.

أما الابن العزيز كمال بن مرهون السيابي أمين مكتبة كلية العلوم الشرعية، فلا أوفيه حقه من الشكر والتقدير؛ لأنه قام بدور عظيم في توفير المصادر المطلوبة للبحث والمراجع الثمينة، ليس من مكتبة الكلية فحسب ولكن من الشبكة العالمية، وكلما وجد مصدرا يتصل بالبحث، أو كتابا لأحد المستشرقين قام بتجميعهم وتسليمهم لي، الحقيقة أنه عاونني معاونة إيجابية فبارك الله فيه وسدد خطاه.

في ختام هذه المقدمة أختمها بشكر الله؛ اللّٰهم لك الحمد والشكر على نعمك التي لا تعد ولا تحصى، وكرمك الذي أفضته علينا، وعطاياك التي أغدقتها ، ومنحتها لنا هبة من خيراتك العميمة وكنوزك التي لا ينفد معينها ولا ينضب فورانها ولا ينتهي عطاؤها.

اللّٰهم لك الحمد والشكر على نعمة الصحة وقوة البدن ونور العين وراحة البال وهدوء الخاطر وعدالة الضمير وطمأنينة النفس وسلامة الصدر وسمو الروح وتدني المطامع والزهد في المناصب، والانصراف عن زخرف الدنيا وإغراءاتها التي لا تنتهي، والإعراض عن مطالبها التي لا تنقضي، والرضا بما وهبته لنا فهو كثير، وأقل من هذا كثير، وما منحته كرما منك سبحانك، وعطفا على عبادك المؤمنين فهو كنز لا ينفد.

اللّٰهم لك الحمد والشكر، في كل زمان وكل مكان، وفي كل الأحوال؛ في اليسر والعسر والسراء والضراء، والأفراح والأحزان؛ كل عطاياك هي منحة سابغة وخير مطلق ورحمة كاملة وبركة شاملة، وما نعتقد أنه ضُر ألَم بنا أو حزن أحاط بدنيانا أو شر أصابنا أو حزن

غشي حياتنا، هو خير مستتر لا ندرك مغزاه، وكل نازلة نزلت بنا هي رحمة ثاوية في رحم المستقبل؛ لكننا لا نستطيع أن نسبر غورها ونستوعب مقاصدها، والزمن كفيل بتعليمنا وإرشادنا وتهذيبنا وتفهيمنا أن مشيئتك بنا كانت هي فصل الخطاب وعين الصواب والحق المطلق والخير العميم.

الحمد لله رب العالين، إنه نعم المولى ونعم النصير.

مدينة روي الساحرة - مسقط العامرة

محمد عبد الرحيم الزيني

الثلاثاء ٢٥ ذو الحجة ١٤٣٧ هـ

٢٧ سبتمبر ٢٠١٦



الفصل الأول

مدخل إلى حركة الاستشراق

أولا: نشوء الحضارات وإبداعاتها

شاءت الإرادة الإلهية أن يكون الإنسان أكرم مخلوق وخليفة الله في الأرض؛لذلك أعده إعدادا خاصا وزوده بالمواهب العظيمة والطاقات الكامنة والملكات المتعددة والإرادة القوية والعقل المبدع، حتى يواجه الصعاب والكوارث ويتغلب على كل المشكلات التي ستقف عقبة كؤود في مواجهة رحلته الوجودية المصيرية، ويكافح كفاح الأبطال الصناديد لتحقيق آماله وأحلامه وطموحاته،وفي الوقت نفسه؛ سخر له أجناس الوجود وأنواع الطبيعة وعناصر الكون، ويسر له سبل الاستفادة منها والسيطرة عليها والتكيف معها في أضعف الأحوال .

وقد بدأت رحلة الإنسان على الأرض رحلة بدائية؛يعيش عيشة أشبه بحياة الحيوانات العجماء، واستطاع أن يتنقل من طور إلى طور ومن عصر إلى عصر، وكانت مواهبه الفذة وقوته الجسمية وملكاته العقلية تساعده في الارتقاء في سلم الرقي فقد كان اكتشافه للنار ثم الكتابة طورا متقدما من أطوار المدنية، ومن ثم انتقل من مرحلة البداوة إلى مرحلة الرعي ثم الزراعة وكان اكتشافه للفحم والكهرباء مرحلة متوثبة متقدمة في سلم الصعود إلى أوج المدنية، وقد واكب كل ذلك إنشاءات وإبداعات واختراعات واكتشافات وتقدم في كل مجالات الحياة العمرانية والسياسية والفكرية والاجتماعية والعلمية .

هنا يتكلم التاريخ عن نشوء الحضارات بدايتها ونهضتها وصعودها ورقيها ثم تدهورها وسقوطها، فنقرأ عن الحضارة الفرعونية والفارسية والهندية واليونانية والرومانية والإسلامية.

هذه الحضارات تبادلت المواقع والتأثير والتأثر والأخذ والعطاء، وهذه هي جدلية

التقدم ومعالم المدنية وسنن الحضارة، فقد اغترفت الحضارة اليونانية من الحضارة الفرعونية كثيرا من الأفكار وتأثروا بفلسفتهم الدينية وعلوم الفلك والرياضيات والطبيعة ليس هذا فحسب بل إن مشاهدات طاليس (٦٤٣- ٥٥٠ ق .م) وفيثاغورث (٤٨٧ ق.م) وأفلاطون (٣٤٩ ق .م) في مصر سكبت في عقولهم أراء عميقة لفلسفتهم، ثم سادت الفلسفة اليونانية وأبدعت لنا المذاهب الفلسفية وآرائها المبتكرة وأفكارها الطريفة بها لها وعليها،وفنونها في العمارة وتماثيلها العارية التي تعبر عن وثنية اليونان، ثم انتقلت من طور الإبداع والابتكار والربيع اليانع إلى مرحلة خريف الفكر والسقوط، فورثتها الحضارة الرومانية واقتبست من اليونانية ما وسعها الاقتباس وغذت نفسها من تراثها وفلسفتها وأضافت إليها من إبداعاتها ونتاجها لاسيما فيما يتعلق بالقانون والعمارة .

وغلب على ديانتها العناية بالشعائر أكثر من عنايتها بالعقيدة[١].

وحينما كانت الحضارة الرومانية في أوج عظمتها وجبروتها، انبلج فجر الإسلام في شبه الجزيرة العربية وأشرقت شمسه المضيئة، وحينما نهض علماء الإسلام بتأسيس قواعد حضارتهم في جانبها العقلي والروحي والمادي؛ لم يستنكفوا أن يزاوجوا بين هذه الجوانب فأخذوا من اليونان الفلسفة،ومن الهند وفارس بعض أبعاد التصوف. هذا زد على ذلك دستورهم الأصلي وهو القرآن الذي يضم هذه الجوانب كافة .

وبعد أن اكتملت مقومات هذه الحضارة علوما وآدابا وفنونا وعمارة أشرقت على أوربة التي التفتت إلى كنوز هذه الحضارة وتراثها في العلوم الدينية والعقلية وعكفت على الاغتراف منها قراءة وترجمة ونقلا وفهما وتحليلا واقتباساً .

وقد شاءت الإرادة الإلهية أن يكون الإسلام خاتم الرسالات، وآخر بشارة و إنذار من السماء إلى الأرض .لذلك اتسمت شريعة الإسلام بالكمال والشمول، ومخاطبة العقل وتوجيه الخطاب إليه على وجه التحديد وإيقاظ إشعاعاته،وعولت على الدليل والبرهان وجاءت تخاطب الإنسان بشقيه الحسي والروحي،المادي والعقلي، في كل زمان وحيثما كان، وطرحت مجموعة من القواعد الكلية تغطي مسيرة الإنسان الوجودية وتنظم حياته على مستوى العقيدة

(١) هاميلتون جيب وعادل العوا: علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، ترجمة عادل العوا، عويدات، بيروت، ١٩٧٧، ص ٧

أولا؛ فأعلت من عقيدة التوحيد وظلت ترسخ هذا المفهوم في عقله وقلبه فالله واحد لا شريك له، له الملك والملكوت، هذه العقيدة هي التي كافح من أجلها الرسول حياته كلها ، وكذلك في ميدان التشريع طرحت منهجا شاملا،ودستورا متكاملا، ينظم حياة البشرية إذا أرادت إسعاد نفسها وتحقيق الحياة الإنسانية التي تتفق مع تكريم الله للإنسان، هذه القواعد تشمل حياة الإنسان منذ ميلاده حتى وفاته مرورا بكل أطوار حياته؛ أي بدءً من اختيار الزوج لزوجته وميلاد الطفل واختيار أحسن الأسماء له حتى شروط تغسيله وتكفينه ووضعه في قبره . مرورا بعلاقته مع الله ووالديه ومحيطه الاجتماعي ومجتمعه وأمته ومع الآخر سواء اتفق معه في دينه أم لم يتفق .

لقد وضع الإسلام قواعد كلية في مجال السياسة ونظام الحكم والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والفكر والعلم والتربية والعمل وكل ما يساعد على رقي الإنسان ويفضي إلى تقدمه ويأخذ بيده إلى ارتقاء سلم المدنية والفوز والنجاح في عالم الشهادة؛ فحث على طلب العلم في كل مظانه؛سواء أكان العلم المتصل بالدين أو بشؤون الحياة الدنيا،وأعلى من شأن العلماء ودورهم في تشييد نهضة الأمة وقيادتها إلى مدارج العز والتقدم، وكذلك ركز تركيزا واضحا على عنصر العمل في بناء المجتمع المسلم القوي، ورفض مقولات المجتمع القرشي الذي يحتقر العمل اليدوي ويعده من مهام العبيد، ويترفع السادة الأرستقراطية عن ذلك ليس هذا فحسب بل إن شعراء العرب عدوا مقياس الجمال عند المرأة هي الممتلئة الكسولة التي لا تعمل وتظل نائمة حتى الضحى مخضبة البنان، فجاء الإسلام يمحوا هذه الأفكار السلبية والعادات الهدامة والاستعلاء العنصري، ويرسي قواعد جديدة لنهضة مجتمعه وأمته؛ فقرر أن العمل قمة العبادة، ومدح من بات كالا من عمل يده،وأن خدمة الجماعة مقدمة على المصلحة الشخصية، وبعبارة مختصرة العمل هو الرافعة الأساسية للمجتمع الوليد .

«إن المعرفة للمعرفة ليست منهجا إسلاميا، في الإسلام؛المعرفة للحركة،والعلم للعمل، والعقيدة للحياة»(١). وفي الوقت نفسه لم ينس الحديث عن عالم الغيب (الميتافيزيقا) فأسهب عن الواحد الأحد؛ الغفور الرحيم الواحد القهار وصفاته الإلهية والملائكة وصفاتهم

(١) مقومات التصور الإسلامي ، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٢٥ .

والحشر والبعث والجنة والنار .

وعلى الجملة «جاء الإسلام؛ ليغير واقع البشرية،لا ليغير معتقداتها وتصوراتها ومفاهيمها ومشاعرها وشعائرها فحسب...، جاء لينشئ لها واقعا آخر غير واقع الجاهلية التي كانت تعيش فيها، والتي يمكن أن ترتد إليها في أي طور من أطوارها»[١].

وقد كلف الله رسوله ﷺ - ومن بعده أمته - النهوض بهذه الرسالة الشاملة الخاتمة وتبليغها للناس جميعا ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]. ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قام الرسول ﷺ بحق الرسالة حق القيام، وعاش مجاهدا مناضلا في سبيل نشر الإسلام، ومنارة للعلم وكان قلبا كبيرا لأصحابه ولكل من يدخل الإسلام؛ يشرح ويفسر ويبين أركان العقيدة ومفردات الشريعة لأصحابه وللمسلمين الذين التحقوا بموكب الإسلام وبعد أن صعدت روحه للرفيق الأعلى، حذا أصحابه حذوه، واقتدوا بمنهجه وتعاهدوا على تنفيذ تعاليمه في دنيا الناس فحملوا الرسالة وأدوا الأمانة، وأعدوا جيشا قويا متسلحا بالإيمان، يضم كافة الأجناس التي دخلت الإسلام، وانطلقوا شرقا فاصطدموا بالدولة الفارسية فهزموها ونشروا في ربوعها الإسلام وتقدمت جيوشهم حتى وصلوا إلى الهند، وفي الغرب اكتسحت جيوشهم الدولة الرومانية التي كانت تعتنق المسيحية وضموا مستعمراتها في بلاد الشام ومصر وتقدموا بجرأة وشجاعة فعبروا مضيق جبل طارق ليس هذا فحسب بل يؤكد مؤرخ يهودي أن اليهود دخلوا «في جيوش المسلمين وناضلوا معهم في أقاليم الأندلس»[٢] حتى وصلوا إلى جنوب فرنسا ووقعت معركة بلاط الشهداء (بواتييه) (١١٤هـ / ٧٣٢م) التي انتصر فيها شارل مارتل على جيش المسلمين واستشهد عبد الرحمن الغافقي فتوقف الزحف المقدس وخفتت الأنوار؛أنوار العلم والمعرفة والتقدم والمدنية .

---

(١) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٨

(٢) إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب ، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٢٧، من المقدمة ص ي .
أفردت له ترجمة واسعة في كتابي: الاستشراق اليهودي، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١١ .

هذا الإنجاز المذهل في الجانب المادي للحضارة الإسلامية، واكبه إنجاز حضاري آخر يتعلق بالجانب الروحي والفكري، يتمثل في إنشاء العلوم الدينية؛من تفسير بأنواعه العقلي وبالمأثور وعلوم الحديث والفقه بمذاهبه المختلفة،وتطور فنون العربية وأغراض الشعر الجديدة التي استحدثت بناء على تمازجهم مع الشعوب الأخرى،وكذلك التصوف الذي اعتمد فيه أصحابه على معطيات آيات القرآن ومعانيها الثرية وسلوك الرسول ﷺ في حياته اليومية،وأقبلوا على علوم الأوائل وأهمها؛ الفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك والطب والكيمياء والفيزياء والموسيقا، واستفادوا من تراث الأمم الأخرى التي جاوروها ونهلوا من ثقافتهم،ثم أضافوا إليها بعداً ذاتيا نابعا من تعاليم الدين الإسلامي واجتهاد علمائه وابتكارات عقولهم وملكاتهم الفائقة ومواهبهم الخاصة .

ومن المعلوم أن هذا الجانب الروحي و التراث الفكري الإسلامي كان بالغ المكانة شديد الأهمية عند الأمم الأخرى، عظيم التأثير في عقول المستشرقين ووجدانهم .

هنا انخلع قلب أوربة، وتنادى رجالاتها فيما بينهم للوقوف في وجه هذا الزحف الإسلامي المقدس، وجمعت أوربة قساوستها ورهبانها وملوكها و فرسانها وخيولها وعتادها ووحدت صفوفها وبدأت المعارك الطاحنة فيما سمي بالحروب الصليبية (١٠٩٥: ١٢٥٤)، لكنها وجدت أمامها جيوشا معبأة بقوة الإيمان ومفعمة بعقيدة راسخة في ضمائرهم رسوخ الجبال تطلب الشهادة وتضحي بالغالي والرخيص فداء لدينها،فلم تحقق أهدافها ولم تصل إلى بغيتها، ولم تنس ثأرها من يومها حتى يومنا هذا، وهزيمتها أمام جيوش المسلمين واقتطاع الإسلام مساحات واسعة من أرض النصرانية. لقد اقتنع علماء الغرب «أن الإسلام الذي توسع في مساحات مترامية من آسيا وإفريقية وأوربة،لا يمكن أن يكون على هذا القدر من السخرية ومخالفة المعقول كما يصر الأوربيون على الاعتقاد . ولن يتسنى للمرء مواجهتها بحجج وكلمات جوفاء، وعلى كل حوار أن يبدأ بدراسة مراجعه بغير هوى ولا تحيز»[1].

في ضوء ذلك دخلنا في صراع فكري آخر، اتسم بدراسة الغرب للتراث الإسلامي فيما عرف بظاهرة الاستشراق، لكشف سر قوة المسلمين ومضمون عقائدهم ومعرفة محددات

---

(١) فوك: تاريخ الحركة الاستشراقية، ترجمة عمر لطفي العالم،دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠١ص ١٠١

القوة وثقافة الجهاد وفلسفة الاستشهاد، وفي الوقت نفسه،البحث عن مكامن الضعف ومواطن الثغرات عند المسلمين. ومحاولة هزيمة هذه الحضارة الصاعدة هزيمة نفسية بالوسائل السلمية فيما تعذر الحصول عليه بوسائل العنف والقوة .ويصور أحد الغربيين ملامح هذا الصراع الخفي والمعلن بقوله: «لم يستطع العالم المسيحي تجاوز الصدمة التي أصابته من أتباع الديانة التوحيدية الذين جعلوا عقيدتهم استكمالا مثاليا للمسيحية .خصوصا وأن المسلمين تمكنوا في فترة قصيرة ليس فقط من اجتياح مساحات شاسعة من خريطة العالم السياسي آنذاك والسيطرة عليها ومن ضمنها البقاع المقدسة، وإنما هددوا قلب أوربة وأراضيها ذاتها»[١].

إننا نعتقد اعتقاداً جازماً أن هذا الماضي المشرق والمشرف، والانتصارات العظيمة التي حققتها الحضارة طوال تاريخها، ونهضتها المباركة التي أرست قواعدها منذ ظهور الإسلام حتى سقوط بغداد (٦٥٦هـ)، هذا التاريخ الإيجابي مازال ماثلا في خيال الأوربيين، ومترسب في ذاكرتهم، ويفكرون دائما في صحوة المارد الإسلامي، ولذلك يحاولون أن يحبطوا أي مشروع إسلامي ينهض في المنطقة العربية،يؤسس لدولة فتية تبني صرح صناعة وطنية، واكتفاء ذاتي لنفسها في محاصيلها الزراعية، وترسي مبادئ الديمقراطية، وإقامة نظام سياسي حضاري يعتمد على تداول السلطة واحترام كرامة الإنسان[٢] كما هو في الإسلام، وعلى الجملة تضع قواعد لدولة عصرية تقوم بذاتها وبمواطنيها.

لذلك يعمل الاستعمار مع عملائه في الداخل وأصحاب الأهواء والمصالح المشبوهة لإجهاض أي مشروع إسلامي في دولنا العربية - يقول شيمون بيريز: في كتابه الشرق الأوسط الجديد: «إن الديمقراطية لا يمكن أن تطبق في الشرق الأوسط، لأنها ستؤدي إلى فوز الإسلاميين وأخذهم السلطة السياسية،وعلى الغرب ألا يشجع الديمقراطية في هذه الدول لأنها ستأتي بمجموعات معادية لإسرائيل،وعلى الغرب أن يعمل مع النخب السياسية

---

(١) انغمار كارلسون: الإسلام وأوربا، ترجمة سمير بوتاني، السويد، ١٩٩٤، ص ١٦.

(٢) كرامة الإنسان في الإسلام مستمدة من إنسانيته ذاتها؛ لا من أي عرض آخر كالجنس،أو اللون،أو الطبقة، أو الثروة، أو المنصب.. إلى آخر هذه الأعراض الزائلة (سيد قطب: هذا الدين، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٨٢).

التي تهادن إسرائيل بغض النظر عن شرعيتها السياسية»[١].

ليس هذا فحسب بل نعتقد أن خطة ساسة الغرب هي منع أي مشروع تقدمي يعمل على نهضة الأمة العربية والإسلامية ومقاومة أي حزب يفكر في مثل هذا المشروع النهضوي سواء كان حزبا علمانيا أو اشتراكيا أو رأسماليا، وخطته الجهنمية إجهاض أي مشروع ومحاصرة هذه المنطقة وجعلها مثل المريض لا يشفى من أمراضه فيصبح رجلا فتيا قويا، ولا يتركونه يموت. ولعل الأحداث والحروب التي تعيشها الأمة العربية تدل على ذلك دلالة واضحة للعيان .

ثانيا: تعريف الاستشراق[٢]

الاستشراق مصطلح شاع بين الدارسين العرب والمسلمين منذ اليقظة العربية وتأسيس محمد علي لدولته في مصر والشام (١٨٠٥ - ١٨٤٨) وإرساله البعثات إلى الغرب لاسيما إلى فرنسا،وظل متداولا حتى يومنا هذا،حينما عكف الباحثون العرب على دراسة وتقييم الحركة الاستشراقية أو الظاهرة الاستشراقية ونقد أبعادها ودراسة إنتاجها وجهودها وإظهار إيجابياتها وسلبياتها وخيرها وشرها.

ونعني بالحركة الاستشراقية هذه الحركة العلمية العالمية التي قامت في الغرب منذ التقاء الإسلام بالغرب ممثلا في الدولة الرومانية النصرانية وانتزاع مستعمراتها، وبداية من حجاج يوحنا الدمشقي وجداله مع المسلمين وتسفيه المفاهيم الإسلامية، ثم فتح المسلمين لبلاد الأندلس والاستقرار فيها، طوال هذه المراحل التاريخية، التفت علماء الغرب أي المستشرقون لدراسة كل ما أنتجته قرائح علماء الإسلام، وما أبدعته عقولهم في كافة مجالات الحضارة الإسلامية، من علوم القرآن وسيرة الرسول وجميع مذاهب الفقه وأصول الفقه، والفرق الإسلامية السنة والشيعة (الزيدية والإسماعيلية والإمامية) والإباضية والمعتزلة والخوارج

---

(١) عبد الله يوسف سهر - مؤسسة الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين - مركز الإمارات للدراسات والبحوث، أبوظبي، ٢٠٠١، ص ٣٧.

(٢) راجع كتبي: الاستشراق والمستشرقون، ط الضامري مسقط، ٢٠٠٩، ط٢، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٣، الاستشراق اليهودي، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١١، المستشرقون في مصر، دار اليقين، القاهرة، ٢١٠٣.

والجهمية والمرجئة، والتفسير ومناهجه، والحديث الشريف وأسانيده،والفلسفة في المشرق والمغرب، ونشأة التصوف ومدارسه السنية والفلسفية، والمنطق، واللغة العربية وآدابها وشعرائها وأمثالها وأساطيرها، والتاريخ وفلسفة التاريخ والجغرافيا، والفلك والرياضيات والكيمياء والموسيقا وفن العمارة، والعلوم الاجتماعية، والعادات والتقاليد والأزياء والملابس، وعلى الجملة تفرغ هؤلاء المستشرقون لدراسة كل ما أنتجته الحضارة الإسلامية وعقلها الوقاد منذ بزوغها على يد الرسول ﷺ في كافة مجالات الحياة الحيوية الفكرية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ومن المعلوم أن كلمة الاستشراق مشتقة من كلمة شرق، أي بزغت الشمس وأشرقت، فالاستشراق يعني هذه الحركة العالمية التي اهتمت بدراسة عالم الشرق وعلومه، ولا نعني بالشرق؛ المعنى الجغرافي أي الشرق الأوسط أو الأدنى، كما قد يتبادر للأذهان، وإنما نعني به هذا الشرق الذي انتقل من طور البداوة والتوحش والأمية إلى طور آخر مغاير له تماما يتصف بالعلم والمدنية و الحضارة، أي هذه المساحات الشاسعة التي انتشر فيها الإسلام من الهند والصين إلى بلاد الأندلس، وأنتج لنا هذه الكم الهائل من المصادر والمراجع والمؤلفات الإسلامية،أضف إلى ذلك تمثله كل القيم الإنسانية التي تليق بكرامة الإنسان.

وقد قام المستشرقون بهذا المجهود الجبار وهم؛جماعة من علماء الغرب؛ يهود ونصارى وعلمانيين وملاحدة وشيوعيين. لعوامل عديدة دفعتهم للقيام بهذا الجهد العظيم تمثلت في العوامل السياسية الاستعمارية والدينية والعلمية والتجارية والمادية.

والاستشراق عند إدوارد سعيد (٢٠٠٣) يعني «أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي (أنطولوجي) ومعرفي (ابستمولوجي) بين الشرق والغرب»[١] .

ثم يطرح تعريفا ثانيا من منظور الغاية منه والهدف الذي ينشده أنه: «أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه ويكرره بصياغة أخرى: الاستشراق؛نظام المعرفة الأوربية أو الغربية بالشرق يصح هكذا أن يكون مرادفاً للسيطرة الأوربية على الشرق»[٢].

---

(١) إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، ص ٣١

(٢) الاستشراق ص ٣١، وأيضا ص ٢٥١ . لا أستطيع أن أتفق كلية مع السيد إدوارد سعيد في هذا التوصيف القاسي؛

وقريب من هذا التعريف ما ذهب إليه أستاذنا حمدي زقزوق ناظرا إليه من منظور العنصرية الأوربية ومحاولة فرض تصوراتها وفكرها وقيمها على الشرق الإسلامي فيقول: " الاستشراق ليس علما بأي مقياس علمي، وإنما هو عبارة عن أيديولوجية خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام[1].

يقول مالك بن نبي(١٩٧٣): «إننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية»[2].

ويقول إدوارد سعيد: كل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه،ويسري ذلك سواء أكان المرء المختص بعلم الإنسان (الأنثروبولوجي) أو بعلم الاجتماع،أو مؤرخا أو فقيه لغة (فيلولوجي) في جوانبه المحددة والعامة على حد سواء، هو مستشرق[3].

لأننا لا يمكن أن نضع آلاف من المستشرقين في كفة الاستعمار والانتهازية، وقد ظل طوال صفحات كتابه يركز على هذه المقولة أي سيطرة الغرب على الشرق من خلال الإنتاج الاستشراقي، ونحن نؤمن أن الفطرة الإنسانية خيرة بطبيعتها، ولا شك أننا واجدون آلافا من المستشرقين دخلوا هذا الميدان حبا للمعرفة وشغفا بالحضارة الإسلامية وتشوقا لمعرفة أسرارها وألغازها ومجالات إبداعها ومقومات انتصارها، ولا يمكن أن نلغي فضيلة= =حب المعرفة من نفوس المستشرقين كافة .فالخير والمحبة والتعاون ونصرة المظلوم قيم راسخة موجودة في أعماق الإنسان ولم تختف من الوجود .

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، الحضاري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ وكذلك طبعة دار المعارف، القاهرة. ويعرفه سالم يفوت بأسلوب يلفه الغموض ومفردات غريبة علينا نحن المشارقة وتعبيرات منحوتة من اللغة الفرنسية وفلسفتها فيقول: الاستشراق خطاب، أو إنشاء لكنه خطاب لا يعكس حقائق أو وقائع، بل يصور تمثلات أو ألوانا من التمثيل حيث تتخفى القوة والمؤسسة والمصلحة. إنه خلق جديد للآخر، أو إعادة إنتاج له على صعيد التصور والتمثيل، مما يجعل من الاستشراق موضوع معرفة، بينما يظل موضوعه الذي هو الشرق موضوع واقع لا تربطه به صلة تطابق أو انعكاس. (حفريات الاستشراق، المركز العربي الثقافي، بيروت، ١٩٨٩، ص ٨). ومعنى كلامه على حسب فهمي أن الاستشراق رسالة موجهة من المؤسسات الغربية وسلطتها القوية وهو يعبر عن ثقافته وعقائده وتصوراته أكثر مما يصور واقع الشرق وحقيقته.

(٢) إنتاج المستشرقين، ص ٥.

(٣) إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، ص ٣٠. من الواضح أن إدوارد سعيد ركز على الجانب السلبي في تناوله للظاهرة الاستشراقية تركيزا مقصودا، كمظهر من مظاهر الاستعمار وتأكيد عنصرية الرجل الأبيض وتفوق عقليته في مقابل النظرة الدونية للشرق، وحقل تجارب لتطبيق مناهجه ومسرح للمعرفة العلمية الغربية، زد على ذلك تثبيت جذوره ونشر نفوذه وثقافته واستغلال ثرواته (مصر أنموذجا). على أنه عاد بعد هذا الهجوم=

ثالثا: سمات المنهج النقدي عند المستشرقين

بادئ ذي بدء نشهد أن جمهرة المستشرقين (ولا نقول كل المستشرقين) يتمتعون بسعة الاطلاع وغزارة المراجع وقوة الإرادة في البحث عن المصادر الأصيلة والمراجع المعتبرة، وتنقلهم من مكان إلى مكان ومن دولة إلى دولة للعثور على دراسة جادة منشورة في هذه الدورية أو تلك، والحصول على مخطوطة من المخطوطات، والصبر على قراءة خطوطها المعقدة التي تشبه تعويذة المشعوذين، وروائحتها غير الطيبة، والنهوض بتحقيقيها وشرح غوامضها ومفرداتها ومصطلحاتها وبسط عناصر موضوعها، ومقارنتها بمثيلتها في مكتبات العالم، عندهم صبر محمود وجلد واضح وعزيمة صلبة -شهد لها الكثير من مؤرخي الاستشراق- والمكوث ساعات وساعات في القراءة المتدبرة والبحث المعمق والتقصي الواسع وتحليل جوانب القضية وعرضها عرضيا منهجيا، وتنسيق الحواشي المليئة بالمراجع النادرة، وعمل فهارس متعددة لكتبهم تسهل على الباحث العثور على المعلومة بأسرع ما يكون، أضف إلى ذلك إجادتهم عديدا من اللغات الأجنبية، ناهيك عن ذلك الصرامة في تطبيق عناصر المنهج العلمي .

على أن الناظر في الظاهرة الاستشراقية وإنتاج المستشرقين وموقفهم من سيرة الرسول ﷺ بداية من ميلاده وانتهاء بوفاته مرورا بسلوكياته وأقواله وأفعاله وعلاقته بالسماء ونزول الوحي عليه، وقرآنه المقدس ومضمونه، ثم غزواته وجهاده في نشر الإسلام. ويتأمل في كتاباتهم ودراساتهم المعمقة والنتائج التي يخرجون بها. يستطيع أن يخرج بجملة من الانطباعات أو

=الشديد في متصف الكتاب يشير إلى كثير من الإيجابيات، إذ أنتج باحثين، وزاد عدد اللغات التي تدّرس في الغرب وكمية المخطوطات المحققة والمترجمة والمعلق عليها...(الاستشراق ص ١٥٢) وإذا كنا نتفق معه في عرض الجوانب السلبية، فإن قيم الإنصاف والطرح الموضوعي يحضنا على أن نشير إلى كثير من الجوانب الإيجابية في الحركة الاستشراقية حتى لو جاءت عرضا وليست بشكل مقصود، ويكفيهم أنهم أزالوا الغبار عن آلاف من المخطوطات التي حققوها ونشروها وحفظوها من الضياع،ثم إن اهتمامهم بتراثنا يعني ضمنيا الاعتراف بمكانة الحضارة الإسلامية ودورها المؤثر في حركة التاريخ. ولا يمكن أن نوافق المدرسة التي يقودها محمد محمد حسين وعبد العظيم الديب وأنور الجندي ومحمد البهي في هجومهم على كافة أعمال المستشرقين وإنكار أي دور إيجابي في تحقيق ونشر التراث، والتنقص من منهجهم،وأنهم سرقوا المخطوطات ،دون ذكر إيجابية واحدة لهم،ونحن كما نطالبهم بإنصاف حضارتنا، علينا أن ننصفهم (عبد العظيم الديب: المستشرقون والتراث، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٩٩٢)

المحددات التي ترسم صورة واضحة لأبعاد منهجهم النقدي، الذي هو فسيلة من دوحة منهجهم العلمي، وقواسم مشتركة تجمعهم في صعيد واحد، على الرغم من التباعد الجغرافي وتباين المكان، والامتداد الزماني عبر القرون، ونحن بسبيل رصد أهم سمات هذا المنهج.

١- الإيمان بجملة من الفروض المسبقة والقناعات المترسبة في اللاشعور

بسبب هذه التربية الفكرية الخاطئة، والإرث الفكري الموروث من مقولات الكنيسة في العصور الوسطى[1] وما بعدها التي تسربت إلى العقل الجمعي، و استقطابها للعقل الفردي، والكراهية التي تغلغلت في أعماق المستشرق أصبحت عنده صورة ذهنية مشوهة عن الرسول ﷺ والإسلام والمسلمين، وقناعات ثابتة، وأفكار راسخة رسوخ الجبال من الصعب أن نزحزحه عنها، أو نقنعه بخطئها، لقد أصبح التعصب والتمسك بالرأي الأحادي مكونا جوهريا من مكوناته النفسية، كأنما رضع التعصب ممزوجا بلبن أمه منذ أن كان في المهد، وسرى في كيانه، وصار معلما رئيسا لمنهجه في تناول قضايا الإسلام، يقول جوستاف لوبون (١٨٤١- ١٩٣١) gostaf lobon: «استمر التعصب الذي ورثناه ضد الإسلام وزعمائه خلال قرون عديدة حتى أصبح جزءاً من تركيبنا العضوي».

يتجلى ذلك في اعتقادهم أن «الشرق استبدادي، مفرغ من القيم، وحشي، شبقي رومانسي، لا منطقي»[2]! و«أن الإسلام شهواني ومادي في فكره وفي مفهومه للجنة.... وتعدد الزوجات مدان، لأنه لذة مسممة مثيرة ومخنثة، إن المرأة معتبرة وخادمة.... والشذوذ الجنسي موصوف في القرآن وبشكل يُسمح به في الجنة... إن استعمال العنف كان معتبراً عالميا

---

(١) يشرح هنري دي كاستري - الضابط الفرنسي الذي عاش في الجزائر إبان فترة الاحتلال، واقتنع بأركان الإسلام وأخلاقه وسلوك المسلمين فاعتنقه - أقول يشرح التصور الخاطئ والقصص الخيالية التي سيطرت على عقول الأوربيين تجاه الإسلام والأناشيد التي كانت يرددونها ومنها نشيد رولان، وتصورهم بأن محمدا يعبد الأوثان و أنه مدعي الألوهية وقد ألف القرآن الذي لا يستحق القراءة ويجب أن يحتقر ويلقى في النار، وخلعوا على المسلمين صفات مثل؛ البَلَدة والكسالى والحمير، يملؤون بيوتهم بالنساء، وهم أعداء الصليب، الفاسقون بالأطفال، القاتلون للفضائل المخالفون لطبائع البشر ....، وظل يسرد هذه التصورات الخاطئة على مدى خمس صفحات ويتعجب من هذه الأخطاء البشعة التي ترسبت في عقول الغربيين ويدافع عن الرسول، ويقدم صورة منصفة له وللمسلمين. (الإسلام خواطر وسوانح، ترجمة فتحي زغلول، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٣٠: ٣٥).

(٢) صلاح الجابري: الاستشراق قراءة نقدية، الأوائل، دمشق، ٢٠٠٩ - ص ٩١.

من الخصائص العامة المكونة للدين الإسلامي ودلالة رعب.... والإسلام لا يقبل الخلاف العقلاني»(١).

في ضوء ذلك حينما يتناول دراسة حياة الرسول ﷺ وأبعاد شخصيته وأقواله، تطفو على السطح هذه الأفكار، وتأخذ بخناقه، وتسيطر على مشاعره وتدفعه دفعا، لإسقاطها على شخصيته، من خلال طرح جملة من المفروض لتفسير أي ظاهرة من ظواهر حياته وهو على يقين أن هذا الفرض صحيح في تعليل هذه الظاهرة.ويحاول أن يجمع أكبر عدد من الشواهد الكاذبة التي تؤيد هذا «الفرض المسبق» في حين أن الفرض في المنهج العلمي يعد تفسيرا مؤقتا للظاهرة التي نريد بحثها ودراستها ومدخلا لفهمها، فإذا ثبت بطلانه بعد اختباره، انصرفنا عنه وطرحنا تفسير آخر وهكذا.

وقد رأينا كثيرا من المستشرقين مقتنعين تمام الاقتناع أن محمدا ﷺ مصلح اجتماعي، انزعج من التفاوت الطبقي، وتكدس الثروة في يد قلة من وجهاء قريش وتجارها (الطبقة البرجوازية)، مع وجود كثرة من العبيد والفقراء مستغَلة (الطبقة المطحونة)، فأهمّه هذا الوضع المزري وشغل فكره، وأراد أن يقرب الفجوة بين الطبقات فسعى لتحقيق قدر كبير من العدالة الاجتماعية، وتذويب الفوارق بين الطبقات. ثم يذهب المستشرق في هذا الاتجاه، ويبذل كل جهده العلمي المتأثر بفكر المادية الجدلية للبرهنة على صحة اعتقاده، ويدلل على ذلك بمسارعة المستضعفين والفقراء والعبيد أمثال بلال بن رباح وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر للالتحاق بمركب الإسلام ، دون أن يتنبه بأن أبا بكر وعمر وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحه وكثيرا من صناديد قريش وأغنياءها لبوا نداء الرسول ﷺ وركبوا سفينة الإسلام، وهذا الدليل يدحض فكرة المستشرق ويقوضها من القواعد، عموما هذا ما نراه عند عديدا من المستشرقين مثل بندلي جوزي (١٨٧١- ١٩٤٣) bandly gozy ومكسيم رودنسون Maxim Rodinson (١٩١٥ - ٢٠٠٤) وغيرهم.

وكذلك قناعته أنه هو الذي ألف القرآن، وقد تجذرت هذه الفكرة في اللاشعور، وحينما

---

(١) هشام جعيط: أوربا والإسلام، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢١: ٢٣.

يقوم بدراسة حياة الرسول ﷺ وقرآنه، يبدأ في البرهنة على صحة هذا الفرض المسبق، ويستشهد بشهادات المشركين والمنافقين، واتهاماتهم له، ثم يعضد هذا الرأي بالاقتباس من آراء زملائه الذين سبقوه، دون أن يناقشهم في وجهة نظرهم، وهذا ملحظ واضح أن اللاحق يستشهد بآراء السابق، فترى نولدكه يستشهد بآراء جولتسيهر وكيتاني، وجولد تسيهر يستشهد بآراء إبراهيم جيجر(١٨١٠- ١٨٧٤)، ويوسف شاخت (١٩٠٢- ١٩٦٩) يحتج بمقولات نولدكه وكياتاني وجولد تسيهر؛ وهكذا كل مستشرق حينما يتناول قضية من قضايا الرسول ﷺ والقرآن يبرهن على صحة رأيه بالنتيجة التي خلص لها من سبقه، وهكذا كأننا نحن بصدد جماعة انكفئوا على ذواتهم لا يرون إلا ما هو متاح لهم من الظلال والخيال، مثل أسطورة الكهف عند أفلاطون [١]، وهذا سوف نراه في تكرار الاتهامات عند المستشرقين، بعد ذلك يمضي في نفس الاتجاه فيقارن بين قصص وردت في العهد القديم والعهد الجديد، حتى يثبت أن الرسول ﷺ اقتبس قرآنه من كل هذا الخليط العجيب دون أن يطرح أدلة مقنعة، أو يأتي بشواهد بينة، وكذلك دون أن يورد لنا العوامل النافية لهذا الفرض والتي تطيح به مع أول قراءة مدققة وتؤكد خطأه.

وهذا ما وضحه فرنسيس بيكون (١٦٢٦) farnses bekon وهو يشرح أسس منهجه التجريبي أن نورد العوامل النافية للظاهرة والعوامل المثبتة لها ليس هذا فحسب، بل يرى أنه لا يمكن البرهنة على أي تعميم (قانون) بأي عدد من الأمثلة المؤيدة، لكن مثلا واحدا يكفي لنقضه!![٢].

وهذه هي القاعدة الأولى في منهج ديكارت (١٦٥٠) dekart [٣].

---

(١) يصور أفلاطون مجموعة من الناس مقيدين منذ طفولتهم داخل كهف، ولا يرون إلا الظلال المنعكسة من فتحة تلقي بعض الضوء على جداره، وحينما يتحرر أحدهم ويخرج للعالم الخارجي يدرك الحقائق مباشرة ويقصد أفلاطون أن يميز بين المعرفة التي تأتي عن طريق الحس وهي معرفة ظنية وهمية، والمعرفة التي تأتي عن طريق العقل وهي المعرة اليقينية. (جمهورية أفلاطون، ترجمة فؤاد زكريا، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٨٦).

(٢) زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٤، ج٢ / ١٧٩

(٣) «ألا أسلم بشيء على أنه صدق إذا لم أكن أعلم أنه كذلك، ومعنى هذا أن أحذر كل تسرع أو ميل مع الهوى، وألا أدخل في حكمي شيئا أكثر مما كان حاضرا أمام عقلي في وضوح وتميز، بحيث لا أجد ما يبرر لي الشك في صحته» (المنطق الوضعي ج٢ / ٢١٢).

والمتتبع لدراسات المستشرقين يلحظ هذا الملحظ بوضوح وهو دخولهم مجال الدراسات الإسلامية وعندهم قناعات ثابتة وأفكار موروثة، ونفوسهم معبأة بإرث القرون الوسطى وغبار الحروب الصليبية وتشبعهم بآراء كبار المستشرقين الذين سبقوهم، ولم يستطيعوا أن يتحرروا من أغلالها، ويبعدوا أهواءهم وميولهم ويقفوا وقفة علمية موضوعية في دراسة سيرة الرسول ﷺ وتاريخه الذهبي، ويناقشوا القضايا مناقشة منصفة عادلة(١).

يقول رودنسون عن هذا التوجه: «لم ير المستشرقون في الشرق إلا ما كانوا يريدون رؤيته، فاهتموا كثيرا بالأشياء الصغيرة والغريبة، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التي بلغتها أوربة.ومن ثم كانوا يكرهون النهضة فيه... ثم يضيف:وحين كان الغربيون يذهبون إلى الشرق كانت تلك الصورة التي يبحثون عنها، فينتقون ما يرونه بعناية، ويتجاهلون كل ما لا ينسجم مع الصورة التي كونوها سابقا»(٢).

٢- الاعتماد على الروايات الواهية والموضوعة والإسرائيليات

يلاحظ الباحث المدقق في كتابات بعض المستشرقين إن لم نقل جلهم، الولوع بالاعتماد على الروايات الواهية والأخبار الضعيفة والأحاديث الموضوعة، مع أنهم يشتهرون بالقدرة على التمحيص وفحص النص والاهتمام بالمنهج النقدي اهتماما ملحوظا، إلا أنهم يغفلون عن كثيرا من القضايا التي تتناقض مع واقع الحال، وتصادم أبسط قواعد العقل السليم

---

(١) يقول أحد الباحثين عن المنهج العلمي عند المستشرقين: لا يمكن الجزم بموضوعية المنهج العلمي عند تطبيقه على التراث الإسلامي، إذ غالبا ما يبرز التحيز والغرضية والأحكام المسبقة التي تربك المنهج وتسيء للموضوع المدروس . (صلاح الجابري: الاستشراق قراءة نقدية، ص ١١٥).

(٢) الصورة الغربية والدراسات الإسلامية ص ٣١: ٣٢ (من كتاب تراث الإسلام، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٥ (من النماذج التي تؤكد كلام رودنسون. أن الرحالة الذين وفدوا إلى المشرق لم يروا فيه إلا وقائع التوراة؛ فالأهرام المصرية هي خزائن القمح التي أنشأها يوسف بن يعقوب، وهليوبوليس هي المخبأ الذي استراحت فيه العائلة المقدسة، أما العظام المبعثرة على شاطئ البحر فهي عندهم بقايا فرعون وجنوده الذين غرقوا في أثناء مطاردة الإسرائيليون. (عبد المتعال الجبري: الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٣) وأذكر أن مناحم بيجن هذا الإرهابي الكبير، حينما زار مصر أيام السادات وزار الأهرام، أخبر السادات أن أجداده هم الذين شاركوا في بناء الأهرام، وبدلا من أن يصفعه السادات على وجهه نظير صفاقته وبجاحته، أو يركله في مؤخرته، أطلق ضحكة في الهواء. ألا يكفي هذا المجرم أنه قتل الآلاف من الفلسطينيين فيأتي ينجس أرضنا الطيبة ويدنس شوارعها وهواءها. ألا لعنة الله على الظالمين.

والاستدلال الصحيح ويأخذونها قضية مسلما بها ليس هذا فحسب بل يبتهجون بإذاعتها ونشرها، ويستغرقون في الحديث حولها ، مثل قضية «الغرانيق»، أو مسألة «زواج الرسول من زينب بنت جحش»، ويبدو أن مثل هذه الروايات تجد هوى في نفوسهم ورغبة جامحة في الانتشاء بها فلا يستطيعون أن يقاوموا أهواءهم الذاتية وشيطانهم الماكر، فينساقون وراء هذه الحكايات ويقرونها ويشهرون بأصحابها، ويذهبون يذيعونها وينشرونها على أوسع نقاط ليس هذا فحسب بل يتلقفها الآخرون ويسارعون في تكرارها وعدها حقيقة من حقائق الكرة الأرضية. هذه نقطة.

والثانية: عندهم شغف بالتمسك بالعجائب والغرائب وإيراد الإسرائيليات والوقوف أمامها بالمناقشة والتحليل، ومهما كانت القصة تصادم أبسط قواعد المنطق، ومجريات الحوادث اليومية إلا أن المستشرق يبالغ فيها ويأخذها مأخذ القبول مثال على ذلك ؛ قصة الإسراء والمعراج كما وردت في الكتب الصفراء القديمة والحشو الذي دخل عليها والصورة الحسية التي قدموها عن البراق وحقيقة السموات التي صعد إليها الرسول والمناظر التي رآها، وصفة الملائكة والأشجار والثمار، وقد ملأها أصحاب العجائب والغرائب بالتهويل والمبالغة غير المنطقية، وسوف نلحظ ذلك في استعراض «بودلي» لها وسرده كل هذه الخرافات على أنها حقائق.

والثالثة: النفخ في بعض الحوادث الصغيرة ووضعها تحت المجهر وتضخيمها، ونسج حكايات وقصص طريفة حولها مبالغ فيها بطبيعة الحال، واستنتاج نتائج منها لا تخطر على بال القارئ الحصيف مثل؛ قصة بحيرى الراهب وتعدد الزوجات أو الادعاء أن الرسول عنده فحولة جنسية وشهوات عارمة، وحادثة الإفك وغيرها، دون وضع القصة في موضعها الطبيعي ومناقشتها في سياقها التاريخي، ومحيطها السياسي والاجتماعي، والنظر إلى العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في المجتمع العربي آنذاك.

٣ - ثقافة كراهية الإسلام وبغضه المتأصلة في قلوبهم وضمائرهم

كنت أعيب على الكثير من الدارسين رمي المستشرقين بهذا الاتهام، وكنت أنزعج من ذلك ولا يجد في نفسي قبولا ولا في عقلي مساغا ولا في ضميري راحة[١]، ومع القراءة

---

(١) يشرح عبد اللطيف الطيباوي انطباعه عن دراسات المستشرقين: لو درسنا هذا الوضع دراسة فاحصة لوجدنا أن=

المكثفة والخوض في كتب المستشرقين ومعايشتهم أكثر من ثلاثين عاما ونحن نطالع أفكارهم ونحيط بمنهجهم وقراءة مخطوطاتهم ومتابعة جهودهم في التأليف والترجمة والنشر، والتحرر من موقف أساتذتنا المتحيز لهم، تبين لي صدق هذا الاتهام، وأن كثيرا منهم لم ينعتق من مخزون الكراهية تجاه الدين الإسلامي، سواء أكان من المحيط الأسري الذي تربوا في أحضانه، ونهلوا من معينه، وتشبعوا بأفكاره، أو من تأثير الدراسة النظامية الثانوية والجامعية والموروث الفكري، إذ تغذيه بزاد عميق من الكراهية وتصور له تاريخ العربي المسلم أنه تاريخ السلب والنهب والقهر والقتل والبربرية، وبهذا الأسلوب الهمجي نشر الإسلام وضم إلى ملته أمما عظيمة كانت ترفع شعار الصليب وتؤمن بالمخلص والإله الفادي ومريم العذراء أم الإله. وكلام كثيرا في هذا الاتجاه.

أضف إلى ذلك دور وسائل الإعلام المتحيزة للغرب والمعادية للإسلام التي تعمق هذه الكراهية وتشعل أوارها[1]، وأفلام السينما التي ما تفتأ تصور المسلم؛ بدويا يمشي في الصحراء عاري القدمين وعلى ظهره متاعه، يلبس العقال تفاديا لحرارة الشمس ينصب خيمته في الصحراء، ويملأها عددا من النساء لا يتجاوزن الأربعة كما يقول دينهم، وبعض الكتب الأخرى تصور المسلمين بعد أن أفاض الله عليهم نعمة النفط؛ يمشي في شوارع لندن أو باريس يشتري البضائع الاستهلاكية غالية الثمن ذات الماركات العالمية والمحلات

=الحقد والتعصب متربصان في أذهان بعض الباحثين الذين لم نتوقع أبدا وجودهما فيها، بل ونجدهما متواريين في أمكنة لم نظن قط كمونهما فيها (المستشرقون الناطقون باللغة الإنجليزية، ترجمة قاسم السامرائي، جامعة محمد بن سعود، ١٤١١ /١٩٩١ ص ٦٢) وأيضا عبد الرحمن بدوي:إن ما يحرك بعض المستشرقين دافع الضغينة والحقد على الإسلام مما يفقدهم الموضوعية ويعمي بصيرتهم بطريقة أو بأخرى (دفاع عن القرآن، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للنشر، بدون، ص ٧).

(١) يقول أحد الباحثين في مجال الإعلام: «لم يلق دين من الأديان أو حضارة من الحضارات، أو أمة من الأمم؛ من التشويه المنتظم والتحريف المستمر في تلك الوسائل ما لقيه الدين الإسلامي وحضارته وأمته، إن التشويه المستمر لصورة الإسلام والعرب في وسائل الإعلام الغربي المعاصر، ظاهرة فريدة في طبيعتها ودوافعها ونتائجها، وهي ظاهرة متميزة ومختلفة تماما عن غيرها من محاولات تشويه صور الشعوب الأخرى، سواء في حجمها أو نوعها».. (عبد القادر طاش: صورة الإسلام في الإعلام الغربي، الزهراء للإعلام، القاهرة، ١٤١٤/١٩٩٣– ص ٦٧) ويشرح المؤلف الصورة المشوهة لرسول الإسلام وللإسلام في الإعلام والأفلام والرواية والقصة والكتب المدرسية والموسوعات، والعوامل التي ساعدت على تكوين الصورة السلبية عن العرب والإسلام (ص ٦٥: ١٤٨).

الفخمة والعمارات الفارهة ويضيع الملايين على الموائد الخضراء و في الليالي الحمراء[١].

ليس هذا فحسب بل إن صورة العربي أسوأ من هذا في ذهن الأوربي حيث يقول أحد المفكرين السويديين: قوم لا توحي ملامحهم بغير كونهم إما إرهابيين جبناء، وإما شيوخا أثرياء مفرطي البدانة يلهون بإسراف وسط راقصات شرقيات يتمايلن و.يهززن...!![٢]

ثم إن بعض المستشرقين تأهل للعمل في ميدان التنصير، أو جاء من خلفية عسكرية دون دراية بالمنهج العلمي أو عمل في بلاد العرب قنصلا أو ملحقا عسكريا فتوجه تلقائيا لدراسة العقيدة الإسلامية ومذاهبها ومدارسها دون خلفية ثقافية أو اجتماعية بالحضارة الإسلامية.

هذه العقلية التي تشكلت على هذا النحو ، وملأت شرايينها بهذه المفاهيم المغلوطة وعقلها بصور أغرب من الخيال، ماذا ننتظر منها حينما تدخل مجال الدراسات الإسلامية وتعكف على قراءة تراث الإسلام وحضارته بعامة ورسولنا الكريم بخاصة ﷺ ؟

يقول إرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٣) arnst renan: لقد كتب الكتاب المسيحيون تاريخا غريبا عن محمد (ﷺ)، إنه تاريخ يمتلئ بالحقد والكراهية له، لقد ادعوا بأن محمدا (ﷺ) كان يسجد لتمثال من ذهب تخبئه الشياطين له، ولقد وصمه دانتي (١٢٦٥-١٣٢١) بالإلحاد في رواية الجحيم، وأصبح اسم محمد (ﷺ) عنده وعند غيره مرادفا لكلمة كافر أو زنديق[٣].

تتجلى الإشكالية عند المستشرق ليس في جانب الأدلة العقلية التي يسوقها، والتي أطر عقله عليها ولكن في المخزون الوجداني الذي ترسب جوانيته، وشحن عاطفته ويفعل مفعوله بطريقة لاشعورية، ويفسد رؤيته ويصيبها بالغبش والضبابية، وقد أشار محمد أسد (١٩٠٠ - ١٩٩٢) إلى هذه الخاصية عند المستشرقين بقوله: ليس الموقف الأوربي تجاه

---

(١) أهم الملامح البارزة للصورة النمطية عن العرب والإسلام نلخصها في النقاط الآتية: إظهار العرب في صورة المتناقضين دينيا مع الغرب – إظهارهم في صورة من لا يهمهم إلا النساء والشرب والجنس– أنهم مصدر المتاعب والعنف والإرهاب ..أنهم السبب في حظر النفط عن الغرب (صورة الإسلام في الإعلام الغربي ص ٦٧).

(٢) انجمار كالسون:الإسلام وأوربة، ص ١٢. لا شك يقع على العرب أنفسهم قسط عظيم من اللائمة عن استمرار هذه الصورة السلبية لهم في الغرب، بسبب تقاعسهم عن إيجاد مؤسسات ديمقراطية ومعاهد حديثة واستيعاب مقومات المدنية المعاصرة في مجتمعاتهم. (الإسلام وأوربة ص ٢٨).

(٣) عبد الرحمن بدوي: دفاع عن الرسول، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للنشر، بدون ص ٥٦.

الإسلام موقف كره في غير مبالاة فحسب، كما هو الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات، بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على صدود من التعصب الشديد؛ وهذا الكره ليس عقليا فحسب، ولكنه يصطبغ أيضا بصبغة عاطفية قوية(١).

حين يجتمع في كيان المستشرق هذا الموقف العقلي المتحفز وعاطفة الكراهية الغاضبة، لا جرم أن يصبح مثل القنبلة الموقوتة، أو البركان الذي يتهز الفرص للتنفيس عما يعتمل في أعماقه، أو مثل السيل المتدفق من أعلى الجبل يريد أن يكتسح كل شيء. لقد كان العالم المسيحي يخص الإسلام باهتمام يفوق ما كان يتلقاه منه، والظاهر أن عوامل البغضاء والخوف والإعجاب وجاذبية المجهول كانت تعيش مجتمعة في عالم المسيحية طوال العصور الوسطى(٢).

وملحظ آخر لا يميز المستشرق بين حقيقة الإسلام ورسوله كما وردت في المصادر والمراجع الإسلامية، وانطباعه عن ذلك أو رؤيته الذاتية للقضية التي يناقشها، فنحن المسلمين نؤمن بأن الرسول ﷺ مبعوث من الله ضمن قافلة الرسل الذين أرسلهم الله لإنقاذ البشرية، إلا أن المستشرق حينما يتناول هذه القضية لا يشير إلى رؤية المسلمين ولكن يتكلم عن تصوره هو وانطباعه الذاتي فيقرر بأن محمدا زعيم سياسي وقائد مغوار ويظل يؤكد على هذه الفكرة ويلف حولها ويدور مثل الثعلب الذي يريد أن يعض ذيله ، ومن ثم تترسخ هذه القناعة عند القارئ الأوربي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تولد نوعا من الشك عند القارئ المسلم في نيات المستشرق ودوافعه وكافة إنتاجه وتشوه صورته في مخيلته مهما ادعى من تعالم وحيادية ومنهجية. في ضوء ذلك يطلق الأحكام المتعسفة والآراء الفجة والمزاعم الكاذبة، وتقوده عاطفة الكراهية التي ترسبت في اللاشعور، وروح الانتقام المختفية في

---

(١) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢، ص ٥٣، هذا المستشرق هو ليوبولد فايس من النمسا، عمل بالصحافة شاهد دول آسيا وأفريقية وما اقترفه الاستعمار في حقها، قرأ عن الإسلام وناقش محمد إقبال في إشكالية وضعية المسلمين المزرية، ومبادئ دينهم السامية، اعتنق الإسلام وأصبح من كبار المدافعين عنه، وله أيضا الطريق إلى مكة .(محمد الزيني: الاستشراق والمستشرقون، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٢٥٠).

(٢) فون جرونباوم: حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة مصر القاهرة، ص ٦٤ .

تلافيف مخه، إلى التشكيك في مبادئ الإسلام وأخلاقياته ومهاجمة الإسلام والمسلمين وحضارتهم وقبل ذلك وبعده رسولنا الكريم ﷺ.

والمنطق السليم وحيادية البحث تقرر أننا «إذا كنا بصدد تقييم تراثنا الإسلامي فإن منطق الأمور وأساس التأصيل، أن يكون الإسلام نفسه هو الميزان الضابط لتقييم الحدث التاريخي أو الظاهرة الفكرية في إطارها التاريخي.بحيث نحكم عليها إن كانت منسجمة مع هوية الأمة ومتسقة مع بنائها الإنساني والحضاري»[١].

بعد أن شرحت كارين أرمسترونج Karen armstrong[٢] مظاهر العداء للرسول ﷺ والإسلام وجذوره الممتدة من عصر الحروب الصليبية إلى كتابات سلمان رشدي ومباركة الغرب لهذا الهجوم وتشويه صورة الرسول ﷺ و الافتراء عليه، وفي الوقت نفسه يتسامح الغرب مع المذاهب الدينية الأخرى مثل البوذية، تخلص إلى القول:إن الكراهية القديمة للإسلام تواصل ازدهارها على جانبي المحيط الأطلسي، ولم يعد يمنع الناس أي وازع عن مهاجمة ذلك الدين، حتى ولو كانوا لا يعرفون عنه إلا أقل القليل[٣].

ولعل أبرز مثال لذلك هنري لامانس (١٨٦٢-١٩٣٧) henrey lamans بلجيكي الأصل عربي التعليم حيث عاش وتعلم في جامعة القديس يوسف في لبنان وقام بالتدريس في الكلية اليسوعية.

فمن يطالع كتبه وتدليسه الواضح واتهاماته الصارخة للرسول ﷺ وأهل بيته يدرك مدى حقده على الإسلام ورسله وكراهيته العنيفة لكل ما يمت للحضارة الإسلامية ليس هذا فحسب بل يكفي أن تقرأ عناوين كتبه فتستنفر كل أجهزتك الإدراكية، وتصيبك صدمة عصبية من هذه الجرأة والافتراء على رسولنا وهذه نماذج من كتبه:

---

(١) جمال سلطان : الغارة على التراث مكتبة السنة، القاهرة، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ ص ١٠٢

(٢) مستشرقة إنجليزية معاصرة وأكاديمية متخصصة في علم الأديان المقارن، من أصل أيرلندي، ولدت عام (١٩٤٤) انخرطت في سلك الرهبنة في مرحلة المراهقة التي تتميز بالقلق والبحث عن الطريق الرشيد ثم هجرتها، تعلمت في جامعة أكسفورد آداب اللغة الإنجليزية، عينت أستاذة اللغة الإنجليزية في عام ١٩٧٦، سافرت إلى القدس فانفتحت أمامها عوالم خفية وبدأت تدرس الإسلام بمنهج جديد محايد ونظرة موضوعية متحررة من تراث الغرب المجحف. أهم مؤلفاتها؛محمد نبي لزماننا، ترجمة فاتن الزلباني، الإسلام في مرآة الغرب – سيرة النبي محمد.

(٣) سيرة النبي محمد، ترجمة فاطمة نصر، ومحمد عناني، سطور، القاهرة، ١٩٩٨، ١٥: ١٩

- هل كان محمد أمينا (باريس ١٩١١)؟

- الحكومة الثلاثية من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة، بيروت (١٩٠٩)[١]

فهو يشكك في حياة الرسول ﷺ وفي سيرته ومبادئه وأخلاقه ويقول: إن الرسول ﷺ تنقصه صفة الصفاء والإخلاص !! وكتب الحديث موضوعة ومختلقة.

وإذا تناول حادثة تاريخية أثار حولها غبار الضباب و الشك، فأبو بكر وعمر وأبو عبيدة ابن الجراح اجتمعوا وتآمروا واغتصبوا الخلافة ونصبوا واحدا منهم خليفة ، والفتوحات الإسلامية هدفها السلب والنهب، وزيادة ميزانية الدولة.

وغني عن البيان أنه وُصم من معظم المستشرقين والباحثين العرب بأنه من أكبر المزورين، وكذلك شدة تعصبه على الإسلام. يقول مالك بن نبي (١٩٠٥- ١٩٧٣)[٢]: لم يكن الأب لامنس المثل الفريد للمستشرق الطاعن على الإسلام ورجاله[٣].

وقد شكك إسرائيل ولفنسون (١٨٩٩- ١٩٨٠) المستشرق اليهودي في جهوده العلمية وسفه آراءه وقرر بصراحة: أن الباحث لا يطمئن لنظرياته[٤].

ونقد المستشرق الإنجليزي مونتجمري وات (١٩٠٩- ٢٠٠٦) montegmrv wat بحوث لامنس عن الفترة المكية نقدا عنيفا، وأشار إلى أن العلماء الذين جاءوا بعده يعتقدون أنه بالغ كثيرا في تشككه، ورأى أن آراءه تتسم بالتطرف الشديد[٥].

---

(١) راجع ترجمة وافية له عن سيرته ومؤلفاته ومنهجه في تناوله لسيرة الرسول وتاريخ الصحابة والفكر الإسلامي وتقييم د. بدوي لشخصيته وموقفه من الإسلام في (موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣ ص ٥٠٤).

(٢) مفكر جزائري صاحب نظرات علمية موفقة، وأفكار فلسفية عميقة متعلقة بتشخيص واقع المسلمين ووصف خريطة لشروط النهضة الإسلامية، ولد في قسنطينة بالجزائر درس الهندسة في فرنسا، عاش في مصر سبع سنوات وله مؤلفات معتبرة (الأعلام ج٥ / ٢٦٦)

(٣) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠، ص٥٦

(٤) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٩٤. راجع ترجمته ونبذة عن حياته ومؤلفاته وآرائه، وكيف عاش في مصر التي فتحت له صدرها النقي وقلبها الكبير، وعلمته في جامعتها وحصل على الليسانس والدكتوراه وقام بالتدريس في دار العلوم العريقة، ثم بعد ذلك خلف كل هذا وراءه وذهب يخدم الكيان الصهيوني وقوي أركانه، ويستعديه على الذين ربوه وعلموه، في كتابي: المستشرقون في مصر ص ٩١ .

(٥) مونتجمري وات: محمد في مكة، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٤٤ . ويعد=

وقد وصفه د. بدوي: «راهب يسوعي شديد التعصب ضد الإسلام، يفتقر افتقاراً تاما إلى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها، ويعد نموذجا سيئاً جداً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين»[١].

أما مارسيل بوازار فقيم كتاباته بقوله: «قلما كانت مواقفه في مصلحة الإسلام»[٢].

وعلى الجملة فهو مستشرق مستغرق في عداوته للإسلام أعظم ما يكون الاستغراق، ومتعصب أشد ما يكون التعصب، وتنطبق عليه مقولة: «هناك متعصبون للغرب وطنيا وجنسيا، كما يتعصب الريفي الساذج لكل شيء في قريته على كل شيء في قرية سواه»[٣].

وكذلك من غير المنصفين المستشرق دافيد مرجليوث (١٨٥٨. ١٩٤٠) يقول عنه في كتابه «محمد وظهور الإسلام» زعم فيه أن الرسول ﷺ كان رجلا انتهازيا، حيث تزوج أرملة ثرية كبيرة في السن طامعا في ثروتها، ثم جنح به الخيال المريض والأمنيات الكاذبة والكراهية الدفينة أن يزعم أن انهيار الإسلام أصبح وشيكا وزواله قريبا. ولا جرم أن كلماته تقطر حقداً وبهتانا وتعبر عن تعصب شديد، ومن المعلوم أن دراسات مرجليوث «كانت تسري فيها روح غير علمية ومتعصبة، مما جعلها تثير السخط عليه ليس فقط عند المسلمين، بل وعند كثيرا من المستشرقين». فيما ذهب إليه عبد الرحمن بدوي[٤].

=«وات» من المستشرقين المعاصرين المتخصصين في الفكر الإسلامي، حصل على الدكتوراه في علم الكلام، رأس قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبرة، من أشهر مؤلفاته: محمد في مكة، ومحمد في المدينة، محمد النبي ورجل الدولة.

(١) موسوعة المستشرقين ص ٥٠٣. خلع يوهان فوك على مرجليوث ثوب المديح الفضفاض، المزركش الألوان المبالغ فيه فوصفه بأنه: العالم المثقف، خفيف الظل متنوع الاهتمامات. (ص ٢٨٥) ونحن نتفق معه أنه كان عالما موسوعيا متعدد المشارب، ونقدر جهوده في، نشر رسائل أبي العلاء المعري وتحقيق معجم الأدباء لياقوت، ونشوار المحاضرة للتنوخي وقسم من تجارب الأمم لمسكويه، لكن العالم الذي لا يكون أمينا مع حقائق التاريخ، ويحرف الوقائع ويحركه دافع التعصب، ويتنكر للموضوعية، فهذا ليس عالما ولا يستحق الاحترام، أما خفة الظل فهي مسألة ذاتية نسبية تتعلق برؤية فوك، ولا يلزمنا أن نعتقد في صدقها.

(٢) إنسانية الإسلام، ترجمة عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٣١.

(٣) العقاد: ما يقال عن الإسلام، نهضة مصر، القاهرة، بدون ص ٨.

(٤) موسوعة المستشرقين ص ٥٤٦، نساء النبي ص ٥٤ يقول بدوي عنه: لقد جند نفسه طول حياته عدوا عنيدا ضد= الإسلام ودفعه تعصبه العنيف إلى عرض مزاعم شديدة الغرابة لم يكن القصد منها سوى الهجوم على الرسول والحط من رسالته. (دفاع عن القرآن ص ٦٥)

وهناك أمثلة كثيرة من هذا الصنف من المستشرقين نستطيع أن نرصدهم فقلوبهم معبأة بكراهية الإسلام وعقولهم مشحونة بالحقد عليه ونفوسهم تكاد تتمزق غيظا من انتصار الإسلام، وهم أساتذة في الضلال والتضليل؛ مثل، جولد تسيهر (١٨٥٠- ١٩٢١) gold tseher.وفاسيلي بارتولد (١٨٦٩ - ١٩٢٧) vacely bartold. وهنري ماسيه (١٨٨٦- ١٩٦٩) henry masih وغيرهم.

٤- عقدة التفوق الأوربية، والنظر إلى الحضارة الإسلامية نظرة دونية

ينبع انكباب المستشرقون على دراسة مختلف جوانب تراث الحضارة الإسلامية، من عقدة التفوق والعنصرية العرقية.وإحساس طاغ بتضخم الذات، لأنه هو الذي يقوم بدراسة تاريخ الشرق وتراثه بالتحليل والتفكيك، وعنده شعور قوي بأنه الرجل الأبيض صاحب الحضارة المتفوقة علميا ومنهجيا وحضاريا ولها سيطرة سياسية بادية للعيان بدليل احتلالها لمعظم أقطار الشرق فهم أصحاب الحضارة المسيطرة وغيرهم أتباع لهم، هم الأعلى ونحن الأدنى، هم المركز وغيرهم الأطراف، هم المتن والنص وغيرهم الهوامش والشروح، زد على ذلك نظرة عنصرية نابعة من تراثهم الديني التوراتي، ومترسبة في ضمائرهم أنهم أبناء سارة الحرة التي طردت جاريتها هاجر حينما أنجبت ابنها إسماعيل فأخذه أبوه إبراهيم وأسكنه بلاد العرب الجرداء مهد الحكايات الخرافية والروايات الأسطورية والوثنية الدينية، ومحمد هذا ينتمي إلى نسل إسماعيل.

من هذا المنطلق العنصري يلج المستشرق باب الدراسات الإسلامية، وقد تكونت في عقله صورة ذهنية مشوهة عن الرسول ﷺ والإسلام والمسلمين، وجملة قناعات، أهمها شعوره بالتفوق أو بالأحرى «عقدة التفوق» والتميز ونظرته الدونية للحضارة الإسلامية، ومن ثم تتسم أحكامه بالاستهانة بعقلية العرب وتراثهم وتاريخهم وحاضرهم[١]، والتصغير من شأنهم، ومن ثم يسقطون هذه النظرة على سيرة الرسول ﷺ ودعوته ودينه و غزواته.

---

(١) إن هذه العقدة (عقدة التفوق) إزاء المسلمين جعلت المواطن الغربي لا يرى تناقض في سلوك حكومته التي تدعي الحرية والديمقراطية والليبرالية والتقدم، ومن جانب آخر تمارس القهر الاستعماري وتساند أقطاب الدكتاتورية وأذناب المستعمرين في دول الوطن العربي (عبد الله يوسف سهر: مؤسسة الاستشراق والسياسة الغربية ص ١٩: ٢٠).

ولا شك أن هناك عوامل تاريخية وسياسية رسخت هذه النظرة لعل أهمها؛

التراث التاريخي النقدي والسلبي الذي خلفه رجال الدين في العصور الوسطى ورؤيتهم الخيالية بأن محمدا هو المسيح الدجال وظهوره يشي بقرب القيامة، والحروب الصليبية وتقاريرها العقيمة والكذوبة التي ادعت بأن عدد النصارى في الشام ومصر أكثر من عدد المسلمين، وظنهم أن جحافل التتار الهمجية مسيحية في عقيدتها مؤمنون بالمسيح المخلص وسوف يحطمون ديار الإسلام تحطيما كاملا وبذلك يوفرون على أنصار المسيح حروبهم للإسلام، ثم تبين لهم أن القواسم المشتركة بين المسيحية والإسلام كثيرة في المجال العقدي والأخلاقي، وأن الخطر يكمن في المغول الوثنيين، ومع هذا ظل أمل الكثير من اللاهوتيين أن يقوض المغول دولة الإسلام؛ هذه التقارير لم تنقل إلا ما يريح ضمائر كاتبيها ويشفي غلهم من الإسلام وتهدئ خواطر من يقرأها من المسؤولين وكبار الرهبان و الباباوات، ووصف الإسلام بأنه الخطر الماحق على النصرانية والحضارة الغربية، ولا شك أن هذا الكم الهائل من الأحلام الرومانسية والتصورات الخرقاء والكتابات الحمقاء التي تركوها مليئة بالحقد والكراهية على الإسلام(١). هذا أولا.

وثانيا: النهضة الأوربية الصاعدة بكل ما تحمله من نظريات فلسفية ومذاهب سياسية وأفكار تنويرية واكتشافات علمية وتقدم سريع في مجال الصناعات واختراع كثيرا من أسلحة الحرب، واتساع الفجوة بين الغرب المسيحي والإسلامي.

ثالثا: انتصار فرديناند وزوجته إيزابيلا على ملوك الطوائف المتناحرين الفاسدين المفسدين الذين أضاعوا أمجاد الأجداد في الأندلس انتصارا ساحقا وهزيمتهم هزيمة منكرة وطردهم بطريقة مهينة من غرناطة (١٤٩٢ م)، آخر قلعة للمسلمين في الأندلس ومحاكمة المسلمين فيما سمي بمحاكم التفتيش وتخييرهم بين التنصير أو الطرد أو القتل، و قتلهم بطريقة بشعة مازالت تطفح بها كتب المؤرخين الغربيين.

ورابعا: بحوث أرنست رينان (١٨٩٢) العنصرية عن تفوق الجنس الآري وعقليته

---

(١) وصف جون ويكليف من جامعة أكسفورد في القرن ١٤ الحروب الصليبية بأنها كانت بغير معنى، وكانت أصلا من أصول البلاء لأن الأسباب الداعية لها دنيوي تتصل بحب التملك والسلطان وليس بدين المسيح .(سوذرن: صورة الإسلام ص ١٢٨).

العلمية التي تنتقل في تدرج من المقدمات إلى النتائج في مواجهة العقلية السامية التي تتسم بالتناقض وقبول الخرافات وعدم إدراك الأسباب والربط بينها ربطا تعسفيا، نقول لاشك أن مثل هذه العوامل الجوهرية والحاسمة، ساهمت في تعميق هذا الشعور، وزكت هذا الإحساس بالتفوق[١] عند المستشرقين، فجاءت كثيرا من أبحاثهم تفتقد الموضوعية والمنهجية العلمية. لاسيما وأن هذه المقولات المتعسفة وجدت آذانا مصغية واستعدادا نفسيا لقبولها عند كثير من المستشرقين مثل ليون جوتييه الذي توسع في ميدان العنصرية توسعا كبيرا[٢]، واستعارها اللورد كرومر واستند إليها في برهنته على اتهام العقل الشرقي بأنه يفتقد الدقة ناهيك عن ضعف ملكته المنطقية[٣].

وهذا ما سوف نراه من خلال هذه الدراسة والنماذج التي سنخضعها للتحليل والتفكيك.

خامسا: الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨) بقيادة نابليون، وظهور الفارق المعرفي

---

(١) يقول رينان في خطبة له في الكوليج دي فرانس: الإسلام هو النفي الكامل لأوربا، الإسلام هو التعصب، واحتقار العلم والقضاء على المجتمع المدني، إنه الفكرة السامية المرعبة. (عبد القادر طاش: صورة الإسلام ص ١١٢) وقد لخص المؤلف أسباب عداء الغرب عامة للإسلام وتشويه صورته في العوامل النفسية، والعوامل السياسية والعوامل الإعلامية والعوامل الذاتية (ص ١١١: ١٤٧).

(٢) تبنى جوتييه هذه النظرية وتوسع فيها توسعا فظيعا وظل يضرب الأمثلة التي تؤكد فكرته مثل أن البيئة العربية تحتوي على الجبال الشاهقة والوديان السحيقة، ويتحول مناخاها من الجو الحار إلى البرودة الشديدة، وكذلك يلاحظ أن ملابس العربي تحتوي على الألوان المزركشة الفاقعة وينتقل من حالة الضحك إلى البكاء .وهكذا يعالج قضية خطيرة بهذه الأمثلة السطحية (المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، ترجمة محمد يوسف موسى، دار الكتب الأهلية، القاهرة، ١٩٤٥) ولا شك أن هذه النظرية العنصرية أصبحت من مخلفات الاستعمار وتراث العقلية العنجهية الأوربية وقد طواها النسيان .وقد تصدى لها جمهرة العلماء العرب وعلى رأسهم مصطفى عبد الرازق وإبراهيم مدكور وعلي سامي النشار، ومعظم من كتب في الفلسفة الإسلامية تصدى لها وفندوها تفنيدا علميا . ومن الغربيين بول ماسون في كتابه الفلسفة في الشرق .ترجمة محمد يوسف موسى، ص ٢٠ .

(٣) إدوارد سعيد: الاستشراق ص ٧٥. وقد رد عليه شبلي شميل بقوله:لقد أخطأ كرومر حين قال: «إن شريعة القرآن لا توافق العمران في كل عصر، والمنصف لا يسعده أن يلقي على القرآن تبعة تقهقر الأمم الإسلامية، فإذا أرادت الأمم الإسلامية أن تجاري الأمم المتمدنة في ارتقائها، فالقرآن لا يحول دونها، وإن في القرآن أصولا اجتماعية عامة ما يجعلها صالحة للأخذ بها في كل زمان، وأن القرآن فتح أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة لترقية الروح والجسد بعد أن غيره من الأديان تلك الأبواب فقصر وظيفة البشرية على الزهد والتخلي عن هذا العالم الفاني» (صالح البنداق: المستشرقون وترجمة القرآن ص ١٠٩).

والتقني والحضاري بين الغرب والشرق والذي ظهر جليا في وضعية المماليك المتخلفة وضعف حسهم الوطني وتفكيرهم الساذج وأسلحتهم البدائية البدوية في مواجهة جيش نابليون المدجج بالبنادق والمدافع، وكان من سخرية القدر أن هتف مراد بك عندما سمع أن الفرنسيين نزلوا سواحل الإسكندرية: هؤلاء مثل حب الفستق؛ للكسر والأكل !!

وكذلك المواجهة العلمية بين علماء الحملة ومنهجهم العلمي التجريبي وعقلية علماء الأزهر التي كانت تعيش في القرون الماضية والعصور السحيقة والمتون والحواشي وتؤمن بالكهانة والعرافة ودخول الجني في الإنسي والحديث عن فنون السحر، والشيخ أبو خطوة وزيارة الأضرحة وتقديس الأولياء، وتحرم تعلم المنطق والفلسفة والجغرافيا وغيرها من العلوم.

٥ - تجريد الحضارة الإسلامية من اصالتها وبعدها الميتافيزيقي

نظرا لما سبق ذكره من تضخم الذات الأوربية والإحساس بعقدة التفوق تجاه الشخصية المسلمة، والبون الشاسع بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي، في كافة المجالات العلمية والصناعية والزراعية، واعتماد دول العالم العربي على الغرب، في معظم شؤون حياته، في الدواء والغذاء والسلاح.

ثم إنه في الوقت الذي بدأت فيه النهضة الأوربية تعم دول أوربة، وتستيقظ من سباتها وتحقق نجاحات ساحقة - مستمدة مجملها من مراكز الإشعاع الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا والأندلس - لاسيما في مجال النظريات السياسية والمذاهب الفلسفية والاكتشافات العلمية والاختراعات التي تيسر حياة الأوربي وتساعد على سعادته ورفاهيته، وتحقيق كينونته، كانت دول العالم الإسلامي تدخل في مرحلة التدهور والانهيار والغياب عن مسرح التاريخ (لأسباب لا داعي لذكرها هنا)، ولا شك أن هذه الوضعية المتردية أغرت شهية الأوربيين إلى القيام باحتلال دول الوطن العربي وتفكيك وحدته واستغلال ثرواته وتسخير مقدراته لصالحهم، استكمالا لمشروع الحروب الصليبية. في ضوء هذا الميزان المختل الأركان، والصورة واضحة الأنوار في ناحية وشديدة الإظلام في ناحية أخرى، وتباين وضعية المعسكرين، يدخل المستشرق ميدان الدراسات الإسلامية ويقلب في تراثه الحضاري، كل هذه المؤثرات قد لعبت بعقله، ونفذت هذه المفارقات إلى مسامه واستقرت في ضميره،

وضللت أحكامه بطبيعة الحال.

من هذا المنطلق عند المستشرق إصرار عنيد على إنكار أي بعد غيبي للدين الإسلامي ورسوله ﷺ، ورفض أي علاقة بين تعاليم الرسول والسماء أو أي قدسية لقرآنه أو تشريعاته، ليس هذا فحسب بل استنكار هذا البعد الغيبي، أو الاعتقاد في عصمته فهو إنسان لا غير وليس له صلة بأي وحي أو اصطفاء من السماء، كأنما لا توجد رسالات سماوية هبطت إلى أرضنا قبل ذلك، ولا توجد كتب مقدسة حملها الأنبياء لقومهم.هذا من جهة.

ومن جهة أخرى؛ حينما يقرأ المستشرق عن الفلسفة الإسلامية لا يتورع أن يقول : إنها صدى للفلسفة اليونانية وصورة من صور الفكر الأرسطي كما ذهب إلى ذلك دافيد سانتلانا ودي يبور، وأنها استمدت أفكارها من فيلون السكندري (٢٥ ق.م)، كما عبر عن ذلك سلمون مونك.

وهكذا النظر إلى باقي إبداعات الحضارة الإسلامية الزاهية، فالفقه الإسلامي الذي أنتجه علماء أجلاء وصفوة الأئمة الفقهاء وأرسوا قواعد هذه المذاهب، وشرحوا معالمها وأبدعوا في توضيح تفاصيلها، وقد استمدوا كل ذلك من القرآن والسنة، على أن المستشرق لا يرى كل ذلك، أوحينما يقرأ ذلك يسارع بالقول: بأن الفقه استمد كل قواعده ومفرداته من القانون الروماني، وهذا ما ذهب إليه جوزيف شاخت وأضرابه.

أما إذا ذهبنا إلى الحديث عن التصوف الإسلامي الذي كان إفرازا طبيعيا لآيات القرآن التي تتكلم عن الزهد والإعراض عن متع الحياة وأنها عرض يظهر ثم يندثر مثل الهشيم تذروه الرياح، زد على ذلك حياة الرسول ﷺ التي عبرت أعظم تعبير عن التعالي عن طيبات الحياة ويكفي أن نعلم أنه كان يربط على بطنه حجر، ولا توقد النار في بيته إلا كل ثلاثة أشهر.

هذا الزهد ومن بعده مرحلة التصوف اللذان هما نتاج البيئة الإسلامية وتراثها ومعطيات القرآن وسيرة الرسول ﷺ التي كانت أنموذجا يتيما في العفة والزهد ومجانبة الدنيا، وصحابته الأوائل، لا يقنع المستشرق بكل هذا، ولا يغير الثوابت الكامنة في أعماقه وفي عقله الباطن، ولذلك لا يجد حرجا أن يشير إلى المؤثرات اليهودية والنصرانية، وأن صوفية المسلمين أخذوا لبس الصوف من الرهبان ، وهذا ما ذهب إليه ماكدونالد و جولد تسيهر.

وهناك من ربط بين شخصية بوذا وسيرة إبراهيم بن أدهم (ت ١٦٢ هـ) كما قرر دي ساسي أوليري (1872 – 1957) d.olerey [١] و يؤكد استمداد التصوف الإسلامي من التراث الفارسي، بل إن نشأته نتيجة للمؤثرات الهيلينية إلى حد ما[٢].

ليس هذا فحسب بل إن فكرة «المهدي المنتظر» وهي فكرة خرافية تعبر عن هزيمة النفس الإنسانية في مواجهة واقع الحياة ومصاعبها، واستبداد النظام السياسي وظلمه لجماهيره، وتجافي الواقع المعيشي، وتهرب منه إلى عالم من الخيال الفسيح والأحلام الوردية والرؤى الميتافيزيقية، حتى تشعر النفس بالأمان والطمأنينة بعيدا عن منغصات الواقع وتزيح المسؤولية النضالية عن روحه، أقول حتى هذه الفكرة الخيالية استكثرها جمهرة المستشرقين على حضارتنا ونسبوها إلى العناصر اليهودية والمسيحية[٣].

وهكذا، في باقي إبداعات الحضارة الإسلامية عندهم هاجسا قويا لتجريدها من أي إبداع، وطمس أي نظرية فقهية، وإنكار أي أصالة فلسفية عند الكندي (ت ٢٥٥ هـ) والفارابي (ت ٣٣٩ هـ) وابن سينا (ت ٤٢٨هـ) أو أي إضافة في مجال الطب (محمد بن زكريا الرازي ت ٣٢٠ هـ) وابن سينا، أو تقديم أي فكرة طريفة في ميدان الكيمياء (جابر بن حيان ت ٢٠٠ هـ) والطبيعة (الحسن بن الهيثم ٣٥٤- ٤٣٠هـ) والفلك والرياضيات (الخوارزمي ٣٨٧ هـ).

إن هؤلاء القوم عندهم هوس بحضارتهم كأن لا أحد يشاركهم على الكرة الأرضية، ولم يخلق الله من البشر ويهبهم عقولا تفكر إلا هم، وإلا فكيف نفسر قول أرنست رينان

---

(١) مستشرق إنجليزي، يقف موقفا متجنيا على الفلسفة الإسلامية بخاصة ومتحاملا على الحضارة الإسلامية بعامة، عمل أستاذا في جامعة برستول، اشتهر بكتابه «الفكر العربي ومكانه في التاريخ، وعلوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، والكتابان مترجمان إلى العربية.

(٢) الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة إسماعيل البيطار، الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٥٥

(٣) العقيدة والشريعة، ترجمة محمد يوسف موسى، وآخرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ص٢١٧، ٢١٨ . من المعلوم أن شيخ الإسلام محمد الغزالي وضع كتابا كاملا لنقد هذا الكتاب، بعنوان دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥ . وقد لام مترجمي الكتاب لوما شديدا لأنهم لم يقدموا النقد الواجب ولم يدحضوا افتراءات جولدتسهير بما فيه الكفاية. ورأى أن الكتاب من شر ما ألف عن الإسلام وأسوأ ما وجه إليه من طعنات.(دفاع عن العقيدة ص ٤).

الفرنسي ومن بعده تيودور نولدكه (١٨٣٦- ١٩٣١) الألماني ادعاءهما بأن علم النحو عند العرب تأثر بمؤثرات أجنبية لاسيما من أرسطو(١).

ونحن نعلم أن العرب وضعوا قواعد علم النحو و أبدعوا فيه إبداعا عظيما وخط خطوطه العريضة أبو الأسود الدؤلي (ت٦٩هـ)(٢)؛ فهم أهل اللغة والبلاغة، والخاطر الحاضر والقدرة على صياغة الشعر وإرساله بتلقائية في صياغة نحوية محكمة وبلاغة مدهشة، وكانوا يرسلون أولادهم إلى البادية حتى يتعلموا اللغة من منبعها الصافي النقي.يقول يوهان فوك: «لقد تكفلت القواعد التي وضعها النحاة العرب في جهد لا يعرف الكلل، وتضحية جديرة بالإعجاب بعرض اللغة الفصحى وتصويرها في جميع مظاهرها؛من ناحية الأصوات والصيغ وتركيب الجمل، ومعاني المفردات على صورة شاملة، حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد»(٣).

كأنما هذه الحضارة لم تكن ملء الدنيا وترجم تراثها ونقل إلى الغرب وقام بذلك نخبة من المسلمين والنصارى واليهود(٤)، ولم تؤثر في الحضارة الأوربية، وقد اعترف مئات من المؤرخين الأجانب بفضلها، وقد استفادت النهضة الأوربية من تراثها وكانت صقلية وجنوب إيطاليا مراكز إشعاع لهذه النهضة.يقول لوبون: «إن العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم النصرانية عدة قرون وأننا لم نطلع على علوم اليونان والرومان إلا بفضل العرب وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نُقل من لغاتنا من مؤلفات العرب إلا في الأزمنة الحاضرة»(٥).

لقد صدق هذا الباحث الألمعي صاحب النظرة الثاقبة حينما قال: «إن التاريخ وفق

---

(١) ترجمته في: يوهان فوك: تاريخ الحركة الاستشراقية ص ٢٢٥ موسوعة المستشرقين ص ٥٩٥، إسماعيل عمايرة: المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية، دار حنين، عمان، الأردن، ١٤١٢ / ١٩٩٢ . ص ٣٩

(٢) ظالم بن عمرو بن سفيان، سكن البصرة في خلافة عمر، وولي إمارتها أيام الإمام علي، واضع علم النحو (الأعلام ج٣ / ٢٣٦).

(٣) يوهان فوك: العربية، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة عبد الحليم النجار، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٥١، ص٢ (نقلا عن، عبد الراجحي: التطبيق النحوي، دار المعرفة، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص٧).

(٤) راجع كتاب إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب. وكذلك كتابه موسى بن ميمون، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٥ .

(٥) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٤٣٧ . وكذلك سيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب .

الرؤية الغربية الاستعمارية يجب أن يكون عنصريا بحيث تبقى أوربة والغرب في القمة، وتبقى المؤسسات الغربية هي المؤثرة، في حين يبقى العرب والمسلمون على ما هم عليه من سلبية وضعف»(١).

ومن المؤسف أن هذه النظرة لم تصبح فكرة دفنت في طيات الماضي، أو اختفت من التاريخ، ولكنها مازالت تحكم علاقة الغرب العنصري بالعرب، ونظرة رؤساء أوربة إلى الحكام العرب.

٦ - محاكمة تاريخ الرسول ﷺ ودينه من منظور النصرانية والمنظومة الفكرية الغربية.

حينما يخوض المستشرق في حقل التراث الإسلامي بعامة والقرآن الكريم والسنة النبوية بخاصة يخلط ما بينهما ويمزجهما مزجا، ولا يفصل مابين التراث الذي هو إبداع للعقلية المسلمة في مجال الفقه والتفسير والفلسفة وعلم الكلام والتصوف وكافة الجوانب العلمية والمادية للحضارة الإسلامية عبر مراحل مسيرتها الوجودية وتفوقها وتقدمها ونهوضها الحضاري وتراكمها العلمي، وهذا كله إبداع إنساني قابل للأخذ والرد والنقد والقبول والرفض، وما هو وحي من الله لا يخضع للمناهج البشرية المادية كما رأينا عند كثيرا من المستشرقين. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى حينما يدخل المستشرق ميدان التراث بكل ذخيرته المعرفية وأبعاده الحضارية بعامة، وسيرة الرسول ﷺ بخاصة، ويتوقف أمام كثير من وقائع حياته ووحيه ومضمون أقواله، ويتأنى في قراءة سيرته قراءة معمقة ثم يلتفت إلى تقييم أطوار حياته ومحاكمته، نجده قد استند إلى مبادئ النصرانية وشخصية المسيح والمنظومة الفكرية في الحضارة الغربية.

فإذا تناول مسألة تعدد الزوجات عند الرسول ﷺ نقد ذلك نقداً مرا، وانزعج من هذا السلوك الطبيعي، واستدعى من ذاكرته صورة المسيح الذي لم يتزوج وعاش عزباً بلا زوجة

---

(١) عبد الله يوسف: مؤسسة الاستشراق والسياسة الغربية ص ١٤، ١٥.

ولا ولد.أنصت لمقولة بولس (ت ٦٦ م)[١] أن المرأة هي أصل الغواية وهي التي أخرجت آدم من الجنة، ثم وصيته: أن على المرأة أن تبيع جسدها لله ولا تمنحه للرجل. وقوله: حَسِن للرجل أن لا يمس امرأة، وعلى غير المتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا[٢].

واستحضر صورة الرهبان والراهبات الذين يعيشون بعيدا عن صخب الحياة منقطعين للعبادة زاهدين في طيبات الحياة معرضين عن ملذاتها. لكنه يغمض عينيه عن المآسي التي نتجت عن ذلك والانحرافات الخلقية والعلاقات الجنسية التي وقعت في الأديار ورفات الأجنة التي دفنت في ساحاتها وباحاتها ، ووصل الأمر إلى أن العديد من الرهبان كان لهم أولاد غير شرعيين، وكذلك كان لأحد البابوات أكثر من تسعة أولاد غير شرعيين[٣].

وموقف آخر يتجلى في رفض كثير من المستشرقين لنبوة رسولنا الكريم ﷺ وإنكار ذلك ورميه بجملة من الافتراءات - كما سنبين بعد ذلك - وهذا الرفض ينطلق من اعتقادهم أن النصرانية هي خاتمة الديانات وهي أكملها وتمام كل دين سابق وغاية الثمرات التي تمخضت عنها الحركات الدينية في العالم، وبها ختمت والدين المسيحي ناسخ لجميع الأديان على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي فيكتور كوزان (ت ١٨٤٧)[٤].

ويؤكد الفكرة السابقة أحد المستشرقين بقوله: «بلغ الإيمان المسيحي في أوربة شأواً عظيما في العصر الوسيط وعصر النهضة، وكان من نتيجة ذلك التعصب الإعلان عن أن جميع الديانات، ما عدا المسيحية، ذات أصل شيطاني، ولذا فإنها عقائد زائفة كاذبة»[٥].

---

(١) اسمه شاؤول، يهودي رواني ولد في طرسوس، تربى في أورشليم، كان ينتمي لفرقة الفريسيين اليهودية، تأثر بالفلسفة اليونانية، تحول من اليهودية إلى النصرانية وحمل معه معظم معتقداتها فخلط اليهودية بالنصرانية، وغير مفاهيم النصرانية وعمل على نشرها وأدخل عليها كثير من الأساطير مثل تأليه المسيح وصلبه وفكرة التثليث .
(أبو زهرة: محاضرات النصرانية، الرياض، ١٤٠٤ هـ، ص ٨٥: ٩١)

(٢) محمد أحمد الخطيب: مقارنة الأديان، دار المسيرة، الأردن، ٢٠٠٨، ص ٢٥٤

(٣) راجع في ذلك سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا في العصور الوسطى. وقد أشار راسل في أكثر من موضع في كتابه عن الانحرافات الجنسية للقساوسة والتدهور الأخلاقي فيقول:إن الحياة غير الفاضلة التي كان يحياها كثير من القساوسة زعزع الثقة الشعبية في الدين .(حكمة الغرب ج٢ / ٢٦)

(٤) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ص ٨.

(٥) جيب: علم الأديان ص ٧.

كذلك يؤمنون أن المسيح قام من الأموات (القيامة الأولى) وصعد إلى السماء وسيعود إلى العالم يقتل المسيخ الدجال ويملأ الأرض عدلا، ثم تقوم القيامة الثانية.

الشاهد أن المستشرق في قراءته لسيرة الرسول ﷺ ومسيرته الطويلة، ينظر إليه من خلال مقولات الأناجيل وحياة المسيح وتراث الحضارة الغربية المعبأ بالكراهية للإسلام ورسوله والحروب الصليبية التي دارت على أرض المسلمين وخلفت مآسي مازالت غير غائبة عن ذاكرتهم وذاكرتنا أيضا، ومن هنا تكون المحاكمة غير منصفة ليس هذا فحسب بل تكون ظالمة أقسى ما يكون الظلم. هذا أولا.

ثانيا: قد تكون المحاكمة من خلال المنظومة الفكرية الغربية، أي من خلال فلسفة ماركس (١٨١٣- ١٨٨٢) التي تنظر إلى الأديان أنها ظاهرات دينية مثل أي ظاهرة طبيعية أو اجتماعية أو فكرية والدين عبارة عن بناء فوقي يعد انعكاسا للعامل الاقتصادي الذي يتطور مع الحتمية المادية الجدلية، والدين أفيون الشعوب، إذ تستغله الطبقات البرجوازية الحاكمة لاستنامة الطبقات الكادحة واستمرارية استغلالها طبقيا[1].

وهذا التوجه يظهر عند العديد من المستشرقين على رأسهم كيتاني و بندلي جوزي (١٩٤٣) وجيب، ورودنسون الذي اشتهر باعتناقه الفلسفة الماركسية.

أو فلسفة فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) العدمية التي تنكر وجود الله وتعلن موته ؛فالمسيحية التي تدعو للصبر والتسامح والمحبة تمثل أخلاق العبيد في مواجهة أخلاق السادة؛أخلاق القوة والبطش والبطولة والانتصار.

وقد يكون هذا المستشرق متأثرا بمدرسة التحليل النفسي عند سيجموند فرويد (١٩٣٩) التي تنظر إلى الدين أنه مرض عصبي ووسواس قهري ألم بالإنسان في مرحلة الطفولة بسبب فقده للأب، فاخترع فكرة الإله الذي يعد الأب المثالي، ولاشك أن الإنسان حينما يبلغ مرحلة الرشد سوف يتحرر من هذه الأفكار الخارقة للطبيعة. ولاشك أننا سنرى

---

(١) في حين يرى المفكر الجزائري مالك بن نبي: أن الدين في ضوء القرآن يبدو ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكم في تطورها .(الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ١٩٨٥، ص ٣٠٠).

صدى هذه الفلسفات المادية العدمية مجتمعة عند بعض المستشرقين حينما يتناولون سيرة الرسول ﷺ بالدراسة والتحليل.

في ضوء كل هذا ينسى المستشرق نسيانا تاما خصوصية التراث الإسلامي «بوصفه نتاجا لخصوصيات حضارية، قامت وارتبطت ببناء عقائدي وعبادي وتشريعي وقيمي متميز لا يصح ولا يجوز ضبطه وفقا لقوالب ومفاهيم ومصطلحات غريبة عنه» على حد تعبير بعض الباحثين المسلمين[1].

٧ ـ افتقاد الأمانة في نقل النصوص، وعدم فهم ابعادها، والخطأ في استنتاج مغزاها.

يلاحظ الدارس لكتب الاستشراق غرامهم بحشد مئات المراجع ، سواء رجعوا إليها أم لم يطلعوا عليها، وتسجيل المئات في الحواشي مع الإشارة إلى الجزء والصفحة وأحيانا رقم السطر، وهذا أمر محمود لا غبار عليه، ويحمد لهم هذا الصنيع في المنهج العلمي.

إلا أن الإشكالية حينما نرجع إلى التحقق من صدق ذلك ندرك التدليس في الاستشهاد وعدم الأمانة العلمية في كثيرا من الأحوال، ونتأكد أنه لم يرجع إلى المصدر، ثم إذا تأكدنا من ذلك نلمس التحريف في عملية النقل إما لعدم الإحاطة بحقيقة اللغة ومفرداتها واشتقاقاتها ومقاصدها، أو لسوء نية مبيتة. هذا أولا.

ثانيا: الخطأ الفادح في استنباط المغزى من النص، والغرض الذي قصده المؤلف، وتأويل معناه بما يبعد الإنسان عن المعنى الحقيقي ومن ثم يتم تبديل قصد المؤلف وأحيانا يأتي بعكس مراده.

وهذه القضية ليست عارضة بحيث نرجعها لسهو من المؤلف، ولكنها سمة عامة عند الكثير من المستشرقين، إما أنه استعصى عليه فهم اللغة والإلمام بأبعادها ولم يسبر غورها . ومن المعلوم أن اللغة العربية بحر لا شاطئ له ، أو سوء نية في تشويه الحقيقة أو تسرعه في عملية النقل وعدم تحري الحقيقة.

---

(١) جمال سلطان: الغارة على التراث الإسلامي، مكتبة السنة، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٤٧.

والأمثلة في ذلك كثيرة فحينما نطالع كتاب مذاهب التفسير لجولد تسيهر ونتابع استدراكات الدكتور عبد الحليم النجار، وتصويبه كثير من النقولات و الاستشهادات، وهذا ما رأيناه أيضا في كتابه العقيدة والشريعة واستدراكات الدكتور محمد يوسف موسى على هذه الأخطاء والتنبيه عليها، دعك من التعقيبات المتعلقة بالخلاف في الرأي. وهذا ما نلمسه عند فلهوزن في كتابيه الدولة العربية وتعقيبات الدكتور أبو ريده، وأحزاب المعارضة السياسية وتصويبات الدكتور عبد الرحمن بدوي وتعقيباته الطويلة في الهامش وإثبات خطأ فلهوزن في النقل أو التأويل المريب للنص [١]، وهذا ما قام به محمد عبد الغني حسن مع كتاب كارا دي فو عن الإمام الغزالي، وأبو ريده مع دي بور في كتابه عن الفلسفة الإسلامية.

فمثلا، نسب سفاري إلى جلال السيوطي (٩١١ هـ) أنه يقول: إن الذبيح هو إسحاق، وبالرجوع إلى تفسير الجلالين نعلم أن السيوطي أشار إلى قولين عند المفسرين؛ إسماعيل أو إسحاق، فاختار المستشرق ما يروق له ويتفق مع فلسفته وتوجهاته[٢]. وتفسير آخر مضحك - يروح عن نفس الإنسان الحزينة الكئيبة بسبب ما يجري في وطننا العربي بعامة، ومصرنا الحبيبة بخاصة - ذهب إليه إدوار مونتيه (ت١٨٥٦ - ١٩٢٧)[٣] في ترجمته لقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ [طه: ٩٤] فيفهم منه أن موسى فعل ذلك تحية لأخيه هارون على الطريقة التي كانت شائعة في آسية الشرقية في الزمن القديم رمزا للمودة والإخاء. ونعتقد أن الآية واضحة وهي تظهر غضب سيدنا موسى بعد أن عاد ووجد قومه يعبدون

---

(١) استدرك بدوي على طائفة من المستشرقين وعلى رأسهم جولدتسيهر ونولدكه وجودفري ديمومبين وبلاشير وغيرهم وقوعهم في أخطاء عديدة بسبب عدم فهمهم لمعاني اللغة العربية، وسوء تفسير معاني القرآن (دفاع عن القرآن، في مواضع متعددة).

(٢) حقق الشيخ عبد الوهاب النجار هذه المسألة، وقرر أن الذبيح هو إسماعيل، إذ تؤكد التوراة أن الذبيح وصف بأنه ابن سيدنا إبراهيم الوحيد، ومن المعلوم أن إسماعيل ابن هاجر المصرية كان هو الابن الوحيد، قبل أن تنجب سارة إسحاق التي غارت منها وطلبت من إبراهيم طردها وابنها .(قصص الأنبياء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ص ١٠١).

(٣) ولد بليون، من أصل سويسري، حصل على الدكتوراه في اللاهوت البروتستانتي من جامعة باريس، عمل في جامعة جنيف، وسافر إلي المغرب في بعثة علمية، وانتخب عضوا في المجمع العلمي بدمشق، من أهم مؤلفاته: حاضر الإسلام ومستقبله، تاريخ شعب إسرائيل ترجم القرآن إلى الفرنسية (العقيقي ج١ / ٢٢٩).

العجل، فألقى الألواح وأخذ برأس أخيه ومثال آخر، حينما ترجم قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩] قال: هذا تشبيه للعيون البيض، وهذا بيض من النوع الفاخر(١) والأمثلة تند عن الحصر(٢).

٨ - **التعويل على المنهج الفيلولوجي (فقه اللغة)**

يعد المنهج الفيلولوجي من أهم الأدوات النقدية التشريحية التي اشتهر بها المستشرقون في بحوثهم المعمقة حول التراث الإسلامي بعامة والعقيدة الإسلامية بخاصة، وسادت هذه النزعة في دراساتهم وأصبحت معلما جوهريا لبحوثهم لاسيما في تحقيق المخطوطات.

؛حيث يقوم المستشرق بتتبع تاريخ الكلمات والمفردات الإسلامية داخل النص القرآني أو في السنة النبوية أو في المنظومة العقائدية وأصولها شكلا ومعنى ومقارنتها بما ورد في اللغات القديمة.

ويرى باحث آخر أن المنهج الفيلولوجي يعني دراسة الآثار الفكرية والروحية دراسة تعول على النصوص وتحقيق الوثائق في العلم الذي يبحث في التراث الفكري للأمة باعتباره صورة لتطور العقل الإنساني دراسة تاريخية مقارنة، والنظر في تاريخ دلالتها المختلفة والبحث عن دلالتها في اللغات القديمة؛ العبرية والآرامية والسريانية ، وإعادة تشكيل اللغات المنقرضة والميتة، اعتماداً على التاريخ والمقارنة بالاستعانة بمختلف العلوم اللغوية والأدبية(٣).

وبتعبير آخر يقرر المنهج الفيلولوجي التاريخي؛ أن دراسة حضارة ما (المقصود هنا الحضارة الإسلامية) يتم عن طريق تحليل النصوص الأصلية، التي أنتجتها الحضارة ودراسة مفردات لغتها وتراكيبها على وجه الشمول، وتحليلها تحليلا لغويا تاريخيا وعقد مقارنات بين هذه اللغة واللغات الأخرى، بناء على أسس محددة تحديدا دقيقا وعلى تحقيق المخطوط من

---

(١) نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ٣٨، ٤٠).

(٢) سجلت كثير من الأمثلة والأخطاء التي وقع فيها المستشرقون، وأسباب القصور عندهم في كتابي: الاستشراق والمستشرقون، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٣ ص ١٠٢.

(٣) عبد الحكيم فرحات: نبوة محمد في الاستشراق الفرنسي، ص ٢٥ .

آثارها. فإذا ورد نص في القرآن أو مصطلح من المصطلحات وله نظير في كتبهم الكتاب المقدس، يسارع المستشرق بالهتاف بأن القرآن تأثر باليهودية أو النصرانية. ليس هذا فحسب بل لم يتورعوا أن يبحثوا عن نظائر لآيات القرآن الكريم في الشعر الجاهلي وطرحوا مثالا لذلك شعر أمية بن أبي الصلت.

ولا جرم أن نقرر أن هذا منهج سطحي وعقيم، إذ إن اللغة مواضعات وهي وسيلة للتواصل الاجتماعي والتفاهم البشري ومن الممكن أن تتشابه المفردات أو لا تتشابه فهي رموز تشير إلى الأشياء في الواقع، في حين أن القرآن بأسلوبه المعجز ورصفه المذهل وبلاغته اليتيمة مصدره من الله ويعبر عن حاجيات البشرية للتفاهم والتواصل، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، لا يفصح هذا المنهج عن أبعاد العوامل الحقيقية المؤثرة في الظاهرة التي يعالجها المستشرق ، لأنه يعالجها من زاوية واحدة وهي طبيعة المفردة اللغوية والبحث في جذورها، ويبحث عن التشابه الحاصل بين المفردتين في اللغة العربية ونظائرها في اللغات الأخرى.

فيذهب بعض المستشرقين أن كلمة «التحنث» مشتقة من الكلمة العبرية «تحنوت أو تحنوث» وهي تعني التعبد لله، وكلمة «قرآن» فهي كلمة سريانية «كريانا» التي تعني القراءة أو درس من الكتاب المقدس، وكلمة «الرجز» في قوله تعالى ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر: ٥] راجعة لكلمة «روجزا» السريانية التي تعني الإثم[١].

ويذهب مستشرق آخر أبعد من ذلك فيقول: «أما كثرة ورود ألفاظ طنانة في القرآن فشيء لا عجب فيه. إذ لابد أن الحاجة إلى المفردات كانت ماسة» ثم يضيف: كانت الكلمات في بعض الأحوال تستعار مع تغيير مدلولها. فإن لفظة «ملتا» ومعناها بالآرامية «الكلمة» تصبح في القرآن «الملة والدين»، وكلمة «الماعون» العبرية ومعناها المسكن، تدل في القرآن على «الصدقة أو الأوعية»[٢].

---

(١) مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ١٠٨، ١١٢، ١٣٩

(٢) فون جرونباوم: حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة مصر، القاهرة، ص ١١٠، ومن الواضح أنه نقل من كتاب نولدكه: تاريخ القرآن (طبعة ستراسبورج ١٩١٠ ص ٢٥ : ٢٩) وأحالنا عليه.

من المؤكد أن هذا التشابه لا يعني أن اللغة العربية تأثرت بمن سبقتها من اللغات، لأنها هي أقدم اللغات وهذه المحاولات البائسة تعد محاولات متعسفة، وثرثرة فارغة تشبه تحليلات ومناقشات وتهويمات ثلة (شلة) الأنس التي كانت تسهر في العوامة في قصة «ثرثرة فوق النيل» لنجيب محفوظ (١٩١١ - ٢٠٠٦)[١].

ومن المؤسف أن يذهب بعض علماء المسلمين وجهابذة اللغة إلى أن القرآن استخدم كثيرا من المفردات الفارسية والعبرية والحبشية التي كانت متداولة عند العرب. منهم أبو موسى الأشعري (٤٢ هـ) وعبد الله بن عباس (٦٨ هـ)

على أن هذا الرأي لا يجد قبولا عندنا ولا مساغا، ونعتقد أن الكلمات التي قال عنها بعض العلماء أنها فارسية و آشورية وسريانية وآرامية وحبشية ومصرية مثل؛ آدم، أباريق، آرائك، استبرق إنجيل زنجبيل وسجيل وغيرها من الكلمات هي عربية من صميم العربية في أصلها ونشأتها، وورودها في لغات غير عربية ليست دليلا على أنها أجنبية، إذ هناك تشابه في كثيرا من اللغات وبخاصة في اللغات السامية، ثم إن اللغة العربية هي أقدم اللغات في حين انقرضت باقي اللغات، أضف إلى ذلك هي لغة سيدنا آدم وإبراهيم وهي التي استمرت في التاريخ وتناقلتها الأجيال، حتى الهجرات التي خرجت من شبه الجزيرة العربية إلي الشام والعراق ومصر كانت تتكلم العربية، وأغلب اللغات التي اشتقت منها مثل الآرامية انقرضت، ويؤكد كثير من المؤرخين أن هذه المفردات عربية وقد يكون تم التحوير فيها[٢].

ومن الذين ينكرون قضية الدخيل في القرآن أي وجود مفردات أعجمية، ويؤكدون على عروبة لغته الإمام الشافعي (٢٠٤ هـ) والطبري المؤرخ والمفسر (٣١٠ هـ)، وأبو الطيب

---

(١) ناقش الدكتور بدوي هذه القضية مناقشة علمية، وناقش معظم المستشرقين في جملة المفردات التي طرحوها، وخرج بنتيجة مؤداها بأن هذه المفردات عربية (دفاع عن القرآن ص ١٣٣ : ١٣٥)

(٢) فضل حسن عباس: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، دار الفتح، الأردن، ٢٠٠٠، ص ٩٤ . راجع في هذا الموضوع بحثا ممتازا يفند كافة دعاوى المستشرقين عن قضية الدخيل من المفردات في القرآن ويرد على مزاعم برجشتراسر ونيولدكه، ويؤكد أن كل كلمة وردت في القرآن هي عربية أصيلة وقد استعملها العرب.(مساعد سليمان الطيار: الدخيل من اللغات القديمة على القرآن من خلال كتابات المستشرقين) .

كذلك في ردوده العلمية على دعاوى المستشرقين وتفنيد مزاعمهم، تناول الدكتور محمد أبو ليلة هذه القضية بتوسع ورد على جمهرة واسعة من هؤلاء المستشرقين الذين تزعموا فكرة وجود ألفاظ أعجمية في القرآن. (القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، دار النشر للجامعات، القاهرة، ٢٠٠٢ ص ٢٧٢ وما بعدها).

الباقلاني (٤٠٤ هـ) مجدد المذهب الأشعري.وغيرهم من علماء اللغة.واستندوا إلى آيات القرآن الصريحة الناصعة في تقرير هذا الأمر قوله تعالي ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

ومن جهة أخرى مفردات اللغة تعد مواضعات استعملها الإنسان لتحقيق التواصل مع الآخرين، وجسر من التفاهم بينهم وتحقيق طرائق للتعاون الاجتماعي.وهذه الأسماء تنبت من خلال السلوك الإنساني وتسمية الأفعال والأسماء بمسميات يتفق عليها أفراد المجتمع في ضوء ذلك فإن الواقع هو الذي يبدع اللغة ويخرجها من القوة إلى الفعل، ويطورها حسب حاجاته الاجتماعية والفكرية..[1]

ولعرض القضية عرضا موضوعيا نشير إلى وجهة نظر الدكتور بدوي الذي ناقش هذه القضية مناقشة علمية، وحاور معظم المستشرقين في جملة المفردات التي طرحوها، وخرج بنتيجة مؤداها بأن هذه المفردات من الممكن أن تكون قد تسربت إلى العرب من خلال رحلاتهم إلى الشام وحران والحبشة، وعن هذا الطريق اقتبس العرب هذه الكلمات الأعجمية وطوروها من خلال الحذف والإضافة واستعملوها في أحاديثهم وأشعارهم، حتى أصبح لها نفس السمت العربي الخالص[2].

وهذه وجهة نظر مقبولة، وإن كنت أميل إلى رأي الشافعي والطبري بأن هذه الكلمات هي عربية نقية، نبتت في التربة العربية، وأبدعتها قريحتهم من خلال الاحتكاك اليومي وضرورات الحياة المتجددة. ولعل تحليل العلامة العقاد (١٨٨٩- ١٩٦٤)؛ بسعة أفقه وغزارة اطلاعه وعمق فكرته وأسلوبه المتفرد يحسم هذه القضية ويظهر صدق موقفنا يقول: العرب هم أمة أقدم من اسمها الذي تعرف به اليوم؛ لأنها على أرجح الأقوال أرومة الجنس السامي التي تفرع منها الكلدانيون والآشوريون والكنعانيون والعبرانيون، وسائر الأمم السامية التي سكنت بين النهرين وفلسطين وما يحيط بفلسطين من بادية وحاضرة. وقد

(١) زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي، الأنجلو المصرية، ١٩٧٣، ج١ / ١٨

(٢) دفاع عن القرآن ص ١٣٣ : ١٥٩)

تتصل بها الحبشة بصلة النسب القديم. فهذه الأمم كلها تتكلم بفرع من فروع لغة واحدة هي أصل اللغات السامية، ويدل على تلك اللغة اشتراك فروعها في بنية الفعل الثلاثي التي انفردت به بين لغات العالم بأسره»[١].

وفي هذا السياق أجدني مضطرا إلى التنويه لوجهة نظر مالك بن نبي الذي يتشيع لوجود مفردات أجنبية في القرآن إذ يقول: «ذهب بعض المفسرين إلى أن القرآن لم يستخدم مطلقاً ألفاظاً أجنبية عن لهجة الحجاز، مع أنه من البين أن في القرآن ألفاظا جديدة، وخاصة تلك الألفاظ التي استخدمها لتعيين مفاهيم توحيدية جديدة من الناحية النوعية كلفظ (ملكوت) والأسماء الخاصة مثل (جالوت وهاروت وماروت)، فمن وجهة نظر الدراسات اللغوية يبدو القرآن وكأنما قد استحضر ثروته اللفظية الخاصة، وأنشأها إنشاء بطريقة فجائية وغريبة»[٢].

لاشك بأن كل قضية لها نقيضها، وكل قول لا يسلم من الرد والنقض، وهذه جدلية الفكر، نعتقد أن ما قدمناه يهدم هذا الرأي، ونضيف إلى ما سبق بأن «هذه الشعوب التي يدعونها بالأكادية والبابلية والآشورية والآرامية وغيرها من شعوب المنطقة إنما هي شعوب عربية انطلقت من جزيرة العرب وهي شعوب ذات حضارة تحمل خصائص العرب ولغتهم العربية الخالدة وذلك مما يؤكده باحثون كثيرون من الغرب والشرق. لقد أثبت هؤلاء الباحثون أن جزيرة العرب كانت مصدرا ثريا لحضارات العراق والشام ومصر، إذ خرجت

---

(١) أثر العرب في الحضارة الأوربية، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٥. وقريب من هذا ما ذهب إليه طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٣٣، ص٨٢.

(٢) الظاهرة القرآنية ص ١٩١. على الرغم من أنني اعتمدت على هذا الكتاب في رسالتي للماجستير، إلا أنني حينما عدت له ونظرت في العنوان وأخذت أتأمل فيه شعرت بالقلق وعدم الرضا عن هذا العنوان، لأن فيه مساسا بقدسية القرآن وتعظيمنا له، فالظاهرة؛ تعني ما يمكن إدراكه أو الشعور به وما يعرف عن طريق الملاحظة والتجربة، والظواهر قد تكون طبيعية، وسياسية، واجتماعية ونفسية (المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٨٣)، ومعنى ذلك النظر إليه كنص قابل للنقد و الملاحظة العلمية، وهذا يفضي بنا إلى رفض الجانب الغيبي، واستهجان إيماننا أنه من عند الله.. لكن من الواضح أن المؤلف قصد ذلك لمناقشة القضية مناقشة علمية ومحاورة المستشرقين في وجهة نظرهم، وكانت برهنته تنتهي بأن القرآن من عند الله. (إن إسقاط اسم الظاهرة على القرآن ينزع عنه كل معاني الغيب والإيمان والقداسة. أحمد عبود: علوم القرآن في المنظور الحداثي، دار الكلمة، مصر، ٢٠١٥، ص ٩٦) ولي مأخذ على صاحب الكتاب فحينما تعرض للإشارة إلى محتويات كتاب تاريخ القرآن لنولدكه وعرض بعض القضايا التي تناولها، لم يشر ولو في الهامش إلى أي نقد له أو يعترض على طرحه، أو يستنكر مقولاته البشعة المتعلقة بتأليف الرسول للقرآن.

منها خمس هجرات كبرى وكان لها أثر ظاهر في النمو الحضاري لبلاد الرافدين والشام ومصر، وتلك هي منطقة صراع الحضارات منذ القدم»(١).

وفي اعتقادي لاشك أن منهج المستشرقين يعدُ منهجا أعرج وأعور وأذعر مثل ناقة العربي التي تاهت في الصحراء، وعلى المستشرق أن يضع القضية التي يناقشها في سياقها التاريخي، ويحاكمها محاكمة تاريخية، ويحلل العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية المحيطة بها والتي نشأت وسطها، وساعدت على ظهورها وتكوينها وتطورها، وعليه أن يبحث عن العامل الجوهري الأكثر تأثيرا ضمن جملة هذه العوامل. وقد نقد مكسيم رودنسون هذا المنهج وقلل من شأنه ودوره في البحث العلمي، وأنه مهدد بالزوال، «وثمة دلائل تشير إلى التخلي عن الرأي الذي كان موجودا لفترة تزيد على القرن والذي يقول إن التدريب الفيلولوجي يكفي لحل جميع المشكلات الناشئة ضمن ميدان لغوي محدد»(٢).

وقد تصدى لهذا المنهج جمهرة من كبار المفكرين المسلمين مثل طه حسين في كتابه الشهير في الأدب الجاهلي. ومالك بن نبي في كتابه الظاهرة القرآنية، وعلى الرغم من أن عبد الرحمن بدوي مدح هذا المنهج عند نولدكه ورأى أنه ظفر «بنتائج على جانب من الخطر كبير»(٣) إلا أنه بعد نضجه العلمي وعبوره مرحلة المراهقة الفكرية وانعتاقه من عبادة الأشخاص والهيام بالحضارة الأوربية وعودة شعاع الوعي الإسلامي إليه قبل رحلة الخلود، كر عليهم وعلى منهجهم في كتابيه «دفاع عن القرآن ودفاع عن الرسول». وأشبعهم نقدا وهدما وشتما(٤).

---

(١) مساعد سليمان الطيار: الدخيل من اللغات القديمة على القرآن من خلال كتابات المستشرقين ص ٨.) .وقد أشار الباحث إلى مجموعة كبيرة من الكتب لمؤلفين كبار أنكروا وجود مفردات أجنبية في القرآن .منهم؛محمد بهجت قبيسي:فقه اللهجات العربية، جاسر أبو صفية: معرب القرآن عربي أصيل، علي فهمي خشيم: هل في القرآن أعجمي وغيرها راجع هذا البحث القيم ص ٧).

(٢) الصور العربية والدراسات الغربية الإسلامية ص ٧٨ (ضمن تراث الإسلام ج١).

(٣).التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، النهضة المصرية، ١٩٤٠، ص ٣٠٧

(٤) لم يتوان الدكتور بدوي من نقد تحليلات المستشرق الألماني نولدكه وأزرى بآرائه وحط من منهجه في دراساته للقرآن . (دفاع عن القرآن ص ١٠٩ وما بعدها)



الفصل الثاني

حياة الرسول ﷺ قبل البعثة

أولا: سيرة مختصرة لمحمد ﷺ

ولد محمد يتيما في عام الفيل (٥٧٠ م) فقد مات أبوه عبد الله وكان زينة شباب قريش وزهرة فتيانها، وهو في بطن أمه «آمنة بنت وهب»، ثم ماتت أمه وهو لم يتمتع برؤيتها الرؤية التي تشبع حنان الطفل البريء وتشيع في نفسه رحمات الأم وسيل عطفها وعاطفتها المشبوبة بالشفقة والحب والحنان على طفلها الصغير، وقد كفله جده عبد المطلب وأحاطه بقدر كبير من العطف والحنان المبالغ فيه في أحيان كثيرة، فلاشك أن الجد يجد في حفيده صورة مكررة لابنه الحبيب الذي فقده في زهرة الشباب، وهذا يدفعه بطريقة لا شعورية لزيادة الاهتمام الواسع والحرص الشديد على حفيده ورعايته رعاية فائقة، وأن لا يفارقه في حله وترحاله. ثم عاجل الموت عبد المطلب وهكذا وجد محمد اليتيم نفسه يعاني مرة أخرى من شبح الموت الذي يطارد محيطه الأسري، ويكسر بخاطره ويهزم طفولته المتأخرة ويسلب منها كل معنى المرح والراحة والسعادة المعهودة في تلك المرحلة، ومازال لم يخرج عن الطوق كما يقولون، فيخرج من مأساة إلى مأساة ومن محنة إلى محنة أشد منها؛ فيفقد حصنا آخر من حصون الحماية ومن نفحات العطف ودفقات الحنان، وأنهار الحب.

وهنا يأتي دور أبي طالب عمه الأثير في رعاية ابن أخيه الشقيق وتمضي بهما الحياة ببأسائها ومسراتها، بشدتها ولينها، ويحاول العم أن يقوم بدور الأب والأم والجد، ويعوض اليتيم ضربات الأيام وقسوة الزمان وألم الحرمان ويزيل من نفسه آثارها القاسية التي لو نزلت بغيره لهزمته وسحقته، فيصحبه في حله وترحاله، ويأخذه معه في رحلته إلى الشام وهي التي قابل فيها بحيرى الراهب، كما تحكي كتب السيرة، ثم يشتد عود محمد ويصبح شابا يافعا يستطيع أن يعتمد على نفسه ويخوض تجارب الأيام ويعيل نفسه وينهض بمتطلبات حياته، فيقوم بالتجارة للسيدة خديجة، بعد أن ذاعت شهرته ولهجت الألسنة بالثناء عليه وعلى طبيعة

شخصيته المهذبة وكرائم أخلاقه وطيب سلوكه، فتعرض عليه الزواج، ويتم ذلك ويرزق منها البنين والبنات.

ثم تأتي مرحلة حاسمة في تشكيل أبعاد شخصيته وإعداده النفسي والتكوين الوجداني والروحي، مرحلة العزلة والعبادة في غار حراء، والتوجه إلى الله، والنفور من تقاليد المجتمع الجاهلي وعادات قومه الذين يسجدون للأصنام والأوثان التي لا تتكلم ولا تضر ولا تنفع، وفي وسط هذه الوحدة والتأمل في ملكوت الله، والتوجه إلى الله بالقلب والعقل والوجدان ينزل الوحي على الرسول. ثم ننتقل إلى طور آخر من أطوار حياته.

لاشك أن هذا الاختبار الإلهي والمحن المتتالية لهذا الطفل الصغير الذي فقد حتى الأحلام البسيطة، كان مقصودا لذاته، إذ يعد نوعا من أنواع التربية النفسية، والنظر للحياة من جميع زواياها، وصقل شخصيته وتدريبها على تحمل المهام الجسيمة المقبلة ومنها المهمة الكونية الكبرى التي تعده لها المشيئة الإلهية

نعم إذا توقفنا أمام مفردات هذه السيرة العطرة، وإحداثها المثيرة الداعية إلى التوقف أمامها والتأمل فيها؛ ندرك أننا بصدد سيرة متفردة، وكلها تشي بأمر جد خطر من أول المحن الفظيعة التي نزلت بالطفل الصغير، موت الأب ثم الأم والجد، وفي الوقت نفسه ليس له أخ ولا أخت، كأنما هذا الشخص اليتيم يزن البشرية كلها، وأن الله يعده إعدادا خاصا لتحمل مسؤولية جسيمة في عالم الغيب ومهمة غاية في الأهمية تنوء بها الجبال، وخلقه هكذا بدون معين ولا نصير إلا معونة الله ونعم بالله الناصر المعين.

هذه السيرة اليسيرة التي أجملناها في نقاط سريعة، توقف أمامها آلاف من المستشرقين يقلبونها رأسا على عقب، يتفحصون كل حادثة ويتأملون في وقائعها وتشابكها ومجرياتها؛ فبعضهم انبهر بسيرة حياته وإرادته الحديدية ومضاء عزيمته وقوة شخصيته ومهارته في إدارة دفة الدولة وحنكته السياسية وسعة أفقه، وقيادة سفينة الإسلام إلى بر الأمان، فسجل ذلك وأوفى شخصيته حقها ومنهم كلود سفاري ClodCavary (١٧٥٠- ١٧٨٨) الذي كان متذبذبا في طرحه ما بين التمجيد والهجوم والمدح والذم وقد قال عنه في خاتمة كتابه: كان محمد رجلا من الرجال الأفذاذ الذين ولدوا بمواهب عظيمة ولا يظهر أمثاله على مسرح

الحياة إلا في فترات متباعدة كي يغيروا وجه الدنيا ويربطوا الناس بخط سيرهم(١). ومايكل هارت Michal hart الذي قال عنه: «لما كان الرسول قوة جبارة، فيمكن أن يقال أيضا إنه أعظم زعيم سياسي عرفه التاريخ»(٢).

أما كارين أرمسترونج فقد عرضت سيرة حياته بإيجاز وأشادت بمشاعره القوية وشدة إنسانيته، وتعاطفه مع الآخرين ورقة قلبه ورهافة إحساسه حتى يبكي لوفاة أحد أصدقائه، وإنجازاته غير العادية مثل تأسيسه ديانة عظمى وقوة عالمية جديدة، ثم تقول:إنه «أحد أعظم العباقرة الذين عرفهم التاريخ»(٣).

ونود أن ننبه أن المؤلفة لا تنكر البعد الغيبي في سيرة الرسول ﷺ ولا تتكلم عن عظمة بشرية إنسانية مجردة أو مبتوتة الصلة بالعطاء الإلهي ولا تنكر نزول الوحي عليه.

وإلى هذا الاتجاه المؤيد لتقديس سيرة الرسول ﷺ واحترام عزلته وتأملاته فيما حوله وتجانفه عن عبادة الأصنام وعادات قريش الجاهلية أشار مارسيل بوازار؛ إلى سيرة الرسول بإيجاز ثم قيم عزلته بقوله: «كان يقضي أوقات الفراغ من عمله بالتجارة في العزلة والتأمل في ما بلغته الأقوام العربية من التردي الخلقي.كما كان يخلو - قبل رسالته بثلاثة أعوام - إلى غار حراء خلال شهر رمضان للتبتل وتوزيع الطعام علي الفقراء. وفي عام ٦١٠ م، وكان في الأربعين، تقريبا بدأ يتلقى الوحي الإلهي»(٤).

---

(١) السيرة النبوية ص ٢٤٩. حياة محمد وقد ترجمت بعنوان: السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون، ترجمة محمد عبد العظيم علي، نقد ومراجعة عبد المتعال الجبري، دار الدعوة، القاهرة، ١٩٧٤ .

(٢) العظماء مائة، أعظمهم محمد، ترجمة أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ص ١٨ (مايكل هارت؛ أمريكي حصل على عدة شهادات في العلوم وعلى الدكتوراه في الفلك من جامعة برنستون عام ١٩٧٢، عمل في مراكز البحوث والمراصد، وهو أحد العلماء المعتمدين في الفيزياء التطبيقية . خليل ياسين: محمد عند علماء الغرب، دار الكتاب المصري، القاهرة، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٣٥٥)

(٣) سيرة النبي ص ٨١ . وفي كتاب آخر تصف شخصية الرسول بقولها: كان محمد محبوبا في مكة، كان وسيما متناسق الجسد متوسط القامة، ابتسامته ساحرة، حاسما مخلصا في عمله، يلتفت بكامله لكل من يكلمه، ولا يسترد يده من المصافحة حتى يسحبها الآخر، وثق فيه الناس حتى سموه الأمين. (محمد نبي لزماننا، ترجمة فاتن الزلباني، الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٣٧).

(٤) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٤٢

ومنهم من لم يستطع أن يتفهم البعد الروحي في شخصيته واتصاله بالسماء، فذهب، يثير الزوابع والغبار حول بعض المواقف، ويطرح الشكوك في الكثير من مفرداتها، ويقف أمام كل حدث ليس كي يفهم ويتأمل ويحلل، لا، ولكن ليشكك ويرفض، ويحاول أن يشوه هذه الصورة النقية وهؤلاء كثر.

من المستحسن أن نشير إلى تشكيك فون جرونباوم von grounebam 1909 . ١٩٧٢[1] في مولد الرسول، فقد ألف كتابا حول الحضارة الإسلامية، لا ننكر أنه ذكر فيه كثيرا من الإيجابيات مثل؛ الإشادة بصفات الرسول وأخلاقه ودوره في تأسيس دولة أرسى فيها مبادئ الحق والعدل والمساواة، وكذلك التنويه بأهمية العقل في الإسلام ودوره في بناء الحضارة الإسلامية، ويشير إلى عقيدة الإسلام السهلة الميسرة التي تجتذب المسلم للعمل في الدنيا والكد فيها والفوز بالآخرة، وغير المسلم أيضا، وفي نفس الوقت تعمل على ترابط المجتمع ووحدته وتماسكه، وكذلك العامل الروحي، أضف إلى كل ذلك سماحة الإسلام وأفقه الواسع ورحابة صدره مع الديانات الأخرى.

أما في جانب السلبيات فنقول بمنتهى الإنصاف والموضوعية أنه لم يترك اتهاما من الاتهامات التي ألصقها قساوسة العصور الوسطى إلا أعاد صياغتها من جديد، وكل التهم الكاذبة والمزاعم الباطلة والتلفيقات الطائشة التي سوف نناقشها في صفحات هذا الكتاب إلا كان لجرونباوم صيحة فيها وحضور غير محمود، وجهد غير مشكور في عرضها من أول ميلاده وأميته وحياته الخاصة وانتهاءً إلى القرآن الكريم الذي زعم أنه من تأليفه مرورا بتعدد الزوجات وتغيير القبلة، ومحلية رسالته.

بصدد قضيتنا فقد زعم أن العام الذي حاصر فيه أبرهة مكة وتفشي وباء الجدري فيه فإن المؤرخين العرب قصوا علينا نبأ معجزة خلص الله بها بيته الحرام وقد تناول القرآن القصة وأضفى عليها صفة القداسة «وذهب الخيال الشعبي فيما بعد أن النبي ولد في ذلك

---

(١) مستشرق يهودي ولد في فيينا، درس في ألمانيا وحصل منها على الدكتوراه في الشعر العربي، هاجر منها إلى أمريكا حيث عمل في جامعاتها .(ترجمته في: موسوعة المستشرقين ص ١٨٩، العقيقي ج٣ / ١٧٠، محمد الزيني: المستشرقون اليهود ص ١١٤)

العام الخطر الشأن الذي وقع فيه الحصار والذي يظن أنه ٥٧٠م بيد أن هذه المصادفة الأخاذة لا تؤيدها مصادرنا»(١).

لا جرم أن نقرر بأن هزيمة أبرهة كانت معجزة بشهادة القرآن وهذا يكفينا ثم بشهادة معظم المؤرخين، فقد أرسل الله عليهم طيرا ترميهم بهذه الحجارة فقتلتهم فنحن أمام معجزة أي أمر خارق للعادة، ومادام الله يؤيد أنبياءه بهذه الأعمال الخارقة فلماذا نتوقف ونشك فيها ؟، هذا أولا.ثانيا أجمع المؤرخون بأن الرسول ﷺ ولد في عام الفيل، وكافة المصادر التي نقلت لنا سيرة الرسول وتأكيد ابن عباس لذلك، وجمهرة المؤرخين المعاصرين ومنهم حسين هيكل في كتابه حياة محمد، وأن مصادرنا الإسلامية تؤكد ذلك، في ضوء ذلك لا يعنينا «أن مصادره لا تؤيد ذلك»، ثم إن الحادثة ليس فيها خيال شعبي ولا خيال مثقف، نحن بصدد حادثة مصيرية سجلها الأوائل والأواخر، وهذا المستشرق هو حر في خياله الشعبي.

بعد الرد على جرونباوم ننتقل إلى الوقوف أمام هذه المحطات والرد عليها.وإظهار حقائقها وتزييف ما عداها.

ثانيا: قصة بحيرى الراهب والرد عليها(٢)

ذكرت كتب السيرة أن أبا طالب كان يحب محمدا حبا شديدا، ويحنو عليه حُنوا ملحوظا ويرعاه رعاية خاصة لأسباب نفسية واجتماعية مفهومة لأنه؛ ابن أخيه الأثير عبد الله الذي توفي في سن مبكرة، وأنه أصيب باليتم في الأب والأم في مرحلة مبكرة إذ فقد أباه وهو مازال في بطن أمه والتي ماتت وهو لم يتجاوز عامه السادس.

هذه الأحوال الاجتماعية المأساوية، دفعت أبا طالب أن يحرص على رعاية محمد والاهتمام به في كل الأحوال وأشد ما يكون الاعتناء لدرجة أنه لا يريد أن يغيب عن ناظريه في أي وقت، فيصحبه دائما حينما كان يقوم برحلاته التجارية إلى بلاد الشام.وتستطرد كتب

---

(١) حضارة الإسلام ص ٩٢: ٩٣

(٢) حاولت أن أطبق منهجا واحدا في عرض آراء المستشرقين على حسب تاريخ الوفاة الأقدم فالذي يليه ثم الأحدث، وهكذا مادمت بصدد الحديث عن قضية واحدة، حتى يلاحظ القارئ أنهم ينقلون عن بعضهم. ولذلك سجلت تاريخ الوفاة بجوار كل اسم .

السيرة فتضيف:أنهما في إحدى هذه الرحلات نزلوا بدير في طريق الشام به راهب يدعى بحيرى (أو سرجيوس) وكان لديه علم أهل النصرانية، ويحاول مؤرخو السيرة أن يثبتوا أن أهل الكتاب كان عندهم إشارات ودلائل على ظهور رسول في الحجاز ليس هذا فحسب بل عندهم علم يقيني بظهور رسول، ومن ثم ينسجون قصصا عجيبة مفادها أن بحيرى اكتشف نبوة محمد المبكرة ورأى ختم النبوة على كتفه وشاهد في معالمه ملامح النبوة وسيما الأنبياء، وطلب من أبي طالب أن يحافظ على ابن أخيه من كيد اليهود ومؤامراتهم لأنه سيكون له شأن عظيم.

وإذا حررنا هذه الحكاية من التفاصيل الجزئية والسرد الخيالي، التي تزعم أن بحيرى رأى من صومعته غمامة تظله من بين القوم، وأنه حاور محمدا و سأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته، وكان محمد يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته[1].

وآمنا بصدق اللقاء بين بحيرى ومحمد الطفل اليتيم، علينا أن نتوقف أمامها لنرى رؤية المستشرقين وانطباعهم عن هذا اللقاء، وما نسجوا حوله من قصص وخيالات ناهيك عن الافتراءات العبثية.

١- نبدأ بجورج بوش الجد (ت ١٨٥٩) ومن المهم بمكان أن نشير إلى سمات شخصية هذا القسيس الذي ينحو منحى الشك المذهبي إذ تتساوى في نظره عوامل الإثبات مع عوامل النفي، وتتكافأ لديه الأدلة وهو دائما في حيرة من أمره فبعد أن ينظر في أي قضية متعلقة بسيرة الرسول أو مبادئ الإسلام يعجز عن فهمها ويقرأها قراءة مبتسرة ولا يلم بأسبابها، وفي الوقت نفسه يعجز عن تقديم حلول لها، فيضطر أن يثبت العوامل التي يميل إليها قلبه وعاطفته، ولكنه يرى بنور العقل أن هذا مخالف للبديهيات والاستدلال المنطقي، فيضطر أن يثبت العاملين معا دون أن يصل إلى اليقين الذي يريح النفس ويرضي الضمير.ويترك القضية معلقة بين القبول والرفض.

فالناظر في كتابه يلمس لمس اليد إثباته للقضية ونقيضها دون أي حرج، فلو أخذنا مثالا

---

(١) سيرة ابن هشام، تحقيق عبد السلام هارون، الرسالة، بيروت، ١٩٨٥ ص ٤١ : ٤٣

واحدا وهو تقييمه لشخصية الرسول ﷺ؛ نجده يمدحه ويعلي من صفاته العقلية و الخلقية والنفسية والاجتماعية فيقول عنه: «ليس هناك من هو أهم منه»، هذا رجل مميز غير عادي، في اللحظة التي خرج فيها الطفل المصطفى إلى العالم، انبثق فيض من نور فاض على كل بقعة في الشام، شريف أصيل النسب، أخلاقه ظلت فوق مستوى الجنس البشري. تصرفاته طيبة ومتفتحة، ونبيلة وجذابة، وربما عظيمة متسمة بالشهامة، وسعة الأفق، إنه نموذج كامل للإيمان والصدق[١].

بيد أنه في سياق حديثه لا يتورع أن يرميه بعظيم التهم وكبريات المزاعم وإفك الأبالسة وأحيانا ينسى نفسه فيقول كلاما ينبو عن الذوق وعن دماثة أخلاق القساوسة الذين تعاملنا معهم ورأينا فيهم عفة اللسان وطيبة القلب والسلوك القويم.

ونعود إلى قضيتنا الأساسية لنعرف موقفه من مسألة بحيرى الراهب فيقول: الاعتقاد الأكثر شيوعا هو أن محمدا تلقى العون الرئيسي على وضع القرآن، من راهب مسيحي، على المذهب النسطوري اسمه سرجيوس أو بحيرى، الذي تعرف عليه (أي محمد) في فترة من حياته[٢].

ولما كان هذا القسيس غير مؤمن بهذا الخبر ولا يثق في هذه الرواية والشك يملأ عقله منها لذلك يعود في صفحات أخرى ليقول: «لا تسمح النصوص العربية التي عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى في الدور المسند إلى هذا الراهب السوري إلا مجرد نسج الخيال»[٣].

٢ - يقول توماس كارليل Thomas carlyl (١٧٩٥ - ١٨٨١): لست أدري ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس الذي يزعم أن أبا طالب ومحمدا سكنا معه في دار، ولا ماذا عساه يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب ما... ولم يكن يعرف إلا لغته..ثم يتابع حديثه: كل ما تعلمه هو عيشه في الصحراء وأحوالها وكل ما وفق من معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون[٤].

---

(١) حياة محمد ص ٥: ١٥٩ (نقلا عن كتاب الرد على بوش من ص ٢٠: ٣٠)

(٢) حياة محمد ص ٢٣٧، (نقلا عن كتاب الرد على بوش ص ٨٠)

(٣) حياة محمد (نقلا عن كتاب الرد على كتاب بوش ص ٨٩)

(٤) الأبطال، ترجمة محمد السباعي. مكتبة مصر، القاهرة، ص ٦١ =

من الواضح أننا بصدد رفض كامل لمقولات المستشرقين التي تدعي أن الرسول ﷺ تعلم على يد هذا الراهب المزعوم أو أنه استقى معارفه منه، وكل معارفه جاءت من التأمل في أنحاء الكون الفسيح وذكائه الفطري، وفطرته النقية.

على أننا لم نقرأ عند أحد من المؤرخين أن الرسول وعمه سكنا في دار بحيرى ولا نعرف أين قرأها كارليل.؟

٣- انطلاقا من إيمانه بأن الرسول تأثر بالأفكار اليهودية والنصرانية يضيف جولدتسيهر (ت ١٩٢١)[١] إليها في عبارة موجزة وكلمات خاطفة سريعة - تشبه طلقات الجيش المصري على مواطني سيناء العزل وعلى المتظاهرين في وسط القاهرة - مسألة بحيرى دون أن يذكر اسمه فيقول: في خلال النصف الأول من حياته اضطرته مشاغله إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكاراً أخذ يجترها في قرارة نفسه، وهو منطو في تأملاته أثناء عزلته. ولميل إدراكه وشعوره للتأملات المجردة والتي يلمح فيها أثر حالته المرضية، نراه ينساق ضد العقلية الدينية والأخلاقية لقومه الأقربين[٢].

إذا توقفنا أمام هذه العبارة نستطيع أن نحللها في زعمين كاذبين:

أولا: أن الرسول تأثر بأوساط فكرية ودينية لم يسمها، وقد تشبع بأفكارها.

ثانيا: أصيب الرسول بحالة مرضية، مثل الرجال ذوي الشعور المرهف والإحساس الفائق، وعزلته الشديدة، وكراهيته لتدني الأخلاقي الذي ساد مجتمعه القرشي.

ونوجز الرد في نقاط مركزة وعناصر محددة.

- رواية الرسول مع بحيرى موضع اتهام وأخذ ورد من قبل المؤرخين والسرد الخيالي من المؤرخين المسلمين كان قصدهم أن هناك إرهاصات واضحة وشواهد مؤكدة في كتب

=(كارليل، كاتب وفيلسوف مؤرخ وعالم أخلاق اسكتلندي من أسرة متواضعة كان أبوه مزارعا لم ينل قسطا من التعليم، واشتهر كارليل في ميدان الفكر العالمي بكتابه الأبطال).

(١) ترجمته في موسوعة المستشرقين ص ١٩٧، وترجمت له في كتابي الاستشراق اليهودي، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١١، والمستشرقون في مصر، دار اليقين، ٢٠١٣ .

(٢) العقيدة والشريعة، ص ١٣.

أهل الكتاب تبشر بقدوم نبي قادم من العرب، وقد كفانا القرآن مؤونة الإيمان بذلك لأنه أكد بعلم أهل الكتاب، ومن ثم لا نعول على حكايات الرواة والقصاص. هذه نقطة.

الثانية ما طبيعة العلم الذي استقاه الرسول ﷺ من بحيرى، ولماذا اختفى بحيرى من التاريخ إذا كان مشهورا وعنده علم الأوائل والأواخر، ثم ما طبيعة العلم الذي من الممكن أن يحصله طفل لم يتجاوز الثالثة عشر؟. وأي مذهب تشبع به وكانت المذاهب تقسم الإمبراطورية المسيحية بين بيزنطة وروما وتقصم ظهرها ووصلت السفسطة في حقيقة المسيح مذهبا صار مضرب الأمثال في التهافت والنقاش الذي لا يجدي !!، هل كان مع تعلم أن المسيح إنسان مملوء بالبركة أم أنه ابن الإله، أم ثالث ثلاثة، أن أنه إله وقد امتزج الناسوت في اللاهوت. وهل انضم إلى الفرقة التي تقول بأن مريم أم الإله أم أنها إنسانة كاملة؟ الحقيقة الساطعة أن بعض المستشرقين ليس عندهم أي قدر من الاحترام لعلمهم ولا لحقائق التاريخ والأخبار المؤكدة التي تحدثت عن تشرذم المذاهب النصرانية والمجامع التي كانت تعقد ثم تخرج كل مرة بفكرة جديدة عن طبيعة المسيح، ؟!!

- اتهام الرسول بمرض ما!! دون أن يفصح عن طبيعة المرض، يعد كلاما مرسلا واتهاما بلا دليل، لأن أعداءه من قريش لم يتهموه بمرض من الأمراض، ومعطيات واقع الناس العقلاء ومنطق العقل لا يقبل أن يكون إنسانا مريضا يأتي بكتاب محكم مملوء بالقواعد المحكمة والقيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية التي يستقي منها أكثر من مليار ونصف مليار مسلم تشريعاتهم اليومية في كافة جوانب الحياة حتى علاقة الرجل بأهله، ولم نسمع في التاريخ بأن أحداً من عباقرة التاريخ أبدع لنا كتابا على هذا النحو من الإبداع والإحكام، وكان مريضا. هذه نقطة.

الثانية: هناك عشرات من القرشين كانوا يتحنثون ويعبدون الله منقطعين في الفلوات، وآلاف من الرهبان يعيشون في عزلة تامة في الأديار؛ لماذا لم نتهمهم بالمرض أو الخداع، ولماذا لم يدع أحدهم أن الوحي هبط عليه؟

ولماذا لم يخرجوا علينا بكتاب مثل هذا القرآن الذي تحدى العالم كله؟

وأخيرا لم يكن الرسول ﷺ مصلحا اجتماعيا نهض لإصلاح التفاوت الطبقي ومعالجة

التدني الأخلاقي والعادات المرذولة التي سادت المجتمع القرشي فحسب ، ولكنه رسول مبعوث من العناية الإلهية، مثل باقي الرسل ليس من أجل المجتمع القرشي و العربي بل من أجل العالمين وكل من يصله صوت الرسالة الجامعة والخاتمة.

أما إذا كان يعني مرض الصرع فسوف نفرد لهذا الموضوع حديثا آخر.

٤- يرى بودلي (r.v.bodlly1892 - ١٩٧٠) أن بحيرى حينما التقى بمحمد تنبه إلى «أسئلته وشغفه إلى المعرفة، وقد أثرت فيه أفكاره السديدة، فراح الراهب يحادث العربي الصغير، وكأنما كان يحادث رفيقا من رفقائه فأخبره بعقيدة عيسى، وسفه عبادة الأصنام، وأرهف محمد السمع إلى ما ينطق الرجل به، فقد كان غريبا يخالف ما نشأ عليه واعتقد فيه»[1]. ثم يواصل حديثه: اختزن محمد في عقله الواعي ما قاله الراهب؛ فإذا ما جد الجد وجد عنده قدراً من المسيحية استغله خير استغلال[2].

من يقرأ لبودلي يدرك أنه أمام رحالة ذي أفق رحب، خصب الخيال، عاطفي النزعة انفعالي في مواقفه، إنشائي الأسلوب يضارع الشعراء في تهويماتهم وصورهم البلاغية وتشبيهاتهم الموغلة في الغرائب. ولعل النص السابق يكشف عن أبعاد شخصيته، فكيف لغلام صغير خرج من بيئة بدوية أمية ضحلة الثقافة يوجه أسئلة لراهب بحيث يلفت نظره.؟

وما الأفكار السديدة التي استوعبها عقل الغلام ؟

وكيف لغلام يرهف السمع لمقولات ميتافيزيقية هي أشد ما تكون موغلة في الغموض والتعقيد والغرابة؛ونعني أفكار التجسد والتثليث والخطيئة والصلب والفداء، وهي أفكار

---

(١) رونالد فيكتور بودلي: الرسول، حياة محمد، ترجمة عبد الحميد جودة السحار، ومحمد فرج، مكتبة مصر، القاهرة،، ص ٤٨ . تعلم بودلي في مدرسة القرية، والتحق بالجيش (١٩٠٨) وخدم في الجيش العراقي والأردني ومستشاراً في مسقط (١٩٢٤)، وهو من المغامرين الكبار إذ يعد أول من قطع الربع الخالي المخيف وكشف عن أسراره المجهولة (١٩٣٠) ثم أحيل إلى المعاش، فتفرغ للقراءة والكتابة (نذير حمدان:الرسول في كتابات المستشرقين ص١٩٠).

قال عنه العقيقي :آمن في مقدمة كتابه بسلامة العقيدة الإسلامية، وضل من بعد في تفسير الزكاة والجنة والنار والقضاء والقدر . وأشار إلى أن كتابه نشر في لندن ١٩٤٦ . (المستشرقون ج٢/٩٥).

(٢) بودلي: حياة محمد ص ٤٩.

تستعصي على فهم الفيلسوف النابه بله غلام صغير؟ ليس هذا فحسب بل يختزن هذه الأفكار أكثر من ثلاثين سنة ثم يوظفها في دعوته الجديدة ؟

كذلك يناقض بودلي نفسه حينما يقرر أن أبا طالب لم يعر كلام الراهب أي اهتمام، في حين أن محمدا خصها بانتباهه. لأن منطق الواقع يشهد أن تخزن هذه الأفكار في ذاكرة أبي طالب الرجل الناضج صاحب التجارب الذي عركته الحياة وخاض غمارها، وليس الغلام الذي لم تتفتح آفاقه أمام أسرار الكون وألغاز الوجود ؟

وإذا كان محمد «اختزن في عقله الواعي ما قاله الراهب» فلماذا شن حملة عنيفة على العقيدة المسيحية وكفرهم في مواضع كثيرة معلومة لمن يطالع آيات القرآن ؟

في ضوء ذلك نستطيع أن نقرر تناقض منطلقات بودلي، وطرحه الذي يناقض معطيات العقل، وحيثيات الواقع، ووقائع سيرة الرسول ﷺ.

٥ - من الجدير بالإشارة أن «متجمري وات» (٢٠٠٦) مهد لقصة بحيرى بقوله: هناك حكايات كثيرة تصوره (أي الرسول) على أنه شخصية ذات أبعاد غيبية، وهناك طائفة من المؤرخين الذين لا يؤمنون بالغيبيات يجزمون بعدم صحة هذه الروايات، لأنها تشير إلى أمور من المنطقي أن نتوقع الإشارة إليها بعد أن أصبح نبياً. ثم نقل القصة بكاملها من ابن اسحق بتفاصيلها المعروفة والمحشوة بالعديد من الغرائب والحكايات الخيالية، دون أن يعلق عليها لا بالقبول ولا بالرفض. ولم يحدد وجهة نظره فيها[1].

على أنه تعرض لقضية ورقة بن نفل وأشار إليها مرارا، وكلمة الناموس واستمدادها من التوراة، وانتهى إلى القول: «من الأسهل أن نفترض أن محمداً كان على صلة متتابعة (هكذا!!) بورقة بن نوفل منذ فترة مبكرة سابقة على الوحي، والأفكار الإسلامية اللاحقة قد تكون اختلطت إلى حد كبير بأفكار ورقة»[2].

هذا كلام يحتوي على بعض المغالطات والخيال العقيم. فأولا: تؤكد بعض الروايات أن السيدة خديجة هي التي ذهبت لورقة حتى تطمئن على حالة الرسول، وحتى إذا فرضنا أن

---

(١) محمد في مكة ص ٩٤: ٩٨

(٢) محمد في مكة ص ١٢٠

الرسول ذهب معها، فهل لقاء واحد على يد أشهر المعلمين ممكن أن يكسب المتلقي كل ما جاء به الرسول ؟. ثانيا: لم يشر أحد من المؤرخين إلى لقاءات متعددة بينهما وهذا من خيال «وات»، وتزيده في الرواية.

ثالثا: ما طبيعة الأفكار الإسلامية، التي اختلطت بأفكار ورقة؟ وما مضمونها وما حقيقة ثقافة ورقة؟ ولماذا لم يدع هو النبوة إذا كان معلما جليلا ورجلا حاويا على كنوز المعرفة الواسعة؟ وما الآثار العلمية التي تركها في التاريخ حتى نقرأها ونستفد منها؟

المدقق في كتاب هذا المستشرق يدرك أنه يفتقد الجرأة والصراحة في الإعلان عن رأيه، لكنه يلف ويدور مثل عصفور ضل عشه ، ثم في نهاية المطاف يكشف عن سريرته بعد أن يكون قد أتعب المتابع لحديثه وأجهده.

وفي هذا يقول نولدكه «حتى لو كانت الروايات التي تجمع محمداً براهب سرياني اسمه بحيرى تحتوي نواة من الحقيقة، فلا يمكن للقاء كهذا أن يكون ذا أثر بالغ في نبوته.على أن هذا الرأي لا يردع نولدكه من القول:بأن ليس من الضروري لوثني من مكة أن يذهب ليتعلم من مسيحي في سورية لأن هناك قنوات أخرى كانت متوفرة له ليستمد منها معارفه الدينية ومنها وجود اليهود والنصارى في محيطه الاجتماعي»[١].

وهنا ملحظ نود أن نؤكد عليه وهو تعدد وجهات نظر المستشرقين في قضية واحدة لا سيما ما يتعلق بسيرة الرسول ﷺ، وقيامهم بالرد على بعضهم، وتفنيد كل واحد منهم وجهة نظر الآخر، ولعل هذا ما تنبه إليه ناصر الدين دينيه في مقدمة كتابة، وإشارته إلى تخبط المستشرقين في القضية الواحدة ونقض كل منهم لرأي الآخر، وسوء تقديرهم وتحليلهم لسيرة الرسول، وقد بلغ تحريفهم مبلغا يغشى على صورتهم الحقيقية، على الرغم ما يزعمون من إتباعهم لأساليب النقد الحديثة وقوانين البحث العلمي الجاد؛فإنا نلمس من خلال كتاباتهم:محمد يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانيا، ومحمد يتحدث بلهجة إيطالية، إذا كان الكاتب إيطاليا[٢].

---

(١) تاريخ القرآن ص ١٧

(٢) محمد رسول الله ص ٣٤، وقد نقل شكيب أرسلان عرض دينيه لتخليط المستشرقين وتخبطهم في تعليقه على كتاب حاضر العالم الإسلامي ج١/ ٣٤: ٣٦ .

وقد أكد ذات الفكرة وذكرها بتوسع إميل درمنجم (ت ١٩٧١) وضرب بعض الأمثلة على رد المستشرقين على بعضهم[١].

أشار إليها د.حسين هيكل إشارة عابرة قائلا: صحب الغلام القافلة حتى بلغ بصرى في جنوب الشام، وتروي كتب السيرة أنه التقى في هذه الرحلة براهب نسطوري وسمع منه، ولعله أو لعل غيره من الرهبان قد جادل محمدا في دين عيسى، هذا الدين الذي كان قد انقسم شيعا وأحزابا [٢]. ومن الواضح أنه لم يعط للحادثة أي قدر من الانتباه والاهتمام.

أما شيخنا محمد الغزالي فقد علق على القصة قائلا: قد تكون هذه القصة صحيحة، فإن البشارة بعد عيسى موجودة في الكتاب المقدس عند النصارى، وهم منذ تكذيبهم برسالة محمد - يرقبون هذا النبي المنتظر... ثم يضيف: سواء أصحت قصة «بحيرى»هذه أم بطلت فمن المقطوع به أنها لم تخلف بعدها أثراً، فلا محمد تشوف للنبوة أو استعد لها.لكلام الراهب. ولا أصحاب القافلة تذاكروا هذا الحديث أو أشاعوه.لقد طويت كأن لم تحدث مما يرجع استبعادها [٣].

وعلق الشيخ الألباني، فقال القصة صحيحة وقد أخرجها الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري. وذكرها ابن هشام في سيرته[٤].

وقد أشرنا سابقا، إلى رفض جورج بوش الجد لرواية بحيرى، على الرغم من إنكاره فكرة وحي القران، ويتهم الرسول بتأليفه. وكذلك أشار كارادفو صاحب كتاب «مفكرو الإسلام والغزالي»، إلى قصة بحيرى ووصفها بأنها لا تستحق الاعتبار وعدها خرافة[٥].

٦ - يتابع هنري سيرويا (٢٠٠٧) ترديد المقولات المجترة البائسة عن تأثر الرسول ﷺ ببحيرى الراهب وسماعه نصوصا من الإنجيل، ويكرر الادعاء ات الممجوجة التي مللنا منها، فيقول: رحل محمد إلى سورية فكانت له صلات مع بعض رجال الكهنوت المسيحيين،

---

(١) درمنجم: خياة محمد ص ٥٢ (نقلا عن حاضر العالم الإسلامي ص ٤٦)
(٢) هيكل: حياة محمد ص ١٣٧
(٣) فقه السيرة ص ٥٣: ٥٤
(٤) مختصر ابن هشام ص ٢٩
(٥) حاضر العالم الإسلامي ج١ / ٤٠

ومن المحتمل أنه خضع لتأثير شخصية ورقة بن نوفل (ت ٥٩٢ م) والذي كان منغمساً في الكتابة اليهودية والمسيحية، هذا دعاه إلى الإسهام والأخذ بنصيب في الدراية بالمشكلات العقدية في عهده.ولقد كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، ولكن قصص الإنجيل مست منه أعماق نفسه عن طريق سماعها، حتى أن رينان استطاع أن يلاحظ بأن الجزء القصصي في القرآن ما هو إلا ترديد للشعائر التلمودية وللأناجيل غير الصحيحة[1].

يلاحظ على كتاب هذا المستشرق ضحالة أفكاره وضعف أسلوبه وسطحية تفكيره وتهافت ادعاءاته، ومتابعته لمقولات من سبقه، وعدم طرح أفكار جديدة أو استنباطات مبتكرة، بل يعد مقلدا، ولا يأتي بأفكار جديدة سوى ترديد الاتهامات المعلومة التي يرددها المستشرقون، ويقتبس نصوصا مطولة منهم مثل إرنست رينان و جولد تسيهر.

أما قوله «إن قصص الإنجيل مست أعماق نفسه» فهذا كلام مرسل وليس له دليل من الواقع فأولا ما هذه القصص؟ وما طبيعتها؟ التي من الممكن أن تؤثر في خيال غلام لم يتجاوز الثانية عشر؟ ثانيا: لماذا وقف من النصرانية موقفا عدائيا لكافة الأفكار التي طرحتها، وسفهها بل ورفضها رفضا قاطعا من أول فكرة الخطيئة وانتهاء بالتثليث، مرورا بالتجسد والفداء والخلاص.

وإذا انتقلنا لادعاء رينان فهذا كلام يخصه ولا أحد يمنعه كباحث أن يقول ما يروق له، وما يستنبطه من خلال دراساته هذا أولا، وثانيا: من يقارن بين سرد القرآن لقصص الأنبياء في القرآن وقصص التوراة والإنجيل يدرك الفرق الواضح من حيث أسلوب العرض وسبك العبارة ومضمون الوقائع والدافع والهدف والعظة والعبرة، يدرك الفرق الواضح بين نص من الله وهو القرآن، ونص من تأليف البشر وصياغتهم.

ثالثا: نحن نؤمن بوحدة الأديان وأن مصدرها هو الله وكلها تعلن راية التوحيد والإقرار بالوحدانية، ومادام مصدرها واحد فمن الضروري أن تكون متشابهة مع اختلاف الزمان ومراعاة المكان. فالقرآن لا يحمل للإنسانية رسالة جديدة، بل يؤكد أنه متمم للرسالات التوحيدية وخاتمها. وكل إنسان حر في اعتناق الدين»[2].

---

(١) فلسفة الفكر الإسلامي ص٣٢ .

(٢) بوازار: إنسانية الإسلام ص ٢٥٧

وإذا كان بعض المستشرقين أعطوا مكانة مهمة لورقة بن نوفل وأنه كان معلما لمحمد وموجها، نجد إميل درمنجم (emel.dermngm 1892 ١٩٧١) ينفي كل ذلك نفيا قاطعا، ويضع دور ورقة في سياقه التاريخي، وقد أشار إلى تحنث الرسول في غار حراء وتأملاته ونزول الوحي عليه بسورة اقرأ، وانطباعها في قلب الرسول، ثم ذهاب خديجة إلى ابن عمها لأنه كان على دراية بكتب اليهود والنصارى، فما كان منه إلا أن قال: إن كان ما قلتِه صدقا فمحمد سيكون نبي هذه الأمة.

وبعد أن نزلت سورة المدثر على الرسول ذهب إلى الكعبة فصادف ورقة يطوف، فاستفسر من الرسول فقص عليه ما جرى له فهتف ورقة: والذي نفسي بيده أنت رسول هذه الأمة وما جاءك إلا الناموس الذي جاء من قبل إلى موسى.(١)

في ضوء ذلك نلحظ أن دور ورقة لم يتعد إلا الإخبار والإعلام بدور محمد مستقبلا واستشفافه بمكانته ورؤيته المستقبلية من خلال المعطيات التي قرأها والإرهاصات التي تبينها. وهذه العلامات التي تؤكد مهمة محمد التبشيرية في المجتمع العربي و الإنساني.

خلاصة القول أن هذه الحادثة لا تقدم ولا تؤخر في سيرة الرسول، وليس لها أي اعتبار في حياته، ولم تضف شيئا جديدا أو فكرا معتبرا، بيد أن المستشرقين يحبون أن يثيروا الغبار حول كل واقعة من الوقائع التي تحيط بحياته بقصد التشكيك والتهوين من شخصيته ورسالته.

ثالثا: زواج الرسول ﷺ من السيدة خديجة

يعد زواج الرسول ﷺ من خديجة حدثا عاديا في المجتمع القرشي ولم يشكل أي تغيير جوهري في سير أحداثه، وربما كان هناك بعض وجهاء المجتمع من يريد أن يظفر بهذه الزيجة، غير أن هذا الحدث لم يسلم من غمز المستشرقين ولمزهم، وراحوا كما هو دأبهم يقلبون في الموقف ويحللون أبعاده ويشبعون هواياتهم في النقد والتشكيك، ونهمهم في الزراية بالرسول والحط من شأنه(٢).

---

(١) حياة محمد ص٦٥ (نقلا عن حاضر الإسلام ص ٥٣ : ٥٨)

(٢) يحلو لكثير من المستشرقين الإشارة بأن محمدا تزوج من أرملة ثرية، وبذلك تهيأ له دخل مستقل بعد نشأة رقيقة=

موجز القصة أن السيدة خديجة بنت خويلد كانت سيدة فاضلة صاحبة ثروة تزوجت مرتين ومات عنها أزواجها، ذات شرف ونسب وحسب ومال، وكانت تستأجر بعض رجال قريش في القيام بتجارتها، ولما سمعت عن سمو أخلاق محمد وسمعته الطيبة وعظيم أمانته وصدق حديثه، ناهيك عن نسبه وشرفه، فأرسلت إليه ليخرج إلى الشام بتجارتها، وأرسلت معه غلامها ميسرة، ومضت القافلة في طريقها ثم باع الرسول واشترى وربح في تجارته ربحا وفيراً[1]، وقفل عائدا إلى مكة، وسارع ميسرة إلى السيدة خديجة يروي لها بعض الحوادث التي وقعت في أثناء الرحلة ومنها ؛ وجود غمامة تظلل محمد وقت الهاجرة، وأنه نزل تحت شجرة، فلما شاهده بحيرى الراهب قال: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي.

هذه المقدمات الصادقة والمشجعة حرّكت حاسة المرأة الذكية في أعماق خديجة وشجعتها على طلب الزواج منه لاسيما وهو ذو حسب ونسب ومن ذروة الشرف في قريش، بل كان «أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسبا وأحسنهم جوارا وأعظمهم حلما وأصدقهم حديثا وأعظمهم أمانة» فيما يقول ابن إسحاق، وكذلك تأكدت أنه ليس من طلاب المال، مثل بعض الرجال الذين تعاملت معهم فطمعوا في تجارتها ومالها، فأرسلت إليه من ترغبه في الزواج وتحثه على الإقدام على هذه الخطوة، وتشاور الرسول مع أعمامه وعرض عليهم الأمر فوافقوه فيما طلب، وصحبه أعمامه أبو طالب وعمه حمزة وغيرهم وخطبوا له السيدة خديجة وتزوجها، وعاش معها خمسة وعشرين عاما وأنجب منها سبعة أولاد؛ ثلاثة ذكور وأربعة بنات[2].

=الحال بعض الشيء .(جرونباوم: حضارة الإسلام ص ١٠٠) كأنما يتهمون رسولنا بالانتهازية مع أن كافة الروايات تؤكد بأن السيدة خديجة هي التي أرسلت ترغبه في ذلك وتعرض عليه أمر الزواج .

(١) يقول ويلز: الظاهر أنه لم يكن تاجرا عظيم النفع في تجارتها .(معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ج٣ / ٩٠) في حين تؤكد المراجع أنه ربح ربحا عظيما، زد على ذلك أمانته، مما أدخل السرور على قلب خديجة وظلت متمسكة به وواثقة في أمانته .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٤٣: ٤٤، هيكل: حياة محمد ص ١٣٨ فقه السيرة، دار الشروق، القاهرة، ص ٦١. من الجدير بالإشارة أن بودلي أشار إلى قصة زواج الرسول من خديجة وتفاصيلها كما جاءت عند المؤرخين، مع الحبكة القصصية وإسقاط المفردات العصرية والإيغال في الخيال عن عقل خديجة الراجح وجمالها وزينتها المبهرة وجسمها الممتلئ وثرائها الواسع وحبها للرسول من أول نظرة، ثم «توقيع عقد القران» ومظاهر حفلة=

هذه القصة العادية، لم تكن عادية عند بعض المستشرقين فوقفوا أمامها بالنقد واستنباط بعض السلبيات، وسوف نتابع أوجه نقدهم ونرد عليهم.

١- كلود سفاري ClodCavary (١٧٥٠ - ١٧٨٨)

مستشرق فرنسي ورحالة، زار البلاد العربية وعاش في مصر خمس سنوات، أعجب بآثارها، وخبر أحوال المسلمين وثقف نفسه ثقافة إسلامية واسعة[١] خلع صفات طيبة وعظيمة على الرسول فهو قائد الجيش وملك ومشرع قوانين والسكينة تضئ وجهه، لكنه لا يعترف بنبوته أو أنه مرسل من السماء. وفي الوقت نفسه دأب على مهاجمته ووسمه بأنه محب للشهرة ومشرع بارع ومغامر كبير ومحنك سياسي بليغ، أراد أن يؤسس دين مثل اليهودية والنصرانية. وسوف نشير إلى تحليله لعلاقة خديجة بمحمد من وجهة نظره. يقول: توجه محمد في بدء الدعوة إلى زوجته وأثر بسهولة على عقلها بعد أن كان ملك قلبها، وقص عليها ما شاهده، فقالت له: إن ما تخبرني به لبشير بالخير، والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة[٢]

هذه الكلمات تقطر خبثا وحقدا، وسوء النية واضحة بين ثنايا الكلمات، فهو يريد أن يقول إن الرسول رجل ماهر مخادع عنده مهارة في السيطرة على قلوب النساء، ولما كان قد استطاع أن ينفذ إلى قلب خديجة ويخلب لبها، أصبح قادرا أن يستحوذ على عقلها ويقنعها بنبوته.

هذا كلام لا يعبر عن حقيقة الأحداث بقدر ما يعبر عن طوية المستشرق الخبيثة ونيته اللئيمة، ولماذا لا نقول إن تاريخ محمد الحافل بالمكارم وسيرته النقية المعروفة في المجتمع القرشي هي التي أقنعت خديجة لا سيما وهي امرأة ذات خبرة وتجارب سابقة وعقل راجح يزن الأمور بالميزان الصحيح، وليست فتاة مراهقة طائشة تخضع لأي مؤثر هذه نقطة.

=الزفاف من الرقص وكؤوس الخمر التي دارت بين الحاضرين، وقضى محمد ليلته في دار خديجة التي سعدت بزوجها الفاتن. (حياة محمد ٥٠: ٦٣) من يقرأ هذا الفصل عند بودلي يعتقد أنه يقرأ قصة غرامية مشبوبة مثل قصص إحسان عبد القدوس و يوسف السباعي و نجيب محفوظ.

(١) ترجمته في: موسوعة المستشرقين ص ٤٤١، محمد الزيني: المستشرقون في مصر، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٣٢٥

(٢) كلود سفاري: السيرة النبوية، ص ٧١.

الثانية: حري بنا أن نقرر أن منطق خديجة أقوى من منطق سفاري؛ لأنها ردت على الرسول بقولها: والله إن الله لا يخزيك أبدا ثم قدمت حيثياتها من خبرتها بماضيه الزاهر والنظيف: إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر. ولاغرو أن حجتها تقطر بالحكمة السديدة والعقل الراجح والمنطق المقنع، وأكثر إقناعا للعقل من أطروحات سفاري.

من الجدير بالذكر أن سفاري وبودلي ينطبق عليهما تمام الانطباق قول الطيباوي: «كان لديهما وقت فراغ وورومانسية خيال، وثراء جيب، وكانا من الذين يكتبون كتابات سطحية عن الشرق»[1].

٢ - فون جرونباوم (١٩٧٣)

يحلو لكثير من المستشرقين الوقوف عند زواج الرسول من السيدة خديجة على وجه التحديد، لتأكيد فكرة أنه «تزوج من أرملة ثرية»، ويثها في كتبهم ونشرها على أوسع وعملوا لها تمثال والدوران حوله قبل أن يذهبوا لأعمالهم، ومنهم هذا المستشرق اليهودي الذي ينقب في سيرة الرسول لعله يجد هنة من الهنات أو ثغرة ينفذ منها ليشنع عليه؛مثل أهله في فلسطين الذين ينقبون في الآثار لعلهم يجدون ما يؤيد وجودهم تاريخيا في أوطاننا، يقول: «تزوج من أرملة ثرية، وبذلك تهيأ له دخل مستقل بعد نشأة رقيقة الحال بعض الشيء»[2].

هذا كلام له ظاهره المستفز وباطنه السيء مثل القنفذ ومغزى خبيث لا يخفى على أي إنسان عنده قليل من الفهم فهو يتهم رسولنا بالانتهازية وأنه عاش عالة على زوجته الثرية، وفي كلمة «أرملة» تعريض به كشاب فتي وافق الزواج من امرأة متزوجة، كأنه بطريقة غير مباشرة يسقط مخازي مجتمعه المنحل على حياة الرسول، حيث يقوم الشباب العاطل من العمل في أوربة وأمريكا بالزواج من السيدات اللواتي تقدمن في السن في مقابل المأوي وإرضائهم جنسيا بطرق شاذة ، ونحن نعلم أن زواج الرسول ﷺ من أرملة كان أمراً شائعا في المجتمع القرشي وكانت المرأة تتزوج أكثر من رجل بعد موت زوجها أو طلاقها،

---

(١) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ص ٢٣.

(٢) حضارة الإسلام ص ١٠٠.

ومازالت هذه العادة موجودة في المجتمعات العربية حتى يومنا هذا، ومن المشهور أن كافة الروايات تؤكد بأن السيدة خديجة هي التي أرسلت ترغبه في الزواج وتعرض نفسها عليه لحيثيات متعلقة بطيبة أخلاقه وحسن سلوكه وطهارة شبابه وعفة لسانه وسمو نفسه وعزة روحه.

رابعا : العزلة والاستغراق في العبادة

اشتهر عن الرسول ﷺ إعراضه عن الأصنام والأوثان وتجافيه عن القرب منها والنفور من قومه الذين يسجدون أمامها ويذبحون الذبائح لها، وشعوره الواضح أنها أحجار لا تنفع ولا تضر وأنها إرث من عبادة الآباء والأجداد ، وقد هداه نقاء فطرته وسماحة نفسه وسناء عقله وسعة أفقه ونور بصيرته ويقظة ضميره، ونداء الإحساس الباطني الفطري، إلى الإشفاق على أهله وعشيرته والنأي بنفسه عنهم وعن أصنامهم والعزلة بعيدا في شعاب الجبل يتأمل في جنبات هذا الكون المفتوح، بسمائه المبهرة وكواكبه الزاهرة ونجومه الساطعة التي لا تعد ولا تحصى وتتدافع تشق أجواز الفضاء، وأرضه الممتدة التي يكل البصر في تتبع انبساطها بجبالها الشاهقة وهضابها المرتفعة ووديانها الفسيحة وكثبانها التي تشبه القلاع ورمالها المتموجة كأنها مياه المحيطات تبدو بلا نهاية، وأشجارها المتناثرة العجفاء وحشائشها القليلة، وحشراتها التي تمضي تبحث عن رزقها، وتسبح بحمد خالقها.كان محمد يدرك أن من يتأمل في عناصر الكون الفسيح يستطيع أن يكشف أسراره ويفك غموضه ويزيح الأستار الكثيفة، وبهذا التأمل الدقيق والقراءة الصامتة والنظر الفاهم يبوح له الكون بأسراره، وتكلمه الكائنات والعناصر وتقول له: إنها تجليات العظمة الإلهية وفيض من العطاء الإلهي ، وحروف ساطعة للقدرة المبدعة، ودليل على الإبداع الإلهي.

يقول درمنجم (ت ١٨٥٧): كان محمد يخلو بنفسه متأملا في السماء ذات الكواكب منصتا إلى ما كان يسمعه من أعمق أعماق قلبه، صوت الحقيقة الأبدية الخارج من قلب الأشياء نفسها[١].

ويقول مستشرق آخر:مرت الأيام تباعا وازدادت الشكوك الدينية له في كل يوم تعذيبا ،

(١) حياة محمد ص ٦٢ (نقلا عن حاضر العالم الإسلامي ص ٤٧)

احتذي حذو آخرين من طلاب الحق باعتكافه وحيدا في وحشة الجبال المحيطة بمكة مسقط رأسه وهناك هبطت عليه دعوة ربه إذ ظهر جبريل وسأله أن يقرأ، حتى إذا رفض محمد القراءة مرتين، عاد فسأل ماذا أقرأ، وعندها علمه جبريل السطور التي كونت الآيات الخمس من سورة العلق ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١][١].

ويقول مستشرق ثالث «انصرف محمد إلى التفكير في المسائل الدينية في فترة مبكرة جداً، وهو أمر لم يكن مستغربا عند أصحاب النفوس الصافية من معاصريه الذين قصرت العبادة الوثنية عن إرواء ظمأهم الروحي»[٢].

لقد أدرك محمدا بمقومات شخصيته الفريدة المستعدة لتقبل البشارات الإلهية، أن الكون ما هو إلا تعبير عن «الخالق القادر» الذي أبدع كل ما تقع عليه عيون البشر، ما تدركه وما لا تدركه، ما تحسه بحواسها ومالا تستطيع ، ما يحرك شعورها وما يخفى عليها، ما يأسر وجدانها وما لا تقدر أن تسبر غوره ، ولاشك أن نور العقل باستدلالاته وإدراكه للارتباط العِلِيَ بين العلة والمعلول يعلم أن للموجودات موجدا وللمخلوقات خالقا، وأن الكون المفتوح ينطق بوجود «قوة خالقة قادرة»[٣].

وهذا ما توصل إليه محمد بتأملاته ونفاذ بصيرته الفائقة، وما سمعه من حيرة الحنفاء الذين كانوا يعيشون في مكة وأعرضوا عن عبادة الأصنام واقتدوا بسنة إبراهيم أبي الأنبياء، فكان يذهب كل عام إلى غار حراء يقضي فيه شهراً، منقطعا عن العالم الخارجي نائيا بجسمه وروحه وكيانه عن لهو قريش وصخبها، واستغراقها في أصنامها وتجارتها وأموالها وماديتها طارحا كل هذا وراء ظهره، متأملا في الحقيقة الأبدية وفي واجب الوجود. نعم «احتاج إلى العزلة عن الناس، لكي يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة الذي ابتدعه

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٠٠ .

(٢) بروكلمان: الشعوب الإسلامية ص ٣٤ . من المعلوم تاريخيا أن الرسول لم يتجه إلى عبادة الأصنام، بل أظهر نفورا مبكرا من عبادة قومه، وهذا من الإرهاصات الصادقة على التهيئة النفسية والربانية لبعثته الوشيكة آنذاك .

(٣) إملأ عينيك من زينة هذه الكواكب، وأجِلْهَا في جُملة هذه العجائبِ، مُتفكراً في قُدرةِ مُقدرِها، مُتدبرا في حكمة مُدَبرِها، قبل أن يسافر بك القدر، ويُحال بينكَ وبين النظرِ. (الزمخشري: أسواق الذهب، تحقيق أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، القاهرة، ص ١٧٤)

المسيحيون، وكان بغضهما متمكنا من قلبه» فيما يقول هنري كاستري henry kastry 1850.١٩٢٩[1].

وفي أثناء هذه العبادة الصامتة والابتهال إلى الله والتوجه إليه بالكلية أن يهديه إلى الطريق المستقيم، هبط عليه جبريل يبشره بالرسالة العالمية، والمهمة الصعبة الملقاة على عاتقة ودوره العظيم في إبعاد البشرية عن ظلمات الجهل وعبادة غير الله وهدايتها إلى طريق النور والحق والخير والسلام.

هذه العزلة الاختيارية لمحمد والانقطاع الإيجابي عن صخب الحياة ومغرياتها والعكوف على العبادة المستمرة، لفتت نظر أغلبية المستشرقين وتباينت مواقفهم إزاءها.

وسوف نستعرض آرائهم ونناقشهم في انطباعاتهم وما صرحوا به من أفكار، ولا مانع أن نشير إلى خلاصة رأيهم في هذه القضية ثم نستعرض رأي كل منهم على حده.

من الواضح أن منطلقات أغلبية المستشرقين واحدة تتمحور حول إنكار نبوة الرسول، هناك وحدة فكرية في اعتقادهم، وإجماع واضح كأنه مسلمة من المسلمات الرياضية التي لا تحتاج إلى دليل أو برهان، فالرسول إنسان مخلص رفيق الشعور لطيف الوجدان شديد الإحساس، هَمّهُ عبادة قومه للأصنام وحزن حزنا شديدا، أقض مضجعه، وملأه الأمل أن ينقذ شعبه من هذا السقوط الديني والانحدار الأخلاقي ثم طغى عليه هذا الشعور وأصبح هاجسا يملأ كيانه ويشغل فكره وليله ونهاره وإحساس باطني يسيطر على وجدانه وضميره، وفي خضم هذه المعركة النفسية والصراع الذاتي والحوار الباطني، اعتقد أن هناك من يخاطبه وتصور وجود ملك أطلق عليه اسم جبريل هو الذي يناديه و يكلمه ومن هذا الوسواس أو الهاجس الداخلي أو الحلم ذهب يبشر بدين جديد لفقه من خبرته التجارية وتأثره بالمحيط الاجتماعي والمؤثرات الدينية التي تمثلت باليهودية والنصرانية.

١ ـ كلود سفاري (ت ١٧٨٨):

يرى سفاري أن محمدا في أثناء تعبده في غار حراء فكر في إنشاء دين الإسلام وتأسيس

---

(١) الإسلام خواطر وسوانح ص ٤٠، وأشارت كارين أرمسترونج إلى عزلة الرسول وخلوته في غار حراء وتضرعه المستمر إلى الله .(سيرة النبي ص ٧١)

مجده المستقبلي، وقد درس معظم عقائد اليهود والنصارى، وضم إليها تاريخ بلاده، ولما كان العرب غارقين في ظلمات الوثنية وعبادة الأصنام التي ملأت الكعبة ونسوا تماما عقيدة التوحيد، والروم منقسمون في عقيدتهم يلعن بعضهم بعضاً، واليهود أقبح الأمم يستميتون في الدفاع عن شريعة موسى، فكر محمد في جمع كلمة العرب تحت لواء واحد وقانون واحد، وكما أن موسى حمل التوراة إلى بني إسرائيل، وعيسى الإنجيل، أراد محمد أن يبدو أمام قومه ومعه كتاب إلهي، لذلك عكف على نظم القرآن، ونظرا لعلمه بملكة العرب البيانية، فقد حرص على استمالتهم بجمال أسلوبه وروعة صوره، وقدم عقيدة بسيطة لا تقدم إلا ما يفهمه العقل ويهضمه، حتى تناسب شعوب الأرض جميعا، عقيدة الله الواحد[1].

وفي موضع آخر وهو يتكلم عن عبادة الرسول في غار حراء ونزول جبريل عليه. يعلق على هذا الحدث بقوله: بلغ مشرع الجزيرة سن الأربعين، وهو الوقت الذي اختاره ليعلن فيه بعثته، نزل جبريل وقال له: اقرأ... فأنشد محمد هذه الآيات وسمع صوتا من السماء يردد: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل[2].

لا محالة أن سفاري لم يقدم أي دليل على وجهة نظره، أو حجة مقنعة أو غير مقنعة، ولم يعرض علينا أوجه الاقتباسات أو التأثيرات التي ظهرت في فكر الرسول ﷺ من الفكر اليهودي والمسيحي؛ ومن المعلوم أن القرآن وجه نقدا عنيفا لجملة الأفكار اليهودية والمسيحية وأفاض في ذلك مما لا يحتاج منا إلى بيان أو توضيح، زد على ذلك مهاجمته لعادات قريش وتقاليدها الوثنية، دفعتها لتتوحد في مهاجمته. هذا أولا.

ثانيا: لاشك أن سفاري يناقض نفسه، فقد وسم شخصية الرسول بجملة من الصفات العظيمة إذ وصفه بأنه: لقب بالأمين بين مواطنيه، و يتميز بالذكاء ورجاحة العقل.، وحظي بالتقدير لفطنته في الإجابة، وصدقه في الحديث، وإخلاصه في شؤون الحياة، وحسن طويته، وشدة خوفه من الرذائل. فكيف بإنسان يحمل هذه الصفات السامية يخدع نفسه قبل أن يخدع قومه. أضف إلى ذلك لم تكذبه قريش فيما جاء به بل أقرت بصدقه وهي التي وسمته بالصدق

(١) كلود سفاري: السيرة النبوية، ص ٤٢ وأيضا ٢٥

(٢) السيرة النبوية ص ٦٩

وحسن السيرة، ولكن الكبرياء وحب التنافس والعناد دفعهم أن يقفوا في وجه الدين الجديد ثم عادوا إلى رشدهم ودخلوا أفرادا وجماعات في الإسلام(١)

ثالثا: لم يقل أي مؤرخ أن محمدا كان مشرعاً جاء بالتشريعات من عنده أو من بنات أفكاره، ولكنه بسط آيات القرآن التي تحمل القواعد الفقهية والتشريعية والتي تتضمن قواعد للسلوك وتنظم جوانب الحياة وشرحها وفسرها، وكل من يقرأ عبقرية هذه التشريعات يدرك أنها فوق مستوى البشر لأنها ببساطة تتفق مع الفطرة السليمة، ومنطق الاستدلال العقلي وتعالج كافة القضايا التي تتعلق بمسيرة المسلم ومصيره ومع صيرورة المجتمع وتطوره من مرحلة إلى أخرى.هذا من جهة.

ومن جهة أخرى هناك فرق شاسع بين خصائص الشعر وقواعده، ونصوص القرآن الذي هو قمة سامقة في دقة العرض البياني والإيجاز والبلاغة، وصناديد قريش أقروا بأن هذا ليس شعرا وهم رواد هذا الفن ومنشؤوه، ورد الوليد بن المغيرة على أصدقائه القرشيين الذين طرحوا هذه الفكرة وسفهها وكان صادقا مع نفسه حينما قال: لقد عرفت الشعر هزجه ورمله و قصيره و مديده، والله ما هو بشعر. وكذلك حينما ذهب إليه عتبة بن ربيعة يفاوضه ويغريه بالمال والجاه، فقرأ عليه الرسول ﷺ آيات من القرآن، فشعر عتبة كأن فيضا من الأنوار غمرته ونداءا ربانيا ينفذ في أعماق قلبه وعقله، فعاد إلى شيوخ قريش يصارحهم بحقيقة الأمر:هذا القرآن ليس من صنع البشر، إنه لنبي هذا ما أراه.

ولاشك أننا نصدق شهادة الوليد وعتبة فهما من عباقرة قريش وأدرى بفنون الشعر ودروب البلاغة، ونكذب السيد سفاري في مقولته.

وأخيرا يقر بأن عقيدة الإسلام سهلة الفهم سريعة الاستيعاب يقبلها العقل المتأمل، وأنها تناسب عقلية كل شعوب الأرض.

---

(١) من المشهور.أن الرسول حينما صعد جبل الصفا ونادي قومه، وقال لهم قولته المشهورة: لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح الجبل أكنتم تصدقوني، قالوا: نعم أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك كذبا قط .فقال لهم بثقة و وبثبات نفسي واطمئنان قلب : إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين .

٢ - وجهة نظر توماس كارليل (١٨٨١):

المتأمل في سطور كتاب الأبطال يدرك أن المؤلف يتعامل مع شخصية الرسول أنها جمعت في جوانبها كل شروط الشرف والأخلاق الكريمة والشمائل المحبوبة ومقومات العظمة والبطولة، وأنه مثل الشعراء والزعماء والقادة، وهم جميعا من خلال تأملاتهم في: المعبد الأكبر «الكون» بشروا بالعادات الجميلة والآراء الصائبة والأفكار المستنيرة، وقادوا مجتمعاتهم إلى مدارج الرقي وطريق التقدم والنجاح.

وهذا أيضا ما ينطبق على الرسول ﷺ ، إذ كان يعيش في عالم كله هرج ومرج وفتن ومحن وحروب مع قريش والكفار ومخاصمات بين أصحابه، كل ذلك جعله في نصب دائم وهم قائم، ولم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة، فيسهر يتململ طول الليل وتدور الأفكار في رأسه «حتى إذا أسفرت لها بارقة رأي، حَسِبتَهُ نورا هبط عليها من السماء، وكل عزم مقدس يهم به، يخاله جبريل ووحيه، فحتى القرآن» ما هو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات، أيزعم الأفاكون الجهلة أنه مشعوذ ومحتال؟ كلا ثم كلا! ما كان ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يفور ليكون قلب محتال مشعوذ، لقد كانت حياته في نظره حقا وهذا الكون حقيقة رائعة.

موجز القول أن محمدا يتميز بالعقل الراجح والعين البصيرة والفؤاد الصادق، وأنه رجل عبقري، ولو شاء لكان شاعرا فحلا أو فارسا بطلا أو ملكا جليلا أو أي صنف من أصناف البطولة، وهو الذي أسس الدين المحمدي، وما أباحه مما حرمته المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه وإنما متبعا لعادات لدى العرب من قديم الأزل [١].

نلاحظ أن كارليل يتحدث عن محمد بوصفه من عظماء التاريخ وعبقري من عباقرته، يمتلك مقومات شخصية ونفسية وفكرية تؤهله أن يصبح زعيما بطلا، وكل ما وضعه من تشريعات وما سنه من قوانين وأوامر ونواهي هي فيض من داخله ومستمده من عادات العرب وتقاليدهم، وليس لها أي صلة بالسماء أو الوحي المزعوم إنما هي خيالات تمثلت أمام ناظريه.

---

(١) الأبطال ص٧٤، ٧٦

٣ - وجهة نظر جولدتسيهر (١٩٢١)

ذكرنا سابقا أن معظم المستشرقين أو كافتهم لا يؤمنون بنبوة محمد أو رسالة الرسول ويذهبون مذاهب شتى في تفسير نبوته، بأن الصوم المستمر والعزلة الدائمة، أو نظرا لحساسيته الشديدة ومشاعره الفياضة وفطرته النقية، تصور أن هناك هاتفا باطنيا من ضميره يدعوه لنجدة المستضعفين، أو نداءً خارجيا من السماء يدعوه لمباشرة دوره الإصلاحي. وهذا ما لمسناه عند كارليل، ونستطيع أن نقرأه بين سطور جولتسيهر ومن جاء بعده من حضرات المستشرقين، فلنلق نظره على رؤيته للقضية.

يقول: حينما بلغ الأربعين وأخذ يقضي معظم وقته في الغار، أصبح نهباً للأحلام القوية والرؤى الدينية، وتملكه شعور بأن الله يدعوه بقوة ليذهب إلى قومه منذراً إياهم بما يؤدي بهم ضلالهم إلى الخسران المبين «وبكلمة واحدة أحس بقوة لا يستطيع لها مقاومة تدفعه إلى أن يكون مربيا لشعبه أي مُنذره ومُبشره»[1].

- هذا هو المستشرق الذي وصفه مترجم الكتاب «بعقله الألمعي وبصيرته النافذة». أما عبد الرحمن بدوي فقد مدحه مدحا مثل مدح النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر - قبل أن يعود الوعي إليه وينقلب على الاستشراق والمستشرقين -، وأفرد له ترجمة مطولة أربت على ست صفحات رصعها بعبارات المدح والثناء والإشادة بالعرض والتحليل وتقريظ المنهج القويم. هذا أولا.

ثانيا: على الرغم من أن الرهبان ينقطعون في الأديار بالسنوات للعبادة والتأمل في ملكوت الله، ويقرؤون في كتاب الكون المفتوح، ويُصَلون ليل نهار ويبتهلون لله، لم نسمع أن أحدا منهم ادعى أن الوحي جاءه وطلب منه أن يكون بشيرا ونذيرا، ثم إن كثيرا من الزهاد والصوفية يعتزلون المجتمع وينذرون روحهم لعبادة الله والصلاة والصوم والذكر المتواصل، «وتأتي لهم الأحلام القوية والرؤى الدينية» ولم نسمع في التاريخ أن أحدا منهم ادعى النبوة، إلا الدجالون والمشعوذون.

ثالثا: من حقنا أن نتساءل لماذا لم يعلن محمد نبوته إلا بعد أن بلغ الأربعين، وقد كان يعتزل المجتمع القرشي منذ شبابه ومن دون شك أن «الأحلام القوية والرؤى الدينية» كانت تعاوده؟

---

(١) العقيدة والشريعة ص ١٤

من هذه المقدمات لا جرم أن نقول إن كلام جولدتسيهر يعبر عن فلسفته الخاصة النابعة من موقفه العدائي للرسالة والرسول، وتصوراته المنحرفة عن طريق الصواب، وأن هذا الموقف المترع بالرعونة الجاهلة، يدفعه للتخليط والتخبط في دياجير الظلام، وقد صدق مترجم الكتاب حينما قال عنه: «انساق إلى أخطاء غير يسيرة، بعوامل قد يكون منها أنه لم يتأت له أن ينفذ تماما إلى روح الإسلام ومبادئه»(١).

٤ – وقريبا مما ذهب إليه كارليل يقرر نولدكه (ت ١٩٣٠)، والفارق بينهما؛ أن الأول ينحو منحى علماء الاجتماع في تفسير حقيقة العبقرية والبطولة، أما الثاني فيأخذ سمة علماء النفس ويحلل موقف الرسول بأن «معظم الوحي حدث ليلا كما يبدو، حين تكون النفس أكثر قابلية لاستقبال التخيلات والانطباعات النفسية عما هي في وضح النهار.ونحن نعلم بالتأكيد أن محمداً كثيرا ما قضى الليل متهجداً ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] وأنه كثيرا ما صام. وتشتد بالصيام القدرة على مشاهدة الرؤى كما اكتشفت الفيزيولوجيا الحديثة مؤخرا»(٢).

وفي موضع آخر ينقل رواية عزم الرسول على الانتحار وظهور جبريل له وتحذيره مع طمأنته أنه رسول الله، فيسكن جأشه ويرجع عن ذلك(٣).

ونحن نتمسك بالصبر وضبط النفس والتحكم في مشاعرنا الجياشة تجاه الرسول ﷺ، ونحاول أن نرد على هذه الأباطيل الكاذبة والتحليلات السقيمة والكلام الممل.فأولا: ليس هناك علاقة بين الحالة النفسية التي يتكلم عنها نولدكه ووضعية الرسول ﷺ، فهذا التحليل ينطبق على آحاد البشر الذين يستغرقون في العبادة من صلاة وصيام والذكر المتواصل والتجافي عن دار الغرور والإنابة بالكلية إلى دار الخلود، فتصفوا نفوسهم وتتألق أرواحهم فيرون بعض الرؤى.

ثانيا: لاشك أن وضعية الرسول حالة أخرى مباينة لما ذكرناه، وبينهما بون شاسع فهو

---

(١) العقيدة والشريعة، ترجمة محمد يوسف موسى، من المقدمة .

(٢) تاريخ القرآن ص ٢٥

(٣) تاريخ القرآن ص ٧٧

مرسل من السماء نزل عليه الوحي بأوامر مكتوبة ومسجلة في القرآن الكريم، مثل باقي الرسل، فهو موصول بالسماء وليس هناك أدنى صلة بين صلاته وتهجده بالليل و صيامه الدائم والرؤى المزعومة، أما ادعاء ات هذا المستشرق فهي تخصه وتخص أنصاره ونحن بالتأكيد لسنا منهم.

ثالثا: فرية انتحار الرسول ﷺ قول سقيم ورواية متهافتة وحكاية ساقطة مملة، ونحن نلوم مؤرخي الإسلام أشد اللوم وأقساه قبل أن نلوم جمهرة المستشرقين الذين تروقهم هذه الحكايات الخيالية فيلوكونها ويستعذبون تكرارها، ويبتهجون بدسها في كل موضع، وكان يجب على مؤرخي الإسلام أن يغربلوا مثل هذه الغرائب ويبتروها من كتبهم لأن أخلاق الرسول ﷺ وسلوكه وتعاليمه تنكر مثل هذا الفعل وتزري بمن يقدم عليه، زد على ذلك أن الإسلام يسم المنتحر بسمة الكفر لأنه قتل نفسه وهي ليست ملكه، كذلك كان على نولدكه أن يشغل جهازه النقدي ويحلل هذه الرواية ويرفضها وهو باحث واسع الاطلاع، وغالبا ما يشكك في روايات زملائه من المستشرقين ويرفضها[1].

رابعا: إشكالية المستشرقين أن معظمهم ينكرون إنكارا تاما أي اعتراف بنبوة محمد ومصممون أن يتعاملوا معه كبطل من الأبطال كما نرى عند كارليل، أو مصلح اجتماعي كما هو وارد عن كيتاني و رودنسون، وزاهد ومتصوف كما قرأنا الآن عند نولدكه. خامسا : نعتقد أن وقائع التاريخ ومجريات الحياة وصراع الوجود هو الذي يحسم هذا الأمر وسوف نرى لمن تكون الغلبة؛فلا جرم أن نؤمن بأن انتصار الإسلام أصبح وشيكا وموجاته العالية سوف تزيل كل هذه الأباطيل وتكنس معها دعاوى المستشرقين وخيالهم التائه ولغوهم الباطل والرعونة في طرح أفكارهم، ولا شك أن النصر للحق والعدل والمحبة وللقيم الأخلاقية والإنسانية التي بشر بها الإسلام ونشرها في ربوع الكون.

---

(١) من المؤسف أن عالما كبيرا وناقدا مرهوب الجانب، وباحثا مدقق، يذكر هذه الرواية ولا ينكرها أو يشكك في مصداقيتها أو ينبه على أنها من خيال الرواة يقول: لقد قيل:إنه فكر في أن يلقي بنفسه من أعلى حراء أو أبي قبس وأي خير في الحياة وهذا أكبر أمله فيها يذوي وينقضي (هيكل: حياة محمد ص ١٥٤) وكن نرجو أن ينكرها كلية ويسفهها ويرفضها رفضا قاطعا. وقد رفضها الشيخ أحمد الخليلي بشدة واستبعد أن ذلك ممكن أن يقع من الرسول .

٥ - يمثل توماس أرنولد (١٨٤٦.١٩٣٠)[١] tomas arnold جناح المستشرقين الإنجليز المعتدلين، وتعد وجهة نظره في سيرة الرسول إيجابية، وكذلك موقفه من الحضارة الإسلامية بوجه عام، لاسيما وقد عاش فترة طويلة في الهند يقوم بأعباء التدريس في كلية عليكره الإسلامية وجامعة لاهور، ثم انتقل للعمل بجامعة القاهرة، وشهد له جمهرة من تلاميذه الذين درسوا عليه ووصفوه بطيبة القلب ودماثة الخلق، وتواضعه الجم وعشقه لمصر وأهلها.

ومع كل ما ذكرناه فلاشك أننا واجدون بعض الصياغات والتعبيرات التي لا تروق لنا ولا تعبر عن حقيقة القضية التي تناولها بالدراسة.

وبصدد القضية التي نتكلم عنها يقول عن عزلة الرسول: «بعد أن قضى محمد وقتا طويلا، استولى عليه نزاع نفسي وقلق، واقتنع آخر الأمر بأنه مكلف حمل رسالة دينية من قبل الله»[٢].

ونعتقد أن العبارة لا تصور الحقيقة كاملة فليست المسألة «قلق نفسي ونزاع داخلي» ثم اقتناع أنه مكلف برسالة، نحن بصدد قضية سماوية فيها إرهاصات واختيار من الله لرسوله وإعداده جسميا وعقليا ونفسيا واجتماعيا، وتهيئته لتحمل أمانة رسالة الله إلى البشرية التي أبت السماء والأرض أن تحملها، فعبارة أرنولد تعد عبارة قاصرة لا تفي بالمقصود ولا تعبر عن حقيقة موقف الرسول ﷺ واختياره من الله ثم نزول الوحي عليه وإبلاغه بالمهمة التي عليه أن ينهض بأعبائها ويعد نفسه لكفاح طويل سوف يستغرق سنوات، و أنه سيعد جيلا فتيا يقوم بأعباء الرسالة.

٦ - هوبرت جريمي hobret germy 1864 ١٩٤٢[٣]

مستشرق ألماني، أستاذ اللغات الشرقية وضع كتابا عن «محمد» (عام ١٨٩٢) في جزأين ولما كان الفكر الماركسي هو الذي ساد في فترة العشرينات فصاعدا، فقد اعتمد على المادية

---

(١) ترجمته في موسوعة المستشرقين ص ١٠٨، فوك ص ٢٩٧، الزيني المستشرقون في مصر ص ١٧٣

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠ ص ٢٤

(٣) من مؤلفاته: عرب الشام قبل الإسلام علماء الكلام، الإسلام واليهودية. ترجمته في: العقيقي ج٢ / ٧٦٠

التاريخية في تحليل طبيعة المجتمع العربي، وملخص نظرته أن محمدا لا يخرج عن كونه مصلحا اجتماعيا ومن دعاة الاشتراكية، عاش في مجتمع طبقي شديد الطبقية يتمثل في البرجوازية التجارية التي تمثلها قريش، والطبقة المطحونة والمستعبدة أي طبقة العبيد والمعدمين، وقد عانى هذه المجتمع من الظلم الاجتماعي والفروق الطبقية واستعباد طبقة لأخرى، فعزم على تغيير هذه الأحوال الاجتماعية وإعادة كفة الميزان من خلال إقامة العدالة الاجتماعية وتقريب الفوارق الطبقية، وتوسل إلى ذلك بفكرة يوم الحساب والجنة والنار وتخويف طبقات الشعب من العذاب المنتظر، وقد زعم أن هناك وحيا يهبط عليه حتى يعطي لأقواله وإجراءاته التي فرضها من خلال الضريبة التي فرضها على الأغنياء صبغة دينية ومشروعية في عقول القرشيين.

الحقيقية هذا التحليل يذكرنا بأطروحات بندلي جوزي الفلسطيني الذي عاش في روسيا وتشبع بالفكر الماركسي، وطبقه في كتابه الحركات الفكرية في الإسلام[1] وكذلك المفكر اليهودي الفرنسي مكسيم رودنسون، ونحن نعذر هذا المستشرق لأن هذا الطرح المادي ساد فترة طويلة من الزمن، وكانت أمواجه عالية كاسحة، لاسيما بعد نجاح الثورة البلشفية عام (١٩١٧) وكانت النظرية فتنة العصر، تخطف ألباب الشباب والمثقفين، وتعمي العيون وتصم العقول، والحمد لله لا نحتاج إلى نقد هذا التحليل المادي بعد أن سقطت النظرية بيد أبنائها، ومن بُعد نظر الشيخ سيد قطب أنه تنبأ في الخمسينات بسقوط هذه النظرية في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام».

لا جدال بأن هذا التحليل مجاف للواقع تماما وكلاما برهنت الأيام وجدلية الحياة وأحداثها واستقراء الواقع أنه ساقط وتهافت، ومخالف لحركة الحياة؛فلاشك أن ما يحرك المجتمع ويعمل على تطويره ليس العامل المادي فقط فهناك الزعامة السياسية والقيادة الفذة

---

(١) من الذين تأثروا بهذا المنهج وتبنوه في كتاباتهم، الدكتور محمود إسماعيل في كتابه الحركات السرية في الإسلام، واحمد عباس صالح في كتابه:اليمين واليسار في الإسلام، وكتب عبد الرحمن الشرقاوي وأهمها عن أبي ذر الغفاري، وقد انتشر الفكر الماركسي و هذه الموجة المادية في فترة التجربة الناصرية في الستينات، وكانت مجلة الطليعة ومجلة الكاتب تناضل في نشر هذا الفكر بواسطة مجموعة كبيرة من المفكرين على رأسهم لطفي الخولي، والدكتور إسماعيل صبري عبد الله وفؤاد مرسي وأبو سيف يوسف، وعبد العظيم أنيس وغيرهم .

والعامل الديني أي العقيدة التي يعتنقها الناس، وخصائص الموقع، وطبيعة الطبقات الاجتماعية ومهارة الأيدي العاملة.

موجز القول لم يكن محمدا مصلحا اجتماعيا فقط بل قائدا عسكريا وسياسيا محنكا وزوجا بارا وأبا حنونا وأخا شفوقا وصديقا وفيا، ورجلا عز وجوده في الرجال، وقبل هذا وبعده رسول البشرية يحمل رسالة البر والخير والإصلاح؛ إصلاح النفوس والضمائر والعقول، وإصلاح المجتمع والأمم قاطبة. وأن آيات القرآن تدل على أن " الثورة التي جاء بها الإسلام لم تكن ثورة دين ليس غير ، وإنما كانت ثورة دين وسياسة واقتصاد "[١].

٧ - يستعرض ويلز الروائي الإنجليزي (ت ١٩٤٦) سيرة الرسول بقدر كبير من الإيجاز المخل، مع إيراد أخطاء تاريخية واضحة، مثل أنه «ولد في فقر بالغ» وأن اسم ابنه «عبد مناف» وأنه «زار اليمن» وأنه كان «شخصا من المترفين» وشاعرا مجيدا ثم يعترف أنه يتحدث عن حياة الرسول على سبيل الظن والتخمين.ثم يشير إلى تعبده في الصحراء دون أن يشير إلى غار حراء، ثم يقول: «كان يخرج إلى الصحراء في آلام مبرحة من الشك والرغبة القدسية، ففي هدأة الصحراء ليلا، وفي قيظ ظهيرة الصحراء نهارا عرف النبي نفسه كما يفعل الناس جميعا وأحس الوحدة والانفراد وإن لم يستوحش، ذلك أن الصحراء لله، وفيها لا يستطيع إنسان أن يجحده». ثم يستطرد في حديثه: يحتمل أنه رأى كنائس مسيحية في سورية،.. وكان يعرف الكثير عن اليهود وديانتهم... وربما كان اليهود قد هدوه إلى الاعتقاد في الرب الواحد الحق، دون أن يدرك ما حدث له[٢].

الناظر في عرض ويلز يخرج بجملة انطباعات سلبية ، منها أنه يسرد وقائع دون أن يتأكد من صدقها أو يوثقها من أي مرجع كما نرى عند مونتجمري وات مثلا، هذه نقطة. النقطة الثانية يتكلم مثل زملائه الغربيين - أننا أمام شخصية متميزة مهذبة عانت من الصراع النفسي والتفكير العميق للبحث عن الطريق السوي لا سيما وقد شاهد عديدا من الأخطاء والمظالم والعادات الوثنية داخل مجتمعه، دون أن يشير إلى أي علاقة بينه وبين السماء أو أنه

(١) طه حسين: في الأدب الجاهلي ص ٧٦

(٢) معالم تاريخ الإنسانية ج٣/ ٩٠: ٩١

رسول مبعوث من الله، يشير فقط على أن الرسول تأثر بالمؤثرات المسيحية واليهودية من خلال خبرته الشخصية[1]

غني عن الشرح ألا نعيد ما ذكرناه أن العرب كانوا يؤمنون بوجود الله، وعبادتهم للأصنام نابعة من اعتقادهم أنها تساعدهم في القرب من الله، وتطرح عنهم الشر، ومن يستعرض الشعر الجاهلي يدرك ذلك في أشعارهم وعلى رأسهم النابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى، وكانت معظم القبائل تؤمن أيضا بالبعث، وكان محمد نسيج من هذا المجتمع ناهيك عن وجود الكثير من العرب الذين يدينون بالحنيفية أي أتباع سيدنا إبراهيم، فالقضية لا تحتاج اقتباسا من اليهودية ولا المسيحية، وهو نفسه ذكر أن انفراد الإنسان بنفسه في الصحراء وتأمله في المخلوقات المحيطة به سوف يرشده إلى وجود قوة مهيمنة على هذا الكون الفسيح هي الله.

٧- قلنا إن المستشرقين يغترفون من نبع واحد لا يحيدون عليه، وهذا ما ندركه ونلمسه عند مؤرخ كبير ومستشرق مرموق هو بروكلمان (١٩٥٦) إذ لا يخرج عن الإطار الذي يدور داخله كل زملائه، لاسيما فلهوزن وكايتاني الذي تأثر بأفكارهما كما أشار في مقدمة كتابه، فلنسمعه وهو يقرر: بعد أن استرسل الرسول في تأملاته في الغار، وإيمانه بفساد عقيدة مواطنيه، تساءل لماذا يمدهم الله في ضلالهم مادام قد أرسل الرسل إلى الشعوب الأخرى، وهكذا نضجت الفكرة في نفسه أنه مبعوث، ولكن حياؤه منعه من إعلان ذلك، ثم زالت شكوكه حينما خضع لخبرة خارقة حينما اعتقد أن طائفا تجلى له وهو جبريل، فأوحى إليه أن الله اختاره لهداية الأمة[2].

---

(١) يربط ويلز بين دعوة الرسول، ودعوة ماني بن فاتكويقول أنه لم يشر للبوذية لأنه لم يسمع باسم بوذا، فإن بلاد العرب الصحراوية غارقة في التأخر والركود من الناحية اللاهوتية .(معالم تاريخ الإنسانية ج٣/ ٩١)

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٦. من الكتب الموسوعية في التاريخ الإسلامي، تناول فيه تاريخ العرب قبل ظهور الإسلام إلى معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وإنجلترا، واتسمت معالجته بالاختصار الشديد نظرا لاتساع الفترة الزمنية وطول القرون التي تناولها، تشبه رسائل التواصل الاجتماعي، ويعيب الكتاب أحكامه القاطعة والمتعسفة، لاسيما فيما يتعلق بحياة الرسول، وإيراده الطعون المشهورة، مثل تأثره باليهودية والنصرانية و قصة الغرانيق وغيرها، وعموما فالكتاب غاية في الأهمية للباحث في التاريخ الإسلامي والحديث على الأقل ليرد على افتراءات السيد بروكلمان لاسيما وقد كرر مزاعم إخوانه من المستشرقين المتعصبين مثل هنري لا منس . وغيرهم (راجع رأي عبد الرحمن بدوي في الكتاب وتقييمه له: موسوعة المستشرقين ص ١٠٤)

لا جرم أن ندين بروكلمان فيما ذهب إليه، وكنا نود منه أن يناقش القضية بقدر من التوسع ويعرض علينا اعتقاد المسلمين، ثم يبرهن على وجهة نظره، وما الدليل على أن الرسول كان يطمح في الرسالة، وكيف لرجل اتسم برجاحة العقل وبعد النظر وسعة الأفق والسيرة الطيبة بين قومه، تسيطر عليه الخيالات حتى أنه لا يميز بين الحقيقة والخيال؟ من المؤسف أن ينجر بروكلمان وراء أكاذيب هنري لا منس، ويغرق في بحر حقده على الرسول والإسلام والمسلمين. ونؤكد له ولزملائه أن كتب التاريخ عرضت إرهاصات النبوة ومقدماتها، وسيرة الرسول تشهد بذلك وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يستعلون على العرب الوثنيين بقدوم رسول وظهور علاماته ، فلما أشرقت فيوضاته وانبلجت أنواره كذبوه وراحوا يحاربونه، ويكيدون له، ليس هذا فحسب بل ينضمون مع المشركين ويشتركون معهم في محاربة دعوته السماوية(١).

٦ - يشير بودلي (ت١٩٧٠) إلى قصة تعبد محمد في غار حراء وعزلته عن المجتمع القرشي وتأمله في ملكوت السموات والأرض واستنكاره عبادة الأصنام وملاحظة خديجة شرود ذهنه ، على أنه يشير بطريقة صريحة بأن محمدا تأثر بأقوال ورقة بن نوفل الذي تنقل من الوثنية إلى النصرانية مرورا باليهودية، وما التقطته أذناه في رحلاته إلى بلاد الشام، ويفكر فيما قاله الراهب بحيرى، وحبر نجران، بأن الناس أفسدوا عقيدة آدم النقية، ولذلك أرسل الله الرسل لهداية الناس؛ منهم نوح وإبراهيم الذي تأثر بشخصيته وموسى وزكريا وعيسى، وبعد تأمل وحيرة وقلق توصل إلى عبادة الله الواحد الذي خلق العالم، وراودته فكرة ظهور نبي يهدي هذا العالم؟ وما أن تملكته هذه الفكرة حتى عزف عن العمل وزاد من عزلته، وبسبب هذه العزلة انتابته حالة عصبية في تفكيره أفقدته ما كان له من مرح في السنين الخوالي.واستمر على هذا الحال حتى نزول جبريل عليه في شهر رمضان. بسورة " اقرأ، "ثم يمضي في سرده فيقول: أفاق محمد من خياله الإلهي، حتى رجع إلى بيته ودخل على خديجة وهو يرتجف فطمأنته وبشرته، وذهبت إلى ورقة بن نوفل تخبره بالنبأ، فأكد لها أنه نبي الأمة، وأكد ذلك لمحمد أيضا أن هذا هو الناموس الأكبر، وهذا يظهر فضل ورقة في ظهور الدين

---

(١) من المعلوم ورود آيات قرآنية تؤكد علم أهل الكتاب بظهور رسول، لكننا آثرنا عدم الاستشهاد بها لأن المستشرقين لا يعترفون بالقرآن ولا بالدليل النقلي، فآثرنا أن نحاججهم بالدليل العقلي والاستدلال المنطقي .

الجديد.ثم حينما انقطع الوحي، يئس محمد وحاول الانتحار ولكن جبريلا ظهر له في السماء يحذره وأنقذه من تحطيم نفسه، وهذا الموقف دفع محمد أن يكتب هذه الآيات كجزء من القرآن. ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣](١).

الإشكالية هنا أن بودلي .مثل غيره من المستشرقين.يجري وراء سراب وما يعطيه باليمين يسحبه ثانية بالشمال، ولسان حاله يقول: إن محمدا مجرد إنسان عظيم الخلق كريم الشمائل تأثر بمقولات بعض القسس الذين قابلهم، ولما سمع أن هناك أنبياء يرسلهم الله تمنى أن يكون ذلك النبي، ومن ثم اعتقد أن هناك وحيا جاءه بالقرآن، ثم يناقض نفسه، ويقرر أن محمدا كان يجيد القراءة والكتابة، ويسوغ ادعاء الرسول بجهله بالقراءة بأن في «اشتهار أمر أميته دعاية طيبة له، فصدور كتاب كالقرآن عن أعرابي جاهل يحدث ضجة تفوق ولا شك ما يحدثه صدور نفس الكتاب عن متعلم»(٢).

هنا قمة التناقض والأكاذيب المكشوفة والتدليس الفاحش، فكيف يخلع على محمد الصفات الطيبة والخلق العظيم وصفاء الذهن ونظافة اليد وصدق القول، ثم يوسمه بالغش والتدليس وخداع قومه، والكذب عليهم وهو يعيش بين ظهرانيهم.إن كلام بودلي كلام مضطرب وبه قدر كبير من الهلوسات التي تشبه هلوسات محجوب عبد الدايم وهو جالس في الخمارة يتقلب في تناقضات حياته، بعد أن باع شرفه وكرامته وترك زوجته في أحضان البيه الكبير، في قصة «القاهرة الجديدة» لنجيب محفوظ.

ومن المؤسف أن بودلي صدق الرواية الخيالية التي ذكرها بعض المؤرخين الذين يعشقون الغرائب والعجائب عن محاولة انتحار الرسول ﷺ، ولم يقف أمامها بالنقد والتمحيص، لأن الرسول لم يشك فيما جاء به الوحي، سواء من خلال الرؤى التي رآها متابعة أو البشارات التي حصل عليها، كل هذا ينفي واقعة الشك أو سيطرة الوساوس عليه كما يدعي بودلي، ثم إن طبيعة شخصيته تستنكر الإقدام على هذا السلوك الأهوج، والفعل الأخرق، وأخيرا ما دخل ورقة بن نوفل في ظهور الدين الإسلامي؟

---

(١) حياة محمد ص ٦٤. ٧٨

(٢) حياة محمد ص ٧٣ :

إن رسالة محمد ﷺ رسالة سماوية، وكل الذي قام به ورقة أنه طمأن الرسول من خلال هذه الظاهرات البينة والدلائل الواضحة التي رآها وسمعها أنه نبي الأمة، استنادا إلى ما صرحت به آيات التوراة والإنجيل.

٧ - إذا انتقلنا لقراءة وجهة نظر «متجمري وات» (ت ٢٠٠٦)، اجتاحنا شعور بالراحة وحسن الظن بالرجل أننا قد نجد رأيا مغايرا لما سبقوه بصفته مستشرقا معاصرا، و أنه بلا ريب تعامل مع كثيرا من العرب والمسلمين طلابا وعلماء، واطلع على العديد من الكتب الإسلامية فربما يكون أكثر إنصافا، إلا أنه يخيب ظننا ولا يخرج عن أطروحات المستشرقين السابقين، كأنما عندهم نصا مقدسا وضعته لهم الكنيسة فيحفظونه جيلا بعد جيل. فهو ينطلق من أن محمدا كان يتيما وعنده حساسية دينية فائقة وآمن بفكرة التوحيد، ولذلك آل على نفسه أن يقوم بإصلاح مجتمعه الوثني ويقوم انحرافاته الاجتماعية والدينية وقد تطور فكره الديني تطورا كبيرا، ومن هنا لجأ إلى الوحدة والعبادة «وليس هناك شك في أن محمدا كان يذهب إلى حراء، سواء مع عائلته أو بدونها، وربما كان ذلك وسيلة للهروب من حرارة مكة في موسم متعب لمن كانوا لا يستطيعون الذهاب إلى الطائف، وتبين التأثيرات اليهودي - مسيحية، مثل الرهبان، أو بعض التجارب الشخصية، الحاجة والرغبة في العزلة ربما طلبا للتكفير عن الخطايا» ثم يتكلم عن مراحل نزول الوحي عليه في حراء ويوصفه هكذا: من المحتمل أن تكون الكلمات «أنت رسول الله» لم تكن كلاما خارجيا، بل ربما لم تكن حتى كلاما تخيليا، وإنما كلام ذهني؛ بمعنى أنه لم يسمع بأذنيه ولا حتى تخيل نفسه يسمع، وإنما كانت هذه الكلمات نوعا من الاتصال الذي أتاه من غير كلمات[١]. وسوف نجمل الرد عليه في النقط الآتية:

- أولا: نشأ محمد ﷺ في بيئة وثنية تعبد الأصنام ولكنه كان عنده من حسن البصيرة ورجاحة العقل وانشراح الصدر أن يدرك أن هذه أصنام لا تنطق ولا تضر ولا تنفع ، وكان الحنفاء المكيون الذين يعبدون الله الواحد أنموذجا له يقتدي بهم؛ ومنهم عثمان بن مظعون الذي أسلم بعد ذلك وكان شديد الزهد في طيبات الحياة. أضف إلى ذلك علمه بوجود

(١) محمد في مكة ص ١٠٨: ١١١.

ديانات سابقة كلها تؤكد فكرة الوحدانية، ثم إن كافة المصادر التي روت لنا حياة محمد لم تتكلم عن «خطيئة» ارتكبها زد على ذلك «خطايا» أراد التكفير عنها، وكنا نود أن نعرف ما هي البينة وما الوقائع التي تدل على ذلك، ونحن نعلم أن المشركين أطلقوا عليه لقب «الصادق الأمين»، واشتهر محمد في المجتمع المكي بعفته السامية وأخلاقه الفاضلة وسلوكه الشريف وهذا ما دفع خديجة إلى الاقتران به، كنا نود من هذا المستشرق أن يكون خصما شريفا مثل كفار قريش.أضف إلى كل ذلك هذه الإرهاصات والعلامات الظاهرة التي تؤكد الاختيار الإلهي له وإعداده وتهيئته لتحمل الرسالة الجامعة، وهذا مالا يؤمن به المستشرقون وينكرونه بطبيعة الحال.

ثانيا: مسألة حب العزلة والانفراد بالنفس والحوار معها، والتأمل في ملكوت الله و أنحاء الكون، ونشأة الإنسان ومصيره المحتوم والموت الذي يطارد حياته في كل خطوة، وعودته ثانية إلى الله، لا تحتاج إلى تأثر بالرهبان أو غيرهم لأنها مسألة متعلقة بطبيعة الشخصية واستعدادها النفسي ورغبتها الجارفة في حب العزلة و البعد عن الثرثرة الفارغة والضوضاء الصاخبة ، وليست القضية أنه كان يهرب من حر مكة أو يفعل فعل الرهبان.

إن هؤلاء المستشرقين لا يدركون معنى لانهائية الصحراء بالنهار، وروعتها وسحرها بنجومها ولمعانها بالليل، ولم يتذوقوا بأنفسهم سحر هذا الوجد الذي لا يوصف، ولم يشاهدوا الفوائد الروحية الرائعة التي يكتسبها الإنسان من ذلك؛ «إن هذا التأمل ليس إلا بوتقة تصهر فيها العواطف والأفكار الناشئة لتخرج منها صافية، إنه مصنع تكتيل القوى الروحية، رغم أنها خفية ولا شعورية»[1].

ثالثا: يصر المستشرقون على إنكار نبوة محمد بكل السبل، ولذلك يذهبون إلى هذه التفسيرات المتعسفة وينكرون أي اتصال للسماوي بالأرضي، وينكرون قضية الوحي وقول

---

(١) أتين دينيه: محمد رسول الله ص ٧٦. ينفي د بدوي أن يكون الصوت الذي خاطب الرسول كان صوتا داخليا فيقول: إذا كان هذا الصوت نابعا من داخل نفس محمد فلن تكون هناك مشكلة، فالإنسان بدافع التأمل في جو من السكون والوحدة والتحادث مع الذات حول قضايا عظيمة متعلقة بالله والإنسان ومصيره والموت والحياة الأخرى، فلابد هنا أن يصبح الوجدان غنياً بالمشاعر التي تضطرب بحيث يشعر الإنسان بالازدواج بين أنا وأنت. ولكن قضية الصوت الخارجي هي القضية المعتمدة . (دفاع عن محمد ص ٥٢)

جبريل للرسول: اقرأ، وكما رأينا يفسرون ذلك بأن ما سمعه الرسول، لم يأته من الخارج أي لا يوجد شخص ما تكلم معه جبريل أو غيره، ولا كلاما تخيليا، فأحيانا في لحظات الخوف الشديد أو الخطر الذي يحيط بالإنسان أو تلم به معضلة من المعضلات، قد يتخيل أنه يسمع أصواتا، وهذا وّهم وإدراك حِسي خاطئ، كل هذا لم يقع لمحمد، وإنما الصوت الذي سمعه نابع من أعماقه أي من نفسه الباطنية الحساسة.

الحقيقة الساطعة أن النصارى الغربيين لم يجدوا سبيلا إلى تفسير الرؤية الدينية الرائعة التي أتى بها محمد، وتفسير سر نجاحها، إلا بإنكار الوحي، أي نفي وجود مصدر مستقل لها، مما يعني أن الإسلام في نظرهم فرقة خارجة عن المسيحية.

الغريب أن المؤرخين الغربيين حينما يؤرخون لشخصية القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م) ويتكلمون عن انحرافه الديني واتخاذه عشيقة والتي أنجب منها طفلة، ورفضه التعميد، ثم اجتاحته أزمة نفسية عنيفة أحاطت به وموجة عاتية من تأنيب الضمير بسبب الخطايا التي ارتكبها، يؤمنون أن هاتفا من السماء ناداه وقال له: خذ واقرأ خذ واقرأ، فأخذ رسائل بولس وقرأ[1].

أي أنهم يؤمنون بالخرافات والخزعبلات ويركنون إلى الأساطير، ولكن حينما يتحدثون عن حياة الرسول ﷺ، يزعمون أنهم يطبقون عناصر المنهج العلمي، يدعون الموضوعية وتأصيل الأفكار، وثرثرة مملة تعودنا عليها في هذا الاتجاه البائس المفعم بالعداء في مواجهة الرسول.

رابعا وأخيراً: من المؤسف أن هذا المستشرق أشار في سياق كلامه إلى فكرة انتحار الرسول أكثر من مرة[2]. وقد ذكرنا سابقا أن هذا الكلام من الإسرائيليات المدسوسة، ومن الحشو الذي يعجب بعض العقول المغرمة بالغرائب، فلم يتسرب إلى نفسه الوهن، ولاشك أن مقومات شخصية الرسول لا تعرف اليأس، وتربيته الأخلاقية وجملة سلوكه المتزن وتفكيره الصائب وثقته في الإرادة الإلهية وعطائها الفياض، يكذب أشد التكذيب هذه

---

(١) محمد الزيني: وقفة مع القديس أوغسطين، بحث منشور في مجلة كلية الآدابجامعة صنعاء، العدد ٣١، ١٩٩٨.

(٢) محمد في مكة ص ١١٠: ١١٧

الرواية المتهافتة. وإذا كنا نلوم المستشرقين على ترديدهم مثل هذه الترهات والأكاذيب - وهم مغرمون بمثل هذه الحكايات - فلومُنا أشد وأقسى لبعض المؤرخين الذين ذكروا ذلك ولم يستخدموا المنهج النقدي في تضعيفها وبترها من كتبهم.

٧ - في هذا السياق نود أن نتناول وجهة نظر السيدة كارين أرمسترونج بقدر من التحليل والحوار معها، بداية نقدر مجهودها الكبير في شرح أبعاد الإسلام شرحا موضوعيا وتعاطفها معه ودفاعها عن أركانه، وبحثها عن الحقيقة المجردة ، وإنصافها لسيرة الرسول ﷺ واعتقادها الصادق في عالمية رسالته، ومواجهة بني قومها والرد عليهم في افتئاتهم عليه وتشويه صورته والتجافي عن قواعد المنهج العلمي. هذه نقطة.

الثانية: في شرحها لطبيعة التجربة الدينية ونزول الوحي على الرسول، رفضت بداية أن نصف ذلك بأنه هستيريا وهذا أمر مشكور، لكنها حينما أرادت أن تقرب صورة الوحي وطبيعته للمتلقي، قارنت بين تجربة الوحي عند الشعراء والعلماء والرسل، فذكرت أن القصيدة تلح على صاحبها بقوة طاغية وتبدو وكأنها تعلن عن نفسها، وكذلك الرسالة عند المفكر حينما يشعر كأن هناك وحيا أوحى إليه بهذه الفكرة، وقاست على ذلك ما وقع أيضا لأرشميدس حينما كان مستلقيا في حالة تلق عقلي بدا له الحل وكأنه هجم عليه دون أن يستدعيه وكأن الحل كان له وجود مستقل عن عقله. وهكذا كل الأفكار الخلاقة التلقائية. ومن هذا المنظور نستطيع النظر إلى «الإيحاء الديني» بطريقة المماثلة [١].

ومع احترامنا لجهودها الطيبة في تقريب حقيقة الوحي للمستمع، وإيمانها بالوحي الذي نزل على الرسول ﷺ، لكننا نميز بين الحالتين تمييزا جوهريا؛ فالشاعر والمفكر والعالم كلهم بصدد فكرة يبحثون عنها، ويقرؤون حولها، ويقدحون عقولهم، وينامون ويقومون وعقولهم مشغولة بالقضية التي يبحثون لها عن حل، سواء أكانت قصيدة أو فكرة أو نظرية علمية، ونظرا لهذا التفكير العميق وتقليب الموضوع على كافة جوانبه والاستغراق العميق، وسيطرتها على فكره وكيانه وحياته، ثم تختمر الفكرة في رأسه وتنضج مع استمرارية التأمل ثم فجأة تنبلج الفكرة، أو تشرق عليه، كأنها هبطت عليه من خارج عقله مثل اللمحة الخاطفة والبرق

---

(١) سيرة النبي محمد ص ١٣٢

الساطع، لكنها في الحقيقة من داخل عقله وهي نتيجة لهذا التأمل العميق، وهذا ما يطلقون عليه «الإلهام النفسي» أو الإبداع الفني.

أما حالة النبي فمغايرة تمام المغايرة لذلك، لأنها هبطت عليه من مصدر خارجي منفصل عن ذات النبي وعن عقله وكيانه، ولا تحتاج لهذا القدح أو الفكر، فالإلهام هنا إلهام خارجي من الوحي الموكل بالرسل جميعا.

خامسا: مرض الصرع

يشرح المؤرخون العرب حالة الرسول العضوية والنفسية حينما كان ينزل عليه الوحي، بأنها لحظات جد قاسية، حيث كانت تصيبه رعشة شديدة ويتصبب العرق من جسمه في اليوم الشديد البرد، ويحمر وجهه من شدة المعاناة، وكان يتغشاه من الله ما يتغشاه كما تقول عائشة. يقول الرسول ﷺ: كان الوحي يأتيني على ضربين؛ إما أن يأتيني به جبريل ويلقني كما يتحدث أحدكم إلى آخر، أو يأتيني الوحي كصلصلة الجرس ويستمر حتى ينطبع في قلبي. ولاشك أن مظاهر هذه الحالة ترجع إلى الاتصال السماوي بالبشري أي اتصال جبريل النوراني بالرسول الذي هو مزيج من الروح والمادة.

وفي أول مرة حينما نزل عليه جبريل وطلب منه أن يقرأ، أصيب بالخوف الشديد، وأسرع وقلبه يرتجف إلى بيته يقول لخديجة: زملوني دثروني، فغطوه بالثياب حتى ذهب عنه الروع، وخف عنه الفزع، قال لزوجه: لقد خشيت على نفسي ، فردت عليه خديجة بكلمات رقيقة تتجسد فيها حكمة الأيام وخبرة السنين، وكأنها تقرأ من كتاب الغيب المكنون: كلا والله.إن الله لا يخزيك أبداً، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق.

هذه الحالة الطبيعية لفتت نظر المستشرقين، وذهبوا كل مذهب في تعليلها، وشخصوها بأن هذا مظهر من مظاهر مرض الصرع. ومن هؤلاء المستشرقين الذين رددوا هذه الفرية لودفيج ماراتشي[1] - واشبرنجر ونولدكه وماكدونالد (١٨٦٣- ١٩٤٣) وهنري ماسيه

---

(١) من المستشرقين المتعصبين أشد ما يكون التعصب وأحد رجال اللاهوت الإيطاليين، طبع القرآن وزوده بترجمة لا تينية وتعليقات دفاعية غرضها الهجوم على القرآن، ثم ألف كتابا عن الرسول بعنوان الرائد في تفنيد القرآن=

(١٩٦٩) وغيرهم. وسوف نسوق وجهة نظرهم ثم نعقب عليهم جميعا.

١- لويس شبرنجر (١٨١٣ - ١٨٩٣)

صدر له كتاب حياة محمد عام ١٨٦١، سجل فيه سيرة نبوية إلى الهجرة، عمل فيه على الحط من شأن دور محمد، وفي حقيقة الأمر لم يكن يعرف غير القليل عن طبيعة الإسلام[1]. مع أنه اعتمد على بعض المصادر الإسلامية المشهورة مثل طبقات بن سعد (٢٣٠هـ) وأسباب النزول للواحدي (٤٦٨هـ) وغيرها، إلا أنه لم ينفك من أسر بعض اتهامات العصور الوسطى وعصر النهضة، فذهب يكرر تهمة الصرع أو الهستيريا العصبية ويتوسع فيها، ويعرض مظاهر المرض أنه يصيب النساء والرجال؛ إذ يبدو في صورة نوبة، ويدعي أنه كان يصيب محمد، فيظهر الترنح والتشنج، وشفتاه تضطربان وكذلك لسانه يبدو وكأنه يريد أن يلعق شيئا، وعيناه تدور من جهة لأخرى ورأسه تتحرك بشكل تلقائي[2].

من الواضح أن شبرنجر لا يصف حالة الرسول بقدر ما ينقل كلام الأطباء عن خصائص حالة الهستيريا ثم يسقط هذه المظاهر على حالة الرسول. وهنا المفارقة إذ ليس بين هذا الوصف، وحالة الرسول أي علاقة وقد أطلق لخياله العنان وجولان فكره أن يسرح ما شاء له الجولان، فظل يتكلم دون أن يعي حقيقة المصادر الموجودة بين يدي المسلمين التي تنسف كلامه نسفا، وتسفه شطحات فكره، وفيض خواطره.

٢- تيودور نولدكه (١٩٣٠)

يعد كتاب تاريخ القرآن كتاب ألغام وقنابل موقوتة تنفجر في وجوهنا في كل لحظة؛ ففي كل صفحة من صفحاته يتناول قضية من قضايا الإسلام بطريقة مغايرة مما هو معروف في

=(١٦٩١) تكلم فيه عن سيرة الرسول، وعلى الرغم من أنه برهن على كثيرا من أخطاء أسلافه من المستشرقين إلا أن الرسول ظل لديه النبي الزائف والمضلل والغاصب ومؤسس طائفة تثير الاشمئزاز ومؤلف كتاب مملوء بالتناقضات والخرافات الكاذبة والأباطيل. (بفان مولدر: سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ت، محمود حمدي زقزوق. مجلة مركز بحوث السنة، ١٤٠٧ / ١٩٨٧- ص ١١٩) وأيضا يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق، ص ٩٧.

(١) يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق ص ١٨٠

(٢) شبرنجر: حياة محمد ص ٢٠٧ (نقلا عن كتاب عبد الرحمن بدوي: دفاع عن محمد، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للنشر، بدون، ص ٥٧ وما بعدها)

تاريخ الإسلام؛ وسوف نرى كيف يقلب الحقائق ويزين الباطل ويفتن البلاهة! ويذهب مذاهب شتى لا تمت للرسول بصلة ولا للفكر الإسلامي بأي صلة ونرد على معظم القضايا التي تطرق إليها ومنها اتهام الرسول بمرض الصرع؛ فمن خلال حديثه عن طبيعة الوحي يتزيد في الوصف ويضيف من عنده أوصافا من بنات أفكاره لم ترد في كتب السيرة مثل قوله أن محمدا كان «يصرخ كالفصيل» ويشخص هذه الحالة أنه كان يعاني «نوعا من الصرع» وفقدان الذاكرة ويغشاه حالة من «الاضطراب النفسي الشديد» ويقال إنه كان يعاني منها منذ طفولته، وقد وسم العرب هذه الحالة بالجنون، وقد زادت هذه النوبات من بعد البعثة[1].

لا جرم أن نقول إن هذا المستشرق يكذب وينقل صورا خيالية من عقله الباطن، إذ لم يقل أحد من المؤرخين أنه كان يعاني حالة من حالات الجنون فهذا كذب صريح، ودعوى ظالمة ودس رخيص وأبعد ما يكون عن الإنصاف، ولو كان عنده ذرة من الحياء العلمي لراجع أطروحاته الكاذبة، وكان يجب أن ينقل حالة الرسول كما جاءت في كتب السيرة ولا يخلط انطباعه الذاتي أو شعوره الداخلي على حقائق موضوعية يعرفها طلاب الابتدائي.

٣- جوستاف لوبون (ت ١٩٣١) يرمي الرسول بفرية المرض النفسي والهوس. يقول عن رسولنا الكريم ﷺ: «إذا عدوت هوس محمد ككل مفتون (أي إذا تجاوزت عن هذا النقص) وجدته حصيفاً سليم الفكر، ويجب عده من فصيلة المهووسين من الناحية العلمية كما هو واضح وذلك كأكثر مؤسسي الديانات... ومحمد كان يجد في هوسه ما يحفزه إلى اقتحام كل عائق، ويجب على من يود أن يفرض إيمانه على الآخرين أن يؤمن بنفسه قبل كل شيء. ومحمد كان يعتقد أنه مؤيد من الله فيتقوى ولا يرتد أمام أي مانع»[2]

بادئ ذي بدء هذا المستشرق أنصف الحضارة الإسلامية إنصافا جرى مضرب المثل بين المستشرقين بعامة، وأنصف الرسول وأعلى من شمائله بخاصة، ونقول له هل هذا الاتهام يتفق مع قولك: «إذا قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم

(١) تاريخ القرآن ص ٢٤

(٢) حضارة العرب ص ١١٤،

التاريخ، والحذ بعض علماء الغرب يعترفون بأن محمداً في أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله[1].

فهل عظماء التاريخ ممكن أن يجمعوا بين العظمة وجليل الأعمال وصفات المتهوسين، فلماذا لا يكون من ضمن المتعصبين الذين لا ينصفوا الرسول ﷺ ولا يناقض نفسه في طرحه.

٤ - ومن الذين يرددون هذه الفرية هنري ماسيه henry maceh (١٨٨٦ - ١٩٦٩) الذي يقول عن رسولنا الكريم: تلقى في بادئ الأمر نوعاً من الدويّ، فصار كأنه مصاب بالحمى، وشحب لونه وارتجف وتدثر[2]

وقريباً من كافة المزاعم السابقة والأباطيل التي سطرها المستشرقون تسلك الموسوعة البريطانية نفس المسلك، ليس هذا فحسب بل تخترع أحوالا وأوصافا لم نسمع عنها في كتب السابقين واللاحقين، ويبدو أن الكذب والتلفيق أصبح بضاعة رائجة عند هؤلاء القوم. يقول كاتب المادة: في كل مرة كان ينزل الوحي على محمد؛ كان يقال بأنه مصاب بغيبوبة أو نشوة وخلالها ينزل عليه جبريل لتبليغه، وعندما يعود محمد إلى وعيه ويصحو يتلو كلمات الوحي إلى الأشخاص الموجودين حوله[3].

المتأمل في هذه السطور يدرك الاضطراب والتناقض في هذه العبارة وفي مفرداتها. فأولا بدأ كلامه بقوله «يقال بأنه مصاب» أي أنه ليس متأكدا من هذه الفرية وهذا الاتهام، ومن الواضح أنه ينقل عن مستشرق آخر دون أن يدرس القضية دراسة علمية معمقة.

ثانيا: جمع بين شعورين متناقضين وإدراكين متباينين، فالإنسان الذي يكون في غيبوبة لا يدرك ما حوله ولا يشعر بالعالم الخارجي، وربما تمر بمخيلته صور غير واضحة لا يستطيع أن يتبينها أو يفهم أبعادها بعد أن يعود إلى سيرته الأولى. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى شعور الإنسان بالنشوة التي تجتاح الإنسان في مواقف محددة مثل لحظة

---

(١) حضارة العرب ص ١١٦

(٢) هنري ماسيه: الإسلام، ترجمة بهيج شعبان، عويدات، بيروت ١٩٨٨، ص ٥٩، ٩٩

(٣) نقلا عن فضل حسن عباس: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، دار الفتح، الأردن، ٢٠٠٠ ص ١٦٥

الانتصار على الأعداء أو النجاح في أمور حياته اليومية أو لحظات الحب الصادقة يكون الإنسان في قمة الحيوية واليقظة والإدراك والإحاطة بالأمور ومعايشة الحدث واستيعاب صورته، وتظل محفورة في ذاكرته ولا تهبط إلى اللاشعور.

ثالثا: إن حالة الرسول لم تخرج عن حالة من المعاناة الشديدة لاتصال السماوي بالأرضي، والمادة الكثيفة بعالم الأنوار والأرواح، ولكنه في كامل وعيه ورشده، وقوة إدراكه، وحضور ذاكرته، وقدرته الفائقة على استيعاب ما يملى عليه.

وإذا كنا وجدنا أنصارا لاتهام رسولنا بالصرع والغيبوبة والنشوة، فإن للحقيقة أنصارها ومحبيها، لذلك رأينا بعض المستشرقين يرفض فرية مرض الرسول بالصرع، ويعد سفاري أول من نفى ادعاء ات ماراتشي بأن الرسول محمدا كان يعاني من مرض الصرع ويملي على أصحابه القرآن في أثناء نوبات المرض.

ومن المعارضين لمسألة الصرع الرحالة بودلي إذ يشخص حالة الرسول إذا جاءه الوحي «ثقل تنفسه واهتز جسمه وتفصد عرقه وتبلل به جبهته حتى في أقصى حالات البرودة»، ثم ينتهي إلى القول: بأن محمد كان يملي كل كلمة من كلمات القرآن عقب صفاء ذهنه من أثر الوحي ويؤكد كل طبيب أن المصاب بالصرع لا يفيق منه وقد ذخر عقله بأفكار لامعة، ولا أن يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي تمتع بها محمد، حتى قبل مماته بأسبوع، وربما ترجع هذه النوبات التي كانت تنتابه، إلى الملاريا أو حمى وربما لنزول الوحي عليه، ثم يؤكد أن محمدا لو كان مصابا بالصرع لما صار نبيا أو مشرعاً، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد[1].

وعلى الرغم من تناقض بودلي في العديد من مواقفه تجاه الرسول ﷺ وفي معظم تحليلاته ومنها ادعاؤه بمرض محمد بالملاريا، إلا أنه رفض فكرة الصرع التي تمحل بها بعض المستشرقين ورأى أنها لا تتسق مع كون محمد رسولا ومشرعا.

ونستطيع أن نضم مونتجمري وات إلى جبهة الرفض، على الرغم من آرائه غير المريحة والمضطربة حول الوحي، إذ يرى أن أعداء الإسلام غالبا ما يتهمون محمدا بأنه مصاب

---

(١) ر.ف. بودلي:الرسول، حياة محمد، ص ٧١، ٧٢

الصرع، ومن ثم فرسالته غير صحيحة، ولكنه يرى أن الأعراض المصاحبة للوحي عند محمد ليست هي أعراض الصرع، لأن الصرع يؤدي إلى انهيار القوة البدنية والعقلية، في حين أن محمداً في كامل قواه، والبراهين التي قدموها زائفة وقائمة على الجهل والتخبط(١).

٢ - الرد على المستشرقين:

إذا نظرنا إلى القضية نظرة مجردة وبعيون محايدة؛نجد أن المستشرقين لم يستوعبوا مسألة نزول الوحي على الرسول؛ أو هذا الحدث الكوني بتعبير سيد قطب، مع أننا نعلم أن هذه الواقعة ليست جديدة لا في تاريخ البشرية ولا في التاريخ الديني، فنحن جميعا نؤمن بظهور الرسل والأنبياء على مر التاريخ وهذا موثق في كتب العهد القديم والجديد، وما دمنا نؤمن بوجود وحي سابق ، فلماذا نؤمن بالوحي الذي هبط على موسى وعيسى، وننكر ذلك مع محمد ﷺ مع تماثل الحالتين وتطابق الموقفين، فهذا موقف متناقض.

ولذلك علينا «أن نعتبر النبي حلقة خاتمة في سلسلة الحركة النبوية»(٢) هذه نقطة.

الثانية : إيماننا بالرسل السابقين جاء عن طريق المصادر الموثوق بها وتواتر الأخبار من المؤرخين الثقة الذين سجلوا تاريخ البشرية وانتقال الأخبار عبر العصور، ومن الآثار المكتوبة على المعابد ومن قراءة البرديات المحفوظة في المتاحف، و تاريخ الفراعنة مسجل بدقة في كتب التاريخ ، وهكذا عرفنا قصة فرعون مع موسى بتفاصيلها الكثيرة منذ ولادته حتى وفاته في سيناء، وهذا ما ينطبق على قصة هروب السيدة العذراء بابنها ومعها يوسف النجار إلى مصر. ومؤرخو الكنيسة يوثقون أخبارهم عن طريق الروايات المكتوبة والآثار الباقية.

وهذه الوسائل ذاتها أي المؤرخون الثقاة وكتبهم التي أجمعت على ذلك وتعدد المصادر والمخطوطات المحفوظة في مكتبات الدنيا، وتواتر الأخبار عبر القرون هي التي نقلت لنا

أخبار نزول الوحي على الرسول ﷺ وأن الملاك جبريل المختص بإبلاغ رسالة الله إلى رسله كافة.

---

(١) محمد في مكة ص ١٢٩ .

(٢) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ٢٥

فلماذا نؤمن بمصادر الأخبار مع موسى وعيسى ونكذبها حينما تتحدث عن محمد ﷺ؟

الثالثة: لاشك أن تشخيص الحالة العضوية للرسول عليها أن تراعي أننا بصدد حالة غير متماثلة أي اتصال يتم بين عنصرين ليس بينهما تشابه أو تماثل في الخصائص، فجبريل ينتمي إلى عالم الملائكة؛عالم الصفاء والنقاء والأنوار الإلهية، والرسول ينتمي إلى عالم الأرض بكل ما فيه من كثافة المادة، ورغبات الجسد وتباين ميول النفس الإنسانية، فاتصال هذين العالمين المتباينين، يؤديان إلى هذه الحالة الشعورية التي كانت تلم بمحمد، كما أن نور النهار حينما ينبلج في الصباح يكتسح كل مناطق الظلام أمامه، فيصيب الكون هزة من البهاء والضياء.

الرابعة: لم نسمع في تاريخ الفكر البشري أن مؤلفا عظيما أو شاعرا كبيرا أو فيلسوفا أسس مذهبا، كان مريضا بالصرع، وترك لنا تراثا خالدا يقرأ على مدار الزمن، وما نعلمه عن سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من فلاسفة اليونان، وديكارت (ت ١٦٥٠) من مؤسسي المنهج الشكي وفولتير(١٦٩٤- ١٧٧٨) وروسو(١٧١٢ - ١٧٧٨) من فلاسفة عصر التنوير في أوربة أنهم تركوا مؤلفاتهم وهم في أوج تألقهم الذهني، وقمة عطائهم الفلسفي، حتى فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) ferdrek netsh فيلسوف التمرد وإرادة القوة والثورة على المسيحية والأديان قاطبة، أصيب بالجنون بعد أن ألف كل كتبه.

ومن المؤكد أن مريض الصرع يكون في حالة غياب عن الوعي تماما ، وعدم الإحساس بالعالم الخارجي، وتتعطل وسائل إدراكه الحسية والعقلية، ويحمر وجهه كأنه يختنق لا يستطيع أن يتنفس كأن هناك يدا قابضة على رقبته، وقد امتدت يداه بطولها في تشنج واضح وقد أطبق كفيه ، تصدر عنه أصوات متقطعة تشبه صوت الذئب الجائع، وكذلك سيل من اللعاب يخرج من فمه بطريقة لا إرادية وعيناه مفتوحتان دون أن يبصر ما حوله. [1] ويصف أحد الأطباء النفسيين حالة مريض الصرع فيقول:يسقط المريض على الأرض كقطعة من الخشب، وقد يسبق ذلك صرخة مدوية، تؤذن بقدوم النوبة، ينتفض إثرها المصاب بشدة أمام

---

(١) رأيت في مرحلة الطفولة رجلا أصابته حالة الصرع وقد سقط على الأرض، وكان جسمه متشنجا، والتف الناس حوله، وقد ظلت صورته المفزعة مترسبة في عقلي ووجداني فترة زمنية مديدة؛لدرجة أنني كنت أخاف أن أمر بالمكان الذي وقع فيه الرجل .

الناظرين فيرغي ويزبد ويسيل اللعاب والدم من فمه، بل وربما أيضا من صدغه إذا ارتطم بالأرض، ثم يفيق بعد ذلك فيمشي ويتحدث كأن شيئا لم يكن(١).

هذه الصورة المروعة والمخيفة، لم يشر أحد من المؤرخين السابقين واللاحقين إليها أبدا إن هذه كانت حالة الرسول ﷺ حينما كان يأتيه الوحي ويلم به، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، كيف يؤلف الرسول هذا القرآن العظيم بكل ما يحتويه من أخبار الأمم السابقة واللاحقة والتشريعات المحكمة وقواعد الأخلاق وآداب التعامل وقوانين الجهاد والمعاملات الاقتصادية والحقائق العلمية التي يكشفها العلم في مسيرته الطويلة، وهذا النظام الكامل الشامل الذي يرسم خريطة واضحة لحركة المجتمع والأمم وتحقيق السعادة لهم في الدنيا والفوز بالآخرة، نقول كيف يضع كل هذا وهو في حالة المرض أو نائم لا يميز بين حالة النوم واليقظة؟

ثم نفترض صحة نقيض القضية؛ إذا كانت حالة الصرع والتشنج تلم بجسم الرسول؛كيف نعلل حفظه للقرآن مباشرة كأنه منقوش في قلبه وصفحة عقله؟

وكيف تعيه ذاكرته بهذا النظام والتناسق وترتيب السور، ونهاية كل سورة تتآلف مع بداية السورة الثانية وتنسجم معها، ثم إن كل سورة فيها وحدة عضوية مترابطة، فكيف ينظم وينسق كل ذلك وهو في حالة غياب الوعي ثم ينقله لأصحابه الذين يتميزون بالذاكرة الحافظة وهذه خاصية تميز بها العرب نظرا لأنهم كانوا أميين فكانت ذاكرتهم لاقطة سريعة الاستيعاب، فذة في الفهم و الحفظ ؟

إن هذا كلام بائس لا يستسيغه عقل طفل صغير، بله رجل عاقل أو إنسان له مسكة من الفهم والعقل والقدرة على تحليل أحداث الواقع زد على ذلك إذا عرضناه على أسس المنهج العلمي فنشعر أنه كلام متهافت مثل قرآن مسيلمة الكذاب.

الخامسة:من الجدير بالذكر أن أغلبية المستشرقين رفضوا هذا الاتهام السخيف منهم فرانتس بوهل (١٨٥٠- ١٩٣٢) وقد فند كل ادعاء ات شبرنجر ورد عليه ردودا علمية

---

(١) محمد إبراهيم الأتاسي : من تاريخ الطب النفسي والأعصاب عند العرب والمسلمين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٥، ص ١٨٣ .

وخلص منها إلى أن العلم المعاصر أثبت أن مثل هذا التفسير ليس سطحيا فقط، من وجهة النظر النفسية ولكنه يتعارض مع الحقائق الثابتة والتي نجدها في القرآن والسنة، فما من شك في أن محمدا كان صادقا رؤاه التي يرى فيها أشكالا معينة ويسمع أصواتا(١).

يصف بودلي (١٩٧٠) شخصية محمد ومواهبه المتعددة وملكاته الفذة من منظور أنه قائد عظيم وليس أنه مرسل من الله: «كان محمد متعدد الكفاءات في الواقع، فكان في مقدوره أن يوجه عقله ونشاطه إلى أي شيء؛فقد كان يرسل السفراء على حكام العالم المتحضر، بينا يقصر نفسه لمحظية جعدة ويلقي بنفسه في متاعب زوجات غيورات، وكان في نفس الوقت يكوّن جيشاً يستطيع أن يتحرك سريعا وأن يضرب في قوة، وكان يدرب ضباطاً احتياطيين ويبث في الرجال إطاعة الأوامر، ويقوم بتحسين أسلحته وأدواته»(٢).

كذلك يعد درمنجم (١٩٧١) من الذين تصدوا لمقولة الصرع ورفضها وقدم لها حيثيات مقبولة من الفهم السليم ومن يريد أن يتحرى الحقيقة يقول: «إن جميع ما ظهر من هذا الرجل من قوة إيجاد وتناهي عبقرية وحدة ذكاء ومواجهة تامة للحقائق وضبط النفس وشدة إرادة وحسن تدبير وإتقان عمل، وبالجملة جميع حياته تمنع من أن ينظر إلى هذا الملهم الصافي الذهن كرجل مصاب بالصرع»(٣).

فهل شخصية بهذه المواهب الفائقة والقدرات اليتيمة، مصابة بمرض الصرع؟ لا شك أن هذا حكم يتعارض مع منطق الحياة ومنهج الحياء ونداء العقل والفهم السليم.

من خلال الاستقراء العلمي لتاريخية المستشرقين وسبر أغوار نفوسهم يدرك الباحث أنهم كي يفسروا سر نجاح محمد وتجربته الدينية الحقيقية؛ لجأوا إلى هذه الأساطير، فمرة يذهبون إلى الزعم بأنه ساحراً دبر معجزات زائفة حتى يخدع العرب السذج، ويبغي تدمير الكنيسة في العالم، ومرة أخرى يسايرون خيالهم المريض فيدعون أنه يعاني من مرض الصرع (٤).

---

(١) بدوي: دفاع عن محمد ص ٦٠: ٦٢.على الرغم من أنه متحامل على الرسول كما سنرى لاحقا.

(٢) حياة محمد ص ٢٣٢

(٣) حياة محمد دون تحديد الصفحة (نقلا عن حاضرا لعالم الإسلامي ص ٩٤)

(٤) سيرة النبي محمد ص ٤٠

كأنها هذه الترهات تعد تنفيسا عن مرجل الغضب والحقد الذي يعتمل في صدورهم، فيتنكبون الطريق ويخرجون عن جادة الطريق ويتفوهون بأكاذيب يتجافى عنها عقلاء القوم، والبحث الرصين.

كذلك يعد روم لاندو من المستشرقين المنصفين الذين انفكوا عن أكاذيب المنصرين وأوهام المستشرقين وأعرضوا عن التلفيقات الساذجة، ونهضوا بدراسة الحضارة الإسلامية بعين الإنصاف وروح المحبة فجاءت بحوثه مسايرة للواقع، وقد تصدى لمسألة الصرع في كتابه «الإسلام والعرب» eslam and the arab ودرسها وخرج بنتيجة مفادها: «لاشك في بطلان تلك الأكاذيب التي تزعم أن الآيات الموحاة إليه (محمد) وليدة من نوبات الصرع كانت تنتابه بين آونة وأخرى. إذ ليس في وسع المصاب بتلك النوبات أن يتلقى فيها نسقاً من الكلام له ما للقرآن من العمق وانتظام التركيب»[1].

السادسة: في كتابه الدفاعي «حياة محمد» وقف الدكتور محمد حسين هيكل ١٨٨٨- ١٩٥٦)[2] موقف المحامي الصادق والمفكر الواعي والمسلم المتحمس لتفنيد كافة دعاوى المستشرقين واتهاماتهم، وتناولها بسعة أفق وصدر رحب وناقشها مناقشة علمية لاسيما وهو متشبع بقواعد المنهج العلمي وقد جابه المستشرقين بنفس سلاحهم، وجهازهم النقدي؛ وبصدد قضيتنا يقول: نوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها، ولا يذكر شيئا مما صنع أو حل به خلالها، ذلك أن حركة الشعور والتفكير تتعطل، ولم يكن ذلك يصيب النبي العربي في أثناء الوحي، بل كانت تتنبه حواسه المدركة في تلك الأثناء تنبها لا عهد للناس به، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه[3].

وهذا ما نهض به أيضا أستاذنا عبد الرحمن بدوي إذ توقف بعد أن عرض دعاوى

---

(١) الإسلام والعرب ص ٣٢، نقلا عن العقاد: الإسلام دعوة عالمية ص ١٠٠، ١٠١، خليل ياسين: محمد عند علماء الغرب، دار الكتاب المصري، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٣٣٤

(٢) ولد بالدقهلية وكان والده من أعيانها، أكمل دراسة الدكتوراه بفرنسا، اشتغل بالمحاماة، عضو مجمع اللغة العربية، له مؤلفات متميزة منها أبو بكر الصديق والفاروق عمر، في منزل الوحي، قصة زينب، هكذا خلقت، ولدي (ترجمته في الأعلام ج٦ / ١٠٧)

(٣) حياة محمد، دار المعارف، القاهرة، ص ٥٧

شبرنجر وفند مزاعمه من خلال آراء بعض المستشرقين ثم ختم كلامه بقوله: «قضية إصابة محمد بالهستيريا أو الصرع قد تخلى عنها المستشرقون منذ بداية القرن العشرين ولم يعودوا يتكلمون عنها إلا كذكرى تاريخية. ثم يتساءل ما هو غير الطبيعي في أن ينضح العرق من جبين محمد في يوم بارد حتى تعتريه أشجان قوية، وكمثال بسيط على ذلك نذكر حالة أنور السادات في الكنيست بالقدس (نوفمبر ١٩٧٧) حيث كان جبينه يتصبب عرقا طوال الوقت ولكننا لم نجد فردا واحداً يقول: إن هذا العرق في هذا المكان البارد كان أحد أعراض الهيستريا!!»[١] الحقيقة المؤكدة إذا نظرنا إلى حالة النبي؛وجدنا أن الوجه وحده هو الذي يحتقن، في حين يتمتع الرجل بحالة عادية، وبحرية عقلية ملحوظة من الوجهة النفسية، ليستخدم ذاكرته استخداما كاملا خلال الأزمة نفسها، على حين يمحى وعي المتشنج وذاكرته خلال الأزمة، فالحالة بناء على هذه الملاحظات ليست مرض التشنج[٢].

يقول أحد الباحثين: «لا الصرع ولا الأحلام ولا كل الأمراض النفسية، يمكن أن تفسر لنا وجود كتاب عظيم مثل القرآن، ولا توجد سابقة في تاريخ الفكر البشري؛أن ينتج لنا الصرع والأحلام أو الجنون كتاباً كبيرا بهذا الحجم العلمي واللغوي والإعجازي»[٣].

سادسا: موقف المستشرقين من أمية الرسول ﷺ

تعد مسألة أمية الرسول عند علماء المسلمين ومفكريهم ومثقفيهم وعوامهم مسألة مسلما بها، وتعد من الأمور التي لا تحتاج إلى نقاش أو جدل نظرا للأدلة النقلية التي وردت في القرآن، وللأدلة التاريخية والمصادر المعتمدة وتواتر الأخبار من المعاصرين له سواء أكانوا من القرشيين الذين عاصروه أو الصحابة أو التابعين، أضف إلى ذلك لا يوجد مسوغ منطقي لإخفاء هذه الحقيقة وإلا أذاعها أعداؤه من المكيين الذين تصدوا إلى دعوته وقاوموه بعنف وشراسة وقسوة، وحاربوه وطاردوه حتى ألجأوه إلى الهجرة.

إلا أن هذه القضية البديهية؛ شغلت عقول المستشرقين واحتلت مساحة عريضة من

---

(١) دفاع عن محمد ص ٦٤

(٢) الظاهرة القرآنية ص ١٥٣

(٣) الاستشراق قراءة نقدية ص ٢٢٧

كتاباتهم، ولفت انتباههم فصاحة القرآن وبلاغة صوره وأسلوبه القوي، ولما كان العرب يتمتعون بهذه السليقة مع جودة قريحتهم وبراعتهم في إلقاء القول، ورصف العبارات، ومهارتهم في التعبير الشعري وصوره الموحية، وكان الرسول ﷺ نسيجا منهم وفردا من أفرادهم؛عربيا قرشيا من صميم مجتمعهم، لذا امتاز بما امتازوا به ومهر فيما مهروا فيه، وما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء.

في ضوء ذلك انقسم المستشرقون في هذه المسألة فمنهم من اعتقد بأنه كان رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب، مثل أغلب أفراد مجتمعه القرشي، ويتقدم هؤلاء توماس كارليل الذي يؤكد هذه الحقيقة فيقول: لم يتلق دروسا على أستاذ أبداً.. ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة...وعجيب وأيم الله أمية محمد، نعم إنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب...ولم يضره ولم يَزرِ به أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها.. ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر[١]..

وقرر ذلك ويلز (weilz 1866 .١٩٤٦) في حديثه عن سيرة الرسول فقال: ولد في فقر بالغ وكان ضئيل الحظ من العلم، ولو قيس حتى بمعايير الصحراء لكان أمياً غير متعلم[٢].... وهذا ما أكده أيضا مايكل هارت، وإميل درمنجم الذي وصف الرسول بالرجل الأمي الفطري الصادق[٣].

ومنهم من أنكر ذلك وهاله أسلوب القرآن الفصيح، وسبكه القوي، وقدرته على التعبير عن أعقد المشكلات الدينية وتبسيطها لعقلية المتلقي، ولما كان هذا المستشرق ينكر نبوة الرسول وينظر إليه على أنه قائد شجاع وعسكري استراتيجي ومصلح اجتماعي متميز قاد شعبه في سنوات قليلة إلى ساحات البطولة و النصر دون معونة إلهية، فهذا الصنف أكد أن الرسول كان متعلما وأحاط بعلوم عصره، وتأثر من ثقافة ورقة بن نوفل، وكذلك

(١) الأبطال ص ٦٢

(٢) هربرت . جورج .ويلز: معالم تاريخ الإنسانية، ج٣ / ٩٠

(٣) حياة محمد ص ٦٢ (نقلا عن حاضر الإسلامي ص ٤٧)

رحلاته التجارية إلى الشام، فهذه الرحلات تنبئ عن قدرته على عقد الصفقات و مهارته في إدارة تجارة خديجة، وكلها دلالات تؤكد قدرته على القراءة ومهارته في الكتابة.

١ - من هذا الصنف كلود سفاري (ت ١٧٨٨)؛ مستشرق فرنسي عاش بين المسلمين وأقام في مصر وخبر أحوالها وكتب عن معالمها وأحاط بالعلوم الإسلامية، وقرأ القرآن قراءة واعية، إلى درجة أنه تجرأ وقام بترجمته[1]، ومع هذا لم يستطع عقله أن يستوعب أن القرآن من عند الله، ورأى أن الرسول ﷺ ألفه بخبرته الواسعة في اللغة العربية الواسعة ، وبخصوص قضيتنا يرى من وجهة نظره أن الرسول يجيد القراءة والكتابة وأنه «تظاهر بأنه لا يعرف القراءة والكتابة، واعتمد على فصاحته الطبيعية ومواهبه المتدفقة التي لم تخنه أبداً»[2].

لاشك أن هذه دعوى كاذبة وتهمة بلا دليل وتصريح غوغائي مثل تصريحات الصحف الصفراء التي تروج الإشاعات ، ولم يقدم سفاري أي حجة مقنعة ، وكيف يتظاهر بأنه لا يعرف القراءة في مجتمع صغير يعرف سيرة كل فرد من أفراده، ولم يعلن ذلك سادة قريش، وقد اشتهر عن الرسول ﷺ اتخاذه كتابا للوحي يكتبون آيات القرآن منهم علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وزيد بن ثابت، وفي كل المعاهدات التي عقدت بينه وبين قريش وقبائل العرب واليهود حررها كتاب معلومون وحضر ذلك جمع من الشهود وكانت المعاهدة تختم بختم الرسول، أضف إلى ذلك قالوا قديما من السهل على الإنسان أن يدعي العلم وقتا ما، ولكن من الصعب عليه أن يدعي الجهل طوال الوقت.

---

(١) من المعلوم أن أغلبية المستشرقين حينما يتطوعون بترجمة القرآن يقعون في أخطاء كثيرة، وقد أحصى الدكتور إبراهيم عوض مترجم كتاب سفاري عشرات الأخطاء وقابل بين المعنى العربي والترجمة الفرنسية، ومن هذه الأخطاء قوله: إن اسم أبي بكر بكسر الباء، مما يغير المعنى إلى «العذراء» وتفسيره لذلك أن أبا بكر كان والد الزوجة العذراء الوحيدة التي تزوجها الرسول، وفي تعليقه على قوله تعالى (وأعدت لهن متكئا) يقول: إن النسوة المصريات يتزاورن كثيرا، ويقمن الولائم، وفيها يراوحن بين الموسيقا والرقص، وتعد العوالم واسطة العقد في هذه الولائم، (إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ١٢، ٢٢) ومن الواضح أنه ليس هناك صلة بين موقف نسوة يوسف، وما شرحه عن عادات المصريين . وكذلك أشار العلامة العقاد في كتابه: الإسلام دعوة عالمية .إلى كثير من أخطاء المستشرقين الفادحة والمضحكة. ص ١٧٢

(٢) سفاري: السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون، ص ٤٣، ٦٢

أضف إلى ذلك كل من يفهم أسرار العربية وصورها البلاغية و المجاز والطباق والاستعارة، يدرك بجلاء الفرق بين أسلوب القرآن البياني وسبكه ومنهجه في الحوار وطرح القضايا وتفسير الأوامر والنواهي، وأقوال الرسول وسمات أسلوبه، وهناك دراسات علمية واسعة تقارن بين سمات الأسلوبين وتظهر الفروق بينهما.

أخيرا إذا فرضنا نقيض القضية التي نتكلم عنها واعترفنا أن الرسول ﷺ يقرأ ويكتب، علينا النظر في مضمون الفكر الذي كان سائداً في البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها ودرج على أرضها، وحينما نقوم بالبحث في طبيعة المعارف الموجودة، وجملة الأفكار التي كانت سائدة، ونحلل أغراض الشعر، وسمات الحكم وأغراض الأمثال التي تعد الزاد الثقافي عند العرب، وبعض الأساطير والحكايات والقصص التي كانت متداولة كما قرأنا عنها في تراثهم الذي نقل إلينا.نقول حينما نحلل هذه المضمون ونقارن بينه وبين ما ورد في القرآن من حيث مضمون الفكر والأسلوب الأدبي والصور البلاغية وقوة السبك، وجمالية القرآن، ندرك المسافة الواسعة بين الاثنين، والتباين الواضح بينهما، وكل من له قدرة على تذوق العربية يستشعر أن هناك هوة واسعة بين فكر المجتمع الجاهلي، وطرح القرآن.نستنتج من ذلك أن الرسول كان لا يقرأ ولا يكتب قضية صادقة.

ويعجبني هنا رد المستشرقة كارين الذي يتسم بالفهم لأبعاد القضية، وقراءة الواقع الذي عاش فيه الرسول، ودراسة طبيعة المحيط الاجتماعي، فتقول ردا على مزاعم المستشرقين بأدلة قوية وحجج مقنعة:لا يوجد في المصادر الأولى أي ذكر لقدرة محمد على الكتابة والقراءة، ثم إنه كان يملي رسائله على ابن عمه عليَ، ولو فرضنا أنه أخفى مقدرته على القراءة لكانت خدعة كبرى وهذا السلوك مناف لأخلاقه، وأخيرا من الصعب جداً الإبقاء على هذا الخداع إذا أخذنا في الاعتبار حميمية الصلة بينه وبين قومه[1].

٢- القس جورج بوش (١٨٥٩)

- لما كان هذا القسيس ينكر نبوة الرسول وينفي مسألة اتصاله بالسماء، وفي الوقت نفسه ينظر في القرآن ويقرأ آياته المحكمة والناصعة ودقته في العرض ومتانة الأسلوب، لذلك

---

(١) سيرة النبي ص ١٣٦

لم يستطع أن يستوعب فكرة أميته وأنه يجهل القراءة، ولذلك راح يتابع بعض المستشرقين الذين سبقوه ويشكك في هذه الحقيقة الساطعة ويبرهن على وجهة نظره بثلاثة حجج كالآتي:

- أن أتباع محمد رغبة منهم في المبالغة في مواهب نبيهم، عزوها إلى قوى خارقة.

- كيف يعقل أن أبا طالب علم ابنه (علي بن أبي طالب) ولم يعلم ابن أخيه؟.

- نعلم أن محمدا ظل يعمل عدة سنوات بالتجارة، فمن غير المحتمل ألا يكون عارفا بالقراءة[1].

وسوف نرد في نقاط مختصرة ومركزة:

- إن أصحاب الرسول ﷺ لم يزعموا ذلك لأنهم عاشوا معه وعاش بينهم أربعين عاما وهم يخبرونه ويعلمون حقيقته، ظاهره وباطنه، وأسلوب حياته وتحركاته وسكناته، وأنه يتسم بنبل الأخلاق وسمو النفس وينتمي إلى أسرة نبيلة الشرف سامية الموضع، وبوش نفسه أشاد بمكانة أسرته ووصفه بأنه «حاد الذكاء، حصيف ذكيا، حاد الذاكرة»، في ضوء ذلك فأصحابه كانوا يعلمون أن هذا وحي يُوحي إليه وليس من بنات أفكاره، وهو لا يحتاج إلى إشادة من أحد.أو مدح من المستشرقين ومن غيرهم. هذا أولا.

- ثانيا: من الحقائق التي نراها في حياتنا أننا نجد أن البيت الواحد يضم أخوة بعضهم نال قسطا من التعليم، وبعضهم لم يتعلم ، ففي الأسرة الواحدة الطبيب والمهندس والمزارع الذي لم يتلق أي نسبة من العلم، تبعا لتفاوت القدرات الفردية والمستوى الاقتصادي، والأحوال التي تمر بها الأسرة؛ مثل موت الأب والأخوة يتعلمون، فيحل أحد الأخوة مكان الأب ويسد فراغه ويتحمل المسؤولية ويضحى بالتعليم في سبيل إكمال مشوار إخوته ، وهذا أمر بديهي ومعلوم وشاهدناه مرارا في حياتنا اليومية.لذلك ليس أمرا مستغربا أن لا يعلم أبو طالب ابن أخيه لظروف الاقتصادية التي مر بها ثم استدرك وعرف أهمية التعليم فعلم ابنه عليَ، والواقع المعيش دليل على ذلك.

- ثالثا: رأينا في حياتنا العملية مئات من التجار الكبار لا يجيدون القراءة والكتابة، وهذا أمر مدرك في المجتمع لا سيما في العصور القديمة ليس هذا فحسب بل أدركنا ذلك في

(١) حياة محمد ص ٣٩ (نقلا عن كتاب الرد على بوش ص ١٠٧ : ١٠٨)

الستينات والسبعينات تجارا كبارا يمتلكون تجارة ناجحة ورابحة، وعندهم مقدرة مذهلة على الحساب والجمع والطرح وكانوا أميين. أي أننا يجب أن نفرق بين «عدم القراءة» «والجهل» فهؤلاء التجار يتميزون بعقلية راجحة وإحاطة بأمور الحياة وحدة الذكاء الاجتماعي وسعة الأفق وحسن التصرف في المواقف المختلفة، والمهارة في اتخاذ القرار الصائب، فهؤلاء ليسوا «جهلة» ولكنهم فقط يجهلون القراءة والكتابة.

وهذا ما ينطبق على الرسول ﷺ أيضا ناهيك عن الملكات العقلية والقدرات النفسية وسعة الأفق، وفي الوقت نفسه لا ننسى الإرشاد السماوي والمواهب الربانية والعطاء الإلهي الذي أفاضه رب العزة عليه.

ثم إن الرسول لم يكن تاجراً بالمعنى المهني أي المتفرغ لهذا العمل، ولكنه قاد تجارة لخديجة وقد وفقه الله بشأنها وربح منها الخير العميم.وقد اشتغل وهو صغير برعي الأغنام مثل عدد كبير من الأنبياء.

٣ - في كتابه تاريخ القرآن المترع بالقضايا الكاذبة والدعاوي السطحية والاتهامات الخيالية يدخل نولدكة (١٩٣٠) ميدان الجدل عن حقيقة أمية الرسول ويفند الآراء التي تؤكد خبرته بالقراءة والكتابة، مثل الادعاء أنه كتب صلح الحديبية، ويرى أن المقصود هو الإملاء، وكذلك رواية أنه طلب قلما وهو على فراش الموت ليكتب ما يحفظ المسلمين من الضلال، فيرى أن هذا الحديث مثير للارتياب، وقد وضع لتأكيد حق أبي بكر في خلافته، وكلمة «اكتب» قد تعني «أملي»، أضف إلى ما سبق لا يقدم القرآن نصا صريحا على معرفته بالقراءة أو توضيح موقفه؛ إذ إن كلمة «اقرأ» الواردة في سورة العلق، لا تفيد ذلك وربما تعني «الإلقاء والوعظ».

ليس معنى ذلك أنه من المؤيدين لقضية أمية الرسول لكنه يرى أن هذه الحجج تعد واهية. ويذهب بكل خبرته بالتراث الإسلامي ومعلوماته الغزيرة وسعة اطلاعه وقراءته لآيات القرآن و سيرة الرسول بأنه يقرأ ويكتب، ودليله على ذلك: أن محمدا يدعي في سورة الأعراف (الآية ١٥٧) ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ ومدلولها أنه يجهل الكتب المقدسة القديمة، وليس من يجهل القراءة والكتابة، لأن كلمة «أميون» الواردة في (سورة

البقرة ٧٨) ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ تفيد أن بعض أهل الكتاب لا يفهمون من الكتاب إلا القليل. كذلك ورد في سورة العنكبوت الآية ٤٨) ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أن محمدا لم يتل أي كتاب قبل الوحي بالقرآن، وهي كلمات غامضة تفتقر إلى الوضوح ثم إنها شهادة من محمد على نفسه وعلينا أن نرفضها، وأخيرا يدعي أن محمدا أجاب الملاك جبريل بقوله «ما أنا بقارئ» وفي رواية أخرى «ما أقرأ» وهذا يدل على التحريف في الرواية. ويخلص من هذا العرض بنتيجتين: الأولى: أن محمدا شاء أن يشيع حوله فكرة أميته وجهله بالقراءة والكتابة. ثانيا: لم يقرأ أبدا الكتاب المقدس أو آثارا أخرى مهمة[1].

٤ - نستطيع أن نضم وجهة نظر فرانتس بوهل (١٩٣٢) إلى رؤية نولدكه إذ هناك مقاربة بين الرؤيتين؛ فقد ذهب إلى القول: بأن الرسول كان يعرف القراءة والكتابة، على أن الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى لم تكن مفهومة بالنسبة له، وهذا القول يطابق الواقع، فلقد أوضحه القرآن غير مرة[2].

ونجمل الرد عليهم في الآتي:

- أكدت المصادر التاريخية أن الذي كتب صلح الحديبية علي بن أبي طالب بشهادة القرشيين الذين كانوا يبحثون عن أي ثغرة تهدد مكانة الرسول ﷺ أو تضعف من موقفه، وحينها اعترض سهيل بن عمرو على صيغة «أن العهد بين محمد رسول الله» لأنه لا يعترف برسالته طلب الرسول من علي أن يمحو ذلك ويكتب هذا ما عاهد «محمد بن عبد الله» على الرغم من اعتراض أصحابه وعلى رأسهم عمر. هذه نقطة.

الثانية: تؤكد كافة المصادر التاريخية أن الرسول ﷺ بعد أن اشتد عليه الوجع طلب ممن حوله أن يكتب كتابا لن يضل بعده المسلمون. ولما كان كل من يحيط بالرسول في أثناء مرضه يعلمون علم اليقين أنه لا يقرأ ولا يكتب لذا فهموا أنه يريد أن يملي عليهم أقوالا ولكنهم رأوا أن الوجع اشتد عليه فآثروا عدم الاستجابة.

---

(١) تاريخ القرآن ص ١١: ١٥

(٢) عبد الرحمن بدوي: دفاع عن القرآن ص ١٦

الثالثة: قول جبريل للرسول اقرأ، تعني هيئ نفسك حتى تسمع وردد ما سوف أمليه عليك، لأن جبريل يعلم أنه رجل أمي لا يقرأ.

رابعا: من المعلوم أن من موضوعية القرآن وإنصافه للموافق والمخالف وسعة صدره ورحابة أفقه للرأي والرأي الآخر مهما كان من شذوذه وخروجه عن المألوف وزعمه الباطل، أن سجل كافة اتهامات الكفار والمجتمع القرشي للرسول ﷺ، وهي متنوعة وعديدة، ثم تناولها بالرد والتفنيد وهذا هو المنهج النقدي الذي التزمه القرآن.

ويصدد قضيتنا يتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

والمعنى واضح أي أن هناك من الكتبة من يكتب له هذه الحكايات الخرافية. ثم يرد عليهم خالق الوجود ومبدعه بقوة فيها ردع وتحذير. إن الذي أنزله هو رب الأرباب وصاحب الملك والملكوت وخالق السموات والأرض.

يقول الزمخشري: أساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ما سطّره المتقدمون من نحو أحاديث رستم وإسفنديار، اكتتبها كاتب له. لأنه كان أمّيا لا يكتب بيده، وذلك من تمام إعجازه، ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب [1].

- استشهاده بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] لا يفيد أبدا ما ذهب إليه فأولا: يقتطع الآية من سياقها فتفقد مضمونها وتعطي معنى مغايرا لمقصودها المراد.ثانيا:تقرر الآية الحدث الكوني الذي تجلى على هذه الأرض وهو بعثة الرسول النبي الأمي، ويؤكد أن اليهود والنصارى عندهم البشارات بقدومه ومعرفة تامة بصفاته ورسالته الشاملة يقول شيخ الإسلام سيد قطب «وإنه لنبأ عظيم، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي، على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى- عليهما

(١) تفسير الكشاف سورة الفرقان.

السلام- منذ أمد بعيد. جاءهم الخبر اليقين ببعثه، وبصفاته، وبمنهج رسالته، وبخصائص ملته. فهو «النبي الأمي»، وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر»(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٨، ٧٩] فالآية تشير إلى صفات اليهود المنكرة وهم جهلة حتى بكتابهم وعدم درايتهم بما ورد فيه، والفريق الآخر تمرس على الخداع وتحريف الكتاب والادعاء أنه من عند الله. فالآية هنا لا تتكلم عن معرفة الرسول ﷺ بكتبهم أو عدم معرفته ولكنها تُوصَف لنا مواقف اليهود.

يقول سيد قطب: يستطرد (القرآن) يقص على المسلمين من أحوال بني إسرائيل: إنهم فريقان. فريق أمي جاهل، لا يدري شيئاً من كتابهم الذي نزل عليهم، ولا يعرف منه إلا أوهاماً وظنوناً، وإلا أمانيّ في النجاة من العذاب، بما أنهم شعب الله المختار، المغفور له كل ما يعمل وما يرتكب من آثام! وفريق يستغل هذا الجهل وهذه الأمية فيزوّر على كتاب الله، ويحرف الكلم عن مواضعه بالتأويلات المغرضة، ويكتم منه ما يشاء، ويبدي منه ما يشاء ويكتب كلاماً من عند نفسه يذيعه في الناس باسم أنه من كتاب الله.. كل هذا ليربح ويكسب، ويحتفظ بالرياسة والقيادة(٢).

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] فهي واضحة بذاتها ساطعة ببيانها جلية بمفرداتها ناطقة بمعانيها إذ تقرر بأن الرسول ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، ولم يكن يقرأ أو يكتب قبل البعثة، وإلا لتشكك أصحاب القلوب الضعيفة في حقيقة رسالته. يقول الزمخشري: «وأنت أمي ما عرفك أحد قط بتلاوة كتاب ولا خط إذاً لو كان شيء من ذلك، أي، من التلاوة والخط لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ من أهل الكتاب وقالوا: الذي نجده في كتبنا أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به. أو لارتاب مشركو مكة وقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده»(٣).

(١) في الظلال تفسير سورة الأعراف

(٢) الظلال تفسير سورة البقرة.

(٣) الكشاف تفسير سورة العنكبوت

نخلص من هذا الحوار أن نولدكه وزميله قد تنكبا الطريق، وعلى الرغم من أن نولدكه: «تميز بألمعية وفكر ثاقب، وذاكرة قوية سريعة الالتقاط سمحت له بشق طريقه بسرعة في كل ميدان»(١)، وقراءاته الواسعة في القرآن واستشهاده بآياته إلا أن ضغط البيئة والتراث الثقافي الذي تشربه ومعتقداته السابقة لم يستطع أن يتحرر منها ولم ينفك من قيدها وظل أسير ثقافته وميراثه الديني، ونحن لا يمكن أن نكذب مؤرخي الإسلام وعلماءه الكرام وجهابذة التفسير ومصادر معتبرة نقلت إلينا عن طريق التواتر حتى ننخدع بكلام مستشرق يغترف من تراثه المملوء عداوة وكراهية وضغينة تجاه الإسلام. ونصدق تأويلاته وتهويماته وتفسيراته الخيالية(٢).

٥ - يطرح بودلي (ت ١٩٧٠) وجهة نظر مقاربة لأطروحة نولدكة وبوش، مع جموح في الخيال الذي ألفناه منه وشاعريته المحلقة في فضاء الغرائب، ويتكلم كأنه في حلم جميل فيقول: «كان على محمد أن يتلقى نزرا يسيرا من التعليم المدرسي، ولكنه كان يُحصِل أكثر من أي طالب يمضي سحابة يومه في حجرة الدرس، وما كانت له رغبة في المدرسة»(٣).

وفي موضع آخر يقول:إن البعض يدعي أنه أمي والبعض الآخر يقول بعكس ذلك، وليس هناك ما يؤيد أو ينفي أحد الزعمين، ثم يتساءل لماذا علم أبو طالب ابنه عليّ ولم يعلم ابن أخيه وكانا يعيشان في دار واحدة، ثم يجيب على تساؤله بأن محمدا بدأ حياته العملية مبكراً فلم تتح له فرصة للتعلم. معنى ذلك أنه يقرر أنه أمي يجهل القراءة والكتابة، وهذا يناقض ما ذكره سابقا.

ثم يناقض نفسه مرة أخرى، ويقرر أن محمدا كان يجيد القراءة والكتابة، ويسوغ ادعاء الرسول بجهله بالقراءة بأن في «اشتهار أمر أميته دعاية طيبة له، فصدور كتاب كالقرآن عن أعرابي جاهل يحدث ضجة تفوق ولا شك ما يحدثه صدور نفس الكتاب عن متعلم»(٤) من

---

(١) يوهان فوك ص ٢٢٥.

(٢) أفرد الأستاذ عمر لطفي العالم، فصلا مستقلا للحديث عن كتاب تاريخ القرآن لنولدكه وقَيم شخصيته ومنازع علمه بقوله: تسنم مجدا لا يستحقه، على حساب اللغة العربية، والقرآن الكريم ومحمد ﷺ، لكن هذا القول لا ينفي ثقافته، ولا يلغي مكانته ولا يحط من قدره العلمي، إلا بالقدر الذي حاول فيه النيل من شأن القرآن، والغض من نبوة محمد ﷺ (المستشرقون والقرآن، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩٢. ص ١٤٩).

(٣) حياة محمد ص ٥٠.

(٤) حياة محمد ص ٧٣

الواضح أن هذا الرحالة يقوم «بعملية إسقاط تاريخي»[١] على الوقائع التي يتناولها بالمناقشة، وقد صدق إدوارد سعيد في وصفه الاستشراق بأنه «نمط من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة السيطرة عليه»[٢]؛ أي أن المستشرق يسقط مفردات عصره وثقافته وعاداته وتقاليده على العصر القرشي، ويترك لخياله العنان فيتصور محمدا وقد انتظم في مقعد الدراسة وأنه كان شغوفا بكل ذلك، وأين هذه المدرسة والمجتمع القرشي كان يعاني من شدة الأمية، ومن كان يقرأ منهم يعدون قلة بالنسبة إلى المجتمع، وفي الوقت نفسه لا يقدم لنا دليلا على هذا الاتهام الخيالي و المسألة التي بث فيها شكوكه؟هذا من جهة.

ومن جهة أخرى يناقض نفسه بأن ظروف محمد الاجتماعية وانخراطه في التجارة والسفر دفعته إلى عدم التعلم. ومن جهة ثالثة، يتهم الرسول بالمداراة والكذب وخداع قومه، في الوقت الذي وصفه بأعظم الصفات وكرائم الأخلاق وكال إليه عظيم المدائح.

ومن جهة رابعة نحن أمام إنسان اتصف بكل صفات الرسل الكرام اختاره الله كي يبلغ الرسالة التي أناطها به مثل باقي الرسل السابقين «لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم» على حد تعبير توماس كارليل[٣]، لأن الله سبحانه هو الذي اصطفاه من عباده البررة، ثم علمه من فيض علمه الشامل المحيط، حتى لا يكون لأحد فضل عليه أو مزية، وقد تواترت الأخبار بذلك، وساق المؤرخون الأدلة المؤكدة على ذلك، ويكفينا أن يكون بيننا هذا الكتاب المعجز الذي تحدى أساطين قريش وجهابذتها، ومازال يتحدى البشرية عبر عصورها، وكلما مرت العصور أثبتت الكشوف العلمية صدق أقوال الرسول ﷺ وصدق إشارات القرآن في مجالات الصحة العامة والكشوف العلمية وأدوار مستقبل الأمم.

---

(١) يعد الإسقاط: في علم النفس، حيلة دفاعية عقلية نحاول فيها أن ننسب عيوبنا ونقائصنا ورغباتنا المستكرهة المكبوتة إلى غيرنا من الناس وذلك تنزيها لأنفسنا وتخفيفا مما نشعر به من خجل أو ذنب، فالشك في الناس يعد إسقاطا لعدم ثقة الفرد في نفسه . ويتعبير آخر الإسقاط حيلة دفاعية يقوم فيها الفرد بإسقاط حالته النفسية ودوافعه وعيوبه وأخطائه على الآخرين فيدركها فيهم بدلا من أن يلاحظها في نفسه. (أحمد عزت راجح: أصول علم النفس، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٥٦٢، وأيضا عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٢٣٠)

(٢) الاستشراق ص ١٥٢

(٣) الأبطال ص ٦٣

لا جرم أن نذهب إلى القول بأن هؤلاء المستشرقين يمارسون علينا شكلا من أشكال الاستبداد الفكري وهذا أشد أنواع الاستبداد وأسوأه، وربما يعتقدون أنهم ما زالوا يحتلون أرضنا ويفرضون وصايتهم علينا ويستبدون بنا استبدادا سياسيا أيضا كما كان قديما.

٦- فون جرونباوم (١٩٧٣)

في سياق كلامه عن شخصية الرسول ﷺ وأنه بشر ذو طبيعة إنسانية ومقاومة قريش له ومطالبتها بأن يأتي لها بالمعجزات يقول عن أمية الرسول: «إن ما يذهبون إليه من أمية محمد من شأنه أن يقوي عنصر الإعجاز في إنتاجه الأدبي... ثم يواصل حديثه: لعل كلمة أمي التي وردت في القرآن على لسان محمد تشير إلى حقيقة كونه ينتمي إلى شعب ليس له تراث أدبي، وإلا فهي تقابل كلمة ethnikos اليونانية ومعناها الشعبي. وليس هناك إلا قليل من الشك في أن محمدا كان يعرف القراءة والكتابة»[1].

لما كان هذا المستشرق يعتقد بأن القرآن من تأليف الرسول كما هو واضح في كتابه في أكثر من موضع، لذلك ذهب إلى أن هذا يزيد في مكانته ويعلي من شأن أسلوبه الأدبي، وهي حجة ساقطة، لأن عرب الحجاز بعامة والقرشيون بخاصة تميزوا بهذا الأسلوب الأدبي الراقي، فهذا لا يزيد أي صفة إيجابية للرسول لأن أسلوبه كان في قمة البلاغة وجمالية التعبير وحسن الأداء. ثم من الذي قال بأن «العرب لم يكن لهم تراث أدبي» وشعرهم ونثرهم وأمثالهم وحكمهم يملأ صحائف المؤرخين وقد كتبوا عن خصائص الأدب الجاهلي ومنهم بروكلمان في موسوعته المعروفة «تاريخ الأدب العربي»، وأخيراً ما صلة كلمة «أمي» التي تعني من ولدته أمه ولا يعرف شيئا، بكلمة «الشعبي»ما العلاقة بينهما.؟ وفي سياق كلامه يشكك في جمع القرآن وأن مصحف عثمان به نقص وزيادة في الآيات !!

يبدو أن جرونباوم يعتقد أننا بلا ذاكرة، وأننا سنصدق هذا الكلام المتهافت.

إن أمية الرسول ﷺ تعد له شرفا وكمالا لأنها تعني أن الذي علمه هو «الله العليم» وهو سبحانه الذي اصطفاه ووهبه الحكمة وفصل الخطاب وأفاض عليه من خزائنه التي لا تنفد.

---

(١) حضارة الإسلام ص (هامش ١٣٠)

وأنه لم يتلق علمه من أحد من البشر[١].

يستنبط الشيخ الشعراوي معاني سامية وأبعاد خافية عنا لمعنى أمية الرسول فيقول: «كانت الأمية في رسول الله ﷺ شرفاً له ولنا. أما أُمِّيَّة الإنسان العادي فهي عيب، إنما أُمِّيَّة محمد ﷺ هي الكمال.

و«أُمّيّ» - كما نعلم - تعني أنه كما ولدته أمه، لم يأخذ ثقافة ولم يتعلم من أحد من البشر، لكن علمه وثقافته فوقية كلها. إن ذلك وحي من الله، وهو ﷺ عندما يعلن أنه نبي أمي؛ فهذا معناه أنّ كل ما دخل في ذهنه لم يأخذه عن أحد من خلق الله، وإنما كل ما جاء إلى هذا الذهن قد أخذه رسول الله عن الله[٢].

أما بخصوص القرآن فنرد عليه بكلام طيب لوليم موير وهو أحد المستشرقين المتعصبين على الإسلام لكنه كان منصفا في هذه القضية يقول: «النتيجة التي نستطيع الاطمئنان إلى ذكرها هي أن مصحف عثمان لم يكن دقيقا فحسب، بل كان كما تدل الوقائع عليه كاملا، وأن جامعيه لم يتعمدوا إغفال أي شيء من الوحي، ونستطيع كذلك أن نؤكد، استنادا إلى أقوى الأدلة، أن كل آية من القرآن دقيقة في ضبطها كما تلاها محمد»[٣].

٧ - تعرض «مونتجمري وات» (٢٠٠٦) بطريقة عارضة إلى أمية الرسول، وأنكرها ورأى أنها من وضع المؤرخين، وقد استند في ذلك إلى رواية تقول: إن الرسول

---

(١) يري جرونباوم أن بعض العرب سريعي النسيان، وقد عاصر ذلك وأن بعضهم تخلى عن القضية الفلسطينية، وأن ذاكرتهم قصيرة المدى، بدليل أن بعض الدول العربية ترسل سفرائها لإسرائيل، وتقف معها في الأمم المتحدة (مصر والأردن والإمارات والسعودية)، وتقوي الروابط بينهما، وفي هذه الأيام (٢٤ أغسطس ٢٠١٦) أعلن وزير خارجية مصر أنه لا يستطيع أن يتهم إسرائيل بأنها دولة إرهابية، لا جرم أن نقول هؤلاء الساسة الأقزام لو عاشوا عدوان إسرائيل علينا وعاشوا ويلات الحرب التي شنتها علينا من الخمسينات حتى العبور وشاهدوا جثث الشهداء وأطفال مدرسة بحر البقر والقتل والدمار التي أوقعته في مدننا؛ بورسعيد والإسماعيلية والدفرسوار والسويس على الجبهة وفي العمق حتى وصلت طائراتهم إلى المنصورة والخانكة وقناطر نجع حمادي لأدركوا معنى كراهية إسرائيل وإنها دولة نازية فاشية، ولا تستطيع أن تعيش في سلام، ومن المستحيل أن تعيش في سلام، فالسلام بالنسبة لها يعني الفناء والانحلال؛ أي تفكك المجتمع وظهور العنصرية وانتشار التعصب بين المهاجرين الذين وفدوا من أصقاع العالم.

(٢) تفسير الشعراوي سورة الأنعام .

(٣) نقلا عن حسين هيكل: حياة محمد ص ٥٥

حينما قال له جبريل اقرأ قال له: ما اقرأ، أي لا أستطيع القراءة، ورواية أخرى عن ابن هشام يقول فيها الرسول: ما اقرأ أو ماذا اقرأ، أي ماذا سأقرأ ، وانتهى من هذا التحليل إلى القول: «من المؤكد أن أهل الحديث المتأخرين قد تجنبوا المعنى الطبيعي لهذه الكلمات ليعززوا الاعتقاد بأن محمدا لم يكن يستطيع الكتابة، وهذا الاعتقاد جزء من إثبات الطبيعة المعجزة للقرآن»[1].

ونكتفي بما ذكرناه سابقا في الرد على طائفة المستشرقين ولكننا نتساءل:إذا كان القرآن ليس معجزا لماذا استمر خمسة عشر قرنا؟ ولماذا آمن بها أكثر من مليار مسلم؟

ولماذا لا يوجد كتاب في التاريخ غير مجرى البشرية حتى يومنا هذا؟ إن أمية الرسول ﷺ ثابتة التواتر وأهل مكة أقروا بذلك وجدالهم معه كان من قبيل المشاحنات والمكابرة إذا اتهموه أن هناك من يكتبه له، أو يملي عليه من قبل شخص آخر.

غني عن البيان القول أن المستشرقين عندهم قناعات راسخة رسوخ الأهرامات من الصعب أن نغيرها، وأساطير استحوذت على عقولهم وتغلغلت إلى تلافيف عقولهم، وأفكار خيالية تجري مجرى الدم في عروقهم، ويبدو أنها تجد هوى في نفوسهم وإشباعا لروح الانتقام في نفوسهم من الرسول ورسالته، وليس عندهم استعداد للنظر في هذه المقولات التي تجذرت في أعماقهم تجذر الأشجار المعمرة في الأرض الطينية السوداء.

وأعظم دليل على ذلك، وأقوى حجة أن نجدا مستشرقا معاصرا مثل مكسيم رودنسون (١٩١٥ - ٢٠٠٤) اتصل بالعرب وبعلماء المسلمين واحتك بهم وقرأ كتبهم واطلع على تاريخهم، وزار مصر وناقش علماءها ورأى مساجدها ومآذنها وألقى محاضرات في جامعاتها وقرأ في مكتباتها، وعلم أن هناك ملايين المسلمين يؤمنون بهذا الرسول الكريم.ومع كل هذا ظل يردد مقولات «عصر الجهالة» ويكرر هواجس الدهماء ومزاعم الرهبان وأساطير القسس وأحلام الباباوات، وخرج علينا في كتابه «محمد» الذي كتبه عن الرسول الكريم ﷺ

---

(١) محمد في مكة ص ١١٢ . علق عبد الرحمن بدوي على وجهة نظر «وات» بأسلوبه الهجومي وتعبيراته الجارحة وألفاظه العنيفة بقوله: «حتى لو احتسى عشر زجاجات من الويسكي دفعة واحدة لما كان من الممكن أن يقول هذا الكلام». (دفاع عن محمد ص ١٤٦)

يرمينا بتجديفاته التي تنضح من بُرَكِةِ التحليل المادي للتاريخ الآسنة، وإسقاط مفردات الفلسفة الماركسية المشهورة على حياة الرسول واعتماده على كتب المستشرقين وقبول رؤيتهم كأنها حقائق كونية أو بديهيات رياضية، من المتعذر نقدها وفحصها وكذلك رفضها، وترديد ادعاء تأليفه القرآن بواسطة أحد الشعراء وهي فرية سبقه إليها بلاشير، وتكرار المقولات التي حفظناها من كثرة دورانها على ألسنة المستشرقين، وورودها في كتبهم؛ فهو قاطع طريق ورجل انتهازي تزوج أرملة ثرية صاحبة تجارة واسعة طمعا في ثروتها الضخمة، ومريض بالصرع تتناوشه أخيلة عجيبة وتهاويم أسطورية وأحلام عريضة في المجد وتأسيس دولة كبرى فاعتقد أن الوحي نزل عليه من السماء، مع أنه اقتبس جل كتابه من اليهود والنصارى وزعم أنه لا يقرأ ولا يكتب، وأشار إلى قصة زواجه من زينب بنت جحش ويرى أن هذا دليل على شهوته الجنسية الجامحة التي لم يستطع أن يكبتها، وكذلك كرر قصة الغرانيق المزعومة وادعائه أنه حاول أن يتقرب للمشركين من خلال مدح آلهتهم لكسبهم إلى صفه، وعفوه عن أبي سفيان كان لأسباب مادية نفعية، ثم وحشية العرب وهمجيتهم وتحطيمهم الامبراطورية الرومانية بكل تراثها الجليل.واتهامات عديدة نقلها من كتب المستشرقين السابقين(١).

ومن الجدير بالإشارة أن السيدة كاترين أرمسترونج وهي تتكلم عن مرحلة العداء النصراني للتاريخ الإسلامي، ومحاولتها تشويه صورة الرسول ﷺ ومفاهيم الإسلام، ذكرت هذه الادعاء ات، ورصدت معظم الأفكار التي سادت تلك المرحلة التاريخية وأكثر مما ذكره رودنسون، وعدتها أساطير وأوهاما، وافتراءات مكشوفة، وأفكارا خيالية، لجأوا إليها لتفسير سر نجاح محمد و التعبير عن بواعث قلق المسيحيين على هويتهم التي كانت قد بدأت تظهر (٢).

٨ - تناول العلامة العقاد بنظراته الفلسفية و طريقته التحليلية وأسلوبه الأدبي البليغ

---

(١) راجع كتاب محمد أبو ليلة:محمد بين الحقيقة والافتراء، وهو رد موثق وبالدليل العلمي على كتاب «محمد» لرودنسون، وكذلك كتابي:المستشرقون وعلم الكلام، وقد أفردت الكتاب كله للرد على كافة افتراءات المستشرقين ومنهم رودنسون، وتتبعت كافة مزاعمهم ونقلتها من كتبهم وفندتها بالدليل العقلي والاستدلال المنطقي. وكذلك بدوي:دفاع عن الرسول ص ١٥٥ (وقد وصف تفسيره هذا بأنه سفالة مادية تاريخية ص ١٥٥).

(٢) سيرة النبي محمد ص ٣٩ : ٤٠

المحكم، هذه القضية وناقشها باستفاضة ومنهجية عالية، وقد استهلها بإنكار ما نشرته الصحف اللبنانية من أن باحثا عثر على مخطوطة تاريخية مكتوبة بخط الرسول، ورأى أن هذا خبر لا سند له من الواقع والتاريخ، وذهب إلى أن «الأمي» تعني من يجهل الكتابة أولا والقراءة تبعا لذلك.ويتوقف أمام قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].. ويرى أنها تعني من دخل في اليهودية من الأمم غير بني إسرائيل وكانوا يقرأون العبرية والآرامية ولا يزيد علمهم بصلوات الكتاب على التأمين بعد انتهاء الكاهن إليه «آمين». وأن أهل الكتاب كانوا يسمون العرب وغيرهم من الأجانب بالأميين أي الذين يجهلون القراءة والكتابة، وخلص من ذلك بأن النبي العربي والنبي العربي بمعنى واحد وأنه لم يكن «يتلو كتابا قبل الكتاب المنزل عليه ولا كان يخطه بيمينه»[١].

على أن مالك بني نبي يتناول القضية من جهة تراث العرب الشعري ومعتقداتهم ليظهر لنا، المفاجأة العنيفة التي نزلت على الرسول حينما طلب منه جبريل أن يقرأ. يقول: «إن محمداً أمي؛ليس لديه من معرفة البشر سوى ما يمكن أن يمنحه له وسطه الذي ولد فيه، ... ومن الواجب أن نتصور في كلمة «اقرأ» تأثيرها الصاعق على النبي لأنها لا تعني شيئا بالنسبة إليه، إذ هو أمي، وهذا الأمر الملزم يحدث بطبيعة الحال انقلابا في كيانه، لأنه يزلزل فكرة الأمي عن نفسه»[٢].

خلاصة القول لماذا نصدق المستشرقين في ادعاءاتهم أن الرسول ﷺ يقرأ ويكتب، وقد عهدنا عليهم المداورة والمناورة، ولمسنا من كلامهم الكذب وضغينة سرائرهم والافتئات على رسولنا، وخبرنا عدم حيدتهم في قراءة سيرته، وتأكدنا من خلال الاستقراء العلمي والممارسة العملية والبعد التاريخي تعصب جمهرتهم تعصبا شديداً على كل ما يمت إلى الإسلام بصلة، ليس هذا فحسب بل معظمهم يكرهونه بالوراثة والتربية والنشأة والثقافة.

في ضوء ذلك لا يملكون أي موضوعية ويفتقدون المنهجية العلمية حينما يقتربون من

---

(١) الإسلام دعوة عالمية ص ١٧٧: ١٨٨

(٢) الظاهرة القرآنية ص ١٥٤

دراسة سيرته الكريمة، وينجرفون مع تيار الحقد المستحكم في قلوبهم والعداء القديم والجدل العقيم الذي بذر بذرته أمثال يوحنا الدمشقي وتيودور أبو قرة[١] ورعاه ريموند لول (١٢٣٥ - ١٣١٦)[٢] و مارتن لوثر(١٤٨٣ - ١٥٤٦)[٣] وسقى شجرته توما الأكويني نصير فلسفة ابن رشد وفولتير العقلاني؛ ومن المؤسف أن نجد فيلسوفا كبيرا مثله يظل متذبذبا بين مدح الرسول ﷺ وذمه، والدفاع عنه و الهجوم عليه، والإعلاء من قيمته ومكانته وسعة صدره، ثم الحط منه في كلمات سيئة بالغة السوء وتعبيرات صفيقة تجرح مشاعر المسلمين[٤]؛ مما أغرى صديقه دنيس ديدرو (١٧١٢ - ١٧٨٤) فيلسوف التنوير ومن محرري الموسوعة الفلسفية معه أن يهاجم الرسول وينبذه بكلمات ساقطة وألفاظ جارحة وتعبيرات سوقية ويتجرأ عليه بقوله: قاتل دجال وخاطف نساء، وأكبر عدو للعقل الحر. وهذا كلام يدل على الجهل المطبق بسيرة الرسول ﷺ وعدم درايته بأدنى قدر من المعرفة بالإسلام، ويعري نفسه أمام زملائه من المفكرين، ويعرض تاريخه الفكري للنقد، على أنه من المعلوم أن ديدرو

---

(١) يرى توماس أرنولد: أن جدل يوحنا مع المسلمين وكثرة التكرار في قوله «إذا سألك العربي فأجبه» كان المقصود منه تزويد المسيحيين بإجابات حاضرة رداً على اعتراضات المسلمين التي كانوا يوجهونها إلى العقيدة المسيحية. ويرى أن المسلمين هم الذين بدأوا بالتحدي، وقد قال أحد الأساقفة:تتجه أذهان أبناء هاجر نحو إنكار إلوهية الرب: الكلمة، ويقصرون كل جهودهم على تحقيق هذه الغاية. (الدعوة إلى الإسلام ص ٧٧)

(٢) يعد ريمون لول بطل الحرب الصليبية ضد الرشدية، فهدم الإسلام في حقل الفلسفة، ومن المعلوم أن هدم الإسلام كان حلم حياته.(رينان: ابن رشد والرشدية، ترجمة عادل زعيتر، البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧ ص ٢٦٧).

(٣) كان لول من أصحاب الهمم العظيمة والآمال العريضة، إذ كان مؤمنا أن في مقدوره إقناع المسلمين (الكفار) بالدخول في حظيرة المسحية عن طريق الحوار العقلاني والجدل المحمود، وبذل مجهودات واسعة من خلال الانتقال في دول شمال أفريقية والنقاش مع علماء المسلمين وفلاسفتهم ويقال أنه قتل في الجزائر، في حين كان لوثر مقتنعا أن المسلمين لا يمكن أن يعتنقوا المسيحية؛ ذلك أن قلوبهم مقفلة وينظرون إلى النصوص المقدسة نظرة احتقار وهم متعلقون بأضاليل قرآنهم بقوة وإيمان .(سوذرن ص ١٥١، ١٥٧)

(٤) نشر فولتير كتابا بعنوان «أخلاق الأمم وروحها»، دافع فيه عن محمد باعتباره مفكراً سياسيا عميق الفكرة، ومؤسس دين عقلاني حكيم، ومشيرا إلى أن الدولة الإسلامية كانت تتمتع دائما بالتسامح الذي يزيد عما تتسم به التقاليد المسيحية. (كارين أرمسترونج سيرة النبي ص ٥٧) وفي مسرحية محمد ﷺ التي كتبها عام ١٧٤١م بدأ في مهاجمة الأنبياء، ثم اختار شخصية سيدنا محمد ﷺ هدفا له حتى يتسنى له مهاجمة أنبياء اليهودية والمسيحية ثم أهداها إلى البابا وقد صوره في هذه المسرحية أنه رجل منافق، عديم الحياء، ودجال مستبد تحركه النوازع الحسية. (محمد الزيني: وقفة مع الفلسفة الغربية ص ١٩٨)

يرفض الوحي المسيحي بصفة خاصة وما تزعمه الكنيسة من أن لها سلطانا على العقل، وفي كتاباته نجد جوانب إلحادية، وقد أعدمته الكنيسة بسبب آرائه الثورية والعلمية والدينية.(١)

وفي هذا السياق يستحسن أن نبين أن هذا الهجوم من رواد التنوير كان رد فعل للقمع الفكري والكبت النفسي الذي مارسته الكنيسة على العلم والعلماء والمفكرين وعاشته أوربة في العصور الوسطى من استبداد الكنيسة واستعلائها حتى على الملوك؛فجاء هجومهم على الأديان كافة ومنها الدين الإسلامي.

وفي المقابل نحن نصدق مقولة أمية الرسول ﷺ أي لا يقرأ ولا يكتب لأن هذا الخبر لم يعارضه كفار قريش وصناديدهم الذين كانوا يعايشون الرسول ويعرفون دقائق حياته، وقد خبروه منذ كان طفلا يعيش بينهم ويقوم بتربيته أبو طالب، ثم رأوه شابا صادقا ملأ العين والخاطر، ثم رجلا فاضلا أمينا وهكذا، أي أنهم يعلمون تفاصيل أطوار حياته ومعاملاته ورحلاته وسلوكياته داخل المجتمع القرشي الذي كان يحيط علما بأسرار الآخرين فقد كان مجتمعا مفتوحا، وهم الذين وصفوه «بالأمين» وخلعوا عليه هذه الصفة الجامعة لفضائل السلوك وكرائم الأخلاق ومحاسن الشخصية؛ نظرا لسلوكه الأخلاقي، ولين جانبه وتعامله المثالي وسيرته الحسنة، فلو كان الرسول ﷺ يقرأ ويكتب لكان القرشيون أول من تصدوا له وشنعوا عليه واتخذوا ذلك وسيلة للتشهير به، ورميه بتهمة تأليف القرآن.

وقد أدرك هذه المسألة هنري كاستري الذي أسلم بعد استبطانه لسلوكيات المسلمين في الجزائر يقول:ما كان محمد يقرأ ولا يكتب، بل كان كما وصف نفسه نبيا أمياً، وهو وصف لم يعارضه أحد من المعاصرين، ولا شك أنه يستحيل على رجل في المشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه أحد من معاصريه، لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان(٢) هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى نحن نوقن بصدق هذه المقولة لأنها نقلت إلينا من رجال ثقات وأصحاب أجلاء صحبوا الرسول ﷺ وأخبرونا بهذا فنحن نثق في أخبارهم ولا نثق في

---

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة، بإشراف زكي نجيب محمود، دار القلم، بيروت، ص ١٨٤

(٢) الإسلام، خواطر وسوانح ص ٣٩

مزاعم المستشرقين. أضف إلى ذلك كله أن مئات من المؤرخين المدققين والذين اشتهروا بنقد الروايات وتقليب النظر فيها، والتدقيق في مصداقيتها أجمعوا على صحة رواية أمية الرسول، ويؤكد المنهج العلمي أن التواتر مصدر من مصادر المعرفة اليقينية.

ومن ناحية ثالثة: لا شك أننا نقدر أهمية العلم ونقر بدوره الجوهري في تقدم الأمم ورقيها بخاصة والحضارة المعاصرة بعامة، ولكن أحوال النبي من موت أبيه وأمه ووضعية المجتمع البدوية وانتشار الأمية وظروف عمه أبي طالب الاقتصادية، كل هذه العوامل الاجتماعية أفضت إلى عدم تعلم الرسول. ونضيف سببا جوهريا إذ من الواضح أن الإرادة الإلهية الكونية شاءت أن يكون الرسول أميا حتى يقطع الطريق على من سيقولون أنه «يقرأ ويكتب». ولكن لحاجة الإنسان وحبه للجدل لم يرتدع وذهب يجدف ويرمي التهم هكذا جزافا.

وقد حث القرآن على ذلك في آيات معلومة ومشهورة وعديدة، منها قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩][١] وهذا ما طبقه الرسول ﷺ في حياة المسلمين وفي أحاديثه وحثهم على تحصيل العلم وطلبه من مظانه، وقد طلب من أسرى بدر أن يعلم كل أسير عشرة من المسلمين[٢].

الدليل النقلي:

- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

---

(١) ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

(٢) قال الرسول: «اطلبوا العلم ولو في الصين». وقوله: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم».

- ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ [الجمعة: ٢].

ونختم هذه الردود بهذه العبارة الموحية التي تنطق بالصدق وتجهر بالعدل، وتعلن كلمة الحق والإنصاف في مواجهة الدنيا كلها مهما تدثرت بالباطل وتعصبت للكفر وغرقت في بحر الأنانية. «لسنا نعد محمدا قط رجلا كاذباً متصنعا يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية أو يطمح إلى درجة أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر؛ وما الرسائل التي أداها إلا حق صراح وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول»[١].

***

---

(١) توماس كارليل (١٧٩٥ ١٨٨١): الأبطال، ترجمة محمد السباعي. مكتبة مصر، القاهرة، ص ٥٥ . لاشك أن صوت الحق صادر من الله يحمله الوحي إلى رسوله، وليس صادرا عن المجهول، فالمجهول عدم وفناء .

(كارليل؛ كاتب وفيلسوف مؤرخ وعالم أخلاق اسكتلندي من أسرة متواضعة كان أبوه مزارعا لم ينل قسطا من التعليم، واشتهر كارليل في ميدان الفكر العالمي بكتابه الأبطال).



الفصل الثالث

حياة الرسول ﷺ بعد البعثة

تمهيد:

خلق الله الإنسان ذلك المجهول؛ العجول الظلوم الهلوع، العاقل المفكر المبدع، وزوده بقدرات فائقة ومواهب متعددة، وملكات لا حصر لها، وطاقات هائلة تتجلى عند الحاجة إليها وتظهر في الأزمات ومن خلال الامتحانات العسيرة والمواقف الحرجة فتتفجر مثل ينبوع زمزم الذي تفجر تحت أقدام هاجر بعد أن ضاق بها الكون على امتداده، ولم تجد ملجأ إلا الله فشعرت بيد الله الحانية تسخر لها الكون كله بما فيه من مخلوقات مرئية وغير مرئية.

هذا الإنسان بكل ما له من ملكات متعددة ومواهب رائعة وذكاء باهر زد على ذلك أنه أفضل الخلائق في هذا الكون، لا يستطيع أن يخوض تجربته الوجودية دون معونة من الله، ويسير في دروب الحياة دون أن تمتد له يد العناية الإلهية تربت على كتفه وتهدئ خاطره وتمسح دموعه، ولا يمكن أن يُسير حياته بقدراته الخاصة، وينظم شؤونه اعتمادا على معطيات عقله؛نظرا لتباين بيئته وتعدد ثقافته، وتبدل مزاجه من حالة إلى أخرى هذا فيما يتعلق بمشكلات الحياة التي تتابع حوله كما تتابع أمواج البحار حين تضربها العواصف، وإذا كانت حاجته شديدة لمنهج الله في هذه الحياة فما بالنا بالعالم الآخر؛ونعني به يما يتعلق بعالم الغيب، وما وراءه من موت وبعث وحشر وحساب و عقاب وجنة ونار.

لذلك كان من حكمة الله البالغة وعطائه الفياض، وتتميما لنعمه التي لا تعد ولا تحصى على الإنسان والبشرية جمعاء، أن جرت سنته في خلقه، أن يرسل لهم الرسل هداية ورحمة، يرشدون البشرية إلى طريق الخير والمحبة والقسطاس المستقيم، لاسيما بعد أن تضل الطريق وتتعدد أمامها السبل ويدب فيها الاختلاف ويعمها الشقاق و قد تجلى ذلك في انهيار الكنيسة التي تمثل المسيح والاختلافات العميقة التي ضربتها في الصميم وبخاصة فيما يتعلق بطبيعة

المسيح وظهور المذاهب المتناقضة مثل الآريوسة والنسطورية وأصحاب الطبيعة الواحدة والطبيعتين وغيرهم، والاجتماعات المتعاقبة للمجامع التي تريد أن توحد الكلمة لكن هيهات، يقول جورج بوش الجد (١٧٩٦ - ١٨٥٩)[١]: لقد استشرت هذه الردة المرعبة وبلغت ذروتها في الفترة التي ظهر فيها محمد لقد تخلت الكنيسة التي لم تصبح جديرة باسمها عن عقائد الكتاب المقدس وأخلاقياته وأساس العبادة الواردة؛فأصبحت على وشك التخلي عن المسيحية[٢].

في هذه الأجواء المظلمة، استغراق اليهود في ماديتهم، وانتشار الفرق المذاهب المتناحرة في المسيحية، واستباحة القيم وعموم عبادة الأصنام والأوثان عند العرب.

يأتي رسولنا ﷺ كوكبا ضمن هذه الكواكب الخالدة من الرسل الكرام الذين جاءوا لهداية البشرية، إذ يأتي بكل ما يصلح القلوب ويرشد العقول ويهدئ خاطر الحيران المتشكك في واجب الوجود، ويسدد خطواته إلى الطريق المستقيم والملجأ الحصين وبر الأمان الذي يجد فيه الراحة والطمأنينة وسلامة الجسم وراحة النفس

في ضوء ذلك نعتقد أن مقولة جولدتسيهر التي أطلقها تعد كاذبة ومجافية عن الحقيقة ومنطوقها:لم يبشر محمد بجديد من الأفكار، كما لم يمدنا بجديد فيما يتصل بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسه وشعوره وباللانهاية، لكن هذا وذاك لا ينقصان من القيمة النسبية لطرافته الدينية[٣]. ويهدم هذا الكلام المنظومة العقائدية والتشريعية والاجتماعية والأسرية والسياسية والأخلاقية والتربوية التي جاء بها الرسول ﷺ متضمنة في القرآن والسنة، وكذلك المجتمع الجديد الذي شيده انطلاقا من هذه التشريعات الربانية التي طرحها والقيم الأخلاقية والمعالم

---

(١) يعد بوش هو الجد الخامس لجورج بوش رئيس أمريكا الذي قام بغزو العراق، وهولاكو العصر، عمل قسيسا وراعيا لإحدى الكنائس في «إنديانا بولس»، وكان بارعا في الجدل والمناظرة، وعمل أيضا أستاذا للغة العبرية في جامعة نيويورك، وله مؤلف عن الرسول بعنوان «محمد مؤسس الدين الإسلامي» وبحوث في شرح أسفار العهد القديم، انتقد فيها المذهب الكاثوليكي والأرثوذكسي، ويرى أن المسيح هو الرسول الوحيد عكف على دراسة الكتاب المقدس، ودرس في كلية اللاهوت برنستون. (جعفر عبد السلام:دراسة نقدية لكتاب جورج بوش ص ١٥٩. ضمن القراءة الغربية للقرآن) وأيضا محمد عند علماء الغرب ص ٢٠٥

(٢) حياة محمد ص ٢١ (نقلا عن السيد حامد علي:الرد علي كتاب جورج بوش، حياة محمد ص ٤٥)

(٣) العقيدة والشريعة، ترجمة محمد يوسف موسى، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ص ١١

الإنسانية. ليس هذا فحسب بل إن ما جاء به نظم العلاقة بين الإنسان وبين الله وبينه وبين الآخرين، وبين كل من يتعامل معهم من أفراد البشرية بل والكائنات الأخرى سواء أكانت جمادات أو نباتات أو حيوانات، أما فيما يتعلق بما وراء الغيب فقد نزل الوحي بصور مبهرة وأوصاف حسية ومادية سواء فيما يتعلق بالجنة أو النار.

الشاهد نقر أن محمدا بن عبد الله الذي ولد في مكة عاصمة الجزيرة العربية لمكانتها الدينية والاقتصادية، بين قوم تميزوا بالخصال الطيبة والكرم المشهور وأخلاق النخوة والشجاعة وكراهية الضيم ونجدة الملهوف وحلف الفضول أكبر شاهد على ذلك، ولكنهم مثل باقي الشعوب يجمعون بين الخير والشر، والصواب والخطأ، فكان من أولى صفاتهم الذميمة الشرك بالله الذي طرأ عليهم فعكفوا على تقديس الأصنام وتقديم القرابين لها اعتقادا منهم أنها تقربهم إليه، كذلك الأخذ بالثأر وقيام الحرب بينهم لأسباب واهية، وهذا أمر شائع بين الشعوب حتى يومنا هذا.

في ضوء ما سبق نرفض حكم فرانشيسكو جابرييلي (١٩٠٤- ١٩٩٧)[١] ومنطوق مقولته «ولد الإسلام في منطقة من أكثر مناطق العالم القديم بدائية وتخلفا»[٢]. فمن يرد أن يحكم على العرب عليه أن يعود يدرس تاريخ الأمم والشعوب المقابلة لها على الكرة الأرضية التي كانت تعيش في المرحلة الطوطمية ولا تعرف كيف تغطي عوراتها، وتأكل لحوم البشر، ولا يكون المعيار هو معايير عصرنا.

ويكفينا شهادة توماس كارليل: «كان العرب أذكياء القلوب حداد الخواطر، خفاف الحركة ثاقبي النظر. أقوياء النفوس كأن أخلاقهم دفاقة لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحصن سور، وأمنع حاجز، وهذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ»[٣].

نعود فنقول ولد محمد مثل باقي البشر؛ وعاش بين أهله وقبيلته إنسانا بكل معنى

---

(١) مستشرق معاصر، عمل أستاذا للغة العربية والتاريخ الإسلامي بجامعة روما. يعد من المنصفين للحضارة الإسلامية إلى حد كبير بصرف النظر عن بعض اللمز والهمز هنا وهناك بسبب اختلاف المنطلقات الدينية والفكرية والحضارية.

(٢) الإسلام في عالم البحر المتوسط ص ٨٥ (ضمن تراث الإسلام ج١)

(٣) الأبطال ص ٥٧

مقومات البشرية ثم شمله الله بعنايته وأفاض عليه كرمه الإلهي؛ فاصطفاه برسالته الخالدة لهداية أمته والبشرية جمعاء. وبعد بعثة الرسول ونزول الوحي وفيض الإشراقات النورانية عليه وهطول الرحمات السماوية واستغراقه في الفيوضات الربانية؛ أصبح محمدا إنسانا محاطا بالعناية الإلهية ونحن لا نستطيع أن نفصل البشرية عن الوحي، أو محمدا الإنسان الذي يأخذ بأسباب الحياة، ويخطط ليومه ويرسم خطة محكمة لفكره السياسي واستراتيجيته العسكرية وحركته الاجتماعية ونشاطه الاقتصادي، ويفكر في الأسباب والنتائج، والفعل ورد الفعل ؛لأنه أصبح يتحرك محاطا بالمشيئة الإلهية التي ترشده من أجل تحقيق الخير للإنسان أينما كان وحيثما حل بصرف النظر عن إطار الزمان وتعاقب العصور ومحمد الرسول. هذه نقطة.

الثانية:أنه بمجهوده الكبير وإصراره العظيم وإيمانا برسالته وقبل هذا وبعده التوكل على الله والتأييد الإلهي، نجح في اقتلاع الأفكار الوثنية من مجتمعه وعبادة الأصنام من حياتهم، واستطاع أن يحل محلها قضية وحدانية الله في نفوسهم، ويرسخها في عقولهم وحياتهم وسكونهم وحركتهم وحلهم وترحالهم.

وفي خلال ثلاثة وعشرين عاما، كانت كلمة «لا إله إلا الله» تجوب الآفاق ويتردد صداها على المآذن في أنحاء المسكونة وتعم شمسها وضياءها أركان الكون اللانهائي ، في حين استغرق اليهود قرونا ليؤمنوا أن يهوه هو الإله الواحد، مابين خروجهم مع سيدنا موسى من مصر (عام ١٢٥٠ ق. م) حتى تقرر ذلك على يد أشعيا الذي كان منفيا في بابل (عام ٥٥٠ ق.م).(١)

وسوف نستعرض موقف جمهرة المستشرقين من هذه القضية.

أولا: اقتباس الرسول ﷺ بعض أفكاره من اليهودية والنصرانية

انتهينا سابقا من مناقشة قضية أمية الرسول، وقمنا بالرد عليها، وقد قصد المستشرقون بمناقشتها التمهيد للقول بأن الرسول ما دام يقرأ ويكتب، وقد قام برحلات تجارية خارج الجزيرة، وتعامل مع اليهود والرهبان، كذلك كان على دراية بالكتب السابقة ويعنون بها التوراة والإنجيل، أضف إلى ذلك تمتع بمقومات الشخصية القيادية، وفيض من الذكاء

(١) كارين: سيرة النبي ص ٨٢

وسعة الأفق وهذه هي المقدمة، فتكون النتيجة أنه اقتبس علومه ومعارفه في تأليف القرآن وتدبيج آياته وتنسيق تواريخه وأحداثه وقصصه وتشريعاته وأحكامه من تراث السابقين أي من اليهود والنصارى.

- لعل فكرة رفض نبوة الرسول ﷺ والنظر إليها على أنها هرطقة مسيحية وانسلاخ عن المسيحية الأصيلة ترتد إلى مقولات يوحنا الدمشقي (٦٧٦. ٧٥٠ م) في كتابيه «محاورة مع مسلم»، «وإرشادات النصارى في جدل المسلمين» ومزاعمه الكاذبة - على الرغم من أنه كان يعيش في بلاط الأمويين وفي حمايتهم - ، ليس هذا فحسب بل لم يستنكف أن يعد الدين الإسلامي ضمن مذاهب الغي والضلال، وامتدادا لهرطقة أريوس المصري (٢٧٠: ٣٣٦م) الذي انشق على الكنيسة وأعلن الوحدانية ورفض فكرة تأليه المسيح وعقيدة التثليث، فطردته الكنيسة بسبب زندقته منذ مجمع نيقية (٣٢٥م)[1].

وفي ضوء هذا الطرح السقيم، والافتئات الواضح راح بعض المستشرقين يرددون هذه المقولات البائسة ويزيدون فيها، ويتفننون في تجميلها والإضافة إليها كل على حسب أهوائه الذاتية ومكوناته النفسية وتراثه الثقافي واتجاهاته الفكرية.

ولكننا قبل أن نناقشهم، ندير حوارا مع «مونتجمري وات» (٢٠٠٦)فيما ذهب إليه بتأثر العرب قبل الإسلام باليهودية والمسيحية. يقول: نوقشت العلاقة بين تعاليم الإسلام والمصادر اليهودية والمسيحية إلى درجة تثير الغثيان[2]. ومع هذا الغثيان والتكرار لم يتراجع

---

(١) أريوس كاهن مصري ولد في أسيوط (٢٥٦م) وتعلم في الإسكندرية، رسم قسيسا، يعد من الموحدين إذ كان يقول: إن المسيح ليس بإله، وأن الأب وحده هو الله، والله واحد غير مولود، لا يشاركه أحد في ذاته، والابن مخلوق له مثل باقي المخلوقات، وقد انتشرت أفكاره في القسطنطينية وأنطاكية و الإسكندرية.رفض مجمع نيقية (٣٢٥ م) أفكاره وعد من الهراطقة والخارجين على تعاليم الكنيسة.

من الجدير بالذكر أن كثيرا من القسس وعلماء النصرانية والمفكرين المعاصرين من يرفض فكرة التثليث والصلب والفداء، ومنهم فولتير وأرنست رينان، وقد ذكر مراد هوفمان، أن القسيس الذي قام بمراسم زواجه من المؤمنين بوحدانية الرب والرافضين للتثليث، (يوميات مسلم، مركز الأهرام، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٢٥) وكذلك الدكتور شفار تسناو في كتابه القرآن دليل المسيحيين، لم يقبل عقيدة التثليث وفي هذا يقول: إن يسوع المسيح الذي عرفه التاريخ لم يكن ليتسامح في تأليه شخصه. (يوميات مسلم ص ١٢٣)

(٢) محمد في مكة ص ٨١

عن بحث مصدر معرفة العرب قبل الإسلام لكلمة الله، ورأى أن أهل مكة آمنوا بالله في حين أن أهل الطائف كان معبودهم «اللات»، ويخلص بعد هذا العرض «أن هذه الأحاسيس الداخلية بالتوحيد عند العرب تعد نتيجة للتأثيرات المسيحية واليهودية بصفة أساسية»[1].

ونرد عليه بالحجة والدليل المقنع: إن فكرة التوحيد موجودة في الأرض منذ أن أرسل الله الرسل للقضاء على الوثنية والشرك، وأن الأصل هو التوحيد؛ والعرب كانوا يقرون بذلك، وسيدنا إبراهيم هو أبو الأنبياء جميعا، وهو الذي بني الكعبة مع ابنه إسماعيل وكل الشعائر التي يؤديها المسلمون هي من ميراث إبراهيم وإسماعيل، مثل الطواف بالبيت الحرام وتقبيل الحجر الأسود والاغتسال من الجنابة والاختتان، فالقضية لا تحتاج إلى تأثير وتأثر، أو نقل العرب فكرة الوحدانية من اليهودية والمسيحية؛ لأن الحنيفية كانت متجذرة عند العرب[2].

قلنا مرارا أن الديانات كافة من عند الله جاءت تثبت الوحدانية في عقول والبشر وقلوبهم، ولما كانت اليهودية موجودة في أطراف المدينة وتؤكد مبدأ الوحدانية، ولا شك أن العرب كانت تصلهم أخبار ذلك، فكان هذا المبدأ يعضد إيمانهم بالإله الواحد.

أما النصرانية فنحن نعرف جميعا ما أصابها من تحريف بخصوص طبيعة المسيح وقضية الطبيعة الواحدة والطبيعتين، وفكرة الخطيئة والفداء، ولاشك أن هذا كان ينفر العرب من طرح النصرانية. وهو نفسه يقر بأن القرآن نقد فكرة الثالوث.

والآن ننتقل لمناقشة دعاوى جمهرة المستشرقين.

١ - يعد جولتسيهر (ت ١٩٢١) من المستشرقين الكبار الذين عكفوا على دراسة نزول القرآن وتفاسيره ومناهج المفسرين وسيرة الرسول وأقواله والفرق الإسلامية وأحاط بها وبمبادئها وبعلمائها، وله اطلاع واسع على مصادر الإسلام ومراجعه،

---

(١) محمد في مكة ص ٨٣

(٢) يقول كارليل: كان الحجر الأسود من أهم معبودات العرب، ولا يزال للآن بمكة في البناء المسمى الكعبة. (الأبطال ص٥٩) وهذا كلام ليس صحيحا لأن الله هو المعبود الواحد الأحد، والمسلمون يتبركون بالحجر الأسود ولا يعبدونه، ولا يقدسونه.



ناهيك عن أنه اختلط بالعرب وجاور في الأزهر وتزيى بزيه واستمع لعلمائه الجهابذة.

فهذا كله نقر به ونعترف بجهده العلمي.لكن كل هذا لا يمنعنا أن ننقد أطروحاته التي تجافي الحقيقة، وتكذبها شواهد الواقع. فقد ذهب إلى القول: تبشير النبي ليس إلا مزيجا منتخباً من معارف وآراء دينية، عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثرا عميقا، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية عند بني وطنه[1].

خطورة هذا الكلام ليس في ذاته فقط ولكن في تأثيره الخطير في جانبين؛ الجانب الأول: تأثيره في المحيط الفكري الذي عاش فيه، فجمهرة المستشرقين يعدونه شيخ المستشرقين ويقتفون خطواته ويرددون مقولاته دون تفكير أو تحليل أو النظر في مضمونها، ومعظمهم يضعونه في الصف الأول ويقتبسون من اجتهاداته بصرف النظر عن مدى صوابها أو خطئها.

الجانب الآخر الأخطر هو تأثيره في عقلية الأوربيين وفي كل من يقرأ هذا الكلام الخطير، لاسيما ومن يقرأ لا يكون عنده خلفية واضحة عن القرآن والرسول ومبادئ الإسلام والفكر الإسلامي فيأخذ هذا الكلام - وغيره من اتهامات عديدة - مأخذ التسليم والقبول، وهذه الاتهامات التي تتكرر في كتب المستشرقين هي التي تحدد رؤية الأوربيين للإسلام، وتعيد صياغة أفكارهم، وتزيد من جرعة النفور منه وتعمل على تضليل عقولهم و شحن نفوسهم بالكراهية تجاهه..هذا أولا.

ثانيا: لم يشرح لنا ما أبعاد هذا الاقتباس، وما مضمونه، وما هذا «المزيج المتخب» الذي أخذه الرسول ﷺ؟ وما مظاهره وأين مظان ذلك في فكر الرسول، ثم لاحظ قوله «تأثرا عميقا» كأنها فكرة التأثير قضية مسلم بها وأصبحنا بصدد مناقشة طبيعة التأثير، ثم إن الحس الديني عند العرب لم يكن غائبا أو باهتا والدليل على ذلك إيمانهم بوجود الله والبعث وقيم الشجاعة والنخوة ونجدة الملهوف كانت شائعة بينهم، وتقديسهم للأصنام نابع من توددهم وتقربهم إلى الله فهم أخطأوا الوسيلة ولكن تبقى الفطرة نقية فيها قدر من التشويش والاضطراب.

أما بخصوص الاقتباس من كتب اليهود والنصارى فسوف أعالجها لاحقا.

---

(١) العقيدة والشريعة ص ١٢

٢ - نثني حديثنا حسب التسلسل التاريخي بالمستشرق تيودور نولدكة (١٨٣٦ - ١٩٣٠) «شيخ المستشرقين الألمان غير مدافع» على حد تعبير بدوي[١]، الذي اشتهر بكتابه تاريخ القرآن؛ وقد استهله بالحديث عن طبيعة النبوة وفسرها تفسيرا نفسيا؛ إذ يرى أن الرسول تشبعت روحه بفكرة دينية متجذرة في أعماقه بأنه صاحب رسالة، وقد ألح عليه الصوت الداخلي المنبعث من أعماقه أن ينهض بإبلاغ رسالته لقومه وينقلهم من عبادة الأصنام الكاذبة إلى دينه الجديد متوعدهم بعذاب الجحيم، معتقدا أشد الاعتقاد أنه مبعوث من الله، وقد تحمل في سبيل ذلك كثيرا من الأخطار والسخرية، على أنه كان رجلا ضعيف العزم لذلك لم يجرؤ على إعلان دعوته والمجاهرة بها، لكن الصوت الداخلي أقض مضجعه وحثه أن يتشجع ويعلن ذلك على الملأ وقد استجمع شجاعته التي خانته وأعلن ذلك صراحة متحملا أشد أنواع الإهانات والتعبيرات المؤلمة.

في ضوء هذا التحليل النفسي لقضية النبوة يعترف نولدكه بنبوة محمد الذاتية أي التي انبثقت من ضميره الحي وانفعالاته الداخلية، ثم يخلص إلى أن تعاليم محمد التي عبر عنها بالقرآن في شكل سور فيها ما يشير إلى مصدرها ودون تحليل، نكتشف أن أكثر قصص الأنبياء وتعاليمه وأوامره مأخوذة من أصل يهودي، أما تأثير الإنجيل على القرآن فهو دون ذلك كثير، وسيفضي بنا البحث المتمعن عما هو يهودي ومسيحي في القرآن إلى الاقتناع بأن تعاليم الإسلام والمسيحية الأساسية هي ذات صبغة يهودية.والدليل على ذلك شهادة «لا إله إلا الله» المعروفة في الإسلام مستقاة من عبارة يهودية في الكتاب المقدس[٢].

ونستطيع أن نبلور ردنا على هذه الاتهامات الشائنة والدعاوى الباطلة والدس الهدام في العناصر الآتية:

---

(١) الموسوعة ص ٥٩٥

(٢) تيودور نولدكه: تاريخ القرآن، ترجمة جورج تامر وآخرون، بيروت ٢٠٠٤، ص ٢: ٧.يقول يوهان فوك: أحدث كتابه تاريخ القرآن، هزة كبرى وفي هذه الرسالة عولجت مسائل نشوء القرآن وجمعه ووصوله بحصافة وفي معرض المناقشة النقدية للسور حقق لسائر مباحث القرآن التاريخية أساسا متينا. (٢٢٦). هذا الكتاب يحتاج دراسة منفصلة للرد على الأكاذيب الواردة فيه والأراء الزائفة، والنتائج المتعسفة التي خرج بها، ولا نتجاوز الإنصاف إذ قلنا أنه لم يكن حياديا في بحثه ولم يتوخى الموضوعية.

ذكرنا مرارا أن اتصال السماء بالأرض لم يكن وقفا على رسولنا الكريم ﷺ وأن الحكمة الإلهية شاءت أن ترشد البشرية إلى طريق الخير والرشاد، فساقت الرسل في شكل مواكب متوالية منذ آدم ونوح وإبراهيم ونسله وموسى وعيسى وختمت بمحمد خاتم النبيين، فنحن أمام ظاهرة كونية، ومشيئة إلهية، ونظام ديني أقرته العناية الإلهية، التي اختارت هؤلاء الأنبياء وأيدتهم بالوحي، فليست القضية أننا أمام شخص أرقته حالة المجتمع وأقض مضجعه المظالم السائدة فيه، والعادات البالية، حتى شعر أن هناك هاتفا داخليا يأمره بأن ينهض ويحارب عبادة الأصنام ويدعو إلى موارد الفضيلة وكرائم الأخلاق وطرائق العدالة.

ولماذا لم تتجلى هذه النداءات الباطنية حينما كان الرسول ﷺ في عنفوان شبابه؟ ولم يكن لها مظاهر طوال حياته؟ وقد عاش الرسول دهرا في المجتمع القرشي ولم يعلم عنه أنه ضمن المتنبئين أو الكهان والعرافين ولا حتى الشعراء؟ لا جرم أن نقرر إن طرح نولدكه طرحا متهافتا، وليس عنده دليل إلا أهواءه الشخصية وقناعاته الذاتية وإرثه العنصري. هذا أولا.

ثانيا: لم أقرأ عند أي مؤرخ عربي أو أجنبي أن الرسول ﷺ كان رجلا ضعيفا خائر الإرادة، ودليله على ذلك أن دعوته بدأت سرية؛ فهذا كلام متهافت لأن الرسول كان يعلم طبيعة العادات المتجذرة في المجتمع القرشي وكبرياء شيوخه وسطوتهم على أفراده وحقيقة العصبية، وأن هذه المفاجأة سوف تحدث انقلابا اجتماعيا ونفسيا واقتصاديا فكان من ضرورة المنطق السليم التغيير التدريجي داخل المجتمع وتهيئة النفوس لهذه الثورة الدينية ولذلك كانت دعوته سرية حتى استقام عُود الدعوة وقَوِي أمرها ومهدت الأرض وأصبحت قابلة للحرث والبذر، فأعلنها جهارا من أعلى الجبل، استجابة للأوامر الإلهية وانصياعا لقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] هذا من جهة.

ومن جهة أخرى إن الرجل الذي حقق هذه الانتصارات؛أسس دينا ونشره وأقام دولة قوية، وبنى جيشا فدائيا وآخى بين فريقين متنازعين سنوات طويلة، وأقام علاقات مع دول الجوار، وغير ذلك ليس بالقليل رصده مؤرخو الدولة الإسلامية نقول إن الرجل الذي حقق هذه الإنجازات العظيمة والانتصارات التاريخية لا يمكن إلا أن يكون بطلا من أبطال التاريخ، وأحيل هذا المستشرق إلى ما كتبه زملاؤه من المستشرقين أمثال كارلايل، وجوستاف لوبون، وتوماس أرنولد وغيرهم.

ثالثا:جوهر الرسالات جميعا جاءت ترسخ في عقل البشرية والإنسانية جمعاء بأن خالق الكون هو الله القادر الواحد المتفرد بالعبودية، إله واحد، وجوهر كل الرسالات تأكيد «لا إله إلا الله»، وليست المسألة أن اليهودية هي التي تفردت بفكرة الوحدانية ولا المسيحية ولكن هذا هو شعار الأنبياء جميعا.

٣- يشبه ديبور (١٩٤٢) في معرض حديثه عن تقدير علماء المسلمين للعلوم اليونانية، بأن هذا «مثل ما أظهره محمد من تقدير لكتب اليهود والنصارى»[١].

المتأمل في هذه المقولة يأخذه العجب كل العجب، لأن المستشرق لم ير تشبيها يروقه إلا هذا التشبيه الذي يحمل في باطنه المقولة البائسة التي يرددها المستشرقون بلا دليل؛وهي أن الرسول أخذ قرآنه من الديانتين السابقتين، وأنه تأثر في دعوته الإسلامية بكتب اليهود والنصارى. أما إذا كان يقصد أن النبي أظهر احتراما لليهودية والنصرانية التي جاءت من عند الله دون تحريف أو تخليط، والتي تعلن إقرار مبدأ التوحيد، والإذعان والاستسلام له والسجود لعظمته والنذر له، فهذا كلام لا ننكره بل نؤمن به.

٤- وإذا كان ديبور جنح للتورية والتعمية والاختفاء وراء الألفاظ المبهمة، واللف والدوران دون أن يصرح بما يعتمل في أعماقه وما يدور في عقله، فإن بروكلمان (١٩٥٦) أفصح عن نيته العدوانية وأعلن صراحة أن دين محمد انبثق في الدرجة الأولى عن اليهودية والنصرانية، ولكن الرسول كيفه تكييفا بارعا وفقا لحاجات شعبه الدينية، وبذلك ارتفع بهم إلى مستوى أعلى من الإيمان الفطري والإحساس الخلقي[٢].

ومع احترامنا لجهود هذا المستشرق العلمية وتقديرنا لكتابه الموسوعي تاريخ الأدب العربي والمجهود الضخم الذي بذله، وتحقيقه بعض كتب التراث مثل عيون الأخبار لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، فإننا لا نشعر بالاحترام تجاه رأيه، أو أدنى تقدير لوجهة نظره المتسرعة والتي تكرر مقولات إخوانه المستشرقين دون أن يسوق دليلا واحداً عن «مظاهر هذا الانبثاق» الذي تجلى في الإسلام، وما أوجه «التكييف البارع» الذي نهض به الرسول حتى

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٤٨

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٩.

نقف عنده نفنده. وما ذكرناه سابقا يكفينا في الرد عليه. هذا من جهة. ومن جهة أخرى يناقض نفسه حينها يقول عن يهود الجزيرة العربية كانوا يتكلمون العربية، «وعلى الرغم من شدة الحاجة إلي خدماتهم كفلاجين وتجار فقد كان البدو لا يثقون بهم؛ومن هنا لم تستطع اليهودية أن تؤثر في حياة العرب الدينية تأثيراً أكبر من الذي كان لها في الواقع»[١].

وإذا كان اليهود لم يقدروا على التأثير في هؤلاء البدو الوثنيين الذين يعبدون الأصنام، فكيف يؤثروا في رسول صاحب رسالة من السماء ومعه كتاب إلهي منزل من الله وقد جاء بدين جديد له منظومته العقائدية و التشريعية والأخلاقية والاجتماعية الفريدة والمستقلة عن الطرح اليهودي؟

ونضيف موقف آخر يظهر سوء نية بروكلمان ومقصده الخبيث في تشويه صورة الإسلام؛ ففي أثناء حديثه عن صلاة الجمعة عند المسلمين، يقول إن محمد أراد أن يميز هذا اليوم عن يوم السبت عند اليهود لذلك أباح لأتباعه العمل في الجُمعَ، وترك لهم حرية التجارة والسعي وراء الرزق[٢].

الناظر في كتاب بروكلمان يلحظ من أول نظرة محاولاته الخفية والمستمرة ربط كل ما ورد في الدين الإسلامي باليهودية والنصرانية، وكلما سنحت له فرصة يشير إلى ذلك ، انطلاقا من أن محمدا اقتبس أفكاره منهما، أضف إلى ذلك، نحن نعلم أن اليهود لا يعملون يوم السبت والنصارى الأحد ، فجاء الوحي الإلهي بتحديد الجمعة يوم الراحة للمسلمين، ولما كان الإسلام يدعو للعمل والجد والاجتهاد، لذلك حث المسلمين على السعي للصلاة يوم الجمعة وذكر الله والقنوت له وإخلاص العبادة لوجهه الكريم، أما إذا قضيت الصلاة فعليهم أن ينتشروا في مناكب الأرض ويجدوا ويجتهدوا ويكتشفوا أسرار هذه الأرض المخبوءة بالثمرات والخيرات والكنوز العامرة.

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٨

(٢) تاريخ الشعوب ص ٧٥. وإشارة خبيثة أخري يقول فيها: في حين كان محمد وأصحابه يصلون مرتين في اليوم في مكة، وثلاث مرات في المدينة كاليهود، جعلت الطقوس المتأخرة خمسا في اليوم الواحد متأثرة بالفرس (ص ٧٤). وهذا كلام ساقط إذ لا يوجد أدنى تشابه بين صلاة المسلمين وصلاة اليهود والفرس، زد على ذلك أن الصلاة الخمس فرضت على المسلمين ليلة الإسراء والمعراج.

ومن المعلوم أن سورة الجمعة نزلت توبخ جماعة المسلمين حينما انصرفوا عن الرسول ﷺ إلى تجارتهم للاحتفاء بوصول قافلة محملة بما لذ وطاب، فوبخهم الله على هذا السلوك المادي واستغراقهم في مشاغل الحياة، ونظم هذا الأمر من خلال تأدية صلاة الجمعة أولا أي الواجب الديني المنوط بهم تجاه الله؛ الرزاق المتين ثم الانصراف لطلب الرزق والسعي له وبذل الجهد والعرق من أجله. في ضوء ما سبق لا نجد علاقة بين إشارة بروكلمان لعطلة اليهود والعمل عند المسلمين يوم الجمعة بعد أدائها.

٥ - يقول أوليري (١٩٥٧): «يتكلم النبي عن الوحي فيقول إنه تنزل عليه من الله. ويشير إلى «أم الكتاب» التي يبدو أنها تدل على الأصل الخفي الذي أوحى بالآيات. ويمكن أن يشير هذا إلى فكرة «الكلمة» التي هي تعبير، فيكون النبي بهذا متأثرا بالنظريات المسيحية واليهودية التي هي أصلا ذات صبغة أفلاطونية[1].

هذه فرية قديمة جديدة أطلقها العديد من المستشرقين، من رهبان العصور الوسطى، الذين اخترعوا قصة الحمامة التي كان يضعها الرسول ﷺ بجوار أذنه كي توحي للمغفلين أن روح القدس تتنزل عليه، وأن الوحي من الله، وأنه كاردينال كان يطمح للبابوية فلما فشل انشق عنها وأسس دينا جديدا، وقصة المسلمين عبدة الأصنام، والآلهة الثلاثين والخنازير التي أكلت جثته ولذلك حرم أكل لحومها، إلى ادعاءات السيد لوبون بأن الرسول ﷺ اخترع دينا جديدا من الديانات السابقة، اسمعه يقول:كان من مقاصد محمد أن يقيم ديناً سهلا يستمرئه قومه، وقد وفق لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم، ولم يفكر محمد في إبداع دين جديد قط، وهو الذي أعلن أنه يسير على غرار من تقدمه من أنبياء بني إسرائيل...»[2].

بداية لا نعرف ما العلاقة المنطقية بين «أم الكتاب» ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أصل الكتاب فالآيات المتشابهات تحمل على المحكمات وترد إليها، والكلمة في المسيحية التي تعني تجسد

---

(١) الفكر العربي ص ٧٢

(٢) حضارة العرب ص٣٧. ومن الاتهامات التي راجت في العصور الوسطى وكان لها سيطرة على عقول الأوربيين: أن الإسلام من عمل الشيطان، والقرآن نسيجا من السخافات، ومحمد نبي كذاب وأنه الدجال، أما المسلمون فهم ليسوا سوى نوع من المتوحشين لا يكاد يحظى بأية ميزة إنسانية (عبد اللطيف الطيباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، ص ١٩)

اللاهوت في الناسوت، فأصبح مرة إلها وأخرى ابن الإله. فليس هناك أي علاقة بين الرؤيتين.

وحقيقة الآيات «تكشف عن الصراع الأصيل الدائم بين الجماعة المسلمة وعقيدتها، وأهل الكتاب والمشركين وعقائدهم..

هذا الصراع الذي لم يفتر منذ ظهور الإسلام - وبخاصة منذ مقدمه إلى المدينة وقيام دولته فيها - والذي اشترك فيه المشركون واليهود اشتراكاً عنيفاً يسجله القرآن تسجيلاً رائعاً دقيقاً»[1]. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى نريد أن نعرف مظان الاقتباسات التي أخذها الرسول ﷺ من نظريات اليهودية والنصرانية التي هي ذات صبغة أفلاطونية كما يدعي، ثم ما مظاهر الفكر الأفلاطوني الذي يتجلى في كلام الرسول ﷺ؟

ومن المعلوم أن اليهودية والنصرانية تعددت كتبهم وانحرافاتها وتلفيقاتها لأن أصول الكتب قد ضاعت وتباينت أطروحات الأناجيل التي كتبت بعد وفاة المسيح ؛ في حين ظل القرآن الكتاب المقدس الوحيد على الكرة الأرضية الذي حفظ بلفظه وآياته وصورته ومضمونه، وظل كما أنزل منذ خمسة عشر قرنا يردده ملايين المسلمين صباحا ومساء.ومن جهة ثالثة كيف يستطيع إنسان ما أن يؤلف دينا شاملا متسقا مع ذاته متوافقا مع العقل النير والفطرة السليمة، من كتب مليئة بالتناقضات وتطفح بالأساطير والحكايات الخرافية والمزاعم الكاذبة؟.

لا شك أنه كلام مرسل يشبه هذيان المريض بالحمى، ونقيصة علمية، وادعاء كاذب مثل قول أخوة يوسف لأبيهم أكله الذئب، ولا يمت للمنهج العلمي بصلة، وكذلك يقوي نزعة الشك عندنا في دوافع هذا المستشرق وغيره ومقاصدهم.

٦ - لا بأس أن نضيف هنري ماسيه (١٩٦٩) إلى هذه الجوقة الصاخبة ونضمه إلى أصحاب الشك المذهبي من اللاأدريين؛ فالسفسطائي يبدأ شاكا وينتهي شاكا، فلنسمعه وهو يقول: مما لا يقبل الجدل (لاحظ التأكيد) أن القرآن يعكس بطريقة

---

(١) الظلال، تفسير سورة آل عمران.

غير مباشرة تقل أو تكثر، تأثير مذاهب مشتقة من اليهودية أو من المسيحية، وهي مذاهب كانت متعددة يومذاك في بلاد العرب[١].

- الناظر في هذا التوكيد يشعر بالدهشة والانزعاج من هذا التوكيد الذي لا يستند إلى أي دليل علمي إلا دليل الرغبة في النقد والتشويش، ويتعجب أكثر ويصيبه نوع من الذهول حينما يعلم أن هذا المستشرق مكث في مصر ثلاثة أعوام (١١: ١٩١٤). يعمل بدرجة باحث في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة، ليس هذا فحسب، بل كان يقوم بتدريس اللغة العربية والفارسية وعلم الاجتماع في كلية الآداب بجامعة الجزائر، ومكث فترة طويلة في الجزائر (١٩١٦-١٩٢٧)، معنى ذلك أن المراجع كانت في متناول يديه، وتحت سمعه وبصره، ومع هذه السنوات الخصبة التي قضاها في بلاد الإسلام لم يغير معلوماته الراسخة ولم يحاول أن يراجع أفكاره الموروثة، كأنه يعيش على هامش المجتمع أو في قلعة نائية ويتعامل مع المجتمع المسلم بنفس المقولات التي ورثها عن تربيته النصرانية والمزاعم الخاطئة التي قرأها من كتب العصور الوسطى.

٧- في سياق الحديث عن تأثر الرسول باليهودية والمسيحية ينضم بودلي (١٩٧٠) إلى هذه الجوقة الصاخبة والزفة الكاذبة، ومن يطالع كتابه يتأكد أنه يقتبس من كتب المستشرقين السابقين لا سيما اغترافه من فكر توماس كارليل وسفاري و لوبون، ويكرر أفكارهما بعبارات إنشائية - كما نوهنا سابقا - وأسلوبه يعتمد على الإيغال في الخيال، كأنهما جميعا ينشدون عبارات من الإنجيل خلف القسيس في طقوس يوم الأحد.

يقول بودلي وهو يشير بطرف خفي إلى المؤثرات الدينية والفكرية في تكوين المنظومة الدينية عند الرسول، وبعد أن أشار إلى تأثير بحيرى الراهب، يثني بوعظ قس بن ساعدة الأيادي راهب نجران وخطبه، ويقرر بأنها أثرت في فكر محمد تأثيرا واضحا بدليل أنه حينما كان يخطب في الناس كان حديثه يحوي اقتباسات من عظات قس الراهب[٢].

---

(١) الإسلام ص ١٠٣

(٢) حياة محمد ص ٤٩

وفي موضع آخر يعود إلى نفس نغمة تأثر الرسول في دعوته إلى الوحدانية وصفات الله وقصور العقل عن تصور الوجود الإلهي فيقول : ما كل هذا بجديد، لكنه جديد بالنسبة إلى محمد، ومع أن الزعم أنه سرق الإنجيل (هكذا) زعم باطل، لكن الحقيقة أن الحقائق الكبرى في الديانتين القديمتين؛ ظاهرة في كل وجه من الوجوه في الديانة الجديدة، وهذا يرجع إلى ما سمعه محمد من بحيرى وورقة بن نوفل وقس بن ساعده، وحالة محمد هي حالة وثني تحول إلى التوحيد وقد استمد نظرياته من الديانة اليهودية والمسيحية حسب طريقة تفكيره[١].

- ونوجز الرد في طرح تساؤل مشروع؛ إذا كان محمد تأثر بفكر الديانتين السابقتين، فلماذا هاجمهم هجوما عنيفا، وكان القرآن حربا بلا هوادة سواء فيما يتعلق بنزعة اليهود المادية والتعريض بمسلكهم مع الأنبياء ومع موسى وعيسى وأقوالهم النابية عن الله و، نقضهم العهود وقتلهم الأنبياء وأكلهم الربا، وقولهم على الله أنه فقير، وباقي المساوئ والمخازي التي دمغهم بها؟

ونفس الشيء حينما سفه أفكار النصارى وادعاءاتهم الكذوبة ولغوهم الباطل في قولهم أن المسيح هو الله، وابن الله وأنه ثالث ثلاثة، وغير ذلك من المجابهة العنيفة والتوبيخ الشديد والهجوم الفكري العنيف الذي واجه به اليهود والنصارى، هذا أولا.

وثانيا: إذا فرضنا جدلا صحة تأثر الرسول ﷺ بفكر هؤلاء، فمن حقنا أن نسأل ما هو التراث الذي خلفه بحيرى وزملاءه وأين هذه المخطوطات التي تركوها والكتب التي وضعوها حتى يقتبس منها محمد ﷺ؟، إذ إن المفروض أن الأصل أقوى من الفرع، والمصدر أوثق من المرجع، ومن المعلوم أن هؤلاء لم يتركوا ورقة واحدة تبين حقيقة فكرهم، وكل ما يؤثر عن قس بن ساعدة خطبة قصيرة وأبيات شعر تومئ أن الكون المفتوح ومظاهره له خالق، وهذا أمر مدرك بالفطرة منذ وجود الإنسان على ما يقرر جمهرة العلماء. «ففي الطبع الإنساني جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام» على حد تعبير العقاد[٢].

---

(١) الرسول، حياة محمد ص ١٠٤، ١٠٥

(٢) الله، دار المعارف، القاهرة، ص ١٤ يقول أيضا: حق لا يقبل المراء أن الحاسة الدينية بعيدة الغور في طبيعة الإنسان (ص ١٤).

ثالثا: كافة الديانات السماوية جاءت تقرر فكرة الوحدانية، وتحرر عقول البشر من كل التصورات الجاهلية وعبادة الكواكب والأوثان والأحجار والأشجار، وتكون العبادة خالصة لقيوم السموات والأرض، وكان الإسلام خاتم هذه الرسالات فحمل العبء الأكبر في محو التصورات الوثنية والأفكار الطاغوتية، وإرساء عقيدة التوحيد التي كافح من أجلها الرسول على امتداد حياته. وقد صدق من قال: «ما التوراة والإنجيل والقرآن، إلا لحظات مستمرة من تجلي الذات الإلهية للبشر»[1].

٨ - نستطيع أن نضيف إلى هؤلاء المستشرقين مستشرقا سادسا يذهب مذهبهم ويشير إلى مسألة تأثر الإسلام باليهودية والمسيحية فيقول: نزل الوحي منذ البداية مصدقا لكثير مما بين يديه من الإلهام اليهودي والمسيحي، وما من مؤثر آخر تغلغل بمثل هذا العمق إلى صميم لباب الإسلام[2].

الرد عليهم جميعا:

- إن هذا الاتهام باطل من أساسه، وأهون من بيت العنكبوت، ومن أهم الأدلة على ذلك.

- إن القرآن الكريم شن حملة واسعة على اليهود، وكشف خبيئة أنفسهم وتتبع مثالبهم، وعدد مخازيهم، وأزاح الستر عن أقوالهم الخبيثة في حق الله والأنبياء وجرأتهم على الله، مثل قولهم؛إن الله فقير، ويد الله مغلولة، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، وقولهم إن عزيرا ابن الله، وخيانتهم لسيدنا موسى ورفضهم الصارم أن يتبعوه ورضوا بالذل تحت حكم فرعون؛ يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم وكان الخوف والهلع من أهم صفاتهم المنكرة حتى حينما خرجوا من مصر وأدركهم فرعون صرخوا في وقت واحد: إنا لمدركون، ونسوا أن العناية الإلهية تحرس نبيهم وستنقذه في الوقت المناسب، وحينما أراد أن يحثهم على دخول الأرض المقدسة ملكهم الفزع والرعب لأن فيها قوما جبارين ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ

(١) كارين: محمد نبي لزماننا ص ٨٩

(٢) جرونباوم: حضارة الإسلام ص ٤١٠

﴿يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] كذلك اتهمهم القرآن بقتل الأنبياء على ما هو معلوم في التاريخ مثل محاولتهم قتل السيد المسيح، ورميهم مريم العذراء بتهمة الفاحشة(١).

ولم يتوان أن يهاجم مسلكهم المادي وحرصهم الشديد على «أي حياة» حتى لو كانت حياة الذل والمهانة والخنوع والاستعباد. زد على ذلك أكلهم الربا وأموال الناس بالباطل(٢). وإذا فرضنا كما تقولون أن محمدا ألف القرآن، فكيف يأخذ منهم ويقتبس من أقوالهم ثم يتتبع عوراتهم وينشر فضائحهم ويهاجمهم بهذه الصورة البشعة؟

لا شك أن هذه قضية غير مقبولة في العقل، ومتناقضة أشد التناقض!!، لأنه إذا كان اقتبس منهم فيجب أن يوافقهم وينهج نهجهم ويتشيع لأقوالهم ويتبنى أفكارهم ويقتدي بمسلكهم. والناظر في أقوال الرسول ومسلكه ومنهجه نجده أنه مناقض لفكرهم ومنهجهم ومسلكهم.

فكيف يقتبس الرسول من قوم مسلكهم معوج وتفكيرهم وثني وضميرهم ميت ومنهجهم ساقط، ولا يملكون ذرة من الحياء مع الله؟

يشير ويلز إلى حقيقة الإسلام وموقف العداء الذي وقفته اليهودية والنصرانية منه فيقول: كان دينا مليئا بروح الرفق والسماحة والأخوة؛ وعقيدة سهلة يسيرة الفهم، دين فطرة تحوي ما للصحراء من عواطف الفروسية، وقد ناصبته اليهودية عداءً مريراً، وهي التي اتخذت من الرب كنزا عنصريا تكتنزه لجنسها. كما تألبت عليه المسيحية وهي التي تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثليث وقوانين الإيمان والهرطقات التي لم يكن أي رجل يستطيع أن يميز فيها الرأس من الذنب. في حين أوصل محمد هذه المبادئ الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية، دون أن يلجأ إلى أي رمزية مبهمة، ودون تعتيم للهياكل ولا ترتيل القساوسة(٣).

---

(١) يقول ولفنسون: إننا نجد أكثر من ثلث القرآن يتكلم عن اليهود ويناقشهم ويهتم بأقوالهم والرد عليهم فطورا يمدحهم، وتارة يقرعهم ويؤنبهم تأنيبا شديدا، فإن ذلك يدل على ما كان لليهود من المكانة العظيمة في نفوس العرب (يقصد قبل الإسلام) وعلى الصلة المتينة التي كانت تربطهم بهم (تاريخ اليهود ص ٨٦).

(٢) يعترف إسرائيل ولفنسون بأن اليهود كانوا يتعاملون بالربا، لكنه يضيف أن هذا أمر كان مشاعا عند العرب. (تاريخ اليهود ص ١٨) ونحن لا نحتاج شهادة أحد بعد حديث القرآن.

(٣) معالم تاريخ الإنسانية ج٣ / ١٠٤.

ولو تتبعنا تعريض القرآن بالنصارى، وفكرهم الوثني، وإيمانهم بتأليه السيد المسيح وادعاءاتهم العريضة، نجد أن هجومه على النصارى كان أشد وأعنف، لأن مسلكهم متعلق بقضية الألوهية، التي كافحت الأديان السماوية على غرسها في وجدان البشرية وتثبيتها في ضمائرها؛ وإعلان «وحدانية الله» وهذه مهمة الرسل الأساسية في هذا الوجود، ولذلك هاجم القرآن أقوالهم في المسيح أنه: هو الله، وابن الله، وأنه ثالث ثلاثة، وهذا تخليط واضح وقد رد عليهم ردوداً مطولة وسفه أفكارهم وأزرى بهم وشرح أن عيسى هو عبد الله ورسوله، وكما أن الله خلق آدم دون أب و أم فإن القدرة الإلهية التي تقول للشيء كن فيكون خلقت عيسى دون أب[١].

وما قرره القرآن وأكده عن نفي الألوهية عن المسيح وأمه؛ذهب إليه جماعات من الآريين ومطارنة كنيسة الإسكندرية والقسطنطينية، إذ يؤمنون بأن الله واحد لا شريك له، وأن طبيعة يسوع ليست إلهية ليس هذا فحسب بل ذهب آباء الكنيسة أبعد من ذلك فقالوا: إن عيسى «ليس إلا بشر» مثل بقية البشر ومنهم من يؤمن بأنه ابن يوسف النجار[٢].

وهنا يطرح السؤال نفسه، كيف يهاجم الرسول فكر النصرانية وفي الوقت نفسه يقتبس من أقوالهم، والدارس للنصرانية ومقولاتهم وأفكارهم المتعلقة بالتجسد وتصورهم لله الذي حل في عيسى، ومفهوم التثليث، ومريم أم الإله، ووجهة نظرهم في الخطيئة والصلب والفداء والاعتراف وتقديس الأيقونات، يجد أن البون شاسع بين مبادئ الإسلام والفكر المسيحي، وأن العلاقة بينهما علاقة انفصال كما يقول أهل المنطق[٣].

لقد صدقت كارين في وه تقول: الحقيقة لا يسع الإنسان إلا أن يدهش للعبقرية الروحية عند النبي محمد الذي لم تكن له صلة باليهود والنصارى وكانت معرفته بكتبهم معرفة بالغة الضآلة[٤].

---

(١) يقول أرنست رينان عن المسيح: إن المسيح لم يكن إلها ولا ابن إله، وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامي والروح الكريمة.

(٢) دفاع عن محمد ص ١٣٥: ١٣١

(٣) يرى عبد الرحمن بدوي أن تأليه مريم جاء نتيجة حتمية لعبادتها التي بدأت في القرن الثاني الميلادي، ونظروا إليها بأنها «حواء الجديدة» ثم انتشرت في الشرق المسيحي وكان لها أتباع في الجزيرة العربية. بداية من القرن الرابع الميلادي. ومنذ مجمع أفسس (عام ٤١٩) عرف مريم أنها أم الإله. (دفاع عن محمد ص ١٣٩: ١٣١)

(٤) كارين: سيرة النبي ص ١٥١

ثانيا: تشريعات محمد وقوانينه مستمدة من البيئة الصحراوية

١ - رأينا أن بعض المستشرقين لم يتورعوا من الادعاء بأن الرسول اقتبس مبادئه وتشريعاته وقوانينه من اليهود والنصارى، لكن الرحالة بودلي ذهب مذهبا مغايراً، وزعم أن محمداً قام بتأليف دينه من أصلح تعاليم اليهودية والمسيحية وأخذ منهما ما يتناسب مع عصره وهذبها بما يتفق مع بيئته، وكذلك أبقى على أفضل ما في ديانات العرب وعاداتهم وتقاليدهم، ناهيك عن تأثره بالبيئة الاجتماعية والصحراوية المحيطة به والضاغطة عليه؛ ومن أمثلة ذلك؛ ألغى الطقوس الوثنية المتعلقة بالكعبة وترك بعض الشعائر التي لا تتعارض مع الإسلام، وهذا ما فعله المسيح حينما أبطل فضائح المعابد وترك المعابد قائمة، وكذلك أباح تعدد الزوجات لأن هذا يساير عادات العرب ورغباتهم ولم يكن يملك منعها وإلا انفض من حوله أعوانه، ولم يقرر محمد الختان على العرب ولم يكن من قواعد الإسلام ولكنه تركه لأن العرب ألفوا ذلك.

ولما كان محمد نشأ في الصحراء وعاش في فيافيها؛ وكان من العسير على أنصاره الرحل أن يجدوا مسجدا، لذلك قرر أن تكون الصلاة في أي مكان، ومن غير إمام، وخصوا الله بمكانة مميزة لأنهم يحتاجون له باستمرار لحمايتهم نظرا لمعيشتهم في الصحراء، عكس من يعيش في الغابات وعلى سواحل الأنهار والبحار فهم لا يخصون الله بهذا الاهتمام والتوسل.

وحرم لحم الخنزير بسبب عدم وجود مزارع تصلح لتربيتها، ورداءة مراعيها وقذارتها في الشرق، وكذلك تحريم الخمر يرجع إلى شغف العرب بشرب نوع من المشروبات المستخرجة من البلح، ولو كان عندهم نبيذ فربما فكر في عدم تحريمه، أما الأمر بخلع الحذاء عند دخول المسجد فيرجع إلى أن أحذيتهم لا أربطة لها فيسهل خلعها وتعد أرض المسجد طاهرة، في حين لم يأمر بخلع عمامة الرأس بسبب صعوبة ذلك ، وقرر الزكاة وأمر الغني بمعاونة الفقير لمعاناته من الظلم الاجتماعي الذي لمسه في مكة، وما شاهده من ظلم التجار الأثرياء للفقراء[١].

وهكذا تمضي تفسيرات السيد بودلي وتحليلاته تثير السخرية و الضحك ثم القهقهة أكثر

---

(١) الرسول، حياة محمد، راجع الفصل الذي كتبه عن العقيدة الإسلامية من ص ١٠١: ١١٥

مما تحرك الفكر الرصين أن يتأمل فيها أو تحمس العقل النير للرد عليها. وهي تذكرنا بنكت «المعلم نونو» وضحكته المجلجلة حينها كان يفتح قهوته في خان الخليلي لنجيب محفوظ.

ومع ذلك ستتبرع بالرد على بودلي في أطروحاته وتهويماته المضحكة وتحليلاته الساذجة واستنتاجاته الخيالية، لكن قبل ذلك، من الإنصاف أن نشير إلى أنه طوال صفحات كتابه يخلع على الرسول كل الصفات الطيبة فهو يظهر الرسول ﷺ أنه رجل بليغ حكيم، محترم في قومه أمين في تجارته، رقيق في معاملاته لين الجانب سمح الأخلاق، وهكذا لا يبخل عليه بالصفات المثالية والأفكار الذهبية، لكننا نستنتج من أقواله أن الرسول ﷺ هو الذي وضع قواعد الإسلام، واستمدها من الديانات السابقة.

أ - الإشكالية أن بودلي ينطلق من أفكار راسخة وإرث مخزون في اللاشعور ؛ وهو اقتناعه بأن الرسول ﷺ قائد ماهر ومصلح اجتماعي رسم خريطة واضحة للنهوض بالعرب والقضاء على عاداتهم الوثنية، ومن خلال التأمل العميق وذكائه الباهر وضع جملة من التشريعات التي تفضي إلى رقي المجتمع ورقيه في جوانبه الأخلاقية وميدانه السياسي وكذلك وضع قواعد للعلاقات الاجتماعية. ونحن ننطلق من إيماننا بأن محمداً رسول ضمن قافلة من الرسل أرسلهم الله إلى مجتمعاتهم المضطربة التي تعاني من الخلل العقائدي والتفكك الاجتماعي، لإرشادهم إلى الطريق المستقيم وقيادتهم إلى طريق الصلاح والخير العام والسلم العادل.وعلى بودلي - وغيره من المستشرقين - أن يراجع نفسه ويقرأ التاريخ الديني للحضارات قراءة منصفة، وسيرة الرسل الذين أرسلهم الله إلى البشرية، فلماذا يؤمن بالأنبياء السابقين لاسيما موسى وعيسى ثم يتوقف إيمانه عند ذلك ، فهذا تناقض واضح، فإذا قبلنا هذه المقدمات الواضحة فعلينا أن نقبل النتائج المترتبة على ذلك وهو إيماننا برسالة محمد ﷺ.وقد صدق العقاد حينما قال: «إن ضخامة الخطأ مع سهولة العلم بالصواب، خليقة أن تفتح باب الاتهام في سلامة القصد، قبل الاتهام في سلامة التفكير»[1].

---

(١) ما يقال عن الإسلام ص ٨٧.

ب - غني عن البيان أن كل ما جاء به الرسول ﷺ تشريع من الله ، وأوامر إلهية لمصلحة الفرد والمجتمع سواء فيما يتعلق بأركان الحج وشعائره و تعدد الزوجات أو تحريم الخمر[١]، وقد أثبت العلم الحديث والمعاصر خطورة ذلك على الصحة العامة، وكذلك عدت الزكاة الركن الخامس للإسلام وهي تعبر عن أن وحدة المجتمع وتضامنه وشد أزر بعضهم بعضا وأنه نسيج واحد. أما قوله عن بناء المساجد فهذا كلام لا أساس له، فالإسلام سمح للمسلم الصلاة في أرض الله الواسعة، والتوجه إليه والتضرع له في كل وقت وكل مكان دون واسطة من أحد، ثم إنه من المعلوم أن العمارة الإسلامية تقدمت في هذا المجال وتركت آثارا مبهرة في فن بناء المساجد والواقع المعيش يكذب كلام بودلي، وأخيرا لما كانت المساجد هي أماكن طاهرة حيث يذهب إليها المسلم، وللمحافظة على نظافتها وطهارتها وقدسيتها وجوها الروحاني؛ كان من الضروري خلع الأحذية، أما كون النصارى يدخلون الكنائس بأحذيتهم فهذا وشأنهم، لكن من المعلوم أن النصارى والقساوسة يهتمون بنظافة كنائسهم ويشعلون فيها الشموع والضوء الخافت حتى يضفون عليها جوا من الهدوء والسكينة والرهبة ويعدونها أماكن مقدسة.

وأخيرا إذا كان بودلي قد اعترف أنه مر عليه أكثر من عشر سنين دون أن يُكَوِن فكرة واحدة عن المسلمين والإسلام. فنقول: ولو مر عليه مئة عام بين المسلمين فلن يستطيع أن يكون فكرة صادقة منصفة عن الإسلام، لأنه وضع على عينه ساترا من التعصب وصنع حاجزا من الأهواء الذاتية بينه وبين الحقيقة، وسدا منيعا بين ضميره والصواب.

٢ - في أثناء حديثه عن فتح مكة، يشير بروكلمان إلى طواف الرسول حول الكعبة «لامسا الحجر الأسود بعصاه في كل مرة وبذلك ضم هذا الطقس الوثني إلى دينه.ثم إنه أمر بإزالة ما في الكعبة من الصور والتماثيل وتحطيمها»[٢].

---

(١) إن معظم الساسة يدركون النتائج الخطيرة الكامنة في معاقرة الغربيين للخمر؛مثل انحطاط الصحة العامة، وانخفاض إنتاجية العمل، والمخاطرة الأمنية في العمل والطريق، وتبديد الموارد الاقتصادية، ولكنهم يفتقرون إلى العزم الضروري لمحاربة أفيون الشعوب. لهذا حرم النبي محمد المسكرات والمخدرات بصورة كاملة. (مراد هوفمان: يوميات مسلم ص ٩٩).

(٢) تاريخ الشعوب ص ٦١. وقد كرر هذه الإشارة فقال: لعل هذا الحجر أقدم الأوثان التي عرفتها مكة قبل=

٣ - كذلك يعد هاملتون جيب Hamilton Gibb (١٨٩٥ - ١٩٧١) المستشرق الإنجليزي[١]، من الذين ذهبوا بتأثر الرسول بالبيئة الدينية التي نشأ فيها ويتفق مع السيد بودلي في دعواه إذ وضع كتابا عن الرسول بعنوان المحمدية ثم أعاد نشره باسم الإسلام (١٩٤٩). وعلى الكتاب عديدا من المآخذ، فإذا توقفنا أمامه، يلاحظ بادئ ذي بدء أنه وسم الدين الإسلامي، بالمحمدي ومن العنوان خلع عنه أي طابع سماوي أو اتصال بالوحي، ونظر إلى الرسول أنه شخصية مبدعة خصبة في أفكارها فذة في ذكائها، نجح في تأسيس مذهب جديد في الجزيرة العربية، من خلال دراسته لجملة الأفكار السائدة في محيطه الاجتماعي والفكري، وجل صراعه مع عشيرته وقومه ليس بسبب معتقداتهم القديمة وتمسكهم بدين الآباء، بقدر ما كان دفاعا عن مصالحهم الاقتصادية وموقعهم الاجتماعي.

- وبصدد مسألتنا يقول جيب: «إن إجلال الحجر الأسود في الإسلام، وهو رمز إحيائي بالأصل، قد انتقل لدى محمد فأصبح طقسا مرتبطا بعبادة إله واحد كما نقلت «ذبيحة القداس» المسيحية قرابين «الهيكل» «والعشاء المقدس الوثني»[٢].

لاشك أن هذه مقولة تخالف تاريخ الرسل، وتتناقض مع سيرة سيدنا إبراهيم، فلما كان أبو الأنبياء هو الذي رفع قواعد البيت العتيق مع ابنه البكر إسماعيل، وهو الذي وضع الحجر الأسود، وكان رسولنا الكريم وريث لديانة إبراهيم الحنيفية فقد ورث منه هذا الإجلال والتعظيم، ولم يكن تأثرا بالبيئة الوثنية التي تربى فيها.

ومن الحقائق الدينية البديهية أن الرسول ﷺ رفض ميراث العرب الوثني وعبادتهم للأصنام.على أن العرب كان عندهم معتقدات أقرها الإسلام مثل؛إيمانهم بالبعث واليوم

=الإسلام. (ص ٧٦) سوف نؤجل الرد عليه حينما نقوم بالرد على جيب.

(١) ترجمته في موسوعة المستشرقين ص ١٧٤، وأيضا محمد الزيني: المستشرقون في مصر ص ٣٩٤ .

(٢) علم الأديان ص ٩٩. (الديانة الإحيائية عند علماء مقارنة الأديان، تعني؛ الإيمان الراسخ ببقاء الروح البشرية حية بعد الموت، وأن هذه الأرواح مستقلة عن شكلها المرئي الظاهر، أي أنها في وسعها أن تغادر هذا الجسم وتحيى وتعمل= =بدونه، مثل الإنسان الذي يترك ثوبه ثم يرجع إليه، ومن هنا، دفنوا مع الميت أسلحته وحليه والأشياء التي كان يستعملها في حياته (علم الأديان ص ٧٥)

الآخر وانتظارهم لمبعث نبي جديد وبعض حكمائهم كان يحرم الخمر والزنا وكانوا يقطعون يد السارق ويغتسلون من الجنابة ويكرهون الظلم ويتنادون لنصرة المظلوم، وحماية من يستجير بهم، وحينما انبلج نور الإسلام أقر بعضاً من تقاليدهم لأنهم ورثوها عن دين الحنيفية الذي كان معروفا لديهم، مثل تعظيمهم للكعبة وطوافهم حولها سبعة أشواط ورميهم الجمار وسعيهم بين الصفا والمروة ومع ذلك حرم الإسلام كثيرا من تقاليدهم مثل نحرهم الذبائح تقربا للأصنام، وطوافهم حول الكعبة شبه عراه أو عراه، فجاء الإسلام يهذب هذا السلوك الهمجي ويضع قواعد لهذه الشعائر[1].

في ضوء ذلك نرى أن القضية ليست متعلقة «بضم طقس وثني» كان يقدسه العرب كما ذهب بروكلمان، بدليل أن الرسول ﷺ أزال الصور والتماثيل وحطمها، ولا بهذا الطرح الفلسفي الذي يتكلم عنه السيد جيب، بل يسقط بعض طقوس النصرانية وعاداتها على شعائر الإسلام وليس هناك علاقة بين الاثنين وهذا ربط تعسفي وخيم العواقب بين فكرتين متنافرتين وليس بينهما أدنى صلة، فكل من المصطلحين له واقع موضوعي يختلف عن الآخر.

ونضيف إلى ما سبق أن هذا المستشرق ولد في الإسكندرية حيث كان والده يعمل في شركة لاستصلاح الأراضي، وزار معظم دول الوطن العربي زيارات متكررة، أي أن كل ما يتعلق بحقيقة الإسلام ورسوله وقرآنه في متناول يده وتحت سمعه وبصره، فلماذا يطرح كل هذا جانبا ويسفّه فكر الرسول ﷺ ويشوّه رسالته ويستعدي عليه ملايين من المسلمين بهذه الادعاءات الكاذبة والتهم الملفقة، أليس من حقنا أن نشكك في دوافعه الخبيثة ومقاصده التي تعمل على تشويه صورة الإسلام في فكر الغربيين. ولماذا لا يدير حوارا علميا مع علماء الإسلام ومثقفيه، حتى يستجلي الحقيقة الدامغة، وتستبين له الفلسفة الصحيحة.

قال عنه عبد الرحمن بدوي: «نال في حياته كثيرا من ألقاب التشريف التي لا يستحقها علميا، وكانت شهرته فوق قيمته العلمية»[2].

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ج٢ / ٢٤١: ٢٤٩

(٢) موسوعة المستشرقين ص ١٧٥.

٤ - يوشك فون جرونباوم أن يكرر نفس المقولات السابقة لكن بتعبيرات مختلفة، فالمادة واحدة والصورة مختلفة، ففي أثناء حديثه عن الأساس الديني عند العرب والأحجار والأصنام التي كانت حول الكعبة التي كان يقدسونها مثل هبل، يضيف قائلا: «وكان مصدر الجاذبية الحقة في الكعبة للمتعبد التقي، حجرا عتيقا أسود لاصقا ببعض جدرها، وقد شعر النبي أنه مكره أن يدخل شعيرة ذلك الحجر في مناسك الإسلام حيث لا يزال متلبثا كأنها هو شاهد عجيب على عجز الإسلام عن التخلص مما يحيط بأصله من أمور قديمة فجة»[١].

ذكرنا سابقا أن هذا المستشرق مثل معظم المستشرقين متعصب بلغ به التعصب درجة مقززة، ويهاجم الرسول بطريقة مباشرة وغير مباشرة، و في باطن كلامه تكمن الألغام التي يمكن أن تنفجر في الوقت المناسب، وهو يفضل أن يحارب الإسلام من وراء جدار ويهتم بتغليف عباراته بكلمات مقبولة للوهلة الأولى، ولا يقدر أن يحارب مواجهة في أرض مكشوفة ندا لند. هذا أولا.

ثانيا: ذكرنا سابقا أن سيدنا إبراهيم قام ببناء الكعبة بأوامر إلهية وهو الذي وضع الحجر الأسود تذكارا لصدعه بأمر ربه حين أمره برفع قواعد البيت المعظم، وإما أن يكون رمزاً للعهد الذي أخذه على نفسه وولده بجعله البيت بمثابة للناس وأمنا[٢].

ثالثا: ليس في الأمر إكراه وإنها هذا نوع من الوفاء لأبي الأنبياء، والمسلمون لا يقدسون الحجر ويعلمون أنه لا يضر ولا ينفع، ولكن فيه تنفيذ للأمر الإلهي، كذلك يطامن العقل من غروره وزهوه، فيطوف حول حجر ويقبل حجر ويرمي حجر، فهذه الشعيرة فيها نوع من إخلاص العبودية لله، والخضوع المطلق للمشيئة الإلهية، وإذا كان هذا لا يروق السيد جرونباوم ولا يشعر بالراحة تجاه هذه الشعيرة، فنحن لا نجد غضاضة في ذلك.

ثالثا: فكرة الخطيئة الأصلية

من الأفكار الجوهرية في منظومة النصارى اللاهوتية ، والتي يؤمن بها النصارى قضية

---

(١) حضارة الإسلام ص ٩٤.

(٢) على حسني الخربوطلي: تاريخ الكعبة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١، ص ٢٢.

الخطيئة، وتؤكد المراجع التاريخية أن بولس الرسول. (٤٠- ٦٤م) هو الذي اخترع فكرة الخطيئة؛ وتعني في مفهومها، أن الله سبحانه اختبر آدم وأمره ألا يأكل من هذه الشجرة ولكن آدم لم يستطع مقاومة وساوس نفسه الأمارة بالسوء، ووهن أمام إغراءاتها التي أرادت أن تفهم سر النهي وحبها الجارف لاستطلاع الحقائق، أضف إلى ذلك وسوسة الشيطان وإغرائه بأنها شجرة الخلود، فأقبل يأكل من الشجرة وعصى أمر ربه ، وارتكب خطيئة كبرى لم تخصه بمفرده ولكنها انسحبت على البشرية جمعاء، ولم يكن هناك مناص من تحرير ذرية آدم من هذا الإثم وتخليصها من اللعنة الأبدية التي حلت بها، فاختار الله ابنه الوحيد أي المسيح المخلص، فضحى به على الصليب وحررها من خطيئة آدم، ومحا عنها البلاء الماحق والشر المستطير والخطيئة الكبرى التي لحقت بها.

من الواضح أننا بصدد فكرة غريبة تماما عن نطاق العقل السليم والفهم المستقيم بعامة، وعن العقيدة الإسلامية بعامة، وبعيدة كل البعد عن مفردات الإسلام ومقرراته، لأن المسؤولية في الإسلام مسؤولية ذاتية فردية ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]. إذ تؤكد العقيدة الإسلامية أن كل إنسان يتحمل وزر عمله، وأنه مسؤول مسؤولية كاملة عما يصدر عنه من أقوال وأفعال، ليس هذا فحسب بل مسؤول عما يتولد عن فعله من نتائج كما ذهب إلى ذلك المعتزلة، وهو مجازى عن سلوكه سواء أكان خيرا أم شرا صغيرا أم كبيراً[1].

ومع هذا لم نعدم مستشرقا كبيرا مثل كارل بروكلمان وهو يوجه تهمة عظيمة للرسول ويدعي أنه: «اقتبس عن التوراة فكرة الخطيئة الأصلية». وتفصيل وجهة نظره؛ أن الرسول علم بأن الله قد بعث إلى كل شعب في أوقات متفاوتة رسلا أوحى إليهم بمشيئته عن طريق جبريل «لتحذير الجنس البشري من الخطيئة، وبخاصة خطيئة عبادة الأوثان»[2].

لا جرم أن نؤكد أن هذا الطرح مخالف تماما للعقيدة الإسلامية، فأولا: يختار الله سبحانه

---

(١) يقول العلامة العقاد: الإنسان أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض، من ذي حياة أو غير ذي حياة.ولكنه ينفرد بين الخلائق بمساوئ لا يوصف بها غيره، لأن السيئة والحسنة على السواء لا يوصف بها مخلوق غير مسؤول.. فهذا المخلوق المسؤول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر.والظلم والطغيان والخسران والفجور والكنود، لأنه دون غيره أهل للإيمان والعدل والرجحان والعفاف. (الإنسان في القرآن ص ١٦).

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٧٠.

من يشاء من البشر المصطفين الأخيار الأبرار يرسلهم إلى قوم من الأقوام لمحو العقائد المذمومة والعادات المرذولة وعلى رأسها الشرك بالله وهدايتهم إلى الطريق السوي من خلال المنظومة العقائدية والتشريعية التي تتضمنها رسالته وعلى رأسها فكرة الوحدانية، وثانيا: لا يوجد في العقيدة الإسلامية فكرة الخطيئة الأصلية أو غير الأصلية، نعم نؤمن أن آدم سمع هتاف نفسه الأمارة بالسوء، وأصغى لوسوسة الشيطان واستجاب لإغراءاته وانقاد لشهواته دون أن يعرض المسألة على مصنع العقل ونوره الوضاح ، أو يفكر في مآلات عصيان الأمر الإلهي، وأكل من الشجرة، فعصى ربه، و اعترف بذنبه مباشرة، ثم توجه إلى الله يطلب الغفران والرحمة فلا واسطة في الإسلام بين الإنسان وربه فباب السماء مفتوح للجميع؛فميزة الإسلام انتفاء الواسطة بين العبد وربه، وخلوه من عبادة القديسين، ولا حاجة به إلى الهياكل والمعابد لأن الأرض كلها مسجد لله.فيما يقول ناصر الدين اتينيه[1].

في ضوء ذلك تاب الله علي آدم وعفى عنه وزوجه، ولا وزر على ذريته لأن المعصية تنسب إلى صاحبها، والصادرة عنه وعليه تحمل عاقبة خطئه، فكيف تنسحب هذه الخطيئة على ذريته والأجيال التي مازالت في عالم الغيب؟

ومن المعلوم أن آيات القرآن تؤكد ذلك بتعبيرات واضحة قوية لا لبس فيها ولا تأويل. ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩].

وإذا ذهبنا للبحث عن مصدر هذه الفكرة نلاحظ أن وثائق النصرانية ومراجعها تؤكد أن بولس هو المؤسس الحقيقي للمسيحية، وهو الذي قرر أن المسيح لم يكن نبياً بشراً بل كان إلها حقا وأنه مات من أجل التكفير عن خطايا البشر، وأن الإنسان لا يستطيع أن يحقق الخلاص من الخطايا بالإيمان بالكتب المقدسة، وإنما بالإيمان بيسوع، وإذا آمن الإنسان بيسوع فسوف تغفر له خطاياه، وهو الذي أوضح فكرة الخطيئة الأولى[2].

(١) محمد رسول الله ص ٢٨١.

(٢) العظماء مائة ص ٣٦

ويؤكد الفكرة السابقة المفكر المسلم مراد هوفمان فيقول: «الحقيقة أن كافة الهرطقة المسيحية؛مثل تأليه المسيح، وفرضية الثالوث المقدس، وإضفاء صيغة شيطانية على الجسد قد بدأت مع شاؤول بولس»(١).

- وقد نهض رهط من المستشرقين لرد هذه الدعوى الباطلة والإفك الصريح ففي أثناء تعليقه على قوله تعالى ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] يقول درمنجم: معنى هذه الآية صريح وهو مبدأ العدل التام الشامل فقتل النفس بغير حق هو قتل لجميع العالم بغير حق وكذلك من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا.... ثم يتابع عرضه : ليست هذه المسألة في شي مما قاله بولس الرسول الذي يقول بما يسميه المسيحيون بالخطيئة الأصلية أي معصية آدم الشامل وزرها لجميع أبنائه، مما استلزم إرسال الله ابنه إلى الأرض وصلبه فداء لأبناء آدم، وتخليصا لهم من تبعة معصية ارتكبها أبوهم. نعم هذا ركن العقيدة المسيحية، لكنه لا يلتئم أصلا مع عقيدة الإسلام التي لا يؤخذ فيها إنسان إلا بذنبه، ولا يسري وزره لا من والد ولا من ولد إلى والد ولا من أخ إلى أخ. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فالعقيدتان متباينتان أشد التباين(٢).

ويؤكد جيب (١٩٧١) الفكرة السابقة فيقول: «المسيحية كانت ومازالت تلحف (هكذا) على مذهب الخطيئة الأصلية، على الرغم من أن الإسلام يرد رسميا تلك العقيدة كعقيدة، فإن فكرة النفس الأمارة، النفس الجياشة بالغرائز الجامحة، تملأ شعب الأدب والأخلاق جميعا»(٣).

وتدافع السيدة كاترين بحماسة مشكورة عن الفكر الديني في الإسلام وتتصدى لاتهامات المستشرقين الزائفة، وتصطف في صفوف الحق والعدل والإنصاف، وتعلي من شأن الإسلام والمسلمين تقول: إن الإسلام لا يؤمن بسقوط الإنسان في الخطيئة الأصلية

---

(١) يوميات مسلم ص ٦٠

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص٦٦

(٣) علم الأديان ص ١٠٣

بالمعنى المسيحي، ولا يقول بأن الموت والألم والأحزان تمثل عقوبات للإنسان على سقوطه الأول[١].

الشاهد لا ينظر الإسلام إلى المسيح كمخلص للبشر بدمه ولا يعرف قضية الحب الإلهي لخلقه إلى حد أن يبعث الله ابنه الوحيد لخلاصهم، يريد الإسلام أن ينزه الألوهية تنزيها عظيما ويجعل الله بائنا عن خلقه[٢].

رابعا : قصة الغرانيق

تمهيد:

كان الرسول ﷺ في أثناء إقامته بمكة يعمل جاهدا على نشر الإسلام بين العرب بعامة، والقرشيين بخاصة لعلمه أنهم قادة القبائل والمركز التجاري والديني والحضاري للعرب وأن معظم القبائل سوف تنقاد إليهم، وكان يبذل كل طاقته في إقناع صناديد قريش لما يعلم عنهم من وفور عقولهم وسعة أحلامهم وصفاء ضمائرهم ونقاء فطرتهم وحبهم للحق والمروءة والشجاعة، فكان ينتهز أدنى مناسبة لعرض القرآن عليهم وتلاوته عليهم لعلهم يخشعون ويفكرون في موقفهم ويتأملون في آياته ويراجعوا أنفسهم وضمائرهم ويقتنعون فيعتنقون الإسلام، وفي إحدى هذه المرات دخل عليهم في البيت الحرام وقرأ سورة النجم؛بإيقاعها السريع وكلماتها الموحية المتدفقة وصورها الخلابة، ومعانيها التي تأخذ بالعقول والألباب وتؤكد على صدق الرسول ﷺ ودعوته التوحيدية، وتوبخ القرشيين على مزاعمهم الكاذبة وزيف مقولاتهم، ثم سجد الرسول، فسجدوا جميعا بطريقة تلقائية حينما أخذ القرآن بألبابهم واستولى على كيانهم وسحر عقولهم ببلاغته.وحينما عاب رهط من قريش على الذين سجدوا، ادعوا أن محمدا مدح آلهتهم وأقر أنها تشفع وتنفع.

ومن المؤسف أن بعض كتاب السيرة غفلوا وذكروا أن الرسول ﷺ مدح أصنام قريش وقال (تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى) وذهبوا إلى بعض التأويلات المتعسفة والتفسيرات الممجوجة والتحليلات الفجة التي تصادم جوهر العقيدة الإسلامية القائمة على

---

(١) سيرة النبي ص ١٥٣

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٦٥ (من تعليق شكيب أرسلان)

التوحيد المطلق. وقد صدق شيخنا الغزالي في قوله إن أكذوبة الغرانيق لم يضعها مستشرقون وإنما وضعها ناس عندنا فقدوا الوعي والتقوى(١).

هذه الرواية المتهافتة، والقصة الملفقة تلقفها جمهرة المستشرقين وأعجبتهم أيما إعجاب، فهم عشاق هذه الحكايات الطريفة ورواد الأساطير المسلية، عندهم غرام جارف بكل ما يسئ للرسول ﷺ، مثل التاجر صاحب السلع البائرة تجده ينادي عليها بصوت مرتفع، ويثير الضجيج حولها لإحساسه ببوارها وهلاكها، وكذلك حضرات المستشرقين وجدوا فيها ميدانا فسيحا للطعن في الرسول ﷺ وفرصة للتشفي منه، وخلق شبكة من الاتهامات والخرافات وإلصاقها به وكيل التهم له، ليس هذا فحسب بل والتشكيك في رسالة الإسلام كلية.

وسوف نتوقف أمام مزاعمهم ثم نرد عليهم.

١ - لا جرم أن ينقل نولدكه (١٩٣٠) قصة الغرانيق بعد أن عشنا معه في كتابه العجيب «تاريخ القرآن» والذي طوف بنا في كل واد، ولم يترك سردابا إلا دخله مع المهدي المنتظر، ولا نفقا مظلما إلا سكنه، وكتابه يشبه حكايات ألف ليلة وليلة، لا تنتهي من حكاية حتى تطالعك حكاية جديدة، وكلامه يشبه هذر الجاحظ وسخريته من البخلاء الذين خلق شخصياتهم من خياله الواسع وسخريته الدفاقة ولسانه الطويل، دون أن يكون لهذه الشخصيات مثيل في الواقع الموضوعي.

على كل حال لم تفت نولدكه مسألة الغرانيق دون أن يشير إليها، ويؤكد أن محمدا اعترف باللات والعزى وأن شفاعتهن لترتجى، ويذهب يبرهن على صحتها ويبرر ذلك بالخوف الذي اعترى محمدا في ذلك الحين بعد أن فتش عن حل وسط مع الدين القديم وذلك باعترافه بتلك الآلهة ككائنات جيدة خاضعة لله(٢).

قبل أن نلوم نولدكه وزملاءه من المستشرقين الذين سارعوا في إيراد هذه الحكاية وتصديقها، وقبول هذه الرواية المتهافتة، وعدم تمحيصها وإعمال مبضع الشك فيها وغربلتها،

---

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، دار الشروق، القاهرة، ص ١٩٤

(٢) تاريخ القرآن ص ٩٠

نلوم المؤرخين المسلمين الذين أوردوا هذه الرواية الواهية أشد اللوم وأعنفه، ليس هذا فحسب بل نوبخهم على قصر نظرهم وضيق أفقهم وسذاجة تفكيرهم، وغفلتهم عن غربلة هذه الحكايات، وتساهلهم في إيراد مثل هذه الحكايات التي تمس عصمة الرسول وتشكك في رسالته وتوهن من مكانته، وتظهره بمظهر الإنسان الضعيف الذي يسهو لدرجة التخليط، ولاشك أن هذا خلل منهجي وكلام بائس لا مجال له عند عقلاء القوم ولا في ميدان اصطفاء الله لرسله، ورعايته على عينه، هذا أولا.

ثانيا: هذا التبرير الذي ساقه نولدكه أوهن من حجج أمريكا لغزو العراق ، فلم نر في سيرة الرسول أي نوع من الضعف، بل لقد واجه صناديد قريش بتسفيه عبادتهم لأصنام من الحجر لا تضر ولا تنفع وكان حربا بلا هوادة على شركهم، وظل في مكة أكثر من ثلاثة عشر عاما يحارب أصنامهم حربا لا هوادة فيها، واقفا في الميدان هو ومن آمن به مقاتلا شجاعا وفارسا مغوارا، ثم إن القضية ليست قضية مزاجية بحيث إنه يناقض جوهر رسالته، فكيف يعترف بصلاحية أصنام تبول عليها الثعالب.

٢ - ذكرنا أن السيد ويلز (١٩٤٦) عرض ترجمة مختصرة لسيرة الرسول كلها مغالطات تاريخية، مستندا إلى الظن الذي لا يغني عن الحق شيئا، وعلى الرغم من هذا العرض الموجز والمبتسر، لم يفته أن يشير إلى حادثة الغرانيق ويثبتها في كتابه يقول: بعد إصراره على الوحدانية، عاد فداخله التردد، فأعلن في ساحة الكعبة أن أرباب مكة ورباتها، قد تكون حقيقة، وقد تكون ضربا من القديسين الذين لهم قوة الشفاعة.لكنه لم يتم قوله حتى أخذه الندم وذلك يدل على أن الخوف من الله يملأ جوانب قلبه، فما بدر منه في حق الأمانة أكبر دليل على أمانته ونزاهته، ومن ثم بذل كل ما في وسعه لإصلاح ما فرط منه، فقال إن الشيطان تلبس لسانه[١].

٣ - من الذين أيدوا فكرة الغرانيق المزعومة وتحمسوا لها وراحوا يلوكونها بألسنتهم ويذيعوها في كتبهم المؤرخ الكبير كارل بروكلمان (١٩٥٦) فيشير إلى حقيقة الإيمان الذي أخذ يعمر قلب محمد، ويتجلى له فراغ الآلهة الأخرى، ولكنه على ما

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية ج٣ / ٩٣

يظهر اعترف في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث اللواتي كان يعدها العرب بنات الله وقد أشار إليها في القرآن.

وفي موضع آخر في سياق حديثه عن صفات الله عند المسلمين، يشير بطرف خفي أن فكر الرسول أخذ منحا تصاعديا من الإيمان بفكرة التشريك والاعتقاد بصحة تعدد الآلهة إلى فكرة التوحيد، واستند في مقولته أن الرسول ﷺ آمن «بالآلهة المكية الرئيسة شفعاء عند الله» في بداية الأمر وأن شفاعتهم مقبولة ثم من خلال تأملاته فيما حوله وفي عناصر الوجود استقر رأيه على الوحدانية التجريدية التي كانت إلى حد كبير أساس قوة الإسلام على غزو القلوب و اكتساب الأتباع[1].

٤ - يعد جوزيف شاخت (١٩٠٢ - ١٩٦٩)[2] من المستشرقين الألمان من ذوي الشهرة الواسعة في عالم الاستشراق نظرا لسعة اطلاعه وغزارة إنتاجه وجهده الكبير في دراسة الفقه الإسلامي والمشكلات التي أثارها والشبهات التي طرحها، وكذلك تحقيق وترجمة مخطوطات الفقه، حصل على الجنسية البريطانية، و عمل في الجامعة المصرية وجامعة الجزائر وهولندا وأمريكا.

ومع هذا الجانب الإيجابي الذي نوهنا به، يلاحظ في كتاباته ما يشي بالانحراف عن المنهج العلمي، والرعونة في عرض الاتهامات، والانسياق وراء دعاوى المستشرقين الذين سبقوه وحذو حذوهم، والنقل من كتبهم دون مناقشتهم أو مراجعتهم ، والقارئ لكتابه عن الفقه الإسلامي يلاحظ أنه تناول مع قضايا الفقه بعض القضايا المتصلة بعلم الكلام، وهذا ما تنبه إليه أيضا الشيخ أمين الخولي ويتجلى ذلك، في تشكيكه في قطعية القرآن وغمزه بالتناقض، وإقراره بإمكان تخليط الشيطان وإيحائه بآيات للرسول ﷺ، وهو يشير من طرف خفي إلى قصة الغرانيق، ويدعي نسيان الرسول بعض آيات القرآن، وأنه في تشريعاته الدينية غير معصوم من الخطأ، ويمضي يشكك في أقوال الصحابة ويجرحهم، ويتهمهم بأنهم اعتمدوا على الأحاديث الموضوعة التي استمدت مادتها من مصادر إسرائيلية، وقد أفضى

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٤: ٧٠

(٢) ترجمته في موسوعة المستشرقين ص ٣٦٦، العقيقي ج٢ / ٤٦٩، محمد الزيني: المستشرقون في مصر ص ٢٠٩.

ذلك بأن استمدت الشريعة الإسلامية عناصر جديدة ترجع إلى أصل إسرائيلي، ويزعم أن علماء الحديث أخفوا نقدهم لمتن الحديث وراء نقدهم للسند[١]. أما فيما يتعلق بموضوعنا في سياق كلامه عن مصادر التشريع الإسلامي يشير إلى القرآن وأنه المصدر الأكثر أهمية، «وليس هناك شك في قطعية ثبوته وتنزهه عن الخطأ على الرغم من إمكان سعي الشيطان لتخليطه»[٢].

من الغريب أن يكرر شاخت هذا الاتهام دون مناقشته أو إيراد الدليل على ذلك ولكنه يكتفي بالإشارة إلى كتاب تاريخ القرآن لنولدكه ، كأن هذا يغنيه عن توجيه اللوم إليه، ويعفيه من المساءلة، لأنه يثير الغبار في مواجهة القرآن وفي وجه رسوله دون أن يأتي بأي حجة من عنده، وهو مستشرق له باع في قراءة تراث الحضارة الإسلامية.

٥ - في سياق سرده لجهاد الرسول وكفاحه من أجل نشر دعوته بين القرشيين وتصدى زعمائها له، ثم موت عمه الذي يحميه وزوجته الأثيرة التي كانت تشد أزره، واشتداد إيذاء قريش لمحمد يقول الرحالة بودلي (١٩٧٠) معلقا على ذلك: إن ثبات محمد على مبدئه، وعدم إذعانه للضغط الذي نزل به لأعظم دليل على تجرده من عَرِض الدنيا، ... ولكنه على الرغم من تلميحه يوما أن اللات والعزى ومناة قد يرجى نفعها مع الله، إلا أنه عاد ونقض ذلك إذ فطن إلى أن الأمر الذي يضطلع به لا يقبل مساومة[٣].

من الواضح أن بودلي لم يول قضية الغرانيق أهمية تذكر بدليل أنه ساقها وهو يتكلم على ثبات الرسول على مبادئه وتحمله المصاعب والأهوال، ولما كان هو حاطب ليل، وجامع روايات، لذلك ذكرها في سياق حديثه كنوع من الحشو الذي لا طائل من ورائه وهذا يشي بعدم وضعها في بؤرة شعوره ومحط نظره، أو الاهتمام بها أو تصديقها.

٦ - لا غرو أن يشارك فون جرونباوم (١٩٧٢) في هذا الإفك المبين، إنما العجب كل

(١) يوسف شاخت: أصول الفقه، ترجمة إبراهيم خورشيد وغيره، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١ .
(٢) أصول الفقه، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١، ص ١٩.
(٣) حياة محمد ص ١٠٠.

العجب هو أن لا يشارك في نشر مثل هذه الاتهامات الزائفة ومحاولة لصق كل نقيصة بالرسول والتشكيك في مصداقية أقواله والتهوين من مكانته كما يتصور، وكما يشهد كتابه بذلك عليه. على كل حال فقد انتهز فرصة حديثة عن آلهة قريش مناة واللات والعُزى وانحرف بحديثه قائلا: ألمت بمحمد حالة من التساهل فيما كان يأخذ به نفسه من التوحيد الذي لا يقبل أخذا ولا عطاء - ظن في أنه مستطيع إن اعترف بمنزلتهن وقوتهن القدسية أن يحمل أبناء قومه على الكف عن إيذاء أتباعه.. ومع ذلك سرعان ما ندم على ذلك[١].

٧ - ربما يعد بلاشير (١٩٧٣) من أشد المستشرقين جرأة، وأكثرهم خسة، وأسوأهم نية وخبثا، ففي ترجمته لسورة النجم، يقحم فيها ما يسمى بالآيات الشيطانية (إنهن الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى) ويعدها آية من القرآن. ومن المؤسف أنه كرر نفس فكرة الغرانيق في كتابه «الأدب العربي» ولمز الرسول بذلك فذهب إلى القول: «وقد مر الطور الأول من دعوته في مكة، وكان هدفه جمع مشركي هذه المدينة على لون من الوحدانية يُدعى الحنيفية وتبعث بعض آيات القرآن على الظن بأن النبي قد قَبِل في البداية التصالح مع الديانة المحلية، ولكنه سرعان ما رأى وجوب تغيير سياسته أمام عداء خصومه المتزايد»[٢].

وهذا التصرف الشائن ليس من الأمانة العلمية ولا من قواعد البحث العلمي بل خيانة علمية واضحة وسقطة لا غفران لها، فعليه بترجمة ما ورد في القرآن المعتمد عند المسلمين، ثم يثبت في الهامش رؤيته للقضية التي يتكلم عنها ويعبر عن رأيه بإيراد الدليل، الإشكالية هنا تظهر حينما يقرأ الأوربي تلك الترجمة يعتقد أن هذه الكلمة آية من آيات القرآن، وهذا إفك صريح، واعتداء على دين المسلمين وهويتهم.

٨- ذكرنا أن المستشرقين فرحوا فرحا شديدا بهذه «الحدوتة المسلية» التي تصلح أن تقال للأطفال حتى تجلب النوم لأعينهم، وطاروا بها في كل ناد للتشكيك في نبوة

---

(١) الحضارة الإسلامية ص ٩٥.

(٢) نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ٨٦، وأيضا ١٥٩

الرسول، ومن هؤلاء «مونتجمري وات» (٢٠٠٦) الذي توقف أمامها وكان من موضوعيته أنه نقلها من مصادرها التي وردت فيها وهي طبقات ابن سعد وروايات الطبري المتعددة بإسناد مختلف، ثم خلص إلى «حقيقتين مؤكدتين» على حد تعبيره وهما. أولا: أن محمدا قرأ هذه الآيات الشيطانية (أي الغرانيق) علنا باعتبارها جزءا من القرآن. ولم يخترعها المسلمون المتأخرون ولا غير المسلمين أقحموها في التاريخ الإسلامي.

ثانيا: من المؤكد أن محمدا أعلن بعد ذلك أن هذه الآيات الشيطانية ليست من القرآن، وأن آيات أخرى حلت محلها تحمل مضمونا مختلفا تماما[1]

- الرد على كافة مزاعم المستشرقين:

ألمحنا مرارا إلى كبيل بعض المستشرقين ونقلهم آراء من سبقوهم والثقة في نتائج أبحاثهم، دون أن يغربلوها ويتحروا الدقة ويرجعوا النظر في القضية المطروحة ومناقشتها مناقشة موضوعية و الانعتاق من أفكار زملائهم والتحرر من أسرهم وثقتهم العمياء فيهم، فلا جدال في - أن الجمود على التقاليد الموروثة أكبر آفات العقل البشري لأنها تعطل تفكيره، وتتركه في حكم الآلة التي تسير على نهج واحد في آثار الآباء والأجداد مع اختلاف الزمن وتبدل الأحوال[2]. فإذا كنا نتهم القرشيون بالجمود وعبادة آراء آبائهم وخضوعهم لسلطان العادات، فنفس التهمة من الممكن أن نوجهها إلى معظم المستشرقين أيضا.

لاشك أن إشارة طائفة المستشرقين بأن الرسول قد أقر بآلهة مكة، هي رواية ضعيفة

---

(١) محمد في مكة ص ٢٠٦: ٢١٢. من الجدير بالإشارة أن مترجم الكتاب، رد على المؤلف من خلال كتاب، حياة محمد، لحسين هيكل وقد نقل رده كاملا في الهامش. (ص. ٢٠٦: ٢١٣) بعد أن استعرض الدكتور عماد الدين خليل كثير من اتهامات (مونتجمري وات) وتعقبها معظمها بالرد والتفنيد اختتم نقده بقوله: إن غرور العقل الغربي وانتفاخه المتورم، واعتقاده القدرة على فهم كل شيء وتحليل كل معضلة في دائرة ما يصطلح عليه بالعلوم الإنسانية ومنها التاريخ، هذه كلها تفعل فعلها في حقل الدراسة الاستشراقية في السيرة، وتمسك بتلابيب الباحث فلا يستطيع منها فكاكا. (المستشرقون والسيرة النبوية، ص ١٧٣. ضمن مناهج المستشرقين، ج١ منظمة التربية والعلوم، تونس، ١٩٨٥).

(٢) العقاد: الإسلام دعوة عالمية ص ١٦٥

ومتهافتة ومضمونها أن الرسول قرأ قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

فذكر بأن شفاعة الأصنام ترتجى بعد أن ألقى الشيطان في روعه ذلك وخلط عليه الآيات.لا جدال أن القصة مفتعلة وموضوعة، وتصادم الأدلة العقلية والنقلية، وضعها الزنادقة وأعداء الإسلام الكارهين لانتصاراته في الماضي والحاضر، كما ذكر ابن إسحاق، وحشروها حشرا في التفاسير، وهي بادية الوضع والافتعال، فالمتأمل في أبعاد هذه الرواية يشعر بتهافتها إذ تنقض أول ركن من أركان الإسلام والذي بعث الرسول لتثبيته في الوجود، وحارب من أجله أكثر من ثلاثة عشر عاما، يبث في عقول أنصاره قضية التوحيد ورفع راية (لا إله إلا الله) وظل يكافح من أجلها ويغرسها في ضمائرهم وقلوبهم وعقولهم، وهذا ما أقرته الأديان جميعا ونافحت عنه، فكيف ينقضها بكلمة تهدم كل ما شيده وكافح من أجله بهذه الكلمات الطفولية والعبارات الشركية ؟

أما قولهم: «إن الشيطان ألقى في روع الرسول» فكلام متهافت، وأغرق ما يكون في الضلال، وأبعد ما يكون عن الصواب، لأن الشيطان ليس له سلطان على المؤمنين المتقين، ولا أمر له ولا نهي ، إلا التزيين والوسوسة والغواية والتحريض، فما بالنا بسيد المرسلين الذي هو في الأوج السامق والمكانة اليتيمة، ورسول الإنسانية وهادي البشرية والمعصوم من الله؟ ومن ثم فالرواية مرفوضة ولا يقبلها إلا الحمقى والنوكى وضعاف العقول وأراذل البشر.

إن من المستحيل أن يتفوه الرسول ﷺ بهذا الهراء، فلقد بذلت قريش له كافة الإغراءات، وقالوا له إذا كنت تريد مالا جمعنا لك المال، وإذا كنت تبغي رئاسة سودناك علينا وإن كان الجن يأتيك رقيناك وهكذا، وتوسلوا لعمه أبي طالب أن يطلب من ابن أخيه أكثر من أن يكف عن سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، ولما ذهب إليه وهو في حيرة من أمره بين الانصياع لرأي القرشيين ومحبته لابن أخيه، وأبلغه رسالة كبراء قريش قال له هذه المقولة

المشهورة التي مازالت تهتف بالحق في آذان التاريخ ومسامع الكون: «والله يا عمي لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته».

هل هذا الرجل بهذه القوة الإيمانية والروح السامقة والشعور الدفاق بصدق رسالته، من الممكن أن يخطئ في حق الإله الذي اختاره لإعلاء كلمة الوحدانية؟

لقد حورب الرسول ﷺ بكل الوسائل، واتهموه بكافة الاتهامات الشائنة، وكانت الحرب الإعلامية شديدة بينهم، ولم يترك المشركون والكفار والمنافقون أي فرصة سواء في وجود الرسول أو بعد صعود روحه إلى السماء، إلا استغلوها للتشكيك في نبوته والتقليل من رسالته والطعن في القرآن، ومازالت هذه المعركة النفسية مستمرة عن طريق المستشرقين والعلمانيين والشيوعيين وتلاميذهم وصحف الغرب وكتبهم وأفلامهم، مستمرة في معركتها الأبدية في مواجهة الإسلام ومحاولة هدم صرحه الشامخ وتشكيك شباب الإسلام في دينه.

لقد تصدى القدماء والمحدثون والمعاصرون سواء أكانوا من المفسرين أو من المؤرخين أو علماء الكلام أو شيوخ الإسلام إلى تفنيد رواية ابن سعد (٢٣٠ هـ) والطبري (٣١٠هـ) ورفضوها لأنهما يميلان إلى رصد الروايات والتساهل في إيراد الإسرائيليات دون أن يقوما بنقدها أو الشك في مضمونها، ويؤكدون أن القصة لا أصل لها ولا يعتد بذكرها لاسيما وأن ابن اسحق (١٥٢ هـ) لم يذكرها وقال عنها: إنها من وضع الزنادقة، وكذلك البخاري (٢٥٦ هـ) لم يشر إليها وهو يتحري الدقة في سرده، ومن جمهرة هؤلاء العلماء ؛الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨هـ) وابن العربي (٥٤٣ هـ) والقاضي عياض (٥٤٤ هـ) وفخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) ومحمد أحمد القرطبي (٦٧٠هـ) وابن كثير (٧٧٤ هـ) وابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) والشوكاني (١٢٥٠هـ) ومحمد عبده (١٨٤٩- ١٩٠٥)[1]، ورشيد رضا (١٨٦٥- ١٩٣٥)

---

(١) دروس من القرآن ص ١٢٤/١٢٩. ويرى أن العرب لم يرد في نظمها ولا في خطبها ولا نقل عن أحد بطريق صحيح، أنها وصفت آلهتها، وليس من معاني الكلمة شيء يلائم صفة الآلهة والأصنام حتى يطلق عليها في القرآن.

وأيضا، د. حسين هيكل الذي أفرد فصلا كاملا لمناقشة القضية وأورد أدلة نقلية وعقلية لدحض هذه الفرية وأطال في التحليل والتعليل والتفنيد، والرد على مزاعم وليم موير.(حياة محمد، دار المعارف بمصر، ص ١٧٥: ١٨٢)

وكذلك الشيخ الغزالي الذي قال: بيد أن كتب التاريخ والتفسير التي تركت للوراقين والزنادقة يشحنونها=

وحسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦) وسيد قطب (١٩٠٦- ١٩٦٦)[١] وأمين الخولي، ومحمد الغزالي (١٩١٧-١٩٩٦)[٢] والشعراوي (١٩١١- ١٩٩٨) وأحمد الخليلي من أعلام الإباضية المعاصرين ومن كبار رجال الفقه في العالم الإسلامي؛ومئات غيرهم من أكابر العلماء وصفوة المفكرين ، ومن له أدنى صلة بأركان الإسلام.

أضف إلى ذلك يؤكد العلماء المتخصصون في مجال الحديث ولهم اليد الطولي في هذا الميدان أن حديث الغرانيق «حديث باطل موضوع كما نص على ذلك الثقات من أهل الحديث»[٣].

وأفرد الشيخ ناصر الدين الألباني رسالة كاملة بعنوان «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق» لتفنيد هذه الرواية الخيالية، والزراية منها، ومحوها محوا تاما من الوجود[٤].

موجز القول إن الرسول لم يتملق عقائد المشركين وتصوراتهم، ولم يداهن مشاعرهم وعواطفهم، ولم يهادن آلهتهم وقيادتهم، لم يتمسكن حتى يتمكن، إنه أمر أن يقول لهم منذ الأيام الأولى وهو في مكة تتألب عليه جميع القوى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[٥].

=بالمفتريات، اتسعت صفحاتها لذكر هذا اللغو القبيح، ومع أن زيفه وفساده لم يخفيا على عالم إلا أنه ما كان يجوز أن يدون مثله.(فقه السيرة، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١١٩، ١٢٠)

(١) يقول سيد قطب: فلما ذكر الله هذه المعبودات الثلاثة معجّباً منها ومن عبادتها كما تفيد صيغة السؤال ولفظه: (أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى؟).. والتعجيب والتشهير واضح في افتتاح السؤال: (أفرأيتم؟) وفي الحديث عن مناة.. الثالثة الأخرى.. لما ذكر الله هذه المعبودات عقب عليها باستنكار دعواهم أن لله الإناث وأن لهم الذكور: (ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذاً قسمة ضيزى).. مما يوحي بأن لهذه المعبودات صلة بأسطورة أنوثة الملائكة، ونسبتها إلى الله سبحانه. مما يرجع ما ذكرناه عنها. وقد كانوا هم يكرهون ولادة البنات لهم. ومع هذا لم يستحيوا أن يجعلوا الملائكة إناثاً - وهم لا يعلمون عنهم شيئاً يلزمهم بهذا التصور. وأن ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله!.(تفسير الظلال، سورة النجم)

(٢) يقول شيخنا الغزالي: أصيب الإسلام نفسه بأهل إفك نسبوا إلى رسولهم أنه مدح الأصنام وسماها الغرانيق العلا ! وما روي ذلك محدث ولا فقيه، ومن زعم ذلك فالإسلام بريء، إن النجم قد يهوي لكن محمدا ما هوى قط. إن الإسلام نزل ليرسم طريق الإحسان للبشر. (نحو تفسير موضوعي ص ٤١٧).

(٣) أبو شهبه: دفاع عن السنة ص ٢٥٥ .

(٤) الألباني: نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦.

(٥) سيد قطب: هذا الدين ص ٥٢.

أما الأدلة النقلية من القرآن فهي وافرة ولكننا التزمنا بمواجهتهم بالأدلة العقلية، والاستدلال المنطقي، ومع هذا سنورد بعض الآيات لأهل الإسلام وشبابه حتى تطمئن نفوسهم وقلوبهم أيضا.

- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: ١٥].

- ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤].

- ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٦].

ومن المستشرقين المعاصرين السيدة كارين، التي أوردت مجملا للقصة كما جاءت عند ابن سعد والطبري، ثم علقت عليها قائلة: ما يجب توضيحه أن مسلمين كثيرين يعتقدون أن هذه القصة مشكوك في صحتها، ولا توجد لها إشارة في القرآن، ثم إن ابن اسحق لم يذكرها في سيرته الموثوق بها وكذلك لم ترد عند البخاري ومسلم. ثم تضيف أن أعداء الإسلام استغلوا القصة كي يشككوا في محمد ويبرهنوا على عدم إخلاصه[1].

على أن كارين عادت في مكان آخر تناقض موقفها السابق إذ تقول: ربما كان قد فكر (الرسول) في أنه إذا استطاع أن يدمج الغرانيق في دينه، فقد ينظرون بعين أكثر عطفاً على رسالته.. وعندما قرأ تلك الآيات الشاذة، كانت رغبته الداخلية تتكلم، وليس كلام الله، وتبين أن تصديق شفاعة الغرانيق كان خطأ، وعزا محمد ذلك إلى الشيطان مثل كل العرب[2].

ومع احترامنا لكارين لمواقفها الطيبة من الرسول ﷺ والإسلام، إلا أننا نرفض تفسيرها رفضا كاملا، وقد اعتمدت على أطروحات مدرسة التحليل النفسي، وأن خاطر الاعتراف بآلهة العرب كان مسيطرا على عقله الباطن، ومستقر في اللاشعور، ثم ظهر في فلتات لسانه وزلة القلم. وهذا كلام مرفوض.فأولا:كفاح الرسول ﷺ ودعوته قائمة على الإعلاء من شأن الوحدانية وتجريدها من أي شائبة تفيد الثنوية أو التثليث أو التشريك؛ وهي نفسها

---

(١) سيرة النبي محمد ص ١٧١.

(٢) محمد نبي لزماننا ص ٦٣.

تقول: «التوحيد هو الركيزة الأساسية في الإسلام الروحي»[١].

ثانيا: نؤمن إيمانا يقينيا أنه معصوم من الوقوع في مثل هذا الخطأ الشنيع، والقول الشركي الذي يقوض دعوته، ويناقض كفاحه في تقرير مبدأ الوحدانية، وتحريره من أي تصور يفيد التجسيم والتشبيه.

ثالثا: هذه القصة ملفقة من ألفها إلى يائها وتعد من اللغو الباطل والافتراءات المكشوفة ولا جدال أنها مدسوسة من قبل الزنادقة الذين همهم الوحيد تشويه صورة الإسلام قديما وحديثا، وقد أشرنا إلى ذلك آنفا.

رابعا:كان المفترض أن كارين تظل على موقفها الرافض لهذه الأسطورة، نظرا لسعة دائرة معارفها بالإسلام وتراكم خبراتها وقراءتها الموسوعية في سيرة الرسول ﷺ، ولا تنكص على عقبيها ، فتعود تكرر مقولات المستشرقين البائسة.

على أنه من المهم بمكان الإشارة إلى موقف ليون كيتاني (١٩٣٥) الذي يعد من بين المستشرقين الذين وقفوا موقف المتشكك في الرواية، و يعتقد أنها مختلقة ومرفوضة للأسباب الآتية:

- من الواضح أن إسناد الرواية في منتهى الضعف.

- من الصعب أن تكون قريش المعتدية والتي أكرهت المسلمين على الهجرة إلى الحبشة تنصت إلى سورة كاملة من القرآن، ثم تصلي مع محمد.

- أن محمدا أعطى حلولاً أخرى لكسب ود قريش منها العودة إلى بعض الشعائر الجاهلية مثل تبني الكعبة في الإسلام.

- من المستحيل أن يضم محمد ثلاثة آلهة وثنية إلى شعائر الإسلام، إذ إن هذا سيفضي إلى

---

(١) لا يوجد إسلام روحي وإسلام مادي، فالإسلام هو الإسلام، له جانب مادي من خلال الاهتمام بسعي الإنسان في هذا الكون الفسيح وتحقيق آماله وطموحاته، وتنمية يومه وغده، وجانب روحي متعلق بالعبادات والتأمل في الكون والتحرر من شواغل الدنيا وملذاتها وإخلاص العبودية لله. أي أن الإسلام يقر برغبات الإنسان وشهواته وتطلعات الروح إلى الانعتاق لعالم الأنوار والإشراقات.

تحطيم كل الإنجازات التي حققها[١].

ومع تقديرنا لهذا الموقف الرافض لهذه الرواية المدسوسة، واحترامنا لوجهة نظره لاسيما وقد وضع يده على بعض الأسباب الحقيقية التي تعضد رأيه وأهمها ضعف السند ووضوح صورة التلفيق والدس فيها.

إلا أننا نختلف معه في بعض التعليلات الآنفة وأهمها إنكاره أن تكون قريشاً أنصتت بشغف إلى آيات القرآن ثم انبهرت ببلاغته؛ لأن الواقع أنهم كانوا يتحينون الفرص لمحاولة الاستماع لآياته الباهرة وهذا وقع من أكثر من واحدا منهم أبي سفيان وعمرو بن هشام، فهم أساتذة اللغة العربية التي يعشقونها ويتذوقونها ولذلك سجدوا انصياعا لهذا الانبهار بعد أن أخذت الآيات بألبابهم وملكت عليهم مشاعرهم وخلبت لبهم وتغلغلت في ضمائرهم هذا أولا.

ثانيا: رسالة الإسلام ليست محل مساومة، وليست تجارة متعلقة بخسارة في هذه الصفقة، ومكسباً في الصفقة الأخرى، ولو كان الرسول ﷺ يريد إرضاء قريش لتوجه بداهة بصلاته إلى الكعبة أول الأمر دون التوجه إلى بيت المقدس، ولكنه نفذ الأمر الإلهي أولا ثم نزلت الآيات تحقق للرسول ﷺ رغبة خفية للتوجه إلى البيت الحرام الذي بناه إبراهيم أبو الأنبياء ومعه ابنه إسماعيل جد العرب ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

خامسا: سحر الرسول:

من القصص الخيالية التي تداولتها بعض كتب التفسير، والحكايات السخيفة التي تناقلتها مصادر بعض المؤرخين القدامى وسودوا بها صفحات كتبهم، وشهر بها بعض علماء أهل السنة وأوردها البخاري، وأصبحت من ضمن ثقافة أنصاف المتعلمين وعقائد العامة ورسخت في وجدان كافة عوام المسلمين؛ الادعاء بقيام أحد اليهود واسمه لبيد بن أعصم بسحر الرسول في إحدى عشرة عقدة في وتر دسه في بئر، فمرض النبي ونزلت المعوذتان، وتمضي الرواية فتقول: إن الرسول اختلط عليه الحال حتى أنه كان يفعل الأمر و يعتقد أنه لا يفعله، ثم تغرق

---

(١) تاريخ القرآن ص ٩٠

الرواية في قعر الجهل والسذاجة والتفاهة التي لا حدود لها، وتمضي في ضجتها الخاوية وشنشنتها الفارغة من أي فهم أو إدراك بأن الرسول ﷺ كان يأتي زوجاته ولا يعتقد أنه أتاهن، ثم أخبره جبريل بموضع السحر، فأرسل علياً فجاء به، فقرأهما عليه، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد بعض الخفة، وشفي من السحر، وبهذا الصدد نزلت المعوذتان[١].

الشاهد أن هذه الدسيسة البائرة والقصة الملفقة وجدت عقولا تستقبلها وضمائر تجد فيها سندا للطعن في سيرة الرسول ﷺ وتشوه صورته، و آذانا مصغية عند المستشرقين، دعك من أعداء الإسلام، وقد أسرعوا جميعا يتهمون الرسول ﷺ بأنه مسحور ويكررون مقولة عرب الجاهلية، وقد رد عليهم القرآن ردودا مطولة.

وسوف نتوقف لنرى انطباع المستشرقين عن هذه القصة وردود أفعالهم.

تيودور نولدكه

في التقسيم الغريب الذي وضعه نولدكه للقرآن الكريم إلى أربعة أقسام، وتخليطه المدهش عن أن هذه الآية أضافها الرسول من عنده لأنها تتفق مع ميوله، وأن هذه السورة نزلت في مكة وليست في المدينة والعكس صحيح ، وأن إعادة اللازمة في قوله تعالى (فبأي آلاء ربك تكذبان) وصلت إلى حد الإنهاك، وأحيانا يظهر عدم فهمه لمثل هذه اللازمة، وأن هذه السورة تفتقد النبرة الإيقاعية، وأن الآيات الخمس الأخيرة في سورة كذا ليست صحيحة بل تنتمي إلى سورة كذا، وأن سورة الانشقاق تلحق بسبب مطلعها بسورة الانفطار؛وهكذا يمضي في تخليط لا ينتهي ولا يكل من هذا الإيراد المجنون، وكأنه يكلم نفسه ولا يهمه من يفهم كلامه أو لا يفهمه وقد تسلط عليه شيطان فاوست ، أو أنه خرج من الخمارة في التو مثل ياسين أحمد عبد الجواد (بطل الثلاثية) هذا الرجل اللاهي العابث الذي لا يكف عن الهلوسة وجلب الفضائح لنفسه ولأسرته!![٢].

---

(١) الأمر الغريب أن جولدتسيهر ذكر القصة بطولها، ويقول بأن اليهود طلبوا من لبيد بن الأعصم وابنته أن يسحرا النبي عند رجوعه من الحديبية، فأخذا من مُشاطه، وعقدا فيه إحدى عشر عقدة. فمرض محمد وأخذ عن الطعام والشراب، وبدأت التصورات الرديئة (مذاهب التفسير ص ١٦٤)

(٢) راجع كتابه تاريخ القرآن ص١٥ : ٩٦وما بعدها.

والذي يهمنا الآن أنه عندما تحدث عن وضعية المعوذتين يرى أنهما «نزلتا لشفاء الرسول من المرض الذي سببه له أحد يهود المدينة، حينما سحره، ولا يحق الاعتراض بأن محمدا ما كانَ يقع فريسة إيمان خرافي كهذا.فهو بالتأكيد لم يتوقف عن مشاطرة عصره وقومه آراءهم، كما يبدو من معالم عديدة جديرة بالتصديق من السيرة النبوية» ثم يضيف: ولنفترض أن محمداً ألف في آخر سنين حياته تعاويذ كهذه فلابد أن تختلف تماما عن الأسلوب المعتاد للسور المدنية وأن تقارب النموذج القديم جدا للتعاويذ الوثنية[1].

وقد أشار جولدتسيهر إلى هذه الحادثة في معرض حديثه عن إنكار المعتزلة لسحر الرسول ﷺ وما يتصل بذلك من الخرافات، ويرى أنهم يقعون في معارضة ليس فقط مع أحاديث قوية الإسناد تتحدث عن تأثير السحرة على النبي.ويبدو منها أن بإمكان ذلك التأثير جائز، بل كذلك مع آيات القرآن قوية الدلالة[2].

الرد على مزاعم المستشرقين:

- لاغرو أن ننفي نفيا قاطعا هذه الرواية المتهافتة، وقد رأينا سابقا كيف يهرول المستشرق ويعتمد على مثل هذه الروايات الأسطورية، دون أن يحرك ذرة من جهاز عقله حتى يتشكك فيها على الرغم من أن رينيه ديكارت مؤسس المنهج النقدي نبههم إلى ذلك ووضع قواعده في الشك المنهجي كي يهتدوا بها، لكنهم يستشهدون بالأفكار التي تشبع ميولهم وتتفق مع ثقافتهم ويتجاهلون الحقائق التي تهدم أغراضهم ومقاصدهم، والأفكار المترسبة في أعماقهم والنافذة في ضمائرهم. هذا أولا.

ثانيا: لا يوجد عاقل عنده أدنى درجة من التفكير يعتقد أن هناك كائنا من كان في هذا الوجود عنده قدرات وطاقات ومواهب وملكات، أكبر مما منحه رب العزة لرسله الكرام إذ اصطفاهم وأعدهم بعنايته وقدرته ومشيئته التي لا تقهر، ومنهم رسولنا؛ في ضوء ذلك لا يجوز أن نصدق أن يهوديا أو غير يهودي سيطر على عقل الرسول ﷺ، ولعب به كما تقول هذه الرواية الحزينة، لأن طاقات الرسول الروحية وقدراته الجسمية وملكاته العقلية واستمداد

---

(١) تاريخ القرآن ص ٩٧، ٩٨.

(٢) مذاهب التفسير ص ١٦٢ : ١٦٣ . أشرنا سابقا إلى أن هذين المستشرقين كلاهما يقتبس من كتب الآخر، ويشيد بأبحاثه.

منعته وحصانته من السماء، وفيوضات المدد الهابط عليه والإشراقات النورانية التي تحيط به في كل لحظه تحفظه من هذه الألاعيب الصبيانية، ترفض مثل هذه الحكايات الخرافية، فهو حامل رسالة للبشرية كافة.

هل نصدق أن رجلا يمتلك من صفات القدرة والشجاعة والبلاغة والتدبير والمهابة وحسن الأثر في النفوس والعقول، يسيطر عليه إنسانا من آحاد البشر أيا كان هذا الإنسان، إن النبوة المحمدية صفة إلهية تولي صاحبها من القداسة ما يوحيه الإيمان وتوحيه طاعة الإله[1].

ثالثا: من حقنا أن نعترض أشد الاعتراض على ما أورده السيد نولدكه لأن طرحه سقيم ومقولته كاذبة وموغلة في الجهل، لأن الرسول ﷺ لم يتبع عادات قومه بل كان ثائرا عليها مسفها لسلوكهم، وعقلية الرسول تزن عقل البشرية كافة، فكيف يقع فريسة لأي تفكير خرافي ساد بني قومه؟ ولم يقل أحد إن الرسول «شاطر عصره وقومه آراءهم» فهذا ادعاء بلا دليل وزعم بلا حجة، ، فقد أنفق عمره يحطم تفكيرهم القديم ويمحو معالمه وينشئ تفكيرا قويا قائما على أساس الوحي وتعاليمه ونور العقل وإدراكه وقد جاء يستنكر الكهانة والسحر والطيرة والاستعانة بغير الله، فالعبودية لله والاستغاثة بالله والسجود لله، لا لعبد مثله ولا لصنم من الخشب والحجر.

رابعا: كيف نقنع هؤلاء المستشرقين أن هذا القرآن ليس من تأليف محمد وأنه لم يستعن بالتعاويذ الجاهلية ولا الوثنية؟، وأن المعوذتين سور من القرآن منزلة من عند الله حتى نستعيذ بها من أمثال نولدكه وإخوانه من المستشرقين ومن هذا الكلام البارد، ونحن لا نطالبه بالإيمان بذلك، ولكن نطالبه أن يأتي بكتاب في العالم عاش كما عاش القرآن في وجدان المسلمين وعقولهم وضمائرهم أكثر من خمسة عشر قرنا ويحتفل به كما يحتفل به المسلمون؟ ولماذا لم يعارضه عرب الجاهلية الفصحاء وقد انبهروا من أسلوبه وأقروا أنه ليس من بلاغة محمد بل هو من الله الحكيم العليم؟ !!.

ولماذا لم يأت بمثله عباقرة العالم وبلغاء التاريخ وشعراء أوربة كافة؟ ولماذا لم يجتمعوا

(١) العقاد: ما يقال عن الإسلام، دار العروبة، القاهرة، ص ٢٢٢

ويقيموا مجمعا كنسيا أو محفلا ماسونيا أو مؤتمرا أمميا لتأليف كتاب يضارع قرآن المسلمين ويواجهوهم بذلك؟

فليكف نولدكه هو وزملاؤه عن هذا الهذيان، وإضاعة وقته فيما لا يفيد، وإهدار وقتنا أيضا في الرد عليه !!، لكننا مجبرون لإعلان الحقيقة للعالم والذود عن هويتنا ولغتنا وقرآننا ورسولنا وإسلامنا بالحكمة والموعظة الحسنة والتخلق بقيم الإسلام وعملا بقوله تعالى ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

خامسا: لقد تصدى لهذه المقولة المنكرة جمهرة العلماء الثقات، ونهضوا لتفنيدها وهدمها على رأس من تفوه بها، واستنكروا مجرد القول بهذا الهذيان لأن فيه إهانة لشخصية الرسول ﷺ وتسفيها لمكانته وقد أجمعوا على رفضها إلا القليل من المؤرخين من القدماء الذين اهتموا بجمع الروايات الغث منها والسمين الصحيح والسقيم المعقول واللامعقول، وقد اقتصر دورهم على الرصد والسرد دون أن يلتفتوا لمناقشتها وتحليل أبعادها.زد على ذلك أن طبيعة العقلية عنده قابلية للإيمان بمثل هذه الحكايات، ثم إن محتوى الأفكار السائدة في هذه البيئات كانت محملة بمثل هذه الأساطير ومشحونة بحكايات العجائز والثور الذي يحمل الكرة الأرضية على قرنه، ودخول الجني في الإنسي، ومن يقرأ كتب الجاحظ يجد تراثا مفعم بذلك وسردا لا ينتهي عن قبول هذه الأطروحات والتمتع بسماعها.

ومن أبرز هؤلاء العلماء الكبار الذين وقفوا سدا منيعا في تحرير العقلية المسلمة من هذه الخرافة الإمام محمد عبده وتلميذه النجيب رشيد رضا ومحمود شلتوت، صاحب النزعة العقلية، وسيد قطب في تفسيره اليتيم، ومحمد الغزالي الثائر على الخرافات والأوهام التي تعشش في عقول بعض المسلمين ومحمد حسين فضل الله وأحمد الخليلي الفقيه الموسوعي ومجدد المذهب الإباضي، وقد أظهروا جميعا أنها تتعارض مع عصمة النبي، وتؤيد مقالة قريش بأن الرسول ﷺ رجل مسحور.

ونقتصر بشهادة ثلة من هؤلاء العظماء. يقول الشيخ محمد عبد الله دراز (١٩٠٥ - ١٩٥٨) فالنبي في تبليغه صادق مأمون، وفي اجتهاده فطن موفق، وروح القدس يؤيده فلا يقره على خطأ إن أخطأ في أمر من أمور الشريعة[1].

(١) النبأ العظيم، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥، ص ١٧

أما شيخنا سيد قطب فبعد أن أورد هذا الحديث علق عليه قائلا: «لكن هذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله ﷺ وكل قول من أقواله سنة وشريعة، كما أنها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول ﷺ أنه مسحور، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هذا الإفك. ومن ثم تستبعد هذه الروايات.. وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة. والمرجع هو القرآن. والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد. وهذه الروايات ليست من المتواتر. فضلا على أن نزول هاتين السورتين في مكة هو الراجح»[1]. ويبادر شيخنا الغزالي (١٩١٧- ١٩٩٦) بالرفض التام لهذا الغثاء التافه والكلام السقيم بأسلوبه القوي وشعوره الديني الدفاق فيصرخ كما صرخ يوحنا المعمدان في البرية يوقظ الأحياء الأموات فيقول: «هناك قضايا لا يجوز فيها التساهل لخطورتها، وقد شعرت بالغيظ والحرج وأنا أقرأ أن يهوديا وغداً سحر النبي وأعجزه عن مباشرة نسائه مدة قدرها ابن حجر بستة شهور! أكذلك تنال القمم؟»[2].

وينفي الشيخ الخليلي هذه الفرية فيقول: أما سحر النبي، فهو مما وردت به الروايات وتلقاه الكثيرون للأسف الشديد بالقبول ولكن عندما نرجع إلى التحقيق نجد أنه ليس كل ما ثبت سنده من الروايات مقبولا متنه، ومما هو معلوم أن النبي كان معصوما من كل ما يفقده الصواب في الفكر أو النطق، وحالة السحر التي حكيت عنه لا يمكن أن تصيبه وتنافي العصمة التي هي ضرورية لسلامة الوحي وأمانة التبليغ، ولو قيل بهذا لوجد المجرمون والملحدون سبيلا إلى الطعن في الوحي[3].

---

(١) الظلال تفسير سورة الفلق.

(٢) السنة النبوية ص ٧٦

(٣) لقاءات، ط، الأنفال، مسقط، ص ٨٩. من المؤسف أن الشيخ محمد أبو شهبه (١٩١٤: ١٩٨٣)؛قبل الحديث وظل يدافع عنه على مدى خمس صفحات، وذكر كثير من علماء الإسلام قبلوا الحديث منهم المازري وابن تيميه= =وابن القيم، وبرر ذلك، بأن الله يبتلي الأنبياء، وليعلم الناس أنهم بشر مثلنا فلا يرفعونهم إلى مقام الألوهية وليزداد ثواب الأنبياء.(دفاع عن السنة، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة، ص ٢٥٠: ٢٥٥) ونقر أن الشيخ من العلماء الأجلاء وباحث جاد وموسوعي المعرفة بالسنة النبوية، ودفاعه مشكور عن سنة الرسول وصحابته الكبار، إلا أنني أعترف أن عقلي لا يستسيغ قبول هذه الرواية، ولم يطق هضمها لأنها تتعارض مع منطق عصمة الرسول، وتقر بتخليطه وغياب وعيه وكما قلنا كأن هناك إنسانا أعظم منه يستطيع أن يسيطر على مشاعره. ونحن نحترم رأي أبي شهبه ولا نقبله أبدا، فليحترم رأينا ولا يقبله. والله المستعان.

نستنتج مما سبق أن المؤرخين المسلمين أخطؤوا في حق أنفسهم وفي تاريخهم، وفي حق رسولنا الكريم وليتهم قد منعوا هذا الحشو وحرروا كتبهم من هذه الخرافات لأراحوا أنفسهم وأراحونا، وعقلوا لسان المستشرقين الذين تشفوا في رسولنا وراحوا يشعلون النيران ويلقون فيها البخور ويرقصون حولها.

سادسا : الإسراء والمعراج:

كانت حادثة الإسراء والمعراج مواساة إلهية للرسول ﷺ بعد النكبات التي حلت به؛ وتمثلت في وفاة زوجته الحانية الأثيرة، وعمه الحامي له من بطش قريش والمدافع عنه طوال كفاحه مع قريش، نعم كانت رحلة الإسراء رحلة إيمانية و بلسما شافيا لجراحه التي نكأت بسبب موت الأحبة، وإخراجه من هذه الحالة النفسية القاسية التي أحاطت به إلى عالم النور والملائكة والصفاء، وقد وقف معظم المستشرقين موقفا متشككا من الإسراء والمعراج ، إن لم يكن الرفض الكامل، والزعم بأنها مجرد «حلم طويل» حبك محمد أحداثه ودبج تفاصيله من الأساطير التي اطلع عليها والحكايات الخيالية التي سمعها، وقصص الجن التي كانت منتشرة في بيئته، وأن هذه القصة الطريفة وتفصيلاتها الخيالية العجيبة هي من بنات أوهامه وبلاغته المشهودة وخياله الخلاق، وذلك لإضفاء طابع من الصدق والقداسة على مسلكه، وتسجيل جواز مروه إلى قلوب المحيطين به من أنصاره ومؤيديه، وكذلك تأكيد الجانب الإلهي في رسالته والمشيئة الربانية التي تعضد مواقفه وتبارك خطواته.

١ - يقول كلود سفاري: «الإسراء رؤيا، وقد نسجها محمد من خياله كي يعطي وزناً لطريقة الصلاة الجديدة التي فرضها»[١]. ثم يورد تفاصيل الإسراء والمعراج كاملة كما وردت في صحيح البخاري معتمدا عليه، من بداية ركوب الرسول للبراق ونزوله في بيت المقدس وصلاته بالأنبياء، ثم العروج وولوجه السماء الأولى وبصحبته جبريل ومقابلته للأنبياء واحداً بعد الآخر، ثم اجتيازه السموات ووصوله إلى سدرة المنتهى حيث توجد جنة النعيم، واختبار الرسول بأقداح اللبن والخمر، وفرض الصلاة خمسين صلاة ومقابلته لموسى، ونصيحته أن يعود إلى الله يخفف عن أمته، وإلحاحه في ذلك فخففت إلى خمس

---

(١) السيرة النبوية ص ٩٤

صلوات، ثم حمله البراق إلى الأرض ثانية[١].

ثم يستطرد عن نتائج الرحلة قائلا: لم يتحقق له النجاح المنشود الذي كان ينتظره فلم تكن قريش سهلة الاقتناع سلسة الانقياد فسخرت منه، وهمس أتباعه لأول مرة بعبارات التشكيك، بل إن بعضا منهم لم يستطع أن يقاوم السخرية التي انتشرت في كل مكان، فساورهم الشك في نبيهم وعادوا إلى الوثنية، أما الباقون فقد تزعزعوا إلا أن محمداً وجد الطريقة التي يثبت بها إيمانهم[٢].

٢- انطلاقا من اعتقاده أن الرسول مريض بالصرع ومصاب بغيبوبة مستمرة، ويعاني من وضع جسمي ونفسي مضطرب، يرى نولدكه (١٩٣٠) أن هذه الوضعية المتردية تفسر الأحلام والرؤى التي رفعته فوق مستوى العلاقات البشرية المعتادة، ومن أشهر هذه الأحلام قصته عن الإسراج والمعراج[٣].

ويقول في موضع آخر: يشار في سورة النجم إلى رؤيا أخرى، ظن فيها النبي نفسه في السماء ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣-١٨] عن طريق جمع هذه الرؤى بالحلم اللاحق عن الإسراء إلى القدس (سورة الإسراء ١٧) وكذلك تحت تأثير نماذج يهودية أو مسيحية سابقة نشأت بعد مدة من وفاة محمد أسطورة المعراج. وقد اعتمد المسلمون في وصفهم لها على نص سورة النجم.

وفي موضع آخر من كتابه يكرر نفس القول مع طرح إشكالية جديدة من وجهة نظره فيقول: «سورة الإسراء تتعلق بإسراء محمد ويعتبره التفسير التقليدي معجزة، مالا يتوافق مع كون النبي مثلا في (سورة الإسراء ٩٣: ٩٥)[٤] والفرقان (الآية ٦: ٨)[١] والعنكبوت (٤٤:

(١) السيرة النبوية ص ٩٤: ٩٨

(٢) السيرة النبوية ص ٩٩

(٣) تاريخ القرآن ص ٢٥

(٤) قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ

٤٥)(٢) رفض اجتراح المعجزات صراحة في مواضع كثيرة من القرآن معلنا أنه نذير وبشير. لهذا ينبغي لنا أن نفترض أن محمداً أراد أن يروي لنا وحسب(٣).

٣- رؤية بروكلمان:

وقريب مما سبق يذهب بروكلمان حيث يرى أن هذه الرحلة السماوية وردت في الأساطير الشعرية القديمة، ثم ذكرتها الكتب الإسلامية وتوسعت في روايتها، «وأمثال هذه الرؤى في أثناء تهجد العراف معروفة ثابتة لدى بعض الشعوب البدائية»(٤).

٤- وجهة نظر بودلي للإسراء والمعراج

شرح بودلي قصة الإسراء والمعراج؛ عن طريق سماعها من أحد المرافقين العرب له، وعلى الرغم من إيراد أحداثها الأساسية كما جاءت في كتب السيرة، إلا أن الراوي حشاها بالغرائب والأساطير وزخرفها بالمبالغات وعجائب الأشياء، وأطلق لخياله العنان، وسردها كما كانت تحكى في أربعينات القرن الماضي؛ شكل البراق، طوله وعرضه وأجنحته التي تملأ الآفاق، وسباحته في الهواء، وهبوطه على قمة جبل سيناء وصلاة محمد في المكان الذي كلم الله فيه موسى، ثم استأنف جبريل ومحمد الرحلة ثم هبطا ثانية في المسجد الأقصى وصلى بالأنبياء، ثم معراجه إلى السماء، ومشاهداته في السماء الأولى إلى السابعة، وهنا يهيم الراوي في الخيال ويغرق في وصف العجائب؛ فكل سماء لها ميزة خاصة فهذه من الفضة وتلك من الحديد المصقول، والثالثة من الأحجار الكريمة، وفيها ملك ضخم بين عينيه مسيرة سبعين

رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣- ٩٥].

(١) قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان: ٧- ٨].

(٢) قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٤، ٤٥]

(٣) تاريخ القرآن ص ٨٩ وأيضا ص ١٢٠.

(٤) تاريخ الشعوب ص ٤٤ .

ألف يوم وهكذا يمضي الوصف الغرائبي ويسرد قصة مقابلة الرسول ﷺ مع موسى وبكاؤه بسبب بعثة غلام بعده يدخل من أمته الجنة أكثر من أمة موسى، وفرض الصلاة ومراجعة موسى للرسول حتى خفضت من خمسين إلى خمس صلوات، ثم يصل إلى السابعة وفيها يقابل سيدنا إبراهيم، ويقابل ملكا له سبعون ألف رأس في كل رأس سبعون ألف فم، وهكذا.حتى يصل الرسول ﷺ إلى سدرة المنتهى، ثم ركب البراق وعاد إلى مكة(١).

ويعلق بودلي على قصة الإسراء بأنها أسطورة من الأساطير وقد تأثر بها دانتي فيما يختص بوصف الجنة، وأن ما ورد في سورة الإسراء لا يمت إلى ما يعتقده العرب بصلة، ويقرر أن هذه القصة ما هي إلا خرافة من الخرافات، وقد ورد نظائر لها في الإنجيل عن رؤيا يوحنا(٢).

ونوجز ردنا عليهم جميعا في النقط الآتية:

- لا جرم أن نلوم بودلي لوما عنيفاً لأنه لم يقرأ أحداث الإسراء والمعراج من مظانها الموثوق بها، ومن مصادر المؤرخين المسلمين وكتبهم المعتمدة بدلا من أن يسمعها من أحد الأعراب وقد ملأها فعلا بالغرائب والحكايات الخرافية، ثم يجردها مما لحق بها من الشوائب والزيادات ثم يحكم عليها. ونلوم بروكلمان أشد اللوم - نظرا لمكانته في ميدان الاستشراق - الذي لم يقدم أي حجة على وجهة نظره ومن المعلوم أنه لا يوجد أي وجه للمقارنة بين رؤى العرافين وتهويماتهم وكلامهم المسجوع وإدعاءاتهم الباطلة، وما شرحه الرسول ﷺ في رحلته السماوية ومعراجه العلوي. وهذا الرأي الذي قدمه بروكلمان فيه استهانة لعقولنا وإلغاء المسافات بين الخيال والواقع والباطل والحق، وخلط بين زيف الكهان ورجمهم بالغيب، وصدق الرسول ﷺ ومدده المعرفي الإلهي وعلمه اللدني وأدلته الحسية والواقعية التي قدمها، ناهيك عن آيات القرآن التي وثقت هذه الرحلة التاريخية الدينية إلى عالم الغيب.

- ذكر بعض المؤرخين والمستشرقين ومنهم آسين بلاثيوس أن دانتي اليجيري (١٣٦٥-١٣٢١) شاعر إيطاليا، تأثر بالإسراء والمعراج في «الكوميديا الإلهية»، وأكدوا وضوح الاستلهام من رسالة الغفران لأبي العلاء المعري (٣٦٢ - ٤٤٩هـ) الشاعر الفيلسوف

---

(١) حياة محمد ص ١٢٥: ١٣٦

(٢) حياة محمد ص ١٣٦: ١٤١

المتشائم. لكنه لم يكن منصفا ولا رجل الأخلاق، حينما وضع الرسول ﷺ في الجحيم «مشقوقا من الذقن إلى حيثما تصدر الريح، من بين ساقيه تتدلى أحشاؤه...»، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه يعيش في عصر الجهالة والظلمات ويتنفس حقدا على الإسلام، ولا يتصف بأي صفة من صفات الإنسانية الكريمة هذا من جهة[١].

ومن جهة ثانية فقد استفز هذا الوصف الكريه السيدة النبيلة آنا ماري شميل (١٩٢٢ - ٢٠٠٣) المستشرقة الألمانية التي تخصصت في دراسة العصر المملوكي في مصر والتصوف الإسلامي فعلقت عليه بقولها: «إذا كان دانتي في الكوميديا وضع محمدا في أسفل سافلين، فإنما كان يعبر بذلك عن أعمق المشاعر لدى مسيحيي القرون الوسطى الذين لم يكونوا يدركون بعد أن ديناً جدياً إيجابياً ناجحاً وُجد إلى جانب المسيحية، يؤلف معتنقوه جزءاً مهماً من حوض البحر المتوسط الذي كان خاضعًا للهيمنة المسيحية»[٢].

ومن جهة ثالثة؛ إن مثل هذه الصورة المغلوطة والخاطئة والتي تعد في حد ذاتها خطيئة، ترسخ في خيال الأوربيين «أن الإسلام هو العدو الأكبر، وأن محمدا هو أمير الظلام وأنه مخادع شهواني مختلق لكتاب خرافي هو القرآن». على حد تعبير أحد الباحثين [٣].

---

(١) من المؤسف أن د، حسن عثمان الذي ترجم الكوميديا الإلهية، وصدرت عن دار المعارف بمصر، وصف دانتي بأنه «أحد عظماء الرجال في تاريخ البشرية، ورائد عصر النهضة». ثم آثر أن يحذف وصف دانتي للرسول الذي أثبتناه. ونحن لا نشاركه في الرأي ونعتقد أن أقل ما يقال عنه، أنه رجل عديم الأخلاق ويفتقد الذوق ميت الضمير، ولو كان عالما حقيقيا لقرأ عن سيرة الرسول وفهم أبعاد الإسلام وتاريخ المسلمين وهذا أمر كان متاحا له إذا قصد الرشد والعدل، ولكنه لم يكن منصفا وتعمد إهانة الإسلام ورسوله والتنقص من شخصيته.وظل يعيش في عصر الظلام والجهالة.فلعنة الله على الظالمين. ونضيف هنا أن الدكتور أحمد درويش وهو من أساتذة الأدب العربي المرموقين وله مؤلفات متميزة، أثبت وصف دانتي للرسول ووضعه في طبقات الجحيم، ومعه كبار المفكرين والأبطال الإسلاميين مثل ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين، ولم يحتج على ذلك أو يهاجم دانتي على هذه الصورة البشعة ولم يوجه له كلمة عتاب أو لوم، في حين حينما تعرض للفنان الفرنسي الذي أقام تمثالا لشامبليون وهو واضع قدمه على رأس أحد الفراعنة، تحركت عاطفته بالعتاب لهذا الفنان الرقيق ونبهه بأن في لغة الأزميل مفردات أخرى مثل «أيقظ، أو عانق». (الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، الهيئة المصرية، ١٩٩٧، ص ٢٠، ٢٥).

(٢) عمر لطفي العالم: المستشرقون والقرآن، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩٢، ص ٥٢.

(٣) إدريس مقبول: الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم في رؤية إسلامية. ص ٤

- نريد أن نقر مقياسا نستند إليه في أحكامنا، ومعيارا نحتكم إليه في قضايانا العقائدية والفكرية، فإذا كنا نؤمن أن الله خالق الكون وله صفات الكمال والجمال وهو الذي أبدعه على هذا النحو من التناسق والنظام والدقة، ويقول للشيء كن فيكون، ونؤمن أن موسى ألقى العصا وهي جماد فصارت ثعبانا حيا يتصف بكل صفات الحيوية، وضرب البحر بعصاه فانفلق، والسيد المسيح يحيي الموتى ويصنع من الطين طيرا وينفخ فيه فيصير طيرا، ويشفي المرضى ويعلم الغيب وكل هذا بقدرة الله المطلقة، وهو إنسان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتصف بكل صفات الإنسانية من الانفعالات والعواطف والأحاسيس، وقد تلقينا ذلك عن طريق القرآن، وهذه كلها مقدمات مسلم بها، فلماذا لا نؤمن بالنتيجة التي تقول إن الرسول ﷺ أسري به ثم عرج إلى السماء كما ورد في سورة الإسراء والنجم.؟

- يجب على العقل الإنساني أن يقلل من غروره، ويطامن من كبريائه ويعلم أن في هذا الكون ملايين من الحقائق الخفية والظواهر المحيرة، والحوادث التي لم نستطع أن نفك أسرارها أو نسبر غورها، ليس هذا فحسب بل «النفس» التي تسري داخل الإنسان لم يفك العلماء أسرارها وألغازها.ما طبيعتها؟ وأين هي، وكيف يموت البدن بمجرد مغادرتها له، وأين تذهب؟ وما مستقرها؟ وهكذا آلاف من الأسئلة لم يستطع العلم أن يفك شفرتها على الرغم من الطفرة العلمية التي شهدتها الحضارة المعاصرة في السنوات الخمسين الأخيرة، حتى قال بعض العلماء إن هذه الوثبة العلمية تساوي خمس مئة عام مضت من عمر البشرية.

في ضوء ذلك علينا ألا نرفض ما ورد في النصوص المقدسة، وما دمنا نؤمن أن القرآن جاء متواترا، وبرهن العلماء طوال القرون الماضية على أن هذا النص المقدس من عند الله، فلماذا لا نقبل ما ورد فيه بشأن الإسراء والمعراج؟.

- وإذا كان سفاري أكثر موضوعية في عرضه من بودلي، واعتمد على ما ورد في صحيح البخاري لكنه رفض حادثة الإسراء زاعما أن ذلك كان «رؤيا منامية» وأن الرسول كان «حالما»، وهذا كلام لا يتسق مع تواتر الأخبار بذلك، ومخزون الوثائق التاريخية لدى

الحضارة الإسلامية، وليس هذا أعجب من سفينة نوح وطوفانه، وناقة صالح التي خرجت من الصخر، ولا المطر الذي دمر قوم لوط، ولا أغرب من إلقاء موسى في اليم وتربيته في بيت فرعون وهو عدوه اللدود ولا إلقاء يوسف في الجب ثم يصير وزيرا في مصر.هذا من جهة.

ومن جهة أخرى لم يذكر أحد من علماء المسلمين أو مؤرخوهم أن حادثة المعراج ظهرت بعد وفاة الرسول ﷺ، استنادا لسورة النجم، كما ذهب إلى ذلك نولدكه صاحب الشطحات والتخريجات التي هي أعجب من حكاية الجزيرة التي نزل عليها جماعة التجار فلما عاشوا عليها مدة وأوقدوا النار، ساحت في البحر واكتشفوا أنها كانت حوتا كبيرا، ومن الواضح أن كل حديثه عن آيات القرآن والفاصلة وترتيب سوره، ووضع آية مكان آية على حسب مزاج الرسول مثل هذه الحكايات.

ومن المعلوم أن الرسول ﷺ بعد رحلته الأرضية والسماوية عاد يشرح ذلك بثبات نفس وقوة إرادة وصدق في القول ويصف ما رآه وصفا تفصيليا يؤكد مشاهداته لا يمكن لحالم أن يتسع عقله لهذا الوصف أو يمر بذاكرته، فصدقه من صدقه وكذبه من كان ضعيف الإيمان، وسجلت كتب السنة هذه الرحلة التي ليست أعجب مما وقع لسيدنا إبراهيم الذي ألقي في النار، ثم كانت بإرادة الله بردا وسلاما.

ومن جهة ثالثة:يقرر نولدكه وجود تعارض بين قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٥] وصعود الرسول إلى السماء في رحلة الإسراء.

ولا جرم أن نقول إن إلمام نولدكه بالعربية يعد إلماما ضعيفا، وفهمه للآيات يعد فهما قاصرا، فآيات سورة الإسراء جاءت ردا على طلبات الكفار التعجيزية من الرسول وعددوا

طلباتهم وكلها فوق طاقة الرسول ﷺ وإمكاناته الإنسانية لأنه إنسان له كل مقومات الإنسان، وقد رد عليهم ردا مختصرا أنه بشر، أما حادثة الإسراء فهي بقدرة الله وإرادته الكونية التي تقول للشيء كن فيكون، وليست بقدرة محمد ولا كانت أيضا من أمنياته أو أحلامه.

ولم يتغير منطق الكفار في سورة الفرقان فهو نفس المنطق التعجيزي أي الخارج عن نطاق قدرات الرسول الإنسان ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان: ٧- ٨].

وهل معجزة موسى حينما انفلق له البحر وأصبح طريقا يبسا أمام جيشه كانت بذكائه وحسن تدبيره وعبقريته؟ أم أن أنصاره قالوا: إنا مدركون. وهذا هو منطق الواقع والأمر الطبيعي، لأنهم شاهدوا جيش فرعون قد أدركهم وسوف يدمرهم تدميرا، لكن سيدنا موسى من خلال الإلهام الإلهي، والمواقف السابقة التي عاشها ورأى أن المدد الإلهي كان يعاونه في الوقت المناسب و ينقذه من المهلكات، لذلك هتف بكل ثقة وقوة إيمان ويقين راسخ: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وهل المسيح كان يحيي الموتى بقدرته الذاتية وطاقته النفسية وملكاته العقلية أم أن هذه المعجزات بطلاقة القدرة وإرادة الله المطلقة التي لا تحدها حدود !!

ومن جهة رابعة؛ كما أشرنا سابقا. مادمنا نؤمن باتصال السماء بالأرض، ونعتقد بوجود الملائكة والجن والشياطين ونحن لم نرهم ونؤمن بعالم الغيب بكل ما فيه من صور غائبة عن مدركاتنا الحسية وشواردنا العقلية، ونؤمن بصحة معجزات الأنبياء ونحن لم نرهم، كذلك واقعة الإسراء ليست أكبر من إحياء الموتى، وانفلاق البحر قسمين، فالقدرة الإلهية مطلقة، وهؤلاء الرسل الكرام مبعوثين من الله وقد أيدهم بقدرته الباهرة ومشيئته المطلقة، وليس في الحادثة ما يتناقض مع منطق العقل، والاستدلال البرهاني.

- أما مسألة تردد بعض المسلمين في تصديق الرواية لأول وهلة، فقد كان أمراً مؤقتا، ويتفق مع الفطرة الإنسانية، نظرا لطبيعة الرحلة الغيبية وكسرها للقوانين الطبيعية التي بثها الله في الطبيعة وتنظيم حركتها، وأحيانا يقف العقل حائلا بين الإيمان بحقيقة من الحقائق

للوهلة الأولى حينما تقهره مثل هذه المعجزات الحسية، كي يتبصر حقائق الأشياء ويتأكد من صحة الرواية وينظر في معطياتها ودقائقها، وهؤلاء الصحابة عادوا إلى رشدهم وأنابوا وآمنوا بصدق رسالة الرسول ﷺ، ثم إن أبا بكر «ضرب بإيمانه الراسخ مثلا طيباً لهؤلاء المتشككين فزايلتهم الريب والظنون» فيما يقول بروكلمان.

وعلينا أن نقارن هذا الموقف بموقف سيدنا موسى الذي حينما رأى حبال سحرة فرعون كأنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة وكاد أن ينقص على عقبيه، لولا النداء الإلهي الذي بصره بحقيقة خداع السحرة وكيدهم وأنه هو الأعلى، ثم إن قوله: «إن الرسول ثبّت إيمانهم» دليل صدق محمد، وبرهان على قوة حجته، ومسلكه السليم وعلى حبهم له وثقتهم الكاملة فيما جاء به من الحق والعدل.

أضف إلى ذلك لماذا لا يشير سفاري وبودلي إلى موقف أبي بكر الذي أطلق هذه المقولة الخالدة: «إن كان قد قال فقد صدق». فعلينا كما نثبت العوامل النافية للقضية التي يدور حولها النقاش، نثبت العوامل المثبتة لها، والمؤكدة على صدقها، حتى نطبق قواعد المنهج العلمي السليم كاملة.

- لاشك أن واقعة الإسراء والمعراج جاءت بلسما لجراح الرسول الأليمة، ويدا رحيمة تخفف من العذابات التي عاني منها هذا الإنسان النبيل، وشحذا لهمته وشداً من أزره وتعضيدا لموقفه، بعد الابتلاءات التي حلت به لاسيما بعد وفاة زوجته الأثيرة التي عاونته في كفاحه الديني وساندته ووقفت بجواره تشجعه وتقوي عزيمته في مواجهة الشدائد اليومية التي كانت تقف في وجه دعوته، وكذلك وفاة عمه أبي طالب الذي دافع عنه وصد غائلة قريش وعدوانها وظل يحميه طوال حياته.

- وأخيرا نقول: إن أسلوب كل المستشرقين يوضح بجلاء أنهم يتكلمون عن شخصية ملك ومصلح اجتماعي ورجل عبقري وزعيم ديني واسع الحيلة استطاع بمهارته وبلاغته جمع هذه الحشود الضخمة خلفه وإقناعها بصدق أقواله وطرح دينا جديدا ليس له أي صلة بالسماء، ولا بعد غيبي.

ولا جرم أن نقول: إن هذا منطق معوجّ وتفكير مراهق لأنه من المستحيل أن تكون هذه

الملايين انقادت وراء أوهاما وخيالات كاذبة، وإذا انخدعت سنوات فلا يمكن أن تنخدع مئات السنوات، وقد رأينا عديدا من النظريات الفلسفية والمذاهب الاقتصادية والرؤى السياسية؛تظهر في الأفق وتنتشر، ويروج لها فن الإعلام وتسيطر على بعض العقول، ولما كانت تحمل في باطنها جرثومة فنائها، فتذوي وتذبل وتسقط سقوط الأوراق في الخريف وتطويها الأيام ويغمرها النسيان، هذا ما رأيناه في الفلسفة الماركسية والتشوية والوجودية والقومية العربية، والناصرية وغيرها، في حين ظل الإسلام دينا راسخا ومبادئ قويمة، يكسب كل يوم له أنصاراً بفعل روحه الخلاقة و«قوته الذاتية» الكامنة في أطروحاته العادلة وتشريعاته الشاملة وقواعده الأخلاقية.

- من الجدير بالذكر أن السيدة كارين استعرضت قصة الإسراء والمعراج بتفاصيلها السابقة مستندة إلى المصادر الإسلامية، ولم تعترض عليها وآمنت بها وعقبت عليها قائلة:كان لهذه التجربة الدينية أهميتها البالغة في تنمية الطابع الروحي للإسلام، ويحتفل المسلمون بذكراها كل عام، وانتقلت هذه التجربة إلى التقاليد الغربية وأثرت في رحلة دانتي الخيالية، ولو أنه وضع الرسول في الدرك الأسفل من النار، وهذا يدل على الانفصام النفسي الذي اتسم به الغرب[1].

سابعا: رؤية المستشرقين لعقيدة البعث في الإسلام

تعد عقيدة البعث في الإسلام ضمن القواعد الأساسية التي على المسلم أن يؤمن بها وهي ركن جوهري من الإيمان الغيبي، ومن ينكرها يعد منكرا لما هو معلوم من الدين بالضرورة، وقد عالج القرآن هذه القضية معالجة واسعة، وساق الأدلة الحسية المستنبطة من خلق الإنسان أول مرة، ودعاه أن يتأمل في تكوينه ونفسه، وكذلك من البيئة الاجتماعية التي يحيا في كنفها حيث الموت هو القاسم المشترك والذي يدرك الإنسان في كل مكان كأنه سهم انطلق في الهواء وسيختار من كتب عليه الموت، ومن عناصر الطبيعة المحيطة بحياة المسلم أو الإنسان أينما كان وحيثما حل ويدركها بحواسه، وكذلك طرح البراهين العقلية التي تدعو

---

(١) سيرة النبي ص ٢٠٨ - ٢١٠. قصة الإسراء والمعراج تمثل الإسلام الخالص، تسليم الذات لله يمثل أيضا العودة إلى منبع الوجود، أصبحت القصة نموذج الروحانية الإسلامية، تبين الطريق الذي يجب أن يسلكه كل البشر، بعيدا عن أهوائهم، وإجحافهم وقيود أنانيتهم..(محمد نبي لزماننا ص ٨٧).

الفكر الإنساني إلى التأمل الدقيق والتحليل العلمي والفهم المؤسس على البرهان؛ثم الاقتناع، ولم ينس أن يخاطب عاطفته الدينية وانفعالاته النفسية وأحاسيسه الإنسانية ويلمس عصبا حساسا في باطنه من خلال هذا التصوير الحسي الخلاب والصور الجذابة المبهرة لنعيم الجنة، والصور المفزعة الصاعقة لعذاب النار.

يبرز القرآن «في هذا المجال الأخروي إبرازا مؤثرا، فلقد قصت فيه رواية الخلود بنبرة خاشعة رهيبة، في أسلوب فاق الذروة في بلاغته، وقد بثت في أنحائه صور ومشاهد تسكب الخشية في قلوب العباد مما لا يمكن معه إنسان - حتى في هذه الأيام- أن يصدف عن مشاهده الماثلة»(١).

ويرجع اهتمام القرآن بهذه القضية لاعتبارات لا حصر لها أهمها؛ أن هذه الحياة الدنيا تعد لا شيء بالنسبة لسرمدية الكون وحياة الخلود، وتعد لمحة البصر إذا قيست بالزمان الإلهي وديمومة الوجود، فهي مثل الجملة الاعتراضية في قصة طويلة، هذا أولا.

ثانيا: تعد اختباراً للبشرية لمدى طاعتها لأوامر ونواهي المشيئة الإلهية ، وامتحاناً دقيقاً لسلوكها وسيرها على الطريق المستقيم والنهج القويم، واستجابتها لهذه الأوامر وكبح جماح النفس عن الاستعلاء والغطرسة والقتل والدمار، والانصياع لواجب الوجود في تشريعاته وقوانينه التي سنها لها حتى تظفر بحياة الخلود، ثم يذهبون إلى الله يحاسبهم على أعمالهم حسابا دقيقا يغلب فيه الفضل على العدل.

ثالثا: كانت فكرة البعث عسيرة الفهم عند أغلبية الأمم السابقة، وغير قادرة على استيعاب مسألة عودة البشر إلى حياة ثانية بعد أن طوتهم طبقات الأرض وقيعان البحار والمحيطات، وبطون التماسيح والحيتان.

ومن المشهور في تاريخ الحضارة المصرية القديمة إيمانهم بالبعث، وتشييدهم التماثيل والمسلات لعودة روح الميت فيها، وكدوا أذانهم حتى اخترعوا فن التحنيط ليخدم فكرتهم أي الحفاظ على الجثث سليمة لكي تعود الروح إليها، ولا شك أن هذا الإيمان بالبعث هو نتيجة منطقية لمواكب الأنبياء الذين تدفقوا على أرض مصر ولإشعاعات تعاليم سيدنا

---

(١) الظاهرة القرآنية ص ٢٠٣

إبراهيم وأنوار دعوته التوحيدية، ومن بعده الأنبياء الذين هبطوا مصر ورفعوا راية الوحدانية وبشروا بها ودافعوا عنها؛مثل يوسف وأبواه وقبيلته، ثم موسى وصراعه مع فرعون مصر، ومن بعده السيد المسيح مع أمه مريم العذراء.

وإذا انتقلنا إلى تاريخ العرب علمنا أن بعض القبائل كانت تنكر البعث إنكارا تاما، ولا تستطيع أن تستوعب كيف بعد أن يصير الميت إلى أشلاء ممزقة وعظاما نخرة ويتحول إلى تراب تتغذى منه الأشجار والحيوانات يعاد ثانية.ويبعث إلى الوجود.

ومن الواضح من سياق الآيات القرآنية أن إنكار البعث كان مشاعا بين القبائل العربية والغالب عليها، ويبدو أن غلبة النزعة الحسية عليهم وإيمانهم بهذا العالم الحسي المدرك أمامهم بحواسهم، دفعهم إلى شدة الإنكار والتعجب عجبا شديداً من حديث القرآن، ليس هذا فحسب بل الاستهزاء به واستنكاره استنكارا مريعا، وهذا الموقف دفع كفار قريش لمجادلة الرسول جدالا عنيفا وتعجبوا من الأمر أيما تعجب واندهاش، حتى جاء الأخنس بن شريق بقطعة من العظام وظل ينثرها في الهواء ويقول للرسول ﷺ متعجبا ومندهشا: كيف يبعث هذه مرة أخرى وتستوي إلى إنسان كامل الخلقة سوي البنيان مكتمل الأعضاء؟.وقد عبر القرآن بحرية تامة ومنهج نقدي، عن هذه الحوارات، مع تقديم البراهين الساطعة لقضية البعث، في آيات عديدة ومنها قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٨٣].

- ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾

[الصافات: ١٦- ١٨].

- ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

[الواقعة: ٤٧، ٤٨]

وقد بذل الرسول ﷺ مجهودا مضاعفا لإقناع قومه، ولفت انتباههم لواقع البشرية وأقوال الرسل السابقين وحقيقة الحياة الدنيا التي تعد مرحلة انتقالية من حياة منقطعة إلى حياة دائمة مترعة بالنعيم المقيم سرمدية الوجود.

يقول أحد المستشرقين: «إن محمداً ليروح في صور انفعالية فخمة الأسلوب متناثرة يتحدث عن اليوم الذي تنشق فيه القبور ويلقي الإنسان المرتجف ربه لكي يحاسبه على ما قدمت يداه، إنه اليوم الذي يبلغ فيه العالم نهايته المحتومة وقد غلبه الفزع الأليم»[١]. ثم يستشهد بآيات من سور المرسلات والمعارج والنبأ.

على أننا نود أن ننبه أن هذا هو حديث القرآن والصور التي طرحها لإقناع من يريد أن يستقبل تعاليمه ويفكر فيها ويفقه معانيها ويتعظ بها، والرسول ﷺ هاد ونذير وبشير ومبلغ رسالته للعالمين، لكن منطلق المستشرق أن القرآن من تأليف سيدنا محمد.

في ضوء ذلك أكد القرآن على قضية البعث وأولاها اهتماما عظيما لأهميتها في حركة الحياة ومصير الإنسان ومسار الوجود. وسوف نرى وجهة نظر المستشرقين لها وناقشهم في أطروحاتهم.

أ - اقتباس فكرة البعث وموعد القيامة من اليهودية والمسيحية

١ - توماس كارليل (ت ١٨٨١)

الناظر في أطروحات هذا المؤرخ الذي يميل إلي تبني فلسفة وحدة الوجود، إذ يرى أن كل عناصر الطبيعة ومظاهر الكون ما هي إلا تجليات للوجود الإلهي وإشراقات من أنواره وعظمته وأن هذا العالم معجزة من معجزاته «وظل عَلقهُ اللهُ (أي وضعه) على صدر القضاء لا غير»، كذلك يؤمن بوحدة الأديان كأنها مستنسخة من بعضها وأنها تعبير عن حقيقة واحدة.

نقول المطالع لفكر هذا الفيلسوف يدرك أنه يميل إلى القول بأن رؤية محمد إلى القيامة وتصويره لها نبع من نفسه الشفافة، وإحساسه الباطني وتأملاته الذكية فيقول على لسان الرسول: «كان يقول هذه الجبال الشامخات ستتحلل وتذوب مثل السحاب وتفنى، والجبال أوتاد الأرض وأنها ستفنى كذلك يوم القيامة، وأن الأرض في ذلك اليوم العظيم تنصدع وتذهب في الفضاء هباء منثورا فتنعدم. وكان واضحا لعينيه سلطان الله على كل شيء»[٢].

---

(١) جرونباوم: حضارة الإسلام ص ١٠١، العبارة قلقة، أو الترجمة غير موفقة وربما تكون الكلمة (يروج صور انفعالية)

(٢) الأبطال ص ٧٦ .

الإشكالية أن هذا المؤرخ يؤمن برسالة الرسول ﷺ ولكن من منطلق أنه مصلح اجتماعي ورائد من رواد التاريخ الاجتماعي وبطل من أبطال التاريخ العظماء الذين غيروا مجراه لصالح البشرية ، أضف إلى ذلك يتصف بقوة التفكير وصفاء النفس وطهارة الخاطر وحسن انسجامه مع الكون، وبراعة المبادئ التي يطرحها، لكنه في الوقت نفسه ينكر أي بعد ميتافيزيقي في القضية التي نتكلم عنها.

ولذلك نحن لا نجبره على أن يؤمن بما نؤمن به، ونؤكد له أن ما ورد في القرآن بشأن نعيم الجنة وصورة النار فوق مخيلة أي كائن على سطح الأرض، وأعظم من طاقة أي مفكر كائنا من كان أو خيال أي شاعر ظهر في التاريخ أو سيظهر مستقبلا، وأن هذا ليس من تأملات محمد ولا من شوارد عقله ولا فيض خواطره؛ ولكن هذا وصف علام الغيوب الرحمن الرحيم، القادر المبدع.

٢- مزاعم فلوتن (ت ١٩٠٣)

هذا مستشرق هولندي تتلمذ على دي جويه، متواضع في إنتاجه، حقق كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي، وكتاب البخلاء للجاحظ، وشهرته عند الدارسين العرب ترجع إلى كتابه «السيادة العربية» الذي ترجمه الدكتور حسن إبراهيم، ومحمد زكي[١].

- في حديث فلوتن عن تنبؤات بعض الأفراد وتكهنهم بوقوع الحوادث في المستقبل، والتنبؤ بمصير العالم، أشار إلى أن هذه التنبؤات ترجع في الأصل إلى أصل يهودي أو مسيحي. ثم أضاف: «تنبؤ القرآن بمصير العالم مشهور (!!) وأظهر ما يكون هذا في تنبؤه بقرب الساعة (يوم الحساب) وقد عرف هذا النوع من التنبؤ عند المسيحيين قبل ظهور الإسلام»[٢].

- أولا: لا شأن لنا بتنبؤات اليهودية والمسيحية، وما يعنينا بالأساس هو سلك القرآن في عِقْد هؤلاء المتنبئين والكهنة ووضعه معهم في سياق واحد والمساواة بينهما، فهذه إهانة

---

(١) ترجمته في موسوعة المستشرقين ص ٤١٠

(٢) السيادة العربية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١١٦. وقريب من هذا الادعاء ذهبت الموسوعة البريطانية حيث تقول:كما أن أوصاف يوم القيامة والجنة هي موضوعات تتفق مع تعاليم الكنيسة السريانية المعاصرة.(نقلا عن فضل حسن عباس:قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ص ١٤٠)

لكتابنا المقدس لا نقبلها؛ فهؤلاء الكهنة اتخذوا الكهانة مهنة يسترزقون منها، ويستغلون عوام الناس وأشرافهم، ويدعون معرفة الماضي وحوادث المستقبل، ويستخدمون السجع والألفاظ الغامضة للتمويه على الناس، والعبارات التي تحتمل كل التأويلات؛أي القضية ونقيضها، وكلها تخمينات واجتهادات، وذلك بسبب انتشار الأمية وتفشي الجهل وغلبة الخرافات والاعتقادات الفاسدة على عقول الناس في تلك العصور(١).

أما القرآن فكتاب الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وحديثه عن الماضي جاء يقينيا وتصويرا لما وقع للأمم الماضية، وكذلك إشاراته المستقبلية ، يقول المولى عز وجل نافيا نفيا قاطعا هذه التخرصات منكرا هذا الهذيان ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨- ٤٣].

ثانيا: ما ورد في القرآن بشأن البعث ويوم القيامة لم يكن تنبؤا ولا تكهنا ولا رجما بالغيب، إنما كان تأكيدا للعلم الإلهي الشامل، وتقريرا للأمر الإلهي وإخبارا عن قيام الساعة ووقائع الحشر ووصفا لأهوال هذا اليوم، وقد ساق القرآن البراهين الحسية المستنبطة من واقع الناس ومن الواقع المعيش المدرك بالحواس، فقد لفت نظر الإنسان إلى الأرض الجافة الجرداء الهامدة، وحينما ينزل عليها المطر تهتز وتينع وتبوح بكنوزها، وكذلك البعث، فقاس الغائب على المشاهد.

وبالجملة يعد الإيمان بالبعث من ضمن عقائد المؤمن صادق الإيمان.

ثالثا وأخيرا: لم يحدد القرآن موعدا لقيام الساعة، ولكنه أشار إلى أن لها علامات وقد احتفظ الله سبحانه بموعدها، مع تنبيه المسلم أن حياته مرهونة بعمره القصير على ظهر الأرض؛ وهو عمر قصير بالقياس للزمان الإلهي، ومن ثم عليه أن يسارع في عمل الخيرات، ويجتهد في تحقيق كافة صنوف الطاعات، ولا يسوف في التوبة والإنابة إلى الله ويمني نفسه بطول الأجل لأنها أمنيات كاذبة وكم يخيب الظن بالمقبل، ولا شك أن هذا من تلبيس إبليس على حد قول ابن الجوزي (٥٧٩ هـ).

---

(١) جورجي زيدان:تاريخ آداب اللغة العربية، تحقيق شوقي ضيف، دار الهلال، ج١/ ١٨٧

٣- وجهة نظر جولتسيهر (١٩٢١)

- تقابلنا مرارا مع هذا المستشرق ولمسنا مدى تعصبه وهجومه المستمر على الإسلام، وتجريده من أي طرح جديد أو فكر طريف، ورد معظم تعاليمه إلى اليهودية، وهذا ما نراه بصدد قضية البعث، إذ يقول في هذا السياق: ما كان يبشر به (أي محمد) خاصا بالدار الآخرة ليس إلا مجموعة موارد استقاها من الخارج يقينا، وأقام عليها هذا التبشير. لقد أفاد من تاريخ العهد القديم وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء[1].

- نضيف إلى ما سبق أن عقيدة البعث ركن من الأركان الأساس في كافة الأديان، والقضية لا تحتاج إلى الاقتباس، وإذا قبلنا بالمقدمة الجوهرية بأن محمدا مبعوث من عند الله وتلقى الوحي من ربه مثل باقي الرسل السابقين، وكان من أركان عقيدته مثل باقي الديانات، الإيمان بالبعث، حل الإشكال الذي نتكلم عليه، ومن هنا لم يحتج الرسول أن يقتبس من اليهودية أو النصرانية لأن مصدرهم جميعا واحد؛ أي الله الواحد الأحد.

وهذا «جريمة (١٨٦٤-١٩٤٢) geremh المستشرق الألماني والرجل الذكي» يرفض هذه الادعاء ات العبثية والمزاعم الكاذبة والآراء المبتسرة فيقول: إن فكرة بعث الناس وحسابهم في الإسلام، ثم الانتهاء بهم إما إلى الجنة أو النار وخلود بعض الناس في النار «كل ذلك لا يمكن أن يكون مأخوذا من اليهودية، إذ لا شيء فيها يصف هذه الحياة الأخروية، كما أنه لا يمكن القول بعودة المسيح وحيا لهذا الوصف الضافي التفصيلي عن الحياة الآخرة»[2].

٤ - رؤية كازانوفا (ت ١٩٢٦)

يقول كازانوفا[3]: إن فكرة يوم القيامة التي بشر بها الرسول ﷺ وأكد عليها وشرحها مطولا، وسيطرت على وجدانه، استمدها من النصرانية.

- نعتقد أن هذه الفرية لا تحتاج إلى دحض، لأنها واضحة التهافت بذاتها، ولا تستحق

---

(١) العقيدة والشريعة ص ١٥

(٢) عبد الجليل شلبي: صور استشراقية، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٩٥، ومع إنصاف جريمة للرسول في كتابه «محمد» في بعض المواقف إلا أنه ينظر إليه كمصلح اجتماعي، أي أنه لم يتحرر كلية من إرث يوحنا الدمشقي ومن ناصره بعد ذلك. (يوهان فوك ص ٣٣٤).

(٣) العقيقي: المستشرقون ج١/٢١٩، ٢٢٠

الالتفات إليها، ومع هذا سنرد عليه.فأولا: إن آراء المستشرقين نابعة من إنكارهم نبوة الرسول، وأنه مجرد حكيم من الحكماء وزعيم سياسي طموح ليس غير، مدع للنبوة وقد كون ديانته من أمشاج مختلفة من الفلسفات السابقة والديانات السماوية وبلاغة الشعراء العرب، «وهذا غرور وصلف في حق الله» على حد تعبير د.بدوي، ومن ثم ينطلقون من أحكام ترسخت في أعماقهم وضمائرهم من الصعب زحزحتهم عنها زد على ذلك اجتثاثها، وإقناعهم بضعف حجتهم وخطل رأيهم لأنهم سدوا آذانهم وقفلوا عيونهم وأداروا ظهورهم لحقائق الحياة، وبديهيات الوجود ورسالات السماء.

ثانيا: من المعلوم أن جميع الديانات التي هبطت من السماء إلى الأرض بشرت بملكوت السموات وبقدوم يوم الدينونة، وقيام الناس للحساب يوم القيامة، لأن إنكار القيامة يفضي إلى التناقض في العقل الإنساني ويظهر عبث الحياة والوجود، وإذا لم يكن هناك بعث وحساب وعقاب، فما أتفه هذه الحياة، وما أضيع مصير الإنسان حينما يتساوى؛ الحق بالباطل والخير بالشر والطيب بالمسيء والعالم بالجاهل، وكما بشرت اليهودية[1] الصحيحة غير المحرفة والمسيحية بيوم القيامة، يقول المسيح: «لا تَدينوا لكي لا تُدانوا، لأنكم بالدّينونة التي بها تَدينون تُدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم»[2]، ولما كان مصدرهما من الله، كذلك بشر الإسلام بيوم القيامة، لأن المنبع واحد، فالقضية لا تحتاج إلى اقتباس أو استمداد أفكار من الآخرين، لاسيما والفكرة ذاتها راسخة في الوجدان الإنساني وفي تاريخ البشرية عبر العصور كما رأيناها عند الفراعنة واضحة جلية للعيان، وعند الأمم البدائية التي تعيش في الأحراش والغابات، والعرب قبل الإسلام.

ثالثا، أكد القرآن على قضية البعث تأكيداً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض، ودخل في حوار طويل عريض مع منكري البعث من العرب والدهرية، وجادلهم بالتي هي أحسن، وساق الأدلة الحسية المستمدة من ظواهر الواقع والتي تقع تحت بصر الإنسان وسمعه، وكذلك الحجج العقلية والوجدانية والشعورية سوقا متتابعا، وبرهن بالدليل القامع والحجة الدامغة وبداهة العقول، على يوم البعث وحتميته وحكمته.

---

(١) أشار موسى بن ميمون الفيلسوف اليهودي في دلالة الحائرين، بأن الإيمان بالبعث يعد من أصول العقيدة اليهودية.

(٢) إنجيل متى، الإصحاح السابع.

٥- افتراءات بروكلمان (ت ١٩٥٦)

هذا المستشرق الذي مر بنا كثيرا؛ ينضم إلى خلانه وأحبائه من المستشرقين الفتانين فينضح من بئرهم المالح، ويرد مواردهم الآسنة ويقتفي خطواتهم كأنه تلميذ خائب يكرر درسه اليومي دون أن يفهم معناه أو مفرداته، ويردد مقولاتهم ولا يخرج عن نهجهم.

ولما كان قد أسهب في العرض فيستحسن أن نلخص وجهة نظره في الأفكار الآتية.

- استمد محمد معتقداته عن العالم الآخر من مصادر يهودية.

- اعتقد محمد قرب القيامة، لكنه اضطر أن يتراجع عن ذلك وأغفل تحديد موعدها، لأن الله احتفظ بعلمها.

- أعلن محمد أن البعث يتم بنفخة هائلة أو نداء من الملائكة إيذانا بقيام الساعة.

- تتمثل مظاهر القيامة في زلزلة الأرض، وتطاير الجبال، وتفجر البحار، وتنتثر الكواكب... ثم يبدأ الحساب وينقسم الناس إلى ثلاثة أصناف أهل اليمين، وأصحاب الشمال والثالث المقربون، أما عن الجنة، التي تمثلها محمد وقد نشأ في منطقة تقع في واد يلفح الوجوه بحرارته المحرقة؛ففيها عين جارية وفاكهة متنوعة وسرر مرفوعة ونمارق مصفوفة.والحور العين اللواتي وهبهن الله شبابا سرمديا، ويسهب بروكلمان في وصف جنة عدن مقتبسا الصور كما وردت في آيات القرآن بالتفصيل، وكذلك جهنم ففيها عين آنية يشرب منها المجرمون من حميمها، ويشير إلى شجرة الزقوم والسلاسل والأغلال، ويشرف على عذابهم تسعة عشر من الملائكة وكذلك عذاب الروح المتمثل في اللعنات والتوسلات المطالبة بالتخفيف، وعقوبات الجحيم سرمدية كمباهج الجنة[1].

- يحمد لبروكلمان أنه اعتمد في وصفه المسهب لنعيم الجنة وأهوال النار على آيات القرآن، واقتبس منها الأوصاف الحسية كما وردت فيها.

على أنه من الواضح أنه ينطلق من التصور المسيطر عليه بإنكار نبوة محمد والنظر إليه كما قلنا مرارا أنه زعيم سياسي وقائد أمة، وبمهارته وسعة أفقه وضع كل هذه التشريعات

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٧١: ٧٣

والقوانين. أضف إلى ذلك أنه لم يفهم دقائق الأوامر الإلهية ، وأبعاد التشريعات الإسلامية ومغزى حديث الرسول ﷺ «بعثت والساعة كهاتين وأشار إلى السبابتين» ومعنى حديثه أن القيامة أقرب مما نتصور إذا قيست بالزمان الإلهي وليس بالزمان الآلي ، ويريد الرسول أن يحثنا على التجافي عن المعاصي والتوبة الدائمة إلى الله والإقبال بالكلية على الله والدعاء الدائم والتضرع إليه لأن الموت ممكن أن يحل بالإنسان في أي لحظة كما نراه في واقعنا الحياتي، وهذه قضية واضحة بذاتها لا تحتاج إلى دليل أو برهان، ولا داعي للتسويف وطول الأمل. وفي الوقت نفسه يحث المسلم على السعي والعمل والاجتهاد «إذا قامت القيامة ومعك فسيلة فاغرسها» وبناء المجتمع الإسلامي على أساس العدل والحق والسلام.

أما موعد القيامة فأمر متعلق بالعلم الإلهي وقد احتفظ الله به.وقد صور القرآن بداية مظاهر القيامة ووصف ذلك بإسهاب كما ورد في القرآن، والرسول ﷺ مبلغ فقط وليس منشئ لهذه المظاهر، وهذا الكلام ينطبق أيضا على ما ورد بشأن نعيم الجنة ولذاتها وأهوال النار وعذاباتها، ونتحدى أن يكون هذا الوصف الحسي الذي ورد عن الجنة ممكن أن يخطر على قلب بشر أو يلوح في أفقه، مهما كان أفقه رحبا حتى لو كان أشعر الشعراء، وقوله إن تصورات الرسول ﷺ عن النار وصف لبيئته الصحراوية، كلام ساقط أشد ما يكون السقوط، ويبدو أن بروكلمان طالع كتاب بودلي إذ يردد نفس كلامه.

ونؤكد وقد عشنا في الصحراء سنوات طويلة[١]، ليس هناك مقارنة بين حرارة الصحراء أو شمسها الحارقة ورمالها الساخنة ولفحاتها التي تلوح الوجه، ووصف أهوال النار وجحيمها ونارها الحارقة التي تشوي الوجوه والسلاسل التي ذرعها سبعون ذراعا والسرابيل التي من القطران، والأغلال التي تحيط بالأعناق والملائكة الذين يضربون المجرمين بمقامع من حديد وفي النار يسحبون ويسجرون.

لا نبالغ إذا قلنا إن كلام بروكلمان يدل على الجهل الشديد بأبعاد اللغة العربية ومضامينها

(١) حينما جندت في القوات المسلحة (٦٧: ١٩٧٣) كان معسكرنا في صحراء القصاصين وأبو صوير وصحراء الصالحية، ووصلة اليوغسلاف، وجبل مريم وتخوم الإسماعيلية وصحراء السويس، ومسحنا دروب الصحراء الشرقية كلها واجتزناها ليلا ونهارا ونمنا على أرضها وحصبائها وصخورها وافترشنا رمالها وحشائشها والتحفنا بسمائها ولاحظنا نجومها.ولا توجد أدنى علاقة بينها وبين وصف الله سبحانه للنار ولهيبها وعذابها.

الموحية وإشعاعات مفرداتها التي يتغير معناها تبعا للسياق، ويربط ربطا تعسفيا بين صحراء العرب، والنار التي ورد وصفها في القرآن. وهو ربط غير منطقي، ولا يوجد دليل من الواقع يسنده.أو يشد من أزره.

٦ – افتراءات هنري ماسيه (ت ١٩٦٩)

يقول ماسيه وهو يتحدث عن يوم الحساب:إن القرآن في أجزائه القديمة على الخصوص، ملئ بالتلميحات للساعة الأخيرة، وبالأوصاف الشائقة للحوادث التي تعقبها؛ولهذا كان على الناس أن يتوبوا دون تأخير.ومن الحق القول إن القيامة تبدو مطلقة أقل مما تظهر لأول وهلة، وكان العرب الوثنيون يعتقدون أن الأموات يواصلون في القبر نوعاً من الحياة الناقصة، وقد تبنى الإسلام هذا الاعتقاد، ومن هنا جاءت المحكمة التي يقوم بها الملكان بعد الموت، وهي محاكمة تجعل من القبر جحيما أو جنة تمهيدية، وفي القرآن تطبق المحاكمة الخيرة على أفراد وليس على جماعات، وهو تأثير مسيحي حسب رأي ولهوسن[1].

وسوف نوجز الرد في نقاط مركزة ومختصرة منعا للتكرار

١- ناقش القرآن قضية البعث مناقشة واسعة ووافية وشاملة في جميع آياته المكية والمدنية، وليست تلميحات، وركز عليه تركيزا واضحا، وأفرد الآيات المكية على وجه الخصوص للرد على منكري البعث من بعض العرب وغيرهم، الذين استبعدوا إمكانية البعث بعد موت الإنسان واندثار أعضائه وذوبانه في الأرض كما تذوب قطعة السكر في المحيط.ولم يقتبس فكرة البعث من العرب ولا من غيرهم، إذ إن عقيدة البعث موجودة عند معظم الأمم ويكفينا أن نعرف أن مصر الفرعونية كانت تؤمن بعقيدة البعث، وهي عقيدة موجودة في كافة الديانات السماوية، ثم إنها ركن جوهري من أركان العقيدة الإسلامية وأصل من أصول الدين عند المذاهب الإسلامية كافة.

٢- لم يحدد القرآن موعدا للقيامة، وإنما استأثر الله بعلمها، وطلب من المسلم التوبة في كل سكنه من سكناته وحركة من حركاته.

---

(١) الإسلام ص ١٤٤.

٣- نعم معنى حديث الرسول ﷺ «أن القبر إما أن يكون حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة»، وهذا أمر ليس فيه استحالة منطقية مادمنا نؤمن بالله القادر القاهر، ومعظم المذاهب تقرر عذاب القبر، وكون وجود نفر من علماء المسلمين ينكرون عذاب القبر، لا يهدم القضية برمتها، ولا ينفي وقوعه ولكنها مجرد اجتهادات وتأويلات وهذا حقهم، ولا يصادر الإسلام حرية الرأي وحق الاجتهاد ولا يحجر على رأي من الآراء، بيد أن هناك إجماع من العلماء على عذاب القبر..

٤- ذكرنا قبل ذلك أن المسؤولية في الإسلام مسؤولية فردية، وهذا أمر واضح ومعلوم لكل دارس للعقيدة الإسلامية، فكل إنسان عليه أن يتحمل تبعة عمله ليس هذا فحسب بل وما يترتب على هذا العمل من خير أو شر، حتى أن علماء المعتزلة ناقشوا ما سمي بالأفعال المتولدة، وكذلك الحساب.فمن يعمل مثقال ذرة خيرا أو شرا فهو محاسب عليه، وألمعنا إلى ذلك سابقا.

لا جرم أن نتعجب من مقولة فلهوزن؛ وهو باحث متعمق بالتاريخ الإسلامي ومحيط بأحداثه ووقائعه، لاسيما ومنذ ظهوره على الساحة الفكرية ترك انطباعا عميقا وراسخا على الأجيال الشابة[1]، وكلامه عن اقتباس الإسلام من المسيحية لا دليل عليه، ولا حجة قوية أو ضعيفة تعضد كلامه وعموما فهو وشأنه ولا يلزمنا بشيء وكلامه حجة على نفسه، وليس على الإسلام.

ب - رؤية المستشرقين لحقيقة الجنة والنار

١- رؤية توماس كارليل

يرى كارليل أن الوصف الحسي الذي ورد في القرآن عن جنة محمد وملذاتها، والنار وعذابها، واستنكار بعض المؤرخين غلبة النزعة المادية على هذا الوصف، إنما يرجع إلى الشراح والمفسرين «الذين لم يتركوا لذة حسية إلا ألحقوها بالجنة، ولا عذابا بدنيا وألما جسمانيا حتى أسندوه إلى النار، بدليل أن القرآن قلل من إسناد الحسيات والماديات إلى الجنة والنار وعد السلام والأمن من أعظم الملاذ قاطبة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا

---

(١) يوهان فوك ص ٢٣٥

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وكذلك حرر قلوبهم من الغل ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] الذي يعد من أخبث الرذائل، ولاشيء أفضل من التآلف والتصافي(١).

لا غرو أن نقول هذا تخليط واضح وخيال جامح وسباحة في عالم الروحانيات، وكلام بعيد عن حقائق القرآن ومبادئ الإسلام، والصورة الرائعة التي قدمها عن نعيم الجنة وملذاتها ، وهول النار ولهيبها تؤكد النعيم الحسي وكذلك العذاب.

أولا: أخطأ المؤلف خطأ فاحشاً حينما وصف الجنة بأنها «جنة محمد» لأنها جنة الله التي أعدها للمتقين، والرسول ﷺ هاد للبشرية ومبلغ عن رب العزة أوامره ونواهيه، وقد أشرنا سابقا أن كارليل ينظر إلى الرسول أنه «البطل المقدام والنبي الشاعر» وليس مبعوثا من العناية الإلهية للبشرية، بل هو رجل صادق طيب النفس لين الجانب جمع في شخصيته مكارم الأخلاق، أراد أن يقيم مجتمع العدل «والتسوية بين الناس وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأي».

ثانيا: إن من يتابع آيات القرآن التي تصور نعيم الجنة وما فيها من الظلال الوارفة والقطوف الدانية و أصناف الحور العين والملابس التي من سندس والأساور من الذهب، والأنهار الصافية والعيون السلسبيل والخمر التي لا تسكر، والولدان المخلدون وزينتهم المبهرة وغيرها من الوصف الحسي، يدرك أن هذا موصوف لذاته لتقريب صورة حية لعطاء ربنا للمؤمنين المتقين، وبالمقابل الوصف المرعب للنار وطبقات الجحيم وسرابيل الكفار التي هي من القطران، والسلسلة التي طولها سبعون ذراعا، والأهوال التي يعانيها المجرمون في طبقات النار وأن الله سيبعثهم عميانا خالدين فيها، يدرك أن هذا الوصف لم يكن عارضا ولكنه، مقصود لذاته لتحذير المنافقين ولردع القتلة الفجرة ، وأن القرآن أسهب في عرضه إسهابا تنخلع له القلوب، ويقض المضاجع ويسرق النوم من عيون البشرية، ويسلب السعادة منها طوال تاريخها.

موجز القول إن اتفاق جمهرة المستشرقين على أن صورة الجنة والنار كانت من بنات

---

(١) الأبطال ص ٨١

أفكار الرسول ﷺ وقد استمد أبعادها من البيئة المحيطة به أو اقتبسها من اليهودية والمسيحية، وتعصبهم لهذا الطرح، وإصرارهم على تداول هذه الأفكار لا يهز اعتقادنا الراسخ بأن هذا القرآن من عند الله، وأن الحق الدامغ أقوى من دعاوى المستشرقين، و«إن الخلاف العلمي يترجح بقوة الدليل لا بكثرة الإتباع»[١]. ومرور الأيام وتعاقب العصور هو الحكم في غربلة الأفكار فيمكث في الأرض ما ينفع الناس، ويستمر يمد الوجود بأنواره ويظل منبعا للفيوضات الإلهية، أما الأفكار الهزيلة والباطلة فتذوى كما تذوى الحشائش الضارة والأغصان المتسلقة، وتجف كما تجف المستنقعات الآسنة والمياه الراكدة[٢].

٢ - إدوار مونتيه (١٩٣٧)

- من الواضح أن جمهرة المستشرقين، لا يستسيغون الوصف الحسي للجنة وألوان النعيم التي عرضها القرآن، وكذلك النار، ويعتقدون أن هذا من خيال الرسول ﷺ الواسع؛ ومن هؤلاء السيد مونتيه، الذي لا يتطرق لمسألة المؤثرات اليهودية والمسيحية ولكن يناقشها من منطلق عدم التصديق بهذا الوصف الحسي، والحيرة والتردد في إيجاد إجابة شافية لها.ويبدأ حديثه بالإشارة إلى أن عقيدة الحشر حظيت بأعظم أهمية في القرآن، والنصوص التي أوردها عن يوم الحساب والجنة والنار، تجعله ينظر إليها بوصفها كتابة رمزية، ويعده تصويرا ماديا غليظا، سواء في ذلك الجحيم والماء الحميم الذي يتجرعه الأشقياء من جهة، أو أنهار الجنة وأشجارها من جهة أخرى.

وللانصاف ينقل من الآيات القرآنية المتعلقة بالجنة والنار ما يربو على صفحة كاملة، مع الإشارة إلى اسم السورة، ورقم الآية.

ثم يعود إلى حيرته وتساؤله المشروع كما فعل إيليا أبي ماضي (١٨٨٩- ١٩٥٧) في طلاسمه-، ويطرح أسئلته التي تحيره ولا يجد لها إجابة شافية من وجهة نظره؛ فيسأل: «أكان

(١) محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٢٣٠

(٢) لتوماس كارليل تشبيه حي وتصوير لطيف لصراع الحق والباطل والخير والشر يقول: عندما نأخذ حبوب القمح لتجعلها في باطن الأرض وهي مخلوطة بقشور وتبن وقمامة، فإذا ألقيتها مختلطة بكل هذه الشوائب فإنها لا تعطيك إلا قمحا خالصا نقيا كأنه سبائك الذهب، أما الشوائب والقذى فإنها تبتلعه في سكون وتدفنه في باطنها دون أن تذكر عنه شيئا (الأبطال ص ٧١).

محمد وهو يصور الجنة والنار هذا التصوير البارز يستولي على الخيال، يعتقد في حسية هذه الأوصاف؟

أهذه اللغة المجازية التي يبدو أنها تعبر عن مثل هذه الأفكار الغليظة الشهوانية يمكن ألا تكون، على العكس، سوى ترجمة لمفهوم أنقى وأسمى في أسلوب شعبي يناسب عقول الدهماء؟.إن من المستحيل الإجابة على هذا السؤال.!![1]

قد نجد لمونتيه العذر في حيرته وأسئلته، ونتعاطف معه كإنسان يبحث في قضية تقض مضجعه وتسرق النوم من عينيه، وترهق أعصاب الإنسان المفكر المتأمل في هذا المصير الرائع لأهل الجنان، والمروع لأصحاب النار.

لكننا لا نتعاطف معه حينما ينسب هذا التصوير لخيال الرسول ﷺ الخصب وقلمه السيال وبلاغته الموحية، فهذا كذب محض، وقد أشرنا إلى أن هذه الصور التي قدمها لنا القرآن لا يقدر عليها بشر ولا تخطر على بال أي إنسان، مهما أوتي من سعة الخيال وقوة التصوير.فهذا وصف إلهي لنعيم المؤمنين وعذاب الظالمين القتلة الفجرة. هذا أولا.

ثانيا: لا يمكن لكائن من كان يستطيع أن يقول هذا الوصف مجرد «كناية رمزية» وأن هذه الصور للترهيب والتخويف لأن الآيات ناطقة بأن هذا النعيم والعذاب شيء مادي واقع لا محالة، ومن المستحيل أن تؤول الآيات على محمل المجاز؟ لأن كثرة الآيات في نعيم الجنة تعاضد بعضها وتؤكد هذا النعيم الحسي من حدائق وانهار وحور عين وقصور وفرش وإستبرق وأساور من ذ هب، فلا مجال للهروب من هذا الواقع المقبل، وكذلك وصف النار المروع والمفزع لديمومة النار.

ثالثا: أخطأ خطأ جسيما في حق العرب حينما وصف عقليتهم «بعقلية الدهماء»، لأنهم كانوا أهل الشجاعة والبلاغة والفتوة والكرم والنخوة، وكانت عقلية أي عربي تزن عقلية مونتيه وألف واحد مثله، وأمثالهم وحكمهم وأقوالهم وأشعارهم التي حفلت بها الدواوين هي التي عكف زملاءه من المستشرقين وسهروا على قراءتها وتحقيقها ونشرها والاستمتاع بقراءتها وإعجابهم بأفكارها ومفرداتها وصورها البلاغية والخيالية، هي نتاج لهذه العقلية

---

(١) من المقدمة التي كتبها لترجمة القرآن .(نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ١٢٦: ١٢٩)

الفذة التي وصفها هذا الوصف المتوحش.وإذا لم تكن تستحق ما بذلوا فيها هذا الجهد الجاهد، ما أضاعوا فيها أوقاتهم الثمينة.

٣- رؤية بودلي (ت ١٩٧٠):

يصف بودلي جنة المسلمين كما انطبعت في ذهنه من خلال قراءاته وفهمه لآيات القرآن وإيمانه بأن هذا كله من تصورات الرسول ﷺ فيقول:وَعَد محمد أتباعه بالجنة وفي مقدمة متعها تعدد الزوجات وهو أمر غامض، وكذلك تعد الجنة مكان الراحة النهائية، يجد فيها المسلم ما لم يجده على الأرض؛ أنهارا وبحيرات وأشجارا وسندسا وإستبرق، وخمرا لا تسكر، لا يتغوطون ولا يتبولون، ليس فيها تعب ولا ظمأ، وكل واحد له اثنتان وسبعون حورية قاصرات الطرف، لأن العرب ألفوا تعدد الزوجات فكان من المتعذر أن يتصور نعيما لا تعدد فيه، ومن هنا نرى أن الإسلام لم يحرم النساء من دخول الجنة، ولاشك أن محمدا رجل مجامل في مخاطبته النساء، فقد سألته عجوز كيف ستدخل الجنة فقال: لا يدخل الجنة عجوز، فذعرت المرأة فقال لها: إن الله يقول:﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ [الواقعة: ٣٥].

ويذكر أيضا أن في الفردوس جنتان: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾

[الرحمن: ٥٠- ٥٦]

ولما كان محمد محباً للحيوان، لذلك قرر أنه سيبعث يوم القيامة، وترجع هذه الفكرة إلى ما قبل الإسلام.حينما كان العربي يربط ناقته بجوار القبر، حيث يصحب الجمل صاحبه يوم النشور. لقد توفرت لمحمد الخبرة الدنيوية؛ إذ أحب وتعذب وكانت حياته كفاحا فتطلع إلى تعويض إلهي، ومكان سماوي للراحة هو ورفقاؤه.

كذلك أنذر محمد مخالفيه، بالجحيم، وقد استمد صورتها من متاعب الصحراء وأهوالها، فيقول: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [النبأ: ٢١- ٢٤].

ويقول: ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٨].

وعذاب جهنم عند المسلمين ليس نهائيا، ولكنه مثل المستشفى حيث يتلقى فيها المرضى العلاج، وإذا ما برئوا دخلوا الجنة، وهذا عكس جهنم عند اليهود والمسيحيين.

خلاصة القول؛ إن الجنة عند محمد هي تجسيم للنعيم الذي رآه خارج بلاد العرب، مع استعارة بعض أفكار الأب سان إفرام في القرن الرابع، أما الجحيم فهي تجسيم مشاق الصحراء المحرقة القاحلة الماحلة التي تحيط بمكة، وصورة الجنة والنار عند محمد مشابهة للصورة التي تصورها موسى وعيسى لأنهما كانا من نفس هذه البلاد القاحلة الماحلة. (١)

- من يقرأ هذا الكلام الهزلي يدرك أن إقامة بودلي في مصر أثرت في روحه تأثيراً ملحوظاً، وأنه كان يرتاد المقاهي الشعبية، لذلك أصبح يميل إلى تقليد نكات أولاد البلد فيما يطرحونه من قضايا مهمة وأحاديث جادة فيعالجونها بخفة دم ورواقة بال، وإطلاق نكتة من هنا وظرف ولطف من هناك تزجية لوقت الفراغ وتفريجا لهمومهم وهروبا من عذابات واقعهم الأليم، ومن الواضح أن مجمل كلامه يشبه «تخيلات وتهويمات» حميدة «في زقاق المدق»، و نكت «المعلم كرشه» في قصة خان الخليلي.

- ومع هذا نستطيع أن نجمل الرد على هذا الرحالة صاحب الخيال الخصب والعقل الذكي والروح المسلية والتشبيهات الطريفة والتفسيرات المضحكة، في الآتي:

أ- الإشكالية عند بودلي وأصحابه أنهم ينطلقون من اعتقاد راسخ بإنكار رسالة الرسول، أو أي اتصال بينه وبين السماء، ويرى أن المسيحية هي خاتم الديانات، لذلك يؤمن

---

(١) الإسلام، حياة محمد ص ١١٦: ١١٩، القديس إفرام (٣٠٨. ٣٧٣) لاهوتي سورياني، حجة في الشؤون الدينية، علم في نصيبين والرها، فسر الكتاب المقدس، وألف أناشيد عديدة، هدى سورية بمزاميره المملوءة بالعقيدة.(الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٩ ج/١، مادة إفرام)

أنه ضمن عباقرة العالم ومصلح اجتماعي أراد أن يبني مجتمع القيم والأخلاق ويشيد عالما من المثالية النابعة من صفاته النقية وتجارب حياته ومن المحيط الاجتماعي الذي عاش فيه.

لذلك من الصعب أن تقنع إنساناً عاش بين المسلمين عشر سنوات دون أن يعرف أدنى معلومة عن الإسلام كما صرح بذلك. أضف إلى ذلك أنه أطر عقله على هذا النحو وليس عنده استعداد أن يقرأ سطور القضية قراءة محايدة وموضوعية، ويفهم أن صور الجنة التي عرضها الرسول ﷺ في قرآنه ليست أمنيات يحلم بها كي يعوض الحرمان والبؤس الذي عاش فيه وقومه وعوضهم بهذه الصور الخلابة، ولكن هذا وعد من الله لعباده المتقين المخلصين الذين ينفذون أوامره ويتبعون نهجه المستقيم.

وبشارة القرآن بالحور العين للمؤمنين يعد من ألوان النعيم ومتع الجنة والجمع بين الرجل وأحبائه من نساء الدنيا و ليس لأن العرب يحبون تعدد الزوجات.

ويعد الإيمان بالبعث ضمن المعتقدات التي كان يؤمن بها بعض القبائل إذ كانت تربط الناقة بجوار قبر الميت حتى يبعث راكباً. وليست المسألة أن الرسول ﷺ اقتبس ذلك من البيئة التي يعيش فيها، كذلك قرر القرآن حشر الحيوانات تعبيراً عن القدرة الإلهية المطلقة، وتطبيقا لمبدأ الجزاء والقصاص وتحقيقا للعدالة المطلقة التي افتقدتها البشرية إبان مسيرتها الطويلة على الأرض[1].

ب- ليس معنى أن صورة الجنة التي عرضها الرسول ﷺ تشبه ما تحدث عنه قسيس في المسيحية فهذا أمر لا يعنينا، لأننا نؤمن بأن مصدر الديانات من عند الله والإيمان بالبعث ورد في كل الديانات، ثم إننا نتحدى أن يكون هذا الوصف الإلهي لنعيم الجنة وعذاب النار قد ورد عند إفرام أو غيره. أضف إلى ذلك تقرر المسيحية بأن طبيعة السعادة الأخروية هي حالة نفسية مرجعها طهارة القلب وصفاء النفس أي أنها سعادة روحانية مبرأة من المادة واللذة

(١) يقول بودلي: دعا محمد إلى الرفق بالحيوان، لكنه لم يحب الكلاب، ولم ينكر مكانها في الجنة مع الحيوانات الأخرى، (حياة محمد ص ٢٩٥) لا شك أن هذا تخليط من بودلي، وحديث الرسول عن المرأة التي غفر الله لها لأنها سقت الكلب الذي كان يلهث من العطش، لا يعني أنه بَشر بحشر الكلاب، ولكن القرآن هو الذي أشار إلى حشر الحيوانات دون أن يشير إلى أصنافها.

الحسية.يقول بولس: «خلق الجسد من مادة تزول، وسيبعث على كيفية لا تقبل الانحلال، لأنه خلق جسداً حيوانيا وسيبعث جسداً روحانيا»(١).

ج - لا شك أننا نستنكر أقوال بودلي استنكارا شديدا إذ ليس بين الوصف الحسي الذي ورد في القرآن عن الجنة و النار أي علاقة بين البيئة الصحراوية التي عاش فيها الرسول، وهذا الوصف الدقيق للجنة ووصف الحور العين الأبكار وألوان الولدان المخلدين مثل اللؤلؤ المكنون، و الأنهار المترعة بالعسل المصفى والخمر التي لا تسكر، والقوارير التي من فضة، وأشكال الملابس التي من سندس خضر وإستبرق، وأساور من الفضة، والأشجار والأطيار والفواكه وعرض صورها الجميلة والرائعة، وتنوع متعها الحسية والمعنوية، نقول هذا الوصف لا يستطيع أي خيال بشري أن يدركه أو يصوره أو يخطر على باله، وكذلك صور النار المخيفة وأصناف العذاب المروعة وألوانه المفزعة لا يخطر على بال أي إنسان، ولم ترد في خياله، ولم نقرأ هذا الوصف الحسي في أشعار العرب ولا في مسامراتهم ولا أمثالهم ولا في كتبهم ولا في كتب الأقدمين أو المحدثين. ثم إن القرآن إذا كان أشار إلى عذاب جهنم التي تشوي الوجوه فقد ذكر أيضا ألوانا أخرى من العذاب منها المطر الغزير المدمر الذي يهلك الحرث والنسل ويدمر العباد والبلاد ، والبرد القارص والزمهرير القاتل والريح العاتية التي تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر(٢).

موجز القول إن القرآن هو الذي تفرد بهذا العرض المؤثر والمرعب للنار الذي تنخلع له القلوب والأفئدة، وكذلك السرد الحسي للجنة الذي تهفو إليه النفوس، وتحلم به القلوب وتشتاق إليه الأرواح النقية الطاهرة.، ولا جرم أن نقول:إن نور الحقيقة وبرهان العقل يكفي لإزالة الأوهام ويكنس الأكاذيب ويمحو معالم الباطل(٣).

---

(١) الإسلام خواطر وسوانح ص ١٠٠.

(٢) عماد الدين خليل : من النافذة الإسلامية، دار السلام، القاهرة، ٢٠١٤، ص ١٨٨. ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل: ٥٨] ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠] و﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦]

(٣) قدمت نقدا واسعا لتصور بودلي عن البعث في كتابي المستشرقون وعلم الكلام ص ٣٧٧: ٣٨١.

من الجدير بالتنويه، أن بعض المستشرقين لم يستوعبوا قضية النعيم الحسي وكذلك صور العذاب، وذهبوا إلى بعض التأويلات المخالفة للحقيقة الثابتة والتي أقرتها النصوص القرآنية بما لا يدع أي مجال للتأويل أو الشك فيها، منهم السيد هنري دي كاستري الذي نقل آيات مطولة من سور الرحمن، والواقعة، والنبأ؛ وهي تصف النعيم الحسي الأخروي بما فيها من ألوان اللذات، ثم عقب عليها بقوله: «تلك إشارات واستعارات ليس الأمر المادي فيها إلا رمزا للعشق الروحاني، وهو ضرب من ضروب الكتابة والقول - معهود عند الأمم الشرقية - وفي الزبور شيء كثير من ذلك»[1].

وغني عن البيان أن هذا الطرح غير صحيح بالمرة، وليس له رصيد في الواقع، فنعيم الجنة وعذاب النار مادي وروحي معا، ولا يمكن تأويل الوصف الحسي للجنة والنار، على أنه روحي ونفسي، فهذا يتعارض تماما مع حقيقة اللغة العربية ودلالة مفرداتها، ورمزيتها إلى واقع الناس المادي والروحي، وما ورد في الآيات المقدسة عن الحور العين وملابس أهل الجنة وسرابيل أهل النار، وأنهار اللبن والعسل ووصف للقصور، والمهاد في الجحيم والماء الحميم الغساق، كل هذا لا يمكن أن يكون مجرد إشارات ورموز. هذه نقطة.

الثانية: يحمد له أنه عاد يدافع عن المسلمين في وجه اتهام المستشرقين لهم بأنهم لا يعرفون من السعادة إلا ما كان ماديا شهوانيا، ويثبت الآيات التي تؤكد قضية رؤية الله ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠] ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٢] فتكتمل سعادة المسلمين ويتم بذلك نعيمهم[2].

على أن إميل درمنجم كان أكثر توفيقا في رؤيته لهذه القضية فقد ذكر أنه لا يوجد في

---

(١) الإسلام خواطر وسوانح ص ١٠٣

(٢) من المعلوم أن قضية رؤية الله تعد ضمن القضايا الخلافية بين الفرق الإسلامية ففي حين ينفي الشيعة والمعتزلة والإباضية والفلاسفة، يؤكدها أهل السلف والأشاعرة والصوفية وينظرون إليها أنها أعلى أنواع النعيم كما ذهب إلى ذلك ابن القيم.

الإسلام من يعتقد بكون هذه الأوصاف إنما «هي إشارات ورموز، وكذلك لا يؤخذ منه أن جميع ملاذ الآخرة هي حسية فقد جاء في القرآن ما يفيد أن أفضل النعيم هو مغفرة الله لآثام البشر ثم سلام الله وصلواته على المتقين والوجود في الحضرة الإلهية»(١).

فجمع بين الوصف الروحي والحسي، لاسيما في قوله «جميع ملاذ الآخرة» أي أن هذه الملاذ حسية مادية، ومنها ملاذ روحية المتمثلة في مغفرة الله لعباده ورؤيتهم له في الآخرة ضمن العطاء الروحي والنعيم النفسي.

ونؤكد حقيقة التصور الإسلامي بأن نعيم الجنة حسي بهذا العرض المبهر والوصف الدقيق عند شهيد الإسلام يقول تفسيرا لقوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾..

فإذا كانت جهنم هناك مرصدا ومآبا للطاغين، لا يفلتون منها ولا يتجاوزونها، فإن المتقين ينتهون إلى مفازة ومنجاة، تتمثل «حَدائِقَ وَأَعْناباً» ويخص الأعناب بالذكر والتعيين لأنها مما يعرفه المخاطبون.. «وَكَواعِبَ» وهن الفتيات الناهدات اللواتي استدار ثديهن «أَتْراباً» متوافيات السن والجمال. «وَكَأْساً دِهاقاً» مترعة بالشراب.وهي مناعم ظاهرها حسي، لتقريبها للتصور البشري.

أما حقيقة مذاقها والمتاع بها فلا يدركها أهل الأرض وهم مقيدون بمدارك الأرض وتصوراتها.. وإلى جوارها حالة يتذوقها الضمير ويدركها الشعور: «لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً».. فهي حياة مصونة من اللغو ومن التكذيب الذي يصاحبه الجدل فالحقيقة مكشوفة لا مجال فيها لجدل ولا تكذيب كما أنه لا مجال للغو الذي لا خير فيه.. وهي حالة من الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود..(٢).

***

---

(١) حياة محمد (نقلا عن حاضر العالم الإسلامي ص ٦١)

(٢) الظلال تفسير سورة النبأ.



الفصل الرابع

هجـــــرة الرســـــول ﷺ

تمهيد:

بعد أن اشتد إيذاء جبابرة قريش بالمسلمين، وفاق عنتهم كل تصور، وعذبوا أنصاره مثل عمار وبلال وخباب بن الأرت، وحاصروا الدعوة حصارا محكماً، أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، لأسباب مفهومة أولا: أنه اعتقد أن النجاشي ملك الحبشة من أهل الكتاب، وقد تشبع بتسامح النصرانية وروحانيتها، وأن هذا الوسط مشبع بدرجة من الإيمان بعيدا عن وثنية قريش وجبروتها وجاهليتها.

ثانيا: تعد الحبشة بعيدة إلى حد ما عن يد قريش الطويلة فلا تستطيع أن تنال منهم بطريقة مباشرة. ثم جرت الأحداث بما يخدم الدعوة الإسلامية حينما قابل الرسول وفدا من الأوس والخزرج قبلوا دعوة الرسول ﷺ، بسبب الأخبار التي تواردت إليهم من اليهود الذين كانوا يبشرونهم بمقدم رسول من العرب ، فكانت عقولهم مهيأة وقلوبهم مستعدة لقبول رسالة الإسلام، وانتهى الأمر ببيعة العقبة وهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

ويجمع المؤرخون أن هجرة الرسول ﷺ كانت حدثا كونيا وتحولا شاملا ناجحا في مسار الدعوة، أفضت إلى تأسيس أركان دولة قوية لها كل مقوماتها الفتية، وبداية ناجحة لانتصاراتها المستقبلية، وانطلاق الإسلام خارج إطار الجزيرة العربية وما وراءها.

ومن خلال إقامة الرسول بالمدينة جرت أحداث عظيمة لعل أهمها أنه وحد بين قبيلتي الأوس والخزرج، وبينهم وبين المهاجرين في وحدة عضوية قوية، وأسس لمسجده الذي أصبح مؤسسة سياسية وعسكرية ودعوية وتربوية وتعليمية ومنارة للهداية ونواة لتأسيس دولة قوية، وانطلاقة إلى آفاق المستقبل. ناهيك عن وثيقة المدينة التي وضعت أسس التعامل بينه وبين أهل المدينة واليهود.

نعم كان المعنى الجوهري للهجرة أن يخلق المسلمون مجتمعا متحابا متآخيا، قوي الوشائج، وقد جعل محمد لكل مكي «أخا» من الأنصار ليتجاوز المسلمون خطوط القرابة التقليدية[١]. النابعة من رابطة الدم إلى الانصهار الروحي.

موجز القول أنه؛ صهر العرب في فريق واحد لا يهزم وهذه تعد إحدى معجزاته الكبرى على حد تعبير بودلي[٢].

وسوف نتوقف حتى نرى انعكاس ذلك في كتابات المستشرقين، وموقفهم من أغلبية الوقائع التي شهدتها المدينة[٣].

يقول «جوزيف هل» المستشرق الألماني عن موقف الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة: اختتم الرسول ﷺ بعد انتقاله إلى يثرب مرحلة أظهر فيها مثالية تامة في الدعوة إلى دين الحق، وشجاعة نادرة في الدفاع عن معتقداته إزاء سخرية قريش. ثم إنه حقق وهو في مكة بعض التشريعات الاجتماعية، التي استعان فيها بالعقيدة القائلة بوحدانية الله ويوم الحساب وما اقترن بها من الوعد بالجنة والوعيد بالنار[٤].

ويقول مراد هوفمان المفكر الموسوعي والمسلم التقي: إذا تحررنا من تأثير النزعة إلى الحكم على المسائل باعتبارها معجزات، فسوف يظهر لنا محمد كشخصية سياسية محنكة تتمتع بكارزيما طاغية (جاذبية وحضور قوي)، وقوة إرادة، ومهارة تكتيكية، وقد أثبت خلال الفترة الواقعة ما بين هجرته إلى المدينة، وفتحه السلمي لمكة، أنه عسكري، حيث استطاع أن يطبق بذكاء قواعد الحرب الاقتصادية والنفسية. على أن الكاتب يرى أن هذه الانتصارات مؤيدة من الله وقدرته المطلقة حيث يقول: «هناك شيء إلهي في هذا الأمر»[٥].

---

(١) كارين: محمد نبي لزماننا ص ١٠٧. (٢) حياة محمد ص ١٧٣.

(٣) من الجدير بالإشارة أن الرحالة بودلي أفرد فصلا كاملا لسرد أحداث الهجرة النبوية وتتبع تفاصيلها، والتزم فيها الصدق في الرواية مع بعض الإضافات من خلال تصوير بعض الانفعالات عند مشركي مكة وأحوال الرسول وصورة المدينة التي شبهها بأنها حديقة غناء والاحتفالية التي قام بها أهل المدينة في استقبالهم الرسول، والمبالغة في الوصف.(حياة محمد ص ١٤٢: ١٥٨)

(٤) الحضارة العربية ص ٣٨.ومن المهم بمكان أن نتحفظ على صياغة العبارة لأن الرسول مبلغ الرسالة عن الله، إن هو إلا وحي يوحى.

(٥) يوميات مسلم ص ١٣٠: ١٣١

أولا: زواج الرسول ﷺ من عائشة (ت ٥٧ هـ) والفارق الزمني بينهما

خطب الرسول ﷺ عائشة بنت أبي بكر بنت أحب الناس إليه، وأول من آمن به وصدقه، ورافقه في أخطر رحلة وهي الهجرة من مكة إلى المدينة والتي قررت مصير الإسلام، وقال عنه الرسول ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام». وكانت عائشة يومئذ بنت ست سنين أو سبع والرسول بلغ الثالثة والخمسين.، وتزوجها وعمرها تسع سنوات.

هذا الفارق الزمني يزعج كثيرا من المستشرقين، ويقلق مضجعهم ويؤرق ليلهم فيذهبون كل مذهب، للتعريض بالرسول كيف يتزوج هذا الكهل هذه الصبية الصغيرة والطفلة العذراء، ويستنكرون الأمر استنكارا بشعا، كأن الرسول ﷺ هو الذي قتل الملايين من أهل أفريقية السوداء وشحنهم في السفن إلى أمريكا، أو أنه ألقى القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكي.

- علينا أن نرد على هؤلاء المستشرقين بالحكمة والموعظة الحسنة كما علمنا ديننا، ونجادلهم بالتي هي أحسن ، و نرد عليهم بالحجة العقلية المقنعة.

١- مازلت أتشكك في رواية المؤرخين التي ساقوها عن هذا الفارق الزمني، وأعتقد أنهم قصدوا أن يظهروا شخصية الرسول زاهدا عابدا متبتلا، منصرفا عن مسألة الرغبة الجنسية أو الانشغال بهذه الزيجات وكان كل وقته مصروفا في خدمة الدعوة والنضال من أجل نشر الإسلام، كما قصدوا أيضا في الفارق الزمني بينه وبين خديجة، أنها كانت كبيرة في السن فقدت حسنها وجمالها وفترت رغبتها، في حين أنه كان في شرخ الشباب وفتوة العطاء، وقمة الرغبة الجنسية.هذه نقطة.

والثانية: وجه اعتراضي ليس موجها للفارق الزمني بين عائشة والرسول ﷺ، لأن هذا أمر مشاهد حتى في حياتنا اليومية؛ ولكن وجه اعتراضنا موجه لسن عائشة، لأن المتفحص في الرواية لا يستطيع أن يصدقها لأنها ببساطة لم تنضج من الناحية الفسيولوجية، ولم يكتمل نموها من الناحية الجسمية حتى تعاشر رجلا معاشرة الأزواج، ومن المؤكد أنها غير مهيأة من الناحية النفسية (السيكولوجية)، وليس لديها معلومات عن علاقة الرجل بالمرأة أو

القيام بأعباء بيت كبير هو بيت النبوة بعد حياة الرسول ﷺ مع السيدة خديجة المرأة المحنكة المجربة التي خبرت شؤون الحياة الأسرية وتقلباتها ومشكلاتها.

والثالثة: لا توجد لدينا وثيقة أو مخطوطة تؤكد رواية المؤرخين عن عمر عائشة، وكانت مسألة تحديد العمر تعد مسألة تقديرية نسبية من الشيوخ كبار السن، أو يربطون ميلاد الطفل بحدث مهم ومؤثر كما ذكروا أن ميلاد الرسول وقع في عام الفيل، وظل هذا الأمر معمولا به في معظم الدول حتى الخمسينات من القرن الماضي (مصر أنموذجا)، حينما يذهب الأهل بابنهم إلى الطبيب كي يقدر عمره ويطلق علي هذا السلوك «عملية التسنين».

وأعتقد أن السيدة عائشة ربما تكون قد تجاوزت الخامسة عشر ربيعا أو أكثر حتى تصبح الرواية مقبولة من الناحية العقلية والواقعية(١).

٢- إذا نظرنا للمحيط الاجتماعي الذي عاش فيه الرسول ﷺ، والعادات الاجتماعية السائدة، سنلاحظ أن الفارق الزمني لم يكن له الاعتبار الذي يراه بعض المستشرقين، ولم يشكل عقبة أمام عمر بن الخطاب أن يتزوج من بنت علي بن أبي طالب وبينهما فارق زمني هائل، وأن يعرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر وهو في عمر أبيها، ومن يستعرض زيجات الصحابة فسنجد مسألة الفارق الزمني، لا تشكل عقبة في زواج رجل كهل من فتاة صغيرة. وهذا أمر أدركناه في محيطنا الاجتماعي في الثلاثينات والأربعينات والخمسينات في مصر، وقد تناول الروائيون هذه الظاهرة وعالجوها في قصصهم، ومازلنا نشاهدها في بيئتنا العربية لا سيما في شبه الجزيرة العربية، وفي بعض محافظات مصر وبخاصة التي تعيش على أطراف الصحراء في سيناء و محافظة مطروح(٢).

---

(١) يقول العقاد: الأرجح أن السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها إلى النبي عن الثانية عشرة، ولا تتجاوز الخامسة عشرة بكثير.(الصديقة بنت الصديق، سلسة اقرأ، دار المعارف بمصر، ص ٦١) ، وفي قصص نجيب محفوظ عرض لتفاوت السن بين الرجل والفتاة وقد عبر عن هذه الظاهرة في أكثر من قصة، خان الخليلي، والطريق.

(٢) يقول ابن هشام: تزوج رسول الله عائشة بنت أبي بكر الصديق بمكة وهي بنت سبع سنين وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين أو عشر ولم يتزوج رسول الله بكراً غيرها زوجه إياها أبوها أبو بكر وأصدقها رسول الله أربعمائة درهم. (سيرة ابن هشام، تحقيق عبد السلام هارون، الرسالة، بيروت، ١٩٨٥ ص ٣٣٢)، يقول عبد السلام هارون عن=

٣ - يجب علينا ألا نسقط مفاهيمنا المعاصرة، وعادتنا الاجتماعية وتقاليد بيئتنا على مجتمع مر عليه أكثر من ألف عام، ونحاكمه بمقاييسنا وثقافتنا التي هي نتاج لزماننا وبيئتنا التي نعيش فيها، وجملة العادات والتقاليد هي نتاج للبيئة وانعكاس لتطور المجتمعات والمعاملات التي تقوم بين أفراده.

٤- يؤكد علماء الاجتماع وعلماء النفس أن الفتاة في المناطق الحارة تصل إلى مرحلة البلوغ أسرع من زميلتها التي تعيش في المناطق الباردة[١].

٥ - نستشهد بوجهة نظر بودلي الرحالة صاحب الآراء الطريفة، والحكايات الظريفة وقد حشى كتابه بالغرائب عن العرب بعضه كان مجحفا في حقهم ، وفي مشاهدات أخرى كان منصفا إلى حد ما، ولما كان الرجل مكث في أرضهم سنوات ، وعايش عاداتهم لذلك لم يستنكر هذا السلوك وراح يدافع عن زواج الرسول ﷺ من عائشة يقول: «كانت عائشة على صغر سنها نامية هذا النمو السريع الذي تنموه نساء العرب، والذي يسبب لهن الهرم في أواخر السنين التي تعقب العشرين... ثم يواصل حديثه: هذا الزواج شغل بعض المؤرخين لمحمد إذ نظروا إليه من وجهة نظر المجتمع العصري الذي يعيشون فيه فلم يقدروا أن زواجا مثل ذاك، كان ولا يزال عادة آسيوية، ولم يفكروا في أن هذه العادة لا زالت قائمة في شرق أوربا، وكانت طبيعية في أسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة، وأنها ليست غير عادية اليوم، في بعض المناطق الجبلية البعيدة في الولايات المتحدة، وبغض النظر عن العادة فإنهم لم ينظروا نظرة اعتبار إلى ظروف هذه الحالة الخاصة»[٢].

وتعتقد كارين أن خطبة محمد لعائشة لم تكن أمراً عجيبا، حيث عقدت زيجات لفتيات أصغر من عائشة لتوثيق تحالفات أو لغير ذلك. وقد استمرت هذه الممارسات في أوربا إلى ما

منهج ابن هشام: تناول سيرة ابن إسحاق بكثير من التحرير، والاختصار والإضافة والنقد أحيانا، والمعارضة= بروايات أخر لغيره من العلماء،... وكان ملتزما جانب الأمانة والحرص في رواية كتاب ابن إسحاق. (من المقدمة ص ١٠) وأيضا: بنت الشاطئ: نساء النبي ص ٧٥ .

(١) يؤكد الأطباء أن الدورة الشهرية تبدأ عند الفتاة بين ١١ إلى ١٤ عاما.

(٢) الرسول ص ١٢٩ .

بعد بداية العصر الحديث، ولم يكن هناك شك أن إكمال الزواج لم يتم إلا عندما تخطت عائشة سن البلوغ(١).

ثانيا: قصة زينب بنت جحش (٢٠ هـ)

بادئ ذي بدء نتوقف أمام قصة زواج الرسول ﷺ من زينب ابنة جحش، إحدى نساء بني أسد بن خزيمة، وابنة عمته أميمه بنت عبد المطلب، وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة، والذي تبناه الرسول وأطلق عليه زيد ابن محمد، قبل أن يحرم الإسلام مسألة التبني، وقد رغب الرسول ﷺ تزويجها لزيد، لإلغاء مسألة التفاوت الطبقي والتمايز بين المسلمين، وكانت ترفض بإصرار لمكانتها القرشية ولعادات قومها وإحساسها بالتميز ناظرة إلى زيد أنه ليس كفؤا لها ولا ندا، ثم تزوجت به نزولا على الأمر الإلهي واستجابة له وطاعة لله ولرسوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]؛ وبعد مناكفات وخلافات وافتقاد الانسجام الأسري والحوار الودي بين الزوجين، وتعالي زينب على زيد ونظرتها الدونية له واستحالة العشرة بينهما، طلقها زيد، وبأمر من الله لحكمة أرادها وهي منع عادة التبني وإبطال ما يترتب عليه تزوجها الرسول وعاشت معه مع بقية زوجاته في بيت النبوة.

لنتابع روايات مؤرخو السيرة وأصحاب التواريخ، ونرى الاضطراب في الرواية وتعدد وجهات النظر في سبب طلاق زيد منها، ولماذا تزوجها الرسول ﷺ؟

وفي المرحلة الأولى نقف أمام هذه الإشكالية العويصة؛ ونعني لماذا طلق زيد بن حارثة زوجته زينب بنت جحش؟ ولماذا تزوجها الرسول؟ ونحلل أبعادها ونفك لغز هذه المسألة.ثم في المرحلة الثانية ننتقل إلى موقف المستشرقين، ونسبر غور أقوالهم وتصوراتهم حول هذه القصة ونرد على وجهة نظرهم :

أ ـ وجهة نظر مؤرخي الإسلام وعلمائه

١- رواية ابن إسحاق (ت ١٥٢ هـ)

---

(١) محمد نبي لزماننا ص ٩٤.

تزوج الرسول ﷺ بعد أم سلمة زينب ابنة جحش أخت عبد الله بن جحش إحدى نساء بني أسد بن خزيمة، وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة، زوجه الله إياها، فمات رسول الله، ولم يصب منها ولداً، وهي أم الحكم.

قال: مرض زيد بن حارثة فدخل عليه رسول الله ﷺ يعوده، وزينب ابنة جحش امرأته جالسة عند رأس زيد، فقامت زينب لبعض شأنها فنظر إليها رسول، ثم طأطأ رأسه فقال: سبحان الله مقلب القلوب والأبصار، فقال زيد: أطلقها لك يا رسول الله؟ فقال: لا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧][(١)].

ومن الواضح أن ابن اسحق لم يشر إلى رغبة الرسول وإصراره على تزويج زينب لزيد، ورفضها لهذه الزيجة وإحساسها بعدم وجود تكافؤ اجتماعي بين سيدة قرشية ومولى من الموالي ورفض أسرتها لهذا العقد، (مع إيماننا بالمساواة بين البشر وأننا لا نتمايز أمام الله إلا بالتقوى) ولم يتكلم عن عدم رضى زينب والمشكلات التي نتجت بينهما وشعورها بالتعالي عليه، وصبر زيد عليها وتحمله لتجافيها وإصرارها على الاستخفاف به وعدم تقديرها لشخصيته، فهو زواج بدون وشيجة من الود والعطف والرحمة. وركز فقط على سبب طلاق زيد منها.

والناظر في هذا الكلام تعن له جملة من التساؤلات، كيف ينظر الرسول إلى امرأة رجل متزوج في حضور زوجها حتى لو كانت ابنة عمته؟

وهل هذه النظرة السريعة الخاطفة تدرك مفاتن المرأة ومواطن سحرها؟ حتى يطأطئ رأسه ويقول: «سبحان الله مقلب القلوب والأبصار؟»

وهل كانت زينب غريبة عن الرسول لا يعرفها معرفة جيدة وهي ابنة عمته؟

وما طبيعة هذا الرجل وأي شخصية هي التي تقبل أن ينظر رجل لزوجته فيقول له:

---

(١) سيرة ابن اسحق ص ٩١.

أطلقها لك؟

الحقيقة لا نستطيع أن نقبل هذه الرواية المخزية التي كلها ألغام قابلة للانفجار وتؤذي شخصية الرسول، وتظهره أنه رجل شهواني لا يحترم حرمة البيوت وعينه تتلصص على النساء وتتأمل مفاتنهم، ليس هذا فحسب بل ولا يجعل أي احترام للزوج الجالس، ثم تهين الرواية شخصية زيد إهانة بالغة فيصبح وضيعا حقيرا يتنازل عن زوجته لرجل آخر هكذا ببساطة، كأنه نسخة من أبطال قصة «عبث أرستقراطي» لنجيب محفوظ لا نخوة ولا رجولة ولا كرامة؟[١]

لا جرم أننا نرفض الرواية رفضا قاطعا، جملة وتفصيلا، من ألفها إلى يائها، ولا نقبل هذه الحكايات التي تهاون مؤرخي السيرة في إيرادها، دون تفحصها و نقدها والتثبت منها وإيراد أي دليل مادي أو حجة عقلية تشفع لها حتى نقبلها؟

٢ .رواية عبد الملك بن هشام (٨ ٢١ هـ)

«تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية زوجه إياها أخوها أبو أحمد بن جحش وأصدقها رسول الله ﷺ أربع مئة درهم، وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ففيها أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[٢].

من عرض ابن هشام نلاحظ أنه حذف ألغام الرواية عند ابن إسحاق ومشهد قيام زينب، ونظرة الرسول لها، والكلام الذي فاه به «سبحان الله مقلب القلوب والأبصار»؟!!، واكتفى بالإشارة إلى أن أخاها هو الذي زوجها للرسول ﷺ، وأنها كانت تحت زيد، وأن الله أنزل فيها قرآنا.

وهي رواية مقبولة لأنها لا تمس شرف أي طرف من أطراف الثلاثة الذين هم أبطال القصة.وحفظ لكل إنسان مكانته التي تليق به رسولنا الكريم ونزاهته وعفته ، وابنة عمته

(١) هذه قصة قصيرة ضمن قصة «همس الجنون» وفيها يصور مجموعة من كبار الأثرياء يتبادلون الزوجات.

(٢) سيرة ابن هشام ص ٣٣١، يقول عبد السلام هارون عن منهج ابن هشام: تناول سيرة ابن اسحاق بكثير من التحرير، والاختصار والإضافة والنقد أحيانا، والمعارضة بروايات أخر لغيره من العلماء،... وكان ملتزما جانب الأمانة والحرص في رواية كتاب ابن إسحاق (من المقدمة ص ١٠).

القرشية المتمردة على الزواج، وزوجها المسلم المحب لله ولرسوله والمجاهد من أجل رفع راية الإسلام.

٣ - رواية أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ)

- كان النبي قد زوج زيد بن حارثة، زينب بنت جحش، ابنة عمته، فخرج الرسول يوما يريده، وعلى الباب ستر من شعر؛ فرفعت الريح الستر فانكشف وهي في حجرتها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب النبي، فلما وقع ذلك كُرهَتْ إلى الآخر، قال: فجاء فقال: يا رسول الله، إني أريد أن أفارق صاحبتي، فقال: مالك ! أرابك منها شيء ا، فقال: لا والله يا رسول الله ما رابني شيء، ولا رأيت إلا خيراً. فقال له الرسول: أمسك عليك زوجك واتق الله، فذلك قول الله ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] تخفي في نفسك إن فارقها تزوجتها[1].

وفي موضع آخر يقول الطبري: «تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بن رئاب ابن يعمر بن صبره، وكانت قبله عند زيد بن حارثة بن شراحيل مولى رسول الله ﷺ، فلم تلد له شيئا، وفيها أنزل الله ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فزوجها الله عز وجل إياه، وبعث في ذلك جبريل، وكانت تفخر على نساء النبي، وتقول: أنا أكرمكن ولياً، وأكرمكن سفيراً»[2].

من الواضح أن رواية الطبري أشد فتكا وقتلا من رواية ابن إسحاق، وأوغل في إثارة الشبهات والفتن حول الرسول ﷺ، فنحن بصدد زيارة للرسول لبيت زينب، فهبت الريح فرفعت الستر وكانت زينب جالسة وهي حاسرة !! ولم نعلم ماذا يعني الطبري بكلمة وهي «حاسرة» أيقصد أنها حاسرة الرأس، أم ساقها أم أجزاء من جسمها كان عاريا؟

وهل من نظرة واحدة تقع في قلبه!! هل هذا كلام يقنع أي إنسان عاقل، إن زينب ابنة عمته وهو يعرفها معرفة شخصية كما نحن في بيوتنا نجلس مع بنات أعمامنا وشعورنا نحوهم

---

(١) تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ج٢ / ٥٦٤

(٢) أبو جعفر الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد الفضل إبراهيم دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩، ج٣ / ١٦٥

دائما أنهم مثل أخواتنا.

أي نظرة هذه التي تجعل رجلا امتلك كرائم الأخلاق وعظيم الشمائل وصفات الملائكة وتربى على أعين الله وأصبح مثالا للإنسانية في الشرف والكمال وأنموذجا للإنسان الكامل وقد وصفه الله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وتجاوز سن الكهولة، نقول أي نظرة إلى امرأة تجعل الإعجاب يسري إلى نفسه ويقلب كيانه وينطق لسانه بهذا الكلام القبيح؟؟

إن الإنسان اللئيم ينظر إلى أي امرأة ويتفرس في ملامحها ولا يقع له شيء مما ذكره الطبري؟

ثم بعد ذلك تنتقل الرواية مباشرة، إلى الإشارة للكراهية التي هبطت على قلب زينب، مع أن المؤرخين يؤكدون على تحفظ زينب على الزواج من مولى الرسول، واستنكافها من ذلك. ومن يسبر غور المجتمع القرشي الطبقي يدرك أنه مجتمع يميز بين الأحرار والعبيد والقرشي وغير القرشي حتى بعد الإسلام، إذ إن هذه العادات الجاهلية لا تنمحي بين يوم وليلة ولكنها تحتاج إلى تربية وتوجيه وتغلغل مبادئ الإسلام في الضمائر والسلوك، ثم تنقرض مع تطور العادات واختفاء الأجيال وعبر العصور.

ثم ما الرابط المنطقي أن تنتقل الرواية مباشرة إلى شكوى زيد ورغبته في طلاقها، ونصيحة الرسول له أن يمسك زوجته ويحاول أن يكسب قلبها؟.

وهناك اختلاف جوهري بين رواية ابن إسحاق ورواية الطبري في سرد الوقائع؛ ففي حين ذكر ابن إسحاق أن الرسول ﷺ ذهب يعود زيدا في مرضه ويطمئن عليه، ذكر الطبري أن الرسول مر على بيت زيد دون أن يوضح السبب، هذا أولا.

وثانيا، ذكر ابن إسحاق أن زينب قامت لبعض شأنها فرأى منها الرسول ما رأى ثم قال: «سبحان الله مقلب القلوب والأبصار»، ولكن الطبري يقول بحكاية الريح التي حركت الستارة فرآها وهي حاسرة.

ولاشك أن تضارب الروايات واختلاف شهادة الشهود، تدفعنا ونحن مطمئنون إلى رفض الرواية عند ابن إسحاق وعند الطبري. رفضا قاطعا ونقول: إنهما يجمعان الروايات دون

تمحيصها وحريصان على رصد ما يصل إلى أسماعهما دون تمحيص أو غربلة، وقد بعدت بينهما وبين عصر الرسول الشقة. وربما يتكئان على قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

لكننا نفهم من الرواية أن الرسول ﷺ كان يخشى من تقوّل الناس وكلامهم أن محمدا تزوج زوج ابنه، وهذا ما روج له المنافقون، وقد شاءت الإرادة الإلهية أن يضرب الرسول القدوة في تحريم مسألة التبني، فيزوجه ابنة عمه بعد فراق زيد مولاه لها. ونعتقد أن مدلول الآيات يشير إلى ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فقد شرحت الآية العلة في ذلك، وهو منع الحرج والالتباس على المؤمنين كافة إذا عَنّ لهم الزواج من نساء أدعيائهم.

٤- رواية الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ)

يشرح الزمخشري معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾.

يقول: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب على مولاه زيد بن حارثة، فأبت وأبى أخوها عبد الله، فنزلت، فقال: رضينا يا رسول الله، فأنكحها. ثم يمضي في شرح ملابسات قصة زواج زينب وزيد فيقول:

وذلك أن رسول الله ﷺ أبصرها بعدما أنكحها إياه، فوقعت في نفسه، فقال: سبحان الله مقلب القلوب، وذلك أنّ نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها، ولو أرادتها لاختطبها، وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطن وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله ﷺ، فقال لرسول الله ﷺ: إني أريد أن أفارق صاحبتي.

فإن قلت: ما الذي أخفى في نفسه؟ قلت: تعلق قلبه بها. وقيل: مودة مفارقة زيد إياها.

وقيل: علمه بأن زيداً سيطلقها وسينكحها، لأن الله قد أعلمه بذلك(١).

من المؤسف أن مفسرا مشهورا مثل الزمخشري، نجله ونحترمه، و ينزع منزعا عقليا في تفسيره المتميز ويزودنا بالآراء الصائبة والأفكار الطريفة ويستنبط الفرائد من القرآن، يردد الروايات الحقيرة نفسها التي ذكرها ابن إسحاق والطبري، وينقل عنهما نفس العبارات بدلا من أن يعمل جهازه الإدراكي الناقد وعقله المعتزلي المتفرد والمتمرد في تحليل أبعاد الرواية ويفندها، وخاصة أنه مهد لها بأن زينب وأسرتها كانت ترفض زواجها من زيد.

وكيف تقع في قلب الرسول ﷺ هكذا فجأة وهي أمامه طوال عمرها، ولماذا كانت نفسه تجفو عنها وهي بلا زوج، ثم أصبحت تميل إليها وهي في عصمة رجل؟؟ هل هذا كلام يليق بإنسان شريف مستقيم الخلق مهذب السلوك بله الأنبياء؟ إننا نعد هذا الكلام سقطة شنيعة من الزمخشري، ولا نعرف كيف قبل هذه الرواية وبأي منطق للفهم؟

لا ضير أن نرفض هذه الروايات كافة، ونرى أنها من قبيل الإسرائيليات وهي تطعن في نبوة الرسول ﷺ وسلوكه الأخلاقي ،ونعتقد أن ما أخفاه الرسول ﷺ في نفسه. هو أن الله أخبره بطلاق زينب من زيد وزواجه منها. وقد وجدنا من المؤرخين القدامى من أشار إلى القصة دون أن يشير إلى ما ورد عند ابن إسحاق والطبري والزمخشري ونستأنس بما ذكره المحب الطبري، وابن سيد الناس.

٥- رواية محب الطبري (٦٩٤ هـ)

تزوج زينب بنت جحش بن أسد بن خزيمة، وهي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب وكانت قبله عند مولاة زيد بن حارثه فطلقها ، فزوجه الله إياها من السماء ولم يعقد عليها وصح أنها كانت تقول لأزواج النبي ﷺ زوجكن آباءكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات(٢).

٦ - رواية ابن سيد الناس (٦٧١ هـ - ٧٣٤ هـ)

زينب بنت جحش بن أسد بن خزيمة وكان اسمها برة فسماها زينب.أمها أميمة عمة

---

(١) تفسير الكشاف سورة الأحزاب.

(٢) الطبري (محب الدين أبي جعفر ٦١٥: ٦٩٤ هـ): خلاصة سير سيد البشر، تحقيق طلال بن جيل الرفاعي، مكتبة نزار مصطفى. ص ١٢٨.

رسول الله كانت قبله عند زيد بن حارثة مولاه، ثم طلقها فلما حلت زوجه الله إياها من السماء سنة أربع وقيل سنة ثلاث وقيل سنة خمس وهى يومئذ بنت خمس وثلاثين سنة وأولم عليها وأطعم المسلمين خبزا ولحما وفيها نزل الحجاب، وهى التي قال الله في حقها ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾.

ولما تزوجها تكلم في ذلك المنافقون وقالوا حرم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه فأنزل الله عز وجل ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ وقال ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥] فدعى زيد ابن حارثة وكان يدعى زيد بن محمد، وكانت تفخر على نسائه عليه السلام تقول آباؤكن أنكحوكن وان الله تعالى أنكحني إياه من فوق سبع سموات.

وغضب عليها رسول الله ﷺ لقولها لصفية بنت حيى تلك اليهودية فهجرها لذلك في ذي الحجة والمحرم وبعض صفر ثم أتاها وكانت كثيرة الصدقة والإيثار وهى أول نسائه لحوقا به توفيت سنة عشرين أو إحدى وعشرين وكانت عائشة تقول هي التي تساميني في المنزلة عند رسول الله وما رأيت امرأة قط خيرا في الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة(١).

ب - وجهة نظر المحدثين والمعاصرين

في كتابه القيم «حياة محمد ﷺ» لا يغفل حسين هيكل عن تناول الحديث عن زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش، ويسهب في العرض، ويشير إلى مفتريات المستشرقين الذين أطلقوا العنان لخيالهم والتهويل من الواقعة، وقد وجدوا فرصة ثمينة للطعن في شرف الرسول ﷺ ورميه بكافة التهم التي تنتقص من مكانته، ومن المؤسف أنهم اعتمدوا على ما ورد في كتب السيرة، ثم يجمل رده في قوله: ولم يكن الرسول ﷺ بالرجل الذي يأخذ الهوى بعقله، وهو لم يتزوج بدافع من شهوة أو غرام وإنما لتوطيد العلاقات بينه وبين أصحابه. ويرفض هذه الرواية الخيالية التي ليس فيها أي أساس من الحق أو أي حظ من

---

(١) محمد بن عبد الله ابن سيد الناس (٦٧١ هـ - ٧٣٤ هـ): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٤٠٦ / ١٩٨٦. ج٢ / ٣٨٦

البقاء[١].

على أن الدكتورة بنت الشاطئ (١٩١٣ - ١٩٩٨) لها رأي آخر تفردت به واشتهرت به في الأوساط الدينية والفكرية، ففي البداية عارضت رأي الدكتور حسين هيكل واتهمته أنه لم يرجع إلى المصادر الإسلامية، وأن هجومه على المستشرقين في هذه المسألة لم يكن موفقا، وأن الرواية ليست من مفترياتهم وشبهاتهم، وخلصت إلى أن الرواية حكاها السلف الصالح وهم غير متهمين بالكيد للإسلام، وأكدت أن آية العظمة في شخصية الرسول ﷺ أنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ثم تتساءل: أفينكر على بشر رسول أن يرى مثل زينب فيعجب بها؟ وماذا يطلب من مثله - في سمو خلقه وعفة ضميره- أكثر من أن يشيح بوجهه عمن أعجبته، وهو يسبح باسم الله العظيم، مقلب القلوب؟ ثم تمضي في تقريرها فتقول: «إن القصة وقد نقلها إلينا رواة غير متهمين لترتفع بسيدنا محمد إلى أقصى ما تطيقه بشرية من عفة وضبط للنفس واعتقال للهوى وأنها جديرة بأن تعد مفخرة لمحمد والإسلام، فما ادعى قط أن قلبه بيده يصرفه حيث شاء ولا زعم مرة أنه مبرأ من عواطف البشر منزه عن أهوائهم».

وهي تعترف بأن هذه الرواية لم تأت في مصادر أمهات؛ ككتب الصحاح وسيرة ابن إسحاق وطبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة وعيون الأثر، كما أن الطبري لم يشر في تفسيره إلى هذه الحكاية في تفسيره[٢].

- لا شك أننا نحترم رأي الدكتورة بنت الشاطئ فهي قامة علمية كبيرة وكاتبة إسلامية متفوقة ومتفردة؛ موسوعية في ثقافتها وإحاطتها بالفكر الإسلامي والتفسير البياني للقرآن، متميزة بأسلوبها العربي المبين الذي يذكرنا بكتابات الجاحظ وأبي حيان التوحيدي، وهي أستاذة قديرة، كونت جيلا من الباحثين في شتى أقطار العالم الإسلامي، عاشت تنافح عن الرسول وزوجاته وبناته وآل بيته والإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية، ونحترم رأيها ونقدر رؤيتها لشخصية الرسول ونشكرها على اجتهادها هذا أولا.

---

(١) حياة محمد، دار المعارف بمصر، ص ٣٢٦: ٣٣٦. اشتغل حسين هيكل بالمحاماة، وفي كتابه هذا كان المحامي الصادق عن الرسول والمدافع المخلص وصاحب الحجة القوية والدليل الدامغ والرد القاطع.

(٢) نساء النبي ص ١٦٠: ١٦٣

ثانيا: لا نوافق الدكتورة فيما ذهبت إليه وهؤلاء السلف الصالح بشر مثلنا يصيبون ويخطئون ولهم ذاكرة من خاصيتها النسيان العادي أو النسيان المرضي، وقد ذكرتُ أن أول من أشار إلى هذه الرواية النسابة ابن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) أي بعد أقل من ثلاثة قرون من هجرة الرسول، فلماذا نقدس رأيهم إذا كان لا يتفق مع بديهيات العقل ومنطق الحياة وأخلاق الرسول ﷺ الذي نقر أنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لكننا لا نفصل البشرية عن الوحي.

ثالثا: أشرنا سابقا اختلاف مضمون الرواية من مؤرخ إلى مؤرخ آخر، والسؤال لماذا نصدق رواية الطبري والزمخشري ونرفض رأي المعارضين وهم الأكثرية؟ أليس من الأجدر أن ننحاز إلى رأي الأغلبية؛فالعقل الجمعي أيقن من العقل الفردي وأشمل؟ ودليل العلم وحجة العقل أوثق من رواة العجائب والترهات، ونأخذ بنصيحة الزمخشري الذي يقول: «امشِ في دينك تحت راية السلطان (سلطان العلم)، ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان»(١).

رابعا: لا جرم أن ننكر الرواية كاملة ولا نصدقها ونعتقد مرة أخرى أنها موضوعة، وأن الرواة وضعوها حتى يفسروا الآية القرآنية كما ذكرنا ، لا ننكر أن الرسول بشر، ولكنه جمع كمالات الإنسان في شخصيته، وسمو النفس البشرية في كيانه ، ولا يمكن لإنسان أن ينظر إلى امرأة حتى تسري الرغبة في نفسه هكذا، وتشتعل الشهوة في جوانحه، وتضطرب جوانحه من شدة الغلمة فيشيح بوجهه ويولي ظهره ويجري يردد: «سبحان مقلب القلوب»، نعم نعلم أن النفس الإنسانية مشحونة بالرغبات والأهواء والشهوات المشبوبة، لكننا لا نتكلم عن الإنسان العادي، نحن نتكلم عن الرسول ﷺ بسيرته المعروفة وأخلاق العظمة التي اشتهر بها، ومع إيماننا أن الله مقلب القلوب، لكن الله لا يغير ما بنفس الإنسان حتى يغير ما بنفسه حتى يستقيم ميزان العدل، ويتحمل الإنسان مسئولية عمله.وهو مسئول مسئولية كاملة عن كل ما يصدر عنه.

خلاصة القول نعتقد أن الرواية ملفقة، وهي من خيالات المؤرخين، وربما أسقطوا نفسيتهم ودخائلهم على شخصية الرسول ﷺ، القضية بإيجاز أن الرسول ﷺ تبنى زيدا، وأطلق عليه زيد بن محمد، ورغب الرسول ﷺ أن يزوجه ابنة عمته لتأكيد مبدأ المساواة بين

(١) أطواق الذهب تحقيق، أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، القاهرة. ص ١١٠.

البشر، وأن أكرمكم عند الله أتقاكم، ولكنها شعرت بامتعاض فلم توافق ولكن نزل الأمر الإلهي بضرورة ذلك، فوافقت على مضض لكنها ظلت متمردة على هذا الزواج فطلقها زيد وأرادت المشيئة الإلهية أن تبطل عادات الجاهلية وتهدم أعرافهم في التبني وما يترتب على ذلك، فأمرت الرسول بالزواج منها.

وهذا ما ذهب إليه جهابذة العلماء المعاصرين وصفوة مشايخ العلم وعلى رأسهم العلامة العقاد بنزعته العقلية وتحليله العميق وأسلوبه المتميز يقول: «لو كان للذات الحس سلطان في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبي أن يتزوجها ابتداء ولا يروضها على قبول زيد وهي تأباه، فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ولا يفاجئها من حسنها شيء كان أن يجهله يوم عرضها على زيداً وشدد عليها قبوله. فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من إعراضها عنه وترفعها عليه وغلاظها بالقول له كان زواج النبي حلا لمشكلة بيتية بين ربيب في منزلة الابن وابنة عمة أطاعته في زواج لم يقرن بالتوفيق»[1].

وكذلك شيخنا قطب الأقطاب سيد قطب (١٩٠٦- ١٩٦٦) صاحب الإشراقات النورانية و الأعطيات السماوية و الفيوضات الإلهية التي كانت ترسلها له السماء تواسيه وتشد أزره وهو في محبسه الضيق وتخفف آلامه النفسية والجسمية التي كان يعاني منها في سجون الظلمة القتلة الفجرة، وقد تناول في البداية قضية التبني ورسوخها في وجدان المجتمع القرشي وأشار إلى أن الله قدم نبيه لإبطال هذه العادة الجاهلية وما كان أحد أقدر على التصدي لها إلا رسولنا الكريم ﷺ. يقول: «هذا الدرس شوط جديد في إعادة تنظيم الجماعة المسلمة على أساس التصور الإسلامي. وهو يختص ابتداء بإبطال نظام التبني الذي ورد الحديث عنه في أول السورة. وقد شاء الله أن ينتدب لإبطال هذا التقليد من الناحية العملية رسوله ﷺ وقد كانت العرب تحرم مطلقة الابن بالتبني حرمة مطلقة الابن من النسب؛ وما كانت تطيق أن تحل مطلقات الأدعياء عملاً، إلا أن توجد سابقة تقرر هذه القاعدة الجديدة. فانتدب الله رسوله ليحمل هذا العبء فيما يحمل من أعباء الرسالة».

ثم يسترسل في تفسيره فيقول: «ولكن نظام التبني كانت له آثار واقعية في حياة الجماعة

---

(١) عباس العقاد: عبقرية محمد، نهضة مصر، القاهرة، ١٠٧: ١٠٨

العربية؛ ولم يكن إبطال هذه الآثار الواقعية في حياة المجتمع ليمضي بالسهولة التي يمضي بها إبطال تقليد التبني ذاته. فالتقاليد الاجتماعية أعمق أثراً في النفوس.....

وقد علمنا أن رسول الله ﷺ زوّج زيد بن حارثة الذي تبناه، وكان يدعى زيد ابن محمد ثم دعي إلى أبيه، من زينب بنت جحش، ابنة عمة رسول الله ﷺ ليحطم بهذا الزواج فوارق الطبقات الموروثة، ويحقق معنى قوله تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣] ويقرر هذه القيمة الإسلامية الجديدة بفعل عملي واقعي.

ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك فيما يحمل من أعباء الرسالة مؤونة إزالة آثار نظام التبني؛ فيتزوج من مطلقة متبناه زيد بن حارثة. ويواجه المجتمع بهذا العمل، الذي لا يستطيع أحد أن يواجه المجتمع به، على الرغم من إبطال عادة التبني في ذاتها!

وألهم الله نبيه ﷺ أن زيداً سيطلق زينب؛ وأنه هو سيتزوجها، للحكمة التي قضى الله بها. وكانت العلاقات بين زيد وزينب قد اضطربت، وعادت توحي بأن حياتهما لن تستقيم طويلاً.

وجاء زيد مرة بعد مرة يشكو إلى رسول الله اضطراب حياته مع زينب؛ وعدم استطاعته المضي معها. والرسول صلوات الله وسلامه عليه- على شجاعته في مواجهة قومه في أمر العقيدة دون لجلجة ولا خشية- يحس ثقل التبعة فيما ألهمه الله من أمر زينب؛ ويتردد في مواجهة القوم بتحطيم ذلك التقليد العميق؛ فيقول لزيد «الذي أنعم الله عليه بالإسلام وبالقرب من رسوله وبحب الرسول له، ذلك الحب الذي يتقدم به في قلبه على كل أحد بلا استثناء. والذي أنعم عليه الرسول بالعتق والتربية والحب».. يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله».. ويؤخر بهذا مواجهة الأمر العظيم الذي يتردد في الخروج به على الناس. كما قال الله تعالى: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾.. وهذا الذي أخفاه النبي ﷺ في نفسه، وهو يعلم أن الله مبديه، هو ما ألهمه الله أن سيفعله[١].

هذا التصور النبيل السامي والتحليل الواقعي الذي طرحه سيد قطب، والتفسير المعقول

---

(١) تفسير الظلال، سورة الأحزاب.

والسمو بأخلاق الرسول والحفاظ على كرامة زيد، وتصوير الواقعة كما يتقبلها الإنسان السوي والعقل الواعي والمنهج القويم ومنطق الحوادث، نلحظه أيضا فيما ذهب إليه شيخ الإسلام محمد الغزالي إذ يشرح القضية بحماسته الدينية وأسلوبه الأدبي ونزعته العقلية فيشير إلى الظروف التي أحاطت بزوجات رسولنا، ويرى أن هذا بعض ما كلف به بتجشمه من سياسة الأفراد والجماعات، وبعض ما كلف بتحقيقه من إقامة الخير ومحو الضر؛ ويضرب مثلا بزواجه بزينب، ويقرر أن هذا الزواج كان امتحانا قاسيا لرسوله، أمره الله لإبطال تقليد شائع عند العرب، وأقدم عليه الرسول ﷺ وهو شديد التحرج والحياء والأذى، ويشرح مضمون القصة كما سبق أن أشرنا إليها.زواج زيد من زينب وتكبرها عليه وتمردها على هذه الزيجة بسبب الفارق الطبقي ومحاولة الرسول الإصلاح والتوفيق بينهما، ثم أوحى الله لنبيه أن يدع زيدا يطلق زوجته، وأن يتزوجها هو، فاعترى الرسول هم مقلق وساوره التوجس من الإقدام عليه، بل أخفاه في نفسه خوفا من مغبته، إذ سيقول الناس: تزوج امرأة ابنه !! وهذا ما أراد الله هدمه، ثم يمضي شيخنا يرد على هؤلاء الذين ادعوا أن الرسول ﷺ كتم حب زينب في قلبه، وأن صدر الآية كان عتابا على هذه العاطفة المكبوتة.ويقول: إن ظاهر الآيات أن الله لا يجرئ نبيه على التدله بحب امرأة، وإنما يجرئه على إبطال عادة سيئة يتمسك بها الناس ويراد منه أن ينزل على حكمها، ولذلك يقول، وهو يهدم نظام التبني ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠][1].

وفي موضع آخر يقول: «أكذوبة أن الرسول ﷺ عشق بنت عمته زينب بعد ما زوجها من زيد !! فرية بلغت الغاية من الغثاثة والسخف، ومع ذلك وجدت من يرويها»[2].

وهذا ما أكده المفسر الكبير الشيخ الشعراوي (١٩١١- ١٩٩٨) بأسلوبه السهل الممتنع الذي يفهمه العامي والمتعلم، الجاهل والمثقف، وبأدائه الأخاذ وأمثلته الموحية وتعبيرات وجهه الشارحة وإشاراته التوكيدية وحركاته التوضيحية كأنها ترسم صورة واضحة لمعالم تفسيره يراها المستمع رأي العين فينساب المعنى في عقله ووجدانه انسياب الماء في الكثبان

---

(١) فقه السيرة، دار الشروق، القاهرة، ص ٢٣٨ : ٢٤١ .

(٢) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص ١٩٤ .

الرملية، زد على ذلك ذلك تفرده بالعجائب والفرائد، وطرح معطيات جديدة للآيات، واستنباط أفكار طريفة لم تخطر على عقل مفسر قبل ذلك، ويظل يفسر الآية ويشرحها ويوضحها حتى تصبح واضحة ومتميزة مثل الأهرام في نور الصباح المشرق الندي، يقول: «كان سيدنا رسول الله إذا غاب زيد يذهب فيسأل عنه، فذهب مرة، فرأى زينب منشغلة في أمور بيتها، وكانت زينب على حالة طيبة، فقال ﷺ: «تبارك الله أحسن الخالقين» كما ترى مثلاً ابنتك في مظهر حسن، فتقول: ما شاء الله.

وكأن رسول الله أراد أنْ يُطيِّب خاطرها، أو يرفع من روحها نظير ما أجبرها عليه من الزواج بزيد، ونظير أنها تعيش معه على مضض، فلما جاء زيد قالت له: لقد جاء رسول الله وسأل عنك وقال لي: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال لها: يا زينب أرى أنْ تكوني لرسول الله؛ لأنك وقعت في قلبه، وأرى أنْ أُطلِّقك ليتزوجك رسول الله، فبدا عليها الارتياح، وتعجبتْ كأنها لم تصدق: إذا طلَّقتني أتزوج برسول الله، كان هذا الحوار مجرد كلام. وبالله لو قيل هذا الكلام في غير هذا الموقف، ولواحد غير زيد لغلي الدم في عروقه، وفعل ما فعل، إنما تأمل الرياضة الإيمانية التي تحلَّى بها زيد.

يقول تعالى في هذه المسألة: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ ... ﴾.

أما معنى ﴿ وَإِذْ تَقُولُ .... ﴾ [الأحزاب: ٣٧] واذكر جيداً وادِرْ مسألة زيد في رأسك، اذكر إذ تقول للذي أنعم الله عليه بالإيمان - والمراد زيد وأنعمتَ عليه بالعتق أولاً، وأنعمت عليه بقانون البشرية بأنْ جعلْتَه ابناً لك وأنعمتَ عليه بأن زوَّجته، وهو عبد، من قرشية، هي ابنة عمتك، ثم أنعمتَ عليه حين قُلْت له ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ ٱللَّهَ ... ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

لكن، لماذا قُلْتَ له هذه الكلمة يا محمد؟ أخوفاً من كلام الناس أنْ يقولوا: تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه؟ كيف وهذا مقصود من الله تعالى، إنه يريد أن يُنهي عادة التبني، وأنْ يُنهيها على يدك أنت، فأنت تخفيه خوفاً من كلام الناس، وقد أبداه الله حين أخبرك بهذه المسألة، وأن نهايتها ستكون على يديك بأنْ تتزوج امرأة مُتبنَّاك ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]

فدعْكَ من الناس[١].

خلاصة الكلام أن حديث قصة زينب موضوع عند أهل العلم بالحديث وجهابذة المحققين[٢] نعتقد أن هذا يكفي في الرد على مقولات المؤرخين القدامى ومن أيدهم من المعاصرين، ونتقل إلى الرد على اتهامات المستشرقين وهذه هي المرحلة الثانية.

ج - وجهة نظر المستشرقين

١ - من المستشرقين الذين اعتنوا بالقرآن وترجموه في وقت مبكر؛كلود سفاري (ت ١٧٨٨) الرحالة الفرنسي[٣]، ، وقدم له بدراسة لا بأس بها عن حياة الرسول وقد جمعت بين المتناقضات في سياق واحد، إذ اتسمت بقدر كبير من المدح والنقد والهجوم والدفاع، على الرغم من أنه زار مصر وأعجب بآثارها وحضارتها وسجل ذلك في رسائله.

وبصدد موقفه من قضيتنا يقول: ذهب محمد إلى بيت زيد - ابنه بالتبني- وكان غائبا، ورأى زوجته زينب التي كانت أجمل نساء قريش. وكانت تضم إلى الجمال نعمة الحكمة والذكاء كل هذه المفاتن تركت أثرا عميقا في قلب محمد، وبدت له رائعة الجمال، وهي ترتدي ملابس خفيفة تكاد لا تخفي بياض جسمها بحيث خانه سره وصاح: «سبحان مقلب القلوب» ولكن زينب لم تنس هذا الإعجاب ونقلت عبارته إلى زوجها ، ولما كان زيد رجل سياسة فقد طلقها، وبعد انقضاء العدة انتقلت إلى فراش محمد، وقد أثار هذا الزواج كثيراً من الهمس بين المسلمين والشائعات، مما اضطر محمدا إلى الالتجاء إلى السماء وأنزل سورة الأحزاب[٤].

٢ - في أثناء حديثه عن السور المدنية وتقسيمه لآيات سورة الأحزاب ومناسبة نزولها

---

(١) تفسير الشعراوي، سورة الأحزاب.

(٢) أبو شهبه: دفاع عن السنة ص ٢٥٦ .

(٣) ترجمته في محمد الزيني: المستشرقون في مصر ص ٣٢٥ .

(٤) السيرة النبوية، ص ١٤٤. يقول سفاري عن زواج الرسول من ريحانة :كانت من أجمل نساء اليهود، حقدت على الرسول، ولكن حقدها لم يصمد طويلا أمام فكرة أن تصبح زوجة للنبي، فقد أكل الزهو عقلها وأفسد الطموح قلبها فأسلمت كي تتزوجه.(السيرة النبوية ص ١٤٣) الحقيقة أن عقل ريحانة أرجح من عقل سفارى، ولولا أنها تأكدت من صدق رسالة الرسول، وصواب مسلكه مع اليهود، لما آمنت وتفهمت المصائب التي نزلت بأهلها، وما قبلت الزواج منه.

يشير نولدكه إلى الآيات (٣٦: ٤٠) ويذهب نفس مذهب المستشرقين بأن الرسول طلق زينب كي يتزوجها، وإن كان لم يتوسع في القضية واقتصر فقط على الإشارة إلى ذلك بقوله: وهي تعود إلى زينب بنت جحش امرأة زيد التي أراد محمد أن يتزوجها، فطلقها زيد، عتيق محمد وابنه بالتبني، ويروى أن محمدا تزوجها قبل محاربة بني المصطلق، وفي الآيات (الأحزاب ١: ٣) وهي نوع من المقدمة، والآية (٤) وفيها يعلن محمد ليبرر زواجه من امرأة ابنه بالتبني[١].

٢ - فرانتس بوهُل Vrants Bohel (١٨٥٠ - ١٩٣٢)[٢] مستشرق دانمركي وأستاذ الدراسات السامية والعهد القديم في كلية اللاهوت بجامعة كوبنهاجن ، من المستشرقين الذين زاروا دول الوطن العربي ومنها بلاد الشام ومصر، ألف كتابا بعنوان «حياة محمد» (١٩٠٣) تميز بقدر كبير من الحصافة واتسم بتبصر وروح ناقدة، وتشكك تجاه كل التفسيرات المتطرفة التي بدت جلية عند لامنس وكيتاني ومرجليوث. وعلى الرغم من أنه أنصف الرسول ﷺ في مواقف ليست بالقليلة، ومدح أخلاقه وحسن معاملته مع القريب والبعيد، الصديق والعدو، وهذا يدل على إعجابه بأبعاد شخصيته؛ من سعة الأفق، وكرائم الأخلاق وسمو النفس، ورقة الطبع وسعة الصدر. على أن هذا لم يزجره أن يتهمه - كعادة المستشرقين المتعصبين .أو يلجم قلمه عن أن يقول: أنه جعل الوحي في خدمة شبقه الجنسي وتزوج زينب امرأة ابنه زيد بالتبني، وأنه يتحلل من عهوده التي قطعها على نفسه بسهولة[٣].

---

(١) تاريخ القرآن ص ١٨٦. على الرغم من أن هذا المستشرق يقف موقف المتشكك في كل ما يتعلق بسيرة الرسول= =وحقيقية القرآن وجمعه وترتيبه ونزوله ومصدره، إلا انه يقبل كثير من الروايات التي تهين شخصية الرسول أو تحط من شأنه وتظهره أنه رجل بلا ضمير وإنسان بلا خلق . ونماذج من ذلك قوله: يشكك في أحاديث عائشة أم المؤمنين، ويقول مغامرة عائشة مع صفوان بن معطل، وزواج محمد من زينب زوجة ابنه بالتبني، وتعامل محمد مع جاريته مارية في حجرة زوجته حفصة، لا ينبغي للمرء أن يشكك عموما في أمانة الأحاديث حول هذه المواضيع.(تاريخ القرآن ص ٣٧٨.

(٢) ترجمته في: يوهان فوك ص ٣٢١، المستشرقون في مصر ص ٢٦٨

(٣) عبد الرحمن بدوي: دفاع عن محمد ص ٧٣

٣ - اللافت للنظر أن المؤرخ ويلز أشار إلى القصة بإيجاز شديد دون أن يفصح عن وجهة نظره فينقل آيات القرآن في القضية ويتبنى تفسير القرآن فيقول: الأمر كما يوضحه التنزيل، إنما كان بقصد إظهار الفرق بين الابن المتبني والابن الحقيقي[١] ثم نقل الآية ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]

٤ - من المستشرقين الذين لم يستنكفوا أن يتناولوا هذه الرواية بقدر كبير من المبالغة وإحاطتها بهالة من الأكاذيب الملفقة والأساطير التي لا يقبلها إلا عقول البلهاء؛ جودفري دموبين (١٨٦٢ - ١٩٥٧) في كتابه «محمد» حيث ذهب إلى القول: «بأن محمدا لم يكن يعرف مطلقا ابنة عمته ولم تسنح له الفرصة لمقابلتها، فذهب إلى بيتها في عدم وجود زيد وكان يكلمها من وراء ستارة فلفحتها الرياح فظهرت زينب أمام عينيه المتعطشتين وهي عارية ومغرية فتراجع، ولكن الزوج الذي شك في الحادث أعلن لأبيه بالتبني عن نيته في طلاق زينب ودون أن يلومه فقد أوصاه ألا يفعل ولم ينس أن يخفي مشاعر الغيرة في قلبه....»[٢].

٥ - من الذين خاضوا في هذا المستنقع الآسن والمعترك الكريه، وتركوا لخيالهم العنان كأننا بصدد قصة من قصص الغرام؛ الرحالة بودلي، إذ انتهز الفرصة وعرض القصة من بدايتها فأشار إلى جمال زينب وجاذبيتها وأرستقراطيتها وابنة عم محمد الذي زوجها لصديقه زيد قصير القامة قبيح المنظر، وقد قبلت على مضض لكنها لم تحبه، وفي يوم زار محمد زيدا «حيث اطلع على زينب الفاتنة وكانت نصف عارية، فأثر هذا في عواطفه حتى قال: سبحان مقلب القلوب، ثم هرول خارجا في ارتباك»، رأت زينب نظرة محمد في عينيها، وسمعت قوله، ولاحظت كيف نطق، فلما عاد زيد أنبأته بما حدث، فذهب زيد مباشرة إلى محمد يعرض عليه طلاقها، فأخبره أن يعود إلى زينب ولا يفكر في ذلك، على أن «زينب كانت تعرف ما يحسه

(١) معالم تاريخ الإنسانية ج٣ / ١٠٠

(٢) ديموبين: محمد ص ٢٢٦ (نقلا عن بدوي: دفاع عن محمد ص ٨٠: ٨١)

محمد نحو النساء وكانت متيقنة من إحساسه نحوها، فجعلت حياة زيد جحيما فطلقها» وانتظر محمد فترة العدة وتزوجها[١].

٦ - لا بأس أن نضيف رأي الراهب «منير تزيو» وهو يكرر مقولات أصحابه من المستشرقين، وليس فيه طرح جديد، حيث قال في أكذوبته: «إن زينب كانت جميلة من أجمل نساء الأرض في زمانها، وأن محمداً قد سمع بجمالها الفاتن فشغف حبا بها»[٢].

لا جديد فيما طرحه فهو كلام ممل وتكرار سقيم واتهام سفيه؛وإن دل على شيء فإنما يدل على حالة الحرمان الجنسي وعقدة الشبق التي يعاني منها الراهب، فراح يستحضر صورة للمرأة الجميلة حتى يشبع الحرمان الذي يعاني منه معاناة شديدة، ويصبر نفسه بالخيال والأحلام مثل المراهق الصغير، بعد أن افتقد حب المرأة وحنانها ودفئها في الواقع، وعاش مكبوتا محروما من أجمل عطايا الله للإنسان في رحلته على الأرض.هذا من جهة. ومن جهة أخرى يكشف هذا الكذب مدى الجهل الذي يعيش في ظلماته هذا الراهب، ولو كان عنده أقل إلمام بالتاريخ لعرف أن زينب ابنة عمة الرسول وأنه هو الذي زوجها لزيد لمنع التفاوت الطبقي وإلغاء نزعة الاستعلاء القرشية عند بعض السادة في مواجهة العبيد.

وقد علق العلامة العقاد على هذا الكذب بقوله:كل باحث في الإسلام يعرف أن زينب هي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، وهذه حقيقة، «وكان أحرى أن يعرفها هذا المستشرق، ولكنها العداوة المدسوسة، فإن فكرة التبشير (التنصير) لا تنزع من عقولهم»[٣].

٧- دومينيك سورديل (ولد عام ١٩٢١ - كان حيا حتى عام ١٩٧٣)[٤]:

هذا مستشرق معاصر أتيحت له المصادر والمراجع التي تتكلم بإنصاف عن الإسلام، وكان أمامه فرصة للاحتكاك بعلماء المسلمين وزيارة بلادهم للاطلاع عن كثب عن حقائق

---

(١) حياة محمد ص ٢٣٩: ٢٤٠

(٢) العقاد: الإسلام دعوة عالمية ص ١٧٤

(٣) العقاد: الإسلام دعوة عالمية ص ١٧٤.

(٤) مستشرق فرنسي؛ يبدو أنه كان يعمل في المعهد الفرنسي بدمشق، تنصب اهتماماته العلمية حول الحضارة الإسلامية في فترة العباسين والدول التي انفصلت عنها، وما يتعلق ببلاد الشام والعراق من الناحية السياسية والعلمية والحضارية له تحقيقات واسعة ونشرات متعلقة بهذه الفترة الزمنية (العقيقي، ج١ / ٣٦٥ : ٣٦٧)

الإسلام وأباطيل خصومه، ومع ذلك يتعرض في كتابه لكثير من الاتهامات القديمة المملة؛مثل قصة بحيرى، واقتباس الرسول من اليهودية والنصرانية، ثم عداوه لهما ويدعي أن الإسلام صورة منهما، ويشير إلى قصة زينب بنت جحش، وهو نفس اللغو الباطل والاتجاه العقيم، والأقوال العدمية التي كررها بعض المستشرقين ويستشهد بأقوال فنسنك وهورجورنيه ولا منس ومونتجمري وات، دون أن يحدد مكانه وما رؤيته لذلك، كأنما قد برأ ذمته بعرض هذه الآراء المبتسرة و الشكوك التي لا برهان عليها، ثم يهرب من معركة الحقائق، وعنده قدر كبير من التذبذب مابين القبول والإنكار. ونستطيع أن نقول أنه مستشرق متخصص في «نشر الإشاعات» مثل رجال المخابرات، ولا مانع عنده أن ينفيها ثانية لكن بعد أن يكون قد أشاعها في كل مجلس، وحدث بها في كل ناد وأدت الغرض المطلوب وهو التشكيك والتشويه لسمعة الأبرياء وأطهر البشر..

يقول: إن سلوك النبي الشخصي لم يخلو من أن يبدو أمام أعين البعض - انتهازيته (هكذا) - أنه يخدش الأخلاق السائدة في عصره، في الشرق، وفي الغرب المسيحي.لقد قام خلال القرن التاسع والعاشر، كتاب بيزنطيون في دحض الإسلام وتوسعوا حول «تعلق محمد بالملذات الجسدية». ومن الواقعات التي يمكن ذكرها تأييدا لذلك؛ أنه لم يتورع (هكذا) عن أن يتزوج زوجة أخيه بالتبني، بعد أن عمل على تطليقها من زوجها، ولم يتردد في أن يتخذ زوجات شرعيات عددا من النساء يفوق ما صرح به القرآن[١].

ولما كان مطلوب من أي إنسان يقرأ هذا التخليط والتدليس، عليه أن يضبط أعصابه فأولى بالباحث الذي يعيش وسط هذه الإشاعات الفاسدة والأقوال الباطلة والنيران المشتعلة أن يتنفس طويلا ويكظم غيظه، ثم يرد عليه بالقول الحسن ويكفي في الرد عليه أنه لم يعرف أن زيدا ليس بأخ للرسول ولكنه ابنه بالتبني، وأنه مستشرق بلا شخصية إذ يردد مزاعم فاسدة للكتاب البيزنطيين ويعيد إنتاجها ويلقيها في وجوهنا، دون احترام أو نقد هذه الروايات البائسة.وأخيرا لم يقدم لنا من عنده أي دليل، ولكنه تصرف كالطفل الصغير الذي يلقي الطوب في وجه زميله ويجري يختفي وراء أمه، كأنما إشارته لمستشرقين سابقين تعفيه

---

(١) الإسلام، ترجمة علي مقلد، دار التنوير، بيروت، ١٩٩٨، ص ٣٠: ٣١

كباحث من الإدانة، وأن كلامهم أصبح تعويذة من الكهان تنقذه أن نهاجمه بعنف ونتهمه بالجهل والسفه العلمي. على حد تعبير بدوي.

ونختم هذه الاتهامات بإشارة خفية خبيثة وعبارة مختصرة لجرونباوم، تتعلق بهذه الحادثة دون أن يفصح عنها صراحة، أو يبين لنا مراده؛ إذ يقول: «كانت أموره (محمد) الشخصية تسبب للمؤمنين بعض لحظات القلق ولكن الله كان يظاهر رسوله ويسكت كل ناقد»[1].

هؤلاء المستشرقون عندهم نوع من السادية (العدوانية)، لا يهدأ لهم خاطر أو يرتاح لهم بال، إلا إذا فتشوا في الروايات الضعيفة وحبكوا منها حكاية طويلة، ونحن نتساءل ما هي سلوكيات الرسول ﷺ التي كانت تسبب لصحابته «بعض القلق»؛ والقلق هو نوع من الخوف لأمر مبهم غامض! ولم يطعن المشركون في سلوكه أو تصرفاته أو أخلاقه، إنما الخلاف كان متعلق بعادات راسخة عندهم من الصعب أن تغيرها بين يوم وليلة، وكذلك التنافس القائم بين القبائل للسيطرة وبسط النفوذ، وكان أصحابه يلتفون حوله ويضحون بأرواحهم في سبيل فدائه، أما أن الله كان يؤيد نبيه فهذا أمر واضح لأن الوحي كان يرشده ويبصره فيما يتعلق بأمور الدين، وهذه المسألة كانت متعلقة بتحريم فكرة التبني. لاستقامة أمور المجتمع وأن الإنسان ينسب إلى أبيه. أضف إلى ذلك من المعلوم أن الأرستقراطية القرشية كانت تمثل طبقة السادة في مواجهة طبقة العبيد ويزدرونهم ويستنكفون أن يجلسون معهم، «وكان الرجل من أشراف قريش يأنف أن يزوج ابنته أو آخته من الرجل العربي من عامة الناس، فجاء محمد - وهو من ذروة قريش - ليزوج ابنة عمته زينب من مولاه زيد»[2].

فهل هناك حفاظ على كرامة الإنسان واحترام كينونته ووجوده أفضل من ذلك؟

د- الرد على جمهرة المستشرقين كافة في النقط الآتية:

١- من الواضح أن المستشرقين يتأثرون بأطروحات زملائهم، ويعولون على آراء من سبقوهم وهذا يتضح لنا من خلال اجترار بودلي لما ذكره سفاري ونقل عبارات كاملة من زميله، هذه نقطة. والأخرى نعتقد قبل أن نلوم سفاري وبودلي

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٠٨

(٢) سيد قطب: دراسات إسلامية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٦

وزملائهم نلوم مؤرخي السيرة الذين حشروا قصصا مغايرة للواقع واندفعوا وراء إسرائيليات تسيء لسيرة الرسول إساءة بالغة كما قدمنا في نقدنا السابق.

٢ - من المعلوم أن البيوت قديما لم يكن فيها ستائر كما يتصور هؤلاء المجانين الفتانين، وقد رأينا أمهاتنا حتى وهم في بيوتهن يلبسن كامل ملابسهم طوال الوقت، ثم من قلة الأدب والسفه الشنيع من المستشرق أن يتهم إنسان شهد له معظم المستشرقين بنبل الأخلاق وحسن السيرة وسمو النفس، حتى القرشيون أعدائه الحقيقيون لم يتهموه في سلوكه أو عفته ليس هذا فحسب بل وصفوه بالأمين، وشهدت له البشرية جمعاء،نقول يتهمه بأن عينيه كانتا متعطشتين، وفي أي مصدر قال إنها كانت عارية، ثم إنها ابنة عمته ويعرفها الرسول ﷺ معرفة شخصية وهو الذي زوجها لزيد، من الواضح أن خيال هذا المستشرق خيال مريض، ومن المغرمين بتأليف القصص العاطفية والخيالية.

٣- قلنا إن بودلي قصاص ماهر، يتمتع بخيال خصب وأفق رحب وأسلوب ممتع ومن الواضح أنه متأثر بقصة أبناء وعشاق، وعشيق الليدي تشاتري لدافيد هربرت لورانس، ومن ثم أطلق لقلمه تصوير الحدث كأننا بصدد قصة غرامية مشبوبة الأوار كما نراها بين إمام الشاب المراهق الريفي الساذج والمعلمة «شفعات» في «شباب امرأة» لأمين يوسف غراب (١٩١٤- ١٩٧١)، فهو يتكلم عن الرسول ﷺ كأنه شاب مراهق، نظر إلى امرأة جميلة فظل يفكر فيها طوال الليل والنهار، والمرأة ذاتها لم يغب عنها حقيقة هذه النظرات الشهوانية، والكلمات الموحية التي سمعتها بكل حواسها وكيانها، ثم انتهت هذه القصة بزواج البطل من البطلة كما يقع في أفلامنا العربية.

٤ - من المتعذر علينا أن نقنع جمهرة المستشرقين بأن هذه التفاصيل المثيرة من بنات خيالاتهم، ومن نفوسهم المريضة وأنهم يسقطون وقائع حياتهم وعادات مجتمعاتهم على سيرة الرسول النقية ﷺ، وضغط بيئتهم المتسيبة على أعظم البشر ورسول معصوم من صغائر الإنسان، فزينب لم تكن غريبة على الرسول فهي ابنة عمته ورآها عشرات المرات ويعرفها جيدا، وقد شاءت الإرادة الإلهية أن تبطل عادة

التبني، فكان ما كان.

وفي هذا السياق نقول: لماذا يقف اتين دينيه بجانب الرسول ويبرأه من غمز المستشرقين ولمزهم ويهاجمهم بعنف وشدة ويتهمهم بالتعصب والنرجسية وكراهية الإسلام، فلنسمعه وهو يقول: «لم يكن الرسول يفكر في الزواج بزينب؛ لا قبل زيد ولا بعده، وإلا فأي شيء كان يمنعه من التزوج بها بكرا غَضّة الإهاب، وقد كان يملك من أمرها كل شيء؟»(١)

لاشك أن تحرر «دينيه» من أفكاره السابقة وقراءته لسيرة الرسول ﷺ قراءة محايدة وموضوعية، وعزمه من البداية أن يقرأ ليحلل ويفهم ويقارن ويأخذ موضع الدارس الباحث عن الحقيقة المتجرد من مشاعره وثقافته وسلطان بيئته، هذه العوامل ساعدته في الوصول إلى حقيقة سيرة الرسول ﷺ، ووضع يده على أبعاد الحقيقة. في حين أن معظم المستشرقين ينطلقون من قناعة راسخة وقضية مؤمنين بصحتها ثم يحالون أن يبرهنوا على صدقها حتى ولو جاءت على حساب الموضوعية والنزعة النقدية والحياد العلمي.

٥- من المآخذ التي نأخذها على رواية سفاري وديموبين وبودلي وغيرهم هي جرأتهم في العرض، وعدم احترامهم شخصية الرسول ﷺ، كأنما كانوا حاضرين كل هذه الوقائع العجيبة والتفاصيل الدقيقة، وشهود إثبات، من أول ما طرق الباب ونظرته للمرأة الجميلة نصف العارية، وحجم ما تكشف من جسمها، والغوص في أعماق نفسيته عليه السلام ونفسيتها كأنهم أساتذة في التحليل النفسي، ومن تلاميذ سيجموند فرويد، ومن الواضح أن بودلي كما قلنا قصاص مجيد يعرض علينا قصة من قصص مجتمعه المنحل ومن بنات أفكاره، وروايته لا تمت للواقع بصلة(٢).

---

(١) محمد رسول الله ص ١٥٧

(٢) الغريب أن بودلي يعود فيقول: إن زيجات الرسول أمر عادي إذا قورن بعادات زواج الحكام كسليمان وداود، ولم يكن لمحمد حريم كبير كحريم سليمان أبداً، وإن قصة زينب أكثر بساطة من قصة زوجة أبيجال التي أعجب داود بها في ليلة عرسه، وينبغي ألا ينظر إلى حياة محمد الزوجية من وجهة نظر الغربيين. (حياة محمد ٢٤٢) ولا شك هذا تخليط واضح وجمع بين النقيضين، فنحن نؤمن بعصمة الأنبياء وما ورد في العهد القديم عن داود وسليمان الذي أعجب بزوجة قائده أوريا حينما رآها تستحم فأرسله إلى الحرب حتى يتخلص منه، كلام بعيد الصواب، وافتئات في حق الأنبياء وزور واضح.

٦- لم تترك كارين هذه الحادثة تمر دون أن تستعرض وقائعها بالتفصيل كما جاءت في كتب المؤرخين المسلمين وزيارة الرسول لزينب ورؤيته لها وقوله: سبحان الله العظيم.، وتشير إلى آراء القادحين في الرسول مثل فولتير وبريدو حيث ذهبا إلى أن هذا برهان على شهوة محمد للنساء، وكذلك آراء المدافعين عن هذا الزواج إذ إن الرسول كان يعرفها منذ أن كانت طفلة، وكان وثيق الصلة بأسرتها، وشعوره بالمسؤولية تجاهها بعد أن طلقت، ثم إن الوحي أراد تحريم مسألة التبني.وتختم دفاعها بقولها: لو أنه (الرسول) ابتغى زينب لجاذبيتها الجنسية لتزوجها قبل ذلك بسنوات، ثم إن العلاقة بالتبني تختلف عن صلة الدم وليس لها أن تمنع الزواج[1].

غني عن البيان أن كارين حللت نفسية الرسول ﷺ تحليلا واقعيا، وناقشت موقف السيدة زينب من زيد واستعلائها عليه، ورفضها الزواج منه من البداية واستبطنت دوافع الزواج ومقاصده، ومن هنا نرى أن موقف كاترين كان موقفا موضوعيا ومنصفا عن أغلبية مؤرخي العرب القدماء.

أما عبد الرحمن بدوي فبعد أن نقل روايات بعض المستشرقين وفندها كافة، وهاجمهم بعنف وشدة كعادته في أسلوبه ، علق على أكاذيبهم بقوله: «هذا التفصيل بشكل مغري هو اختراع محض لكبت جنسي»[2].

ثالثا: حديث الإفك:

من التجارب النفسية المؤلمة التي مر بها الرسول ﷺ في حياته الأسرية ومحيطه الاجتماعي، والمحن المريرة، والابتلاءات القاسية التي أحاطت به وكدّرت صفو حياته وقضت مضجعه، وشتت فكره وخواطره، ما شاع بين الناس عن السيدة عائشة أحب نسائه إلى قلبه وأقرب إلى خاطره وروحه، ومن تقرأ أفكاره وتستبطن مشاريعه، وتشاركه في مسرات الحياة وضرائها.

ملخص القصة، في العام السادس للهجرة توجه الرسول ﷺ لغزو بني المصطلق وقد

---

(١) سيرة النبي ص ٢٩٢: ٢٩٣، وأيضا محمد نبي لزماننا ص ١٥٣

(٢) دفاع عن محمد ص ٨١

ساهم بين زوجاته فخرج سهم عائشة، وبعد المعركة وانتصاره وفي أثناء عودتهم إلى المدينة، استراح الجيش في الطريق ليلا، ثم أعلن عن الرحيل، فهب الركب واستيقظ الجميع وتحرك الجيش، وكانت السيدة عائشة قد تخلفت لبعض حاجتها، تلتمس عقدا فقدته، و جاء من وكل ببعيرها فأخذ البعير وهو يعتقد أنها داخل الهودج نظرا لخفة جسمها، وحينما عادت إلى موقع الجيش وجدت القوم ارتحلوا دون أن يتحققوا من وجودها، فظلت في مكانها حتى مر بها صفوان السلمي؛ فقرب إليها بعيره وتأخر عنها حتى ركبت ثم سار بها إلى المدينة وعادت إلى بيتها، وسمع منها الرسول ﷺ قصتها وصدقها ولم يكن هناك أي داع للشك فيها، واستراح خاطره واطمأن ضميره وعادت إليه روحه ونام قرير العين، ولكن يهود المدينة وحزب المنافقين وجدوا في هذا الحدث مادة للكيد وإثارة الشبهات، ونشر الشائعات عن أم المؤمنين، وتزعم هذا الإفك عبد الله بن سلول الذي ذهب يذيع مقالة السوء ونسج القصص وروج الشائعات في المدينة لإشباع حقده والكيد للرسول والمسلمين.

ومن المعلوم أن مثل هذه الشائعات تجد آذانا مصغية من ضعاف النفوس، وقليلي الإيمان ومدمني الأخبار الباطلة، وهواة الحكايات الكاذبة، حتى عم الخبر وانتشر في المدينة، وحينما شعرت عائشة بجفاء الرسول وتجافيه عن محادثتها وانشغال خاطره وتشتته وحزنه الشديد الصامت، طلبت منه أن تذهب إلى بيتها دون أن تعرف حقيقة هذا الجفاء وسر انحراف مزاجه، وفي بيتها عرفت بحديث الإفك، فاغتمت وبكت بكاء شديدا وركبها الهم والغم والحزن والأسى، واعتصمت بقول يعقوب: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ومازالت أمها تواسيها في محنتها القاسية وتخفف عنها آلامها وأشجانها وتكفكف دمعها وهي مازالت فتاة غضة شابة، وظلت على هذا الحال البائس، حتى برأها الله سبحانه في آيات محكمات(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص ٣١٤: ٣٢٠

خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور: ١١، ١٢].

هذا الحدث العابر والموقف المألوف، وجد فيه بعض المستشرقين - مثل المنافقين - فرصة لطرح التساؤلات الخبيثة ونشر الشائعات المضللة ونسج الحكايات الكاذبة - حول شرف عائشة ومادة علمية تلوكها الألسن وتنسج منها رواية محبوكة الأطراف لتلويث شرف الرسول ﷺ والخوض في عرضه وإهانة أهل بيته ، والتنفيس عن الحقد الدفين في قلوبهم ويعتمل في صدورهم؛وهدم هذا الهرم الشامخ، وسوف نستعرض بعض هذه الاتهامات الكاذبة والإشاعات الطائشة، ونرد عليهم بضبط انفعالات النفس وكظم الغيظ.

وجهة نظر المستشرقين:

١ - من أوائل الذين تناولوا حادثة الإفك، كلود سفاري الذي مر بنا كثيرا في آرائه الفجة، ومزاعمه الخيالية وافتئاته على رسول الإسلام وعلى الدين الذي جاء به، وإصراره على إنكار نبوته، والنظر إليه بوصفه قائد جيش ومشرعاً واسع الأفق، وقد توقف أمام حادثة الإفك وسرد أحداثها نقلا من كتب المؤرخين مثل؛ البخاري والطبري، ثم أضاف إليها بعض خواطره وانطباعاته الذاتية التي استمدها من فلسفته الغربية، ومن الصورة الذهنية التي انطبعت في خياله من آراء السابقين وكلها مؤسسة على الشائعات الكاذبة والأقاويل الباردة والضجة الخاوية، وقد استفتح عرضه بقوله: «لما رجع الجيش إلى المدينة اتهمت عائشة بالزنى مع صفوان ضابط شاب كان يتولى قيادة المؤخرة». ثم سرد الأحداث على لسان السيدة عائشة ، كما أشرنا إليها سابقا، وختمها بقوله: «كانت شابة وجميلة وبليغة فرجحت حجتها، وسر محمد بأن وجدها بريئة، فقد كان يحبها ورغبة منه ألا يترك أي شك في سلوكها أو أية شبهة على سمعتها، أنزل سورة النور التي تعلن براءتها في وضوح، ولما كان الوحي الإلهي قد أكد نقاء شرف عائشة، عوقب أصحاب الإفك بثمانين جلدة لكل منهم»(١).

(١) السيرة النبوية ص ١٥٢

٢ – على الرغم من أن نولدكه يقف موقف المتشكك من كل ما يتعلق بسيرة الرسول وحياته ونبوته ورسالته وسلوكياته، وحقيقة القرآن مصدره وتأليفه وجمعه وترتيبه ونزوله، إلا أنه يقبل كافة الروايات التي تهين شخصية الرسول وتحط من شأنه وتهدر شخصيته، وتظهره أنه رجل لا يراعي الآداب العامة ويفتقد الإحساس، وقد مر بنا اتهامه للرسول أنه طلق زينب زوجة ابنه بالتبني حتى يتزوجها.أما بخصوص قضيتنا فلا يشير إلى السيدة عائشة أم المؤمنين إلا إشارة سلبية وكلها معبأة بالاتهامات القاتلة، والتقييم الوقح والتوصيف الخالي من الأدب.

فبادئ ذي بدء يشكك في أحاديثها، ويقول: إنها عاشت مع الرسول ثمان سنين فقط، وكان عمرها عند وفاته ثمان عشرة عاما، ومع ذلك رويت أكثر من ألف ومائتين حديث، " وما نعرفه عن حياتها وتصرفاتها فيما بعد بوصفها تدُس المؤامرات السياسية من دون إعمال الضمير، (وهذا) يجعل الثقة برواياتها أمراً أكثر من مشكوك فيه. لكنها تحظى لدى المسلمين بمقام رفيع شبه مقدس بوصفها «أم المؤمنين» وأحب زوجات النبي إلى قلبه[1]. ثم يعلق على حديث الإفك بقوله: «مغامرة عائشة مع صفوان بن معطل، وتعامل محمد مع جاريته مارية في حجرة زوجته حفصة، لا ينبغي للمرء أن يشكك عموما في أمانة الأحاديث حول هذه المواضيع»[2].

ونرد عليه في نقاط محددة ومركزة:

أولاً: لا يمكن أن نصدق اتهامات نولدكه الفجة، ونكذب عشرات الصحابة ومئات من الرواة الثقاة ، والعلماء الذين جمعوا الأحاديث وسافروا إلى أصقاع الأرض للتأكد من إسنادها وسلسلة الرواة، وقاموا بتطبيق قواعد المنهج العلمي من الجرح والتعديل، ثم سجلوا لنا هذه الأحاديث في كتبهم المشهورة، وكانت السيدة عائشة من الرواة الثقة، وقد عولوا عليها نظرا لصحبتها للرسول ﷺ ومقومات شخصيتها الفذة وذكائها الوقاد ومواهبها المتجلية في العديد من المواقف.

---

(١) تاريخ القرآن ص ٣٤٩

(٢) تاريخ القرآن ص ٣٧٨

ثانيا: كيف نثق في رجل يقوم بدراسة القرآن الكريم ويدعي بأن الرسول ألفه بنبوغه وحسن بلاغته وجمعه من الكتب المقدسة من خلال احتكاكه باليهود الذين عاشوا في أطراف المدينة والنصارى في نجران.ثم يزعم أن القرآن ناقص من جهة وفيه إضافات من جهة أخرى، ثم يوزع سور القرآن من خلال رؤيته، ويبدل كافة الآيات من مواضعها لرؤيته المريضة.

ثالثا: لما كان نولدكه لا يعرف قدسية العلاقات الزوجية، ومكانة الشرف عند العربي؛ وقيمة السيدة عائشة ودورها الجليل مع الرسول ﷺ تشد أزره وترفع من معنوياته وتسانده في المواقف الصعبة، نقول لو عرف هذه القيم لما قال هذا الكلام، ولكنه يسقط مفردات مجتمعه، وقيمه السلبية على أشرف امرأة وأطهر امرأة، أضف إلى ذلك ألقى التهمة دون أن يقدم دليلا واحدا ولا شاهدا من صحائف التاريخ، ولذلك يجب أن يقام عليه حد قذف الحرائر.

رابعا: لماذا ينتقي من المصدر الواحد ما يتفق مع ميوله وثقافته، واتجاهاته وثقافته، فينكر رسالة محمد ويتهمه بأنه رجل حالم ، وواسع الخيال، ألف القرآن، اعتقد أن هناك وحيا من الله يفيض عليه الآيات، ثم يقبل من نفس المصدر اتهاماته للسيدة عائشة، وللسيدة زينب بنت جحش؟ولا يحرك ساكنا بالنسبة إلى الروايات ولا يعطي لعقله مساحة كافية لمناقشة كل قضية على حده وتفهم أبعادها، ويستخدم المنهج التحليلي في معرفة ملابسات كل قضية دوافعها ونتائجها.

٣- يعد بودلي من المستشرقين الذين سردوا قصة الإفك بكافة ملابساتها في ثوب قصصي كما هو منهجه في عرض سيرة الرسول، وأضفى عليها قدراً كبيراً من الحبكة القصصية والسرد الخيالي والتشويق الفني وتصوير الشخصيات بطريقة درامية وبث بعض من المحفزات للقارئ والألفاظ الموحية والإشارات التي لا تخفى دلالتها كأننا نعيش في قصة غرامية.

وقد عرض كافة تفاصيل الحادثة من بداية غزو بني المصطلق، وفقد السيدة عائشة قلادتها، إلى نهايتها، ولكن على طريقته الخاصة؛ كانت عائشة صغيرة خفيفة جدا، وقفت لحظة تحدق في فضاء الصحراء العريض، لم تجد أثرا لقومها فهزت منكبيها وجلست،

استظلت بشجرة ثم نامت، كان ينظر إليها من فوق هجين مرتفع شاب وسيم، فركت عينيها، فابتسم الشاب، سألها صفوان ما تفعله بجلوسها منفردة؟ ضحك وساعدها على الركوب، عزا قواد الجمل اختفاءها إلى الجن، لم يوافق محمد على هذه الخرافات، وأرسل جماعة للبحث عنها، أقبل بعيرها يقوده شاب جميل، وكانت عائشة جالسة حلوة كالفجر، نزلت عائشة وابتسمت لصفوان ودلفت إلى الدار دون أن تحس أنها عرضة للانتقاد كأنها اعتادت السفر في الصحراء مع شبان غرباء، كانت شخصية عبد الله بن أبي سلول شخصية خائنة شريرة، أشاع أن صفوان عشيق عائشة، إذ كان يدهشه إخلاص هذه الفتاة الفاتنة لهذا الشيخ المرتجف... وهكذا يمضي في سرد الحادثة إلي نهايتها. ثم يتوقف ليتساءل في تشكك واضح وإثارة الشبهات حول أم المؤمنين؛كيف تنطلق تبحث عن قلادتها دون أن تخبر أحدا؟

وكيف عرفها صفوان مع أنه لم يراها من قبل؟ ثم يستدرك بقوله لو كان عاشقين فهل يبلغان المدينة معا ويعرضان موقفهما للشبهات؟

ويختم كلامه بقوله: «إننا لن نعرف الصواب أبدا!!»(١)

من الواضح أن الإشكالية تكمن في عقل بودلي وثقافته وبيئته التي نشأ فيها وقناعاته الشخصية التي تنظر إلى هذه القمم بأنهم مثل أصدقائه الذين يقابلهم وهم خارجون من الخمارة ، وعدم إيمانه بقضية الوحي، واعتقاده أن الرسول كلما وقع في مأزق ادعى أن الوحي نزل عليه ثم حل مشكلته بهذه الصورة.

وإذا قارنا بين عرض المؤرخين وتصوير بودلي نلاحظ أن هناك مسافات شاسعة وخلافات جوهرية بين العرضين، والحادثة ليست فريدة في نوعها، وتخلف عائشة عن الركب مسألة عادية، ولم يقل أحدٌ من المؤرخين أن صفوان ساعدها في ركوب الجمل أو ابتسم لها وابتسمت له، وهكذا هذه الإضافات التي أضافها بودلي من خياله كأنها بهارات لإعطاء نكهة جميلة للقصة.

ولا علينا إذا لم يؤمن بودلي أننا أمام شخصيات ربانية تميزت بسمو النفس ونقاء الضمير وكبرياء الشرف والمحافظة على قيم الإسلام رباها محمد على أحسن ما يكون التربية، ونمت وأينعت في حديقة الأخلاق الكريمة، ثم إن تاريخ أم المؤمنين يدلل على كرم الأصل وحسن

---

(١) حياة محمد ص ٢٦١: ٢٧٠

المنبت والتربية والتمسك بالعفة والشرف وكرامة الإنسان.

٤ - وفي سياق عرضه لسيره الرسول أشار ويلز إلى حادثة الإفك في سطر واحد حيث يقول: «تُخلِّفت في ظرف ما على حين تابع الهودج والجمل السير في حين كانت تبحث عن عقدها بين الشجيرات؛ ولذا صار لزاما أن ينزل الله الآيات القوية ويدمغ المتقولين بالإفك»[1].

من الواضح أنه لم يحدد موقفه بالإيجاب أو السلب، واكتفى بالإشارة للحادثة، وتبرئة الله للسيدة عائشة، لكن ليس معنى ذلك أنه يؤمن بالقرآن وأنه من عند الله أو يعتقد في صدق رسالة الرسول، .إنها كلامه مجرد عرض لوجهة نظر المسلمين. وما ذكره في الفصل الذي كتبه عن الرسول ﷺ والإسلام يبين بها لا يدع مجالا للشك أنه يتكلم عن مصلح ديني أو ملك عربي استخدم الدين والشدة تارة واللين تارة أخرى في إنشاء ديكتاتورية عربية.

وعلى الرغم من أنّ وليم موير (١٨١٩ - ١٩٠٦)[2] wilam muir المستشرق الإنجليزي يعد من المتعصبين بحكم نشأته الأرثوذكسية وعمله في ميدان التنصير، وفي كتابه «حياة محمد» يقف موقفا عدائيا من الرسول إذ يرى أنه خر صريع غوايات الشيطان، إلا أنه في كتابه «حياة محمد وتاريخ الإسلام» أنصف السيدة عائشة يقول: «إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد في دحض أية شبهة أثيرت حولها»[3].

نعم إن امرأة في مكانة عائشة «لا تعرض نفسها لهذه الريبة أمام جيش، وفي وضح النهار، ولغير ضرورة، ومع رجل من المسلمين يتقي ما يتقيه المسلم في هذا المقام من غضب النبي

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية ج٣/ ١٠٠

(٢) ترجمته في فوك: تاريخ الحركة الاستشراقية ص ١٨٢، وأيضا موسوعة المستشرقين ص ٥٧٨.

عمل في الهند وتولى وظائف رفيعة شارك مع بفاندر في حركة التبشير، وضع سيرة الرسول في أربعة أجزاء، لا يختلف في مضمونه عن كتاب اشبرنجر. كان بعيداً كل البعد عن الموضوعية، ومن تقدير عطاء الحضارة الإسلامية وأهميتها بالنسبة إلى أوربة.

(٣) يعد السيد أحمد خان من الذين قاموا بالرد على موير ويرى أنه تحامل على سيرة الرسول ومسخ كثيراً من الحقائق، وألف كتابه «خطابات أحمدية» على الرغم من أنه كان من أكبر الدعاة إلى التعليم الحديث الغربي والاقتباس من الحضارة الغربية. (أبو الحسن الندوي: الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦، ص٢٧)

وغضب المسلمين وغضب الله، فتلك خلة تترفع عنها من هي أقل من عائشة منبتا ومنزلة وخلقاً وأنفة، فكيف بها في مكانها المعلوم»[١].

يقول شيخنا محمد الغزالي: إن السيدة عائشة «لا تعرف الشر، ولا تهم بمنكر، ولا تحسن الحياة إلا في فلك النبوة العالي، وهي التي تربت في حجر الصديق، وأعدت لصحبة نبي في الدنيا والآخرة»[٢].

٥- لم يتأخر بروكلمان في تناول حديث الإفك وعرضه من وجهة نظره إذ يقول: صحب الرسول زوجه المفضلة فأضاعت قلادتها فخرجت تبحث عنها ففاتتها القافلة، ولم تعد إلى المعسكر إلا في اليوم التالي بصحبة شاب كانت تعرفه وتطرق الشك إلى قلب محمد في إخلاص عائشة، فردها إلى بيتها، ولكن الله لم يلبث أن برأها[٣].

المطالع لرواية بروكلمان المختصرة يرى بعين بصيرته نيته الخبيثة وخياله المريض وضميره الميت، والصورة النمطية المترسبة في أعماقه؛ فوراء كل كلمة قنبلة موقوتة ولغم يوشك أن ينفجر؛ فعائشة تبلغ من العمر الرابعة عشر، عادت ومعها شاب كانت تعرفه، تطرق الشك في إخلاص عائشة!؟. هكذا يتناول هذا المؤرخ الذي كنا نحسبه في صف الموضوعية ويتحرى الحقيقة، نجده يغرق في بحر الشك، ويكرر مقولات السابقين المنافقين وهمزات الشياطين وكلها بنيت على الظن والشائعات والخيالات المريضة والآراء الفجة التي لا تستند إلى براهين علمية ولا شاهد من الواقع.

٦ - لم تغفل كارين التعرض للحادثة فنقلتها من مصادرها بالتفصيل المعروف، وانتشار الشائعات على ألسنة المنافقين لا سيما ابن أبي الذي وجدها فرصة للتقليل من مكانة الرسول المتعاظمة وهدم مشروعه الإسلامي، وقد شارك في الفتنة بعض المهاجرين، ومشاورته لبعض أصحابه وتعدد الإجابات التي تلقاها، وذهاب عائشة إلى بيت أبيها للاستجمام بعيدا عن هذه الشائعات المدمرة وإجابتها للرسول حينما سألها عن

---

(١) عبقرية محمد ص ١٠٠

(٢) فقه السيرة، دار الشروق، القاهرة، ص ٢٢١

(٣) تاريخ الشعوب ص ٥٤

حقيقة الموقف: «فصبر جميل والله المستعان»، وإيقانه أنها بريئة طاهرة، ثم نزول الوحي وهو في بيت أبي بكر، وإعلان الرسول ﷺ براءتها أمام الجميع وإدانة المشاركين في الإفك، وفي ثنايا العرض يبرز احترامها لزوجات النبي، وتوقير مكانة الرسول في مجتمع المدينة، ووثوقها في براءة عائشة ووصفها بأنها امرأة ذات شجاعة وكبرياء، ومعالجتها للموقف دليل على الثقة التي يمنحها الإسلام للمرأة[1].

٧ . نود أن نشير إلى أن مالك بن نبي تعرض إلى حادثة الإفك ورأى أنها تعد اختبارا حاسما للدعوة وأن الرسول ﷺ تأثر بإيحاء المحيطين به فأرسل عائشة إلى منزل أبيها، وقد احتجت لهذه الإهانة، «أما النبي فلم يطلقها كيلا ينشئ سابقة قانونية، ولم يعف أيضا كيلا يعرض دعوته العلوية للخطر، ولقد اقتضى هذان الاعتباران لديه حالة معينة كان يعاني منها خلالها الشك في سلوك زوجه من ناحية، والتردد في اتخاذ قرار ظالم من ناحية أخرى»[2].

هذا طرح لا بأس به، لكن وجه اعتراضنا اتهامه الرسول ﷺ أنه كان يعاني حالة من الشك في سلوك السيدة عائشة، والشك حالة من التردد بين النقيضين نظرا لتكافؤ الأدلة، ونعتقد أن الرسول ﷺ لم يخطر بباله (مسألة الشك أبداً في سلوك عائشة) إنها حالة التردد والقلق التي عاش فيها كان من جراء الحرب النفسية التي شنها عليه المنافقين ومن لف لفهم، فهو يعيش في ألم ممض وعذاب من الحيرة وقلق عنيف بين وثوقه تمام الثقة في براءة زوجته التي رباها في كنفه الطاهر وحضانته الكريمة ورضعت من نبع النبوة، ثم إنها من أصول طيبة فقد نبتت في أنظف البيوت التي عبقت بالإيمان في مرحلة انبلاج الدعوة، وكيفية حصوله على الدليل المادي لإظهاره وإعلانه حتى يقضي على حرب الشائعات، ويبرئ عائشة، ولم يكن هناك بد من الانتظار حتى يأتي جواب السماء الذي أعلن براءتها.

لذلك نعتقد أن تحليل الدكتور هيكل كان أدق للموقف وتصوير صادق وصائب لحالة الرسول النفسية وما يعتمل داخله من ألم وحزن يقول: «بلغت هذه الأخبار محمداً

---

(١) سيرة النبي ص ٢٩٧ : ٣٠٠، وأيضا محمد نبي لزماننا ١٥٦ : ١٦١

(٢) الظاهرة القرآنية ص ٢٧٩ : ٢٨١

فاضطرب لها ماذا؟عائشة تخونه مستحيل؛إنها الأنفة والإباء، وإن لها من حبه إياها وشدة عطفه عليها ما يجعل مجرد ظن كهذا إنما دونه كل إثم!»(١).

نستنتج مما سبق أن بعض المستشرقين وجدوا في هذه الحادثة ما يشفي هواهم في طعن شرف الرسول ﷺ بخاصة وسيرته بعامة، وممارسة هوايتهم في التوسل بكل واقعة تزري بموقفه أو تهين زوجاته وتنال من شرفهن وعفتهن، وبعضهم ترك لخياله العنان وعالج القضايا بهوى واضح وتعصب عنصري وحقد مكبوت.

ونعتقد أن بعض المستشرقين لو أرادوا أن يبحثوا عن تفاصيل هذه الحادثة ويتحرّوا الحقيقة، ويكون بحثهم بحثا علميا مجردا من الهوى والتحيز لعلموا ذلك، لكن من الواضح أن عدم معرفتهم بالدين الإسلامي وفهمهم له، مرده أنهم لا يرغبون في المعرفة الصحيحة، على حد تعبير سوذرن(٢).

رابعا: فرض الحجاب:

يعد فرض الحجاب من الأوامر الإلهية التي قررتها الآيات القرآنية في أسلوب واضح وتعبير ساطع وتوجيه قاطع، وجاءت في سياق تنظيم العلاقات الاجتماعية، وإعادة الاعتبار للمرأة العربية وتحريرها من قيود العادات والتقاليد الجاهلية التي سجنتها وأهانت كرامتها، وقد نظر لها المجتمع الجاهلي نظرة دونية وحرمها من كافة حقوقها، فقد حرمها من الميراث والتعليم واختيار شريكها في الحياة و المشاركة في أمور الحياة العامة ليس هذا فحسب بل وصل الأمر إلى وأدها في التراب خوفا من العار، وكان من جملة هذه التنظيمات الاجتماعية فرض الحجاب صيانة لأنوثتها وحفاظا على كرامتها وتوجه الأمر في بادئ الأمر إلى نساء النبي في آيات محكمة قاطعة ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ثم نزل التشريع إلى كافة نساء المسلمين، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ

---

(١) هيكل: حياة محمد ص ٣٦٤: ٣٦٧

(٢) ريتشارد سوذرن: صورة الإسلام في أوربة في العصور الوسطى، ترجمة د. رضوان السيد، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٦٣ ، وأيضا معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٤، ص ٦٣

يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١].

وهنا ملحظ لطيف في هذا الخطاب الإلهي، وسبر لأغوار النفس الإنسانية وما يحاك في الصدور؛فلما كانت عواطف الإنسان وميوله الوجدانية وانفعالاته الإنسانية ومشاعر الحب والكره، تتكون من خلال مراحل الإدراك والوجدان والنزوع، يلاحظ أن النص الإلهي، أراح المسلم وطهر قلبه من خيالات المراهقة ووسوسات الشيطان وشهوات الجسد، فلطف به وطلب منه، أن يغض بصره عن محارم الآخرين ولا يتأمل في محاسن النساء، فقطع عليه الطريق، وأراح خاطره ومنع النتائج المترتبة على ذلك وهي مرحلة الوجدان أي الميل العاطفي واندلاع الشهوة وكذلك استبعاد عملية النزوع والتحرك تجاه الشيء المرغوب فيه.

كذلك من مقاصد الشريعة حفظ العرض عن طريق إقامة علاقات نظيفة بين الرجل والمرأة وتطهير النفوس من الرغبات المحمومة و الوساوس الخفية، و المحافظة على كرامة المرأة من الابتذال وصون مفاتنها من العيون المتلصصة والقلوب الضعيفة والنفوس الحقيرة والجيب فتحة الصدر في الثوب. والخمار غطاء الرأس والنحر والصدر. ليداري مفاتنهن، فلا يعرضها للعيون الجائعة؛ ولا حتى لنظرة الفجاءة، التي يتقي المتقون أن يطيلوها أو يعاودوها، ولكنها قد تترك كميناً في أطوائهم بعد وقوعها على تلك المفاتن لو تركت مكشوفة! إن الله لا يريد أن يعرض القلوب للتجربة والابتلاء في هذا النوع من البلاء![1].

على أن بودلي كما هي عادته يعتقد بأن الرسول ﷺ مصلح اجتماعي وقائد سياسي عبقري مثل هانيبال ويوليوس قيصر ونابليون، وأنه بعد أن استقر في المدينة وعزم على تأسيس دولة جديدة، قام بمجموعة من التحصينات العسكرية، والتنظيمات العملية منها؛ وضع أسس الميراث وتحرير العبيد من الرق وكذلك تحريم الخمر، وإلى هنا فلا غبار على كلامه، ولا لوم على ما ذهب إليه.ولكنه حينما يمضي في الحديث عن فرض الحجاب يبرر ذلك بأن الأمر يرجع إلى غيرة الرسول ﷺ الكهل على نسائه الشابات الحسناوات، ولنسمع ما يقول: كان تشريع محمد للحجاب يرجع لأسباب شخصية؛فقد أوشك على الشيخوخة.

---

(١) الظلال تفسير سورة النور.

(٢) حياة محمد ص ٢٣٣: ٢٣٥.

أما أزواجه فكن في نصف عمره، ناهيك عن أنهن "كن جذابات جميلات تتدفق الدماء الحارة فيهن «وكان زواره في بيته يفدون للاستفسار عن المسائل الدينية وبعضهم يتعللون بأسباب تافهة لإلقاء نظرة على زوجاته الشابات، ولما كان من الصعب منعهم» فالتجأ كما اعتاد إلى ربه فأوحى إليه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ ﴾(1).

لاشك أن بودلي يسقط مفاهيم مجتمعه المادية وسعاره الجنسي على المجتمع الإسلامي الذي شيده الرسول ﷺ على شدة الورع وقيمة العفة وحفظ العرض، وقد ذكرنا سابقا أن هذه التشريعات سماوية أوحى بها الله إلى رسوله، فكيف نقنع بودلي وإخوانه أن محمدا مبعوث من الله لهداية البشرية، وتحريرها من أمراضها النفسية ورغباتها المشبوبة وتنظيم العلاقات بين الرجل والمرأة على أساس المحبة والمودة والشرف والطهارة، أضف إلى ذلك أن إثارة الغبار حول أمهات المسلمين كلام يدل على نفسيته المريضة وخيالاته الصبيانية وأنه مريض بالوسوسة، ومتأثر بمدرسة سيجموند فرويد (ت ١٩٣٩).

وأخيرا اتهام الصحابة بسوء النية وخبث الطوية اتهام باطل وسوء ظن مرفوض فهؤلاء الصحابة الأجلاء كانوا ينظرون إلى زوجات الرسول أنهن أمهاتهم كما ورد في التنزيل، وعموما فهذا التفكير المعوج يعكس طبيعة بيئة بودلي الساقطة والتي يباح فيها الاعتداء على الأعراض واتخاذ الخليلات والسماح بإقامة علاقات شاذة بين المحارم وغير المحارم(2).

---

(٢) شاهدت في البلاد التي ليس فيها قيد واحد على الكشف الجسدي، والاختلاط الجنسي، بكل صوره وأشكاله، أن هذا كله لم ينته بتهذيب الدوافع الجنسية وترويضها. إنما انتهى إلى سعار مجنون لا يرتوي ولا يهدأ إلا ريثما يعود إلى الظمأ والاندفاع! وشاهدت الأمراض النفسية والعقد التي كان مفهوماً أنها لا تنشأ إلا من الحرمان، وإلا من التلهف على الجنس الآخر المحجوب، شاهدتها بوفرة ومعها الشذوذ الجنسي بكل أنواعه.. ثمرة مباشرة للاختلاط الكامل الذي لا يقيده قيد ولا يقف عند حد؛ وللصداقات بين الجنسين تلك التي يباح معها كل شيء! وللأجسام العارية في الطريق، وللحركات المثيرة والنظرات الجاهرة، واللفتات الموقظة (الظلال، سورة النور) ونفس هذه الفكرة أكدها جلال أمين في كتابه علمتني الحياة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٧، وقد تعلم في انجلترا وتزوج منها.

أضف إلى ما سبق أن الحجاب الإسلامي لم يكن بدعا ولكنه أمر معروف في الحضارات السابقة وكان معلوما منذ عهد سيدنا إبراهيم وفي اليهودية، وحينها رأت رفقة التي أصبحت زوجة إسحاق وهو يمشي في الحقل وضعت البرقع على وجهها، وأكدت النصرانية على الحجاب وللسيد المسيح تعاليم في هذه القضية، وصورة مريم العذراء مشهورة ومعلومة للجميع وهي تلف رأسها وعنقها بوشاح كبير، وكذلك السمت الوقور للراهبة التي تغطي جسمها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها يضفي عليها احتراما وهيبة ووقارا وتقديراً.

وجاء الإسلام و«الحجاب في كل مكان وجد فيه تقليد سخيف وبقية من بقايا العادات الموروثة لا يدري أهو أثرة فردية أم وقاية اجتماعية بل لا يدري أهو مانع للتبرج وحاجب للفتنة أم هو ضرب من ضروب الفتنة والغواية. فصنع الإسلام بالحجاب ما صنعه بكل تقليد زال معناه وتخلف بقاياه بغير معنى، فأصلح منه ما يفيد ويعقل ولم يجعله كما كان عنوان لاتهام المرأة أو عنوانا لاستحواذ الرجل على ودائعه المخفية، بل جعله أدبا خلقيا يستحب من الرجل ومن المرأة ولا يفرق بين الواجب على كل منهما إلا لما بين الجنسين من فارق في الزينة واللباس والتصرف بتكاليف المعيشة وشواغلها»[1].

وتستهجن السيدة كارين نظرة الغرب للحجاب الإسلامي أنه «رمز للقمع الذكوري» وتدافع عنه دفاعا حاراً وترى أنه ليس حطا من شأن النساء، بل رمزا على رفعة شأن المرأة ودليل على الاحتشام لكنه لا يطلب منهن أن يحجبن أنفسهن في جزء منفصل من المنزل، وقد أخذت نساء الصليبيين فيما بعد في ارتداء الحجاب على أمل أن يحسن أزواجهن معاملتهن كما هو عند النساء المسلمات[2].

الحقيقة أن الغرب يقلب المفاهيم قلبا لا أخلاقيا تبعا لهواه وشهواته، فالحجاب، قمع ذكوري وحد من حرية المرأة، والاحتشام، سجن للمرأة، والتبرج والانحلال والاستحمام عراه على الشواطئ؛ انطلاق وحرية، والممارسات الجنسية للفتيات قبل الزواج؛ تجارب مفيدة وتدريب للحياة المستقبلية، وتبادل الزوجات؛ تحطيم للملل وقضاء على رتابة الحياة الزوجية،

---

(١) عباس العقاد: المرأة في القرآن، نهضة مصر، القاهرة، بدون، ص، ٥٩

(٢) سيرة النبي ص ٢٩٥

واكتشاف عوالم جديدة، والعلاقات الآثمة بين الرجل والمرأة صداقة وتقدم ومدنية.

خامسا: حياة الرسول ﷺ المادية ودعوته إلى تعدد الزوجات:

يعد الإسلام دين الوسطية، إذ يجمع بين دوافع الجسم الفطرية وأشواق الروح النورانية، أي مطالب الإنسان المادية ونزوعه إلى عالم الروح والسماء، استجابة لتكوينه الأول الذي يجمع بين قطعة الطين التي تجذبه إلى أسفل سافلين، ونفخة الروح التي تعرج به صعودا إلى عالم الأنوار، ويعالج هذه القضية معالجة واسعة كي يحقق للمسلم السلام الداخلي والاتزان العاطفي والصحة النفسية، وقد دعا إلى إشباع دوافعه الفطرية؛من الأكل والشرب والجنس باعتدال دون إسراف أو إجحاف في أي دافع من هذه الدوافع، وفي الوقت نفسه نبه الإنسان على تنمية الجانب الروحي من خلال الدعاء والإقبال بكنه الهمة على الله، والتضرع إليه وإخلاص العبودية لرب العباد، والإعلاء من شأن هذه الدوافع في أعمال تفيد الفرد والمجتمع، واستنكر إقامة أي حرب بين الجانبين المادي و الروحي.

وفي الوقت نفسه رفض الاستغراق في الجانب الحسي والعكوف على اللذات والعبّ منها كأنه حيوان ليس له طموح إنساني أو مستقبل باهر، والركون إلى الأرض كما نرى في سلوك اليهود، أو كبت الدافع الجنسي و النظر إليه نظرة كراهية ونفور واستقذار كما نرى في المسيحية التي تدعو إلى الرهبانية وقطع النسل وتعاند الفطرة الإنسانية وتحاربها ، وتقيم الأديار لذلك[1].

الشاهد أن الإسلام يحقق التوازن بين متطلبات الجسم وتطلعات النفس ، بين نداء الجسد وأشواق الروح، والمعراج إلى الأفق السامق، ويجمع بين الدنيا والآخرة.وقد تكرر ذلك في العديد من تعاليم القرآن. ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

[القصص: ٧٧].

---

(١) الفطرة الإنسانية في أصلها متناسقة مع ناموس الكون، فحين يخرج الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس، فإنه لا يصطدم مع الكون الهائل فحسب، بل يصطدم أيضا بفطرته التي بين جنبيه، فيشقى ويتمزق ويحتار ويقلق، ويحيا كما تحيا البشرية اليوم في عذاب نكد. (سيد قطب: هذا الدين، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٢٦).

ولاشك أن الرسول ﷺ كان هو المثال الذي جسد هذه الفلسفة الدينية في سلوكه، ونقلها من دنيا النظريات إلى الواقع التطبيقي، أو من القوة إلى الفعل بلغة الفلسفة؛نعم قام الرسول بتطبيق هذه المنظومة العقائدية والتشريعية تطبيقا حسيا حتى أصبحت معالم على الطريق يهتدي القادمون بنورها ولوامعها، وتجلت أعظم ما يكون التجلي وتحققت في دنيا الناس على أفضل ما يكون التطبيق العملي، واقتدى به صحابته الكرام وكل مسلم أراد أن يهتدي بهداه.ويستضيء بأنواره.

يقول ويلز الذي مر بنا وقد تناولنا بعض آرائه، وهو متحامل على الرسول ﷺ ويهاجم الإسلام: «لا مجال لإنكار أن الإسلام يمتاز بكثير من الصفات الممتازة النبيلة»[١]. أضف إلى ذلك أنه دينا واقعيا وعمليا؛ يرى أن الذكاء الإنساني والإيحاء (الوحي) الإلهي يعملان جنبا إلى جنب في توافق وانسجام، فيما ذهبت إليه كارين[٢].

يقول محمد أسد المسلم التقي الذي اقتنع بالإسلام، وفهم مرامي مبادئه وجوهر رسالته: تنكر التعاليم الإسلامية قيام تعارض فطري بين الجسم والروح، ويعد هذين الجانبين عنصرين لا ينفصلان في حياة الإنسان، وهما مرادان لله، ولذلك فهما متساويان في الإيجابية، ومن أجل ذلك لا يمكن أن يكون «خلاص» الإنسان متوقفا على إنكار أو رفض الدوافع الجسمية، بل يتحتم هذا الخلاص بالارتباط الإيجابي لهذه الدوافع بمطالب الروح ووحي الضمير[٣].

نعم إن الإسلام دين إلهي؛لم يأت ممثلا لحالات روحية، أو شعائر تعبدية أو أفكار للاعتقاد وحسب، بل جاء بطبيعته يمثل منظومة حضارة إنسانية شاملة متكاملة، لا يكاد يعزب عن هيمنتها شيء في مناحي النشاط الإنساني، على المستوى الفردي، والمستوى الاجتماعي[٤].

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية ج٣ / ١٠٣

(٢) سيرة النبي ص ٣٧١

(٣) الإسلام في مفترق الطرق ص ١١٧

(٤) جمال سلطان: الغارة على التراث، ص ١٩

ولا شك أن هذه المبادئ القويمة والأخلاق العالية والتعاليم السماوية تجسدت في سلوكيات الرسول ﷺ أسطع ما يكون التجسد، وظهرت جلية في حياته اليومية قولا وفعلا وسلوكاً، إذ كان مثالا للزهد في طيبات الحياة وعاش حياة التعفف والتقشف والكفاف، وكان أنموذجا حيا لهذه الأوامر فقد كان قرآنا يمشي على الأرض، وقد اقتدى به أصحابه من بعده، وكذلك ملايين المسلمين إذ يمثل لهم المنارة الهادية والسراج المنير وأنموذج الإنسان الكامل.

بعد عرض صورة صحيحة لموقف الإسلام من دوافع الإنسان، دعونا نناقش وجهة نظر المستشرقين وصورة الرسول ﷺ في كتاباتهم.

١- الويس شبرنجر (١٨١٣ - ١٨٩٣)

في المعركة الحامية التي خاضها هذا المستشرق في كتابه الذي ألفه حول حياة الرسول، لم ينس الهجوم عن حياته الخاصة ونقد مسألة زواجه من أكثر من زوجة يقول: على الرغم من أن تعدد الزوجات كان أمراً شائعا بين العرب، إلا أن الإفراط فيه كان يعد عملا غير أخلاقي ، ولذلك وجد محمد أنه لابد أن يهدئ الرأي العام بوحي خاص:فلقد أباح الله له في الآية ٤٩ من سورة الأحزاب الحرية المطلقة في عدد واختيار الزوجات أكثر من بقية الرجال. ثم يضيف: إن الهدف الوحيد من وراء إفراطه في عدد الزوجات أفصح عنه في حديثه: حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة.علاوة على أن مؤرخي السيرة يعترفون أنه وهب قوة جنسية تعادل ثلاثين رجلا[١].

سوف نرد على نقطتين ونؤجل باقي الرد حينما نقوم بالرد على كل المستشرقين.

قوله حبب إلي من دنياكم النساء؛ مقولة لا غبار عليها، فالمرأة؛ أم وأخت وزوجة وابنة وعمة وخالة، وهي خلية من خلايا الأسرة وتكون وحدة عضوية قوية لها وتمثل ينبوع الحنان كله والقلب الكبير والصدر الحنون الذي يأوي إليه الإنسان، ولها فاعلية ومهمة في الحياة غاية في الأهمية لا تقل عن دور الرجل، هذا من جهة.

---

(١) حياة محمد وثقافته ص ٦١ (نقلا عن بدوي: دفاع عن محمد ص ٧١).

ومن جهة أخرى بث الله في أعماق الرجل والمرأة هذه الرغبة القوية التي تسيطر على كيان الإنسان، وجعل الدافع الجنسي متبادل بين الجنسين حتى يحافظ على استمرارية النوع، ولا يوجد إنسان صحيح الجسم متزن النفس سليم التفكير لا ينفعل حينما يشاهد أي امرأة، استجابة للفطرة المغروسة في خلاياه وذراته والرغبة العنيفة التي تجري في عروقه؛إن هذه الغريزة القوية دفعت امرأة العزيز وهي سيدة القصر وزوجة عزيز مصر أن تلغي أوامر العقل ونداء الضمير، وتنساق وراء غريزتها وعواطفها المشبوبة ورغبتها الملحة فلوثت شرفها وسمعة زوجها حينما تعرضت بالإغراء لسيدنا يوسف الذي يعد خادما عندها.، ولذلك نظم الله هذه الرغبة عن طريق الزواج لإشباعها بالطريقة الصحيحة حتى يعمل الإنسان بعيدا عن نداء الجسد وسعار الجنس وقلق النفس.يقول العقاد: «لم يودع الله في نفس الإنسان بعد حب ذاته غريزة هي أقوى من الحب ولا أشد منها تغلغلا في أطواء نفسه، وابتعاثا لكوامن استعداده وخفايا مواهبه، ولا أغلب منها سلطانا على مجامع هواه، وبواطن خوالجه وقواه»[١].

النقطة الثانية: من المعلوم أن بعض المؤرخين يبالغون أحيانا في خلع بعض الصفات على الرسول ﷺ للإعلاء من شأنه ورفعه عن مقام البشرية، وعلى فرض أن هذه المقولة صحيحة، فإن علماء النفس يؤكدون قضية الفروق الفردية بين البشر نظرا لعوامل الوراثة وطبيعة البيئة، وأن قدرات البشر تتفاوت مابين الضعيف والمتوسط والقوي، ولو أخذنا أي قدرة من قدرات الإنسان مثل حدة البصر أو الطاقة الجنسية أو الذكاء فسوف نجد أن أغلبية الأفراد تمثل القسم الوسط أي متوسطي الذكاء ثم هناك أقل من المتوسط ثم الأغبياء ، وفي الناحية الأخرى نجد الأذكياء ثم العباقرة[٢].

في ضوء ذلك كما أن الله وهبه طاقة روحية وسعة من العقل وتوقد الذهن، كذلك أتاه طاقة جنسية فريدة وهذا أمر لا غبار عليه ونشاهده في حياتنا اليومية عند بعض الرجال والنساء وكتب علم النفس مليئة بمثل هذه الأمثلة الفذة.

---

(١) خلاصة اليومية ص ٣٤٧

(٢) أحمد راجح:أصول علم النفس، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٣٩٠

٢ - بارتلمي سانت هيلير.(١٨٠٥- ١٨٩٥)(١)

كتب المستشرق الفرنسي بارتلمي سانت هيلير b.s.hilaire فصلا بعنوان «محمد في القرآن»، ملأه بمجموعة أكاذيب، وجملة من الافتراءات الفاضحة، وكذلك إثباته العديد من القضايا ثم ينقضها مرة أخرى دون أن يهتز له عصب من الخجل، أو يعيد قراءة ما كتبه، اسمعه وهو يمدح القرآن ويشيد بأسلوبه: «إن القرآن قمة الإبداع في اللغة العربية، .... إن ما أجمعت عليه الآراء من جمال شكله ليضارع جلال مضمونه، وإن كمال صياغته لا يهبط بالعبارة عن المستوى السامي لموضوعه. إنها لمنقبة عظيمة أن يبقى القرآن أجمل أثر أدبي في لغته ولست أستطيع أن أجد لذلك نظيرا في التاريخ الديني للبشرية أجمع، وعلينا أن نضع نصب أعيننا هذه الحقيقة إذا كان لنا أن نقدر ذا التأثير الخارق للقرآن، الذي كان من السهل الإيمان بأنه صنعة إلهية»(٢).

وبعد الإقرار الصريح من أن القرآن وحي إلهي لا يتورع بعد ذلك أن يقرر أنه من وضع محمد، وفي أحيان ليست بالقليلة يورد الاتهام دون أن يسوق عليه الدليل. لاسيما حينما تكلم عن وضعية السور القرآنية وترتيبها في المصحف. ثم يمضي في تخليطه فيزعم أن به عيوباً ليست بالقليلة ، دون أن يلتفت لما سبق ذكره.

وفي جرأة غير محمودة يزري بوضعية المرأة في الإسلام ويزعم أنها ليست شيئا مذكوراً في الشريعة الإسلامية وأنه في شقائها أقل من المرأة الإغريقية والرومانية والمسيحية، ثم يمضي يقول: «إن تعدد الزوجات ليسوء إلى هذه المجتمعات البائسة، ولقد كان في استطاعة القرآن أن يلغيه بدلا من أن يثبته»(٣).

من يقرأ هذا الكلام يدرك أن بعض المستشرقين يكتبون دون أن يشاهدوا المجتمعات العربية، ودون أن يطلعوا على حقيقة مكانة المرأة في الإسلام، ويقارن بين وضعيتها المتردية في الجاهلية، والنقلة الحضارية التي نقلها الإسلام حيث أعطاها حقوقا واسعة؛منها حق اختيار

---

(١) كاتب سياسي بحث في أديان الشرق ومن أهم مؤلفاته: بوذا الهندي، محمد والقرآن (١٨٦٥)، ومصر وقناة السويس.(العقيقي، المستشرقون ج١ / ٢٠٤)

(٢) هيلير: محمد والقرآن، باريس، ١٨٦٥ ص ١٧٩ فصاعدا (نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ١٠٥)

(٣) هيلير: محمد والقرآن (نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ١١٢).

الزوج والتملك والتعلم وممارسة حقوقها السياسية، وقد قامت بدور كبير في عصور الحضارة الإسلامية فكان منها العالمة والمربية والملكة، وهو نفسه أشار إلى إعجابه بموقف المرأة المسلمة في «بيعة العقبة»، وهذه قضية في يومنا الحاضر قتلت بحثا ودراسة ولا تحتاج إلى رد.

٣ - فرانتس بوهل (١٩٣٢)

تابعنا اتهامات هذا المستشرق السابقة للرسول، وبصدد قضيتنا لم يتورع أن يدخل هذا المعترك الآسن، ويقذفنا بمزاعمه البائسة ويتهم رسولنا باتهامات من وحي خياله وحضارته المادية ويسقط واقع مجتمعه علينا بقوله: يبدو لنا محمد بصورة مثيرة للاشمئزاز؛حين يجعل الوحي في خدمة شبقه الجنسي ومحاولة نفي التهمة عنه مشروع جرئ لكنه بلا أمل. و كأنما يتراجع عن قوله ناظرا لطبيعة المجتمع العربي فيقول: «بأن محمدا تزوج هذا العدد الكبير من النساء ليتألف القبائل»[1].

وقد علق عبد الرحمن بدوي على كتابه بأسلوبه الذي يشبه الإعصار المدمر بقوله: لقد وقع فرانتس بول في نفس الخطأ (أي اتهامه الرسول) حيث أكد بكثير من الصلف كما هو الشأن طوال كتابه الذي يطفح بالكراهية والتعصب ضد محمد والإسلام؛ وفي رأيي إن كتابه «حياة محمد» هو أحد أكثر الكتب حقارة عن النبي والإسلام[2].

الشاهد أن بوهل مازال يمتح من أطلال الموروث الفكري الكريه من قرون العداء للإسلام قرون العصور الوسطى وعصر النهضة؛ومن جمهرة المستشرقين الذين تنضح قلوبهم حقدا على انتصارات الإسلام.

٤- راي بروكلمان

من سلسلة الاتهامات العريضة التي يوجهها المستشرقون إلى الرسول ﷺ اتهامه بالنزعة المادية، واستغراقه في طيبات الدنيا وملذاتها والعب من كؤوسها وأنه ظل يتقلب في أطايبها ويعيش حياته بالطول والعرض كما نقول بلغتنا المعاصرة، وهذا بطبيعة الحال ينسحب على الإسلام، إذ بالمنطق العقلي إذا كان مؤسس المذهب أو الدين شيمته هكذا فبالضرورة

---

(١) حياة محمد، نقلا عن كتاب بدوي: دفاع عن محمد ص ٧٣ .

(٢) دفاع عن محمد ص ٧٣

المنطقية أن ديانته تتسم بهذه النزعة المادية.

ومن الذين صرحوا بذلك وأشاعوا هذه التهمة وراحوا ينسجون صورا خيالية من مستنقع اللاشعور المستشرق الألماني بروكلمان إذ أشار وهو يتكلم عن مرض الرسول والضعف الذي انتابه يعلل ذلك بسبب «المصاعب التي حفلت بها سنواته الأخيرة والحياة الزوجية الواسعة التي عاشها»[١].

٥- وجهة نظر بودلي:

أما المستشرق الرحالة بودلي فأطلق لخياله العنان كما تعودنا منه، وراح يسبح في صحراء العرب ويتأمل نجومها، ويتخيل أحداثا لا أثر لها في الواقع، إذ وصف الإسلام أنه غارق في المادية وأنه أقل روحانية من المسيحية ثم يتابع كلامه فيقول: «في المسيحية آفاق من الأخلاق، وعوالم من الفكر لا وجود لها في ديانة محمد (هكذا) كما أن أسس المثل العليا للحياة المسيحية أكثر روحانية، كما أن حياة منشئ الإسلام تفوق في ماديتها حياة المسيح، وليس في الإسلام حياة روحية بالمعنى الصحيح؛لأن حياة محمد - كما اعترف بذلك - لم تكن روحية، و ذلك من أسباب شهرتها وانتشارها»[٢].

ونجمل الرد على الجميع في العناصر الآتية:

الحقيقة إن «إرادة الإغراب عند المستشرقين قوية جامحة» على حد تعبير ناصر الدين، اتين دينيه[٣] (١٩٢٩) وتتجلى هذه واضحة عند بوهل وبودلي ومرجليوث؛ ثم ما حقيقة «الشبق الجنسي» عند رجل تجاوز الخمسين وعاش خلاصة فتوته وزهرة عمره مع امرأة واحدة، إذا كان هذا السلوك عند رجل في العشرينات أو الثلاثينات لاتفقنا معه، أما غير ذلك فرؤية

---

(١) تاريخ الشعوب ص ٦٧. وفي الوقت نفسه يصف الرسول بأنه زعيم جماعة سياسية، ورجل دولة موهوباً لا يثني عن هدفه النهائي (٦٨).

(٢) حياة محمد ص ١٢٣. وفي مكان آخر يقول: كان أكله وشربه ومعيشته في غاية البساطة، وأكلته الرئيسة من التمر والخبز واللبن، واللحم أحيانا.(ص ٢٧٤) وبقيت مساكن محمد متواضعة، وتقسم بسعف النخيل ثم تطلى= =بالطين، وكانت الستائر المسدلة من الصوف الأسود (ص ٢٧٦) إن حياة محمد لتبدو للمسلم الأمريكي أو الإنجليزي حياة بدائية، حياة تقشف.(ص ٢٧٨)

(٣) اتين دينيه: محمد رسول الله، ترجمة عبد الحليم محمود ص ٢٧

عدائية ومحض هراء وادعاءات يكذبها الواقع.

أما بودلي فيتعجب الباحث من طرح هذا الرجل الذي سبق له أن دفع هذه التهمة، وسفه آراء الذين قالوا إن محمدا رجل تغلب عليه النزعة المادية فقال: «إن أعداء محمد يهاجمونه هجوما عنيفا غير مشروع بسبب تعدد الزوجات، فلطالما سمعت أن نجاح الإسلام يعود إلى أنه دين شهواني، ومن المحال أن يعزى انتشار ديانة عظيمة لسبب تافه كهذا»[1].

ومن المؤكد أن بودلي متأثر بالميراث الكريه الذي ورثه عن قساوسة العصور الوسطى واتهاماتهم البشعة بحسية الحضارة الإسلامية وماديتها بعامة وشهوانية رسولنا بخاصة، ومترسب في لا شعوره مقولات ساقطة مثل قول توما الأكويني: إن محمدا (ماحوميت) قد أغوى الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية، ومن ثم لم يجد الشهوانيون أي صعوبة في إتباع تعاليمه.هذا من جهة.

ومن جهة ثانية إن من أسس العبادات الإسلامية أنها قائمة على القيم الأخلاقية، والنزعة الروحانية، وهو نفسه قد استعرض هذه العبادات؛فالصلاة علاقة روحية وحوار متواصل بين العبد وربه، وتعد نوعا من المناجاة الخفية ومعراجا روحيا للصعود إلى السماء والتطهر من الصغائر وترقيقا للقلب، وطلب المغفرة والرحمة، والتوسل إليه سبحانه بتحقيق المطالب والرغبات، والشكر الدائم على نعمه التي أفاضها على الإنسان وخلقه في أحسن تقويم ووهبه هذه الملكات والمواهب ومنحه العقل والفهم.

وكذلك الصوم عبادة سرية بين العبد وربه وهي نوع من التدريب الروحي للإنسان حينما يمتنع عما أباحه الله في شهر رمضان ، ويحرم نفسه من الطيبات ويقمعها عن الشهوات، فتتطهر نفسه ويتحرر من الشهوات الماديات وينعتق من أسرها، ويدرب نفسه على ضبط إرادته وتحمل الحرمان من الطيبات، فتصفو نفسه ويتألق ضميره، ويعانق آفاق النجوم ويعيش في أنوار الفيوضات الروحانية والإشراقات الربانية.

وكذلك الزكاة تزكية للنفس ومحاربة للأثرة والأنانية التي تتسرب داخل الكيان

---

(١) حياة محمد ص ١١٠

الإنساني، وتحنن القلب على الفقراء والمساكين، وتدعم الشعور بالتعاطف الوجداني معهم وتحقق مبدأ التكافل الاجتماعي في الإسلام.

وهذا ما نستطيع أن نقوله عن الحج حينما يلبس المسلم ملابس الإحرام، ويتوحد مع المسلمين وتزول الفوارق بينهم؛ فالكل سواء أمام الله ليس هناك فرقا بين الأمير والغفير والغني والفقير والأبيض والأسود، وكافة القلوب تعيش في ضراعة كاملة وابتهال متواصل ونداء واحد ودعاء تلهج به القلوب قبل الألسنة، وتوجه قلوب الملايين في وقت واحد بنداء واحد «لبيك اللهم لبيك»[١].

ومن جهة ثالثة من يتابع آيات القرآن يدرك بلمحة واحدة كيف جمع بين الدنيا والآخرة في وحدة عضوية واحدة؛ وحث أتباعه على بذل الجهد والسعي في تنمية الحياة الدنيا ورقيها وهي المعبر الموصل للفوز بالآخرة.

ومن المعلوم أن سيرة محمد لم تشوبها شائبة قبل البعثة وبعدها، وكانت حياته كما ذكر بودلي نفسه مثلا للعفة والأمانة والصدق وتحمل المسؤولية والمشاركة الوجدانية مع الآخرين، وتشرح كتب السيرة حياة الشظف والحرمان التي عاشها، إذ كان يربط على بطنه حجرا ويقوم الليل كله وحياته كانت ابتهالا مستمرا وتسبيحة متواصلة لا يفتر لسانه عن ترديدها بالغدو والآصال، وإذا كف لسانه نشط قلبه ونهضت جوارحه وكيانه في الضراعة إلى الله[٢].

أما إذا كان يشير من طرف خفي أن عيسى لم يتزوج، فهذا يرجع إلى قصر حياة المسيح فلم يتزوج ولم يحرض تلاميذه على عدم الزواج، وتلاميذه تزوجوا والتعدد كان معلوما في

(١) من تناقضات هذه الرجل أنه يعود يمدح الإسلام والرسول فيقول: الحج أعظم شاهد على ديمقراطية الإسلام، فهناك يجتمع المسلمون الأوربيون والأمريكيون والأفريقيون والصعاليك والأمراء والتجار والمقاتلون في نفس الإزار البسيط الذي كان محمد وأتباعه يرتدونه إنهم جميعا يتناولون نفس الطعام، ويتقاسمون نفس الخيام (حياة محمد ص ٤١٤).

(٢) يقول بودلي عن الرسول: وحتى بعد غزواته وقد تدفقت الأموال والغنائم إلى خزانة الدولة، بقي على زهده وتقشفه.. وكان طعامه الثريد والتمر واللبن، وكانت ثيابه بسيطة وينام على الحصير (حياة محمد ص ١٦٤).

النصرانية، هذا من جهة. ومن جهة أخرى؛ لاشك أن الكراهية المسيحية للمرأة تتسم بنزعة عُصابية خاصة لأنها تقوم على أساس رفض الحياة الجنسية، وهو رفض تنفرد به المسيحية بين أديان العالم، وهو قطعا لا يعيب اليهودية ولا الإسلام(١).

وقد أدان مارتن لوثر «الرغبة في التنسك لأنه صعب التحقيق، لأن لذة الجسد كما يقول: لا تقاوم، وقد دلل على رأيه بأن المسيح لم يوص بالرهبنة أو التبتل بل على العكس فقد أدانهما»(٢).

ثم إن الاستقراء التاريخي يؤكد على أن كل الديانات السابقة تبيح التعدد؛وسيدنا إبراهيم تزوج سارة وهاجر الأميرة المصرية وليست الجارية كما يدعي اليهود، وكما ساد في كتب الأدبيات العربية، وكذلك أبناءه إسماعيل وإسحاق، وتزوج يعقوب أربع زوجات، وليس الحرمان من الزواج دليلا على الروحانية، بل إن إشباع هذا الدافع الذي خلقه الله لنا هو قمة الروحانية لأنه انصياعا للأمر الإلهي ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]. وإشباعا للدافع الجنسي الفطري الذي يسري في كيان الإنسان سريان الدم في عروقه، ويدفعه للعمل المنتج بعيدا عن نداء الجسد وسعار الجنس وإلحاح الشهوة. وما من فطرة هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين والتقاء الذكر والأنثى، فهي الغريزة التي تلهم الحي في كل طبقة من طبقات الحياة مالا تلهمه غريزة أخرى(٣).

وفي هذا السياق نشير إلى أن الكنيسة كانت تفرض على رجال الدين الامتناع عن الزواج، مع رغبتهم الشديدة فيه وحرصهم عليه، وكانت الرواية الغربية عن حياة النبي الجنسية تنم في الحقيقة عن ألوان الكبت الجنسي التي يكابدها المسيحيون أكثر مما تتعلق بأي حقائق عن حياة النبي الشخصية(٤).

لا جرم أن نعتز بأن الإسلام هو الذي صنع هذه الحضارة بكل مقوماتها، والتي

---

(١) سيرة النبي ص ٣٥٤ .

(١) بدوي: دفاع عن محمد ص ٧٥

(٣) عبقرية محمد ص ١٠٢

(٤) كارين: سيرة النبي محمد ص ٤١

ازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون وجمعت بين مطالب الجسد ونورانية الروح، والعقل والوجدان، ومبادئه كانت منطلقاً لجماعات العباد الأتقياء والزهاد والصوفية.

وأخيرا كنا نريد أن نعرف من السيد بودلي ما ما آفاق الأخلاق الموجودة في المسيحية، ولا يعرفها الإسلام؟

في العلاقات المحرمة التي كانت بين الرهبان والراهبات، وساحات الأديار التي امتلأت بالأجنة المدفونة وخلف أسوارها؟ أم عند القديس أوغسطين الذي انحرف عن منهج الكنيسة وعاش حياة الرذيلة وكان له ابنة غير شرعية، ولم يقبل التعميد على الرغم من توسل أمه «مونكا» له.؟ وبعد أن عاد إلى أحضان الكنيسة وتاب عن خطيئته أباح تعدد الزوجات[١].

أعند قساوسة الكنيسة ورهبانهم الذين عاشوا حياة مترفة غارقة في الرذيلة والمادية؟ أم عند البابوات الذين كان لهم أولادا غير شرعيين معترف بهم، وعاشوا حياة الأباطرة الوثنيين؟[٢]

لقد اشتهرت الكنيسة في أوربة أنها إقطاعية مستغِلة وأبعد ما تكون عن الفضيلة وأوامر المسيح ودعوته إلى الزهد والعفة والفقر والطاعة والتسامح[٣]، وضربت أسوأ مثال في التاريخ للتعصب المقيت، وهذا ما دفع فولتير لمهاجمة الكنيسة ورجالها هجوما صار مثلا في تاريخ الكنيسة، وكذلك زعماء الثورة الفرنسية الذين طالبوا بشنق آخر ملك بأمعاء أول قسيس ا

ويعبر جورج بوش بمرارة عن وضعية الكنيسة المتردية وأحوالها السيئة وتدهور مسلك رجالها فيقول: شهدت الكنائس صراعا مريرا للوصول إلى المناصب الدينية المربحة طمعا من أناس فسدت نفوسهم، إذ كانت هذه المناصب تفتح الطريق للثراء والرفاهية، وقد أثرى أساقفة تلك الأيام بسبب الهدايا التي قدمها لهم الأثرياء، وكانوا مغرورين يركبون العربات

---

(١) محمد الزيني: وقفة مع القديس أوغسطين، بحث منشور في مجلة كلية الآدابجامعة صنعاء، العدد ٣١، ١٩٩٨.

(٢) من الأمثلة على ذلك، ديدي إيراسموس (١٤٦٩١٥٣٦) ولد في بروتردام بهولندا، الابن غير الشرعي لأحد الرهبان، وهذه الولادة غير الشرعية وشعوره أنه ابن زنى، ظل هذا الشعور يطارده طوال حياته وينغص عليه ليله ونهاره، ولذلك هرب إلى انجلترا حيث يجهل المحيطين به أصله وفصله وحقيقة حياته المأساوية.

(٣) قال السيد المسيح: إذا أردت أن تتبعني وتكون كاملا، فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني. وفي قول آخر: الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات.

التي تجرها الخيول، ويحملون في المحفات(١).

ومن بعدهم كارل ماركس الذي رأى أن الكنيسة تتاجر بالدين، وتخدر الشعوب المسيحية بأوامر الدين ووعود في جنة واعدة ثم تستغلهم أبشع استغلال وتسخرهم في مزارع الإقطاعيين، وتدعو الناس إلى الانصراف عن طيبات الدنيا والاهتمام بالآخرة وهم غارقون في نعيمها وملذاتها ويعبون من كئوس اللذة وأطايب الحياة ليس هذه فحسب بل غارقون في مستنقع الجنس وأوحال المادية !!

هل هذه العفة عند الراهب راسبوتين الرهيب !!.؟

إن تاريخ النصرانية تاريخ مشبع بالحروب والأشلاء والقتل والدماء، فقد دارت حروب طاحنة بين الكاثوليك والبروتستانت، ومحاكم التفتيش مشهورة في التاريخ وقد تفنن القساوسة والرهبان في تعذيب مخالفيهم في الرأي بألوان من العذاب لا يعرفها الشيطان نفسه، وقتلوا من مسلمي الأندلس الملايين، وكتب التاريخ حافلة بذلك، وقام المبشرون الأسبان بقتل الملايين من الهنود الحمر وحرق بيوتهم، يقول أحد المطارنة الأسبان وكان شاهد عيان: إن الذين ذهبوا من أدعياء المسيحية أبادوا الشعوب الهندية الوادعة ومحوا ذكرها من وجه الأرض، إما بالاجتياحات الدموية المتوحشة، فكانوا ينصبون لهم المشانق ينظمونها في مجموعات ثم يشعلون النار ويحرقونهم أحياء، وإما باستعباد من تبقى استعبادا فظا غليظا شنيعا لم يشهد مثله البشر ولم تعرفه الدواب... قتل المسيحيون كل هذه النفس البهية ليحصلوا على الذهب ويكتنزوا الثروات(٢).

كذلك سطت أوربة وأمريكا على أفريقية فقتلت منهم أكثر من أربعين مليونا في أفضل

---

(١) بوش: حياة محمد ص ٢٢ (نقلا عن حامد علي: الرد على جورج بوش ص ٤٧)

(٢) برتولمي لاس كازاس: المسيحية والسيف، ترجمة سميرة عزمي، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، ص ٢٦. ويعد الكتاب وثيقة حية، سجل سطورها المطران الأسباني كازاس الذي عاش في أمريكا (عام ١٤٩٣) وشاهد الرهبان والجيش وهم يقتلون الهنود الحمر، الطيبون المسالمون الذين لا يعرفون الحقد ولا الخصام ولا العنف، =

= بأبشع أنواع الحرق والقتل والدمار؛ إذ كانوا يبقرون بطونهم ويقطعون أوصالهم كما يقطعون الخراف في الحظيرة، وينتزعون الرضع من أمهاتهم ويمسكونهم من أقدامهم ويرطمون رؤوسهم بالصخور، ويقدر عدد الذين قتلوا بأكثر من مائة مليون هندي غير الذين أخذوهم عبيدا إلى أسبانيا.

الأقوال، وسبعين مليونا في أقوال أخرى. والباقي أخذتهم عبيدا يعملون في مصانعها ومزارعها وخدما في بيوتهم، وأمريكا هي التي ألقت القنابل الذرية على اليابان وقتلت الملايين. وهي التي مكنت إسرائيل من أرض فلسطين تقف وراءها تمدها بالسلاح والمال وتحميها وتحرضها على استنزاف ثروات العرب وقتل ملايين الفلسطينيين في حروب طويلة امتدت مئة عام.

وهي التي غزت العراق وذبحت مواطنيه وقتلت علماءه ودمرت مصانعه وبنيته التحتية وأنهت أسطورة جيشه، ولم تكن أوربة النصرانية أقل عدوانية من أمريكا، فهي التي قادت الحروب الصليبية وخاضت في دماء المسلمين، وظلت تخطط وتحيك المؤامرات حتى احتلت دول الوطن العربي واستنزفت خيراته وقتلت الملايين منهم كما حدث في مصر وليبيا والجزائر.

ونتساءل أين هذه «الأفاق الأخلاقية» التي يتكلم عنها بودلي؟ كنا نود أن يدلنا عليها حتى نقتنع بكلامه وندافع عن وجهة نظره !!. [١]

لاشك أن بودلي يغالط نفسه ويعرف عن يقين أن مجتمعه غارق إلى أذنيه في بحور المادية، يشرب عصيرها ويتجرع منقوع الرذيلة ؛فهو مجتمع لا يعرف عواطف الرحمة، ولا معاني الإنسانية أو التراحم الاجتماعي، فالابن بعد أن يشتد عوده ويعتمد على نفسه، يترك أباه وحيدا لا يعيله ويذهب به يودعه في بيت المسنين، ولا يزروه بعد ذلك ولا يسمع عنه شيئا إلا حينما يخبرونه بموته، وقد ذكر أحمد زويل عن ذكرياته في أمريكا: أنه في أثناء ذهابه إلى الجامعة سقط في الطريق، ولم يجد أحدا من المارة يساعده على النهوض، أو يأخذ بيده و يواسيه بكلمة تطيب خاطره ، وترفع معنوياته، وتصور بلمحة واحدة وهو ساقط على الأرض في أحد شوارع مصر، أن جمعا غفيرا سوف يهرعون إليه فهذا يمسك يده ويساعده على القيام وهذا يجري يحضر له كرسيا وثالث يعد له كوبا من الليمون، ورابع يطيب خاطره ويزيل عنه الخجل الذي ألم به وهكذا، روح من التعاون والتعاطف تحيط به وتشمله بحبها وحدبها فينسى ما وقع له، وهذا هو الفارق بين المجتمع المادي الذي عاش فيه بودلي الذي لا

---

(١) قمت بالرد على فرية مادية الرسول، في كتابي، المستشرقون وعلم الكلام ص ٢٩٦: ٣٠٤

يعرف الأخوة الإنسانية؛ والمجتمع الذي أقامه محمد وهذبه بتعاليمه، وسكب فيه روح المحبة وأواصر القربى ووشائج التعاون والتكفل الاجتماعي والدفء العاطفي(١).

أما السيد بروكلمان الذي يعادي الرسول والإسلام بطريقة مستفزة ويعبر عن ذلك بأسلوبه الموجز وأحكامه القاطعة ومزاعمه الخيالية، فهذا اتهام خيالي، وكلام يجافي الحقيقة، فأولا: الأعمار مكتوبة في اللوح المحفوظ وعلينا أن نأخذ بأساليب النظافة وقواعد الصحة والمحافظة على صحتنا ومسيرتنا الحيوية في الحياة.

ثانيا: كانت حياة الرسول حياة متفردة قاسية؛ عاش مصاعب الطفولة وحرمان في

---

(١) أحمد زويل: عصر العلم، الحقيقة لم أفهم كيف لعالم جليل مثل أحمد زويل صاحب جائزة نوبل، وهو غني عن التعريف، أقول كيف ينضم إلى الانقلاب ويوافق على إجراءاته وذهب يسوق له في أمريكا المنافقة، وقد بايع الدكتور مرسي الرئيس المنتخب وجلس معه وتباحثا في أوجه التقدم العلمي في مصر، ثم إنه زار أغلب دول العالم المتحضر، وشاهد نظمها الديمقراطية وتداول السلطة فيها واستقرار نظمها النيابية،، زد على ذلك أنه يعيش في أمريكا التي تمثل أعرق الديمقراطيات في العالم بدليل أن أوباما الذي ينحدر من دولة افريقية مجهولة الاسم يصير رئيس أكبر دولة في العالم، لم استطع أن أفهم أن رجلا بهذا القدر العلمي يوافق على الانقلاب العسكري، ولو اتفقنا معه أن د مرسي أخطأ في بعض الأمور السياسية، هل هذه هي الوسيلة المثلى لتغيير الرئيس؟ الغوغائية والفوضوية والدبابات والاعتقال والسجن !!، إن د. أحمد زويل يعلم أكثر مني أن القصة لم تكن قصة د.مرسي ولكن العسكر كانوا يبيتون من البداية أنهم لن يتخلوا عن الحكم؛ ولو جاء أي مرشح آخر حتى لو كان ناصريا أو شيوعيا أو ليبراليا أو ملائكيا أو شيطانيا، فلن يتركوه في السلطة وأن خطتهم هي الإطاحة بأي رئيس مهما كانت توجهه، ولكنهم سايروا د مرسي، ثم إن خططهم كانت جاهزة من أول لحظة وقبل دخوله قصر الرئاسة لإفشاله أولا ثم الإطاحة به ثانيا، ولو كان شخصا آخر ربما لم يستغرق الإطاحة به أكثر من شهر على أكثر تقدير. أريد أن أسجل هنا خطأ د زويل وخطيئته ،وأن هذا الموقف المخزي يخصم من رصيد تاريخه العلمي والأخلاقي، وسيحاسبه التاريخ أنه وافق على مد يده للعسكر وجلس بجانب رئيس الانقلاب ويديه ملطخة بدم الشعب، وهذا أمر يشينه، وبخاصة بعد هذه المجازر المروعة التي أحاطت بالشعب المصري من كل جانب وفي مقدمتها مجزرة رابعة العدوية، واعتقال أكثر من ستين ألفا من خيرة شباب مصر وعقولها المفكرة، وفيهم علماء في قامته وأفضل، وتعمد قتلهم ببطيء داخل السجون، وفرار أكثر من سبعين ألفا خارج حدود الوطن، وتجاوزات الشرطة والجيش مع أفراد الشعب البسطاء والإفراط في استخدام العنف، وقتلهم جهارا نهارا بطريقة فاقت معاملة الإسرائيليين مع الفلسطينيين. ومن المؤسف لم يستنكر هذه المجازر بحق الشعب البسيط. وموقف آخر لا يغتفر له سفره لإسرائيل ومقابلته لعزرا ويزمان رئيس إسرائيل واستلامه جائزة منه (عام ١٩٩٣) وهذه سقطة تاريخية لن يغفرها له الشعب المصري الأصيل وسوف تشكل بقعة سوداء في تاريخه، فإذا أردنا أن نقيمه علينا ألا ننظر للجانب العلمي الذي تفوق فيه لكنه علم سيء الأخلاق، ورجل ضعيف الوطنية هزيل الكرامة، والله غالب على أمره. توفي احمد زويل في (٢ / أغسطس ٢٠١٦) وحسابه على الله.

الشباب وأهوال الرجولة ومشقة نشر دعوته ومواجهة قريش زعيمة المعارضة الشرسة، ومن ورائها القبائل العربية ثم الخروج برسالته إلى العالم، فحياته كانت سلسلة من الكفاح الدائم والنضال المستمر على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وتشير السيدة كارين إلى امتعاض الغرب من تعدد الزوجات والنظر إلى ذلك أنه «شوفونية ذكورية»، وتروج ذلك في أفلامها وأجهزتها الإعلامية، وترى أن الإسلام لم يقصد بتعدد الزوجات إباحة الممارسة الجنسية للرجال، ولكن ذلك كان نوعا من التشريع الاجتماعي، وحلا لمشكلة الأيتام وأرامل زوجات الشهداء. وكذلك زيادة عدد النساء واستغلالهن استغلالا سيئا، وقد أولى القرآن تلك المشكلة اهتماما شديدا[١].

- ونقتبس بعض آراء مفكري الغرب التي تدحض مقولة بودلي وإخوانه المستشرقين وتنسفها نسفا وتأتي على قواعدها:

يقول كارليل وهو يقارن بين المسيحية والإسلام: «نحن سمينا الإسلام ضربا من النصرانية، ولو نظرنا إلى سرعة استيلاء الإسلام على القلوب، وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء في العروق؛لأيقنا أنه كان خيراً من النصرانية المنتشرة في الشام واليونان، تلك النصرانية التي كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك القلب قفراً ميتاً»[٢].

وأثنى هردر في كتابه «أفكار» على النبي محمد ثناء عظيماً، وأعلن إعجابه «بطريقة عبادته للإله الواحد الصمد عن طريق الوضوء والصلاة وفعل الخير[٣].

- وعلى الرغم من أن إدوار مونتيه (١٩٢٧) ليس من المنصفين لا للرسول ﷺ ولا للإسلام.كما مر بنا في ترجمته المحرفة للقرآن - إلا أنه في هذه القضية ينصف الرسول ويثني على سلوكه في منحه مميزات لا تحصى للمرأة فيقول: هذب محمد الطلاق، وحسن أحوال

---

(١) سيرة النبي ص ٢٨٤

(٢) الأبطال ص ٧٣. هذا لا يمنع أن نتحفظ على قوله: «نحن سمينا الإسلام ضربا من النصرانية» فإذا كان يقصد أن الديانات كافة مصدرها الله الواحد الأحد فنوافقه على ذلك، أما إذا كان يريد أن الإسلام استقى مبادئه من النصرانية أو أن الرسول تأثر بأفكارها فهذا ما لا نوافق عليه.، فنحن نؤمن أن النصرانية المعاصرة لا تمت بصلة بما جاء به سيدنا عيسى، ونرفض كل أفكارها المتعلقة بالتجسد والخطيئة والصلب والفداء، ومن ثم فليس هناك أدنى علاقة بين الإسلام كما جاء به محمد والنصرانية التي جاء بها بولس.والتي يدين بها النصارى الآن.

(٣) جوته والعالم العربي ص ١٤٥

المرأة وأوضاع الرقيق، ومن أحاديث الرسول: «أبغض الحلال لله عند الله الطلاق». كما قضى على القرابين البشرية، ووأد البنات، وشرب الخمر، ثم انتهى إلى القول: «لقد أحدثت الإصلاحات درجة عالية من الرقي بحيث يمكن ان نعد محمداً من أكبر المحسنين إلى البشرية، بل إن تحريمه المطلق لوأد البنات لكافٍ وحده لتخليد اسمه في تاريخ عصره»(١).

- وقد أفرد هنري دي كاستري (١٩٢٩) فصلا كاملا عن تعدد الزوجات في الإسلام، وقد استهل عرضه بالإشارة إلى انتشار التعدد في الأمم القديمة، وكذلك عند الأنبياء؛ إبراهيم ويعقوب وموسى وداود وسليمان، ثم شرح شروطه في الإسلام ودور المرأة في اختيار شريكها والامتيازات التي منحها لها الإسلام، وتمسك المسلمون بقيمة العفة والطهارة وغض البصر، ومحاربة القرآن للانحرافات الجنسية وتشديد العقاب فيها، وهاجم السياح والقساوسة الذين يشوهون صورة الإسلام، ويتكلمون بغير علم ولا فهم، وانتهى إلى القول: الفرق بين الحشمة عند المسلم وعند المسيحي، كما بين السماء والأرض، فالمسلم يُجرح نظره، ويستحي من مرأى الإعلانات التي ينشرها الغربيون ومن الراقصات وهن في لباس كأنهن عراة، ومن حفلات الرقص حيث النساء خالعات العذار (الحياء)، كاشفات المناكب وأن تعدد الزوجات لم يُتخذ، ولم يكن يُتخذ مشجعا على انتشار الإسلام(٢).

- وهذا ما ذهب إليه درمنجم (١٩٧١) خلال استعراضه لميزات الإسلام وذكره كرائم الأخلاق في حياة الرسول ﷺ والأبعاد الإنسانية التي بشربها ومنها نهى عن الغضب والبغضاء والحسد والكبر والغيبة وطالب بكظم الغيظ وكذلك رحمته بالدواب والحيوان والطير الذي يسبح بحمد الله ، يقول: أثرت مواعظ محمد في العرب تأثيراً وأحدثت انقلابا كبيراً في العربي، وارتفع شأن المرأة عما كانت عليه وأبطل البغاء، وأبطلت المخادنة(٣).

وفي صفحات أخرى يستطرد في حديثه: لا شك أن الإسلام أسمح من المسيحية فيما يتعلق بالجسد، وهو لا يطالب الإنسان بالمبالغة في قهر نفسه وهو يرى الصلاة أحسن وصولاً

---

(١) من المقدمة التي كتبها لترجمة القرآن (نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ١٢٥).

(٢) الإسلام خواطر وسوانح ص ٨٥: ٩٧ .

(٣) حياة محمد (نقلا عن حاضر العالم الإسلامي ص ٩٩).

إلى الله إذا صدرت عن رجل متمتع بلذاته المشروعة، إلا أن هؤلاء الذين يرون الطهارة المسيحية أعلى درجة من الطهارة الإسلامية ينسون تقدم زهاد المسلمين في الطهارة وأنهم لا يقلون عن أحد من نساك الملل الأخرى[١].

وهذا ما أكده بوازار وأيده ففي أثناء حديثه عن وضعية المرأة في الجاهلية ووضعها المزري ومقارنة ذلك بالمميزات الواسعة التي منحها لها الإسلام يعرج على قضية تعدد الزوجات والطلاق، يشرح بأن الإسلام لم يكن هو الذي أتى بهما لأنهما وجدا في جميع الحضارات في زمن معين من تطورها، لكنه ضيق نطاق مشروعيتهما. ثم يمضي يتوسع في شرح نظرة التكريم والاحترام التي يخص الإسلام بها المرأة فيقول: خلقت المرأة في نظر القرآن من الجوهر الذي خلقت منه الرجل، ولا يتهم القرآن المرأة بأنها دفعت آدم إلى ارتكاب الخطيئة الأصلية، ولم يستخدم الإسلام مفردات توحي بالتقليل من شأنها أو تنتقص من احترامها كما فعل آباء الكنيسة الذين عدوها «عميلة للشيطان»[٢].

ويقول مايكل هارت: كان الرسول ﷺ رجلا دنيويا؛ أي زوجاً وأباً، عمل في التجارة ويرعى الغنم، ويحارب ويمرض، ثم مات، ولما كان الرسول قوة جبارة، فيمكن أن يقال إنه أعظم زعيم سياسي عرفه التاريخ[٣].

ثم يستطرد: «محمد خلط بين الدنيا والدين، وهذا جعلني أن أؤمن بأن محمد أعظم الشخصيات أثرا في تاريخ الإنسانية كلها»[٤].

ومن الكتاب المعاصرين الذين أنصفوا الإسلام الدكتور هستون سميث Huston smith أستاذ الفلسفة بالجامعات الأمريكية في كتابه «ديانات الإنسان» religions of man، وقد ولد في الصين وعاش في الشرق و درس الإسلام دراسة شاملة فيها إحاطة وإلمام بطبيعة تشريعاته وشمول منهجه وتفهم طبيعة البيئة التي نزل فيها وخصائص عاداتها وتقاليدها، وقد نقد موقف المستشرقين من الإسلام لاسيما ما يتعلق بتعدد الزوجات، وشرح وضعية المرأة في

---

(١) حياة محمد (نقلا عن حاضر العالم الإسلامي ص ١٠٠).
(٢) إنسانية الإسلام ص ١١١.
(٣) العظماء مائة ص ١٨.
(٤) العظماء مائة ص ١٩ .

المجتمع القرشي والعربي، والجور الفادح الواقع عليها لاسيما وأدها، وإنكار حقوقها كلية ثم أشاد بتشريعات القرآن وخلص إلى القول: «جاء الإصلاح الاجتماعي على يد محمد فرفع من شأن المرأة كثيراً، ومنع وأد البنات، وأعطين حقا من الميراث لا يساوي حق الأبناء - نعم ولكنهن إزاء ذلك معفيات من تكاليف البيت، وذلك من العدل عنده.عليه السلام. أما حقوق المرأة المدنية في التعليم والانتخاب والعمل فالقرآن يفتح لها أبواب المساواة التي تنالها كلما تقدمت الأمم الإسلامية في عاداتها ومعاملاتها»(١).

وكرر جرونباوم على الرغم من تعصبه الشديد ومهاجمته للرسول ﷺ هذا المعنى إلى حد كبير بقوله: وقد سمح محمد للنساء بحرية التصرف في أموالهن، كما أنه حسّن مركزهن من ناحية الميراث. ولكنه لم يقض على ذلك الاتجاه العام الذي كان ينزل النساء منزلة ثانوية في تقدير المجتمع.ثم أورد قوله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤](٢).

سادسا: شهوانية الرسول ﷺ

نستطيع أن نرصد طائفة من المستشرقين، لم يستوعبوا حياة الرسول استيعابا صحيحا، ولم يقرؤوا سيرته قراءة منصفة، ولم يتخلوا عن المؤثرات الذاتية التي تتغلغل في كيانهم والمحيط الاجتماعي الذي نشأوا وسطه، وعلى الرغم من أن جماعة كبيرة منهم هبطوا إلى بلاد المسلمين وعاشوا في دول الوطن العربي واختلطوا بعلماء الإسلام، ورجعوا إلى المصادر التاريخية التي تشرح كل ما يتعلق بحياة الرسول ﷺ وسيرته الزكية وكذلك المراجع المعاصرة، إلا أنهم لم يتخلصوا من وسوسة شيطان جدهم الأكبر يوحنا الدمشقي، وأكاذيب قساوسة العصور الوسطى وراحوا يكررون مقولة أن الرسول رجل شهواني وعنده ميل جارف للنساء وشبق جنسي تجاههم لا يقاوم ومن هؤلاء المستشرقين؛فون هامر برجشتال. Von Hamer Bergeshatl (١٧٧٤ - ١٨٥٦) على الرغم من أنه عاش في تركيا فترة طويلة وله كتابات منصفة عن الحضارة الإسلامية.

---

(١) عباس العقاد: الإسلام دعوة عالمية، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٠٩: ١١٢

(٢) حضارة الإسلام ص ٢٢٤

وقد جاراه في هذا الاتهام الساقط والبائس فرانتس بوهُل (١٩٣٢) الذي ذهب ينشر هذه الترهات في كتبه ولا يستحي من أن يتهم الرسول بالميل الجنسي الشديد إلى النساء، في كتابه «حياة محمد».

ولم يتأخر ويلز الإنجليزي الذي يتسقط الأخبار من الآخرين ولا يرجع إلى المصادر الإسلامية، ويترك لخياله الروائي التحليق في الفضاء، إذ يقول: أن محمدا عاش مخلصا لخديجة حتى وفاتها، «ولكنه عاد عند ذلك كما يفعل الكثير من الرجال عندما تعلو بهم السن - فأظهر اهتماما قويا بالنساء»[١].

لاشك أن وجه التناقض في كلام ويلز واضح للعيان، لأن الذي يظهر ميلا شديدا بالنساء أو يظهر اهتماما قويا ليس الشيخ الذي تجاوز الخمسين وفترت قواه بعد أن عاش مع امرأة خمسة وعشرين عاما، ولكنه الشاب الذي يتفجر حيوية ويتدفق رغبة جارفة وميل طاغ للجنس. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى من الواضح أنه لا يعالج القضايا بقدر من النقاش والتحليل وفلسفة التاريخ، ولكن يغلب عليه الرصد وتسجيل أكبر قدر من الوقائع مثل المؤرخين القدماء.

على أن كلود سفاري تجاهل التصريح العلني باتهام الرسول بالميل العنيف للجنس وذهب بطريقة خفية يغمز مسلك الرسول في زيجاته فذهب إلى القول:بناء على القانون الإسلامي الذي أملاه بنفسه فإنه لا يباح الزواج بأكثر من أربع نساء، وقد تزوج من خمسة عشرة امرأة، وبنى على اثني عشرة منهن. وكان يعتقد أن من شرف النبي ألا يقيد زوجاته شأن سائر الناس ولهذا جعل السماء تنطق بهذه الكلمات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠][٢].

نود أن نرد على سفاري في هذه المغالطة التي زعمها؛إذ من المعلوم أن من بنى عليهن الرسول إحدى عشرة، وأنه مات عن تسع فقط. هذه نقطة. الثانية: أن الرسول ﷺ لا يشرع ولا يضع قوانين من فيض ذكائه ولا من نبوغه الفذ، ولكننا بصدد تشريعات إلهية، وتنظيمات ربانية

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية ج٣/ ١٠٠ .

(٢) السيرة النبوية ص ٢٤٦ .

للعلاقة بين المسلم وزوجه، الثالثة: نزل القرآن بتحريم زواج النبي من أي امرأة غير اللواتي في عصمته بالفعل، أي من يطلقها ليس له حق استبدالها بأخرى ، في حين أن من حق المسلم أن يتزوج أربعة ويطلق ما يشاء ومن يطلقها له حق الزواج بأخرى، ثم نزلت الآيات بتحريم الزواج بأكثر من أربع لكافة المسلمين. ومن المعلوم أن سورة الأحزاب نزلت قبل النساء.

ثم نجمل ردنا عليه وعلى زملائه من المستشرقين في الآتي.

الرد على جمهرة المستشرقين:

من الحقائق البديهية أن نظرة المسلمين إلى محمد ﷺ أنه إنسان بكل عظيم ونبي كريم، مؤيدا بالوحي؛أي متصل بالسماء عن طريق الوحي، مثله مثل باقي الأنبياء، نعم هو إنسان تسري عليه قوانين الحياة يأكل ويشرب ويذهب إلى السوق ويحمل حاجياته، وقد أراد أبو بكر أن يحمل أغراضه فقال له الرسول ﷺ: إن صاحب الشيء أولى بحمله.

فهو «يسكن إلى زوجه ويشغل بالأبناء، ويعاني مثل الذي يعانيه بنو آدم من حب وكره ورغبة وزهد وخوف وأمل، وحنين واشتياق، ويجري عليه ما جرى على سائر البشر من تعب ويتم وثكل ومرض وموت»[1].

هذا الإنسان المبارك كما أنه يأكل ويشرب وينام ويصحو كما ذكرنا، فهو يتزوج؛لأن الله سبحانه زود الإنسان بجملة من الدوافع الفطرية حتى تحافظ على حياته ونوعه في الوجود ألا ينقرض ومن هذه الدوافع؛ دافع الجنس الذي ولد مزودا به لاستمرار الحياة على الأرض واستمرارية نوعه وبقاء نسله.

ولما كان الرسول ﷺ بشر وعنده هذا الدافع فقد تزوج أكثر من امرأة بسبب ملابسات معلومة وأسباب يستوعبها كل من درس سيرة حياته بحيادية كاملة ونظر لهذه القضية نظرة خالية من التعصب وبعيدة عن الأفكار المسبقة.

وفي مجادلاته المحمومة مع علماء الإسلام وحربه الخفية على رسول الإسلام ﷺ، وجه يوحنا الدمشقي جملة من الاتهامات المسمومة بل منظومة فكرية عدائية منها أن رسول

---

(١) بنت الشاطئ: نساء النبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٦

الإسلام يتصف بالنزوات الجنسية علاوة على إباحته تعدد الزوجات(١).

وقد رد عليه علماء الإسلام ردوا مطولة إبان تلك الفترة الزمنية.

ومع مرور الأيام وتوالي العصور واطلاع المستشرقين على أبعاد حياة الرسول ﷺ؛ سكناته وحركاته حله وترحاله، ظعنه وإقامته أقواله وأفعاله ومن هذه السلوكيات؛ زيجاته المتعددة، ومن الواضح أن هذه الزيجات استفزت مشاعر أغلبية المستشرقين و حيرت ألبابهم وصدمت عقليتهم.فتوقفوا عندها وتركوا لخيالهم العنان وأسقطوا الصورة الذهنية المرسومة في خيالهم عن السيد المسيح الذي لم يتزوج، على حياة رسولنا زد على ذلك سلوك الرهبان الذين يعتصمون بالأديار يتعبدون ويعيشون عيشة مشتركة دون زواج وذهبوا يقولون: إن محمدا رجل شهواني !!.

ومن يتعقب هذه المقولة ويفتش عنها في التاريخ يجد أن يوحنا الدمشقي الذي مر بنا في أكثر من موقف، هو الذي اخترعها وراح يروج لها في وقت مبكر.

وهذه الفرية لا تحتاج وفور عقل في الرد والتفنيد، فأي دارس لسيرة الرسل السابقين بدءا من نوح وصولا إلى موسى مرورا بإبراهيم وداود وسليمان، يعلم علم اليقين أن تعدد الزوجات كان مباحا في الديانات السابقة، وإبراهيم عليه السلام تزوج سارة وهاجر، وكذلك أبنائه اسحق وإسماعيل وحفيده يعقوب وهكذا باقي الأنبياء بل قيل عن سليمان أنه تزوج المئات، يقول المولى عز وجل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨] فهذه سنة إلهية لحفظ النوع واستمرارية الوجود، وأمر بيولوجي لا فكاك للفطرة النقية السوية من ممارسته وأدائه.

وكذلك من يقرأ تاريخ العرب قبل الإسلام يعلم أن الرجل منهم كان يتزوج أكثر من عشر نساء، وهذه العادات كانت سائدة عند كل القبائل العربية، وتسري مسرى القانون الوضعي الذي يؤمن به البشر دون حرج أو اعتراض.

---

(١) كارل يوسف كوشل: الأديان من التنازع إلى التنافس، ت، أبو يعرب المرزوقي، ومنير فندري، هيئة أبوظبي للثقافة، ٢٠٠٩، ص ٧٧/٧٨

هذا الاتهام المزور والزعم الكاذب والزور المجرم لم يمت من التاريخ، ولكن وجد آذانا مصغية وضمائر خربة وعقولا مضللة وألسنة مريضة عادت تلوك هذا الإثم ورأينا مستشرقاً مثل جولد تسيهر واسع الاطلاع على تراث الإسلام تليده وطريفه وله باع وذراع في الدراسات الإسلامية، يعود يكرر هذه المقولات الكاذبة فيقول: «يمكننا أن نقرر دون ريب بصفة عامة ميل النبي ﷺ للنساء ميلا مطردا في الزيادة وذلك كحقيقة تاريخية مدعمة بالأدلة والأسانيد، وإنها مع ذلك ظاهرة فريدة منقطعة النظير في الأدب الديني عند مختلف الأمم والعصور»[1].

الحقيقة أن هذا كلام عار عن الصحة وليس هناك دليل يسنده ولا حجة تثبته، فحينها يقول: «نقرر دون ريب» كلام مرسل حيث قبل القضية دون إيراد دليل، و انحراف عن المنهج العلمي حينها استبعد المنهج الشكي من كلامه، ونزع منزعا دوجماطيقيا أي يقينيا، وهذا منهج العوام الذين يصدقون أن الأبقار تطير في الهواء، هذه نقطة.

والثانية : هذا التقرير اليقيني، «أملاه التعصب الأحمق والهوى المضل، وانحراف عن المنهج العلمي الذي يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة أضرت بالمرأة والأسرة والمجتمع»[2]. ونود أن ندحضه بالأدلة الآتية:

أولا: علينا أن نلقي نظرة سريعة لطبيعة العلاقات الاجتماعية في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام إذ اشتهر الرجل العربي بأنه يتزوج أكثر من عشر نسوة ويعشن معه تحت سقف واحد، وذلك لحبهم للأولاد والتفاخر بكثرة عددهم فهم سند للقبيلة في حروبها مع غيرها، ومن مقاصدهم من الزواج أيضا أنه «يجتذب البعداء ويتألف الأعداء ويرجع المنافر مؤانسا ويصير العدو مواليا»، وهذا كان عرفا سائدا في مجتمعهم.

ثانيا: كان أمر الجاهلية في نكاح النساء على أربع:رجل يخطب فتاة من أبيها فيتزوج، وامرأة يكون لها خليل يختلف إليها، فإن ولدت قالت: هو لفلان فيتزوجها بعد هذا. وامرأة يختلف إليها النفر وكلهم يواقعها في طهر واحد، فإذا ولدت ألزمت الولد أحدهم، وأخيرا

(١) العقيدة والشريعة ص ١٤٢

(٢) بنت الشاطئ: نساء النبي ص ٢٤

امرأة ذات راية (البغايا وكانوا في الأغلب من الإماء) يختلف إليها ثلة من الرجال وكلهم يواقعها، فإذا ولدت جمعوا لها القافة فيلحقون الولد بشبيهه.

ثالثا: كان من أقبح ما يصنعونه أن يجمع الرجل بين الأختين، أو يتزوج الابن زوجة أبيه بعد موته[1].

رابعا: حينما بعث النبي ﷺ أبطل كل هذه العلاقات الشاذة وأبقى على النوع الأول من الزواج وهو السائد في العالم حتى الآن، وحرم الإسلام الجمع بين الأختين وزواج الابن امرأة أبيه. وكذلك الجمع بين أكثر من أربعة نسوة، وكانت الآيات القرآنية صريحة وقاطعة في ذلك ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء: ٣].

وذكرت الروايات أن أحد رجالات العرب حينما أراد الدخول في الإسلام طلب منه الرسول أن يبقي على أربع نسوة ويسرح الباقي.

خامسا: مسألة تعدد الزوجات كانت فاشية في المجتمع القرشي وكان عددا كبيرا من الصحابة تصل زيجاتهم إلى سبع وثمان نساء وأكثر من ذلك، ومنهم عمر بن الخطاب والإمام علي بن أبي طالب وابنه الحسن والمغيرة بن شعبه، فضلا عما ملكت اليمين عند خلفاء المسلمين في الدولة الأموية وكذلك العباسية ومن بعدهم من الدول التي قامت في الحضارة الإسلامية.

في ضوء ما سبق نستطيع أن نتفهم المحيط الاجتماعي الذي عاش فيه الرسول وزوجاته من خلال هذا العرف الاجتماعي والتقاليد القبلية والعادات الراسخة التي سادت المجتمع العربي قبل الإسلام وبعد ظهوره، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى إذا تفحصنا زيجات الرسول ﷺ نجد أنه عاش مع خديجة وكانت أرملة عمرها أكثر من خمسة وعشرين عاما[2]، وباقي زيجاته معلومة تاريخية أنها كانت لعقد

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ج٢ / ٢٤٦، ٢٤٧، محمود شكري الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تصحيح محمد بهجة الأثري، ج٢ / ٣ : ٨

(٢) ذهبت بنت الشاطئ مع من ذهبوا بأن السيدة خديجة حينما تزوجت الرسول كانت أرملة تبلغ من العمر أربعين=

أواصر الصداقة وتوطيد العلاقات مع أصحابه، وكلها تصب في خانة نصرة الإسلام فزواجه من سودة بنت زمعة أرملة مسنة وكان الزواج جبرا لخاطرها، وعزاء لزوجها الذي هاجر إلى الحبشة ومات هناك، فقد مد الرسول يده الكريمة يواسي شيخوختها ويؤانس وحدتها.

وزواجه من السيدة عائشة فهي بنت أبي بكر صاحبه الأثير وأول من آمن به من الرجال و الذي صحبه في الغار، وزواجه من حفصة بنت عمر بن الخطاب رجل الإسلام القوي والمنافح عنه، وزواجه من زينب بنت جحش إبطالا لمبدأ التبني وكان أمرا من السماء، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، كي يتألف قلب أبيها زعيم قريش آنذاك ويكسب وده. «وكان ذلك الزواج عملا سياسيا ذكيا من محمد» فيما ذهبت كارين[1].

وتعلق كارين على هذه الزيجة قائلة: «الواضح أن ذلك الزواج لم يكن قائما على الحب بل كان خطوة سياسية بارعة لأن أم حبيبة كانت بنت أبي سفيان»[2]. وهناك عامل آخر متعلق بارتداد زوجها ودخوله في المسيحية، فأراد الرسول أن يواسيها ويعوضها خيرا، ويرفع من معنوياتها.

وكل زيجة من زيجات الرسول ﷺ كانت وراءها قصة إنسانية، ولمسة اجتماعية وموقف أخلاقي، وضمير يقظ وعطف أبوي وإخلاص من قلب النبي، وكسب لود عدو قديم، واستلال سخيمة متكبر حقود، وإعلاء من شأن القبيلة التي تزوج منها وضمها إلى دار الإسلام[3].

=عاما، ونحن لا نقبل هذه الرواية ونرفضها رفضا كاملا، ونعتقد أنها لم تتجاوز الثامنة والعشرين كما روي عن عبد الله بن عباس، ثم إن المجتمع المكي لم يكن يستسيغ أن يتزوج شابا عنده خمس وعشرين عاما امرأة أكبر من أمه، وأسرته الهاشمية لا توافق على ذلك، ثم إنها عاشت مع الرسول خمسة وعشرين عاما، وكل أبنائه الستة كانوا منها، والدورة الشهرية عند المرأة تنقطع بداية من الأربعين. وقد ناقش العقاد هذه القضية في كتابه فاطمة الزهراء والفاطميون، نهضة مصر، ص ١٢، وأيضا محمد الزيني: قراءة في كتب المدرسة الإباضية، دار اليقين، ٢٠١٤، ص ١٩) كذلك ذهبت كارين أن السيدة خديجة كانت في أواخر الثلاثينات (محمد نبي لزماننا ص ٣٨) ونرفض هذه الرواية أيضا، ونعتقد أن ما ذكرناه أقرب للاستدلال المنطقي ولمنطق الواقع وللعادات العربية.

(١) محمد نبي لزماننا ص ١٧٥

(٢) سيرة النبي ص ٣٤٦. لاشك أن هذا الزواج قائما على المودة والرحمة والحب، وهذه العواطف تأتي مع التعامل والمعايشة والمودة المتبادلة، وتتولد العاطفة تدريجيا.

(٣) بنت الشاطئ: نساء النبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٩. تشرح الدكتورة في الكتاب ملابسات زواج=

كذلك من الذين تصدوا لهذه الفرية عبد الرحمن بدوي، وقد استعرض حقيقة الزيجات الأربعة عشر وملابساتها، واحدة بعد أخرى بما فيهن من دخل الرسول بهن أو لم يدخل وخرج بخلاصة مفادها،أن هذا الزواج كان للارتباط بكبرى القبائل كما في حالة جويرية بنت الحارث من بني المصطلق، أو حماية الأسيرات اللاتي كن يتمتعن بمكانة عالية في قومهن، مثل صفية بنت حيي بن أخطب، أو لحفظ المركز الاجتماعي للمرأة كما في حالة زينب بنت جحش.[1]

ولو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه الملذات أن يجمع النبي إليه تسعا من الفتيات الأبكار اللاتي اشتهرن بفتنة الجمال في مكة والمدينة والجزيرة العربية، فيسرعن إليه راضيات فخورات ، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفخر[2].

وسادسا: لا ضير من هذا التعدد لأنه نظام رباني يساير كل العصور، وينسجم مع أحداث المجتمعات التي تجتاحها الأمراض أو تقع فيها كوارث الحروب والتي يقتل فيها ملايين الشباب كما رأينا في الحرب العالمية الأولى والثانية، وقد رأينا نساء ألمانيا يخرجن في مظاهرات عارمة يطالبن بتعدد الزوجات نظرا لانتشار العنوسة بينهن.، وكما هو دائر الآن في بلاد المسلمين (العراق وسورية واليمن نماذج معاصرة صارخة) حيث قتل من شبابهم ورجالهم الملايين، فأين تذهب النساء المترملات الباكيات الثكالى، ومن يرعى ملايين الأطفال الذين تيتموا وفقدوا آبائهم، ويقوم بتربيتهم ويشؤونهم، ومآسي لا تنتهي ظاهرة للعيان؟.

=الرسول، وتوضيح الغرض من ذلك وترد على كثير من الافتراءات التي ساقها المستشرقون، والدكتورة من الباحثات المتمكنات القديرات، فهي صاحبة قلم عربي فصيح وأسلوب يذكرنا بفصحاء العرب الذين عاشوا في البادية وعندها حس ديني متجذر في شعورها وقلبها مع حفظها للقرآن، فقد تربت في بيت علم ودين فضلا أنها زوجة الشيخ أمين الخولي الذي يعد ضمن المجددين في الفكر الإسلامي. وهو كتاب لاغنى عنه لمن أراد أن يفهم سر زواج الرسول لأكثر من أربعة والمعاني الخلقية والإنسانية المطوية في باطن هذا السلوك الأخلاقي. وكذلك هيكل: حياة محمد ص٣٢٦ .

(١) دفاع عن محمد ص ٨٣: ٨٤

(٢) عبقرية محمد ص ١٠٦

ونستشهد بتقرير جوستاف لوبون ونحن في الواقع في غنى عن شهادته لأنها لا تقدم ولا تؤخر في إيماننا بصحة مبادئ إسلامنا وصواب تشريعاته الربانية، ولكننا نستشهد به لنرد على زملائه من المستشرقين المفترين على ديننا يقول: «إن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به، ويزيد الأسرة ارتباطا، ويمنح المرأة احتراما وسعادة لا تراها أوربة»(١).

أليس التعدد حلا واقعيا ووسيلة أخلاقية وسلوكا راقيا، وسموا بوضعية المرأة وتأكيدا على كرامتها واحتراما لشخصيتها وكينونتها وإنسانيتها؟.

إن الذين ينتقدون تعدد الزوجات عليهم أن يخجلوا وهم يقرون مشروع الشذوذ الجنسي، إذ وافق مجلس الكنائس الإنجليزي بعد مناقشات حامية، باعتبار الشذوذ الجنسي الذي يحدث بين البالغين وبرضاهم عملا مشروعا لا يعاقب عليه القانون. وكان كبير أساقفة كانتبري «جوفر فيشر» هو الذي قاد الحملة لتأييد التوصية التي تمت الموافقة عليها من مجلس الكنائس(٢). أضف إلى ذلك اعترفت مؤتمرات السكان التي عقدت في بكين (١٩٩٤) وللأسف في القاهرة ١٩٩٥ على إباحة الاتصال الجنسي قبل الزواج والتصريح بما يسمى الأسرة الأم أي وجود أم معها أولادها بدون أب، والأسرة الأب أي وجود أولاد مع الأب دون وجود أم.أضف إلى ذلك إباحة العلاقات الشاذة بين الجنسين؛أي اللواط والسحاق في وقاحة واضحة ودون خجل أو حياء.

إن نظرة الغرب للمرأة نظرة متناقضة ومضطربة؛ ففي الوقت الذي يدعوا فيه إلى المساواة والتحرر، يستغل المرأة ويمتهن كرامتها في الإعلانات وفي الكتابات والفنون الإباحية والأفلام الجنسية، وفي كثير من أشكال الفرجة الشعبية، بأسلوب يستهجنه المسلمون(٣).

على أننا نوضح أن جمهرة من المستشرقين أنكروا هذا الطرح وبرؤوا الإسلام والرسول من هذه الاتهامات الشائنة والدعاوى الملفقة، ومنهم كارليل الذي يستهجن ذلك ويرفضه رفضا قاطعا إذ يقول: «كتب كثيرا في شهوانية الدين الإسلامي، وأرى كل ما قيل وكتب

---

(١) حضارة العرب ص ٣٩٧

(٢) جريدة الجمهورية المصرية ١٦ نوفمبر / ١٩٥٧.

(٣) كارين: سيرة النبي ص ٣٥٤

جوراً وظلماً. فإن الذي أباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه وإنما كان جاريا متبعا لعادة العرب من قديم الأزل ، وقد قلل محمد هذه الأشياء جهده وجعل عليها من الحدود ما كان في إمكانه أن يجعل»[١].

ثم يواصل دفاعه بقدر من الحماسة؛ وهو يرد هذا الافتراء بشدة ويستنكر هذه المقولة البائسة والاتهام الباطل: ما كان محمد أخا شهوات بالرغم ما اتهم به ظلما وعدوانا، وشد ما نجور ونخطئ إذا حسبناه رجلا شهوانيا لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ، لقد كان زاهدا متقشفا في مسكنه ومأكله وملبسه، وكان طعامه عادة الخبز والماء، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار[٢].

على أننا نشير إلى أن كل ما ورد بشأن تحليل الطيبات وتحريم الخبائث، «ليست من وحي وجدان محمد ولا أوامر شعوره» كما يدعي كارليل، بل هو أمر من الله والرسول ﷺ شارح وموضح لما في القرآن وليست القضية أيضا أنه تابع «عادات العرب» بل حرم القرآن أغلب عادات العرب السيئة مثل الربا والخمر والميسر والبغاء، والنذر لغير الله، والطواف حول الكعبة عراه، وكذلك نواهي أخرى شهيرة في الفقه الإسلامي.

ويعلل درمنجم تعدد زوجات الرسول بقوله: إنه كسائر سادات العرب استكثر من النساء فتزوج ببعضهن عن مجرد عاطفة وتزوج ليتألف بزواجه قلوب القبائل، وكان مراده من زواج زينب بنت جحش أن لا يجعل من يتبناه الإنسان في حكم ابنه الحقيقي[٣].

ويؤكد الرحالة بودلي الفكرة السابقة فيقول: إن زواج محمد من عائشة الطفلة وسودة بنت زمعة التي مات زوجها في الحبشة، كانت له دوافع عملية[٤]. وفي موضع آخر يقول عن تعدد زوجاته: يرجع إلى رغبته في أن ينجب ولدا وإلى دوافع سياسية، وكانت عائشة هي البكر الوحيدة، والأخريات مطلقات وأرامل[٥].

ويبدو أن هذه التهمة الملفقة استفزت مشاعر السيدة كارين وحركت جوانيتها الخيرة وجوانب الصفاء والطهارة في الطبيعة البشرية، فانبرت تدافع عن سيرة الرسول ﷺ، وتقارن

---

(١) الأبطال ص ٧٧. (٢) الأبطال ص ٧٨ .

(٣) حياة محمد (نقلا عن حاضر العالم الإسلامي ص ١٠٢).

(٤) حياة محمد ص ١٢٦. (٥) حياة محمد ص ٢٧٣.

بين حياته وحياة الأنبياء السابقين التي من أهم سماتها تعدد الزوجات فتقول: قد أثار موضوع زوجات النبي تأملات كثيرة في الغرب؛تتسم بالبذاءة والصفاقة، وبكثير من مشاعر الحسد، ... مع العلم أن الكتاب المقدس يتحدث عن الإنجازات الجنسية للملك داود، وزوجات الملك داود اللاتي لا يحصى عددهن[١].

نخلص من كل ذلك أن جولتسيهر افترى على الرسول ﷺ، وتنكب الطريق في سيرته، ودراساته الواسعة حول العقيدة الإسلامية والحديث الشريف والفقه الظاهري الواسع والشعر الجاهلي، لم تستل التعصب القابع في أعماقه، ولم تنفعه في تلمس الحقيقية.

وعلى الجملة نعتقد أن يوهان فوك جانبه الصواب حينما وصفه بأنه كان «إنسانا نبيلا، وصديقاً صدوقاً». فنحن نعترف بسعة علمه وغزارة معرفته وشمول قراءاته، لكنه يفتقد البعد الأخلاقي ونبالة الإنسان وقيم العدل والإنصاف التي يجب أن تتوفر في الشخصية السوية.

واتصالا بهذه القضية، نود أن نشير بأن المؤرخ ويلز بعد أن تعرض لمسألة زيجات الرسول من خديجة وأيامه السعيدة معها، وتبرئة الله لعائشة، وإشارته لعلة زواجه من زينب بنت جحش، وغمزه لزواجه منها، إذ يقول: كانت صفية إحدى زوجاته يهودية، تزوجها ليلة المعركة التي قبض فيها على زوجها وقتل، إذ استعرض السبايا فراقت في نظره وحملت إلى خيمته.ثم يختم هذه الإشارات واللقطات بقوله: «لم يكن محمد دجالا بأية حال وإن كان اعتداده بنفسه يدعوه في بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان الله رهن إشارته؛وكأنما أفكاره بالضرورة أفكار الله»[٢].

ونتحلى بالصبر وضبط الأعصاب وكظم الغيظ ونرد عليه: أولا: تنطلق دعواه من كون الرسول إنسان له شهوات ورغبات وليس نبيا مؤيدا من الله فنحن بصدد نظرة مادية بحتة ملتصقة بالأرض، و سوء النية المضمر في هذا الكلام الخبيث.

ونوضح أن منطلقنا يختلف عن منطلقاته، إذ ننظر لصفات الرسول ﷺ، التي اشتهر بها في الجاهلية قبل الإسلام وكلها كانت صفات القمة الخلقية، ثم نتأمل سيرة حياته بنظرة كلية

(١) سيرة النبي ص ٢١٩ وأيضا محمد نبي لزماننا ص ١٧٤

(٢) معالم تاريخ الإنسانية ج٣ / ١٠١

شاملة، وندرس سياق زيجاته جميعا السياق النفسي والسياسي والاجتماعي، ونقرأ سمات المرحلة العمرية التي كان يمر بها. ونمعن النظر في إنسانيته العطوفة والرحيمة في تعامله مع الصغير والكبير والقريب والبعيد والعدو والصديق.

في ضوء ذلك نضع زواجه من السيدة صفية بنت حُيي بن أخطب، أحد زعماء اليهود في سياقها التاريخي؛ فقد أشفق عليها وأراد أن يرفع من مقامها ولا يكسر بخاطرها أو يقلل من وضعيتها الاجتماعية المتميزة في قومها، لاسيما بعد أن فقدت المعيل والنصير، ولهذا خيرها بين أن يلحقها بأهلها أو أن يعتقها ويتزوجها، ولما كانت هي راغبة في ذلك وكانت تحلم بهذه الأمنية، لذلك رغبت الزواج منه وعاشت مصانة مكرمة عزيزة مرفوعة القدر والرأس في بيته[١].

وهذا ما أيدته السيدة كارين وذهبت إليه بأن الرسول ﷺ، أراد أن يوثق الاتفاق بينه وبين اليهود ويقوي العلاقات بينهما، هذا من جهة. ومن جهة أخرى؛ أراد أن يجبر بخاطرها ويواسيها بعد مقتل زوجها في أثناء هذه الغزوة، وقيل إنها كانت قد تنبأت بهزيمة اليهود وكانت ترغب في اعتناق الإسلام[٢].

ثانيا: المسألة ليست اعتداد الرسول ﷺ، بنفسه أو ثقته بها وتوكله على الله وكلها صفات متوفرة فيه ، ولكن لأنه رسول من الله، ولما كان الله سبحانه أرسل مئات الأنبياء إلى البشرية في مسيرتها الطويلة، فهو يحدوهم بعنايته ويحيطهم بكرمه ويرشدهم بعلمه ويؤيدهم بمعجزاته ويكرمهم بنصره.

في ضوء ذلك ترشد العناية الإلهية رسولنا الكريم وتوجهه إلى الهدى والخير العميم، وتبصره بالطريق السوي وتبرئه مما نسب إليه أو ما نسب إلى أزواجه وتعضده في قراراته أو تصويبه فيما اختاره. فالرسول ﷺ، هو الذي رهن إشارة العناية الإلهية وهي التي تقرأ أفكاره وتحيط بمشاعره وتطلع على خائنة العين وما تخفي الصدور.

ونتهي من جملة هذه الشكوك التي تصدينا إليها، والقضايا التي توقفنا أمامها و قمنا

---

(١) راجع في ذلك، عبقرية محمد ص ١٠٩، وأيضا نساء النبي ص ١٨٢، وقد عرضت زواج الرسول من صفية عرضا متميزا تظهر فيه الأبوة الحانية والمعاملة الإنسانية لمن ذل بعد عز.

(٢) سيرة النبي ص ٣٤٥، محمد نبي لزماننا ص ١٧٤.

بتفنيدها والرد عليها وأظهرنا جوانب الحق من الباطل والصواب من الخطأ، والغث من الثمين، بمقولة شهيرة لتوماس كارليل في كتابه الأبطال: «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدا خداع مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا»(١). ثم يدلل على صواب رأيه بقوله: «هل رأيتم قط معشر الإخوان أن رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد دينا عجبا؟! والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب ! فهو إذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك، فما ذلك الذي يبنيه ببيت وإنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد، نعم وليس جديراً أن يبقى دعائمه اثني عشر قرنا يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن»(٢).

وفي نفس هذا السياق يصور درمنجم حقيقة معيشة الرسول ﷺ، وزهده وتقشفه وتجافيه عن طيبات الحياة، وسلوكه مع أصحابه الذي يعبر عن السلوك الإنساني المتحضر فهو إنسان مثلهم لا يتميز عنهم إلا بالرسالة التي حمل تبعاتها ومشاقاتها لإنقاذ البشرية من همومها وأحزانها، فيقول: «مما لا مشاحة فيه أن محمدا لم يكن شرها ولا فخورا ولا متعصبا ولا منقادا للمطامع، بل كان حليما رقيق القلب عظيم الإنسانية.... وكان بشوشا دمث الخلاق حسن العشرة ساذج المعيشة»(٣).

ويردد شبلي شميّل (١٨٦٠ - ١٩١٧) عين الفكرة السابقة ذاتها بأسلوب آخر وعبارات مركزة وإيمان قوي، على تباعد الزمان بينهما وتنائي المكان. فيقول: لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد من أبناء هذا العصر أن يصغي لما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خداع مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها الرسول مازالت السراج المنير(٤).

---

(١) الأبطال، ترجمة محمد السباعي. مكتبة مصر، القاهرة، ص ٥٣. من المعلوم أن عدد المسلمين أصبح أكثر من مليار ونصف مليار مسلم في العالم.

(٢) الأبطال ص ٥٣ .

(٣) حياة محمد ص ١٨٣ (نقلا عن حاضر العالم الإسلامي ص ٨٨).

(٤) مجلة المقتطف، المجلد السابع العدد السادس (نقلا عن كتاب محمد عند علماء الغرب ص ٤٤٤)

وتصف كارين صورة الرسول ﷺ، عند الغربيين بأنه الرجل الجهم والمحارب القاسي والسياسي البارد، وتستنكر ذلك بشدة، وتقرر أنه كان رجلا يتميز بأقصى درجات الشفقة ورقة المشاعر، إذ كان محبا للحيوان، وقد رأى مرة قطة على بردته فتركها دون أن يقلقها. وحظر وصم الحيوانات وصما يتسبب في إيلامها[1].

لاشك أن هؤلاء العلماء لم يضيفوا خبرا جديدا لنا، ولا صفة نجهلها في رسولنا ولكنهم قرروا حقيقية معلومة لكافة المسلمين، ووصفوا واقعا موضوعيا أمامنا وصف العدل والإنصاف، وجملة الصفات والآداب العامة التي تجلت في سلوكه أكبر من ذلك وأفضل.

يعن لنا سؤال بقوة، لماذا هذا العداء العميق الذي يكنه علماء الغرب بعامة وجمهرة المستشرقين بخاصة للإسلام والمسلمين، نحاول أن نجتهد لنستجلي أسباب هذا العداء ولعل ذلك يرجع؛ إلي: ظهور الإسلام بمبادئه السمحة وعقيدته الشاملة وتقدمه بقوة وإقدام واقتطاعه دولا كاملة كانت تدين بالنصرانية وإدخالها في حظيرة الإسلام، ثانيا: وقف سدا منيعا في وجه انتشار النصرانية في أماكن واسعة من العالم منها قارة إفريقية وآسيا، على الرغم من جهود المنصرين الهائلة وجهودهم الخرافية التي ذهبت أدراج الرياح، ثالثا: أنه دين حركي (ديناميكي) أصبح مثل المغناطيس يجذب القلوب ويأسر العقول ويستقطب الوجدان، وينتشر في كل بقاع العالم انتشار النار في الهشيم.

ويلخص إدوارد سعيد هذه الأسباب في الآتي:

١- تاريخ التعصب الشائع في الغرب ضد العرب.

٢- الصراع العربي الإسرائيلي وتأثير ذلك الصراع في اليهود الأمريكيين

٢- الانعدام شبه التام لأي موقف ثقافي يتيح للفرد التعاطف مع العرب أو الإسلام[2].

---

(١) سيرة النبي ص ٢٤٣. وتشير أيضا إلى حديث الرسول عن الرجل الذي سقى كلبا يقاسي من العطش فدخل الجنة، والمرأة التي حبست القطة فماتت من الجوع فدخلت النار.

(٢) الاستشراق ص ٨٩



الفصل الخامس

الرســـــول واليهود

تمهيد:

ينتسب اليهود(١) إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم السلام) الذي ورد اسمه في القرآن باسم «إسرائيل»؛ أي عبد الله ومن نسله ظهرت أمة بني إسرائيل؛ والثابت تاريخيا هجرة يعقوب وأولاده إلى مصر، بناء على دعوة ابنه يوسف الذي صار من أكابر الوزراء وتسلم حقيبة وزارة الخزانة وعاشوا في مصر في أمان كامل لكن في عزلة تامة داخل الجيتو النفسي كدأبهم ، ومن المؤسف أنهم استغلوا احتلال الهكسوس لمصر فتعاونوا معهم، وبعد اعتلاء رمسيس الثاني عرش مصر، بدأ ينتقم منهم، وينزل بهم صنوفا من العذاب أفاض القرآن في الحديث عنها. فأرسلت لهم العناية الإلهية سيدنا موسى لإنقاذهم من ذل فرعون واستعباده، وفي الوقت نفسه يحمل معه رسالة هي خريطة واضحة لمعالم عبادة الله الواحد الأحد، وخطوات السير في طريق الخير والفضيلة والتمسك بالقيم الخلقية. وقد سجل القرآن الكريم ووثق هذه الوقائع توثيقا تاريخيا (البقرة ٤٧.٥١)(٢)

---

(١). يقال اسم اليهود جاء من توبتهم عن عبادة العجل، (إنا هدنا إليك)أي تبنا ورجعنا، ويقال نسبة إلى يهوذا أحد أبناء سيدنا يعقوب.(الطنطاوي:بنو إسرائيل في القرآن ص ٣: ٨).وننبه أن ادعاء اليهود بأن تاريخهم يبدأ بهجرتهم من العراق مع سيدنا إبراهيم ادعاء مزيف، لا يستند إلى أي سند تاريخي، كذلك زعمهم بأن يهود فلسطين مرتبطون عنصريا باليهود العرب، وأنهم نزحوا إلى جزيرة العرب في أعقاب إجلائهم من فلسطين في عهد الرومان لربط صلتهم بالعرب ليس له أي نصيب من الصحة. (أحمد سوسة:أبحاث في اليهودية والصهيونية، دار الأمل، الأردن، ٢٠٠٢، ص ١٣٧)

(٢) ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ =

على أن اليهود لم يستطيعوا أن يتخلصوا من سلطان العادات وعشقهم للمادة، وسلوكهم المعوج ونوازع النفس الأمارة بالسوء التي كبلتهم فعادوا لسيرتهم الأولى وعبدوا العجل، نعم كانوا في هذا الطور يعبدون الله مع تقديسهم الأصنام، وإن كان الموحدون منهم قلة[١].

ويرسم بعض المؤرخين صورة قاتمة لليهود بأنهم عرفوا منذ قرون؛ أفاقين مغيرين سفاكين للدماء مندفعين في الخصام الوحشي، فإذا بلغ الجهد منهم مداه، ركنوا إلى الخيال التافه تائهة أبصارهم في الفضاء، كسالي عطل من الفكر كأنعامهم، علاوة على أن من أهم معالم شخصيتهم ؛ النفاق والجبن والبخل والطمع[٢].

ويؤكد معظم المؤرخين أن اليهود أقبح الأمم على حد تعبير سفاري ، طائفة بلا هوية محددة أو تاريخ واضح، ولكنهم مجموعة من القبائل المتناحرة، والطوائف المتصارعة "لم يجاوزوا أطوار الحضارة السفلي، التي لا تكاد تُميز من طور الوحشية، إذ كانوا بدوا رحل لا أثر للثقافة في حياتهم.

وبعد أن استطاع يوشع بن نون أن يدخل بهم إلى بعض مدن فلسطين ؛وجدوا أنفسهم في مواجهة أمم متمدنة قوية منذ قرون، وحينما أرادوا أن يقتبسوا بعض معالمهم ، فعلوا مثل باقي الأجناس الدنيا، التي لا تقتبس من الأمم المتحضرة سوي أسوأ عاداتها و أخس ما في حضارتها.[٣]

هذه القبائل عاشت مشردة متنقلة من منطقة إلى منطقة ثانية ، وكلما استقرت في مكان، وعاشت فترة من الزمن، هاجرت إلى مكان آخر، ومن ثم " لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا

=وَأَنتُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

(١) ولفنسون: تاريخ اليهود ص ٣، يقول: كان الموحدون للإله في بدء الأمر قليلين ولكنهم أخذوا يكثرون على مرور الزمن حتى تأثرت عقلية اليهود بالشريعة الموسوية.

(٢) جوستاف لوبون:اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، شركة نوابغ الفكر، القاهرة ٢٠٠٨، / ص٨٤ .

(٣) لوبون: تاريخ اليهود ص ١٥

صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة، واليهود لم يأتوا بأية مساعدة مهما صغرت في تأسيس المعارف البشرية، واليهود لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم المتوحشة التي ليس لها تاريخ ، وظلوا حتى آخر مرحلة من تاريخهم في أدنى درجة من الحضارة قريبين من دور التوحش الخالص[1]. وقد انحصرت مواهبهم في تربية البهائم وفلاحة الأرض، علاوة على التجارة.

وبعد أن توفي يوشع في حدود (١١٥٧ق.م) تفرّق بنو إسرائيل، إلى قبائل متناحرة، واقتبسوا من الكنعانيين سكان فلسطين كثيرا من الأفكار الوثنية، على أن هذا العهد شهد مرحلة من الهدوء و الاستقرار، ومن ثم انتقلوا من مرحلة الرعي والتنقل ونصب الخيام إلى الزراعة التي من أهم خصائصها الاستقرار والإقامة في شكل قرى ومدن وهذا يعدد طورا متقدما في الجانب الحضاري إذا واكبه نوع من التقدم الفكري، ومع هذا لم يتوقف الصراع بينهم وبين الكنعانيين أصحاب البلاد الأصليين.

وفي خضم الحروب التي خاضوها في مواجهة الكنعانيين أصحاب الأرض برز اسم داود قائدا لجيش إسرائيل؛ وقد أشار القرآن إلى هذه المرحلة التاريخية (البقرة ٢٤٦.٢٥١)[2]

وتعد فترة حكمه من أخصب الفترات التاريخية، إذ تولى بعده ابنه النبي سليمان الذي

---

(١) لوبون: تاريخ اليهود ص ٣ .

(٢) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

حقق آمال الشعب اليهودي في الاستقرار والرخاء واتساع ملكه علاوة على تشييده الهيكل، وبعد وفاته انقسمت مملكته؛ إلى مملكتين إحداهما: في الشمال اسمها إسرائيل، وأخري في الجنوب اسمها يهوذا. وقد دخلت المملكتين في حروب طويلة فيما بينهما زد على ذلك العودة إلى الوثنية الأولى وعبادة الأوثان، والعودة إلى سيرتهم الأولى في إتيان الرذائل.

وسط هذا الصراع الدامي تقدم سرجون الأشوري عام (٧١٢ق.م)صوب مملكة إسرائيل الشمالية وحاصر عاصمتها «السامرة» ونقل آلاف من اليهود إلى العراق[١].

ثم تعرضت مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم إلى ضربة مماثلة إذ دمر نبوخذ نصر ملك بابل القوي أورشليم في عام (٥٨٦ ق.م) فهدم هيكلها وأسر آلاف اليهود إلى بابل[٢].

ثم توالت على فلسطين دول مختلفة من الفرس واليونان والرومان وهي الدول الكبرى آنذاك ، وانتهى الأمر بقيام الإمبراطور الروماني تيطس عام (٧٠ م) بتدمير مدينة القدس وتدمير الهيكل مرة ثانية.

وفي حين يؤكد ولفنسون أن اليهود عانوا من القحط والجدب فهاجرت بعض قبائلهم من فلسطين إلى مدينة يثرب والاستقرار بها؛ وكانوا على جانب عظيم من القوة والبطش وكثرة العدد والمال[٣]، وبعضها الأخر إلى سيناء، يرى جميع المؤرخين المسلمين أن هذا الزعم باطل ولا يستند إلى أي وثائق تاريخية وليس هناك صلة بين يهود فلسطين ويهود الجزيرة العربية[٤]. وإلى هذا الرأي ذهب عبد الرحمن بدوي الذي يقرر أن يهود الجزيرة

---

(١) لوبون: تاريخ اليهود ص٣٥

(٢) لوبون: تاريخ اليهود ص ٣٦

(٣) يذكر ولفنسون أن من أسباب هجرة اليهود من فلسطين أن بلغ عددهم أكثر من أربعة مليون.(تاريخ اليهود ص ٩) ولا شك أن هذا رقم غارق في الخيال ويتسم بالشطط ويغلب عليه المزاج الشخصي والفخر بالأوهام والكذب الصريح، لأن عددهم ربما لم يصل إلى بضعة آلاف، والدليل أن عددهم في العالم الآن (١٥ مليون) !! فكيف كانوا أربعة ملايين من ألفين من السنين؟

(٤) أحمد سوسة: أبحاث في اليهودية والصهيونية، ص١٣٧ . ذكرت المستشرقة كارين أن لا أحد يعرف من أين أتي اليهود إلى المدينة، فربما فروا من فلسطين بعد أن قمع الرومان ثورتهم، وربما كانوا من القبائل العربية التي اعتنقت اليهودية، وهناك احتمال ثالث أن يكون بعض العرب غير المنتمين إلى القبائل تعرفوا على اليهود واعتنقوا دينهم (سيرة النبي ص ٢١٥).

العربية انتقلوا من اليمن بعد احتلال الحبشة لبلادهم[١].

كذلك زعمهم بأن يهود فلسطين مرتبطون عنصريا باليهود العرب، وأنهم نزحوا إلى جزيرة العرب في أعقاب إجلائهم من فلسطين في عهد الرومان لربط صلتهم بالعرب ليس له أي نصيب من الصحة.

ويؤكد أغلبية المؤرخين أن القبائل اليهودية كانت طوال تاريخها على جانب كبير من الجبن والهلع[٢]، وتميز سلوكهم المشين في كل مكان بالطمع الجارف الذي يسم سلوكهم، وحبهم الفائق للمال، وانغماسهم في الربا، ومحاولاتهم الدائمة السيطرة علي مقدرات أي دولة يحلون فيها، ونهب ثرواتها «وفق غرائزهم التجارية القوية في جمع الثروات» علي حد تعبير جوستاف لوبون.

الشاهد أن هذه القبائل اليهودية بنو القينقاع وبنو النضير وقريظة وخيبر استوطنوا شمال مدينة يثرب وأطرافها، وأقاموا فيها الحصون واشتغلوا بالرعي وتربية الماشية والزراعة والتجارة لاسيما تجارة البلح والشعير و الفضة والذهب ، وأقاموا علاقات تجارية وثيقة مع القرشيين، وكانوا يعلنون في كل مناسبة ظهور نبي جديد.

وظل هذا الحال حتى بعثة الرسول ﷺ وهجرته إلى المدينة المنورة ثم عقده معاهدات السلام مع اليهود تحترم عقائدهم وتحفظ لهم أنفسهم وأموالهم وأملاكهم. «واستطاع اليهود البقاء على دينهم والتمتع بحقوق فردية معادلة لحقوق المسلمين. وقد رضوا بسلطان محمد الذي كان يقبض بلا منازع على زمام القيادة العسكرية»[٣].

ومن الجدير بالإشارة أن اليهود سعدوا بقدوم الرسول ﷺ، أو على الأقل أظهروا ذلك، ورحبوا به وعدوا ذلك انتصارا للوحدانية على الوثنية التي كانت متفشية بين العرب، لاسيما وما جاء به يتفق مع تعاليم التوراة ويمجد إبراهيم وموسى ويحترم شعائرهم.

وقد حاول الرسول استرضاءهم، فدأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة ومنحهم

---

(١) دفاع عن محمد ص ٨٩.

(٢) لوبون : تاريخ اليهود ص٣٦

(٣) بوازار: إنسانية الإسلام ص ١٥٥

الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية، وساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق السياسية؛ ولكنهم قابلوا صنيعة باستهزاء وسخرية[١].

ولكنهم عادوا إلى مسلكهم الشائن، وسيرتهم الإجرامية مع الأنبياء، وكما قاوموا دعوة المسيح وحاولوا قتله، أعلنوا العداوة للرسول ولرسالته، وكانت عداوتهم للنبي على قدر كبير من الخطورة، إذ لم يكن بوسعهم أن يؤذوه بوسائل الحرب والسياسة فقط، بل بالسخرية اللاذعة والأسئلة المحرجة حول مسائل دينية أيضا. على حد تعبير نولدكه. وكان كل انتصار جديد لجند المسلمين يزيد في غيرتهم ويدفعهم إلى الغدر، حتى صار عداؤهم للإسلام علنيا[٢]، وفي نهاية الأمر اضطر الرسول إلى طردهم والقضاء عليهم بسبب خيانتهم للعهود المقطوعة بينه وبينهم[٣].

وما نبحث عنه ونود مناقشته طبيعة العلاقات بين الرسول ﷺ واليهود بعد أن هاجر إلى المدينة واستقراره فيها واتساع نفوذه بدخول قبيلتي الأوس والخزرج الإسلام، وكان هذا مكسبا استراتيجيا ونقلة نوعية واسعة ساعدته في تأسيس دولته الدينية المدنية وتثبيت قواعده في العاصمة الجديدة.

ولكن يبق سؤال يحتاج إلى إجابة؛لماذا تحولت العلاقات الطيبة من الصفاء والسلمية إلى العداء والحرب ثم الإجلاء عن المدينة؟.

ونحن بسبيل عرض وجهة نظر المستشرقين ورؤيتهم لهذه القضية ومناقشتهم.بالحكمة والحوار المثمر والمجادلة بالتي هي أحسن.

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣٣. لم تكن قضية استرضاء بالحق والباطل، أو تودد ممقوت لهم، لكن لاشك أن الرسول عاملهم أنهم أهل كتاب وموحدون، فود أن يكسبهم إلى صفة في مواجهة الوثنية القرشية .

(٢) تاريخ القرآن ص ١٥٢: ١٥٣، وأيضا اتين دينيه: محمد رسول الله ص ١٧٩

(٣) دومنيك سورديل: الإسلام، ص ٢١

أولا: أسباب الخلاف بين الرسول واليهود (بنو القينقاع)

١- وجهة نظر ولفنسون[١]:

ظهرت بذور الخلاف بين الرسول واليهود من الأسئلة التي كان يوجهها أحبارهم إلى الرسول، وقصدوا منها التعنت والتعسف، وتجلت بوادر النزاع من خلال المناقشات الدينية حيث كانوا يطلبون من الرسول الإتيان بالمعجزات، حتى يؤمنوا برسالته، ولما نزلت الآيات تعاتبهم وتكشف خبيئة ضمائرهم وتشرح أن مقصدهم لم يكن الفهم والاستيعاب للإيمان به، إنما القصد هو المداورة والمناورة والإساءة إلى الرسول وإظهاره بمظهر العاجز أمامهم الجاهل أمام أسئلتهم، وكلما تمادوا في إلقاء الأسئلة التي تظهر إنكارهم لرسالته، تجلت العداوة منهم أكثر، في حين أنهم كانوا يستفتحون على الكفار ببعثة الرسول ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، اشتدت الآيات في لومهم وتعنيفهم وفضح ضمائرهم والطعن في مسلكهم وأخلاقهم، وهكذا اتسعت دائرة النزاع الذي تحول إلى نفور بين الطرفين ثم أخذ ملمح الصراع الواضح يتصاعد، وقد ذكرت الآيات الكريمة من خلال التعنيف الشديد ثم الإعلان الصريح أنهم أشد عداوة للذين آمنوا ووضعهم في مرتبة واحدة مع المشركين ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢] ثم وضحت الآيات أنهم لم يستفيدوا من تعاليم التوراة، ولم يستوعبوا تعاليم الأنبياء السابقين أو يتعظوا بمآلات الأمم السابقة بسبب سلوكياتهم المنحرفة، وشبهتهم

---

(١) قدمت وجهة نظر ولفنسون علي باقي المستشرقين ولم أراع منهج التسلسل التاريخي الذي التزمت به من بداية البحث؛ بسبب أنه عالج قضية علاقة الرسول مع اليهود معالجة مستفيضة وناقشها مناقشة واسعة وأفرد لها كتابا مستقلا، أضف إلى ذلك أنه يهودي متعصب لليهود ومناصر لهم في كافة المواقف، ثم إنه صهيوني من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، عاش في مصر وشرب من نيلها الخالد، وتسكع في شوارعها الجميلة وتعلم في جامعتها العريقة وحصل على البكالريوس والماجستير والدكتوراه من جامعة القاهرة وعمل بالتدريس في دار العلوم، وحينها قامت إسرائيل النازية العنصرية، ترك كل هذه الذكريات الرائعة، والعشرة الطيبة، وكل ما في مصر المحروسة خلف ظهره وولى هاربا يعمل على ترسيخ الكيان الصهيوني في فلسطين، ويحارب القوم الذين آووه وعلموه ومدنوه.

بالحمار الذي يحمل الكتب دون أن يعرف مضمونها. ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥] ونوهت بتاريخهم الأسود وعبادتهم للعجل و قتلهم الأنبياء وقولهم على مريم بهتانا عظيما، أضف إلى ما سبق انزعج اليهود انزعاجا شديداً من تحول القبلة[١] إلى مكة وذهب زعمائهم يطالبون الرسول ﷺ أن يرجع إلى قبلتهم، وكانوا يأملون أن ينصرف الرسول عن دعوتهم إلى الإسلام ويصرف جهوده نحو العرب، ويؤكد ولفنسون أن اليهود كانوا يفضلون السلام لأن هذا يخدم أعمالهم التجارية والصناعية.

ومن هذه المعطيات توترت علاقة الرسول ﷺ باليهود، وانتهت أيام الود والوئام، ثم وقعت معركة بدر وخرج المسلمون منتصرون انتصارا حاسما وهذا جعلهم يعتزون بأنفسهم وترتفع معنوياتهم، و لما كان بني القينقاع يعيشون في المدينة وليس لهم من حلفاء من بني النضير وقريظة نظرا للعداء القديم بينهم، صار الأوس والخزرج يتعالون عليهم ويتحرشون بهم، علاوة على المهاجرين الذين كانوا يعيشون ضيوفا على الأنصار ويتحينون الفرص للانقضاض عليهم، وطمع الرسول ﷺ فيهم لأنهم أغنى طوائف اليهود وكانت بيوتهم تحتوي على الأموال الطائلة وكميات ضخمة من الذهب والفضة على حد تعبير ولفنسون. ولما دعاهم الرسول ﷺ للإسلام، ردوا عليه بتبجح وقالوا له: يجب ألا يأخذك الغرور بانتصارك على العرب الذين لا يجيدون فنون الحرب، وإذا حاربناك لتعلمن أنا نحن أصحابها. ومن هذه المقدمات حاصرهم الرسول ﷺ حتى نزلوا على حكمه، وأخرجهم من أحياء المدينة[٢].

هذه الرواية فيها تدليس واضح ومملوءة بالباطل وسعة الخيال وتفتقد الموضوعية وتتعمد تشويه صورة المسلمين بعامة والرسول بخاصة، ومع ذلك فيها قليل من الصدق و الحق.

---

(١) سرعان ما فسر يهود المدينة تحويل القبلة بأنه يمثل تحديا لهم، فقوي عزمهم واشتد على التخلص من محمد.
(كارين: سيرة النبي ص ٢٤٦)

(٢) تاريخ اليهود ص ١٢٣: ١٣٠ .

الواقع أن الرسول ﷺ تعامل مع اليهود معاملة طيبة حسنة من منطلق أنهم أهل كتاب، فهم أقرب إليه بمنطق تعاليم الدين من قريش، وحاورهم بالكلمة الطيبة وأجاب على كافة أسئلتهم ، وحاول أن يكسبهم ويدخلهم في الإسلام ولكنهم ظلوا يناورون، ويستعدُون القبائل عليه، ويحبكون المؤامرات، ويظهرون غير ما يبطنون ، إلى أن قام أحد سفهاء بني القينقاع بالتحرش بإحدى نساء المسلمين وكشف عورتها، فحاصرهم الرسول وأجلاهم وطردهم فخرجوا حتى نزلوا في إذرعات بالشام.

أما التحليل المادي الذي طرحه ولفنسون فهو ينبع من عقليته الملتصقة بالأرض والتي تقُيمّ الوقائع تقييما ماديا إذ يزن كل شيء على أساس المكسب والخسارة ، وكلامه عن طمع الرسول في أموالهم كلام متهافت وعار عن الصحة، وينبع من خياله المريض، الذي ينظر إلى الرسول ﷺعلى أنه مصلح اجتماعي وليس رسولا مؤيدا بالوحي ومسير بالعناية الإلهية.

الحقيقة أن الرسول صبر عليهم أمدا طويلا وسلك معهم كل السبل السلمية تجنبا للصدام، وحاول أن يقنعهم برسالته ويطرح عليهم مبادئ الإسلام، ولكن الغرور ركبهم وشعورهم بالاستعلاء تجاه العرب أعمى عيونهم، وأغشى بصيرتهم فذهبوا يتحدوه بكل ما في جعبتهم من غدر وما في تاريخهم من نقض العهود. ومن ثم لم يكن هناك بد من الصراع المسلح الذي انتهى باستسلامهم.

٢ - الناظر في وجهة نظر المستشرقين لموقف الرسول ﷺ من اليهود نجد بعضهم أكثر إنصافا من ولفنسون، إذ يعترف كلود سفاري بأن بني القينقاع نقضوا العهد مع الرسول بعد أن عقد معهم حلفاً، فقام بمحاصرة قلعتهم، فاعتصموا بها ودافعوا عنها بشجاعة، ثم استسلموا له[1]. وإلى هذا الرأي ذهب اتين دينيه وأشار إلى غدرهم بالمرأة المسلمة، وتحذير الرسول ﷺ لهم أن ينزل الله من البلاء والنقمة ما أنزل بقريش، ولكنهم سخروا منهم، واستصغروا شأنه وجيشه[2].

وهذا أيضا هو موقف بودلي إذ شرح وجهة نظره بقوله: بعد غزوة بدر راح اليهود

(١) السيرة النبوية ص ١٢٣

(٢) محمد رسول الله ص ١٨٠

يقللون من انتصار محمد ، ويسخرون من الوحي ومن صلاته، ويعترضون على أصالة ما جاء في القرآن، وذهب بعض صغارهم بإلقاء الحجارة عليه ومحاولة قتله. وفي موضع آخر أدان مسلك اليهود الغادر وخداعهم للرسول ﷺ ونقضهم للعهود، وهجاء كعب بن الأشرف للرسول، وفعلة اليهودي الشائنة مع المرأة المسلمة، ومن الواضح أنه يتبنى وجهة نظر مؤرخي الإسلام ويلوم مسلك اليهود لوما عنيفا(١).

وينحرف ويلز عن الخط السابق ويُظهر موقف الرسول كأنه يقتل جيرانه المسالمين من اليهود بلا جريرة فيقول: عاد محمد إلى المدينة منتصرا، وقد ألهمه الله هذا النجاح، أن يأمر بقتل عدد من خصومه اليهود في المدينة الذين قابلوا أقواله النبوية باستخفاف غير محمود(٢).

ويسير بروكلمان في ركاب ويلز كأنما ينقل من كتابه، فيشير إلى حصار الرسول لبني القينقاع وقتلهم وطردهم من ديارهم والاستيلاء على ممتلكاتهم، دون أن يذكر، الأسباب الحقيقية لذلك، أو يناقش القضية مناقشة علمية. في ضوء ذلك نجد أن ولفنسون اليهودي كان أكثر إنصافا وموضوعية في عرض القضية من ويلز وبروكلمان(٣).

٣ - وإذا كان ويلز وبروكلمان انحرفا عن درب الحق ومسلك الخير، فالقيم الإنسانية الخالدة من حب الحق والعدل والإنصاف واجدون من يرفع رايتها ويهتف بها، وهذا ما قامت به السيدة كارين؛حيث عرضت بإسهاب موقف اليهود المتربص بالرسول ﷺ والمعاند له، والمحرض عليه، والمستهزئ بنصره في بدر، وشرحت دور كعب بن الأشرف في تحريض قريش لغزو المدينة، ومؤامرات عبد الله بن أبي ومحاولته إشعال الفتنة وشعوره أن محمدا قد خطف ملكه بعد أن استوي على سوقه، ثم أشارت إلى حادثة المرأة المسلمة والصائغ اليهودي، وإجلاء اليهود بني القينقاع عن أطراف المدينة جزاءا وفاقا لأعمالهم الدنيئة ونقضهم للعهود، وقد تركوا الواحة دون احتجاج لأنهم كانوا يعلمون أنهم محظوظون أن نجوا بحياتهم.

---

(١) بودلي: حياة محمد ص ١٩٨ : ٢٠٧، وأيضا:هيكل: حياة محمد ص ٢٩١ : ٢٩٣

(٢) معالم تاريخ الإنسانية صج٣ / ٩٥

(٣) تاريخ الشعوب ص ٥١

وكان المتوقع من محمد أن يذبح الرجال ويسبي النساء والأطفال، طبقا للعقاب التقليدي المتبع[١].

ثانيا: صراع الرسول مع بني النضير

إذا انتقلنا إلى الصراع بين الرسول ﷺ وبني النضير، نجد أن ولفنسون أكثر إنصافا وأصدق في سرد الوقائع ورصد الأحداث؛وملخصها حينما وقعت غزوة أحد (٣ هـ) خرج الرسول لملقاة قريش وتخلف عنه بنو النضير ورفضوا الخروج معه بحجة أن المعاهدة بينهما تسمح لهم بالتخلف عنه ولا تجبرهم على نصرته، هذا الموقف المخزي الذي تجسد في نقضهم للعهود وتخاذلهم في وقت الشدة، أغضب الرسول ﷺ غضبا شديداً، مع أن مخيريق أحد كبار اليهود وأغنيائهم خرج معه واستشهد في المعركة، وأثنى الرسول على موقفه. ويشكك ولفنسون في رواية محاولة بني النضير الغدر بالرسول و قتله من خلال إلقاء حجر فوق رأسه، ويرى أن هذا سببا غير كاف لإعلان الحرب عليهم، وأن السبب الأول يرجع إلى تخلفهم عن الحرب معه.

ثم يضيف، حينما عاد الرسول ﷺ من غزوته أمر بعض أصحابه بقتل كعب بن الأشرف أحد زعماء بني النضير، إذ كان يؤذي الرسول شخصيا ويظهر احتقاره للمسلمين، ناهيك عن التشبيب بنسائهم، وكان هذا بمثابة إعلان الحرب عليهم ، ثم وجه لهم إنذارا بالنزوح من المدينة، وكاد أن يذعنوا لطلب الرسول لولا تحريض بعض المنافقين (على رأسهم عبد الله بن سلول) ألا يستسلموا بسبب حصونهم القوية، ووعدوهم أن يحاربوا معهم، ثم حاصرهم الرسول ﷺ وقطع نخيلهم حتى تسرب اليأس إلى نفوسهم ولم يجدوا مفرا من النزول على حكمه، فحقن الرسول دماءهم وسمح لهم أن يحملوا أمتعتهم وأموالهم على جمالهم، فخرجوا إلى خيبر ومنها لحقوا أهلهم «بإذرعات» بالشام.وقد غنم الأنصار بقية الأمتعة وكان منها (٥٠ درعا) (و٣٤٠ سيفا) وقد صور القرآن وقعة إجلاء بني النضير في سورة الحشر (الآية ٢)[٢].

---

(١) سيرة النبي ص ٢٧٣: ٢٧٦. وأيضا محمد نبي لزماننا ص ١٣١. تشرح كارين صعوبة فهم الغربيين لعلاقة الرسول باليهود، بأن هذا يرجع إلى أشباح الماضي الغربي من اليهود والكراهية الدينية والعرقية التي أدت أن يشعل مسيحيو أوربة المذابح لمدة تقرب من ألف عام، ثم تجلى هذه الإرهاب المسيحي اللاعقلاني في حملة هتلر الصليبية ضد اليهود (سيرة النبي ص ٢٧٧).

(٢) تاريخ اليهود ص ١٣١: ١٤٠ ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن =

لاشك أن ولفنسون كان صادقا مع نفسه وأكثر موضوعية وعدالة في عرض الحوادث إلى حد كبير، ولكنه تجاهل عديدا من الحقائق حول بني النضير وأغفل عوامل غاية في الأهمية، منها: هذا العداء المستحكم من اليهود ومحاربتهم للرسول سراً وعلنا لمواقفه ولرسالته وهم أهل كتاب فكان الأولى أن يتوحدوا معه صفا في مواجهة الشرك والوثنية في قريش وما حولها. وقد اعترف كلود سفاري بأن كعب بن الأشرف أعلن عدائه لمحمد ونظم الشعر الذي ينفس به عن حقده، وذهب إلى مكة يحرض قريشا على الرسول وعاد إلى المدينة يثير الفتن فيها.فأهدر الرسول دمه[١].

وهذا ما قرره أيضا كايتاني إذ يعترف بأن كعب كان يتميز من بين اليهود بالعنف والصلف والتمادي في العداوة الشديدة للرسول في كل موقف، وناصر القرشيين ووصفهم بأنهم «ملوك البشرية» وذهب يحرضهم على غزو المدينة ويلهب عواطفهم للثأر، وكذلك هجائه للرسول والمسلمين[٢].

ثانيا: أنهم نقضوا المعاهدة بعدم القتال معه على حسب نصوصها فهم يد واحدة على أعدائهم وخذلوه في هذا الموقف الحرج. وثالثا: يؤكد المؤرخون صحة محاولة غدر بني النضير بالرسول ولكن الوحي أخبره بالمؤامرة، وهذا فعل شنيع ونكث بكل العهود والأعراف الأخلاقية والمواثيق المكتوبة. وقد أشار كلود سفاري إلى محاولة بني النضير قتل الرسول بعد أن ذهب إليهم مسالما، فحاصرهم وقطع نخيلهم فخارت شجاعتهم، وأحيط بهم بهم ، فاستسلموا طواعية، فعفا عنهم وسمح لكل واحد منهم أن يحمل من ثروته ومتاعه حمولة بعير[٣].

أما اتين دينيه المفكر المسلم فيعول على رواية مؤرخي السيرة ويشير إلى محاولة غدر اليهود بالرسول ﷺ، فحاصرهم وأرغمهم على الاستسلام صاغرين ولكنه عفا عنهم وأجلاهم ولم يسمح لهم إلا بحمل متاعهم وأموالهم[٤].

=يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

(١) السيرة النبوية ص ١٢٦.   (٢) دفاع عن محمد ص ١١٨

(٣) السيرة النبوية ص ١٣٣.

(٤) محمد رسول الله ص ١٨١، وأيضا هيكل: حياة محمد ص ٣١٩

٢- من غرائب الأقدار وعجائب المواقف أن يعترف ولفنسون اليهودي بخطأ بني النضير ونقضهم للعهد في حين يرى بودلي أن محمدا شك في أنهم يتآمرون علي حياته، فلم يحقق الأمر ولم يفاوضهم، بل بعث إليهم رسولا يحمل هذا الأمر الواضح؛ أن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي[1].

من الواضح تناقض كلام بودلي و عدم تحققه من الأمر والرجوع إلى المراجع المعتبرة، لأن غدر بني النضير كان واضحا للجميع وكان الرسول ﷺ على يقين من مؤامرتهم عليه ومحاولتهم قتله غيلة وغدرا.

٣- كذلك من المؤسف أن مؤرخا كبيرا في قدر بروكلمان يقف موقفا متحيزا ضد الحقيقة الساطعة، فبعد أن سرد وقائع غزوة أحد ذهب إلى القول: أراد محمد أن يعوض الخسارة العسكرية ففكر في القضاء على بني النضير لسبب واه فحاصرهم في حيهم[2].

وقد عرضنا رأي ولفنسون الذي أقر بغدر بني النضير، وهذا الطرح من بروكلمان يشجعنا على اتهامه بالتحيز لليهود والانتصار لهم بالباطل، وتشويه حقائق التاريخ وكراهيته البادية للرسول ﷺ ورسالته، وهذا كله يسترد من رصيد الثقة فيه وفي منهجه.

ورابعا: تحلى الرسول بسعة الصدر والصبر على غدرهم وتسامح معهم وتركهم يخرجون بأولادهم وأموالهم دون أن يتعرض لهم بأذى.

أما قول ولفنسون أنهم خلفوا وراءهم أسلحة كبيرة فكما قلت أن الرجل يتعامل مع الوقائع بعقلية التاجر. مثل بني قومه - التي تنظر للأمور بمعيار المكسب والخسارة، غير ناظرا إلى غدرهم وخذلانهم للرسول وافتقادهم أبسط أعراف الجوار وتضحيتهم بالقيم الخلقية، ومبادئ الأخوة الإنسانية ونسيانهم أنهم أهل كتاب. الإشكالية أنه يركز دائما في

---

(١) حياة محمد ص ٢٢٩

(٢) تاريخ الشعوب ص ٥٢. كان يجب أن يكون موقف بروكلمان غير ذلك بصفته ألماني، قرأ تاريخ اليهود في ألمانيا، ومحاولتهم تخريب الاقتصاد الألماني وتحالفهم مع الحلفاء، وما فعله هتلر بهم كان عقابا على غدرهم بالشعب الألماني في الحرب العلمية الأولى، ولا نعرف سبب تعاطفه معهم وما السر وراء ذلك.

تحليلاته على العامل المادي دون النظر إلى العامل الروحي.

٤ - تقف كارين موقف موضوعيا من بني النضير وتؤكد على نقضهم للعهد بينهم وبين الرسول واستماعهم لوسوسة بن أبي سلول، ومحاولة غدرهم بالرسول ﷺ حينما ذهب للتفاهم معهم لولا أن الوحي حذره من غدرهم، لذلك أصدر الرسول أمره بتقطيع نخيلهم، فاستسلموا متوسلين النجاة بأرواحهم، وغادروا الواحة حاملين معهم ما يستطيعون حمله من متاعهم حتى أنهم قاموا بخلع عتبات بيوتهم[1].

أخيراً الناظر في رواية القرآن يدرك مدى المرارة التي تجرعها الرسول ﷺ من هؤلاء القوم والمعاناة الشديدة، وافترائهم عليه ووقوفهم صفا واحدا مع القرشيين في مواجهة رسالته الإنسانية، وجهاده في انتشال البشرية من وهدة الرذيلة والسمو بها إلى الأفق السامي، ومحاولته المستميتة إقناعهم بصدق رسالته، ولكنهم رفضوا الانصياع له وركنوا إلى الأرض.

ثالثا : الصراع مع بني قريظة

لم ينته الصراع مع اليهود، ولكن كانت الأيام حبلى بالأحداث، فبعد خروج بني النضير من المدينة، عادوا من الباب الخلفي، وذهب زعمائهم وعلى رأسهم حُيي بن أخطب إلى مكة لمقابلة أبو سفيان وحثه ومعه قريش على محاربة الرسول وأنهم سيقفون بجانبهم، ويتوسلون بكافة الوسائل الخسيسة على إيقاد نيران الحرب ثانية، ليس هذا فحسب بل أكدوا لقريش «أن دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق» أي أن دين الوثنية أفضل من الإسلام، ثم مضوا في خطتهم فأغروا قبيلة غطفان بإغراءات مادية لتأليبهم على الرسول وانضمامهم لحزب قريش[2]. وهنا تحركت جيوش قريش بزعامة أبو سفيان الذي جمع حوله معظم الأحزاب وزحف على المدينة لهزيمة الرسول ووأد دعوته مصمما أن تكون هذه حرب حاسمة تنهي وجود محمد تماما، وقد شاور الرسول أصحابه ذوي الرأي والخبرة واستقر الرأي بحفر الخندق حول المدينة والتحصن داخلها وتقوية أسوارها وسد ثغراتها لإنقاذها من زحف جحافل الأحزاب من كل اتجاه.

---

(١) سيرة النبي ص ٢٩٠. وأيضا محمد نبي لزماننا ص ١٣٧.

(٢) كان سفاري منصفا بلغ من الإنصاف الغاية وموضوعيا في سرد تفاصيل غزوة الخندق، وشرح خيانة بني النضير بعد طردهم ودورهم في تحريض قريش على محاربة الرسول، وتزيين موقفهم وتسفيه دين الإسلام (ص ١٣٧).

وعلى الرغم من القوة الضاربة لجيش الأحزاب، إلا أن النزاع الخفي دب بينهم واختلفت مقاصدهم من الحرب؛ ففي حين قصدت غطفان الحصول على المكاسب المادية بالحصول على ثمار مزارع خيبر مدة سنة، كان مقصد قريش القضاء على الدعوة وفتح الطريق أمام تجارتها إلى بلاد الشام، أما اليهود فكانوا يبغون الثأر والانتقام من محمد والعودة إلى المدينة ثانية.

وبعد مرور بضعة أيام في المناورات والمناوشات بين الفريقين ومحاولة فرسان قريش اقتحام الخندق إلا أنها باءت بالإخفاق ، أدرك زعماء الأحزاب ألا سبيل إلى النصر إلا بإغراء بني قريظة من الانضمام لهم، والهجوم من الخلف وفتح ثغرة في تحصينات المدينة، لذلك طلبوا منهم الانضمام لهم ونقض العهد بينهم وبين الرسول، وقد قام بهذه المهمة الخسيسة حيي بن أخطب وبعد إغراءات من طرفه، وممانعات من بني قريظة وافق زعيمهم كعب بن أسد على الانضمام لهذا الحلف غير المقدس ونقض العهد مع الرسول دون أن ترف له عين أو يتبصر عواقب هذه الخيانة الفظيعة، ومع أن الرسول تحلى بالصبر وطول البال وأراد أن يتأكد من موقف اليهود فأرسل إليهم سعد بن معاذ يستفسر عما وصل إليه، وجاءت الإجابة صادمة بأن لا عهد بينهم وبين محمد ولا عقد.

ثم سارت الحوادث على غير ما يهوى أنصار الغدر والخيانة؛ فقد استطاع الرسول أن يغري غطفان من الخروج من المعركة عن طريق العامل المادي ، ثم وقعت بعض الوقائع تشي بعدم الثقة بين القرشيين وبني قريظة ، ومنه تخاذلهم في مناوشة الرسول بحجة أن هذا يوم السبت، ثم طال أمر الحصار وأنهك الطرفان وأصاب الملل جيش القرشيين من طول الانتظار وقلة المدد وتشتت الأمر، ثم جاءت الريح العاتية قاصمة ظهر جيوش الأحزاب، فأسرع أبو سفيان يعلن الرحيل وإخفاق حملته، وأسرعت كل قبيلة تولي وجهتها، وتركت بنو قريظة لمصيرها المجهول بعد غدرهم بالمسلمين في هذا الموقف الحرج، ولم ينم الرسول ليلته، وحاصر بنو قريظة وبعد حوار بينهما رضوا بحكم سعد بن معاذ ، فحكم أن يقتل الرجال، وتسبى النساء. وكانت هذه المعركة نهاية لوجود بطون اليهود في المدينة(١).

١ – لو رغبنا في تعقب كلام ولفنسون، نجده بداية يبرر لزعماء بني النضير مسلكهم

---

(١) تاريخ اليهود ص ١٤١ : ١٥٦ .

الشائن، ويجيز التوسل بأي وسيلة مهما كانت حقارتها لاسترجاع ملكهم، ويقر بأن هذا «سجية من السجايا البشرية وعمل مشروع لدى جميع الأمم» ومن حقهم أن يثأروا من الرسول باستعمال «الأكاذيب والخدع والأضاليل»، على أنه رفض مقولتهم بأن دين قريش الوثني أفضل من الإسلام واستنكر ذلك، وأنحى عليهم باللائمة، ورأى أن هذا خطأ فاحشا وموقفا مناقضا لتعاليم التوراة ولا يليق بقوم متدينون. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، يلاحظ أنه لم يستطع أن يجد لبني قريظة أي عذر في موقفهم الغادر من الرسول ونقضهم للعهود القائمة بينهما، ورأى أن هذا خطأ استراتيجي، لكن في تناوله للأحداث يبين فضل بني قريظة ودورهم في عمران المدينة؛فهم الذين أعاروا للمسلمين «المساح والمكاتل» لحفر الخندق، وحصونهم مليئة بالمؤن والسلاح، وانضمامهم لقريش أوقع الرعب في قلوب المسلمين، وأنهم تمسكوا بدينهم وعقيدة آبائهم وكانوا يتدارسون الزبور وهم يعلمون أنهم سيقتلون، وقابلوا القتل بشجاعة وثبات، وقد تدهورت أحوال المدينة الزراعية والتجارية والحضارية بخروج اليهود لولا أنها ظلت عاصمة الدولة الإسلامية أيام خلافة الرسول والراشدين[١].

من المؤسف أن هذا المستشرق بدلا من أن يؤنب قومه على موقفهم المخزي ونقضهم للعهود، راح يستعرض فضائلهم ويهرب من القضية الجوهرية التي نتكلم عنها، وبدلا من أن يعترف أن الأجدى أن يدخلوا في الإسلام مثل بعض النفر الذين اعتنقوا الإسلام، ذهب يقول هذا النفر من يهود العرب تهودوا وليسوا من اليهود الأصلاء، ويكذب على نفسه وعلى التاريخ في تقريره أن المدينة فقدت بريقها بخروج اليهود في حين أن المعلوم أنها تألقت طوال حكم الراشدين وكانت عاصمة الدولة الإسلامية وازدهرت ازدهارا عظيما أيام سيدنا عمر؛ دينيا وفكريا وسياسيا وزراعيا وتجاريا وأن المسألة لم تكن متوقفة على عبقرية اليهود الذين خانوا الأمانة ونقضوا العهود مع الرسول ﷺ.

٢ - ونعضد كلامنا بما ذهب إليه الرحالة كلود سفاري الذي شرح دور يهود بنو قريظة

(١).تاريخ اليهود ١٥٠ : ١٥٦

في تأليب الكفار على المسلمين وغدرهم بالمعاهدة التي وقعت بينهم وبين الرسول، لذلك رأى أنه ينبغي توقيع العقوبة الرادعة على مثل هذا التصرف الخطير[١].

أما اتين دينيه فيؤكد صواب موقف الرسول ﷺ وحسن تخطيطه وبعد نظره إذ رأى غدر بني قريظة الذين نقضوا ميثاقهم وانقلبوا عليه متحالفين مع أعدائه، لا يتحقق إلا صارم العقاب وعاجله فحاصر قلاعهم وأجبرهم على الاستسلام[٢].

وهذا هو منهج بودلي الذي نراه ولأول مرة ينصف الرسول ﷺ في موقفه من اليهود ويهاجمهم هجوما عنيفا، ويستعرض أحداث غزوة الأحزاب بقيادة أبو سفيان، ويشير إلى الخطأ الفادح الذي وقع فيه بني النضير الذين نزلوا خيبر، وانضموا مع يهود بني قريظة إلى أبي سفيان، ونقضوا المعاهدة بينهم وبينه، وبهذا فقد الخندق الذي حفر حول المدينة قيمته العسكرية، وكشفوا ظهر الرسول وعرضوه للهزيمة، ولكن جرت الأحداث لصالح المسلمين وإخفاق جيش أبي سفيان في اقتحام الخندق، ثم وقع الخلاف بين أبي سفيان وبني قريظة بعد أن انعدمت الثقة بينهما، وهبت الرياح العاصفة وسقطت الأمطار الغزيرة وانسحب جيش قريش، وأصبح بنو قريظة وجها لوجه مع الرسول وحكم فيهم سعد بن عبادة حكمه المشهور، ويختم حديثه بقوله: «إذا فكر يهود المدينة في الأمر لعلموا أن محمداً ما فعل شيئا أكثر من تنفيذ التعليمات التي وضعها قومهم في الإصحاح العشرين»[٣].

٣ - وإذ كان سفاري وبودلي أنصفا الرسول ﷺ في موقفه من بني قريظة وشهدا شهادة صدق وعدل، إلا أن بروكلمان - كما عهدناه سابقا - يسير في طريق التلفيق ودهاليز الكذب وأودية النفاق، ويجامل اليهود على حساب الحقيقة ووثائق التاريخ، فبعد أن يشرح أحداث غزوة الخندق وهزيمة المشركين وانسحابهم يقول: «في اليوم نفسه هاجم المسلمون بني قريظة الذين كان سلوكهم غامضا»[٤] (!!) ويكفي بروكلمان خزيا وعاراً أن يكون ولفنسون اليهودي المتعصب لبني قومه أشد إنصافاً منه وأقرب للاعتراف بخطيئة بني قريظة منه وغدرهم بالرسول.

---

(١) السيرة النبوية ص ١٤١. (٢) محمد رسول الله ص ١٨١.

(٣) حياة محمد ص ٢٤٤: ٢٦٠. وأيضا هيكل: حياة محمد ص ٣٤٢ : ٣٥١.

(٤) تاريخ الشعوب ص ٥٤

٤ - كدأبها في تتبع سيرة الرسول وغزواته، استعرضت كارين أحداث غزوة الأحزاب متتبعة التفاصيل الدقيقة، وما يهمنا هو إشارتها لغدر اليهود، وتجشم حيي بن أخطب المصاعب وذهابه لقريش وتحالفه معها وتحريضها، وسوء تقدير اليهود للموقف وغرتهم كثرة الجيش الهائل الذي أتت به قريش، وطرح عهدهم مع الرسول ﷺ وراء ظهورهم، وردهم بجفاء على سعد بن عبادة، دون أن يتبصروا مسلكا للرجعة، والأنكى من كل ذلك إعلائهم من شأن الوثنية القرشية على التوحيد الإسلامي، وبعد رحيل الأحزاب، أصبح مصير بني قريظة الذين دفعوا الأمة إلى شفا الهلاك معلقا بيد المسلمين، وبوحي من جبريل توجه جيش الإسلام صوب قريظة، فسارعوا يطلبون من محمد السماح لهم بمغادرة الواحة بنفس شروط بني النضير، ولكن رفض محمد وقبل حكم سعد بن عبادة.

ثم تعقب على ذلك بعدم تفهم الغربيين لأبعاد قتل القرظيين ، إلا أن بعض المفكرين منهم يرون أنه من الخطأ الحكم على تلك الحادثة بمعايير القرن العشرين. على أنها توافق على مسلك الرسول، إذ لو أنه أطلق سراحهم لزادت معارضة يهود خيبر، واستأنفوا الهجوم على المدينة، وستستمر معركة البقاء إلى ما لانهاية، وتستشهد بقتل داود مئات من الفلسطينيين ، وكذلك تصرف موسى مع الكنعانيين. أضف إلى ذلك كان الجميع في بلاد العرب يتوقع هذا الحكم في ذلك الوقت، بل إنه طبقا للمراجع التاريخية فإن بني قريظة لم يفاجئهم الحكم. [١]

٥ - ويدلي العلامة العقاد بدلوه ويعرض وجهة نظره ردا على افتئات المستشرقين ودموعهم التي يسفحونها كذبا ونفاقا فيقول: إن المؤرخين يستعظمون قتلهم ويحسبونه مخالفا للعرف المتبع في الحروب، وينسون أمورا لا يصدق الحكم في هذه المسألة ما لم يذكروها؛وهي إن بني قريظة حنثوا في إيمانهم مرات فلا يجدي معهم أخذ المواثيق من جديد، وأنهم قبلوا حكم سعد بن معاذ وهم الذين اختاروه، وإن سعدا إنما دانهم بنص التوراة الذي يؤمنون[٢].

---

(١) سيرة النبي ص ٣٠٠: ٣٠٩، وأيضا محمد نبي لزماننا ص ١٤٧: ١٥٠.

(٢) عبقرية محمد ص ٥٧. جاء في الإصحاح العاشر: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن إجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود بها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل=

٦ - وأخيرا فمن يقرأ القرآن وهو يشرح موقف بني قريظة من الرسول ويحلل آياته (الأحزاب ٢٥: ٢٧)[1] التي أفصحت عن نيات اليهود وكيدهم للرسول ﷺ، وسجلت كل آثامهم وأعمالهم الشريرة، يدرك إدراكا واضحا خبث القوم ونياتهم السيئة تجاه الدعوة الإسلامية وفظاعة مسلكهم ، ويطمئن في عدالة طردهم وأنه كان جزاء وفاقا لما قدمت أيديهم من خبث وظلم ونقض للعهود والاستهتار بالقيم الخلقية والإنسانية التي تعارفت عليها البشرية.

ومن الجدير بالتنويه أن أسلوب الشدة والعنف الذي وجهه القرآن لليهود لم يكن موجها لهم في ذواتهم، لكنه موجه إلى سلوكهم المعوج وصفاتهم المرذولة، وأفكارهم المنحرفة ومؤامراتهم التي لم تتوقف حتى يومنا هذا.

رابعا: معركة فتح خيبر وطردهم

١- لم ينته الصراع السلمي والمسلح بين الرسول واليهود بطرد بني قريظة، لأن يهود خيبر تحركوا بسرعة فائقة بمجرد طرد إخوانهم، وأسرعوا في تحريض قبائل اليهود والتحالف مع غطفان لمهاجمة الرسول ولم يبالوا بنقض المعاهدة، وطلب أحد زعمائهم توحيد كلمة اليهود والزحف على المدينة ومباغتة الرسول وأنصاره، ولكن هذا الرأي لم يلق استجابة منهم أو قبول.

وبموازاة هذه الأحداث عقد الرسول ﷺ، صلح الحديبية مع قريش (٦ هـ) التي بدأت تقلل من كبريائها وغطرستها، وتعترف بينها وبين نفسها بصدق رسالة محمد، بعد أن أنهكتها الحروب، وشعورها بالضائقة الاقتصادية بعد يوم قريظة وخشيتها من غارات المسلمين و من انتقام الرسول، وقد لاق هذا الصلح اعتراضا من بعض المسلمين ومنهم عمر بن الخطاب، بيد أن قبول الرسول لها أكد على «بصره بالعواقب وعلمه بالسياسة الدقيقة» ونظرته

=عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك».

(١) ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾.

المستقبلية وكان فتحا مبينا للمسلمين حيث أقبل العرب على الدخول في الإسلام بعد أن شاهدوا قريش تطامن من كبريائها وتمد يدها لمصافحة الرسول والاعتراف الصريح بدينه وبحضوره الطاغ الذي لا يستطيع أحد أن ينكره..[١]

وقد بارك هذه الخطوة الإيجابية كل مفكري الإسلام وتوقفوا أمامها بالتحليل واستنتاج بعد نظر الرسول ونتائجها العظيمة في المستقبل القريب. وهو يتكلم عن عبقرية الرسول السياسية يقول العلامة العقاد: قد أكد «عهد الحديبية تدبير محمد في سياسة خصومه وسياسة أتباعه، وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود»[٢].

وبهذا الصلح أصبح الرسول ﷺ، آمنا شر قريش ويأسهم، وأصبح الطريق مفتوحا أمامه لغزو خيبر (٧ هـ) وتأديبهم. ويلخص ولفنسون أسباب غزو الرسول لخيبر في ثلاثة أسباب؛ تحريضهم قريش وغطفان على المسلمين، كذلك يأسه من اعتناقهم للإسلام وإعلانهم العداوة له ولدينه، وأخيراً كانت خيبر تمثل القوة الثانية في الجزيرة - بعد قريش - التي تعوق نشر دعوته، أما باقي القبائل فلم تكن بذي خطر.

وقبل بدء الحرب حاول اليهود كسب بطون غطفان، وبعد أن اتفقوا معهم نكصوا على أعقابهم وغدروا باليهود، لأن الرسول ﷺ، استمالهم وأغراهم بمنحهم العطايا من سبي خيبر، وقد حاصر الرسول حصون خيبر المنيعة المبنية على رؤوس الجبال التي صمدت أمامه طويلا، وأنزلت بالمسلمين خسائر عظيمة، وظلت المناوشات والكر والفر من حصن إلى آخر وكلما فتح المسلمون أحد الحصون ارتد اليهود إلى حصن آخر أشد مناعة وأكثر عددا وعتادا وسلاحا، وقد اشترك في هذه الحرب كبار الصحابة، حتى انتهوا إلى حصن خيبر وقد حاول

---

(١) علق نولدكه على الصلح بقوله: وقد أظهرت النهاية التي وصلت إليها الأحداث أن هذا السلام كان بالفعل نجاحا سياسيا هائلا ونصرا حقيقيا لمحمد. (تاريخ القرآن ص ١٩٤). ويعترف كايتاني بأن القرشيين هم الذين نقضوا الصلح، ولذلك أصبح محمد في حل من إعلان الحرب عليهم. وهذه الحرب ستنتهي بأعظم فتوحاته (دفاع عن محمد ص ١٥١) ويقول مراد هوفمان: كان قبوله للهدنة في الحديبية والذي أثار مخاوف أصحابه، مناورة دبلوماسية من الطراز الأول، إذ سرعان ما أدرك أهل مكة أنهم قد وقعوا بأنفسهم على صك استسلامهم مستقبلا. (يوميات مسلم ص ١٣١) وأيضا هيكل: حياة محمد ص ٣٨٣.

(٢) عبقرية محمد ص ٥٧

أكثر من سبعين رجلا يقودهم علي بن أبي طالب حتى استطاعوا اختراقه، وبدأت الحصون الأخرى (نطاة، الصعب، الزبير، ناعم) تسقط في قبضة المسلمون واحدا بعد الآخر، ويصور ولفنسون مناعة حصون اليهود، ومهارتهم في بنائها وكيف أنها مزودة بالسلاح والطعام والماء وبسالتهم وشجاعتهم في مواجهة جيش الرسول ومهارتهم في المبارزات التي تشبه «الروايات الخرافية عند قدماء الإغريق». واستمر الحصار والقتال حتى سقطت كافة الحصون ومنها حصن «القموص» الذي تمكن المسلمون من فتحه عَنْوَةً، وأخذوا السبايا واصطفى الرسول لنفسه صفية بنت حيي بن أخطب.

ويشرح ولفنسون سبب إجابة الرسول ﷺ، لطلب اليهود الصلح وحقن دمائهم، ويرى أن ذلك يرجع لسعة أملاك اليهود وفيها من الحدائق والمزارع التي تحتاج إلى أيدي عاملة كثيفة وماهرة ، ولم يكن عند العرب خبرة بذلك ، فترك اليهود يزرعونها لتدر عليه " الأموال الكثيرة " وزيادة واردات الحكومة الجديدة بعد أن وافقوا أن يعطوا نصف ثمارها للمسلمين، فضلا عن أنه كان يبغي توفير رجاله للأعمال الحربية المقبلة، ثم إن يهود خيبر لم يفعلوا ما يوغر صدر الرسول كما فعل غيرهم[1].

ونعقب على سرد ولفنسون للأحداث، فنقول: إن قريشا وافقت على الصلح مع الرسول ﷺ، ليس بسبب الضائقة الاقتصادية التي ألمت بها بعد يوم قريظة، لأن قريظة لم يكن لها دخل في هذه المسألة ولكن الحروب أنهكتها وقتلت صناديدها وعطلت حركة تجارتها إلى الشام واليمن، أضف إلى ذلك، أنها أدركت من خلال استقراء تاريخ محمد أنه صادق و صاحب دين جديد، ولم يكن كاذبا في يوم من الأيام، وفهمت بحسها السياسي وفطرتها الخيرة أن راية الإسلام لا محالة منتصرة وأن علامات النصر بدأت تلوح في الآفاق ولا يوجد عاقل يعاند حركة التاريخ، لذلك نحت كبريائها جانبا وطامنت من زهوها وغطرستها واعترفت بالواقع الجديد وقبلته عن قناعة أو دون ذلك.

أما تركيزه على العامل المادي الذي يفسر به كافة المعارك بين الرسول ويهود خيبر، وأن الرسول ﷺ، كان يطمع في ثروتهم وحدائقهم فهذا أمر غير مقبول، ومع أننا لا ننكر أهمية

---

(١) تاريخ اليهود ص ١٤٧ : ١٧١.

العامل المادي في بناء المجتمع وتقدم الأمة، إلا أنهم نسوا أو تناسوا أن الرسول صاحب رسالة سماوية ومهمته الدعوة إلى الإسلام ونشره في الآفاق، و كان يرجو من اليهود أهل الكتاب أن ينصروه على الوثنيين ولكنهم أول من تصدوا إليه وكادوا له وعقدوا المعاهدات مع أعدائه وتحالفوا معهم، ومن ثم كان عند الرسول ﷺ، مبررات كافية لمحاربتهم وإخراجهم لأنهم هم الذين بادروا بالغدر والحرب.وعندما مال يهود خيبر للصلح وطلبوا منه حقن دمائهم لبى طلبهم، وهذا ما فعله مع قريش في صلح الحديبية على الرغم من أن بعض المسلمين اعترضوا عليه، ولكنه كان يبحث عن سبل السلام وطريق الوفاق ووصل حبل المودة والقرابة مع قريش، وقال قولته المشهورة: «لا تدعوني قريش إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها».

وهذا مسلك الأنبياء ورجال الدولة ورواد الإنسانية الذين ينشدون السلام ويتجنبون ويلات الحروب ونتائجها الكارثية.

٢- من الجدير بالذكر أن كلود سفاري شرح وقائع غزوة خيبر بتفاصيلها الكاملة، وفتح الحصن بشجاعة عليّ بن أبي طالب بعد استعصائه على كبار الصحابة وزواج الرسول من صفية الجميلة ابنة أحد أشراف اليهود، ولكنه لم يشر إلى الأسباب التي دفعت الرسول لذلك[1]. وهذا يخصم من رصيده الموضوعي، ويقوي سوء الظن به، وإن من حقنا اتهامه بالتحيز والانحراف عن المنهجية العلمية.

٣- أما المفكر المسلم اتين دينيه، فقد نقل وقائع المعركة من مصادرها الإسلامية، وشرح تفاصيلها وذكر غدر اليهود وأشار إلى مكائدهم التي لا تنتهي إلا لكي ينسجوا مكيدة جديدة ومؤامراتهم الفاشلة في مواجهة الدين الجديد. يقول عن يهود خيبر: زاد تعطشهم إلى الثأر شدة، واستمرت وقدة الحقد للإسلام في قلوب أهل خيبر بوفود الجماعات من اليهود الهاربين إليهم من المدينة واعتقدوا أنهم بمأمن من ضربات المسلمين، فلم يألوا جهدا في سبيل الكيد لهم[2].

---

(١) السيرة النبوية ص ١٥٨: ١٦٢

(٢) محمد رسول الله ص ١٨٣

٤ - كذلك من المؤسف أن يكون بودلي في شرحه لأسباب غزو الرسول ﷺ لخيبر أقل إنصافا وموضوعية من ولفنسون، على الرغم من شعوره العدائي تجاه اليهود، إذ لخص أسباب الغزو في: انضمام بني النضير إلى حصن خيبر وجلب المتاعب للمسلمين، أراد محمد أن يعوض خيبة الأمل التي نتجت عن الحديبية، رغبته في استخدام جيشه الجديد[1].

ولم يشر إلى غدر يهود خيبر وتحريضهم قريشا على غزو المدينة ونقضهم للعهود.

٥ - أما بروكلمان فراح كعادته يلوي عنق الحقائق التاريخية ويشرح سبب حملة الرسول على خيبر يرجع إلى محاولته «تعويض فشله الظاهري في الحديبية» فقاد حملة على المستعمرة اليهودية الغنية في خيبر[2].

وغني عن البيان أن بروكلمان لم يذكر سبب الحملة الحقيقي ولم يشر إلى غدر اليهود وقد انحاز إليهم انحيازا فاضحا منذ أول سطر خطه في كتابه.

ونود أن نشير إلى وضعية اليهود تحت حكم الأسبان قبل الفتح الإسلامي ، إذ تعرضوا لأشد صنوف العذاب، وظلوا يتجرعون غصص الآلام أكثر من ثمانين عاما، وصدرت الأوامر من أساقفة مجمع طليطلة بتنصيرهم ومصادرة أملاكهم، وجعلهم الملك عبيدا للنصارى، ومنعوا من ممارسة شعائرهم، وانتزعوا أبناءهم منهم كي ينشؤونهم على النصرانية وحرم تزاوج اليهود من بعضهم، وعلى اليهودي أن يتزوج من أمة نصرانية، وتتزوج الجارية اليهودية من عبدا نصرانيا[3].

والذي يقارن بين هذه الوضعية المتردية لليهود «الشعب الملعون» ووضعيتهم تحت حكم الرسول وحكم خلفائه، ناهيك عن حياتهم في ظلال الحضارة الإسلامية، يدرك الفارق بين هذه المعاملة الشنيعة، وتسامح الإسلام معهم وإنصافه لهم واحترامه لأملاكهم

---

(١) حياة محمد ص ٣٢٢

(٢) تاريخ الشعوب ص ٥٦

(٣) دوزي (رينهارت ت ١٨٨٣): تاريخ مسلمي الأندلس (ثلاثة أجزاء)، ترجمة د. حسن حبشي، .طبعة الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٤. ج١ / ٣٩ .

وكرامتهم وإنسانيتهم والسماح لهم بالمشاركة العملية في الحكم وممارسة كافة الأنشطة السياسية وكذلك إتاحة الفرصة أمامهم لإبراز مواهبهم ومعارفهم التوراتية في المجال العلمي.

وفي ختام الرد على ولفنسون نقول: هذا مستشرق متعصب أشد ما يكون التعصب لليهود في كل سطر يخطه، فهم أرباب التجارة وأصحاب الصناعات وفنون الصاغة وتجارة الذهب وأحوال الزراعة، وبخروجهم من المدينة وأطرافها صارت خرابا يبابا، كأنها لا يوجد على سطح الكرة الأرضية إلا هم، بهم بدأ التاريخ وبهم نهايته، فلا توجد في نظره حضارات قديمة عملاقة فرعونية وآشورية وبابلية وسومرية وفارسية ويونانية ورومانية وعربية إسلامية، في حين كان يعيش اليهود في الجيتو في هذه الحضارات؛ الجيتو المكاني والنفسي والاجتماعي، وهم الذين صنعوه بأيديهم، قلة ضعيفة، منطوون على ذواتهم، منعزلون عن حركة المجتمع، لا يريدون أن يتعاونوا مع الآخرين مكتفين بذواتهم متوجسين منهم الشر دائما، ومع ذلك لا ننكر مشاركتهم العلمية وترجماتهم كثيرا من كتب الفلسفة والمنطق في الحضارة الإسلامية.

على أن ولفنسون في بعض صفحات كتابه لم يستطع أن ينكر فضل الإسلام على اليهود فذهب إلى القول: «ينبغي ألا يغيب عن البال أن الخسارة القليلة التي لحقت يهود بلاد الحجاز ضئيلة بالقياس إلى الفائدة التي اكتسبها العنصر اليهودي من ظهور الإسلام، فقد أنقذ الفاتحون المسلمون آلافا من اليهود كانوا منتشرين في أقاليم الدولة الرومية، وكانوا يقاسون ألوانا شتى من العذاب. زد على هذا أن اتصال اليهود بالمسلمين في الأقاليم الإسلامية كان سببا في نهضة فكرية عظيمة عند اليهود بقيت آثارها في تاريخ الآداب العربية والعبرية زمنا طويلا..»[1].

٦- من الجدير بالإشارة أن المستشرقة اليهودية التي مرت بنا سابقا، في هجومها على الرسول ﷺ، وإنكارها لنبوته ومحاولتها نزع القداسة عن سيرته وتصوره كمصلح اجتماعي، ادعت أن النبي «أراد أن يلحق بوحدة القبائل العربية القبائل اليهودية،

(١) تاريخ اليهود، من المقدمة، ص

فتبنى إرثهم وصورهم التوراتية، وأخبار أنبيائهم، وعرض عليهم دعوته في المدينة المنورة فرفضوا، فصار يعاملهم كمنحرفين؛ أضاعوا كلمة الله الأصلية تحريفا وتبديلا، وهذا ما عرضهم لتحريض قرآني وتحامل نبوي، وتشريد سياسي، واضطهاد في وقت لاحق»[١].

ونعتقد أن ما عرضناه سابقا، وما ذكره ولفنسون يكذب أقوالها، ويظهر معالجتها السطحية للعلاقة بين الرسول واليهود هذه نقطة. والثانية لم توضح لنا ما مظاهر الإرث التوراتي الذي تبناه الرسول وتشيع له أو دعا إليه وما صور ذلك، يبدو أنها مازالت تعيش بين أكداس كتابات آباء الكنيسة ورؤيا يوحنا التي تنظر إلى الرسول أنه المسيح الدجال وهذا علامة قوية على قرب يوم القيامة، أو أنه كاردينال خاب في الوصول إلى البابوية فانفصل عن الكنيسة الكاثوليكية وذهب إلى الجزيرة العربية وألف دينا جديدة، نعم يبدو أنها تعيش في الماضي السحيق وفي أجواء «أغنية رولان» وترددها في أوقات فراغها، وتعتقد أن المسلمين يعبدون ثلاثين إلها؛ إبليس وجوبتر وديانا وأفلاطون، وأن محمدا ساحر يجلس على كرسي معلق بين السماء والأرض[٢].

أما أنه ذكر أنبياء بني إسرائيل لأننا نؤمن أن الأنبياء أخوة وقد بعثهم الله لصلاح البشرية وهدايتها، وقد عرض القرآن قصة صراعهم مع أقوامهم وتمردهم على رسلهم، حتى يشد من أزره ويقوي عزيمته في مواجهة صلف قريش وطغيانها، ويشرح له كيف عانى موسى من بني إسرائيل وتمردهم عليه وعدم طاعته له ورفضهم الخروج للحرب معه، وكيف أنهم في

---

(١) عبد الحكيم فرحات: نبوة محمد في الاستشراق الفرنسي ص ٦٠: ٦٢. وقد علق الباحث عليها بقوله: إن جاكلين لم تستطع أن تتحرر من ثقافتها اليهودية ولا من تحيزها لبني دينها،... وقد كان نقد القرآن لمسلك اليهود ظاهرا منذ بداية العهد المكي، فلو تولاهم لاسترضاهم، والحال غير هذا. إن ذلك دليل على بطلان ادعاء المجاملة والاسترضاء (نبوة محمد ص ٦٢)

(٢) راجع في ذلك تصورات الرهبان والكهان لصورة الإسلام في العصور الوسطى ومدى الجهل المطبق الذي أحاط بهم فلم يدركوا أي معلومة صحيحة عن الإسلام وإنما كانت صورته نابعة من أحلام اليقظة وخيالاتهم المريضة، وتفسيراتهم المتعسفة للكتاب المقدس وكلها منطلقة من كراهية الإسلام والضيق به وعدم القدرة على مواجهة علومه وثقافته وانتصاراته وحضارته المتألقة في الأندلس وما حولها (سوذرن: صورة الإسلام في العصور الوسطى، ص ٥٩ وما بعدها).

كل موقف كانوا ينكصون على أعقابهم، حتى حينما أنقذهم الله من ظلم فرعون ذهبوا وعبدوا العجل، وفي الوقت نفسه يبين له طبيعة الأقوام الذين يتعامل معهم ومسلكهم المعوج ، وفطرتهم الخبيثة وتاريخهم المظلم.

وكذلك كفاح سيدنا عيسى مع اليهود أولاد الأفاعي غلاظ الأكباد، قتلة الأنبياء ، وتقولاتهم على الله، وأنه سبحانه فقير واختلاقهم الأكاذيب على السيدة مريم. أضف إلى ذلك تخليطهم في طبيعة المسيح. في ضوء ذلك يشرح رب العزة لرسوله المعاناة التي عاشها الرسل السابقين فعليه أن يقتدي بصبرهم ويحتذي بمسلكهم، ويعد نفسه ويوطد عزمه على رحلة طويلة من الآلام والمصاعب والكفاح في سبيل تبليغ الرسالة إلى العرب والعالمين.

٧ - لم تغفل كارين من الإشارة إلى غزوة خيبر، وقدمت لحديثها بأسباب قيام الرسول بغزوهم وهي ذات الأسباب التي شرحها ولفنسون آنفا، فتقول: منها دورهم الخطير في المشاركة في حصار المدينة، واستمرارهم في تحريض قبائل العرب عليه وإثارة العداء له، فأراد الرسول ﷺ، ألا تعود خيبر إلى تهديد وضعية أمته. لذلك بعد صلح الحديبية الذي أمن فيه شر قريش وغدرها، انطلق إلى مستوطنة خيبر شديدة الاستحكامات، وقد حاصرها شهرا كاملا، وبدأت حصونها تسقط واحدا تلو الآخر، ولم يجد اليهود بدا من الاستسلام وعقد الصلح معه الذي ينص على تقديم نصف محصولهم من التمر، في مقابل حماية المسلمين لهم، وهذا الموقف دعا يهود فَدَكَ إلى المسارعة للتفاوض مع الرسول بالشروط نفسها[1].

٨ - لم يفت بوازار وهو يتحدث عن أبعاد إنسانية الإسلام ومظاهر ذلك التي تجلت في مبادئه؛ العدل والإنصاف والمحبة ودعوة الخير والفضيلة والإعلاء من قيم الحق والعفة والصفح والسلام، وكذلك في معاملته لأهل الكتاب، أن يشرح وضعية اليهود المميزة في المدينة بعد أن عقد الرسول ﷺ، معهم ميثاق سلام، إذ أصبحوا أعضاء كاملين في مجتمع المؤمنين وأمن لهم الحماية والأمان وحقوقا مماثلة للتي للمؤمنين، مع احتفاظهم بوضع ديني منفصل، لكن مجرى الأحداث أبطل هذا

---

(١) سيرة النبي ص ٣٤٣، وأيضا محمد نبي لزماننا ص ١٤٧

العهد بسبب خيانة القبائل اليهودية، وبعد ثلاثة خلافات عنيفة نفيت قبيلتان وقضى على الثالثة لتحالفها مع أعداء الدين الجديد[١].

ثم يعود في موضع آخر إلى تفسير موسع للأسباب التي دعت الرسول ﷺ، إلى اتخاذ جملة من التدبيرات العنيفة والإجراءات الشديدة لكبح جماحهم ونبلورها في الآتي:كانت خصومة اليهود على صعيد المعتقد ساخرة ولاذعة، وتأثيرهم كبيراً على أهل المدينة نظرا لتفوقهم الفكري والاقتصادي، وقد جنح الرسول إلى السلم معهم فعرض عليهم أن ينخرطوا في مجتمع المؤمنين، أو يعتنقوا الدين الجديد، أو يكونوا حلفاء مأموني الجانب متعاونين.

ولما كانوا على استعداد للتآمر والتحالف مع أعداء المسلمين، فقد كان خطرهم شديدا نظرا لامتلاكهم حصونا منيعة داخل أرض الإسلام، واستحالة ذوبانهم في المجتمع الجديد، فقد قرر محمد إقصاءهم؛ فطردت قبيلتان بتهمة الخيانة العظمى، الأولى (بنو النضير) لأنهم حاولوا قتل الرسول، والثانية (بنو قينقاع) بتهمة التجسس لحساب الأعداء وسمح لها بحمل أموالهم. أما الثالثة بنو قريظة فقد نقضوا الاتفاق المبرم مع المسلمين، وراحوا يؤلبون القبائل ضد المدينة التي كانت محاصرة.وقد حاصرهم المسلمون وأجبروهم على التسليم[٢].

في ضوء ما عرضناه نرى أن دفاع فلهوزن عامة عن اليهود يصبح لا محل له من القبول والاحترام، ففي سياق كلامه عن هجرة الرسول ﷺ وأن هذا كان فتحا مبينا يقول:في غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية أو قضى عليه من المدينة، وقد التمس لذلك أسبابا واهية، وأعطى ما كان لهم من مزارع النخيل للمهاجرين، الذين كانوا لا يمتلكون أرضا ولا ممتلكات[٣].

ونعتقد أن ما شرحناه سابقا يظهر مدى جرم اليهود، وأن الرسول مد لهم حبل الصبر ويد الود ومنهج التفاهم، ولم يلجأ إلا إجلائهم إلا بعد أن أظهروا العداء له علانية وبطريقة فجة مستفزة، ولسنا بصدد أسباب واهية كما زعم فلهوزن ولم يكن منصفا في تحليله وقد شط في أحكامه.

---

(١) إنسانية الإسلام ص ١٩١

(٢) إنسانية الإسلام ص ٢٦٦

(٣) تاريخ الدولة العربية ص ١٦

يبدو لنا من خلال تحليل موقف فلهوزن وبروكلمان أنهما يشعران بالذنب تجاه اليهود وعندهم إحساس بعقدة الذنب، بسبب ما فعله هتلر في بني قومهم، غير ناظرين لغدرهم للشعب الألماني، وإضرارهم بمصالحه السياسية والاقتصادية، وكذلك من الواضح أنهم يعمون أبصارهم عن غدر اليهود المتكرر بالرسول ونقضهم للعهود ببساطة شديدة دون اعتبار أخلاقي أو رادع ديني.

ونعود إلى موضوعنا فنقول: تعرض الدكتور بدوي بالتفصيل لموقف قبائل اليهود من الرسول وشرح الأسباب الجوهرية التي أدت إلى الصراع المسلح، ورد على بعض المستشرقين الذين دافعوا عن غدر اليهود وانتهى إلى القول: «الدموع التي يذرفها المستشرقون على مصير اليهود في مختلف حلقات صراعهم مع النبي، لا تنم إلا عن نفاق بواح لأنهم عندما يتعلق الأمر ببلادهم لا يذرف أي منهم دمعا في الظروف المشابهة»[1].

مما سبق ندرك إدراكا لا لبس فيه مدى الجرم الذي ارتكبه اليهود في حق أنفسهم، وتنكبهم الطريق السوي وعدم انصياعهم لتنبيهات الرسول ﷺ ونصائحه المتوالية ، أو تنفيذ إرشادات كتابهم الذي أكد على ضرورة الإيمان بوحدانية الله فهي أسُّ الفضائل، زد على ذلك كانوا يعلمون علم اليقين ببعثة رسول من العرب لكنهم انحازوا لكفار قريش في مواجهة الوحدانية هذا أولا.

ثانيا: على الرغم مما بذله الرسول ﷺ من جهود مشكورة سواء عن طريق الحوار معهم والجدل بالحسنى، أو بالنصيحة والرفق معهم وشرح أبعاد الإسلام وأنه مثل موسى في موكب الأنبياء، جاء برسالة خاتمة فيها قواسم مشتركة، فهو مثل اللبنة الناقصة في البناء فجاء يكمل البناء الديني ويمضي قدما لهداية الناس، لكنهم صموا آذانهم وأغلقوا قلوبهم وتجافوا عن أوامر الشريعة الموسوية واغتروا بقوتهم واعتزوا بحصونهم، ومضوا يسيرون معه سيرتهم مع المسيح، راحوا يختلقون الأقاويل وينشرون الإشاعات ويكيدون له المكايد، وينسجون المؤامرات، ولم يتعظوا من تاريخهم القديم مع فراعنة مصر بعد أن استقروا فيها مع مجيء يعقوب، ولم يأخذوا درسا مما قام به نبوخذ نصر وهدمه لهيكلهم، ولم يستوعبوا

---

(١) دفاع عن محمد ص ١٣٥ وأيضا هيكل: حياة محمد ص ٣٩٣: ٣٩٧

فظائع تيطس الروماني الذي شرد بهم وقتل أبناءهم وهدم معابدهم ومقدساتهم.

فمن المؤسف أن ذاكرتهم مثل ذاكرة الفراشات التي تندفع في النار دون أن تأخذ عظة وعبرة من القوافل التي سبقتهم وسقطت في أتونها. وهكذا كان جزاءهم من جنس أعمالهم فعاملهم الرسول ﷺ بما يستحقون وطردهم من المدينة.وأمن شرهم وكيدهم ومضت القافلة الإسلامية تشق طريقها إلى الخير والعدل والسلام.





الفصل السادس
غـــزوات الرســـــول ﷺ

أولا: الإسلام والولادة الثانية، ولادة الروح

قلنا سابقا إن المسلمين كانوا يدركون أنهم أصحاب رسالة سماوية عالمية حضارية موجهة إلى البشرية قاطبة، وأن رسولهم قام بالإبلاغ خير قيام وبذل غاية جهده ولم يدخر وسعا في إنفاذ رسالته إلى الآفاق قدر طاقته الإنسانية مع تأييد العناية الإلهية له؛ ثم أناط بأصحابه مهمة البلاغ والتبليغ وتحمل أعباء هذه الرسالة والنهوض بمشقاتها، ثم جرى عليه قانون الحياة وسنن الوجود، فانتقل إلى الرفيق الأعلى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، هنا سارع أصحابه ورجالات الإسلام وشبابه ولم يتأخروا عن القيام بهذه المهمة الربانية والجهاد في سبيل نشر الإسلام.

وهنا نقطة نود أن نجليها وهو أن الإسلام، نقل المجتمع الجاهلي[١] نقلة جوهرية حضارية عظيمة ، وصبغه صبغة جديدة عقائديا ونفسيا وسلوكيا غير بنيته الطبقية الهرمية إلى بنية أفقية، وكذلك بالنسبة إلى البدوي؛ غير بيولوجية البدوي غير حياته من الباطن والظاهر، غير كيميائية البدوي شعورا وضميرا، عقلا ووجدانا، إحساسا وإدراكا، سلوكا ومنهجا، أبدعه إبداعا فريداً، بمعنى أن الإسلام صاغ هوية البدوي صياغة عملاقة، وشكل شخصيته تشكيلا مبهرا؛هذا الذي تميز بالشدة والقسوة والذي كان يعبد الأصنام ويركع أمامها في خوف ووجل، ولا يتورع عن أن يئد بناته، ويلجأ إلى دجل الكهان وشعوذة العرافين، ويتشاءم من حركة الطير وهبوب الرياح، نقول إن الإسلام حوله إلى شخصية جديدة وهوية

(١) يعرف الشيخ سيد قطب المجتمع الجاهلي، إنه كل مجتمع غير المجتمع المسلم، إنه كل مجتمع لا يخلص عبوديته، لله وحده، متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية وفي الشرائع القانونية (معالم في الطريق ص ٩٨).

يتيمة؛ سكب الدين الجديد في نفسه وشعوره وضميره، فكرا جديدا وتصورات ربانية وحركة إيجابية؛بمبادئه التهذيبية وأخلاقه السماوية وتوجهه إلى الله في عبادته؛ ركوعه وسجوده وقيامه وهجوعه، وسلوك شخصية رسوله أنموذج الإنسان الكامل، الإيمان في جوانحه والإيثار في نفسه ولو كان به خصاصة، وجعله يحب التعاون مع أخيه المسلم، لأن من مقررات دينه؛ الحب والتعاون والرحمة والإخلاص والدعوة إلى السلام.في ضوء ذلك نتكلم عن جهاد الرسول في نشر الإسلام، وخططه العسكرية التي اتسمت ببعد النظر وحسن التخطيط[١].

من الجدير بالإشارة في هذا السياق إن بعض المستشرقين زعموا أن محمدا اشترك في حرب الفجار بتجهيز السهام ليس غير، وكأنهم أرادوا أن يظهروا أنه لم يكن قادرا على المشاركة في المعمعة، ويؤكد جلة المؤرخين أنه حمل السلاح ووقف بجانب أعمامه، وحرب الفجار سميت بذلك نظرا لأنها وقعت في الأشهر الحرم[٢]، ولا شك أن طرح المستشرقين والتنقص من سمات محمد حتى وهو صغير خطأ في الإحاطة بمزايا هذه النفس العظيمة التي تعددت جوانبها حتى تجمعت فيها أطيب صفات الحنان وأكرم صفات البسالة والإقدام. فمحمد كان في طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب يهاب شواظها من لا يهاب وكان الإمام

(١) يقول توماس كارليل: كان في العرب جفاء وغلظة، وكانوا حماة الأنوف أباة الضيم وعر المقادة صعاب الشكيمة.فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له فلذلكم وأيم الله بطل كبير. ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل ما خضعوا له ولا أذعنوا، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه (الأبطال ص ٧٨) ونود أن ننبه أن المؤلف ينظر إلى الرسول أنه رجل حكيم وبطل من الأبطال ونبي من الأنبياء ليس بالمعنى الميتافيزيقي أي المتصل بالسماء، ولكن بمعنى أنه يمتلك ملكات خاصة ومواهب فذة واستقلال في الفكر؛مثل الشعراء والحكماء، وكل قراراته الصائبة «من وحي وجدانه وأوامر شعوره»، وحتى صيامه شهر رمضان وحي من الغريزة وإلهاما فطريا (الأبطال ص٧٩، ٨١) وليس كل هذا وحيا من السماء كما نعتقد نحن المسلمين.

ويقول مايكل هارت وهو يعلل سبب تقديم ترجمة الرسول على ترجمة سيدنا عيسى: أن دور الرسول أخطر وأعظم في نشر الإسلام وإرساء قواعد شريعته أكثر مما كان لعيسى عليه السلام في المسيحية، على الرغم من أن عيسى هو المسؤول عن مبادئ الأخلاق في المسيحية، غير أن القديس بولس هو الذي أرسى أصول الشريعة المسيحية، أما الرسول فهو المسؤول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعي والأخلاقي وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية والدنوية. (العظماء مائة، أعظمهم محمد، ترجمة أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ص ١٧).

(٢) هيكل: حياة محمد ص ١٣٢ .

علي فارس الفرسان يقول: كنا إذا حمي اليأس اتقينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو[1].

إن من يطالع غزوات الرسول ﷺ ويقرأ وقائعها وسير أحداثها وتفاصيلها ودور الرسول ﷺ في تجنب الحرب مع الآخرين بكل الطرق المعهودة عند العرب؛ يدرك مدى لين جانبه وسماحة نفسه وحنكته السياسية وبعد نظره وسعة أفقه، ورحمته بأجناس البشر وحنوه عليهم وصبره الطويل وهو يحدد لهم معالم الطريق الصحيح وخطوات النجاح في الدنيا والآخرة، فهم مثل الفراشات التي تحوم حول النار وهو يدفعهم بعيدا ينقذهم من الهلاك والدمار.

لقد مد الرسول ﷺ يده بالسلام والرحمة والتعاون الصادق إلى العرب جميعا في شبه الجزيرة العربية مؤمنين ومشركين وهم الذين آذوه وأخرجوه من أحب بلاد الله إلى نفسه، وحتى المنافقين الذي يعلنون الإسلام ويبطنون الكفر الصريح، كان يتركهم وهو يعرفهم بلحن القول دون أن يمسهم بسوء، خوفا من أن تقول العرب: إن محمدا يقتل أنصاره.بل كان من عطفه عليهم أن صلى على عبد الله بن أبي المنافق وطلب له المغفرة، على الرغم من أن سيدنا عمر طلب منه عدم الصلاة. فنزلت الآيات ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

وحتى اليهود الذين كانوا يعيشون على أطراف المدينة عاملهم أفضل ما تكون المعاملة، وعقد معهم المعاهدات، فكان من خبثهم أن ذهبوا وتحالفوا مع المشركين ونسوا في لحظات حقدهم على النبي الجديد وكرههم للرسالة الإيمانية، أنهم أهل كتاب يدعو إلى التوحيد وأن جوهر رسالة موسى هي؛ إعلان شهادة لا إله إلا الله.

كذلك كان البحث عن السلام هو شعار رسائله الدعوية لكسرى وقيصر والمقوقس حاكم مصر، والدعوة إلى إخلاص العبودية إلى الله.

---

(١) عبقرية محمد، نهضة مصر، ص ٤٩

كانت حياته أنموذجا لهذه السياسة الحكيمة والممارسة الفعلية لتجنب الحروب، وحينما كان يرسل جيشه يوصيه بألا يقتل طفلا أو شيخا أو امرأة ولا يعتدي على عابد في صومعته، ولا راهب في ديره، ولا يمثل بجثة أو يقتل أسيرا بل يعامله معاملة طيبة فله كل الحقوق. فالقرآن يعلمنا أن الحرب عبر التاريخ أمر بغيض ومكروه، ولا يجب على المسلمين أن يبدءوا بالعدوان لأن الحرب العادلة تشن للدفاع عن النفس، وهدف الحرب في الإسلام جلب السلام والوفاق في أسرع وقت، على حد تعبير كارين[١].

وهذا ما نهض به أصحابه وطبقوه على أرض الواقع وعلى رأسهم أبي بكر وعمر بن الخطاب حيث تمددت الدولة الإسلامية، وتوسعت الفتوحات، وكانت العاطفة الدينية والحماسة القتالية عند قواد جيوش المسلمين وجنودهم وتضحياتهم مثالا صادقا لمن يبيع الدنيا بزخرفها ومتعها ويطلب الآخرة بنعيمها المقيم وجنانها الخالدة، وكان شعارهم: اطلب الموت توهب لك الحياة.

هذه الفتوحات التي امتدت فطويت حضارتين تحت جناحها؛الحضارة الفارسية بكل تاريخها وعلمائها ومذاهبها التي غلب عليها الطابع الوثني والإيمان بإلهين قديمين فيما سمي بالثنوية الفارسية، والحضارة الرومانية المسيحية، والتي كانت تحتل بدورها بلاد الشام ومصر وشمال أفريقية، هذه الدول دخلت تحت ظلال الإسلام وانضوت في ظل مبادئه، وتحولت في سنوات من دول تدين بالنصرانية إلى دول إسلامية، مع أن بعضها لم يتحول إلى الإسلام كاملة إلا بعد مرور قرنين من الزمان أو أكثر (مصر أنموذجا) نظرا لسماحة الإسلام وحسن تعامله مع أهل البلاد المفتوحة ومن رعاياها المجوس واليهود والنصارى، وقد تبوؤا مناصب عالية، ومراكز حساسة ومنحوا حرية كاملة في تحركاتهم وتجارتهم وأداء شعائرهم، لم يحصلوا عليها في ظل الدولة الرومانية على ما ذهب إليه ليون كيتاني (Leone Keetani 1869 - ١٩٣٥) وقد سبقه إلى الاعتراف بهذه الحقيقة الساطعة جوستاف لوبون وسجريد هونكة وروجيه جارودي وغيرهم. أضف إلى ذلك تسامح السلطة الحاكمة مع أهل الكتاب فكانت تتركهم

(١) سيرة النبي ص ٣١٠، وأيضا محمد نبي لزماننا ص ١٢٠. من المؤكد أن الرسول غير الخريطة السياسية والدينية والفكرية والاجتماعية في شبه الجزيرة العربية، وأزاح العصر الجاهلي إلى غير رجعة، وأسس لبناء مجتمع جديد، وفكر جديد وحياة جديدة مغايرة كل المغايرة لمجتمع الجاهلية. (محمد نبي لزماننا ص ١٨٤)

لشأنهم ولا تجبرهم على اعتناق الإسلام، لكنهم كانوا يسارعون إلى الدخول فيه أفواجا لأسباب عديدة؛ سواء عن اقتناع واعتقاد أو الحصول على المكاسب المادية.

هذه الصورة؛ صورة الفتوحات الإسلامية لا تنمحي من عقل المستشرق، ولا تغيب عن وجدانه، وكأن هنالك شبحٌ يطارده، ولذلك نجد كثيرا منهم يذكروننا بهذا الاكتساح الإسلامي، ولا تغفل ألستهم عن القول بمرارة إن الإسلام حول البلاد المسيحية إلى الإسلام وهذا ما كرره؛كارل هنريش بيكر Karl Henresh Beke (١٨٧٦ - ١٩٣٣)[١]وهو مستشرق ألماني خاض في ميدان العلم وقضايا الإسلام التاريخية والحضارية وعالم السياسة وشارك في مجال الاستعمار والتنصير يقول: «أن هناك عداء من النصرانية للإسلام بسبب أن الإسلام انتشر في العصور الوسطى وأقام سدا منيعا في وجه انتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها»[٢].

في ضوء ما سبق نلاحظ أن جمهرة المستشرقين حينما يحللون أسباب غزوات الرسول بعامة والفتوحات الإسلامية بخاصة يغيب البعد الديني عن دائرة تحليلهم تماما، وينحصر كلامهم حول الأسباب المادية التي دفعت المسلمين إلى الخروج من شبه الجزيرة العربية وأنها منطقة صحراء جرداء طاردة للسكان عبر التاريخ، وأن هؤلاء البدو الجفاة الحفاة مردوا على السلب والنهب، وأنهم انطلقوا كالوحوش الحبيسة فدمروا حضارتين زاهرتين، واكتسحوا هذه الدول المتحضرة ونهبوا ثرواتها واستولوا على خزائنها؛ وكلام مكرر و ممل في هذا الاتجاه وسوف نعرض لبعض وجهات نظرهم ونرد عليهم بالقول الحسن ونور الحق وقوة البرهان.

ثانيا: الطعن في مقاصد غزوات الرسول ﷺ

١ - يعد كلود سفاري (١٧٨٨) من الجيل الثاني من المستشرقين الذين درسوا الإسلام دراسة واسعة وأحاط بتراث الحضارة الإسلامية، لكن هذا لم يمنعه أن يهاجم الرسول ﷺ هجوما بشعا ويرى أن غزواته كانت من أجل احتجاز الأموال

---

(١) ترجمته في: موسوعة المستشرقين ص ١١٣، يوهان فوك ص ٣٣٧، ومحمد الزيني: المستشرقون في مصر ص ٣٠٧

(٢) عمر فروخ والخالدي: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية، بيروت، ص ١١٧ .

والاستحواذ على الغنائم ليس من أجل جنوده ولكن كان يحتجزها لنفسه دون أن يوزعها على جنوده المخلصين يقول سفاري: «خالف النبي قانون الغنيمة الذي كان ينص على أن يأخذ منها الخمس، فاحتجز الغنائم كلها لنفسه»[١].

لا ريب أن هذا اتهام سفيه وزعم فج وادعاء باطل، تكذبه سيرة الرسول ﷺ وحياته المتقشفة الزاهدة وهو ينام علي حشية من الليف الخشن، فقد كان يعيش على الكفاف، وكان يصوم معظم أيام الأسبوع، إلى درجة أن بعض أزواجه تململوا من هذه الحياة الخشنة وقد حرموا من أبسط طيباتها، و نحن نعلم أنه مات وكان سيفه مرهونا عند أحد اليهود. وإذا كان هو لا يعدل بين أصحابه وقواده وأتباعه فمن الذي يعدل في هذا الوجود بعد ذلك؟

وإذا كان الرسول ﷺ يريد الدنيا لقبل عرض كفار قريش من البداية حينما كلمه عتبة بن ربيعة من سادات قريش وقال له: «يا ابن أخي إذا أردت مالا جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا.وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد مُلكا ملكناك علينا»[٢].

ولكن محمد لم يكن يطلب الدنيا، إذ كان يحمل رسالة الخير والمحبة والسلام للبشرية.

أعجب العجب والأمر المحير أن سفاري بعد أن كال للرسول تهم عظيمة وافتراءات فظيعة مرت علينا منها؛أنه مدعي النبوة، ألف القرآن بقدرته العربية الفائقة، وكان متعلما ومثقفا يقرأ ويكتب، شغف بحب ابنة عمته وخلبت قلبه، ظل يمثل دور النبي حتى آخر لحظات حياته، بعد خلع هذه السلبيات الجائحة ورميه بنواقص خطيرة تدمر أي شخصية في هذا الوجود، ختم كتابه بقوله عن الرسول ﷺ: «كان محمدا رجلا من الأفذاذ الذين ولدوا بمواهب عظيمة ولا يظهر أمثاله على مسرح الحياة إلا في فترات متباعدة لكي يغيروا وجه الدنيا»[٣].

فكيف تجمع شخصية الرجل الفذ هذه المتناقضات؟

---

(١) السيرة النبوية ص ٢٣٤

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٦٤

(٣) السيرة النبوية ص ٢٤٩

وكيف يستطيع رجل بهذه الصفات الخسيسة والسمات الشريرة يغير وجه الدنيا إلى الأفضل؟.

أليس هذا هو التناقض بعينه، لأن الشخصية الإنسانية وحدة كلية لا تتجزأ في صفاتها الخلقية ، وفي كل شخصية ما يسمى بالعاطفة السائدة وقد اشتهر الرسول بحسن الخلق ولين الجانب ونقاء السريرة، ولطف الوجدان والرفق بالحيوان قبل العطف على الإنسان، وخفف الصلاة حينما سمع بكاء طفل، وصفه رب العزة بأنه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

لا ضير أن ندين سفاري في شخصيته المتقلبة، وأحكامه المتعسفة ، وتأرجح تقييمه، مثل بندول الساعة الذي يذهب إلى أقصى اليمين ثم أقصى الشمال صعودا وهبوطا، وندين سوء أدبه مع رسولنا وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تردده وحيرته بين الانحياز إلى جانب الخير والصدق والحق، وأن يرضي قراءه ويتودد إلى مجتمعه ويذهب مع الذاهبين في هجومهم على أعظم شخصية ظهرت في التاريخ الإنساني، وفي الوقت نفسه نشكره على الصفات الإيجابية التي خلعها عليه وتقديم صورة الرجل العظيم لجمهوره الأوربي لعلهم يستكملون باقي أبعاد الصورة الإيجابية ويستكشفون أبعاد العظمة في سيرته الفريدة.

٢ - في سياق حديثه عن دور الرسول ﷺ في تأسيس دولته في المدينة أشار فلهوزن (١٩١٨) إشارة عابرة مقصودة أن من وسائله استخدام السيف إذ ذهب يقول:

مات وهو في أوج النجاح، وليس ما يدعو الإنسان لأن يعيب عليه أنه حقق إنشاء مملكة الله في الأرض، وإن كانت الضرورات العملية، اضطرته أو انحرفت به إلى استعمال وسائل غير مقدسة[1].

الحقيقة أن فلهوزن مثل الجندي الإسرائيلي الذي يتقدم خطوة ثم ينكص على عقبيه خطوات، أو التلميذ الخائب ضعيف الشخصية يتفوه بكلمة ثم يشعر أنها ربما تجرح مشاعر الآخرين فيعتذر بسرعة عنها. وهذا ما نستبطنه من كلماته، «فالضرورات العملية» هي التي دفعت الرسول ﷺ لاستخدام السيف، ثم يعود يقول: إن مجريات الأحداث انحرفت به. على كل حال لا شك أن فلهوزن عاصر الحرب العالمية الأولى، وشاهد بأم عينيه آلاف

(١) تاريخ الدولة العربية ص ٢٢

البيوت المهدمة والمواطنين المشردين في بلده ألمانيا والملايين الذين أزهقت أرواحهم وليس لهم في الحرب أدنى مصلحة إلا شهوة القادة وزعماء الجنرالات، وهذه من ضرورات الحرب.هذا من جهة.

ومن جهة أخرى نذكره بأن قريش هي التي أخرجت الرسول ﷺ من أحب البلاد إليه من وطنه الذي درج على ثراه وتنفس نسيمه وعشق دروبه وعاش فيه طفولته وشبابه ورجولته وفيه ذكرياته وأحلامه وطموحاته وأهله وأعمامه، وقد أهانته على الملأ وسدت السبل في وجهه، وعذبت أنصاره وصادرت أموالهم وقتلت بعضهم، ثم هم الذين بادروه بالعدوان. فلم يمتشق الرسول السيف إلا دفاعا عن دينه وقومه وأمته ونفسه. وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس فضل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم عن ترك الإسلام، ولم ينتشر القرآن بالسيف إذا بل انتشر بالدعوة وحدها[1].

٣ - ذكرنا أن المستشرق يتأثر بأطروحات زميله الذي سبقه في هذا المضمار، الذي سبقه وينهل أحيانا من فكره، وأشرنا أن جمهرة المستشرقين عندهم قناعات راسخة وآراء ثابتة تداولتها كتبهم منذ فجر الاستشراق لذا نجدهم لا يحيدون عنها، ويعيدون فيها، ويبسطونها في كتبهم، ولا مانع أن يتزيد كل واحد منهم عمن سبقه، وهذا ما نراه عند مؤرخ شهير وباحث كبير وعالم موسوعي في تاريخ الإسلام ونعني به ليون كيتاني (ت ١٩٣٥) صاحب حوليات تاريخ الإسلام في عشرة مجلدات، ومع هذا التبحر في تاريخ الإسلام وسيرة الرسول لم يتحرك قيد أنمله عما سبقه إليه سفاري المستشرق الفرنسي، فرؤيته عن غزوات الرسول تتمحور حول العوامل المادية وفي مقدمتها جدب البيئة الصحراوية وبدائية أدوات المعيشة وقلة الموارد والعيش على الكفاف، لذلك شجعهم محمد على الهجرة واقتحام حدود الدول المجاورة وقد أعانهم على هذا الانتصار تدهور أحوال الإمبراطورية الفارسية، وانحلالها الداخلي، أما الإمبراطورية الرومانية فلاشك أن تفرق أفراد المجتمع بين المذاهب الدينية المتصارعة حول طبيعة المسيح، ومجامعهم المقدسة التي تباينت

(١) لوبون: حضارة العرب ص ١٢٨

قراراتها حول طبيعة المسيح، أضعفت شأن الدولة ونخرت في عظامها وأصبحت ثمرة ناضجة أسقطها المسلمون في أول جولة، وفريسة سهلة لهزيمتها هزيمة ماحقة(١).

يبدو لنا أن كيتاني متأثر بالتحليل المادي للتاريخ كما طرحته الفلسفة الماركسية، ولم يتوقف أبدا أمام العامل الروحي،ونعني به تعاليم الإسلام التي بشر بها الرسول ﷺ وأرسى دعائمها في نفوسهم، وظل طوال عمره المبارك يغرس في أرواحهم مفهوم الوحدانية فالعبودية لله، مع خلوص النية في كل عمل ينهض به المسلم فهو في سبيل رفعة شأن الإسلام وإعلاء مبادئه ونشره في الآفاق، والدليل على ذلك أنهم كانوا يتسابقون لنيل الشهادة، ويحرصون عليها أكثر من حرصهم على الحياة؛ وما نموذج أبو دجانة إلا مثالا للفداء فقد استكثر على نفسه أن يأكل التمرة فرماها ودخل وطيس المعركة واستشهد، وقصة الخنساء مشهورة التي قدمت أبنائها الأربعة برضى نفس وقناعة عقل وراحة ضمير فداء لنصرة الإسلام ورسوله، في حين ملأت الدنيا بكاء وعويلا ورثاء على أخيها صخر في الجاهلية سار مثلا في شعر الرثاء الذي حفظه الأوائل والأواخر.وكتب تاريخ الإسلام مشحونة بهذه البطولات الفذة، وقد صدق فيهم قول رب العالمين ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

إن الإنسان لا تحركه النوازع المادية فقط، ولا الدوافع الفطرية ولا يعيش من أجل الأكل والشرب، ولكن هناك الدين الذي يمثل هوية الإنسان وكينونته وهو ركن جوهري في حياته يضحي بالروح من أجل انتصار مبادئه إن الدين حاجة فطرية في النفس البشرية كحاجة الطعام والشراب لحفظ الذات، وحفظ النسل لحفظ النوع سواء، هو حاجة فطرية أودعها الله كينونة الإنسان(٢).

أضف إلى ذلك أشواق الروح التي تعلو على مطالب الجسد، وتشوق الإنسان السوي

---

(١). موسوعة المستشرقين ص ٤٩٣، العقيقي ج١ / ٤٢٩

(٢) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي ص ١٠٢، ونفس الفكرة عند محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٣٥

لتحقيق المثل العليا والمبادئ القويمة وانتصار قيم الخير؛مثل حب العدل ونشر الحق، والدفاع عن المظلومين، والاستشهاد في سبيل الأوطان، ، أليست هذه هي القيم الخلقية التي نادي بها فلاسفة اليونان وأوربة وزعماء الإصلاح ورواد الفكر الإنساني.وبعضهم مات في سبيل تحقيقها كما جري لسقراط في أثينا حينما شرب السم راضيا، وتعذب أفلاطون وانتقل من أثينا إلى إسبرطة حتى أسر وكاد يباع في سوق الرقيق، في سبيل نقلها من حالة القوة إلى حالة الفعل، أي من عالم النظريات إلى دنيا واقع الناس، واضطهد فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) لأنه نقد سلوكيات رجال الدين غير الخلقية ومواقف الكنيسة من العلم والعلماء ؛فأصدر البابا قرارا بحرمانه من ملكوت السموات، وطورد حتى هرب من فرنسا وعاش غريبا منبوذا على حدود سويسرا.

لماذا ينفرد الرهبان في الصحراء للقيام بواجب العبادة، ونيل بركات السماء، مع إطراح كل ماديات الحياة وطيباتها وزينتها وفتنها خلف ظهورهم؟

ألم يقل المسيح: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان؟. كنا نرجو من كيتاني وغيره أن يكون منصفا لهذه الحضارة ويتخلص من الإرث الكريه ويتحرر من مقولات من سبقوه، وينظر إلى سيرة رسولنا بعين الإنصاف وقسطاس العدل.

ومع احترامنا لجهود كيتاني في التأليف الموسوعي للتاريخ الإسلامي، ودوره الملحوظ في خلق مكانا فريدا لاستقطاب الدراسات الإسلامية الأثيرة على فؤاده في روما، لكن هذا لا يمنعنا أن نرفض وجهة نظره ونرد عليه بكلمة من أحد المؤرخين الأوربيين: إن هذه أطروحات رفضت عموماً بعد مداولات حامية الوطيس[١].

وقد نقد د بدوي موقف كيتاني من سيرة الرسول ﷺ ورأى أن وجهة نظره كانت مجحفة بلغت من الإجحاف الغاية، ويغلب عليها النزعة النقدية المفرطة، وتتسم بالشك السلبي في قبول وثائق التاريخ الإسلامي، ويعتمد في تحليله للتاريخ والسيرة على التحليل المادي[٢].

٤- من المؤسف أن نجد مستشرقا مرموقا في قامة كارل بروكلمان وسعة علمه وإحاطته

---

(١) فوك: تاريخ الحركة الاستشراقية ص ٣١٢

(٢) موسوعة المستشرقين ص ٤٩٤

بأماكن المراجع وتاريخ طبعها ومضمونها واتساع مصادره وتاريخه المشرف في الدراسات الاستشراقية، ينساق إلى هذه الدعاوي المغرضة والأكاذيب المضللة، ويبعث اتهامات قساوسة العصور الوسطي من أكفانها وحقدهم القديم على الإسلام والمسلمين، و يعود يجتر الماضي، أي يعيش في حقبة الجهل على حد تعبير ريتشارد سوذرن[١]، فيشوه تاريخ المسلمين ويذهب إلى القول: أن سبب غزوات الرسول وفتوحاته كان دافعها الرغبة في الغنيمة عند فقراء المؤمنين الذين عرفوا طعم الفاقة الملحة بوصفهم مهاجرين إلى المدينة المزدحمة بالسكان، وأنه حارب في الشهر الحرام ولم يجرؤ على إعلان شرعية الحرب ضد المشركين وتوزيع الغنائم حتى في الشهر الحرام إلا في آيات متأخرة، بعد أن كانت الغنائم العظيمة قد أثارت مطامعه إثارة كافية. وبنفس هذا التحليل المادي يتكلم عن غزوة بدر وطمع المسلمين في «القافلة الشامية العائدة من غزة» لذلك أمر محمد بالإغارة على القافلة[٢].

٥- في معالجته السريعة لبعثة النبي ودعوته التوحيدية وتحطيمه للأصنام ومنع الخمر، ورؤيته للجهاد بأنه فريضة دينية يقول برتراند راسل (١٨٧٢ . ١٩٧٠) فيلسوف الرياضيات والتحليل: «لم يكن العرب في البدء يعتزمون القيام بفتوحات منظمة، إذ إنهم كانوا يقومون بغارات على الحدود يحصلون منها الغنائم تعوضهم عن فقر أراضيهم وجدبها، ولكن ضعف المقاومة أحال المغيرين إلى فاتحين»[٣].

٦ - ونستطيع أن نضم إلى هذه الأصوات النشاز والغارة الفكرية والآراء الفجة رأي جاكلين شابي المستشرقة اليهودية[٤] حيث ذهبت بأن سبب انتشار الإسلام يعود

---

(١) الإسلام في أوربة في القرون الوسطي، ترجمة، رضوان السيد، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٣٥

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٩ : ٥١

(٣) حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٣، ج ١ / ٢٢٥: ٢٢٦

(٤) مستشرقة يهودية تعمل محاضرة في جامعة باريس، حصلت على الدكتوراه في موضوع «رب القبائل، إسلام محمد» (عام ١٩٩٢)، بإشراف المستشرق اليهودي كلود كاهن (١٩٠٩ - ١٩٩١)، ولها دراسات أخرى حول الرسول. كلها تزعم إنكار نبوته وتأليفه القرآن. (عبد الحكيم فرحات: نبوة محمد في الاستشراق الفرنسي، جاكلين شابي أنموذجا، بحث ألقي في مؤتمر نبي الرحمة محمد، بالرياض، ص ٨: ٩) ترجمة كلود كاهن في موسوعة المستشرقين ص ٤٦٠.

«إلى كثرة غارات النبي المكللة بالانتصارات الباهرة، فقد جلبت له أتباعا كُثُرا من مختلف القبائل، استطاع بحنكته أن يلملم شملها تحت لواء واحد لواء رب العالمين[١].

الرد على مزاعم جمهرة المستشرقين:

١ - هذا كلام ليس له أساس من الواقع، وتكذبه وقائع التاريخ المعتمد من المؤرخين الثقة، إذ من المعلوم بعد المطاردات العنيفة التي قامت بها قريش والتعذيب والقتل الذي أنزلته بصحابة الرسول ﷺ وأنصاره وإخراجه من وطنه وهجرته إلى المدينة، عقد معاهدات سلام مع القبائل المجاورة وكذلك مع اليهود، في الوقت الذي كانت فيه قريش مصرة على غيها سادرة في ظلمها مصممة على وأد رسالة الإسلام لتناقض دعوته مع معتقداتها الدينية ومصالحها الاقتصادية وعاداتها الاجتماعية، في وسط هذا الصراع المحتدم نزل الإذن للمسلمين بالقتال للدفاع عن النفس وإفساح المجال لنشر رسالة الإسلام، لذلك بدأ الرسول ﷺ في إعداد السرايا لاستكشاف الطرق حول المدينة، ﷺ، وتهيئة جنوده تهيئة نفسية وتدريبهم على تحمل المواقف الصعبة، وعلى خطط القتال وإظهار قوته العسكرية والاستعداد لمقاومة الخطر القادم.

في هذا الجو المشحون بالقلق والتوتر أرسل الرسول ﷺ سراياه ومنها السرية التي قادها عبد الله بن جحش ولم يأمرهم بالقتال، ومع ذلك دفع دية القتلى، وانتهز المشركون هذا القتال في الشهر الحرام فراحوا يشنعون على الرسول أنه حارب في الشهر الحرام فنزلت الآيات مؤكدة عدوانية قريش، وأن القتال يجوز في الشهر الحرام ردا على العدوان وحماية لرسالة الإسلام ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٧] إن أصحاب هذه الضجة يعمون عما حولهم وينسون أن المعاملات الدولية في زمانهم لم تفصل في أمثال هذه الحوادث بحكم أنفع ولا أعدل من الحكم الذي ارتضاه النبي

---

(١) عبد الحكيم فرحات:نبوة محمد في الاستشراق الفرنسي ص ١٦١

ونزل به القرآن، وهو مساواة يدين به المسلمون كما يدانون، ويحار المتعسف لو شاء أن يستبدل به ما هو خير منه وأندى إلى النفاذ والإتباع[١].

فمن الواضح أن بروكلمان لم يشر إلى حيثيات الموقف وتفاصيل الأحداث وخلفياتها التاريخية، ولم يلم بالتقاليد السائدة في البيئة العربية في مثل هذه الحوادث، ولكنه تبنى مقولات المشركين ودعاوى المستشرقين وأباطيلهم وراح يكررها في سماجة واضحة ، وبتر للأحداث من سياقها التاريخي وتسلسلها المنطقي. وهذا لا يشفع له في أن ندينه ونحط من موقفه.هذه نقطة.

الثانية: لاشك أن هذا الكلام ينبو عن الذوق وقيم الأخلاق ونرفض كلام بروكلمان - وغيره من المستشرقين . رفضا قاطعا لأنه لا ينطبق إلا على أعتى المجرمين وقطاع الطرق وقراصنة البحر، وإشكالية بروكلمان أنه ينظر إلى الرسول أنه قائد عسكري، يفكر في الربح والخسارة والغزو والاستيلاء وبناء إمبراطورية ممتدة الأطراف، وربما كانت صورة هتلر تسيطر على مخيلته حينما كان يكتب هذه الهلوسات والخيالات الجموحة. ونقول له: أنت تتكلم عن معلم البشرية ورجل موصول بالسماء، وشخصية عظيمة يتيمة اختارها الله لهداية الإنسان أينما كان وحيثما حل، وإلا كيف انتشر هذا الدين العظيم في كل القارات والسواحل والشطآن والأنهار والبحار والمحيطات وغزا الغابات والأحراش والقرى والمدن والكفور والنجوع والصحراء والبيداء، وتقبله الوثني واليهودي والنصراني؟ هل يستطيع أن يفسر لنا قوة هذا الدين الذاتية في الإقناع وسحره في غزو القلوب وخلب العقول؟

٢ - قضية الغزوات والفتوحات لم تكن مسألة مزاجية عشوائية، كما يزعم فيلسوف الرياضيات، أو أننا بصدد عملية نهب تحولت إلى فتوحات، هذا كلام هزيل وتحليل سطحي، نحن أمام أمة وليدة ودين جديد له مشروع حضاري كوني وبناء عالم جديد من المحبة والخير والعدالة، دين له مقوماته طرحها إمام العالم وسطرها في قرآنه وسلوك الرسول، ثم مضوا قدما بعزم حديد وإرادة لا تغلب، وهدف واضح ومنهج سليم، فقوضوا مملكة فارس وإمبراطورية الروم ثم ساروا صعدا إلى الشرق والغرب لنشر أنوار الرسالة الخاتمة. هذا أولا.

---

(١) عبقرية محمد، نهضة مصر، القاهرة، د.ت. ص ٤٥

ثانيا: خذ موقف الرسول ﷺ بعد النكسة التي وقعت في غزوة أحد، والجراح التي أصابته وشهداء المسلمين يملؤون ساحة المعركة، فطلب منه أن يدعو الله عليهم. ترى ماذا قال: قال: اللّهم اهدي قومي فإنهم لا يعلمون. هذه أخلاق النبوات وشمائل الرسل وعطايا الألوهية.

والموقف الثاني وليس هو الأخير؛ حينما فتح مكة أعدائه بالأمس، والذين آذوه وعذبوه وأصحابه وأخرجوه منها، وانتصر عليهم وأصبحوا أسرى لا حيلة لهم، قال لهم قولته الكريمة التي خلدها التاريخ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»؛ أخلاق المنتصر البطل وسمو الروح وحبا في أهله، واحتراما لانكسارهم وذلهم، فعفا عنهم، هذه هي سمات الفرسان الأحرار، العفو عند المقدرة.

«إنه ليس انتصارا في غزوة ولا انتصارا في معركة ولا إخضاع مملكتي كسرى وقيصر، إنما هو النصر الكوني الذي يدخل في بنية الحياة، ويغير مجرى التاريخ، ويصرف أقدار العالم ويتطبع في ضمير الزمان»[1].

«وطوال تاريخ البشرية لم يبد أي منتصر سمو السلوك ونبل النفس ورحمة القلوب والعفو الكامل كما رأينا في سلوك النبي مع هؤلاء الذين حاربوه مدة عشرين عاما وأخرجوه من البلد التي ولد فيها ودرج على ثراها وأحبها من أعماق قلبه وكيانه[2].

وعلى كل مستشرق يراجع التاريخ، وينظر في سلوك جيوش الصليبيين حينما دخلوا القدس بعد استردادها من المسلمين وقتلوا الآلاف وسفكوا دماء الأبرياء على حسب رواية المؤرخين.؟ حتى قال ابن الأثير (٦٣٠ هـ): ليتني لم تلدني أمي كي لا أمسك القلم و أخط سطور هذه المأساة.

لينظروا ماذا فعلت جيوش الأسبان بعد أن استردت الأندلس مدينة بعد مدينة وولاية بعد ولاية، وعلى الرغم من العهود التي قطعوها للمسلمين فقد قتلوهم شر قتلة ومن بقى إما تنصر أو طرد من بلاده.

---

(١) سيد قطب: دراسات إسلامية ص ٢٤

(٢) دفاع عن محمد ص ١٥٥

لينظروا الدمار والقتل الذي قام به جيش نابليون حينما غزا مصر في حملته المشؤومة عام (١٧٩٨) ولم يتورع عن دخول خيوله الجامع الأزهر دون اعتبار لحرمة المكان وقدسيته في التاريخ وعند المسلمين.

إن الأمثلة التاريخية حبلى بالأحداث المؤسفة والقتل والدمار، والحرب العالمية الأولى والثانية أفظع مثال على الظلم والدمار الأوربي الذي أحدثه في ألمانيا واليابان !!. ويكفينا أننا عشنا وشاهدنا أوربة وأمريكا وراء إسرائيل وهي تقتلع شعبا بأكمله وتقتله كل يوم بآلتها العسكرية الهائلة وتشرده في أنحاء العالم.

فعلى المستشرقين أن يتكلموا في موضوع آخر لأن تاريخهم مجلل بالعار والشنار وأسود من قلب ماسورة الموقد على حد تعبير شولوخوف (١٩٠٥- ١٩٨٤)(١). في قصته النهر الهادئ!!

٣- ونرد على جاكلين ما المقومات التي أهلت النبي محمد أن يوحد هذه القبائل المتنازعة المتقاتلة، وكيف وحدها تحت راية واحدة وتحت أي شعار؟ وهو الذي خرج مضطهدا من أحب بلاد الله إليه وعاش في المدينة؟ نقول لها: لأن الرسول ﷺ كان يحمل رسالة سماوية عالمية اشتاق لها ضمير الإنسان النقي، وهتف بسموها ملايين البشر وتردد صداها في آفاق الكون، منذ أن انقطعت الرسالات بموت السيد المسيح. لأن مبادئ الإسلام كانت ثورة على الاستعلاء الطبقي، وعلى طواغيت الأرض والمستبدين، وكانت ثورة على التعصب في كل صوره، التعصب للجنس أو اللون، وعلى التعصب العنصري الذي عانت منه البشرية عصورا متعاقبة من أيام اليونان والدولة الرومانية التي كانت تلقي بالعبيد إلى الكلاب المتوحشة وتجلس في المدرجات تسعد بنتيجة المعركة، وكانت ثورة على التعصب الديني، منذ أن أعلن القرآن صيحته المدوية وإعلان حرية الاعتقاد ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

---

(١) ميخائيل شولوخوف كاتب روسي مشهور وعضو في الحزب الشيوعي، فازت قصته بجائزة نوبل، وهذه العبارة باقية في ذاكرتي منذ قرأت القصة أيام الجامعة، وكنت أكتب بعض العبارات التي تشدني في كراساتي وأحيانا أحفظها من شدة إعجابي بها.

وكانت ثورة على طاغوت التفرقة الاجتماعية، وكل شيء كان يهون على سادة قريش إلا تحطيم الفخر بالأنساب والاعتزاز بالآباء والأجداد، فكان هتاف الإسلام ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] (١)

أضف إلى ذلك كان اليهود أسلافها وأجدادها الذين يعيشون في أكناف المدينة يبشرون بمقدمه قبل أن تولد هي بآلاف السنين وعندهم علم في كتبهم بظهور نبي من العرب، ليس هذا فحسب بل كانوا يتعالون على القرشيين ويقولون لهم إن هذا الرسول سيقتلكم قتل عاد وثمود وحينما بعث الرسول نكصوا على أعقابهم ومكروا كعادتهم وذهبوا يعبدون العجل مرة ثانية وتنكروا للرسول كما تنكر السامري لموسى.

٤ - ونرد عليهم بشهادات مستشرقين مثلهم تحرروا من التعصب والعنصرية، وخلفوا وراءهم هذه الاتهامات السخيفة والمقولات الساقطة، وطهروا عقولهم من دعاوى ريموند مارتيني (١٢٢٠- ١٢٨٤) في كتابه خنجر الإيمان؛وهو في الرد على المسلمين واليهود اعتمد فيه على حجج الغزالي وغيره ممن تصدوا لمجادلة المشائين(٢)، وتأويلات ريكولدو كروتشي (١٢٤٣ - ١٣٢٠) الفاسدة في كتابه «الرد على القرآن»، وهوس مارتن لوثر(١٤٨٣- ١٥٤٦) وجنونه وحكايات العجائز ومخلفات الماضي(٣).

- نستهل هذه الشهادات بوجهة نظر هردر (١٧٤٤ -١٨٠٣) فيلسوف التاريخ وعالم اللاهوت، الذي يشيد إشادة عظيمة، بدور القرآن والرسول في إقناع العرب بالإسلام بعبارات صافية واضحة، يقول: عندما ظهر محمد بين العرب ودعاهم إلى دينه وتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن واستطاع أن يهديهم للإيمان بهذه «المعجزة اللغوية»، إنما غير في الواقع من أخلاقهم وعاداتهم كما غير من شاعريتهم؛ فالإيمان بالله الواحد الأحد وبأنبيائه ورسله، والتسليم بمشيئته والإذعان لأمره، وانتظار يوم الحساب، والرحمة بالفقراء والإحسان إلى

---

(١). سيد قطب: دراسات إسلامية ص ١٣: ١٥

(٢) نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤، ج١/ ١٣١

(٣) نسب شكيب أرسلان إلى فولتير مقولته عن لوثر وكالفن: أنهما لا يستحقان أن يكونا صانعا أحذية عند محمد. (حاضر العالم الإسلامي ج١ / ٤٢).

المساكين، أصبحت هي طابعهم الجديد[١] ثم يتابع شرح وجهة نظره: أن فساد التقاليد اليهودية والمسيحية من ناحية، وفصاحة قومه ومواهبه الشخصية (أي مواهب الرسول) من ناحية أخرى، كانت هي الأجنحة التي حلقت بمحمد عاليا[٢].

وعلى هذا الدرب المنير يسير المستشرق النمساوي فون هامر برجشتال (١٧٧٤-١٨٥٦)[٣] المحب للحضارة العربية الإسلامية، الداعي إلى التسامح بين الأديان والذي أسس مجلة «كنوز الشرق» وجعل شعارها قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ [البقرة: ١٤٢] وترجم أربعين سورة من سور القرآن إلى اللغة الألمانية وكتب مقدمة طيبة لها.يقول: إن محمدا لم ينشر سلطانه على قومه بقوة السيف، بل نشره في المقام الأول بإعجاز الخطاب (أي القرآن) الذي لابد أن يكون، وهو على ما هو من الروعة كلام الله[٤].

وإذا توقفنا أمام وجهة نظر بودلي نجده كان أكثر موضوعية من زملائه المستشرقين، إذ نظر إلى القضية من كافة جوانبها، وقد أشار إلى جملة الأسباب التي دفعت الرسول إلى غزواته ومن الممكن أن نبلورها في النقط الآتية:

اضطهاد قريش للرسول ﷺ وتعذيب أنصاره ومطاردتهم وتجويعهم طوال ثلاثة عشر عاما ثم تعقبهم في كل مكان و الإغارة عليهم حتى بعد أن هاجروا إلى المدينة، لاسيما وأن أبا جهل لم يكف عن عدائه لمحمد ومحاولاته المستمرة لقتله.

الحصول على الغنائم من قوافل قريش، وهذا أمر مشروع لأغلب العرب، وتكوين بيت المال ، والانتقام من رجال مكة الذين كانوا سببا في متاعبهم كلها وصادروا أملاكهم.

ترسيخ مبدأ الجهاد في سبيل حمل الإسلام إلى العالمين.

ثم ينتهي إلى مهاجمة المؤرخين الذين انتقدوا غزوات الرسول ﷺ، ويقرر أنه لم يكن أول من قضى بشريعة الحروب الدينية، فقد أشعل موسى حربا مقدسة منذ ألفي سنة، وملوك

---

(١) كاترينا مومزن: جوته والعالم العربي ص ٥١

(٢) كاترينا مومزن: جوته والعالم العربي ص ١٤٣

(٣) ترجمته في، بدوي موسوعة المستشرقين ص ٦١٣

(٤) جوته والعالم العربي ص ٢٣٤ . وأيضا تيودور نولدكه: تاريخ القرآن، ص ١٥

إسرائيل وقضاتهم أشعلوا الحروب في سبيل عقيدتهم وأقاموا مجازر بشعة ، في حين عامل محمد الأسرى معاملة طيبة، ولم ينتقم من أعدائه المنهزمين، ولو أن قريشا أعطته حقه في نشر دينه لما طرأت على خاطره فكرة الحرب[١].

هذا الموقف المعتدل نوعا ما لا يمنع بودلي أن يجاري بعض المستشرقين في التركيز على قضية الغنائم والأسلاب ويشير بين الفينة والأخرى إلى إقدام أصحاب محمد على خوض الحروب وفي خيالهم مسألة الحصول على الأسلاب ، يتجلى ذلك في حديثه عن «غزوة أحد»، ومع اعترافه بأن قريشا بقيادة أبي سفيان هي التي أرادت أن تنتقم من الرسول ﷺ، بيد أنه يبرر حماس شباب المسلمين للخروج لملاقاة أبي سفيان يرجع إلى «جلب الغنائم»، وعندما نكص جيش قريش على عقبيه، وظهرت بوادر النصر «كان هذا إغراء شديد للمسلمين الذين تشبعت عقولهم بالسلب وراحوا يهرولون إلى الغنائم»[٢].

من الواضح أن بودلي لم يتحرر مطلقا من الأفكار التي تشبع بها عن الإسلام والمسلمين، ورواسب البيئة وميراث الثقافة وتراثه العدواني، وأن حياته بين المسلمين لم تستطع أن تقلع جذور هذه الأفكار غير المنصفة عن سيرة الرسول ﷺ.

ويؤكد المستشرق الفرنسي جودفري ديمومبين[٣] (١٨٦٢- ١٩٥٧) gauefroy demobynes في كتابه «تاريخ العالم» الأفكار السابقة ويطالب بالعدول عن فكرة كون الإسلام انتشر بالسيف على يد الأعراب البدو، يرجع سبب الفتح إلى إيمان العرب بمبادئ الإسلام.يقول:اجتمعت طائفة من الناس حول النبي وتشبعت بمبادئه وصرفت جميع همها إلى الدين وعاهدت الله ورسوله على نشر عقيدة الإسلام، ثم انضمت إليهم طائفة أخرى في زمان الخلفاء الراشدين، وتقوت بهم عصابة هؤلاء المتدينين العاكفين على تلاوة القرآن[٤].

---

(١) حياة محمد ص ١٧٨: ١٨٢. (يقول بودلي:حينما غزا الصليبيون الأرض المقدسة عام ١٠٩٩، خلفوا وراءهم الموت والدمار، في حين أن صلاح الدين لما هزمهم، لم يلجأ إلى وسائل الانتقام، ولم يخرب المهالك التي فتحها، كما فعل المقاتلون الدينيون السابقون.كان المسلمون مثل الغيث الذي يخصب المكان الذي ينزل فيه، وإن عصر الإحياء في أوربة يرجع إلى حفدة محمد الذين حملوا مشعل الثقافة في حين كانت أوربة غارقة في الظلمات. حياة محمد ص ١٨٢).

(٢) حياة محمد ص ٢١٠: ٢١٧ (٣) ترجمته في موسوعة المستشرقين ص ٢٧١

(٤) نقلا عن حاضر العالم الإسلامي ج١/ ٢٦

ويلخص فون جرونباوم (١٩٧٣) جملة من الأسباب أفضت إلى فوز محمد على حد تعبيره فيقول بعضها سياسي وبعضه راجع إلى عون غير متوقع ألقاه إليه الحظ. وهي:

- أن نظامه الديني يعد من أحكم نظم الديانات وأعظمها توافقا وتماسكا.
- ينطوي هذا النظام على أجوبة مقنعة لمسائل التي كانت تشغل مواطنيه، وكان يتجاوب مع روح العصر.
- علم الناس أن المجتمع في ظل الله أحفل بالمعاني ، فهو أعمر بالآمال السياسية من مجتمع يستظل بظل القوانين القبلية(١).

لاشك أننا نعترض على «مسألة الحظ» التي حشرها في القضية التي نتكلم عنها فهي كلمة تصلح لعقلية العوام وتعبير عن طبيعة تفكيرهم، ولا تمت للعلم والتخطيط بصلة، وانتصارات الرسول كانت تعتمد على الأخذ بالأسباب والتخطيط للمعارك وأخذ الحيطة والحذر وإرسال فرق الاستطلاع، ومشاورة مجلس الحرب وكبار مستشاريه، وعلى الجملة يأخذ بكل مقومات النصر، ثم أنه متوكل على الله في جميع الأحوال قبل وأثناء وبعد الفعل. أي الثقة في نصره الكريم.

ويشير ولفنسون (١٩٨١) إلى موقف إنساني للرسول حينما فتح حصن خيبر واستولى على صحائف من التوراة، فلما طلبها اليهود أرجعها إليهم ويقارن بين هذا الموقف وموقف جيوش الرومان حينما دخلوا فلسطين فيقول: لم يتعرض (الرسول) بسوء لصحفهم المقدسة ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم (القدس) وفتحوها سنة ٧٠ م إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، وهذا ما قام به النصارى المتعصبون مع اليهود في الأندلس حيث أحرقوا التوراة؛ وهذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم ورسول الإسلام(٢).

ويرفض كلود كاهن (١٩٠٩- ١٩٩١)(٣) وهو مستشرق معاصر فكرة السيف

---

(١) الحضارة الإسلامية ص ٩٩: ١٠٠.

(٢) تاريخ اليهود ص ١٧٠.

(٣) ترجمته في موسوعة المستشرقين ص ٤٦٠: ٤٦١

والأطماع المادية فيقول: كانت قوة المسلمين تكمن في حرارة الإيمان الديني التي سرعان ما أذكاها وألهبها ليس الغنائم الثمينة، بل كون الغنائم ذاتها دليلا على العون الآتي من لدن الله[١].

٥- توافد العديد من القبائل العربية على الرسول ﷺ راضية مختارة، ومنهم أهل عمان الذين دخلوا في الإسلام طواعية وباقتناع كامل؛ فحينما سمع مازن بن غضوبة أحد شيوخ القبائل عن مبعث الرسول وعلم صدق النبوة وتحقق خالص الإيمان، شد الرحال إليه وقابل الرسول ﷺ وأسلم على يديه وطلب منه أن يدعوا لأهل عمان الذين أسلموا جميعا واستجابوا لمبعوثه برضى نفس وطيب خاطر واقتناعا بمبادئه وإيمانا بسمو رسالته[٢].

ثالثا: انتشار الإسلام بالسيف

تمهيد:

أشرنا سابقا أننا مع إشراقة النور المحمدي على العرب وبعثة الرسول ﷺ لكافة البشرية، ومعه القرآن؛ دستورا للمسلمين ينشئ مجتمعا مثاليا إنسانيا، بل يخلق مجتمعا ربانيا بعد أن كان سادرا في عصر الجهالة والظلم والاستبداد والطغيان، ليس هذا فحسب بل ينظم حركته حركة فعالة إيجابية وخلاقة في كل ما يعن للمسلم في حياته اليومية: الأسرية والاجتماعية وتنظيم حياته المعيشية، وكذا في مجال الاعتقاد وإفراد الله بالوحدانية، وميدان الاقتصاد البيوع والشراء وما يتصل بذلك من معاملات، وكذلك قواعد السلوك الأخلاقي وعلاقاته بأخيه المسلم وغير المسلم ليس هذا فحسب بل وتنظيم علاقته بعناصر الطبيعة والوجود كله من جمادات ونباتات وحيوانات.

قلنا أننا بصدد ولادة مجتمع جديد، له شخصيته المستقلة بأبعاده الدينية الربانية وفلسفته

---

(١) كلود كاهن:الإسلام ص ٤٤

(٢) ودعا لهم الرسول فقال: اللّهم أهدهم وأثبهم اللّهم ارزقهم العفاف والكفاف والرضى بما قدرت لهم، اللّهم لا تسلط عليهم عدوا من غيرهم. وقد استجاب الله دعاء الرسول فأخصبت أرض عمان، فأهل عمان أكثر أهل الجزيرة العربية هدى وأصدقهم إيماناً، وقال أيضا: طوبى لمن آمن بي ورآني، وطوبى لم آمن بي ولم يرني، وأن الله سيزيد أهل عمان إسلاماً، أي سينتشر الإسلام حتى يعم أهل عمان كلهم، فكان الأمر كذلك.(سالم بن حمود السيابي: عمان عبر التاريخ، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ٢٠١٤، ج١ / ٩٩: ١٠٢)

الخلقية، وأدركنا إدراكا لا لبس فيه أن الإسلام بتعاليمه وأخلاقياته ومبادئه أبدع العصبة المؤمنة وشكلها تشكيلا إيمانيا، فأصبحت تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الإسلامي[1] فنحن أمام جيل قرآني جديد.

هذه الشخصية المسلمة الوليدة بمقوماتها الفريدة التي تربت في حضانة المجتمع الفتي بمبادئه المثالية وأسسه الأخلاقية وقواعده التنظيمية، تشربت سلوكيات الرسول وتعاليمه، وظلت تستوعب أوامر الدين الجديد طوال وجوده في الفترة المكية بكل ما يمثله من طور جديد في عمر البشرية هي التي قادت الفتوحات الإسلامية وهي التي خرجت تواجه الظلم والظلام والشر والباطل خارج حدودها.

هذا المسلم الذي ولد بالروح والجسد هو الذي واجه الشدائد و تحمل المخاطر وخاض الأهوال وجاهد في سبيل نشر الإسلام وحمل رسالته إلى آفاق العالم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والحوار الصادق المثمر وشرح مفاهيم الإسلام وأنه جاء يخلص العباد من عبودية العباد إلى عبودية الله فهو المعبود الأول والأوحد في هذا الكون الباهر الفسيح، ويصبح الدين خالصا لله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ومن الحقائق التاريخية أن المسلمين لم يبدؤوا الحرب مع الآخرين سواء أكانوا من القرشيين أو الدول المحيطة، إلا بعد أن استنفذوا كل وسائل السلام من الوعظ والشرح مع أعدائهم من خلال عرض الإسلام لاعتناقه، وإفساح الطريق أمامهم للتبشير به بين هذه الأمم فإن أبوا فعليهم دفع الجزية في المرحلة الثانية. فإن رفضوا وأصروا على الرفض؛ لم يبق إلا المرحلة الثالثة وهي الاحتكام للسيف الذي يعد آخر مراحل طريق الدعوة بالحسنى والشرح والتفهيم. فمن المعلوم أن سياسة العصا الغليظة لم تبدأ إلا بعد أن أوجعت عصى الأعداء جلود المؤمنين، وكسرت عظامهم. هنا نزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩][2].

---

(١) سيد قطب: معالم في الطريق، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٨

(٢) محمد الغزالي: السنة النبوية ص ١٣٣

وتؤكد المصادر التاريخية أن جهاد المسلمين كان بعد أن استنفذوا كل الوسائل السلمية، ومحاولة كسب الكفار ومن عاونهم وساندهم بالطرق السلمية، ولما اشتد العدوان عليهم، نزل التصريح برد العدوان، كذلك استجابة للأمر الإلهي لحمل الدعوة إلى الآفاق، وتحرير العقلية من التصورات الوثنية الغليظة، وإعلاء كلمة الله ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى؛ كان استعمال السيف لإفساح المجال لحرية الاعتقاد، وترك الحرية للآخرين لتقرير العقيدة التي ينحازون إليها، لكنه لا يفرض عليهم عقيدة محددة. ذلك بأن كرامة الإنسان تتلخص في كلمة واحدة؛ في عقيدته؛ فالعقيدة أثمن من المال ومن الجاه ومن السلطان ومن الحياة نفسها عند من يقدر معنى الإنسانية.(١)

يقول الشيخ الشعراوي: «ينخدع بعض المسلمين بدعاوى أعداء الإسلام الذين يقولون: إن الإسلام لم يشرع الحرب إلا لرد العدوان. ولذلك نقول لهؤلاء وأولئك: لا؛ إن الإسلام جاء بالقتال ليحرر حق الإنسان في الاعتقاد. والمسلم مطلوب منه أن يعلن كلمة الله، وأن يقف في وجه من يقاوم إعلانها، ولكن الإسلام لا يفرض العقيدة بالسيف، إنما يحمي بالسيف حرية المعتقد»(٢).

ومن جهة ثالثة؛ الدولة الوليدة التي تحمل رسالة الخير والعدل والسلام للعالم، ودستورا جديدا تطرحه لإنقاذ البشرية من سقوطها تحتاج إلى أسباب القوة سواء أكانت قوة معنوية أم قوة مادية، ولذلك طالب الله رسوله والمؤمنين إعداد العدة للأعداء وتدبير وسائل النصر وتجهيز كافة الأسلحة مما هو متاح لهم في قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]

---

(١) هيكل: حياة محمد ص ٢٦٤

(٢) تفسير الشعراوي سورة النساء.

ومن الجدير بالإشارة أن ميكافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) فيلسوف السياسة أطلق نفس هذه الصيحة في قوله: إن الأنبياء غير المسلحين يخفقون دائما[١].

من هذا المنطلق تصدوا لأقوى إمبراطوريتين؛ إحداهما وثنية مجوسية شاع فيها الفساد والاستبداد وبدأت أركانها تتهاوى، والأخرى انحرفت عن تعاليم المسيح المبارك، وأصبحت أبعد ما تكون عن مواعظه ومبادئه، هاتين الإمبراطوريتين ملأهما الغرور والغطرسة والنظرة الاستعلائية للعرب أنهم جماعة من القبائل المتخلفة المتناحرة، الذين تدور الحرب بينهم على أتفه الأسباب حتى لو كان فرسا سبق فرسا في رهان، أو من أجل سفيه عقر ناقة جاره[٢].

في حين أن العرب: أذكياء القلوب حداد الخواطر، خفاف الحركة، ثاقبي النظر، ...كأن أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحصن سور وأمنع حاجز، وهذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ[٣].

بيد أن هاتين الحضارتين لم تدركا التغييرات الجوهرية التي لحقت بشخصية المسلم وأبعاد نفسيته وأنها أصبحا أمام إنسان جديد صنديد، ولد ولادة جديدة؛ ولادة الروح والمنهج والقيم والأخلاق والسلوك. فالمسلم مؤمن بقصر العمر، وأن الدنيا عرض زائل وفترة موقوتة بعمره الذي مهما طال فهو مهاجر إلى ربه، ثم إن الدين يبشره بجنة عرضها السموات والأرض، سرمدية الوجود، وألوان من النعيم لم تخطر على قلب بشر، ولا يحيط بها عقل نابغة، فلا جرم أن يغير الوعد الديني شخصيته ويحوله من إنسان فرد إلى جيش كامل

---

(١) راسل: حكمة الغرب ج٢/ ٢٤. يشرح راسل بأن سبب إطلاق مكيافيلي هذه المقولة، أنه رأى سافونا رولا يفضح الكنيسة ويظهر مساوئها ومخازيها، فحكمت عليه الكنيسة بالإعدام حرقا.ولو كان يملك قوة تحميه وتدفع عنه شر الكنيسة ما لقي هذا المصير البشع . وهذا ما حدث مع الدكتور مرسي الرئيس الشرعي فالحق كان معه وانتخبه الشعب في انتخابات نزيهة لكنه لم يكن معه القوة التي تحميه من بطش المعتدين والانقلابيين والمستبدين، فالباطل كان مدجج بالجيش والشرطة والقضاة، ولم يملك الحق إلا صوته، فانتصر الباطل على الحق ولو مؤقتا.

(٢) يقول بودلي: هؤلاء الأعراب الذين لم يتثقفوا، والذين فروا من خناجر قريش، في زمن قصير سيقررون في زمن قصير مصاير الإمبراطوريات الشرقية القوية العظيمة. وستدفع سورية ودولة الكلدانيين (العراق)، والدولة البيزنطية في مصر ومستعمرات الروم والفرس الجزية إلى هؤلاء المغمورين المجهولين. (حياة محمد ص ١٦٠).

(٣) الأبطال ص ٥٧

عنده استعداد نفسي وبناء جسدي وطاقة كامنة تساعده على مقابلة الألوف من الأعداء والانتصار عليهم، ليس هذا فحسب بل السعي إلى الشهادة والبحث عنها فهي أمنية غالية ووسام شرف وفوز بالخلود.

من هنا دارت المعارك بين الدولة الإسلامية الناشئة الفتية محملة برسالة إنسانية عالمية تبغي إبلاغها للعالم وإنقاذه من الفساد والضلال والعبودية والإمبراطورية الفارسية والرومانية.فحروبه لم تكن حروب قتل ودمار أو حرب من أجل الاستغلال والاستبداد، بل كانت حروبا دفاعية ، من أجل تحقيق الأمر الإلهي وإسعاد البشرية[١].

وهنا نقطتين نود أن نشرحها ونجليها منعا من اللبس والغموض؛

الأولى: «إن الظاهرة الدينية في جانبها المتعلق بالإنسان الحامل لها ظاهرة تاريخية عندما يكون ميدان عملها هو الميدان الاجتماعي، ومن هنا فهي تخضع للسنن التاريخية، كغيرها من الظواهر التاريخية، ولكن من حيث كونها مجموعة مبادئ روحية تحرك الإنسان وتوجه ذهنه ووجدانه لرسم المستقبل وفقا لها، هنا يجب أن نفهمها من جانب سلطانها على الإنسان... بوصفها قيماً إلهية تعبر عن نظام اجتماعي إلهي»[٢].

وبتعبير آخر، إن مبدأ الجهاد ونشر الإسلام هذا أمر إلهي من الله لرسوله وأنصاره الذين سيلتحقون بهذا الدين وتحقيق رسالة الله في الأرض، أما قيام الرسول بإيجاد الوسائل وإعداد الجيوش واختيار قواد الجيوش، وأصناف الأسلحة، ورسم الخطط، ومفاجأة العدو أي الخطط العسكرية، والأخذ بكل الأسباب التي تمكنه من النصر بأقل خسائر ممكنة، فهذا كله عمل بشري يخضع لقواعد الواقع وفن الحرب.له وعليه وهو اجتهاد منه.

لكننا نضيف أننا نؤمن بالتوفيق الإلهي والتسديد الرباني الذي ينصر الحق، ويهزم الباطل مع الشرط الذي أسلفناه وهو الأخذ بكل استراتيجيات الحرب وتوفير أدواتها ووسائلها.

---

(١) يقول مايكل هارت: كان البدو مشهورين بشراستهم في القتال وكانوا ممزقين، ولكن الرسول استطاع لأول مرة في التاريخ أن يوحد بينهم ويهديهم جميعا بالدعوة إلى الإله الواحد، ولذلك استطاعت جيوش المسلمين المؤمنة أن تقوم بأعظم غزوات عرفتها البشرية فاتسعت الأرض تحت أقدام المسلمين،.. وشملت الإمبراطورية الفارسية، واكتسحت بيزنطة والإمبراطورية الرومانية. (الخالدون مائة، أعظمهم محمد، ص ١٥).

(٢) صلاح الجابري: الاستشراق قراءة نقدية ص ١٤٤

وبعبارة أكثر تركيزا إننا بصدد بُعد إلهي غيبي نقر به لا أحد يستطيع أن ينكره ، وبُعداً بشرياً خاضع للاجتهاد والمراجعة.هذا البعد الغيبي أو الأمر الإلهي للجهاد وكفاح الكفار والمشركين والمنافقين هو الذي كان يمثل عاملا نفسيا للمجاهدين، ويمنحهم دفعة رهيبة بل طاقة خارقة، واستبسال في مواجهة العدو وطلب الشهادة[1].

لذلك فالذين يعللون الفتوحات الإسلامية وتوسعها وتنظيم دولاب الدولة الإسلامية والتغيرات الجوهرية التي غيرت بنيتها تغيرا شاملا، بالعامل المادي أو الحصول على الغنائم، أو طلب الرياسة والسيطرة، ويسقطون مفاهيم الحروب الاستعمارية الحديثة عليها، واهمون، ويعيدون عن الحقيقة المرئية المتجلية في أرض الواقع.

فمن المعلوم أن شجعان العرب وصناديدهم بعد فتح مكة وقادتهم وزعمائهم لم يدخلوا الإسلام إلا بعد اقتناعهم بمبادئه، ومناقشة القضية فيما بينهم ومصارحتهم لأنفسهم وشعورهم العميق أن هذا الدين حق وعدل ولذلك ذهبوا مقتنعين وأعلنوا إسلامهم أمام نبيهم بحرية كاملة؛ وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل نماذج حية لذلك ، وهؤلاء هم الذين حملوا راية الإسلام خارج الجزيرة بإيمانهم وثقتهم فيه.

أضف إلى ذلك ما نراه من ظاهرة الفتوحات في مسافة زمنية جد قصيرة وانتشار الإسلام، لا يمكن أن يفسر بالعامل المادي أو التفسير الأحادي، ومن المنطقي والطبيعي أن يكون وراءه سببا آخر ومحركا أقوى، وتعليلا مقبولا في العقل والاستدلال السليم وهو؛ الأمر الإلهي أي الوحي من السماء والوعد بالجنة.

---

(١) لاشك أن قوة الإيمان، والاعتقاد في صدق الرسالة التي يقوم بها الجندي في محاربة العدو؛تعطيه دفعة قوية وتفجر طاقات مخزونة بداخله لا نستطيع أن نكتشفها إلا في أوقات الشدائد، وفي المواقف الحرجة، وهنا أقرر أن هذا ما خبرناه في الدفاع عن أوطاننا ورد عدوان إسرائيل النازية الفاشستية منذ عام (٦٧: ١٩٧٣) فكان كل جندي فينا تتفجر طاقات كامنة داخله وتظهر تجليات تكاد أن تكون خارقة ونحن نحارب إسرائيل طوال حرب الاستنزاف وحرب العبور. وأذكر أن قائد اللواء ١٤ مدرع ضمن الفرقة (٢١) في محاضرة عام (١٩٧٠) قال لنا: إن الله سبحانه أودع في الإنسان قدرات فائقة وطاقات مجهولة لا يستطيع أن يكتشفها الجندي إلا حينما يقع في مأزق أو تجربة أليمة، فتظهر هذه الطاقات الخارقة. وقد أطلق «كانن» عالم النفس الأمريكي (١٩١١) على هذه النظرية اسم «نظرية الطوارئ» وينسب كانن إلى هذه التغيرات الفسيولوجية تلك الأعمال الخارقة للعادة التي يأتيها الفرد في حالة الطوارئ كالقفز فوق سور ارتفاعه متران والتي تمكنه من الخلاص. (عزت راجح: أصول علم النفس ص ١٦١).

الثانية: هناك فرقا كبيرا بين الحروب التي دارت بين المسلمين والدول المجاورة، ونشر الإسلام كدين جديد.واعتناق القوم له أو عدم اعتناقهم له، فهزيمة الفرس في معركة (القادسية ١٣ هـ/ ٦٣٥) بقيادة سعد بن أبي وقاص، لم يمنع أهل فارس أن يظلوا على دينهم القديم ومعتقداتهم ونهجهم ولغتهم وأشعارهم وفنهم، ولم يمنع أيضا جماعات كبيرة من المجتمع دخلوا في الإسلام بعد أن اقتنعت اقتناعا تاما بعقيدته التوحيدية السمحة البسيطة ومبادئه الأخلاقية وموازينه العادلة وتصوراته الواقعية عن الدنيا والآخرة، وإعلائه من كرامة الإنسان وتحريره من عبودية الأكاسرة، وأصبحوا جنودا شجعانا في جيش المسلمين للدفاع عن الدين الوليد.

وهذا ما جرى أيضا لبلاد الشام بعد هزيمة الرومان في موقعة إجنادين (١٣هـ/ ٦٣٥) بقيادة خال بن الوليد واليرموك (١٥هـ/ ٦٣٦) بقيادة أبو عبيدة بن الجراح وفتح بلاد الشام. فهناك من دخلوا الإسلام عن رضا ومحبة، ومنهم من ظل متمسكا بنصرانيته. وبعد فتح القدس (١٥هـ/٦٣٧) تولى عمر بن الخطاب عقد الصلح مع أهلها وكانت شروطه مثالا للتسامح والرفق وسعة الأفق فقد أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم ومنحهم حق ممارسة شعائرهم الدينية بما فيها دق أجراس كنائسهم وإقامة صلاتهم[1].

يصف لوبون موقف عمر بن الخطاب من نصارى القدس فيقول: «يثبت لنا سلوك أمير المؤمنين في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يُعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة، وناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة.

أما القطر المصري فمن المشهور تاريخيا أن النصارى في مصر عانوا معاناة شديدة تحت حكم أباطرة الرومان الوثنيين ولاقوا من صنوف التنكيل وأهوال العذاب ما تقشعر منه الأبدان حيث كان يلقى بهم للكلاب الشرسة والأسود الجائعة، ويطلى المسيحي منهم بالقار ثم تشعل فيه النيران، وقد وقعت هذه الأحداث المرعبة في عهد نيرون (٦٤ م) المجنون، وتراجان الظالم (١٠٦ م) أما عصر دقلديانوس (٣٠٣ م) فكان أشد الفترات قسوة على

---

(١) يقول شيخنا الغزالي: لماذا يبكي المستشرقون ملك فارس وملك الروم الذي قوضناه؟ هل يجرؤ كذوب منهم على الزعم بأن هذه الإمبراطوريات الواسعة لم تكن مقبرة للحب والحرية والعدالة وأن خلاص العالم منها كان حسنة أسداها الإسلام استحق عليها الشكر.؟! (دفاع عن العقيدة والشريعة ص ٤٧)

أقباط مصر حتى أطلقت عليه الكنيسة المصرية عصر الشهداء، ولم يسترد الأقباط حريتهم الدينية وممارسة طقوسهم إلا بعد إباحة الديانة المسيحية عام (٣١٣ م) بموجب مرسوم ميلانو، وبعد هزيمة الرومان وفتح مصر (٢٠ هـ/٦٤١ م)، بقيادة عمرو بن العاص رحب الأقباط بالفتح الإسلامي ترحيبا واسعا، وتركوا وشأنهم، فمن أراد أن يدخل في الدين الجديد فمرحبا، ومن ظل على نصرانيته ترك وشأنه وحفظت كرامته وسمح له بإقامة شعائره وتأديتها داخل الكنيسة وخارجها، وما زالت أجراس الكنائس تدق في مصر حتى الآن وهذا بسبب سماحة الإسلام وعدله، وسعة صدر المسلمين وأفقهم ومعاملة الأقباط معاملة المواطن الذي له حق المواطنة بالمفهوم المعاصر دون تمييز أو تفريق بين أصحاب الديانتين. والشاهد على ذلك أنهم تبوؤا أكبر المناصب وأشدها وجاهة وتأثيرا.

هذه النظرة المتسامحة يؤكدها عدد ليس بقليل من المستشرقين، يقول أرنولد (ت ١٩٣٠): يرجع النجاح السريع الذي أحرزه العرب إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي، لما عُرف به من الإدارة الظالمة ولما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت[١].

ولما كنت ظاهرة المظالم البشعة التي حاقت بالنصارى في مصر من الدولة الرومانية وإثقال كاهلهم بالضرائب، والنظر إليهم نظرة دونية وتسخيرهم في الأعمال الحقيرة، لذلك يلاحظ أن معظم المستشرقين يؤكدون على هذه العدوانية من الرومانيين.

يقول لوبون (١٩٣١) عن الحالة البائسة التي كان تعيشها مصر تحت حكم الرومان والأحوال المتردية: «لقد أنهكها البؤس والشقاء، والمنازعات الدينية، وأذل كرامتها استبداد الحكام فحقدت أشد الحقد على حكامها الرومان، وكانت تنتظر ساعة تحررها من القياصرة الظالمين، حتى تم لهم ذلك بفضل العرب»[٢].

ويشير ويلز(١٩٤٦) إلى سعادة الأمم في الشرق والغرب التي كانت تخضع للدولة الفارسية الرومانية بالفتح العربي وترحيبهم بذلك يقول: إن سكان الجزيرة بالعراق لم يعنيهم

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٩٢

(٢) حضارة العرب ص ٢٢٦

أيدفعون الضرائب إلى بيزنطة أو المدينة، فإن فاضل الناس بين البلاط الفارسي والعرب، كان العرب، أعني عرب السنين العظيمة أنظف الطرفين وأطهرهما بشكل ظاهر؛ وكانوا أوسع رحمة وأكثر عدلا. وانضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة كذلك انضم إليهم طائفة ليست بالقليلة من اليهود، وكما كان الحال في الغرب كان ذلك في الشرق، إذ كان الغزو يتحول إلى ثورة اجتماعية، وثورة دينية أيضا لها حيوية ذهنية جديدة متميزة[١].

ويؤكد ذلك بروكلمان في قوله: كانت سياسة المقوقس الكنسية وإلحاحه في جباية الضرائب الكثيرة ثقلا على القبط إلى درجة كان من الطبيعي معها أن يرحبوا بالعرب كمنقذين[٢].

ويقول ألفرد جيوم مؤرخ التصوف (١٨٨٨ ـ ١٩٥٩): «اسْتُقْبِل العرب على الأغلب في سورية ومصر والعراق بترحاب لأنهم قضوا القضاء المبرم على الابتزاز الإمبراطوري، وأنقذوا البيع المسيحية المنبثقة من الضغط الكريه الذي كانت تعانيه من الحكومة المركزية، وبرهنوا بذلك على معرفة بالمشاعر والأحاسيس المحلية أكثر من معرفة الأغراب»[٣].

ويعترف هنري ماسيه (١٨٨٦ ـ ١٩٦٩) بصراحة مطلقة وأسلوب يعبر عن حقيقة ساطعة بقوله: إن دخول الأقباط في مصر كان برغبتهم المحضة، ودون ضغط أو إكراه لأنهم كانوا مستعدين للاستسلام لكل من يتوسموا فيه صفات المخلص الذي سيخلصهم من الاضطهاد الروماني والعذابات التي حلت بهم من ظلمه[٤].

ويرسم الأب قنواتي (١٩٩٣) صورة قاتمة لحالة أقباط مصر تحت حكم الرومان والعسف الذي نزل بهم، وكذلك القهر الاجتماعي وفرض الضرائب الباهظة فيقول: «أصبح الأقباط مستعدين للاستسلام لكل من يتوسمون فيه صفات المخلص الذي سيخلصهم من الاضطهاد السياسي والديني»[٥].

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية ج٣/ ١٠٦ (٢) تاريخ الشعوب ص ١٠٠

(٣) ألفرد جيوم: الفلسفة وعلم الكلام ص ٦٣ (من كتاب تراث الإسلام ج٢، تحرير توماس أرنولد، ترجمة جرجيس فتح الله، منشورات الجمل، بيروت، ٢٠١٢)

(٤) هنري ماسيه: الإسلام، ت، بهيج شعبان، عويدات، بيروت ١٩٨٨، ص ٥٩، ٩٩، ٦١

(٥) المسيحية والحضارة العربية ص ٣٧. وأيضا هنري ماسيه: الإسلام ص ٦١. أعتقد أن هنري ماسيه هو الذي اقتبس=

ويرد الشيخ الشعراوي (١٩٩٨) على من يقول: «إن دينكم انتشر بإكراه السيف» نقول لهم: لا، إن أحدا لم يُسلم كرها أبدا؛ لأن السيف إنما رفع لشيء واحد هو حماية حرية الاختيار. إن السيف قد رُفع ليمنع الإكراه، وليمنع تسلط بعض الناس بقوتهم ليجبروا الناس على عقائدهم فقال لهم السيف: «قفوا عند حدكم، ودعوا الناس أحرارا في اختيار ما يعتقدون»، ودليل ذلك أن البلاد التي فتحها الإسلام تجد فيها غير المسلمين، ولو كان الأمر فتحا بالسيف لما وجدنا ديانات أخرى. غير الإسلام[1].

وإذا سرنا مع الفتح الإسلامي صعداً إلى أسبانيا وجدنا مجتمعا ممزقا طبقيا بين أرستقراطية القساوسة و السادة ودونية العبيد، الذين عانوا من سادتهم صنوفا من العذاب وألوانا من المهانة والاستعباد والقتل تذخر بها كتب المؤرخين، ومتفسخ اجتماعيا منحرفا أخلاقيا؛غارقا في الملذات والشهوات، منهار دينيا لا يبالي بقواعد الدين ومشتت بين الوثنية والنصرانية الشكلية، وعلى الجملة، أخذت «جرثومة الانحلال تنخر منذ زمن بعيد في جسم الدولة»[2].

ولما وصلت طلائع الفتح الإسلامي كنا بين صورتين شديدتين التباين والتضاد، دولة إسلامية فتية قوية تتمتع بمقومات الدولة السياسية والاجتماعية والعقائدية، ناهيك عن أنها تحمل عقيدة دينية تحثها على الاستشهاد قبل أن تبحث عن الحياة وتحمل رسالة سماوية لكل العالم، وبقايا مجتمع عاني من الاضطهاد الاجتماعي والتمايز السياسي والسقوط العقائدي. لذلك كانت الثمرة ناضجة ليقطفها الفتح الإسلامي. الذي بدأ صفحة جديدة من المعاملة الكريمة والأخلاق العالية والتسامح الديني المنشود.

يقول دوزي (١٨٢٠ - ١٨٨٣)[3] المستشرق الهولندي المتخصص في تاريخ الأندلس

=عبارة الأب قنواتي، لأن الأخير مفكر مرموق وباحث جاد وله دراسات معمقة في الفكر الإسلامي تشهد له بالأصالة والابتكار سواء اتفقنا معه أو اختلفنا، وقد تعرفت إليه في أثناء إعدادي لرسالة الماجستير والدكتوراه، وكنت أذهب إلى معهد الدراسات للآباء الدومنيكان بالقاهرة حيث يقيم، أقرأ في مكتبته الضخمة والمتنوعة لاسيما في الإسلاميات.

(١) تفسير الشعراوي، سورة الأعراف الآية ٨٣.

(٢) تاريخ مسلمي الأندلس ج١ / ٢٧: ٤٠.

(٣) ترجمته في: فوك: تاريخ الحركة الاستشراقية ص ١٨٤، وموسوعة المستشرقين ص ٢٥٩.

عن يهود أسبانيا: كانوا يرزحون تحت نير شديد الوطأة قل أن يحتمل، وكانوا يتطلعون إلى لحظة خلاصهم، فلا عجب أن رأوا أن العناية الإلهية قد قيضت لهم منقذين هم الفاتحون العرب الذين فرضوا عليهم جزية تافهة، وردوا عليهم حريتهم وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم[١].

ثم استطرد في وصف وضعية النصارى بقوله: لم يكن حالهم في ظل المسلمين أشد وطأة إذا هي قورنت بما كانوا عليه من قبل، وكان العرب شديدي التسامح معهم فلم يضيقوا الخناق على أحد من الناحية الدينية.

موجز القول إن الفتح الإسلامي كان خيرا وبركة وبداية عهد جديد على أسبانيا فقد أحدث ثورة اجتماعية خطيرة وقضى على شطر كبير من المساوئ التي كانت البلاد ترزح تحتها منذ عدة قرون[٢].

ونفس الفكرة السابقة يشير إليها توماس أرنولد في حديثه عن فتح العرب لأسبانيا إذ يقول: إن سياسة التسامح الديني التي سارت عليها الحكومة الإسلامية نحو رعاياها المسيحيين في أسبانيا، وحرية الاختلاط بين المتدينين بالديانتين قد أدت إلى شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين، وكثر التصاهر بينهم. وكثيرا من المسيحيين تسموا بأسماء إسلامية، وقلدوا جيرانهم المسلمين في سنة الختان[٣].

وبالجملة قدمت الحضارة الإسلامية إلى الغرب في عصره الوسيط، مع الغارات والفتوحات؛ أكمل ثمار تراثها الثقافي، ذلك التراث الذي كان له أبلغ الأثر في تطور الغرب في المستقبل[٤].

---

(١) تاريخ مسلمي الأندلس ج١ / ٤٠. وهذا ما ذهبت إليه أيضا كاترين أرمسترونج حيث قالت: كان المسلمون يسمحون للمسيحيين واليهود بالحرية الدينية الكاملة في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، وكان معظم الأسبانيين يعتزون بانتمائهم إلى تلك الثقافة الرفيعة. (سيرة النبي محمد ص ٣٢)

(٢) تاريخ مسلمي الأندلس ج١/ ٤٨. ويؤيد كاستري وجهة نظر دوزي ويعضد الفكرة السابقة فيقول: تولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين وحصل بينهم تزاوج كثير وكم من أندلسي بقي على دينه! ولكن أعجبته طلاوة التمدن العربي فتعلم اللغة العربية وآدابها، وصار القسس يلومونهم على ترك ألحان الكنيسة والتعلق بأشعار الظافرين، وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها. (الإسلام خواطر وسوانح ص ٧٧).

(٣) الدعوة إلى الإسلام ص ١٢١

(٤) فرانشسكو جابرييلي : الإسلام في عالم البحر المتوسط ص ٨٧.

- بعد هذا التمهيد ننظر في موقف المستشرقين من الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام:

١ - المستشرقون الذين تزعموا فكرة انتشار الإسلام بالسيف

غني عن البيان أن جمهرة المستشرقين تزعموا الطعن في سلوك الرسول ﷺ وفي رسالته ومن باب أولى في الفتوحات الإسلامية، وراحوا يرددون مقولة إن الإسلام انتشر بقوة السلاح، وأن محمداً كان قائدا عسكريا فذا، أعد جيشا قويا مدربا وضع له إستراتيجية طويلة المدى لغزو الدول المجاورة له. وقد راح يحقق أحلامه وطموحاته في تأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف بواسطة السيف الذي منحه لأتباعه.

١- من المستشرقين الذين حملوا فرية راية انتشار الإسلام بالعنف والسيف كلود سفاري (ت ١٧٨٨) الذي مر بنا في آرائه المتعصبة ونظرته الدونية للرسول ﷺ والتنقص من شأنه دائما يقول: إن المبعوثين الذين كان يرسلهم محمد لتحويل المشركين عن دينهم لم يكونوا رجال سلام، فقد كانوا يدعون الناس والسيوف في أيديهم ويخيرونهم بين الإسلام والاستعباد[(١)].

٢- قلنا عند المستشرقين عندهم قناعات راسخة وأفكار تشبه البديهيات يتوارثونها جيلا بعد جيل حتى تصير من الحقائق التي يتناقلها عامة الأوربيين وطلبة المدارس وأجهزة الإعلام، ولما كان جورج بوش (١٨٥٩) لبنة في هذا البناء، لذلك لا يتأخر عن تكرار هذا الاتهام السخيف وسود بها صفحات كتابه يقول: لما كان محمد غير مؤيد بالمعجزات مثل موسى وعيسى، وعلم أن الناس مع هذا لم يؤمنوا بهم لذا زعم أن الله أرسله نبيا مكلف بفرض عقيدته بقوة السيف، ولذا «أصبح السيف هو الأداة الحقيقية لفرض رسالته....وأقام عرشه على أطلال المسيحية وأطلال روما»[(٢)].

(١) السيرة النبوية ص ١٨٩. المواهب عطاء إلهي وهبة ربانية، ونعم يفيضها الله على من يشاء من عباده وليست من الطبيعة لأنها مخلوقة وليست قائمة بذاتها، والنبوة اصطفاء واختيار وليست مكتسبة بالرياضات الروحية أو التأملات العقلية.

(٢) حياة محمد ص٨٠ (نقلا عن كتاب الرد على بوش ص ١١٢).

الناظر في هذا الاتهام يلفت نظره إشارته إلى ملاحظتين الأولى: أنه ادعى بأن موسى وعيسى أصحاب معجزات وهذا أمر نقره لأنه من القضايا المعلومة من الدين بالضرورة ونحن نؤمن بكافة الرسل والأنبياء ومعجزاتهم التي سجلها القرآن، ولكننا نميز بين المعجزة الحسية الموقوتة بزمان محدد ومكان معين وانتهت من الواقع وكانت لإقناع هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم الرسول، ولا شك أنها تصدم العقل وتروعه، وتخلخل مسلماته، بسبب انتظام السنن التي وضعها الله في الكون، في حين أن معجزة الرسول ﷺ معجزة عقلية سارية في الوجود وفي كل زمان ومكان، زد على ذلك أنها تحرك العقل للتفكير والنظر والتدبر في أنحاء الوجود وطبقات الأرض والسماء وتتسق مع مقولاته.

الثانية: لم يمح من ذاكرته أن الإسلام أزاح المسيحية من الشام ومصر وشمال إفريقية وقوض الإمبراطورية الرومانية التي كانت تمثل قلعة النصرانية، فهذه القضية ماثلة في الشعور ومتوارية في اللاشعور وتحرك المستشرق مثل قرون الاستشعار تجاه الصدام مع الإسلام في كل مناسبة والاشتباك معه.

٣ - وقد أيد هذه المزاعم الخيالية وليم موير (ت ١٩٠٦) الذي مر بنا وهو أحد المستشرقين الإنجليز المتعصبين حيث ذهب إلى القول: «إن سيف محمد والقرآن، هما أكثر أعداء الحضارة والحرية».

٤ - ولم يتأخر جولدتسيهر (ت ١٩٢١) من ولوج هذا الميدان ويرتقي هذا المرتقى الصعب كأنما قد نذر كتابه لتشويه صورة الرسول ﷺ لاسيما وهو يأخذ موقفا عدائيا وينظر إليه أنه جنح إلى الأساطير وكون إسلاما منتخبا من كتب القدماء واليهود والنصارى، حتى الصلاة والصوم أخذها من أنبياء بني إسرائيل، أما الحج فمزيج من عادات العرب وتعاليم سيدنا إبراهيم، وعلى الجملة، فكتابه قصيدة هجائية هجومية عدائية أسوأ مما كتبته الأذرع الإعلامية المصرية في هجومها على الدكتور مرسي الرئيس الشرعي إبان فترة حكمه القصيرة[1].

---

(١) من الحقائق المؤسفة أن العسكر بعد عزل مبارك، بيتوا النية الإطاحة بأي رئيس مدني يأتي بالانتخاب مهما كانت هويته، فلما نجح د. مرسي، سلطوا عليه أجهزتهم الإعلامية والسرية والفنانين والناصريين والشيوعيين والعلمانيين=

الشاهد أنه يؤيد فكرة اتهام الرسول ﷺ باستخدام السيف ونبذ كلمة السلام والدعوة بالموعظة الحسنة. يقول: لا نستطيع أن نطبق في العصر المدني على عمل محمد المثل القائل: «الكلمة أولى من السيف»، فمنذ ترك مكة تغير الزمن، ولم يصبح واجبا بعد ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] أو دعوتهم ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، بل حان الوقت لتتخذ كلمته لهجة أخرى ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥] ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٤][1].

وفي فصل آخر خصصه لشرح موقف الإسلام من الزهد والتصوف، ينتهز كل كلمة للإساءة إلى الرسول ﷺ والمسلمين ويشير إلى أن القصد من الغزوات «الحصول على المغانم الكثيرة»، مع أن الرسول بدأ دعوته «باطراح العالم والزهد فيه»، وتحولت فكرة فتح العالم مكان فكرة الزهد «ثم يمضي يشرح بأن الحصول على غنائم» المدائن ودمشق والإسكندرية ألغت فكرة الزهد والتقشف، وأن أخبار الغنائم تصيب الإنسان بالذهول، ويضرب أمثلة بثراء الزبير وطلحة وخباب بن الأرت[2]، وخلاصة رأيه أن البواعث الغالبة التي دفعت العرب إلى الفتوحات، هي الحاجة المادية والطمع في ثروات تلك الشعوب، كما فصل في ذلك كيتاني[3].

=والبلطجية وعوام الناس وأهالي المناطق العشوائية، وسفلة القوم وكل أنجاس الأرض، وكل من ليس له ضمير أو أخلاق، وظلوا يحاربونه مدة عاما كاملا لتشويه صورته وهزيمته هزيمة نفسية وحض الجماهير على التمرد عليه، وبعد أن مهد العسكر الأرضية قاموا بانقلابهم، وهم يقودون مصر إلى الخراب الواسع. والانهيار الأخلاقي والدمار الحضاري، ويقوم العسكر بأكبر عملية غسيل مخ للجيل المعاصر، ويكفي أن تكون إسرائيل صديقة حيمة وحماس إرهابية. زد على ذلك إضاعة حق مصر في مياه النيل وفي غاز البحر المتوسط وبيع جزيرة تيران وصنافير إلى السعودية. وقتل أهالي سيناء وتفريغها من السكان وهي عبر التاريخ بوابة مصر الشرقية التي وقفت صامدة في مواجهة كل عدوان تعرضت إليه مصر المحروسة طوال تاريخها القديم والحديث، ومن لا يعرف يقرأ ما كتبه جمال حمدان عن بوابة مصر الشرقية .

(١) العقيدة والشريعة ص ٣٤ . ومن الجير بالذكر أنه يستشهد برأي كيتاني ويشيد بكتابه حوليات الإسلام.وأن بحوثه أدت إلى تصحيحات جوهرية في وجهات النظر التي كان مسلما بها قبله فيما يتعلق بتأثير النبي نفسه.

(٢) قمت بالرد على هذه القضية في كتابي المستشرقون وعلم الكلام .دار اليقين، ٢٠١٥

(٣) العقيدة والشريعة ص ١٣٤ : ١٣٨ . وقد عقب الشيخ الغزالي بقوله: «الأساس الذهني عند الرجل تجريح دين، واتهام امة، وهدم تاريخ» (دفاع عن العقيدة والشريعة ص ١٢٢).

٥- وعلى هذا الدرب المليء بالأشواك والعدوانية والمادية، وسوء الفهم وعدم تقدير حقيقة موقف المسلم يسير كياتاني (١٩٣٥) إذ يرى أن الروح التي دفعت جحافل العرب الغازية لم تكن روح تحمس وغيرة ترمي إلى نشر الإسلام، بل كان الأمر على العكس من ذلك، فإن البواعث الدينية لم تكن ترسخت في أبطال الجيوش العربية.ويعد توسع العرب هجرة جماعية نشيطة دفعها الجوع والحرمان، إلى أن تهجر صحاريها المجدبة، وتجتاح بلادا أكثر خصبا كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا[1].

٦- في سياق حديثه عن نشأة الفكر العربي وتطوره يتطرق أوليري (١٩٥٧) إلى قضية غزوات الرسول ﷺ وفتوحات المسلمين ويقسمها إلى قسمين، ويذهب إلى أن الغزوات والفتوحات التي تمت بين عامي (١٤: ٢١ هـ / ٦٣٥: ٦٤١)والتي استولى فيها المسلمون على سورية والعراق ومصر وفارس، فلاشك أنهم «يدينون للإسلام بحركتهم الموحدة التي جعلت هذه الفتوحات ممكنة». لأن هذه المرحلة كان فيها «المؤمنون الأولون أي الصحابة والمهتدون الأولون الذين قدموا الدين الإسلامي على كل شيء». أما الفتوحات التي تمت في المرحلة الأموية فإن العرب الذين دخلوا في الإسلام فكان «فتح البلاد الأجنبية يعني الاستيلاء على المقاطعات الواسعة ذات الثروة العظيمة والقوة اللامحدودة»[2].

٢ - نقض زعم انتشار الإسلام بالسيف

أ - ذكرنا سابقا أن المسلمين كلفوا بحمل رسالة الإسلام إلى الآفاق؛رسالة الإيمان والخير والمحبة والسلام، لذلك نفذوا الأمر الإلهي والتعاليم النبوية، وحملوا أرواحهم على أكفهم ، يملأ قلوبهم الإيمان وقوة الحق ولذة الاستشهاد والهجرة إلى الآخرة، والسفر إلى الجنة، والإحساس بالمعونة الإلهية تحدوهم وتمد لهم معونتها، فجوهر الفتوحات والكلمة الأولى هي نشر الإسلام وتأتي الغنائم بالعرض،

(١) نقلا عن الدعوة إلى الإسلام ص ٤٧

(٢) الفكر العربي ص ٥٣: ٦٠



فالقصد هو بسط مبادئ الإسلام في العالم وتأتي الفوائد بالتداعي، فالأصل هو الخروج بالإسلام من ضيق الجزيرة العربية وبشارة العالم بنداء السماء، والمكاسب التي تعود على المسلمين هي الفرع. إن الغنائم كانت نتيجة مترتبة على الفتوحات وليست السبب، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية:هنا ظاهرة لا تخفى على عقل المتابع للفتوحات الإسلامية؛وهي سرعة تشييد المساجد في كل دولة يحل بها المسلمون؛ بدءا من بناء الرسول ﷺ لمسجد قباء بمجرد وصوله إلى المدينة وانتهاء بسلسلة المساجد التي بناها الأمويون في الأندلس مرورا بمسجد عمرو بن العاص في مصر والأموي في دمشق وعقبة بن نافع في تونس وغيرها من المساجد في واسط والبصرة والكوفة وعمان والبحرين وبلاد فارس.ومن المعلوم أن المسجد يعد مركزا دينيا وعسكريا وملتقى لأولى الأمر والنهي، ويقوم بدور اجتماعي من خلال جمع الزكاة وتوزيعها وإيواء أبناء السبيل الذين يتنقلون في البلاد وحتى الدعاة للحركات الانفصالية كانوا يتخذون المسجد نقطة انطلاق، أضف إلى ذلك دوره التربوي التنويري. وهذه قضايا معلومة عن أهمية المسجد في الإسلام.

وهذا يعد ردا قويا ودليلا دامغا على من يتجاهل العامل الديني للفتوحات ويركز على العامل المادي.

ومن جهة ثالثة: إن المسلمين لم يبدءوا أحدا بالعدوان؛ولكنهم كانوا يردون العدوان ويرفعون الظلم عن كاهلهم، وحينما كانوا يلتقون بالعدو ولا مفر من المواجهة والصدام كانوا يخيرون حكام الدول وملوكها بين ثلاثة مطالب: الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو القتال والحرب، وقد قبلت بعض القبائل و الأمم الإسلام من أول مقابلة بين مبعوث الرسول ﷺ وملك الدولة كما حصل في عمان، وانحاز المقوقس بجانب صف المسلمين في مواجهة ظلم الدولة الرومانية وبطشها وعسفها.

ومن جهة رابعة : لا نستطيع أن نقسم الفتوحات إلى مراحل ونفرق بين من حارب مع الرسول ﷺ ومن حارب بعد ذلك فكلهم مسلمون والذي يعلم النيات وحقيقة القلوب هو الله، ولا شك أن وجود الرسول ﷺ في حد ذاته يمثل طاقة غير محدودة تشعل الحماس والتضحية.

وبعد جيل الصحابة لم يتأخر من تسلم الراية جيل التابعين وظهر منهم أبطال أشداء وقواد عظام ورجال مؤمنون بقضيتهم وكلنا نعلم موقف قتيبة بن مسلم الباهلي الذي اتجه شرقا، وكذلك طارق بن زياد الذي اتجه غربا حتى فتح الأندلس فكلهم مؤمنون تقاة نقاة يطلبون الشهادة وغرضهم الأول نشر الإسلام، أما غمزه للأمويين وهجومه عليهم فهذه قضية أخرى(١).

ومن جهة خامسة: هذه هي طبيعة الحروب أن يكون فيها منتصر ومهزوم وغالب ومغلوب، والمنتصر في كافة الحروب هو الذي يفوز بالغنائم والمزايا والفوائد، والمسلمين لم يكونوا نشازا في هذا السلوك. فلو تكلمنا علي هزيمة يونيو ١٩٦٧، هذه الهزيمة المنكرة التي لطخت وجه مصر بالسواد ووضعت أنفها في الرغام، - والتي أطلق عليها كهان السلطة وشيوخ التبرير اسم النكسة - حصلت منها إسرائيل على فوائد لا تعد ولا تحصى، وظلت تستنزف خيرات مصر المعدنية من سيناء طوال فترة الاحتلال حتى الانسحاب منها.

ب - في تيار الحياة المتلاطم لا تسلم أي فكرة من النقد والنقض والهدم، وإذا كنا وجدنا جمهرة من المستشرقين تحمسوا لفكرة السيف، وتشيعوا لها تحدوهم عوامل عقائدية وأهداف مشبوهة وسوء نية وتعصب ممقوت، فإنا واجدون جمهرة من المستشرقين لم يستسيغوا هذا الطرح وسخروا منه، وذهبوا مذهبا آخر يبرئ الإسلام ورجاله ومقرراته وحضارته من اتخاذ أسلوب العنف والقوة، وطرحوا أسبابا أخرى ومن هؤلاء المستشرقين توماس كارليل الذي يطرح رؤيته حيث يقول: قيل بأن محمدا نشر دينه بالسيف، فإذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه فشد ما أخطؤوا وجاروا، فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف، والسؤال: ما هو الذي أوجد السيف؟

هو قوة ذلك الدين وأنه حق. والرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في عقل رجل واحد فالذي يعتقده هو فرد، فإذا تناول هذا الفرد سيفا وقام في وجه العالم أجمع فقلما والله يضيع. وأرى أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال. أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا؟ وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسكون(٢).

---

(١) تناولت مناقشة موقف الأمويين في كتابي المستشرقون وعلم الكلام.

(٢) الأبطال ص ٧١. وقد كرر هنري دي كاستري الفكرة ذاتها وشرحه بالتفصيل فقال: إنا شاهدنا شارلمان يصحب=

الحقيقة هذه وجهة نظر لها وجاهتها وصدقها، فهذا المؤرخ يرى أن الإسلام مشروع حضاري كبير يحمل في باطنه صدقه وإنسانيته ويحاول انتشال الإنسانية من سقوطها، وهذا في ذاته يعطيه قوة الانتصار وسعة الانتشار وديمومة الوجود، ومادامت الفكرة صادقة ونبيلة وتعمل على نشر القيم الأخلاقية، وتعد من حقائق الحياة فلا مانع أن ننشرها بالخطابة أو بالنار أو بالسيف.وإذا كانت الفكرة ضعيفة ومتهافتة فسوف تذوى وتموت لأنها تحمل في باطنها بذور الفناء والعدم.

وهذه الفكرة تعد مصداقا لقوله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ج- من التناقض أن يقول سفاري هذا الكلام وفي الوقت نفسه يعلي من صفات الرسول ويقول عنه: «وهبته الطبيعة ذكاء حاداً وعقلا راجحا وذاكرة فائدة، وحديثه عذبا وطبعه عاديا وكان عادلا مع الجميع. وسواء أكان الشخص قريبا أو غريبا، قويا أو ضعيفا، لم يكن ذلك بقادر على أن يجعل ميزان العدل يميل بيده...كان كثيرا ما يجلس على الأرض ويوقد ناره بيده ويعد الطعام لضيوفه»[1].

فكيف تجمع شخصية إنسان ما بين الرحمة والعنف، والعفو والسيف، والعدل والظلم والسلام والحرب.

د - كما ذكرنا هذا القسيس يعيش في حيرة عميقة وبلبلة ليس لها قرار، مابين ما يراه من انتصار الإسلام وما يقرأه في كتب النصارى، لذلك نجد كلامه محشو بالتناقض وملئ بالخيال والمورثات الشيطانية، ففي حين قرأنا اتهامه الرسول بالسيف، يكتب يقول: كل ما حققه من نجاح قبل هجرته من مكة، راجعا إلى الإقناع لا إلى القوة، ويثبت قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] ثم يستطرد في بسط

=معه على الدوام في حروبه ركبا من القسس والرهبان، ليباشروا فتح الضمائر والقلوب، بعد أن يكون هو قد باشر فتح المدائن والأقاليم بجيوشه التي كان يصلى بها الأمم حربا تجعل الولدان شيباً.(الإسلام، خواطر وسوانح ص ٧٥)

(١) السيرة النبوية ص ٢٤٥. ويقول في خاتمة الكتاب: كان محمد رجلا من الرجال الأفذاذ الذين ولدوا بمواهب عظيمة ولا يظهر أمثاله على مسرح الحياة إلا في فترات متباعدة كي يغيروا وجه الدنيا ويربطوا الناس بخط سيرهم. (ص ٢٤٩)

رأيه: «كان محمد أبعد ما يكون عن السماح لأتباعه باللجوء إلى العنف، بل دفعهم لتحمل الأذى في سبيل دينهم، بل فضل أن يترك بلده، ويكون لاجئا في قرية بعيدة، مفضلا ذلك عن المقاومة»(١) وهذا إقرار بسماحة الرسول ﷺ وطيبة نفسه وحسن تعامله مع المشركين وغيرهم. هذه نقطة.

الثانية: كنا نود أن يعيش بوش الجد ليرى ما فعله بوش الحفيد في العراق والدمار الذي ألحقه ببغداد زهرة المدائن وحاضرة العالم الإسلامي، ويشاهد طائراته وصواريخه وجيوشه الجرارة التي جاء بها بزعم تدمير «أسلحة الدمار الشامل» وهو يعلم أنه كاذب وكذاب وكذوب، وكبير المنافقين، وقائد المجرمين ويحمل إرث التاريخ كله في كراهية الإسلام؛ فدمر العراق بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ومازالت الحرب والدمار والخراب يسود بلاد الرافدين أمة المجد وصاحبة الحضارات. ليته عاش وشاهد حتى يدرك من الذي استخدم السيف رسولنا الكريم أم أولاده وأحفاده وبني وطنه المجرمين؟!!

هـ - أما مزاعم وليم موير فهو لم يقرأ التاريخ الإسلامي قراءة متأنية ولو أخلى عقله من التراث الكاذب الذي تشبعه كأحد المنصرين النشطين في الهند، وطرح مقولات أسلافه من المستشرقين وطبق عناصر المنهج العلمي، ونظر بعين الإنصاف والموضوعية، لرأى ببصره وفهم ببصيرته أن الإسلام يحمل في طياته عوامل انتصاره وانتشاره، وإلا لم تتسع آفاقه وتمتد جذوره إلى الهند والصين شرقا، وإلى أفريقية غربا ويكتسح دول أوربة شمالا كل هذا بواسطة التجار والطرق الصوفية والدعاة المسالمين والتعامل الأخلاقي بين المسلمين وغيرهم من خلال الاختلاط والتزاوج وحسن التعامل. ونؤكد الفكرة السابقة بشهادة أحد الغربيين المنصفين يقول: «أسهم التجار المسلمون إسهاما رائدا في نشر الدين الجديد في آسية وأفريقية وأضحى هؤلاء التجار سفراء لنظام اجتماعي جديد وبفضل جهودهم اتسع نطاق الإسلام حتى وصل إلى نيجيريا في غرب أفريقية وإلى الصين في أقصى آسية ووصل عبر البحار إلى الهند وزنجبار ومدغشقر»(٢).

---

(١) حياة محمد ص ١١٠ (نقلا عن كتاب الرد على بوش ص ١٢٣: ١٢٥).

(٢) كالسون: الإسلام وأوربة ص ١٩.

في حين أنفقت الهيئات العالمية التي قامت بحركة التنصير الملايين، وكان هو أحد سواعد «البعثة التنصيرية» العاملة في مدينة أكرا بشمال الهند مع جوتيليب بفاندر صاحب كتاب «ميزان الحق» ومع ذلك فشلت في نشر النصرانية هذا من جهة(١).

ومن جهة أخرى نطالبه أن يقرأ تاريخ بلاده وما فعله الاستعمار البريطاني، بسيفه البتار، الذي احتل نصف دول العالم وسامهم الذل والقهر والهوان وقتل الآلاف، واستنزف ثرواتها، ومازالت آثاره بادية للعيان وحاضرة في ذاكرة الأمم؛ الهند ومصر والسودان والعراق وفلسطين نماذج بشعة لفعل السيف البريطاني في رقاب الأمم المسالمة، وصورة من صور الاستعلاء العنصري على بقية الشعوب وحجة «مسؤولية الرجل الأبيض». ونقول له اقرأ نصيحة المسيح جيدا: «يا مرائي لماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك، وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها» والحمد لله حتى هذا القذى الصغير غير موجود في عيوننا.

ويقارن ليندون هاريس أحد المنصرين الكبار في إفريقية بين الاستعمار البرتغالي في شرق إفريقية والوجود العربي فيقول: إن البرتغاليين قضوا نحو مائتي سنة لم يتركوا بعدها أثرا من آثار الحضارة النافعة، ولم يعقبوا بعدهم غير ذكرى الخراب الذي حل على أيديهم، ولم يزالوا يخربون وينهبون حتى استغاث السواحليون بالإمام سعيد صاحب عمان، وهو والد سعيد الأول. أول سلطان تولى من هذه الأسرة حكم زنجبار. أما العرب فإنهم نقلوا إليها الكتابة والعمارة وأدوات الحضارة وطبعوها بطابعهم في كثير من أحوال المعيشة(٢).

يقول دوزي وهو يصور وضعية النصارى داخل الدولة الإسلامية في الأندلس:

تركت لهم حرية ممارسة شعائرهم وتولوا أرفع المناصب وراحوا يقلدون العرب في كل شيء، كما انبهروا بالأدب العربي وذوقه الرفيع وصاروا يكتبون بلغة الفاتحين، و نبذوا اللغة

---

(١) يذكر دي كاستري أن المنصرين نجحوا في تنصير الوثنيين، لكنهم فشلوا في أن يزحزحوا المسلم عن تمسكه بدينه. أو يقللوا من إيمانه المتين أن الإسلام مجده الأعلى. (الإسلام ص ١٥٢).

(٢) ما يقال عن الإسلام، ص ٧٩. من أسباب فشل المنصرين في الدعوة إلى المسيحية في إفريقية، أن الأفارقة السود يقرنون بين مظالم المستعمر الأوربي الأبيض و كل دعوة دينية يقوم بها المنصرون البيض.(ص ٢٠١) أضف إلى ذلك غموض العقيدة المسيحية المملوءة بالأسرار والأفكار التي لا يتقبلها العقل مثل التجسد والتثليث والفداء والصلب.

اللاتينية وآدابها. ليس هذا فحسب بل أصبحوا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم، وطرحوا وراء ظهورهم الكتب المسيحية وسخروا منها(١).

في حين من يقرأ كتاب برتولمي لاس كازاس الراهب الإسباني الذي ذهب إلى أمريكا الجديدة بعد أن هبط فيها الأسبان، والأفعال الفظيعة من الاغتصاب للنساء والصبية والقتل والصلب والحرق وتمزيق الأوصال والآذان والأنوف ودفنهم أحياء، وسرقة أموال الهنود ونهب ملايين الجرامات من الذهب، يدرك أن هؤلاء لا ينتمون إلى مفهوم الإنسان وأن الوحوش أرحم منهم لأن الحيوانات لا تأكل إلا عند الجوع. أما هؤلاء السفاحون فهم مرضى بالسادية يتلذذون بمشاهدة الكلاب وهي تمزق أعضاء الأطفال ليس هذا فحسب بل ذكر «كازاس» أن هؤلاء الطغاة كانوا يأكلون أعضاء الأطفال بعد أن يضرمون فيها النار ويضعونهم على السفود، ولم تكن هذه الأفعال الشنيعة عملا فرديا شاذا بل سياسة منهجية ونظرية إستراتيجية لكل القواد الهمجيين الذين حطوا بسفنهم على شاطئ كوبا وجواتيمالا ونيكارجوا وممالك ما يسمى بأسبانيا الجديدة، وفلوريدا وبيرو، وباقي ولايات ومقاطعات أمريكا الجديدة آنذاك(٢).

وقد طفحت كتب المؤرخين بالمآسي والمجازر التي قام بها النصارى حينما دخلت جيوشهم القدس. يقول لوبون: «كان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها من بضعة قرون»(٣).

وقبل أن يفسر هنري دي كاستري سرعة الفتوحات الإسلامية، يرد على من يقول بأن سر تقدم الإسلام غضب من الله على النصارى(٤)، فأراد أن يعاقبهم على زيغهم، وأن

---

(١) تاريخ مسلمي الأندلس ج١ / ٨٥. يقول: «عمل الفتح على تحسين حال الطبقات الدنيا، وكان الإسلام أميل من النصرانية لتحرير العبيد الذين يئسوا من تحريرهم على أيدي القسس أيام الحكم القوطي» (ج١ / ٤٩).

(٢) كازاس: المسيحية والسيف، وقد وصف هذا الراهب في كتابه أبشع أنواع القتل وسفك الدماء، ويستنكر أفعال القواد والرهبان الذين نسوا رسالة المسيح في المحبة والتسامح وراحوا يسارعون في الحصول على نصيبهم من الغنائم وفي مقدمتها الذهب، والكتاب يعد وثيقة تعري هؤلاء القوم من أبسط قواعد الأخلاق، ووخز الضمير ومعاني الإنسانية، وتؤكد أنهم لم يسعوا أبدا لتنصير القارة الجديدة، ولكن همهم الأول هو الحصول على الأموال والعبيد واللؤلؤ والذهب.

(٣) حضارة العرب ص ٣٢٦.

(٤) أشارت كارين أرمسترونج إلى الفكرة نفسها فقالت: حينما امتدت الفتوحات الإسلامية بسرعة إلى معظم بقاع=

الجيوش الإسلامية كانت الآلة التي أراد الله أن ينتقم منهم بواسطتها؛ فيقول: إن الفتح الإسلامي وتفرق الكنائس في آسية وأفريقية حادثتان متلازمتان، فلا لوم على المؤرخين في الجمع بينهما، ولكن الخطأ هو تعليقهم الثانية على الأولى، مع أنه لا يوجد بينهما تفاعل من بعض الوجوه، فكما أن الفتح الإسلامي حَمَل النصارى على ترك دينهم، كذلك تفرق ذات بينهم سهل الفتح للمسلمين. ثم يقدم تعليلا مقبولا للفتوحات ورضوخ الأمم لسلطانه ويرجع ذلك إلى استبداد القسطنطينية الذي بلغ منتهى العسف، إذ وصل جور الحكام إلى درجة أزهقت النفوس. ويخلص إلى القول بأن السيف لم يكره أحد على الدخول في الإسلام، بل دخل القلوب عن شوق واختيار، وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير، والأخذ بالألباب. ويبرهن على ذلك بأن الإسلام انتشر في أفريقية بمجرد الاختلاط والمعاشرة وحب التقليد دون أدنى إكراه ولا تعيين رسل أو مبشرين؛ إذ بمجرد أن يشتري الوثني خرقة من القطن من أحد خواصه ويستر بها عورته، يأخذ في تقليد البائع في الصلاة كالقردة، ويتعسر بيان اللحظة التي يسير فيها مسلحا حقيقيا، لأن إسلامه يأتيه تدريجيا[1].

ثم يشير إلى حجة قوية دامغة، إذ يقول: لو كان دين محمد انتشر بالعنف والإجبار، للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين.مع إننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع أرجاء المسكونة[2].

هذا دليل صادق وبرهان قاطع ومعيار صدقه الواقع المعيش، ولا جرم أن يسقط دعاوي المستشرقين ويأتي عليها من القواعد، فإذا كانوا يزعمون أن الإسلام انتشر بالعنف والإكراه، فقد توقفت الفتوحات منذ قرون، والاستقراء التاريخي يؤكد أن الإسلام يسري بين القبائل في أفريقيا وآسيا سريان الماء في الكثبان الرملية، وإشراق أشعة الشمس على

=العالم المسيحي، تساءل الغربيون إذا ما كان الله قد تخلى عن المسيحيين وأبدى رضاه عن الكفار.؟(سيرة النبي محمد، ص ١٨)

(١) الإسلام خواطر وسوانح ص ٧١: ٧٥، ص ١٤٤. من المعلوم أن التجار وأصحاب الطرق الصوفية يجذبون الأفارقة إلى الدخول في الإسلام تدريجيا فيطلب منه إعلان الشهادة، ثم يطلب منه أداء صلاتين فقط في اليوم ثم ثلاثة حتى يتعود عليها وكذلك في تحريم الخمر يطلب منه عدم شرب الخمر قبل الصلاة، ثم يمنعه عن شربها بين الصلاتين وهكذا حتى يقلع عنها نهائيا.، وكذلك في علاقاته النسائية حتى يتشرب قواعد الإسلام خطوة بعد أخرى.

(٢) الإسلام؛ خواطر وسوانح، ص ١٣١

الكون، ليس هذا فحسب بل أصبح يجتاح قارة أوربة وأمريكا، ويعتنقه المئات يوميا، وهذا كله بفضل قوته الذاتية، ومنظومته العقائدية والتعبدية الواضحة المقنعة التي تتسق مع معطيات العقل الصحيح، وتستجيب للفطرة النقية والذوق السليم.

٣- التأييد الإلهي سر انتشار الانتشار الإسلام

فكر بعض المستشرقين وتأملوا في مسألة سرعة انتشار الإسلام بهذه السرعة الفائقة وانتصاراته العظيمة التي حققها في زمن قياسي، وتحيروا أيما حيرة حينما ينظرون إلى القضية من جانبها المادي وأسبابها الدنيوية، وظلوا يعرضون الأمر على محك العقل ومنطق الواقع وتحليل الأسباب من خلال التحليل المادي للتاريخ، إلا أن بعض من هؤلاء أزاح كل هذا جانبا، ونحى كل ما يتعلق بالأسباب المادية واستطاع ببصيرته النافذة وذكائه اللماح أن يدرك أن هناك «سرا من الأسرار الإلهية» وأن هناك شيئا غيبيا في القضية، ومن المؤكد أن العون الإلهي كان مع رسول الإسلام ورجاله، وأن هذه الانتصارات المذهلة لا يمكن تقديم لها تفسير مقبول في العقل دون استبعاد العناية الإلهية التي عاونت المسلمين وأخذت بأيديهم في سكونهم وحركتهم، وفي كافة حروبهم وسددت رميهم وثبتت خطاهم وباركت مسعاهم وألهمتهم دائما اتخاذ القرار الصائب في الوقت المناسب.

والعجيب أن نجدا قسيسا متعصبا جدا، وكارها للرسول ﷺ وحاقدا على الإسلام، هو جورج بوش الجد من أوائل من يذهب هذا المذهب ويطرح التفسير الديني الغيبي ويقرر أن المعونة الإلهية هي التي ساعدت المسلمين وأن الله هو الذي سدد خطى هؤلاء الناس وجلب لهم النصر يقول: في غياب أسباب بشرية كافية لتفسير هذه الظاهرة (أي انتشار الإسلام) لا بد أن نعترف بأن الله أراد هذا، أو بتعبير آخر لا بد أن نعترف بأن الله تدخل ليتم هذا الأمر، فالعقل والوحي كلاهما يُعلمانا أن نعترف بأن تحرك الأحداث لعقاب المذنبين، بصرف النظر عن القائمين على هذه الأحداث الذين لم يتحركوا إلا بأمر الله[١].

ويبدو أن القضية كانت تشغل ذهنه ومسيطرة على عقله، ويفكر فيها دائما وتصيبه بالحيرة والدهشة، ويحاول أن يجد لها تفسيرا مقبولا وبعد تفكير عميق وجهد مبذول لا ينفك

---

(١) حياة محمد ص ٤٩ (نقلا عن كتاب حامد علي: الرد على كتاب جورج بوش ص ٥٩)

يعود إلى التفسير الديني ويؤكد وجود عناية إلهية تحرس المسلمين وتدفع عنهم الشر وتحقق آمالهم في النصر دائما يقول في موضع آخر: «إن النجاح الملحوظ الذي حققته القوة الإسلامية يرجع مباشرة إلى رعاية الله له (أي للإسلام) فالنتائج التي حققها الإسلام فوق مستوى الفهم إذا قسناها بالأسباب البشرية المعتادة - فيد الله واضحة في كل مرحلة من مراحل تقدم الإسلام»(١).

وهذا ما ذهب إليه مستشرق آخر حينما رأى أن التفسير المادي للأحداث، لا يقدم جوابا شافيا ولا مقبولا فقرر قضية العون الإلهي يقول كاستري: «أن في انتشار الإسلام سراً من الأسرار الربانية، إذ إن الإسلام خرج من ذرية إسماعيل، وهذا ما بشر به أبو المؤمنين إبراهيم في التوراة»(٢).

نعم إن هناك سرا من أسرار المشيئة الإلهية والتوفيق الإلهي، لا نستطيع أن نصل إلى كنهه وندرك حقيقته، فالعناية الإلهية تحدو الإسلام وترعاه، وتحمل مبادئه إلى عقول البشر، وتفتح قلوبهم وضمائرهم فيستجيبوا لأنواره مباشرة، ويقتنعوا بأوامره ونواهيه، ومبادئه الأخلاقية. ومن توارد الخواطر أن هذه الفكرة أشار إليها توماس أرنولد حيث يقول: إن الشعوب المسيحية التي أصبحت تحت حكم المسلمين، رأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا والتوفيق الإلهي، وأن إله الحرب (كما زعموا) لم يجعل النصر إلا في أيدي عباده المختارين(٣).

وهذا أيضا ما حير مراد هوفمان المفكر المسلم فبعد عناء التفكير وتقليب الأمر على وجوهه والبحث عن السر الكامن وراء انتصارات الرسول ﷺ والمسلمين، وصل إلى فكرة محددة مقبولة في العقل مريحة للضمير وهي أن الله يقف في صف المسلمين ويؤيدهم بعونه ونصره يقول: «إذا نظرنا إلى النجاح الذي حققه محمد في السياسة والعسكرية والتجارة، وحكمته كقاض ومحكم، وقدرته الخطابية وبلاغته، فإن المرء سرعان ما يجد نفسه عاجزا عن

---

(١) بوش: حياة محمد ص ١٩٠ (نقلا عن حامد علي: الرد على كتاب جورج بوش ص ٥٩)

(٢) الإسلام، خواطر وسوانح ص ١٤٧

(٣) الدعوة إلى الإسلام ص ٧٧

تفسير كيف تسنى لهذا العربي المحروم من التعليم، الأمي، الذي ينتمي إلى مجتمع متخلف أن يتمتع بكل هذه الصفات؟ هناك شيء غريب في الأمر، هناك شيء إلهي في هذا الأمر(١).

أضف إلى كل ما سبق إن الظاهر لنا في أسباب انتصار الإسلام أنه نصير الحق وداعية من دعاة العدل والإنصاف ويحمل في أوامره كرائم الأخلاق ومسرات النفس وسعادة الإنسان وعظمة الخلق، وقيم الخير والمحبة والتعاطف الوجداني واندحار الشر التي حلم بها الفلاسفة والشعراء عبر العصور، ، ويتفق مع خفايا الفطرة الإنسانية.

وهذا ما ذهب إليه آدم متز (١٨٦٩ . ١٩١٧)(٢) وبرهن على صحته، و لا جرم أن نقول إن كتابه جاء إنصافا وتقديرا للحضارة الإسلامية وتقديرا لمكانتها بين الحضارات ودورها في الإعلاء من شان القيم الأخلاقية والإنسانية، وقد بسط القول عن وضعية اليهود والنصارى المميزة وتمتعهم بكافة المميزات التي أتاحها الإسلام لهم، وتسامح المسلمون معهم، فكانت لهم الحرية الكاملة في إقامة شعائرهم واحتفالاتهم الدينية التي كان يحضرها بعض الخلفاء واختلاطهم بالمسلمين، ومشاركتهم في الأفراح وحضور جنازاتهم، وأتاحت لهم التشريعات الإسلامية الوصول إلى منصب الوزارة، وفتح أبواب العمل التي درّ عليهم الأرباح فعمل اليهود في الصيرفه ، والنصارى في الطب، وازدهرت أديرتهم وانتشرت، ونظرا لهذه المعاملة الطيبة، كان الخلفاء يتدخلون لفض المنازعات بين فرقهم، زد على ذلك أن كثيرا منهم اعتنق الإسلام عن رضا وطواعية(٣) ليس هذا فحسب بل تتمثل أصالة النظام الإسلامي في تفوقه على اليهودية والمسيحية وفي تقبّله الديانات التوحيدية، ثم يتجاوزها في الوقت نفسه ويؤكد على الوحدة الجوهرية للأديان السماوية(٤).

بعد أن عرض توماس أرنولد (١٨٤٦- ١٩٣٠) وجهة نظر بعض المستشرقين الذين

---

(١) يوميات مسلم ص ١٣١

(٢) مستشرق ألماني، اهتم بدراسة الأدب العربي في القرن الرابع، واشتهر بكتابه الحضارة الإسلامية، ترجمته في موسوعة المستشرقين ص ٥٤٤

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ج١ / ٧٥: ٩٥

(٤) بوازار: إنسانية الإنسان ص ١٨٣

يقررون أن الإسلام انتشر بالسيف، وسفهها ورد عليهم يقول: «يمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملا حاسما في تحويل الناس إلى الإسلام.فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية» ثم يستطرد في صفحات أخرى يقول: إذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد إلى المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي؛ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق. (١)

إن الاستقراء العلمي لحركة انتشار الإسلام في أصقاع المعمورة يدرك أن "هذه الشعوب هي التي شاءت الدخول في الإسلام ليفيدوا من المزايا المادية والاجتماعية التي تمتع بها المسلمون ودون أي إجبار علي انتحال الدين الجديد، حتى اختفي معتنقو المسيحية اختفاء الجليد تحت أشعة الشمس الدافئة علي حد تعبير سيجريد هونكة(٢).

يقول إسرائيل ولفنسون (١٨٩٩ ١٩٨٠)(٣) عن الدولة الرومانية: إنها «ملأت تاريخها بحوادث الظلم والعسف وإهراق الدماء مدة طويلة من الزمان، وقد كان اليهود في أغلب مدن العراق يخرجون لاستقبال جيوش المسلمين بالحفاة والإكرام لأنهم كانوا يؤثرونهم على غيرهم إذ يرون فيهم قوماً يؤمنون بإله موسى وإبراهيم.... ثم يتابع كلامه : أنقذ الفاتحون المسلمون آلافا من اليهود كانوا منتشرين في أقاليم الدولة الرومانية، وكانوا يقاسون ألواناً شتى من العذاب»(٤).

---

(١). الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٨، ٨٨، ١٥٧. الحقيقة أن الكتاب كله يعد من أقوى الشواهد على التسامح الإسلامي، والمعاملة الطيبة لأهل الكتاب سواء الذي دخلوا الإسلام أم من بقوا على نصرانيتهم، علاوة على ذلك يستعرض الكتاب مئات من الحالات التي اعتنقت الإسلام زرافات ووحدانا لاسيما من القساوسة الذين التحقوا بالإسلام عن رغبة أكيدة، أو طمعا في مكسب مادي أو عدم الاقتناع بالعقيدة النصرانية أو نكاية في الكنيسة أو هربا من سقطة أخلاقية .

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٦٥.

(٣) راجع عنه كتابي: المستشرقون في مصر، دار اليقين، القاهرة.٢٠١٣. والاستشراق اليهودي، دار اليقين، القاهرة.٢٠١١.

(٤) تاريخ اليهود في بلاد العرب. من المقدمة ص ي.

وتعلل كارين أمسترونج سر الوصمة التي ألحقها مؤرخو النصرانية بالإسلام باعتباره دين السيف، بأن المسيحيين «أحسوا بقلق دفين إزاء الصورة العدوانية التي اتخذتها عقيدتهم، وهي صورة لا علاقة لها برسالة الدعوة إلى السلم التي جاء بها المسيح»(١).

ثم تضيف: يسود العالم المسيحي صورة عيسى المصلوب، الذي قال إن مملكته ليست في هذا العالم، وهكذا لقب الإسلام بدين السيف وعقيدة تخلت عن الروحانية الحقة وكرست للعنف وعدم التسامح، وقد طاردت تلك الصورة الإسلام في الغرب المسيحي منذ العصور الوسطى، على الرغم من أن المسيحيين كانوا يشنون حروبهم المقدسة الخاصة في الشرق خصوصا في الشرق الأوسط في ذلك الوقت(٢).

وبصدد موقف الإسلام من اليهود تقول: في ظل الإمبراطورية الإسلامية تمتع اليهود مثلهم مثل المسيحيين بُحرية دينية كاملة ، وعاش اليهود في المنطقة بسلام حتى إقامة دولة إسرائيل(٣)

هذه حقيقة لا تحتاج إلى برهان فقد تمتع المسيحيون واليهود في الحضارة الإسلامية بكافة المميزات التي يتمتع بها المسلم وعملوا بكافة المهن والصناعات وشاركوا في النهضة التعليمية والفكرية وتأليف الكتب وترجمتها، وتولوا وظائف رفيعة في قمة رئاسة الدولة وكان منهم الوزراء والعلماء والأطباء وتجار الذهب والفضة، ولم يضطهدوا إلا في حالات تدهور الدولة وضعف سيطرتها ورخاوة يدها، فكان الاضطهاد يشمل كافة الطبقات بما فيهم المسلمون، والتاريخ الإسلامي شاهد على ذلك. وهذا ما وقع في العصر الفاطمي وبخاصة في عهد الحاكم بأمر الله في مصر وكان رجلا مريضا.

ويحاول بوازار تقديم تفسيراً علميا لسرعة التوسع الإسلامي، وتحليله كأي ظاهرة تاريخية فيقول: إن حدة الإيمان وحماسة المحاربين أسهما بطريقة مباشرة في انتصاراتهم العسكرية، وجعل شعوب البلاد المفتوحة تعتنق الإسلام فيما بعد. ولا صلة مباشرة بين

---

(١) سيرة النبي محمد ص ٤١

(٢) سيرة النبي ص ٢٤٧

(٣) سيرة النبي ٣٠٩

العقيدة الدينية والعدوانية والعنف اللذين أظهرتهما الجيوش الإسلامية أحيانا. وفي وسع المرء أن يحكم على صفاء روح الإسلام إذا نظر إلى الطريقة التي عامل بها النبي وخلفاؤه السكان المدنيين الذين خضعوا لسلطتهم في الأراضي المفتوحة، ثم يواصل حديثه: إذا كانت الهيمنة السياسية للإمبراطورية الإسلامية قد انبسطت عن طريق السلاح بصورة خاصة، فإن الدين الإسلامي قد ذاع وشاع بشكل أساسي بالطرق السلمية[١].

وإذ عدنا إلى علماء الإسلام نستكشف موقفهم نقابل شكيب أرسلان (ت ١٩٤٦) أمير البيان وهو يؤكد الأفكار السابقة ويرجع انتشار الإسلام إلى مضمون دعوته الأخلاقية وحقيقة أبعاده الإنسانية فيقول: إن الإسلام لم ينتشر إلا بالقرآن وعمارة الصدور به إلى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التي مكنتهم من نواصي الأمم، وهذه القوة المعنوية هي الأصل وبدونها لا تنهض الأمم، وما القوة المادية إلا تبع لها وهي بالنسبة لها كالبدن بالنسبة إلى الروح. ثم يستطرد في شرح فكرة أخرى جديرة بالتأمل والنظر فيقول: كان العرب أهل حرب من قديم الزمان، وكان الأعراب مغرمين بالنهب والكسب من أيام الجاهلية، فلماذا لم يفتحوا البلدان إلا بعد بعثة محمد؟[٢].

ويقارن مراد هوفمان السفير الألماني المسلم بين موقف الدولة العثمانية التي سمحت بإقامة الشعائر المسيحية للمناطق التي استولت عليها ليس هذا فحسب بل وسمحوا ببناء المزيد من الكنائس، في حين أن الأسبان قاموا بتدمير كل المساجد من مالقا حتى غرناطة، ومن إشبيلية حتى طليطلة بطريقة وحشية، وكان من العبث البحث عن المساجد التي شيدها العثمانيون في الصرب واليونان أو في بلجراد التي طالتها يد التخريب من الأوربيين[٣].

ونختم هذه الردود بهذه الإشعاعات الربانية، وقوة الثقة في ديننا، وفهم عميق لرسالة الإسلام ودوره في انتشال الحضارة المعاصرة من الارتكاسة التي سقطت فيها وتغوص في أوحالها كل يوم بهذه العبارات القوية المفعمة بالإيمان العميق لهذا الرجل الرباني العالم العامل يجب ألا تفزعنا حملات المستشرقين على مبدأ «الجهاد» وألا يثقل على عاتقنا ضغط الواقع وثقله في ميزان القوى العالمية، فنروح نبحث للجهاد الإسلامي عن مبررات أدبية خارجة

---

(١) إنسانية الإسلام ص ٢٥٣ (٢) حاضر العالم الإسلامي ج١ / ٢٨

(٣) يوميات مسلم ص ٤٠

عن طبيعة هذا الدين في ملابسات دفاعية وقتية ، كان الجهاد سينطلق في طريقه سواء وجدت أم لم توجد[١].

نعم هذه هي دورة الكون وجدلية الحياة وحقيقة الصراع بين الخير والشر الذي لن يتوقف وهذا التدافع العظيم لن ينتهي إلا لكي يبدأ ثانية في دورة وجودية؛ ولاشك أن انتصار الإسلام في هذه المرحلة المبكرة وانتشاره في أنحاء الكرة الأرضية، ونجاح الرسول ﷺ قد أثبت ما قاله القرآن من أن المجتمعات التي ترفض ذلك النظام الإلهي لا بد هالكة، لكن الصراع لم ينته ، إذ إن التحدي من أجل تحقيق المشيئة الإلهية في التاريخ الإنساني لن ينته أبدا.فهناك بالضرورة أخطار ومشكلات لا بد من التغلب عليها، وأحيانا يصبح لزاما على المسلمين أن يقاتلوا، وفي أحيان أخرى يكون في مقدورهم العيش في سلام[٢].

خلاصة القول: «إن الإسلام حارب بالفعل، وهي أشرف حرب خاضها الناس منذ سفك دم على ظهر البسيطة، وما كان له إلا أن يقاتل قاتليه، ويجاهد ظالميه! وذلك ما غاظ المستشرقين الذين كان يسرهم أن يشهدوا مصرع محمد وصحبه وانتهاء رسالته»[٣].

رابعا: الإسلام بين المحلية والعالمية

أشرنا سابقا إلى أن الرسالة التي جاء بها الرسول ﷺ للناس كافة أبيضهم وأسودهم وأصفرهم وأنه مبعوث للعالمين وليس لأمة العرب دون بقية البشرية، بل كل من يدب على الكرة الأرضية ويصله نداء (لا إله إلا الله محمدا رسول الله)؛ وقد نهض الرسول ﷺ بهذه المهمة التي تنوء بحملها الجبال، بنشاط واضح وهمة عالية وجهد خارق وسياسة حكيمة، ولم يدخر وسعا في تنفيذ الأمر الإلهي ، وبعد أن استقرت له الأمور في المدينة وانتصاراته على المشركين والمنافقين ومن عاونهم من اليهود؛ بعث رسله إلى ملك عمان والبحرين واليمن، وبلاد فارس والروم والمقوقس حاكم مصر، وملك الحبشة وهذا دليلا حيا وشاهدا ماديا أن رسالته لم تكن قاصرة على الجزيرة العربية، ولم تكن موجهه لقريش أو للعرب فقط، وإلا كيف نفسر رسائله إلى حكام الدول المحيطة بالعرب؟ والسرايا التي وجهها إلى تخوم الروم. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى؛ استطاع الرسول ﷺ إقامة قواعد المجتمع الإسلامي العالمي «وهو

---

(١) معالم في الطريق ص ٥٦. (٢) سيرة النبي ص ٣٧٣ .

(٣) محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ص ٤٧

المجتمع الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الأساسية، والذي تعد العقيدة فيه هي الجنسية التي تجمع بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، والعربي والرومي والفارسي والحبشي وسائر أجناس الأرض في أمة واحدة، ربها الله وعبوديتها له وحده، والأكرم فيها هو الأتقى، والكل فيها أنداد يلتقون على أمر شرعه الله لهم ولم يشرعه أحد من العباد»(١).

وهذا واقع ملموس مارسته الحضارة الإسلامية بشقيها الروحي والمادي عصورا متطاولة، ولما كانت من أولى سمات الرسالة أنها للبشرية جمعاء، لذلك ضمت تحت ظلالها أجناسا متباينة من أمم شتى، مختلفة في عقيدتها ولغاتها ومنهجها وموازينها وتصوراتها و في عاداتها وتقاليدها، متباعدة في المكان، متنازعة في الآمال والأهداف، ولكن الإسلام صهرها صهرا كاملا في تعاليمه ومقرراته، ومزجها مزجا كيماويا فتفاعلت كل العناصر وصارت عنصرا إيمانيا فريدا، ليس هذا فحسب بل أصبحت نسيجا متفرداً، ومجتمعا موحدا، وأمة واحدة صلبة في مواجهة الأعداء تعبد ربا واحدا وتهتف بنداء واحد مشترك يتردد صداه في مسامع الكون وأرجاء الأرض (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وتتجه إلى قبلة واحدة، وتقرأ في القرآن المنزل على قلب محمد، وقد تعهد الله بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] ويبشر بالنصر القادم لا محالة، وحتمية انتشاره في أركان المعمورة وآفاق الكون ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩]

هذه الوقائع التاريخية، والتراث الفكري الذي خلفته وتركته تراثا ثريا للإنسانية وكنزا معرفيا مباحا للجميع، اشترك في إنتاجه وإبداعه علماء أجلاء و فقهاء موسوعيين ومفكرين أتقياء وفلاسفة حكماء وأدباء وشعراء ورجال تصوف أنقياء وأطباء جهابذة وفلكيون ورياضيون، منهم البخاري والسمرقندي والفارسي والشامي والعراقي والمصري والمغربي، تجمعهم آصرة قوية ورابطة تضمهم هي جنسيتهم الإسلام.فهم جميعا أخوة تحت شجرة الإسلام وارفة الظلال، متساوون في الحقوق والواجبات وهم جميعا سواء أمام الله، والتميز والتفضل لا يرجع إلى النسب أو العصبية أو اللون أو الوجاهة الاجتماعية؛إنما يرجع إلى ما يقدمه الإنسان من خير وفضل وعمل وابتكار إلى الآخرين، وخدمات لمجتمعه من منطلق

(١) معالم في الطريق ص ١٢٠

العبودية لله؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

والتقوى كلمة جامعة شاملة تعبر عن كل عمل ينهض بالأسرة والمجتمع والأمة، وكل حركة وسكنه موجهة للارتقاء بيوم الإنسان وغده هي عبودية خالصة لله. وكل اختراع يقدمه الإنسان لرقي المجتمع الإنساني، وموجه للبشر كافة، وكل كلمة طيبة يوجهها للآخرين عبادة، وإماطة الأذى عن الطريق تعبير حي عن الإيمان الصادق. «إن كل علم تسمو به الإنسانية، وكل عمل تزكو به هو من صميم الدين، ترجح به الموازين، وترتفع به الدرجات في الدنيا والآخرة»[1].

وهذا ما جعل العرب وغير العرب يسارعون الالتحاق بركب المسيرة الإسلامية ويدخلون في دين الله أفواجاً. إن «قدرة الله المطلقة ومفارقته الخارقة، تحرران الإنسان من الإنسان، وتؤلفان أساس فكرة المساواة التامة بين جميع الأفراد، وهي أخص ما قدمه الدين الإسلامي إلى الحضارة العالمية»[2].

يقول أحد المفكرين تتجلى عالمية الإسلام في الأسس والمبادئ التي جاء بها للإنسانية: ماذا وعد المرأة والرجل والطفل؟ وما النظام الذي أقامه لمواجهة الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية وكيف حل مشكلات البشرية؟ وقاوم الرذائل التي كانت مستشرية في المجتمع؟ وبم أوصى لتحقيق التوازن الدولي؟... إن الإسلام دين عالمي برسائله التي حملها، وفعالياته في كل ساحة تمس حياتنا[3]. وأنه يمثل قمة الفكر الإنساني والنقاء الروحي، والإنجاز الأخلاقي للإنسان. فيما يقول مراد هوفمان[4].

ومن جهة ثالثة، كانت خاتمة النداءات من السماء إلى الأرض، وآخر اتصال سماوي بين

---

(١) محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، نهضة مصر، ٢٠٠٥، ص ٤٣٧ .

(٢) بوازار :إنسانية الإسلام ص ١٣٩ .

(٣) فتحي كولن: الموشور، دار النيل، القاهرة، ٢٠١٥، ص ١٠٦ . ويقول أحد المفكرين الهنود: إني أعتقد كما يعتقد كل المفكرين أن الإسلام هو العقيدة الديمقراطية الوحيدة التي لا تزال فعالة وباقية في عالمنا إلي اليوم (عبد الجليل شلبي: هل انتشر الإسلام بالسيف، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٩ .

(٤) يوميات مسلم ص ١٧٧.

الله ومن يختاره من الرسل، ونهاية البشارات الإلهية من الله إلى عباده المخلصين لأنها الرسالة العالمية الخاتمة التي يسترشد بها الإنسان في أمور حياته الخاصة والعامة وميادينها المتشابكة والمعقدة، أصبح في متناول يده؛ نص ديني مقدس، واضح المفاهيم دون تعقيد أو غموض، سليم اللغة محكم الأسلوب سهل الفهم والتناول، علمي المنهج ، أفكاره مقبولة من الناحية العقلية ومتسقة مع الفطرة الإنسانية، وطرحه موافق للاستدلال المنطقي، كذلك يمتلك الإنسان عقل جسور قادر على الفهم والتحليل والاستنباط، أي أننا أصبحنا أمام مصدرين للمعرفة اليقينية؛ النقل والعقل.

أضف إلى ما سبق هناك الدليل النقلي المأخوذ من القرآن ويتجلى ذلك في قوله تعالى:

- ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

- ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]

هذه القضية الواضحة بذاتها. على الأقل من وجهة نظرنا نحن المسلمين. ناقشها علماء الاستشراق واختلفوا في حقيقتها أكان الإسلام دين محلي موجه للعرب فقط أم أنه دين عالمي جاء لإنقاذ البشرية كافة؟

ومن الجدير بالذكر أن الذين أقروا بعالمية الرسالة هم القلة وعلى رأسهم توماس أرنولد الذي ذهب إلى القول في قوة وصراحة: لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل إن للعالم أجمع نصيبا فيها، ولما لم يكن غير إله واحد، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة. ولكي تكون هذا الدعوة عامة وتحدث أثرها المنشود في جميع الشعوب، نراها تتخذ صورة عملية في الكتب التي بعث بها محمد إلى عظماء ملوك ذلك العصر[١].

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤، وأيضا بدوي: دفاع عن محمد ص ١٩٥.

وسوف نناقش وجهة نظر المستشرقين الذين رفضوا فكرة عالمية الإسلام وهم الكثرة فقد استنكروا أن يكون الرسول ﷺ فكر في ذلك ودعوته كانت موجهة للعرب فقط ولم تخرج عن هذا النطاق المحلي؛ وعلى رأسهم سفاري وليم موير وفلهوزن وكايتاني وبروكلمان وغيرهم ثم نحاول الرد على أطروحاتهم.

- وجهة نظر المستشرقين:

١- يقول كلود سفاري (١٧٨٨): إن خديجة ذهبت إلى قريب لها يدعي «ورقة» كان يعكف على دراسة الكتب المقدسة وعلى علم بكتب اليهود والنصارى، «فأيد رأيها وأكد لها أنه سيكون نبي العرب (!!) فأثلجت هذه الشهادة صدرها»[١].

وفي موضع آخر يقول بلغة ساخرة ونبرة مستهزئة وأسلوب مستفز: بعد أن أخضع محمداً الشعب العربي وقضى على أمة اليهود، بدأ يظهر تطلعاته وطموحه. كنبي موقر وقائد مطاع. ففكر في تجربة قوته وفي إرسال سفراء له إلى الملوك، وأعد لهذا الغرض خاتماً يحمل هذه الأسطورة (محمد رسول الله). ثم يشير إلى رسالة الرسول إلى كسرى وغضبته العنجهية وتمزيقه كتابه ومقولة الرسول حينما وصله الخبر: (مزق الله ملكه). ورسالته إلى قيصر الروم الذي قرأ خطابه باحترام وتقدير، وأرسل إليه الهدايا.

وكذلك إلى المقوقس حاكم مصر فقرأ رسالته وتفهم معانيها ورد مبعوث الرسول ﷺ ردا جميلا وحمله هدايا ثمينة ومعهم مارية القبطية. والنجاشي حاكم الحبشة الذي آمن برسالة محمد[٢].

٢ - يقول وليم موير (ت ١٩٠٦): إن فكرة عالمية الرسالة جاءت فيها بعد، وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي يؤيدها، لم يفكر فيها محمد نفسه، وعلى فرض أنه فكر فيها فقد كان تفكيره غامضا، و محصورا في بلاد العرب، كما أن هذا الدين الجديد لم يتهيأ إلا لها، وإن محمدا لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن

(١) السيرة النبوية ص ٧١. لم يشر سفاري بأن الرسول تأثر بأقوال ورقة بن نوفل، أو أنه اقتبس شيئا من معارفه كما ادعى بعض المستشرقين وعلى رأسهم بودلي كما مر بنا. وهذا موقف يحمد له.

(٢) السيرة النبوية ص ١٦٥: ١٦٩

مات إلا للعرب دون غيرهم، وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك، فإنما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج.

قلنا سابقا إن المستشرقين يكررون أفكار زملائهم، وبعضهم لا يجد غضاضة أن ينقل وجهة نظر زميله ويعلنها على الملأ بصرف النظر عن مدى صوابها أو خطئها، وقد لاحظت أن نولدكه يكرر مقولات جولدتسيهر ويذكره مرارا في كتابه ويثني عليه، وفي الوقت نفسه لاحظت أن الأخير يستشهد برأي نولدكه ويشيد بكتابه، وكذلك وجدت جولد تسيهر يثني على حوليات كيتاني ويعلي من قيمتها كأنهم يتبادلون المواقع والأدوار[١].

وفي هذا السياق نجد أن كيتاني يكاد أن يكرر نفس فكرة وليم موير، إذ يتشكك في أن النبي كان يفكر في نشر رسالته خلف حدود الجزيرة العربية[٢].

٣ - إذا توقفنا مع يوليوس فلهوزن (١٨٤٤- ١٩١٨) uolus felhawzn [٣] وهو باحث موسوعي، له مساهمات في مجال نقد اللاهوت المسيحي، والتاريخ الإسلامي لاسيما ما يتعلق بالدولة الأموية وأحزاب المعارضة السياسية، ونشر كتاب المغازي للواقدي، وله مكانة طيبة عند الباحثين الإسلاميين، ومع كل ما ذكرناه فمن يقرأ كتاباته حول الرسول ﷺ نجد أن ينطلق من نفس القضية الراسخة عند طائفة من المستشرقين ليست بالقليلة، أنه سياسي بعيد الغور ومفكر استراتيجي، وصاحب مواهب شخصية، ويمتلك جدارة كاملة في تدبير الأمور، وله طموح واسع في تكوين دولة محلية عربية، اعتمادا على عصبية العشيرة والقبيلة التي تعتمد بدورها على رابطة الدم، وبسبب معيشته داخل هذا النطاق الفكري

---

(١) هذه الفكرة ذكرها بدوي وهو يعلق على كتاب لودفيجي مراكشي (مقدمة في دحض القرآن) بقوله: إن عمل مراشي هذا كان الأساس ونقطة الانطلاق للدراسات الجادة في أوربة عن القرآن وهو عمل حافل بالأخطاء والمجادلات الساذجة، وللأسف تكررت نفس هذه الأخطاء والتجاوزات في كل الدراسات المتصلة بالقرآن والتي قام بها المستشرقون الأوربيون خلال القرنين التاليين لظهور كتابه.(دفاع عن القرآن ص ٦).

(٢) كلود سفاري: السيرة النبوية ص ٥١ (نقلا من تعليق عبد المتعال الجبري).

(٣) ترجمته في موسوعة المستشرقين ص ٤٠٨

افتقد مفهوم الدولة من حيث هي نظام مستقل عن وظيفة القبيلة، لذلك لم يكن يستطيع أن يتصور إمكان رابطة دينية في حدود غير حدود رابطة الدم، ولم ير أن رسالته هي أن يضم إلى دعوته أتباعا متفرقين هنا وهناك(١).

موجز الفكرة التي يريد عرضها أن الرسول ﷺ نشأ في قبيلة تعتمد على رابطة الدم، وتمثل القبيلة الوحدة الاجتماعية النموذجية، ومع أنه أضاف إليها وحدة الرابطة الدينية، لكنه لم يكن عنده تصور لمفهوم الدولة ونظامها ومؤسساتها، وفي ضوء ذلك كانت طموحاته مختصرة في أن يجعل أمته العربية كلها جماعة دينية.

٤ - على أن جولدتسيهر له وجهة نظر أخرى مخالفة لزملائه وقد ناقش القضية ورأى أن للباحثين آراء متعارضة، وقد انقسموا إلى فريقين؛ الأول: يذهب إلى أن فكر محمد اقتصر على وطنه العربي وأنه نبي وطني، والفريق الآخر يقرر:أنه نبي عالمي أرسل إلى الناس كافة. وينحاز إلى الفرق الثاني، ويدلل على ذلك بأن محمدا ردد في البداية دعوة الله التي أحسها في قرارة نفسه، والرهبة التي شملته من أجل مصير العصاة في الوسط الذي تفتح فيه الشعور برسالته النبوية فأدركها، ويتجلى ذلك مما ورد في القرآن ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] إلا أن نظرته الداخلية امتدت منذ أول الرسالة إلى مدى أوسع، بالرغم من محدودية أفقه الجغرافي، ووضع خطة أولية لدين عالمي، إذ من بدء الأمر كانت فكرته أن الله أرسله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧](٢)

من يقرأ هذا الكلام قد يشعر بالسرور الغامر والراحة الداخلية ويعتقد أن جولد تسيهر استيقظ ضميره، وتحرر من غطرسته، وبانت له الحقيقة ساطعة، وأصبح يمجد في الرسول ويعترف برسالته الكونية، ولكن الحقيقة المرة والأليمة على نفسية المؤمن، أن كلامه هذا ينطلق من أن محمدا إنسان عبقري، يستخدم حنكته المفكرة المنظمة، ورويته الدقيقة في تحديد مشروعاته، وكل ما قام به هي اجتهادات شجاعة نابعة من شعوره العميق وعطفه على بني

---

(١) تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٤

(٢) العقيدة والشريعة ص ٣٩

قومه وعلى البشرية وتصوراته الخيالية التي اعتقد فيها أن الله أرسله لينقذها من السقطة الأخلاقية التي أحاطت بها.

خلاصة القول محمد إنسان مخلص بعقليته الفذة ألف دينا وقرآنا وبالترغيب والترهيب والوعد والوعيد، نشر دينه في الآفاق.

ونعتقد أن الحوار قد أصبح غير مجدي، لأن منطلقاتنا متباينة، فهو عنده قناعة أن الرسالات ختمت بالمسيح وأن محمدا في أحسن الأحوال مصلح اجتماعي وزعيم أمة ومؤسس إمبراطورية ليس غير، ونحن نقف في الطرف المقابل فمن خلال المراجع التاريخية وفلسفة الأديان ، وتتبع مواكب الرسل، وقراءة علم مقارنة الأديان، وتواتر الأخبار الموثوق بها، نقر أن الرسالات ختمت بمحمد وأنه بعث من الله مثل باقي الرسل ولما كانت رسالته هي آخر تنبيه من السماء إلى الأرض لذلك كانت الخاتمة وكانت كونية وجاءت تؤكد على أن العقل مصدر من مصادر المعرفة. وما يأتي لا حقا كافيا في الرد على ترهات جولدتسيهر وأكاذيبه الفجة وأرائه السخيفة.

٥- يستبعد فرانتس بوهل (١٩٣٢) أن يكون محمد قد فكر في أن دينه يمكن أن يصبح دينا عالميا ، وقد انحصر تفكيره في نشر الإسلام في المناطق التي يسكنها العرب وبخاصة الخاضعة للدولة الفارسية والرومانية، وأن هذه القضية مثير ة للشك، ثم لم يكتف بذلك بل خطأ وجهة نظر نولدكه وجولد تسيهر وتوماس أرنولد. (١)

٦- وإلى الاتجاه الأول يمضي بروكلمان (ت ١٩٥٦) وكدأبه يعادي الرسول ﷺ وينتقد بطريقة غير مباشرة فكرة عالمية الإسلام وأن الرسول ﷺ أرسل إلى كافة البشر، ويعبر عن ذلك بأسلوب ملتوي وعبارات توحي بالاستهزاء والسخرية من الفكرة إذ يقول: بعث محمد إلى العرب قبل كل شيء، وعمل على إحياء ملة إبراهيم التي حرفها اليهود والنصارى ونشرها في أرجاء العالم كله. وليس من الميسور أن نقرر، على وجه الدقة، ما إذا كان النبي نفسه قد استشعر أنه مدعو لمثل هذه الرسالة العالمية، وفي أي فترة من فترات حياته كان ذلك.

---

(١) دفاع عن محمد ص ١٩٩

٧ – ونستطيع أن نسلك دي لاسي أوليري (ت ١٩٥٧) في زمرة دعاة المحلية، والذين يذهبون بأن الإسلام في صورته الأولى ديناً عربياً خالصاً، والجانب الدنيوي من رسالة النبي محمد يظهر مقدار جهده لجمع قبائل الحجاز في اتحاد أخوي يقضي على عادة الغزو وليشكل مجتمعا منظما[١].

يتعجب الناظر في مقولات المستشرقين من جرأتهم في إلقاء الحكم جزافا دون دليل يذكر أو برهان يؤيد، إما أنهم يستخفون بعقولنا ويستهينون بتاريخنا وتراثنا، أو أنهم يتكلمون دون معرفة وفهم ودراية؛والاحتمالان قائمان ومرجحان. فهو يقول الإسلام في صورته الأولى وهل الإسلام له صورة ثانية، وما حقيقة الصورة الأولى حتى نفهم سماتها وعلاماته؟ ثم ما سمات صورته الثانية؟ وفي خلال كلامه يقول إن الجانب الدنيوي ظهر في المدينة في حين إن الجانب الروحي كان أبرز في المرحلة المكية.

حقيقي هذا نوع من التخليط يظهر سوء فهم في قراءة سيرة الرسول ﷺ ومراحل تكون الدعوة المكية والمدنية لأن الإسلام من البداية جاء دينا شاملا للدنيا والآخرة وكما يؤكد على الجانب الروحي يؤكد على الجانب المادي، وكما يحث المسلم على العبادة يدعوه لأخذ نصيبه من الدنيا، والمرحلتان متكاملتان، ومن المعلوم أن الرسول ﷺ في المرحلة المكية ظل فترة طويلة يحرر عقول القرشيين والعرب من عبادة الأوثان والأصنام والأشخاص وكل ماعدا عبادة الله وإخلاص النية له.

٨ – يتحدث جرونباوم (١٩٧٢) عن الرسالات السماوية وأن الله يرسل لكل أمة نذير يدعوهم لعبادة الله الواحد الأحد؛ مثل قوم عاد وثمود وفرعون ثم كما يقول: جاء دور العرب ولذلك اختار الله محمدا ليبلغ رسالته إليهم بلسان عربي، ليؤيد ما أمر الرسل السابقون لأقوامهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى: ٧] وذلك لأننا ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]. وكل سمة مميزة يضطر فيها محمد إلى تكرار القول في مصير أسلافه وثيقة جديدة على شرعيته بوصفه رسولا من رب العالمين. ثم

(١) الفكر العربي ص ٥٣

يضيف: ربما كان محمد عندما حانت منيته على استعداد لحمل عقيدته وراء حدود بلاده[١].

من البين أن جرونباوم اقتطع الآيات من سياقها، لأن ما استشهد به يوضح أن كل رسول جاء بلسان القوم الذين أرسل إليهم، حتى يدير حوارا بينهما ويتفاهم معهم ويشرح مجمل أفكاره التي جاء بها، ويقنعهم بمضمون رسالته، على أنه أغفل الآيات التي تأتي حجته من القواعد، وتهدم كلامه، وقضية عالمية القرآن واضحة أن الرسول نذير وبشير لكل العالم ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (السورة ٢٤ / ٢٧)، ولم تنبت الفكرة في رأسه حينما حانت منيته، فهذا تفكير معوج واستنتاج خاطئ يعبر عن أمنيات ترسخ في ذاكرتهم وليس لها دليل من الواقع أو استقراء التاريخ.

٩- وهذا ريجيس بلاشير (١٩٧٣) ينحو نفس المنحى في ترجمته للقرآن ، ويسخر من فكرة عالمية الإسلام، ويعترض على تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبا: ٢٨] بأن المقصود العرب وغير العرب، ويرى إن مثل هذا التفسير يحمل النص مالا يحتمل.[٢]

١٠ - ويبدو أن مونتجمري وات (٢٠٠٦)، أعجبه رأي وليم موير فعاد يردده بصيغة أخرى منطلقا من تحليلاته التي تركز على أن دعوة الرسول ﷺ مرت بمراحل تطوره الاجتماعي والديني وتأثره بالبيئة القرشية والوسط الديني المتعلق بالديانات السابقة، وأن كل مرحلة كانت تواجه بخطة منفصلة.لذلك ذهب إلى أن محمدا كان يعد نفسه نبياً أرسله الله في الأساس لقريش ولقريش فقط (لا حظ التأكيد)، لكنه يستدرك فيتراجع عن ذلك بقوله: «ليس المقصود أن الإسلام نزل لقريش فقط، إنما المقصود أن تفكير الرسول ﷺ في المرحلة الأولى من الدعوة كان موجها إلى قريش، الدين كان يعتبرهم عدته لنشر دعوته، فكيف يكون الحديث مفصلا عن إسلام العرب والفرس والروم[٣].

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٠٣، ١٠٥

(٢) نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ٦٩.

(٣) محمد في مكة ص ٢٧٤. ذكر المترجم بأن المؤلف له كتاب بعنوان «الإسلام والمسيحية» أشار فيه بأن الإسلام=

إذا قمنا بتحليل هذا الكلام واستعرنا مبضع التحليل المنطقي - من أستاذنا زكي نجيب محمود. تظهر لنا الفكرة المضمرة في باطن هذا الكلام وهو أن الرسول ﷺ مصلح ديني تطور فكره من مرحلة إلى أخرى، ونزعنا عنه الطابع الغيبي (الميتافيزيقي) المتعلق بوشائج الصلة بينه وبين بالسماء، وأفضى ذلك إلى إنكار عالمية الإسلام، وإنما القضية تتعلق بالوضع المحيط بها.ومن ثم طور محمد تفكيره من مرحلة المحلية إلى المرحلة الخارجية بعد أن شجعته الظروف المحيطة.

ونقول هذا كلام لا دليل عليه، وليست القضية متعلقة بتصورات الرسول ﷺ ولا بمراحل تفكيره ولا بأمنياته وأحلامه، إنما نحن بصدد أوامر إلهية لها واقع على الأرض قام الرسول بتنفيذه بمجهوده الذاتي وتفكيره البشري والأخذ بالأسباب، والعناية الإلهية تراعيه وتشد من أزره وتنصره على القوم الظالمين، فالرسول ﷺ مبعوث من السماء بالرسالة الخاتمة لتصحيح تصورات البشرية وتحديد اتجاه بوصلة الصواب ووضع أقدامها على الطريق السليم، وكل سلوكيات الرسول ﷺ تؤكد عالمية الرسالة منذ أول، ناهيك عن الآيات القرآنية - التي لا يؤمن بها المستشرقون - التي تعضد هذا الموقف بلا منازع.

١٠ - لاحظنا أن جمهرة المستشرقين اتفقوا على أن نبوة الرسول ﷺ كانت نبوة محلية خاصة بالعرب دون بقية العالمين، وذهبوا إلى أنه قصد إحياء دين جده إبراهيم إلا أننا وجدنا مستشرقة يهودية معاصرة هي جاكلين شابي[1] شطت في الرأي وأوغلت في الخيال وأنكرت كلية نبوة الرسول ﷺ وخرجت من بحوثها - التي تدعي المنهجية العلمية واستعمال المنهج الأنثربولوجي والفيلولجي - بأن الدعوة المحمدية لم تكن واضحة المعالم في ذهن صاحبها ولا فكر أن يكون نبياً، وإنما القدر

=يضم كل القيم الأساسية في الأديان التي سبقته، لذلك فهو دين المستقبل. (هامش ص ٢٧٤) وهذا الكلام نثمنه لهذا المستشرق، ونحترمه لأنه يتراجع عن كلامه، وينشر كلمة الحق. وهذا أيضا ما نؤمن به وذكرناه أن الإسلام هو دين القرن القادم لا جدال في ذلك بناء على معطيات كثيرة.

(١) مستشرقة يهودية تعمل محاضرة في جامعة باريس، حصلت على الدكتوراه في موضوع رب القبائل، إسلام محمد (عام ١٩٩٢)، بإشراف المستشرق اليهودي كلود كوهين، ولها دراسات أخرى حول الرسول .كلها تزعم إنكار نبوته وتأليفه القرآن. (عبد الحكيم فرحات: نبوة محمد في الاستشراق الفرنسي، جاكلين شابي أنموذجا، بحث ألقي في مؤتمر نبي الرحمة محمد، بالرياض، ص ٨: ٩).

الذي صيّره، كذلك لم في البدء أنه نبي ولا رسول وإنما «نذير» لقبيلته «ملهم» استئناسا بما ورد في سورة المدثر وغيرها(١).

أحيانا حينما يصل الحد بإنسان مثقف ينكر البديهيات فيقول لك:إنني لا أؤمن بكروية الأرض، أو يقول لك لا أصدق بأن نيل أرمسترونج نزل على سطح القمر، أو لا توجد مدينة على الخريطة اسمها باريس زارها رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) وتعلم في أروقة جامعتها طه حسين، أقول حينما تجد إنسانا بهذا الحجم من الجهل أو التبجح في النقاش تجد نفسك غير متحمس بأن تشرح له أبعاد القضية أو تدخل معه في حوار. ومن هذا الصنف السيدة جاكلين شابي، فإذا كنا نجد مبررا لافتئات الرهبان ومزاعم قساوسة العصور الوسطى وكذب مؤرخي الحرب الصليبية، وحتى لبعض المستشرقين في القرن السابع والثامن عشر، فلا نجد أي مبرر لأي إنسان كائنا من كان، أن ينكر ما أصبح معروفا في التاريخ بالضرورة العقلية، وبالآثار التاريخية والوثائق العلمية المحفوظة في مكتبات الدنيا، وبديهية من بديهيات الرياضة.وكيف نقنع أستاذة في الجامعة أن محمدا مبعوثا من الله مثل باقي الرسل، مثل موسى الذي هي تؤمن به، وأنه من المستحيل في العقل وفي قواعد المنطق أن هذه الملايين ظلت تتبع وهما وخرافة لمدة خمسة عشر قرنا، وكيف لمستشرقة تعيش في القرن الواحد والعشرين وتقول إن الرسول لم يترك وثيقة علمية مكتوبة، ثم تمضي في جهلها وغيها فتقول:إن أكبر مشكلة تواجه الباحث في الدراسات المحمدية قلة الوثائق العلمية التي يمكن اعتمادها، فمن المعلوم أن النبي لم يترك سجلا مكتوبا (هكذا) ولا آثار تثبت وجوده في سوالف الأيام وتبصر بعقيدته وتبين سمات دعوته، وما بين أيدينا من كتابات ووثائق لا يمكن الركون إليها (٢). ليس هذا فحسب بل ترمي المجتمع القرشي بالجهل والبداوة والأمية وهم الذين سافروا إلى الشام واليمن في الرحلتين المشهورتين صيفا وشتاء، وذهبوا إلى مصر في رحلات تجارية، واتصلوا ببلاد فارس وحاربوا الروم.يبدو أن هذه السيدة تعيش في برميل مغلق مثل الذي كان يعيش فيه ديوجنس الكلبي وأصحاب المذهب الكلبي.

هل من المعقول أن نلقي كل كتابات المؤرخين منذ القرن الأول بداية بالسيرة النبوية

---

(١) عبد الحكيم فرحات: نبوة محمد في الاستشراق الفرنسي، ص ٥٢

(٢) عبد الحكيم فرحات: نبوة محمد ص ١٥

لمحمد ابن اسحق (١٥٢ هـ) والتي هذبها ابن هشام (٢١٣ هـ) ومغازي الواقدي (٢٠٧ هـ) وطبقات ابن سعد (٢٣٠ هـ) إلى «حياة محمد» لحسين هيكل وفقه السيرة لشيخ الإسلام محمد الغزالي مرورا بتاريخ الطبري والكامل لابن الأثير(٦٣٠ هـ) والبداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤ هـ)،وملايين من الوثائق العلمية والمصادر التاريخية والمراجع الفقهية، نهمل كل هذا ونجري لنجلس تحت أقدام هذه السيدة الهمامة لنسمع أقوالها الفريدة وكذبها المشهود وتخاريفها النكدة والسفسطة البيزنطية.!!

وإذا كانت هذه المستشرقة تنضح من أسلوب الأمهات - في العصور الوسطى - اللواتي كن يستعملن اسم الرسول (ماهوميت) البعبع؛ لتخويف أطفالهن العاصين، فإن مستشرقة معاصرة لها قرأت تاريخ الرسول ﷺ والرسالة وتحررت من رواسب الكراهية، والصورة الزائفة عن الإسلام، والمزاعم الكاذبة التي ألصقت به وذهبت إلى القول: من الخطأ الاعتقاد أن الإسلام دين يتسم بالعنف أو بالتعصب في جوهره، بل إن الإسلام دين عالمي لا يتصف بأي سمات عدوانية شرقية أو معادية للغرب[1].

١١ - على أن السيدة كارين التي أيدت وجهة نظر الإسلام والمسلمين في جميع القضايا التي ناقشناها حتى الآن، تتردد في قضية بعثة الرسول ﷺ للعالمين كافة، وتذهب إلى أنه بعد انتصاره في غزوة بدر بدأ يعتقد بإمكانية توحيد قبائل الجزيرة أي أن حلم الوحدة العربية لم يعد أمرا محالا، بحيث يمكن إبلاغ رسالة القرآن إلى قبائل الشمال ليس هذا فحسب بل إلى سورية والعراق. وتشكك في رسائل الرسول إلى بلاد قيصر الروم وكسرى فارس والنجاشي ملك الحبشة والمقوقس حاكم مصر، وترى أنها رواية مدسوسة لأنها لا تملك دليلا على أن محمدا كان يرى أن الإسلام دين عالمي ويلغي ما أنزل على أهل الكتاب، فالإسلام حتى تلك الفترة دينا لأبناء إسماعيل أي للعرب كافة ، كما أن اليهودية دين أبناء يعقوب، وهذا ما ساد في ذهنية العرب بعد وفاة نبيهم بمئة عام[2].

(١) كارين أرمسترونج: سيرة النبي ص ١٧: ١٩

(٢) سيرة النبي ص ٢١٣: ٢١٤

ونرد على الجميع بعبارات جامعة مانعة لهذا الرجل الأوربي الذي قرأ سيرة الرسول بحيادية ودخل يقرأ التاريخ الإسلامي بعين الفهم وقلب يبحث عن نور الحق ومعالم الهداية وضمير نقي ينقب عن ينابيع الحق والعدل، وحاول أن يتحرر من إرث المسيحية الذي يحمله في وجدانه ، يقول عن عالمية الإسلام:من مميزات الإسلام ملاءمته لجميع الأجناس، فلم يكن العرب وحدهم الذين اتبعوا الإسلام، بل كان من ضمنهم الفارسي والحبشي، وجاء في القرآن ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (السورة ٢٤/٢٧) وقد أكد الرسول من الساعة الأولى لظهوره أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان، وإذا كان صالحا بالضرورة لكل جنس، كان صالحا بالضرورة لكل عقل إذ هو دين الفطرة، والفطرة لا تختلف من إنسان إلى آخر، وهو لكل هذا صالح لكل درجات الحضارة. [١]

ومن أبرز الأمثلة على ذلك أن الإسلام لم يكن خطة اقتصادية تقيد الأمة ببرنامج محدود تخرج على الدين إذا هي خرجت عليه، ولكنه عقيدة إنسانية تقيم للمسلم أصول الحلال والحرام وتدع له الحرية التامة بعد ذلك في اختيار التفاصيل الموقوتة على حسب الأزمنة والمصالح والشعوب وعلاقات الأمم والحكومات[٢].

١٢- وإذا كان المستشرقون السابقون قسموا فكرة الدعوة على أساس المراحل الزمنية، فانتقل الرسول ﷺ من مرحلة العروبة إلى مرحلة العالمية مع نضجه النفسي وتبدل استراتيجياته والكسب المادي الذي كان يحققه مع توالي السنوات، نجد أن مارسيل بوازار ينسب إلى بعض المستشرقين فكرة التقسيم الجغرافي ؛ ففي رأيهم أن دعوة الرسول قدرت في البدء لتزويد العرب بكتاب ومرشد في لغة يفهمونها، لأنهم الشعب الوحيد الذي لم يكن قد تلقى كتابا، ولذلك فدعوته كانت عربية بشكل أساسي في مكة، ثم تحولت إلى العالمية خلال وجوده في المدينة[٣].

ويرى أن هذا الطرح يخدش شعور المسلمين، ويعد خبثا من المستشرقين يراد منه الإساءة

(١) محمد رسول الله ص ٢٨٢

(٢) ما يقال عن الإسلام، ط دار العروبة، ص ٢٤١

(٣) إنسانية الإسلام ص ٤٥، وأيضا ص ٨٧، ١٧٤

إلى الإسلام، لأن النبي ﷺ ناقل كلام الله وليس له دور في تأليف التنزيل، ثم إن القبول بالتفسير التاريخي ينكر الطابع الإلهي للتنزيل، وأخيرا، فإن القرآن توجه من بداية الدعوة إلى جميع الناس، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨][١]

١٣ - أما دومنيك سورديل فلم تفلت منه هذه القضية وتعرض إليها بأسلوب المشي في المتاهات والحارات الضيقة والأزقة المقفولة وأنت عليك أن تبحث عن الحقيقة وسط هذا الظلام والطرق المتعرجة، والأطروحات التي يلقيها هنا وهناك، ومن الأفضل أن ننقل رأيه من مصدره يقول: الإسلام دين انتصار، فهل يمكن أن يكون دينا عالميا؟ إن الرسالة التي تلقاها محمد «لسانا عربيا» بحكم أنها موجهة للعرب، ولكن كان يجب إعلانها لآخرين غير أولئك الذين سمعوا بها أولا.فإلى أي حد كان محمد واعياً لنشر رسالة ذات ببعد عالمي؟ ثم يتابع بسط وجهة نظره: إن الإسلام تمتع بقوة انتشار حملته إلى ما وراء الأرض الحجازية، وأن محمداً حاول بنفسه أن يدخل في دينه شعوبا أجنبية وذلك بإرساله غزوات بدت غير ناجحة، ولكن خلفاءه قاموا بها فنجحوا[٢].

حينما تقرأ وتحلل هذه الأسطر لا تستطيع أن تصل إلى حقيقية وجهة نظره؛هل يؤمن بعالمية الرسالة أم يقرر أنها خاصة بالعرب.؟

حينما نمضي في القراءة نستطيع أن نستكشف رؤيته للقضية، بأن الرسول ﷺ أرسل إلى العرب فهو دين محلي موجه للعرب، ولكن هناك أسبابا دينية واقتصادية وحضارية ساعدت في نشره شرقا إلى الهند والصين وغربا إلى جنوب فرنسا. وأن الذي قام بذلك هم الخلفاء الأربع، و«هذه الفتوحات التي يبدو ذكرها مهيبا ومدهشا، لابد من معرفتها لأنها هي التي سمحت للإسلام بالانطلاق كدين عالمي»[٣].

أما هذه الأسباب فيرجعها إلى وجود المسيحية على أطراف الجزيرة العربية، وضعف

---

(١) إنسانية الإسلام ص ١٧٥

(٢) الإسلام، ص ٣٣: ٣٤

(٣) الإسلام ص ٣٥

الدولة الفارسية وتفكك الإمبراطورية الرومانية، والخطط العسكرية التي كان يطبقها جيش المسلمين، والمزايا الاقتصادية التي يحصل عليها من يعتنق الإسلام.

المهم لم يذكر أي مبدأ من مبادئ الإسلام، أو أن مضمون رسالة الرسول ﷺ تنطوي على مبادئ إنسانية تتفق مع الفطرة الإنسانية، وأن معظم الأمم اعتنقته عن اقتناع - بعد توقف الفتوحات. وإلا كيف نعلل انتشاره في أطراف آسيا واختراقه صحراء إفريقية واجتياح دولها على الرغم من حملات التنصير التي فشلت في منازلته ومواجهته بعد كل الملايين التي أنفقوها.؟

لا نكون مبالغين إذا قلنا إن هذا المستشرق يرتد بأفكاره فعلا إلى العصور الوسطى، فيرد الإسلام إلى تعاليم اليهودية والنصرانية، والحضارة الإسلامية نقلت جل معالمها من الحضارات المجاورة وكذلك العلوم، علم الكلام والتصوف والفلسفة كله نتاج للأمم التي دخلت الإسلام.

ب- الرد على مزاعم المستشرقين:

١ - لا جرم أن نقول إن هذا الكلام عار عن الصحة وليس له ما يؤيده، فلا شك أن رسالة الرسول ﷺ في مضمونها وأبعادها وقوانينها وتشريعاتها وأحكامها موجهة للبشرية كافة لأنها جاءت خاتمة الرسالات وآخر توجيه وتواصل بين السماء والأرض، وكذلك أقوال الرسول وأفعاله ومسلكه الذي أشرنا إليه وإرساله رسائل إلى رؤساء الدول يدعوهم إلى الدخول في الإسلام أكبر دليل على عالمية الرسالة، وأن هذا الأمر كان واضحا له منذ بعثته، وليست القضية أننا بصدد فكرة استشعرها في نفسه، أو ظهرت في أفق عقله في فترة من الفترات، فسارع إلى الدعوة إليها.. هذه نقطة.

الثانية: الادعاء بأن الإسلام لم يكن يناسب إلا العرب ، كذب واضح، فقد رفض العرب اعتناق أيّ من الديانتين اليهودية والنصرانية بعد أن تعرفوا عليها نظرا لأفكارهما المعقدة والتي لا تتسق مع منطق العقل والفطرة الإنسانية ؛فاليهودية تصور الله في صورة إنسان؛ يمشي ويبكي ويصارع ، وتقر الكبائر على الأنبياء وتحصر حياة الإنسان في الجانب

المادي، والنصرانية تعد جملة من الأفكار الفلسفية الغامضة والمعقدة المتأثرة بالوثنية اليونانية والمذاهب الغنوصية، ففكرة حلول الله في الإنسان أو تجسد اللاهوت في الناسوت أو أن الله ثالث ثلاثة كلها أفكار لا يستسيغها العقل. وتتعارض مع منطق الديانات التي جاءت تقر فكرة الوحدانية.

في حين أقبل العرب على اعتناق الإسلام طواعية لاتساق مبادئه مع الاستدلال العقلي والفطرة النقية وحركة الحياة، .لقد صدق سفاري حينما قال:إن عقيدة الإسلام سهلة الفهم سريعة الاستيعاب يقبلها العقل المتأمل، و أنها تناسب عقلية كل شعوب الأرض[1]. أضف إلى ذلك تناقش كافة جوانب الحياة السياسية والاقتصادية وتضع حلولا لكل مشكلة وخططا لنهضة الأمة الإسلامية وتقدمها، وعلاجا شاملا ناجعا للقضايا الاجتماعية حتى أنه يحدد طبيعة العلاقات بين الزوج وزوجه وتنظيم أبعادها خفاياها وظاهرها وهكذا في باقي شؤون الحياة.ليس هذا فحسب بل إن «المسلمين يستوون أمام الله، وهم أعضاء أسرة واحدة ليس فيها رفيع أو وضيع؛وإنما هم متساوون كذلك أمام القانون المدني مطلقا، وقد بشر الإسلام بهذه المساواة في وقت لم يعرف عنها العالم المسيحي شيئاً»[2].

ثم إن العلماء والفقهاء والتجار والفرسان العرب هم الذين نشروا الإسلام خارج الجزيرة، إذ انساح التجار المسلمون شرقا إلى باكستان والهند وجنوب الصين وجنوب شرق آسيا ليس هذا فحسب بل هناك بعض العلماء المصريين وصلوا إلى اليابان وقدموا صورة ناصعة للإسلام مما أفضى إلى دخول الآلاف من اليابانيين إلى الإسلام، وقام التجار العمانيون واليمنيون بنشر الإسلام في شرق إفريقية، وكذلك علماء شمال إفريقية وتجارها وفقهائها وأصحاب الطرق الصوفية والزوايا اتجهوا جنوبا ونشروا الإسلام في أوغندا وغينيا ومالي والسنغال.

وكانوا هؤلاء جميعا ممثلين بامتياز لحقيقة الإسلام وضربوا أروع الأمثال في حسن المعاملة والصدق في القول والسلوك الأمثل مع شعوب هذه المناطق، وأحيانا كان يقتنع شيخ

---

(١) السيرة النبوية ص ٢٥٠

(٢) دافيد ستلانا: القانون والمجتمع ص ١٣٣ (ضمن كتاب تراث الإسلام تحرير توماس أرنولد)

القبيلة بعقيدة الإسلام ومبادئه العملية والواقعية فيعتنقه، مما يؤدي إلى دخول القبيلة كاملة واحة الإسلام.

ثالثا: قول المستشرقين إن الرسول ﷺ لم ينتقل إلى الدعوة العالمية إلا بعد أن انتصر على قريش والقبائل العربية وإجلاء اليهود من المدينة، وتأسيس دولة قوية وبناء جيشا مدربا كما وكيفا، وينسون أن الآيات التي قررت عالمية الإسلام وأكدت على ذلك بما يدع مجالا للبس أو الغموض، نزلت جميعا في العصر المكي، وفي فترة من أضعف فترات الدعوة الإسلامية التي كانت محاصرة داخل مكة ويعذب أبناءها وكان المسلمون لا يملكون دولة ولا جيشا[1]. حتى أن عمر بن الخطاب حينما نزل قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥] تعجب عجبا شديدا، وأخذ من الوهلة الأولى لهذا التفاؤل المفرط في النصر في هذه المرحلة المبكرة ووعد الله لهم، وهم قلة مستضعفة محاصرة مطاردة داخل قريش.

رابعا: ادعاء التقسيم الجغرافي للدعوة بأنها كانت محلية في مكة ثم أصبحت عالمية في المدينة، كفانا بوازار الرد على هذا الزعم الكذوب لأن التوجيه الإلهي للرسول ﷺ منذ البداية كان واضحا وصارما أن هذا الدين الإسلامي هو خاتم الديانات، ولذلك جعله الله هداية لكافة البشر وبشارة للعالمين. وكان الرسول ﷺ يعلم منذ البداية ثقل المهمة وعبء الدعوة ورسالته الإنسانية، ودوره الكبير في التبشير بالإسلام وإيصال صوت الإسلام إلى كل إنسان يعيش على ظهر الأرض.

ولما كان الرسول ﷺ ولد في مكة فقد بدأ دعوته في المحيط الاجتماعي الذي عاش فيه، سواء في مكة وما حولها من القرى والمدن المحيطة مثل الطائف، زد على ذلك اتجاهه إلى زعماء القبائل، ولما ضيق القرشيون عليه الخناق وحاصروه حصاراً محكماً لم يجد بداً من الهجرة إلى المدينة، ومنها انطلق إلى العالم الخارجي أي للدول المحيطة بشبه الجزيرة العربية؛ البحرين وعمان واليمن وبلاد فارس والشام ومصر.

وأخيراً هذا كلام مرسل يعكس نظرتهم إلى اليهودية التي تعد ديانة محلية، ولم يدخل اليهود أرض المعاد إلا بعد موت سيدنا موسى، وكذلك للمسيحية التي تعد ديانة محلية

---

(١) عماد الدين خليل: من النافذة الإسلامية ص ١٨٨

لشعب إسرائيل، ناهيك عن أن بولس شاؤول هو الذي وضع أسسها وأفكارها وأصل لها، أضف إلى ذلك هذا الطرح لا يعبر إلا عن أماني تعيش في خاطر المستشرقين، وأحلام يقظة تشبه أحلام المراهقين إلى درجة أن انساق فيلسوف شهير مثل أرنست رينان وراء معاصريه واعتقد في صدق مقولتهم «بأن الإسلام لا مستقبل له»[١] وهذه الأماني الساذجة والأحلام اللذيذة والرؤى الكاذبة ربما تشعرهم بشيء من الطمأنينة، وتزيل القلق من نفوسهم بسبب زحف الإسلام إلى أوربة وغزو عقول أبنائها واقتناعهم بأفكاره واعتناقهم له. ونرد عليه أن المستقبل للإسلام وهذه حقيقة يؤكدها البحث العلمي النزيه واستقراء التاريخ وكر العصور وواقع الدول.

يقول هستون سميث المفكر الأمريكي الذي مر بنا سابقا - عن مستقبل الإسلام بين الأديان: «إنه في هذا العصر -كما في العصور الغابرة- أسرع الأديان إلى كسب الأتباع المصدقين، وإنه على الرغم من قلة دعاته وكثرة الدعاة إلى المسيحية تكاد نسبة الداخلين فيه بين الأفريقيين تساوي نسبة عشرة إلى واحد ممن يتحولون عن عقائدهم البدائية إلى الأديان الأخرى»[٢].

يقول هنري دي كاستري: الإسلام دين عام بغير شبهة، لأننا نشاهد من المسلمين في كل أمة على اختلاف الأجناس والبلدان؛ فمنهم الشرقي والتتري والغربي والهندي، والزنجي[٣]. وهذا ما ذهب إليه أيضا نولدكه الذي جانبه الصواب في معظم القضايا المتعلقة بالقرآن وسيرة الرسول ﷺ.إلا أنه يرى أن غزوات الرسول للدولة البيزنطية تعبر عن أنه مبعوث لكل العالم وليس للعرب فقط، إذ إن الغزوات التي غزاها من بعده خلفاؤه وهم أدري الناس بمقاصده ينبئ أنهم علموا أن بعثته كانت عامة وليست محصورة في الجزيرة العربية[٤].

ويعضد الفكرة السابقة توماس أرنولد بعبارة واضحة وتعبير جيد فيقول: (من الغريب أن ينكر بعض المؤرخين (يقصد المستشرقين) أن الإسلام قد قصد به مؤسسه في بادئ الأمر أن يكون دينا عالمياً بالرغم من هذه الآيات البينات)[٥].

---

(١) يوهان فوك ص ٢٠٧.
(٢) العقاد: الإسلام دعوة عالمية ص ١١٥
(٣) الإسلام خواطر وسوانح ص ١٣٧.
(٤) تاريخ القرآن ص ٢٣٤.
(٥) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤

يقول برنارد شو (١٨٥٦- ١٩٥٠)[١] عن الإسلام ورسوله ﷺ: إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد، هذا النبي وضع دينه موضع الاحترام والإجلال، إنه أقوى دين علي هضم جميع المدنيات، خالدا خلود الأبد، ... وإذا أراد العالم النجاة من شروره فعليه بهذا الدين، إنه دين السلام والتعاون والعدالة في ظل شريعة متمدينة محكمة، لم تنس أمراً من أمور الدنيا إلا رسمته ووزنته بميزان لا يخطئ أبداً.ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدي أوربا غدا.أضف إلى ذلك وسم الرسول ﷺ بأنه «منقذ البشرية»[٢].

يقول بودلي: أكان في مقدور رجل، ما لم يكن ملهماً، أن يأتي إلى الوجود بمثل هذه الأخوة العالمية؟ وكيف يترك دجال عقيدة ازدهرت ونمت بعد موته، إن عدد معتنقي الإسلام ليزيد بمقدار ربع مليون في كل عام ا دون ضغط أو إرهاب لنشر رسالة الإسلام. ولم يكن لمحمد بولس، وكان جنوده ناشرو الإسلام[٣].

٢ - ننتقل للرد على السيدة كارين، الحقيقة يتعجب الإنسان من هذا الكلام فقد رأينا هذه المستشرقة في معظم آرائها تقف موقف العدل والإنصاف، وتنطق بكلمة الحق في جرأة واضحة وثقة نفس مؤيدة وجهة نظرها بالدليل المنطقي والحجة الساطعة والاستدلال البرهاني، غير مبالية بالنقد الذي يوجه إليها من مفكري الغرب، هذه نقطة.

الثانية:من الواضح أنها تأثرت بمقولات السابقين عليها في هذه القضية وتردد وجهة نظرهم، بأن الرسول ﷺ لم يكن يفكر في مسألة أنه مبعوث للبشرية كافة، ولكنه بعد أن حقق انتصارات عسكرية ودينية على قريش وحلفائها وأجلى اليهود من أطراف المدينة، سطعت

---

(١) روائي ايرلندي ساخر وكاتب مسرحي، من مؤلفاته القيصر وكليوبترا، والزنجية تبحث عن الله .

(٢) خليل ياسين: محمد عند علماء الغرب.دار العلم والحكمة، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٢٩٦، وقد قام المؤلف باستقراء كتب المستشرقين وجمع منها شهادة أكثر من مائتين وعشرين مستشرقا كافتهم يشيدون برسول الإسلام ويمدحون رسالته الإنسانية التي جاء بها لهدايتها.وقيادتها إلى طريق النور والخير والرحمة والسلام .

(٣) حياة محمد ص ٤١٤. يقصد المؤلف أن بولس أكمل رسالة المسيح وعمل على نشرها، أما الرسول فقد أتم رسالته. ولا يقصد بكلمة «الإلهام» شيء خارق للطبيعة أو إلهام غيبي من الخارج، ولكن قصده الإلهام كما يتصوره علماء النفس. أي حصيلة جمع المعلومات وتبويبها وقدح الذهن والتفكير العميق المتواصل في القضية، فتنبثق الفكرة في الذهن مثل الشرارة، وتشرق على العقل.

هذه الفكرة في رأسه، وهذا تخليط في الكلام وبتر القضية من سياقها الموضوعي، فالرسول ﷺ من بداية بعثته كان يعلم أنه خاتم الرسل، وقد أرسل رحمة للعالمين، أبيضهم وأسودهم، وقد ظل طوال حياته يكافح في سبيل نشر الإسلام كما هي اعترفت بذلك، وذكرت أنه " كان يريد إبلاغ رسالة القرآن العربي إلى قبائل الشمال، وربما أيضا إلى العرب في سورية والعراق الذين يعيشون في كنف الدولة البيزنطية.

والقضية التي نحن بصددها؛ ليست إرادة فردية أو خاطر ألم به أو فورة مزاجية أو فكرة أشرقت على عقله فاستحسنها، فاتجه لتحقيقها، نحن بصدد وحي يوجه رسوله ويرسم له طريق الصواب ويهديه إلى بر الأمان، فهو ينفذ ما هو منوط به ومكلف بإبلاغه إلى الخلق جميعا.

ثالثا: لم تقدم لنا دليلا على أن رسائل الرسول إلى القياصرة والأكاسرة والملوك مدسوسة ويبدو أنها تأثرت بتشكيك بعض المستشرقين في هذه الرسائل ومنهم فرانتس بول، فهناك مصادر التاريخ ومراجع السيرة النبوية، ونماذج من هذه الرسائل محفوظة والردود عليها، فكسرى أخذته العزة بالإثم مزق كتاب الرسول فدعا عليه، والنجاشي رد ردا كريما، وعظيم القبط في مصر، رحب بكتابه وأرسل إليه بعض الهدايا وجاريتين، منها مارية القبطية التي تزوجها الرسول ﷺ، والأخرى التي تزوجها حسان بن ثابت. فأين موضع الشك في هذه الرواية؟، وكذلك نعلم أنه أرسل عمرو بن العاص إلى أهل عمان، فاستجابوا للإسلام ودخلوا فيه طواعية، وأرسل علي بن أبي طالب إلى اليمن فأرسل إليهم معاذ بن جبل يعلمهم أمور دينهم أركانه وقواعده. فهل هذا التاريخ الموثق معرض للشك والرفض.؟ (١)

لا غرو أن نقول إن السيدة كارين قد جانبها الصواب، وأخطأت خطأ كبيرا، ثم إنها تعترف بأن الإسلام دين عالمي، لكنها تريد أن تقول بأن أصحابه هم الذين حولوه من دين محلي إلى دين عالمي، وهذا افتئات على التاريخ وإنكار بديهيات الإسلام.

ومن الدلائل التي تدل على ترددها وحيرتها أنها عادت تقول: إذا صدقت رواية سفراء

---

(١) ذكر الدكتور هيكل رسائل الرسول إلى ملوك كسرى وقيصر وغيرهم واقتبس بعض نصوص هذه الرسائل (حياة محمد ص ٣٩٠).

النبي إلى حكام البلدان المجاورة فهذا يدل على الثقة الجديدة التي اكتسبها محمد وعن اتساع نطاق رؤيته، إذ أصبح سيدا من سادات العرب، أضف إلى ذلك أراد أن يقطع الطريق على المكيين حتى لا يستعينوا بأي مدد خارجي(١).

إن قضية إرسال الرسائل إلى حكام الدول المجاورة، وردت في المصادر الإسلامية المعتبرة، مع وجود نص الرسائل إلى هؤلاء الحكام ليس هذا فحسب بل هناك رسائل محفوظة في مكتبات الغرب، والآثار المادية تدل على ذلك، و تواتر الأخبار بذلك، في ضوء هذه المعطيات يصبح تكذيبها أمر منكرا ومكابرة مرفوضة وتجافي عن طريق الحق والصواب. نعم «ليس ثمة ريب في أن النبي محمداً رسول من الله عز وجل إلى كل البشر دون تفرقة بسبب الجنس أو القومية أو الحدود أو اللغة واللون إن عالمية الرسالة المحمدية حقيقة ثابتة لا مراء فيها»(٢).

٣- من الجدير بالذكر أن الأستاذ سوندرس المحاضر بقسم التاريخ في جامعة نيوزيلاندى أثار هذه القضية في الستينات بقوله: إن انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية كان من عمل عمر بن الخطاب، ولم يكن داخلا في برنامج محمد ، لأنه لم يفكر في دعوة أحد غير العرب إلى الإسلام.ومن وجهة نظره أن هناك آيات تتحدث عن عالمية الإسلام، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١] وآيات يفهم منها أن الدعوة موجهة للعرب فقط مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى: ٧] فكيف يخاطب به أناس غير المتكلمين بالعربية؟

ثم أضاف بأن المستشرقين منقسمون انقساما شديدا ففي حين يذهب وليم موير أن الدعوة كانت للعرب، يذهب نولدكه وجولد تسيهر وأرنولد بأن محمدا أراد بدينه أن يكون دينا عالميا. وسوف نوجز رد العلامة العقاد في براهين قاطعة ونقاط مركزة:

استناد الكاتب إلى نزول القرآن باللغة العربية لتعزيز حجته على تخصيص الإسلام بمن يتكلمون اللغة العربية، إذ كيف كان يريد أن تكون الدعوة أن كانت عالمية إنسانية ولم تكن

---

(١) سيرة النبي ص ٢١٤

(٢) بدوي: دفاع عن القرآن ص ١٨

مقصورة على المتكلمين بلغة الرسول؟ إنه يمنع بذلك أن توجد في العالم دعوة عالمية على الإطلاق، أو يفترض فيمن كان يُرسل أن ينطق بألسنة الناس أجمعين.

- إن النوع الإنساني يشمل أم القرى وما حولها ولا تعتبر هداية أهلها عزلا لهم عمن عداهم من الناس. وخطاب أم القرى ومن حولها يعم الناس أجمعين.

- كيف يسيغ في العقل أن يكون الرسول خاتم النبيين إذا كانت رسالته مقصورة على قوم لم يأتهم من قبل نذير؟[١]

لاشك أن الناظر في شمول مقررات الإسلام وفي تشريعاته وفي دستوره الذي طرحه وعلاجه لكافة مشكلات البشرية الماضية والحاضرة والمستقبلة يدرك من خلال تتبع أحكامه وأوامره ونواهيه، واجتهاد المشرعين والفقهاء واستنباط أحكاما نواجه بها المشكلات التي تظهر في المجتمعات مع حركة تطورها، وما يكشفه العلم من مسايرته لمنهجه واكتشافاته، ودعوته لإعمال العقل والتأمل في عناصر الكون ومفردات الطبيعة، ورفضه الحجر عليه في التفكير والتحليل أو مصادرة استنباطاته كلها عوامل تؤكد عالمية الإسلام. فليس الإسلام دين أمة واحدة بعينها، ولا هو دين طبقة خاصة بذاتها، ولكنه دين الإنسانية كلها ودين البشر جميعا من كل جنس[٢].

وبعد هذه المعارك الحامية والأخذ والرد، والفعل ورد الفعل، يفكر الإنسان لماذا هذا الهجوم الموجه على شخصية الرسول ﷺ ومضمون رسالته؟

نعتقد أن هذا نابع من شعور الخوف المسيطر على المستشرقين وإدراكهم أنه دين ذو أبعاد متعددة فهو دين أخلاقي؛ يرسي قيم الحق والخير والمحبة والكرم والسلام وهي القيم التي ناد بها الأنبياء السابقون والمصلحون الاجتماعيون، وقادة عصر النهضة وفلاسفة عصر التنوير.

وذو نزعة إنسانية؛ يدعو إلى احترام كرامة الإنسان أينما كان وحيثما حل، وإلى حب الإنسان لأخيه الإنسان وإلى التعارف والتعاون والتشارك في خدمة كافة أفراد الإنسانية، يرسم خريطة واضحة لنهضة البشرية ورقيها وسعادتها وله أبعاد حضارية ملموسة للارتقاء بالإنسان،

(١) الإسلام دعوة عالمية ص ١١٧: ١٢١.

(٢) العقاد: الإسلام دعوة عالمية ص ١٧٢

قواعده تشمل جوانب الحياة اليومية، وأبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والسلوكية وتتعامل معها بحركية واضحة تساير تطور الزمان، سهل الفهم والاستيعاب، واضح المنهج، سريع النفاذ إلى القلوب وضمائر البشر، مبادئه واضحة بلا غموض أو تعقيد، ليس فيه سلطة كهنوتية ولا وسائط بين المسلم وبين الله، عليه أن يصلي في أي مكان ، قائما أو قاعدا، المهم يتوجه بقلبه وحواسه وكيانه ووجوده إلى ملك الملكوت وقدس الجبروت.

لا شك أن المستشرقين يدركون مكمن القوة في حياة الرسول ﷺ ومعالم العظمة في شخصيته، وأنه يتحدى حضارتهم المادية العلمانية، المهزومة من الداخل، وأن قشرة التقدم التقني والانتصارات في مجال الكشوف العلمية والانتصارات في تحقيق مستوى اقتصادي مذهل، كل هذا حقيقة لكنه لا يمنع حالة القلق النفسي التي تعتري المواطن الأوربي وشعوره بالفراغ الديني، والاغتراب داخل مجتمعه، ولا يعالج التفكك الأسري و التفسخ الاجتماعي وغياب روح التضامن من المجتمع، ناهيك عن اختفاء البعد الديني، فيصبح المجتمع هشا مثل الشجرة التي ينخر في باطنها السوس. يقول وحيد الدين خان: «لقد أقامت العلوم والتكنولوجيا أبنية شاهقة، ولكنها نزعت السعادة من قلوب ساكنيها، وأقامت مصانع تتحرك بآلات هائلة؛ ولكنها حرمت عمالها الراحة التي يطمحون إليها»[١].

إن المستشرقين يخافون من زحف الإسلام على أوربة ومن ثم يحاولون بكافة الطرائق تشويه صورة الرسول ﷺ، وتسميم عقول شبابهم حتى لا ينجرفوا ويعتنقوا الإسلام.

ولا شك في عودة المد الإسلامي ثانية وتطبيق التجارب الإسلامية الناجحة مع انبثاق الوعي لقادة المسلمين وعلمائهم ورجالهم وما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى، فقد حدث ما حدث وفق سنة جارية، لا وفق معجزة خارقة. وقد قام ذلك البناء الشامخ على رصيد الفطرة المدخر لكل من يستنقذ هذا الرصيد، ويجمعه ويوجهه ويطلقه في اتجاهه الصحيح[٢].

***

---

(١) الإسلام يتحدى، ترجمة ظفر الدين خان، مراجعة عبد الصبور شاهين، الرسالة، ص ١١٩

(٢) سيد قطب: هذا الدين ص ٦٥



الفصل السابع
موقف المستشرقين من القرآن

تمهيد:

اختص الله كل رسول من رسله بكتاب مقدس فيه هدى ونور؛ رسم فيه معالم الطريق لهداية الأقوام الذين أرسل إليهم، واحتوى على جملة الأوامر والنواهي والحكم والتشريعات لتنظيم حياتهم اليومية، ومن هذه الكتب صحف إبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى، والقرآن الذي أنزل على محمد. ويرى أحد الباحثين أن القرآن لم يوح إلى النبي عن طريق الإلهام أي فيض الفكرة وإشراقها على عقل النبي كما نرى عند سليمان حينما ألهمه الله الحكم الصائب لصاحب الحرث أو إلهام يوسف في إجابته على صاحبيه اللذين دخلا معه السجن ، ولا التكليم من وراء حجاب كما اشتهر مع موسى كليم الله، وهاتان الطريقتان هما من طرق الوحي لأنبياء الله، ولا شك أن الرسول ألهم بعض الأمور ولكن غير القرآن، إلا أن القرآن كله لم ينزل إلا بواسطة الملاك جبريل، وهذه حقيقة مؤكدة لا مجال للارتياب فيها(١).

ولم يكن رسول الإسلام خارجا عن هذا القانون الإلهي، فأنزل الله عليه القرآن دستورا للمسلمين، ومنهجا للحياة الفاضلة ، وشرح فيه بإسهاب ما يحتاجه المسلم في حياته الخاصة والعامة وفي كافة مجالات الحياة؛السياسية والاجتماعية والعقائدية والتشريعية والأخلاقية، وما هو منوط به وما عليه القيام به وما يجب اجتنابه لتحقيق حياة نقية نظيفة مليئة بالسعادة والمسرات والفوز والنجاح فيها وفي الآخرة، ليس هذا فحسب بل فيه من التشريعات الإلهية والأحكام الربانية والقواعد الكلية ما تحتاجه البشرية في رحلتها القصيرة على هذه الأرض، فهي رحلة قصيرة أو لمحة خاطفة بالقياس إلى الزمان الإلهي. ويعد القرآن حجر الزاوية في الأخلاقية الإسلامية، إنه لا يصف الإنسان بمفهومه الماورائي، لأن الروح

---

(١) فضل حسن عباس: قضايا قرآنية ص ١٧١

من أمر الله وحده، ولكنه يأمره بسلوك ينبغي إتباعه، وعلى هذا تصبح جميع القيم الخلقية مماثلة للتقوى والعبادة[١].

هذه النصوص الكلية صالحة لكل زمان ومكان؛ فيها من العطاء الإلهي ما لا يحصره عقل فردي أو عقل جمعي، ولا يدركه فكر، ولا يحيط به علم؛ ولا يشرحه عصر؛فكلمات الله لا تنفد، وعطاؤه متجدد.

يستطيع الإنسان العاقل البصير بعقله اليقظ وضميره الحي ووجدانه السليم وخياله الجسور أن يستنبط منه ما يساعده في رقي حياته وتقدمها المستمر إلى الأفضل والأسعد. وصعودها إلى المرتقى السامق والمعراج السماوي. إن من المسلمات أن علوم الحضارة الإسلامية نبعت من القرآن، فعلماء الفقه استنبطوا قواعدهم منه، ورجال القانون وضعوا دستورهم استنباطا من معطياته، والمتكلمون أسسوا علم الكلام وقضاياه؛ صفات الله وحرية الإرادة والنبوات والبعث والإمامة تعويلا عليه، وكذلك فلاسفة الإسلام اعتمدوا فيما اعتمدوا عليه في البرهنة على وجود الله وصفاته والحرية الإنسانية ووجدوا سندهم في آياته، ولم يتأخر صوفيو الإسلام من العكوف عليه واستنباط مقاماتهم وأحوالهم ومواجيدهم، وكل المسائل التي خاضوا فيها؛المعرفة والفناء والمحبة والرضا والتوكل والشوق من آياته، ولذلك أخطأ هذا المستشرق وغاص في أعماق الجهل حينما قال: «إن هذا الكتاب الشهير (القرآن) يفتقر إلى الطابع الصوفي»[٢].

كل المسلمين يؤمنون أن القرآن معجزة الرسول ﷺ العقلية الخالدة التي كتب لها الديمومة والاستمرار والخلود في التاريخ، يتحدى به الإنسان عبر العصور؛أينما كان وحيثما حل، منزل من عند الله معنى ولفظا على قلب رسوله وقد اقتصر دوره على التلقي والبلاغ والشرح والتوضيح.

إن معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمدا كانت معجزات حسية وقتية، ومن ثم معرضة للنسيان السريع، في حين نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية؛المعجزة الخالدة، لأن

---

(١) بوازار: إنسانية الإسلام ص ١٤٢

(٢) من المقدمة التي كتبها إدوار مونتيه لترجمته للقرآن (نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ١٢٣)

تأثيرها دائم ومفعولها مستمر[١]. أضف إلى ذلك أن الإرادة الإلهية جعلت انتصار الإسلام وقوة الإيمان به آتيين من طريق الدليل اليقيني والاقتناع الصادق، والدين الذي يقوم على هذا الأساس أدعى إلى أن يؤمن الناس جميعا به، على كر العصور واختلاف الأمم وتباين اللغات[٢].

وفي ضوء ذلك اهتم به المسلمون كافة علماء وعامة؛ فلاسفة وحكماء، مشرعون وفقهاء أدباء وشعراء، نحويون وبلغاء ، قانونيون وفلكيون، زهاد ومتصوفة ، كل منهم في مجاله يقف أمامه يتأمل في آياته البليغة ومعانيه العميقة وبواعثه الطاهرة وأهدافه السامية ، يستنبط منه أحكاما رشيدة وقواعد سديدة وخططا بعيدة المدى تعمل على بناء الإنسان الكامل؛ ترسم الطريق السليم للأسرة المتحابة، وتحدد أركان المجتمع المتعاون، والدولة العادلة، والحضارة الإنسانية التي تحترم كرامة الإنسان.

لا جرم أن «المسلمين يكرمون كتابهم المنزل فيحفظونه عن ظهر قلب منذ نعومة أظفارهم ويتدارسونه بوصفه مفتاح المعرفة البشرية»[٣].

إن لهذا «الكتاب جوهر خفي له تأثير عجيب على العرب، فقد حول الرعاة والتجار والبدو والبسطاء إلى مقاتلين، وبناة إمبراطورية، ومؤسسي مدن كبغداد وقرطبة ودلهي، وإلى علماء وحكام ورياضيين. إن هذا الكتاب ولا شك عاون هؤلاء الرجال على أن يغزوا عالما أوسع من العالم الذي سيطر عليه الفرس والروم، وقد فعلوا ذلك في عشرات السنين، في حين استغرق في ذلك من سبقوهم قرونا»[٤].

يقول إميل درمنجم عنه (ت ١٩٧١): «إن كل نبي يجب أن يأتي ببرهان من طبيعة خاصة

---

(١) دينيه: محمد رسول الله ص ١٨٩

(٢) هيكل: حياة محمد ص ٧٢

(٣) رينولد نيكلسون: التصوف، ص ٩ (من كتاب تراث الإسلام ج٢، تحرير توماس أرنولد، ترجمة جرجيس فتح الله، منشورات الجمل، بيروت، ٢٠١٢). يقول العالم الأمريكي مايكل سيلز: ماذا يحدث عندما يدير سائق النقل العام شريط قرآن في سيارته المزدحمة في اليوم الحار في مصر: «يبدأ جو من التأمل الهادئ، وينتهي التسابق على الكراسي، ويخفض المتكلمون من أصواتهم، وتقل حدتها، يصمت الآخرون، ويغيبون في أفكارهم، ويحل شعور بالتآلف محل العناء» (كارين: محمد نبي لزماننا ص ٥٤).

(٤) بودلي: حياة محمد ص ٢٨٧

يكون آية صدق رسالته وهذا البرهان يسمى بالمعجزة وهو يختلف عما يأتي به الأولياء ويسمى كرامة... والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة».

ويقارن السفير الألماني المسلم والمفكر الموسوعي المبدع مراد هوفمان بين موثوقية العهد الجديد والقرآن فيقول: لم يظهر المسيح من خلال الأناجيل إلا كشخصية أسطورية غامضة الملامح، فلم نسمع مطلقا حديثا ليسوع رواه بنفسه قط، ولكننا قرأنا فيها بعد تفسيرات آخرين لما كان يقصده، وباعتبار العهد الجديد مصدرا ثانويا وليس مصدرا أوليا مباشراً، فإنه لا يجوز وضعه على قدم المساواة مع القرآن.. ثم يضيف لو طبقنا قواعد البحث التاريخي الإسلامي على «العهد الجديد» سوف نضطر إلى حذف كافة رسائل القديس بولس منه، لأنه لم يشاهد المسيح قط ولم يقابله[1].

هذه القضية التي تبدو أمامنا سهلة الفهم واضحة المعاني، محددة الأبعاد، لم تكن كذلك عند جمهرة المستشرقين، فعصىَ عليهم هذا الفهم، وتعذر عليهم إدراك هذه الحقيقة الواضحة بذاتها، فراحوا يتكلمون ويناقشون، ويذهبون كل مذهب ، ويجترون اتهامات طرحها الملأ من قريش وصناديدهم، ورد عليهم القرآن فكان من قوة منطقه وسلامة منهجه النقدي، وثبات موقفه وامتلاكه عين الصواب أن أثبت كل ادعاءاتهم، وسجل شكوكهم، وسطر تصوراتهم، ثم رد عليهم ردا طيبا وفند تصوراتهم ونقد مزاعمهم، كل هذا مستخدما الحكمة في الحوار وإيراد الاستدلال المنطقي والاستعانة بالدليل الحسي والعقلي والوجداني، وأطال الحوار، والنفس الطويل، ولم يسأم من إيراد كافة شكوكهم حتى ما كان يدور في خلدهم كشف خبيئة أنفسهم، ورد عليهم بالدليل المقنع، حتى زيف تصوراتهم ومحي أوهامهم وأتى بنيانهم من القواعد.

ونحن تأسيا بمنهج القرآن النقدي، سنقوم بإفساح المجال لاتهامات المستشرقين وعرض وجهة نظرهم مأخوذة من كتبهم والرد عليهم، اقتداء بقوله تعالى ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] والناس هنا تعني المؤمنين وغير المؤمنين؛ الملاحدة والشيوعيين والعلمانيين والطبيعيين وأنصارهم.

---

(١) يوميات مسلم ص ٥٩: ٦٠ .

يقول أحد الباحثين الكبار المناصرين للمشروع الإسلامي والمدافعين عن تراثه ورجاله وعلمائه، والذين بذلوا حياتهم في توضيح أبعاده وأسسه الحضارية: «فكما وسع الإسلام» دهرية الأمس الغابر «فأثبت مقولاتها في قرآنه الكريم، وحاججها بالبرهان..فإنه لن يضيق اليوم» بالدهرية المعاصرة، وهو قادر على تسفيه أحلام أصحابها، وإيرادهم موارد الدهريين القدماء.[(١)].

الطعن في مصدرية القرآن

قضية مصدرية القرآن، أهو منزل من عند الله أم من تأليف محمد؟ من القضايا التي سيطرت على عقول المستشرقين، وأخذت بألبابهم وعكفوا على دراستها واهتموا بها اهتماما واسعا، وأوغلوا في البحث والتقصي لكشف لثام الحقيقة، فمنهم وهم القلة التي اعتقدت أنه منزل من عند الله مثل باقي الكتب المقدسة التي نزلت من السماء مع الوحي ويمثل هؤلاء دافيد ستلانا david santillana (١٨٥٥-١٩٣١)[(٢)]، وأكثرهم ينكرون ذلك، ويستهجنون مسألة المصدر الإلهي، ويذهبون مذاهب شتى في هذا الاتجاه؛نظرا لتباين نشأتهم العلمية و بيئتهم الاجتماعية ومشاربهم الدينية ومواردهم الفكرية وتفاوت ملكاتهم العقلية ومواهبهم الشخصية؛ فمنهم المؤمن باتصال السماء بالأرض أي اليهودي والنصراني، فهذا يذهب مباشرة أن محمدا استمد قرآنه من مصادر الكتاب المقدس، ومنهم الملحد الذي ينكر الأديان جملة مثل بعض العلمانيين والماركسيين فهؤلاء يقررون أن رسولنا هو الذي ألف القرآن ودبجه على هذا النحو الرائع، لأنه عاش في مجتمع تميز بالتمكن من ناصية اللغة العربية وبلغوا شأوا بعيدا في البلاغة والفصاحة في القول، والأسلوب الأخاذ والقدرة على التعبير المبهر وإيجاد الصور البلاغية واستعمال الكناية والتورية، علاوة على القدرة على قرض الشعر وتصوير الوقائع بحيث يجسمها أمام المستمع فتصير صورة مجسمة رسمها فنان قدير في التو بألوانه الزاهية وريشته المتألقة.ونسوا في غمرة هذا الإنكار أن كل رسول يتحدث مع قومه باللغة التي تواضعوا ودرجوا عليها وهي أداة التفاهم والتواصل المعيشي والفكري والحضاري

---

(١) محمد عمارة: التفسير الماركسي للإسلام ص ١٢٠

(٢) ترجمته في موسوعة المستشرقين، ص ٢١٢، العقيقي، المستشرقون ج١/٤٢٥، محمد الزيني: المستشرقون في مصر، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٢٣٩

فيما بينهم، وهذا ما أقره القرآن، يقول تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]

وغني عن البيان فهم دوافع اهتمام المستشرقين اهتماما واسعا والتشكيك فيه، لأن معنى هذا تقويض الرسالة والرسول، فالقرآن كما ذكرنا هو محور رسالة الإسلام ومن يوجه سهامه للقلب يريد أن يجهز على الكائن الحي، ولكن هيهات فهي كلها محاولات بائسة وأحلام مراهقين، ذهبت أدراج الرياح.

يقول مايكل هارت: نزل القرآن على الرسول ﷺ كاملا، وسجلت آياته وهو ما يزال حيا، وكان تسجيلا في منتهى الدقة، فلم يتغير منه حرفا واحدا، وليس في المسيحية شيء مثل ذلك، فلا يوجد كتاب واحد محكم دقيق لتعاليم المسيحية يشبه القرآن، وكان أثر القرآن على الناس بالغ العمق[١].

أولا: مصدر القرآن من اليهودية والمسيحية:

١ - القس جورج بوش الجد (ت ١٨٥٩)

قابلنا هذا القسيس مرارا وعلمنا طبيعة شخصيته المترددة، ومنهجه الشكي الذي يسيطر عليه وأحيانا يخطئ في قراءة سيرة الرسول ﷺ إذ من الواضح أن الذخيرة العلمية لديه شديدة الفقر، وثالثة يبدل الوقائع ولا يتحرى الدقة في إيراد الأحداث التاريخية كما قال عن الإسراء أن السيدة عائشة كانت في حضن الرسول حينما جاءه جبريل.

وبصدد قضيتنا لم ينحز إلى موقف واحد، إذ ذهب سابقا بأن بحيرى الراهب ساعد الرسول ﷺ في تأليف القرآن، أما هنا فيشير في كتابه «بأن القرآن قد تمت صياغة محتواه. إلى حد كبير - من مواد العهدين القديم والجديد»[٢].

ولما كان الرجل لا يطمئن لهذا الطرح ولا يرتاح ضميره العلمي لهذا الرأي؛ لذلك نجده يراجع معلوماته، ويتأمل في نسق القرآن وينظر في موضوعاته، ويتحرى صدق وقائعه ويقرأ

---

(١) العظماء مائة ص ١٧

(٢) حياة محمد ص ٢٣١ (نقلا عن كتاب الرد على بوش ص ٨٠)

ما كتب حوله من جهابذة العالم وأساطين الفكر ثم يقارن بينه وبين صياغة الكتاب المقدس ومحتوياته ، فيجد البون شاسعا، فيعود ثانية يشكك في هذا الطرح ، ويعلنها صريحة.بأن آيات القرآن أرقى بكثير من أي بقايا تعود للقرن السابع سواء أكانت يهودية أم مسيحية، وأن أسلوبها أدنى كثيرا بلا شك من محتويات القرآن ومضمونه. ويخلص من ذلك إلى نتيجة خلاصتها: «ستظل مسألة حقيقة القرآن لا حل لها إلى الأبد، فليس لدينا أدلة حاسمة على تاريخ وضع القرآن، ولا نعرف إلى أي مدى كان محمد عارفا بالكتب المسيحية المقدسة»[1].

ونرد عليه بإيجاز، سيدي القس المبجل لقد قادك حسك البلاغي وشعورك الديني الباطني، ونور عقلك إلى إدراك الفارق بين القرآن والكتاب المقدس واعترفت بأن صياغة الأول أقوى وأبلغ من الثاني وأن مضمون القرآن يختلف عن الكتاب المقدس، وبدلا من مواجهة نفسك بالحقيقة لا سيما بعد الصفات الطيبة التي خلعتها على رسولنا الكريم، وتعترف بأن القرآن وحي من الله، رحت تخبط خبط عشواء. هذه نقطة.

الثانية: من قال لك إن مسألة حقيقة القرآن لا حل لها؟ هذا قصور في التفكير وجدل ساقط ومعاندة لحقائق الوجود، لأن الحل واضح وبسيط وهو أننا أمام نص ديني مقدس أوحاه الله لنبيه محمد، وإذ كان هذا لا يروق لك فأنت وشأنك، لكنه يروق لنا ونؤمن به إيمانا لا لبس فيه ولا شك.

ثالثا: نؤكد لك أن رسولنا ﷺ كان رجلا أميا ولم يكن عارفا لا بالكتب المسيحية المقدسة ولا الكتب اليهودية.ولم يطلع على أيٍ منها.ولم يذكر أي مؤرخ منصف أن هذه الكتب كانت متاحة في مكة، وأن رسولنا اطلع عليها.

رابعا: عدت تعترف بصعوبة ترجمة القرآن لأنه نص متميز وتقول: «إن الذين تعرفوا عليه في لغته الأصلية، فهناك اعتراف عالمي بأنه يتسم بامتياز لا حد له، لدرجة أنه لا يمكن ترجمته لأية لغة أخرى، إنه أي القرآن نموذج يحتذيه اللسان العربي، إنه مكتوب في معظمه بأسلوب نقي وأنيق»[2].

---

(١) حياة محمد ص ٢٣٨ (نقلا عن كتاب الرد على بوش ص ٨٠: ٨٥)

(٢) حياة محمد (نقلا عن كتاب الرد على بوش ص ٨٦: ٨٧

ونرد عليك بوجهة نظر أحد المستشرقين المتذبذبين مثله بين الاعتراف بأن القرآن وحي من الله ثم تأخذه العزة بالإثم فيتراجع ويقرر أنه من تأليف محمد، ومع ذلك ينكر أن يكون الرسول ﷺ قد استفاد من الكتاب المقدس، أو من داود وأشعيا النبيان العبرانيان، ومن يقول بذلك فقوله ليس صحيحا، فليس النبي العربي مقتبساً ولا سارقاً، إذ عن معرفته بكتب اليهود كانت مشوهة وغير مباشرة[١].

ولا شك أن كلامه الأخير ليس صحيحا لأن الرسول ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب فلم يطلع على كتبهم، وكانت معرفته عن اليهود كلها معلومات مستقاة من أحبارهم من خلال الحوارات التي دارت بينهم، وأسئلتهم التي كانوا يوجهونها له بقصد التعجيز، كما في سؤالهم عن الروح.

٢- جوستاف فايل (١٨٠٨ - ١٨٨٩)

- من الصنف الأول الذي يؤمن باستمداد الرسول ﷺ قرآنه من اليهودية، جوستاف فايل[٢] gustav weil المستشرق الألماني اليهودي في كتابه «التوراة في القرآن». ولاشك أن المطالع لعنوان الكتاب يدرك بلمحة واحدة أهداف «فايل» وما الفكرة التي يريد أن يوصلها إلى عقل القارئ مباشرة، ويجعلها تسري في كيانه فتستقر في الشعور مباشرة دون برهان أو مقدمات صادقة أو كاذبة، فهذا نوع من الإيحاء النفسي تستعمله الصحف الشعبية التي تعتمد على المبالغة و التهويل والأخذ بألباب القراء لقبول الخبر والاعتقاد بصدقه، دون أن تعطيهم فرصة كافية للتأمل والتفكير أو التحليل والرفض.

الإشكالية أن فايل ينطلق في هذا الكتاب من إيمان راسخ واعتقاد ثابت وقناعة مسبقة تربى عليها ونشأ في أحضانها بأن الرسول ﷺ اقتبس معظم نصوصه واستعار أفكاره من اليهودية، هذا من ناحية؛

ومن ناحية أخرى: عنده إيمان في صدق مقولة شهيرة روج لها القساوسة منذ ظهور

(١) هيلير: محمد والقرآن (نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ١٠٧ .

(٢) ترجمته في: نجيب العقيقي: المستشرقون ج٢/ ٣٦٦، موسوعة المستشرقين ص ٣٩٠، محمد الزيني: المستشرقون في مصر، ص ٢٢٢ .

الإسلام وانتشاره بين الشعوب المسيحية ثم زكاها رهبان العصور الوسطى ونشروها في الأوساط العلمية وأصبح لها شهرة واسعة في الوسط الاستشراقي، بأن محمدا ﷺ استمد نصوص قرآنه وقصص الأمم السابقة ورؤية الأنبياء وأحداثه التاريخية من التوراة،

في ضوء ذلك اعتمد على المنهج المقارن، في قراءة نصوص القرآن، فكلما مر بقصة ذكرها القرآن مثل قصة الطوفان أو قصة يوسف وهجرة يعقوب وأسرته إلى مصر ولها مثيل ونظير في التوراة، أو حادثة وقعت لأحد الرسل السابقين مثل هجرة إبراهيم وابن أخيه لوط إلى فلسطين، أو ذكر قوم من الأمم البائدة، ربط بين الموقفين، وقرر باعتقاد يصل إلى حد اليقين بأن محمدا ﷺ استمد نصوصه وآياته من الكتاب المقدس، واستعان بثقافته الواسعة وتجاربه في الحياة وأثناء رحلاته واتصاله بورقة بن نوفل، وكان ماهرا في هذا الاقتباس، أضف إلى ذلك أسلوبه العربي الأخاذ، وقدرته الفائقة في سبك العبارة كعربي فصيح عاش في مجتمع تميز بالقول البليغ.

هذه المقولات البالية مازال يرددها بعض المستشرقين حتى يوم الناس هذا ونقرأها في كتبهم، ومنهم مستشرقون كبار مثل جولتسيهر و جوزيف هورفيتز وهنري لامنس.

الناظر في سيرة فايل يدهش من هذا الطرح العجيب و التعصب المقيت؛إذ إن الرجل عاش في الجزائر ثم انتقل إلى مصر ومكث خمس سنوات يدرس اللغة الفرنسية في المدرسة الطبية، وتعلم اللغة العربية على يد عالمين من علماء الأزهر هما؛ محمد عياد الطنطاوي (١٢٢٥- ١٢٧٨)[1] وأحمد التونسي (١٢٠٤- ١٢٧٤/ ١٧٩٠- ١٨٥٨)[2]، ثم زار تركيا

---

(١) يعد من المؤرخين المصريين؛ ولد في محلة مرحوم، بمحافظة الغربية، تعلم بالأزهر، كان على علاقة طيبة بكثير من المستشرقين الذين استعانوا به لتعلم اللغة العربية وفهم أبعادها، أعير إلى معهد اللغات الشرقية ببطرسبورج، واستمر في التدريس حتى وافته المنية في الغربة ودفن في قازان. من أهم مؤلفاته: منتهى الأراب في الجبر والميراث والحساب، ومسودات لتاريخ العرب، وأحسن النخب في معرفة لسان العرب وهو كتاب في اللغة العامية المصرية، ط، ليبسك، ١٢٦٤هـ/١٨٠٨، مسودات تاريخ العرب، تاريخ روسيا، رسالة عن الأعياد المصرية (العقيقي ج٣/ ٢٤٤)، والأعلام ج٦/ ٣٢٠، جمال الشيال:التاريخ والمؤرخون في مصر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٠/ ٢٠٠ ص ٢٥٠ . وقد ذكر الرحالة إدوارد لين أنه من أصدقائه، (عادات المصريين ص٣٠٥).

(٢) ذكر د الشيال أن اسمه محمد عمر التونسي، ومن مؤلفاته؛ تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، ترجمه د. برون إلى الفرنسية، ونشر في باريس، ١٨٥٥، رحلة وادي، لم ينشر النص العربي وترجمه برون إلى الفرنسية، باريس، ١٨٥١، الشيال: المصدر السابق ص ٢٤٢)

واطلع على المخطوطات في مكتباتها العامرة حيث كانت عاصمة الخلافة الإسلامية؛ معنى ذلك أنه عاش في وسط إسلامي والتحم بعلماء الإسلام واطلع على تراث علماء الحضارة الإسلامية، وعايش المجتمع المسلم وتفهم نفسيته وشاهد عادات المسلمين وتقاليدهم وحبهم للقرآن، وأبصر الحقيقة عن قرب، من هذه المعطيات الجلية كان من الواجب عليه أن يكون أكثر إنصافا للقرآن و يعالج القضية معالجة علمية، بعيدا عن الأهواء الشخصية ويتخلى عن رؤيته المسبقة والآراء المترسبة في اللاشعور.

٣ - وعلى هذا الدرب يسير المستشرق اليهودي جولدتسيهر ويقتفي خطوات فايل أخيه في الدين فيكرر المقولات ذاتها، فكلما مر بآية قرآنية لها نظير في التوراة صرخ بأعلى صوته: هذا مقتبس من التوراة، كأنه راعي غنم فقد غنيماته ولما رآها من بعيد صرخ قائلا وجدتها، ومن هذه النماذج التي اتكئ إليها إشارة القرآن إلى غضب سيدنا موسى من بني إسرائيل حينما عاد فوجدهم يعبدون العجل، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] وهنا ينبري هذا المستشرق زاعما: «أن هذا ينطبق في الواقع على ما جاء في سفر الخروج الذي هو مصدر الكلمات القرآنية»[(١)].

وفي موضع آخر وهو يتكلم عن تحرج بعض العلماء الخوض في تفسير القرآن، وخشيتهم ولوج هذا الباب، يكرر فكرة التأثير والاقتباس. فيقول: «وفي تفسير القرآن بدا هذا النزوع إلى القصص والأساطير دائرة خاصة.كان هناك ما ورد في الكتب السابقة من مختلف القصص، التي أجملها محمد نفسه بمنتهى الإيجاز، وأحيانا على وجه متداخل»[(٢)].

ونرد عليه وعلى غيره من المستشرقين، ليس معنى ورود قصة موسى في القرآن، أو

---

(١) جولد تسيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٠. وقد علق عبد الحليم النجار على النص بقوله: هذا تقول بالباطل على القرآن، بل المصدر هو اللوح المحفوظ للتوراة والقرآن وغيرهما من الكتب السماوية، كما قرر المؤلف في صدر كلامه.

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي ص ٧٥. ومن الجدر بالذكر أن جولد تسيهر اعتمد اعتمادا كليا على كتاب نولدكه تاريخ القرآن، لا سيما فيما يتعلق بالفصل الخاص باختلاف القراءات وأنواعها وجمع القرآن وعول عليه تعويلا عظيما، زد على ذلك أنه مدح الكتاب ومؤلفه مدحا ملحوظا.

قصص الأنبياء وسرد صراعهم مع أقوامهم وأساليبهم في هداياتهم وإرشادهم إلى النهج السليم ودروهم في الأخذ بأيديهم إلى طريق الرشاد والخير والسداد، نقول ليس معنى ذلك أن الرسول ﷺ استمد قرآنه من الكتب المقدسة السابقة، ولكن معناه الصحيح أن مصدر جميع الكتب السماوية من الله، علام الغيوب؛ ولما كانت هذه الحوادث جرت في التاريخ وهي عبارة عن وقائع شهدها الناس تعبر عن صراع الحق مع الباطل والخير مع الشر، لذلك يقوي الله عزيمة رسوله بشرح المواقف الصعبة التي تعرض لها إخوانه من الأنبياء، وصنوف المتاعب وألوان العذاب التي عانوها من أقوامهم، وعليه أن يقتدي بهم في قوة التحمل والجلد وطول النفس والصبر، ويصبر الصبر الجميل على أذى قريش وشدة بأسها وعنف معارضتها. ويبشره بأن انتصار الحق على الباطل قادم لا محالة، وهو وشيك الوقوع، فلا تيأس من بطئ قدوم الحق وانتصار الخير على الشر.

ويرفض كاستري ادعاء ات تأثر الرسول ﷺ بكتابات اليهود والنصارى وينكر على المستشرقين كافة مقولاتهم مؤكداً: «أنه قد ثبت» أن محمداً ﷺ لم يقرأ كتابا مقدساً ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه[1].

٤- رأي تيودور نولدكه:

يصر هذا المستشرق على مقولة أن الرسول ﷺ اقتبس قرآنه من كتب اليهود والنصارى أي من الكتاب المقدس ويكرر ذلك أكثر من مرة، وفي الوقت نفسه يتوجه إلى نقد وجهة نظر المستشرقين الذين يذهبون مذاهب متعددة؛ فمثلا يذهب اشبرنجر أن الرسول ﷺ كان عالما بالكتب و اقتبس قرآنه من أساطير الأولين ومن صحف إبراهيم وموسى، ويرى نولدكه أن هذه محاولة متعسفة ونزقة وينفي أي إمكانية لمحمد باعتماد مصادر مكتوبة، ويقرر أن أهم أجزاء تعليمه اقتبسها شفويا من اليهود والمسيحيين على الأرجح. ويستشهد على صحة وجهة نظره بقول القرآن ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴾ [الفرقان: ٤] ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] وقد نسي هذا

(١) الإسلام خواطر وسوانح ص ٣٩

المستشرق الجهبذ ذكر القرآن لجملة الآراء التي طرحها كفار قريش فكان من بين أقوالهم أن هذا كذب اختلقه محمد وقد أعانه عليه قوم آخرون سواء أكانوا من العرب أو من اليهود والنصارى، وهذا يعبر عن قوة موقف القرآن وإتاحته مساحة واسعة لحرية الرأي من خلال عرض آراء المخالفين له، ثم الرد عليها ودحض كافة الآراء التي اخترعوها.

على أن اشبرنجر يطرح وجهة نظر أخرى مفادها أن من مصادر قرآن محمد الشفوية استفادته من أقوال زيد بن عمرو نفيل وتعبيراته التي كانت تشبه القرآن ومن المعلوم أنه قاوم عبادة الأصنام في مكة. وينهض نولدكه مرة أخرى بدحض هذه المقولة ويرى عدم التعويل عليها لأنها متهافتة.

ثم يلفت إلى وجهة نظر كليمان هوار الذي ينسب «لنفسه فضل اكتشاف مصدر جديد من مصادر القرآن في بعض قصائد أمية بن الصلت. لكن معظم المواضع التي يسوقها لدعم فرضيته تخضع للشك القوي بأنها مزورة تحت تأثير القرآن. أما المشابهات الأخرى فيمكن تفسيرها بأن أمّية نهل مثل محمد من معين الروايات اليهودية والمسيحية»[1].

ويخلص نولدكه من كل ذلك إلى تقرير أن خلاصة دين محمد ﷺ يتكون من الاعتقادات الدينية التي اعتنقها قومه وكانت سائدة في الجاهلية، وبعض الأساطير السائدة في مجتمعه مثل الإيمان بالجن، وقام بتعديل بعض الطقوس المتعلقة بالكعبة والحج ناسبا إياها إلى أصول إبراهيمية، أضف إلى ما سبق مزج الأساطير العربية القديمة المتعلقة بأسماء مناطق جغرافية وأشعار تاريخية مثل التي تشير إلى عاد وثمود وسيل العرم، أخذها وبدلها تبديلا بحسب قصص أنبياء اليهود[2].

- الحقيقة هذا كلام يشبه هذيان السكارى ولا يمت إلى الفكر العلمي بصلة أو ينسب

---

(١) تاريخ القرآن ص ١٣ : ١٨. من المهم بمكان أن نشير أن كافة هذه الآراء وردت في الموسوعة البريطانية إذ ذهبت إلى القول: «إن المستشرقين الذين قاموا بتحليل محتويات القرآن استخلصوا بأن كثيرا من المادة القصصية والمذكور فيها أشخاص وحوادث في التوراة، هي غير مشتقة من التوراة بل من مصادر نصرانية ويهودية متأخرة، وأن اعتماد محمد على نقل هذه المعلومات لم يكن اعتماداً حرفيا، بل أخذ من آثار شفهية» (نقلا عن فضل حسن عباس: قضايا قرآنية، في الموسوعة البريطانية، ص ١٨٨).

(٢) تاريخ القرآن ص ١٨

إلى الوقفة الموضوعية. فهذا تخليط في القول وتجديف في العرض؛ وكل الذي عرضه كلام متهافت ومبتسر لأننا بصدد خليط غير مفهوم ومزاعم متهافتة.

فأولا: جاء الرسول ﷺ يحارب عادات قومه الفاسدة، وتقاليدهم البالية غير الأخلاقية مثل شرب الخمر والزنا والزواج من زوجة الأب وهي في مقام الأم، وقيام الحروب بينهم على أتفه الأسباب وإزهاق الأرواح، والعصبية للقبيلة، وغير الإنسانية مثل وأد البنات، وقد عانى منهم معاناة شديدة وهو يشرح لهم أبعاد معالم الطريق النظيف.

ثانيا: قلنا مرارا أن ما ذكر في القرآن عن الأحداث الموغلة في التاريخ مثل الفراعنة والأمم القديمة وقصص الأنبياء وحي يوحي من عند علام الغيوب لأن الرسول ﷺ كان رجلا أميا ولو كان يقرأ ويكتب، وعنده مكتبة تشبه مكتبة الأسكوريال، لتسارع القرشيون وأعلنوا ذلك على الملأ، وأذاعوه في كل ناد، ولكن بعضهم من باب الحسد الخفي و الكيد وهدم رسالته كانوا يزعمون أن هناك فتى أعجميا يكتب له القرآن وكان هذا من باب الحرب النفسية والأطر الكاذبة والغوغائية الدعائية. أضف إلى ذلك إن الطقوس التي قام بها الرسول ﷺ كان العرب يقومون بها، وهي من بقايا دين سيدنا إبراهيم الذي بنى الكعبة ومعه ابنه إسماعيل جد العرب.

ثالثا: الإشكالية عند هذا المستشرق الذي وصفه يوهان فوك بأنه «أعظم مستشرقي عصره الألمان، رزق بالموهبة الإلهية؛ طهارة قلبه واستقامة خلقه»[1]- وعند غيره من المستشرقين. أنه ينكر إنكارا تاما أي صلة بين الرسول ﷺ والسماء وينفي نفيا مطلقا أي صلة له بالنبوة، وينطلق من ثوابت راسخة في عقله وهي أن الرسول ﷺ مجرد رجل طيب وإنسان نبيل رقيق العواطف زاهد في الحياة ومفكر عميق الفكرة تأثر بالمحيط الاجتماعي، ونظرا لتأملاته العميقة في أحوال مجتمعه، وقراءاته الموسعة في كتب اليهود والنصارى اعتقد أن هناك هاتف باطني أو نداء داخلي ينبعث من أعماقه أن ينهض لإصلاح مفاسد هذا المجتمع، فتبنى جل مقولات الكتاب المقدس وراح يبشر بالأخلاق الفاضلة والدعوة إلى الخير العام واجتناب الآثام والأعمال المنكرة وعلى الجملة فهو مصلح ديني عطوف على مجتمعه تحمل المصاعب في توجيه أهله وعشيرته إلى الطريق المستقيم.

---

(١) تاريخ حركة الاستشراق ص ٢٢٥

رابعا: يبدو من المستحيل أن تقنع إنسانا قد أطر عقله وسد أذنيه ومنافذ الفهم عنده، وأغلق عينيه وبصره وبصيرته أن يسمع قولة الحق وأن يدخل في نقاش محايد وحوار علمي، لماذا يوافق على وجود قضية إرسال الرسول من السماء لهداية البشرية وتجلى ذلك عند الأنبياء السابقين وأبرزهم إبراهيم وموسى وعيسى ثم ينكر ما وراء ذلك أو ما بعد ذلك، أليس هذا هو التناقض بعينه؟ فإذا كان الإقرار بأن هناك علاقة بين السماء والأرض فلماذا لا تكون إلا وقفا على موسى وعيسى ولا تمتد إلى محمد ﷺ الذي هو خاتم المرسلين بشهادة الوقائع المادية والحوادث التاريخية والمصادر العلمية والمراجع العديدة، والقرآن الكريم الذي لا يؤمنون به؟

لماذا نصدق أقوال المستشرقين المتحيزة وهم يدرسون حضارتنا من الخارج، أي من ظواهرها دون أن يستبطنوا أبعادها الأخلاقية والدينية والقيمية، وقد دخل الآحاد منهم في معمعة البحث وهو يحمل على ظهره تاريخ طويل مناقض تمتم المناقضة لتاريخنا، وفي عقله مئات من الأفكار المناوئة للإسلام، نعم لماذا نصدقهم ونكذب أقوال مؤرخينا التي نقلت إلينا نقلا موثقا عبر أجيال الحضارة الإسلامية؟

لتذهب أقوالهم إلى الجحيم، وصراع الوجود وجدلية الفكر والحياة هي التي تفرز الغث من الثمين والزبد من الجفاء والحق من الباطل، ولا شك أن رسوخ المبادئ والقيم هي التي تمكث في الأرض لأنها ينبوع الحياة وبلسم للقلوب الطاهرة ودواء البشرية والتي تمدنا بالروح الدفاقة والعزيمة القوية. ونؤمن إيمانا لا شك فيه بانتصار الإسلام، ونراه قريبا ويرونه بعيداً.

خامسا: نتوقف عند زعم كليمان هيوار بأن الرسول ﷺ استمد قرآنه من شعر أمية بن أبي الصلت وأنه استعان به في نظمه. ذكر المؤرخون أن أمية كان من الذين أشاعوا فكرة ظهور نبي بين العرب، وكان يحلم بأن يكون هذا النبي، ومن الواضح أنه حسد الرسول ﷺ وكانت مواقفه معبأة بالكراهية والعداء له، ولم يتورع عن هجائه وهجاء المسلمين ونصرة القرشيين. ويقال أن الرسول ﷺ لما سمع شعره قال: آمن شعره وكفر قلبه.

الناظر في شعر أمية على فرض نسبته إليه ليس بينه وأسلوب القرآن صلة لا من قريب ولا من بعيد، لا في نسقه ولا في معانيه العميقة ولا في صوره البلاغية ولا طرحه المتضمن

الأوامر والنواهي والحكم والتربية الأخلاقية. ثم إن هذه الأشعار كانت متداولة بين القرشيين وهم بطبيعتهم يتميزون بملكة الحفظ وجودة التذوق، وكانت المساجلات الشعرية الهجائية لا تتوقف بين فريق المشركين المناوئين للدعوة وفريق المناصرين للرسالة والرسول ﷺ؛ فلو كان الرسول اقتبس شيئا منه لطار الخبر في آفاق مكة، ولشنع القرشيون الذين كانوا يتربصوا بالرسول الدوائر، ويبحثون له عن أي هفوة أو نقيصة حتى يذيعوها بين القبائل، وبالطبع لم نكن لننتظر قرونا متطاولة حتى يكتشف السيد هيوار هذا الاكتشاف العجيب، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى؛تتجلى الإشكالية عند معظم المستشرقين في جملة الأفكار المترسبة في وعيهم اللاشعوري والتي يؤمنون بصحتها بداهة، ومن ثم حينما يدخلون حلبة النقاش، يفرضون فروضا وهم مؤمنون بصحتها مسبقا، ثم يحاولون جمع الشواهد والأدلة التي تؤيد هذا الفرض، دون النظر إلى الأدلة القوية والشواهد الكافية التي تنفي هذا الفرض وتهدمه، وكما ذكرنا أن الفرض ما هو إلا تفسير مؤقت للظاهرة التي نحن بصددها فإذا ثبت خطأه، تجاوزناه إلى فرض آخر، ولكن المستشرق لا يريد ذلك يريد أن يبرهن على صحة أفكاره وهنا مكمن الخطأ ومحل الانحراف عن قواعد المنهج العلمي.

ومن ناحية ثالثة؛ رد عليه طه حسين ردا مفحما، على الرغم من أنه أفصح عن إعجابه بهذا المستشرق وبغيره من المستشرقين وبالنتائج العلمية التي يتوصلون إليها في بحوثهم حول تاريخ الأدب العربي، ومع هذا فقد تعجب من منهجه الذي ينظر للقضية بعين واحدة ومن زاوية معينة تروق له ويغفل النظر لها من جميع الزوايا ويجانف الحقيقة فيقول: الغريب من أمر المستشرقين وأمثاله أنهم يشكون في صحة السيرة ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود، فلا يرون في السيرة مصدراً تاريخيا صحيحا وإنما هي طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق العلمي، ولكنهم يقفون من شعر أمية موقف المستيقن المطمئن، مع أن أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة.فما سر هذا الاطمئنان الغريب إلى نحو من الأخبار دون النحو الآخر.؟ أيمكن أن يكون المستشرقين أنفسهم لم يبرءوا من هذا التعصب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات؟[1]

---

(١) في الأدب الجاهلي، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٣٣، ص ١٤٦

سادسا: لاحظت أن جمهرة المستشرقين الذين عاصروا نولدكه مثل جولدتسيهر وكليمان هيوار وإدوارد مونتيه وكيتاني، ومن جاء بعده أمثال بروكلمان وهاملتون جيب وبلاشير وغيرهم لا يحصى عددهم، عولوا على كتاب نولدكه «تاريخ القرآن» اعتمادا واضحا، وكل من يريد أن يهاجم القرآن في قضية الجمع والترتيب، ومصحف سيدنا عثمان والمصاحف الأخرى، وحدود السور المكية والمدنية ومواضعها، وتقديم آيات القرآن وتأخيرها ونقل هذه هنا وتلك هناك، وهذه صحيحة وهذه مدسوسة، يستشهد به، وأصبح بالنسبة إليهم «إنجيل المستشرقين» والمرجع الأول للطعن في قدسية القرآن، دون مراجعة كلام نولدكه.أو النظر في القضية نظرة محايدة أو معالجتها بموضوعية.

٥ -مزاعم هيرشفلد hirrchfeeld h, (١٨٥٤ - ١٩٣٤)[1]

من المهم بمكان أن نشير في هذا السياق بأن هيرشفيلد ادعى بأن القرآن اقتبس كثيرا من تعاليمه وأقواله من سفر المزمور من العهد القديم وعقد مقارنات طويلة بين بعض نصوص القرآن وما ورد في العهد القديم، وقد تصدى له الدكتور بدوي بموسوعيته المعروفة وإحاطته بكتب المستشرقين في مصادرها الأصلية ومعايشته لهم في أوطانهم، وسعة اطلاعه على كتب اليهود، ونقد هذه المقارنة المتهافتة وأثبت بالدليل الحي والحجة المرئية أنه لا يوجد أي صلة بين النصين، وأن هذه الادعاءات الكاذبة كلها محض خيال، وهذه الموازنة التي طرحها تعد اخاطئة، ونقتبس مثلا واحدا لهذه المقارنة:

- سورة الرحمن	- العهد القديم.
- الشمس والقمر بحسبان	- الشمس لحكم النهار.
والنجم والشجر يسجدان	- والكواكب لحكم الليل.
- والسماء رفعها ووضع الميزان	- الصانع السموات بفهم.
- والأرض وضعها للأنام	- الباسط الأرض على المياه.

(١) مستشرق يهودي، ولد في ألمانيا، وهاجر إلى انجلترا، رسالته كانت عن العناصر اليهودية في القرآن، عين مدرسا في كلية الجامعة بلندن. ترجمته في: موسوعة المستشرقين ص ٦٠٩

(سورة الرحمن الآيات ٩:٥) (سفر المزمور٥: ٩)

وبعد أن يبين لنا بأنه لا يوجد أي شبه بينها، يقول: «أي تهيؤات جعلت هيرشفيلد يؤمن بوجود وجه شبه أو ربما اقتباس هنا»[1].

الناظر في نصوص القرآن وأقوال العهد القديم لا يلحظ أي تشابه بينهما لا في الأسلوب ولا في الصياغة ولا في معطيات القرآن الثرية التي تتكلم عن عناصر الطبيعة؛ الشمس والقمر التي تسجد في عبودية كاملة لله، والعناية الإلهية التي خلقت الأرض وأبدعتها وهيئتها وذللت أجناسها وأنواعها لخدمة الإنسان.في حين يتكلم النص التوراتي عن مواقيت المواقيت من خلال النظر في حركة الليل والنهار.

ويفسر العلامة العقاد علة الخلل عند أصحاب هذه المقارنات فيقول: أساس الخطأ اعتقاد اليهود أنهم مصدر العقائد الدينية التي احتوتها التوراة، وأنهم هم الذين تلقوا وحيها لأول مرة من أنبيائهم غير مسبوقين إليها....، إن مراجعة التوراة يظهر لنا أن اليهود تلقوا أهم العقائد الكونية وأهم التعاليم الشرعية ممن تقدم أنبياءهم في الزمن، بل من الشعوب التي عاشوا بينها وكان فيها أناس من أتباع الرسل الأقدمين.

ثم يمضي يوضح الفروق العظيمة بين العقيدتين؛ فالله عند بني إسرائيل إله القبيلة، وفي الإسلام هو إله الخلق أجمعين. والنبوة عندهم صناعة خوارق وكشف خبايا، وفي الإسلام رسالة هداية وتعليم، وبلاغ إلى العقل والضمير. والحساب عند بني إسرائيل يأخذ الأبناء بذنب الآباء، ولكن في الإسلام، لا يأخذ إنسانا بجريرة إنسان ولا تزر وازرة وزر أخرى[2].

وقد تساءل أحد المؤلفين العرب (الأستاذ بشر فارس) وطرح سؤالا:هل الإسلام من صنع اليهودية والمسيحية؟ ثم أجاب بالنفي. بسبب بُعد المسيحيين العرب عن تأثير الرعاية المناسبة للكنيسة، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى: أكدت المراجع التاريخية عدم وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس، ودليل ذلك أن الإمام الغزالي اضطر أن يلجأ إلى مخطوط قبطي في تحرير كتابه «الرد على من ادعى ألوهية المسيح». وذكر المؤرخون أن أول نص مسيحي

---

(١) دفاع عن القرآن ص ٢٥ وما بعدها

(٢) ما يقال عن الإسلام، دار العروبة، القاهرة، ص ٦٦: ٦٧

ترجم إلى العربية كان مخطوطا بمكتبة (القديس بطرس)كتب حوالي عام ١٠٦٠ م. ثم لو أن الفكرة اليهودية المسيحية كانت موجودة لتغلغلت في الثقافة العربية والبيئة الجاهلية وهذا ما لا وجود له(١).

٦ - راي بروكلمان

ذكرنا سابقا أن المستشرقين يتأثرون بأطروحات زملائهم وأحيانا يأخذونها قضية مسلما بها دون أن يناقشونها ويكررونها بطريقة مملة، وهذا ما نلمسه عند هذا المؤرخ الكبير إذ ينتهز كل مناسبة للغمز في رسالة الرسول وتأثره بفكر من سبقوه، فالدعاء الذي كان يمارسه بحرارة سار على منوال الزهاد النصارى، والوضوء الذي يسبق الصلاة كان مألوفا عند بعض فرق النصارى، وإشارته لقصص الأنبياء يأتي من خلال معرفته معرفة سطحية بالكتاب المقدس، وحديثه عن أهل الكهف، وغيرها من الموضوعات فهو اقتبسها من إنجيل الطفولة، وكذلك ما يتعلق بهلاك قبيلة ثمود والنبي صالح، وفي هذه القصص ينزع أسلوبه أن يكون أكثر إسهابا وأقل توقداً(٢).

٧- وجهة نظر إسرائيل ولفنسون (ت ١٩٨٠)

نستطيع أن ندرج ولفنسون ضمن الذين يشيرون من طرف خفي أحيانا وبطريقة مباشرة أحيانا أخرى إلى أن الرسول ﷺ تأثر بالفكر الديني اليهودي في عرضه لآيات القرآن وذكره لقصصه والحوادث التاريخية التي ذكرها، وكذلك حينما قام بتقديم نفسه لقريش وللقبائل العربية على أنه مثل نبي الله موسى.

وبادئ ذي بدء نود أن نشير إلى أن كتاب ولفنسون ما هو إلا قصيدة شعرية في مدح اليهود وتمجيدهم عبر العصور، وأنشودة يهتف بها في كل حين، وصوت صارخ يعبر عن أفضال اليهود وتاريخهم المشرف ومجدهم الأثيل ووحدانيتهم في مقابل وثنية باق الشعوب التي عاشوا في كنفها، وشرح واف للعذابات التي تعرضوا إليها من الدولة الرومانية، في فلسطين واليمن، ويركز على نشاطهم الواسع وجهودهم العظيمة وفنونهم المتعددة في

---

(١) الظاهرة القرآنية ص ٢٥٨: ٢٥٩

(٢) تاريخ الشعوب ص ٣٨، ٣٩ نؤجل الرد عليه مع ردنا على ولفنسون .

الزراعة والصناعة وإعداد الجيوش والانتصار على أعدائهم، وكيف أنهم أصحاب علم ومعرفة ومال وتجارة ناجحة وثروات طائلة وأينما حطوا رحالهم المتنقل في أي مكان قفر حولوه إلى حديقة غناء، وزرعوه بالنخيل والأشجار والثمرات، وعندهم مقدرة عظيمة على بناء الحصون والآطام في أعالي الجبال خاصة حينما هاجروا من فلسطين وسكنوا مدينة يثرب قبل ظهور الإسلام، وذلك خوفا من بطش الأعراب المتخلفين الهمجيين عباد الأصنام الذين يطمعون في ثرواتهم، وهم أهل كتاب وديانة توحيدية ونزعة روحانية واضحة، وأن تأثيرهم في النفوس العربية الحجازية أكبر من تأثير النصرانية التي كانت تعيش على أطراف الجزيرة العربية، وفي كل سطر يسقط ثقافته وعلمه واعتقاداته ويهوديته المتغلغلة في أعماقه على حوادث التاريخ فاليهود هم الإسرائيليون، وفلسطين هي وطنهم التي عاشوا فيها قبل أن يطردهم نبوخذ نصر ويهدم هيكلهم ويدمر مدينتهم، وهذا ما قام به بيلاطس الروماني، والقدس هي أورشليم، وهكذا.

الحقيقة نحن بصدد قسمة ضيزى؛ فاليهود عبر التاريخ هم أهل الكتاب المتحضرون الروحانيون الطيبون المسالمون و أصحاب المال والتجارة والنبع الدفاق لكل الفضائل، ومصدر كل القيم الإنسانية في مواجهة العرب الأميين المتخلفين عباد الأصنام والأوثان والذين يتربصون باليهود الدوائر.

هذه هي الخلفية العقائدية والنزعة الدينية التي ينطلق منها ولفنسون في عرضه لصورة الرسول ﷺ وقرآنه، وكذلك تعويله على مقولات المستشرقين والاقتداء بمنهجهم، واقتباسه الواضح من كتبهم بشكل لافت للنظر، وإن كان يرد عليهم إن كان الأمر فيه تنقيصا من شأن اليهود أو استصغارا لوضعيتهم فينبري بتفنيد رأيهم[1].

. يتبنى ولفنسون وجهة نظر تيودور نولدكه في أن آيات القرآن التي نزلت بمكة كانت موافقة لمبادئ التوراة الجوهرية وكانت ترمي إلى التأثير في نفوس العرب التي كانت تنظر باحترام إلى تعاليم التوراة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾

[الأعلى: ١٩]

---

(١) تاريخ اليود في بلاد العرب ص ٢: ٩٣ .

كذلك كانت الآيات تؤكد للعرب أن محمدا لهم مثل موسى لبني إسرائيل، وإن لم يؤمنوا به، أصابهم ما أصاب قوم فرعون، يقول: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٥].

كما يقول: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٨] نفس هذا التعريف يوجد في كتب العهد القديم عن بعض الأنبياء الإسرائيليين، ويخاطب الوحي العرب بما يقنعهم بأن النبي ذكر في التوراة وأن بني إسرائيل يعلمونه ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]

ويشير التنزيل إلى أن هناك وفاقا تاماً بين القرآن والتوراة ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠ – ١٢].

ويستنتج مما سبق «أن الأفكار في مدينة مكة كانت على علم بدين اليهودية وتعاليمه، وأن النبي الجديد قد ظهر بمظهر الأنبياء الإسرائيليين كي يثبت صحة رسالته ويؤيد دعوته التي يعلم قريش لها نظيراً في اليهودية».

ثم يضيف: «كان التأثر بتعاليم اليهودية شديدا جداً إلى حد أن قبلة الرسول في صلاته كانت إلى جهة أورشليم (بيت المقدس) كما هي عند اليهود»[1].

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٩٤: ٩٦. من الواضح أن هذا الزعم الكاذب لم يتفرد به ولفنسون بل سبقه إليه كلود سفاري حيث قال: إن محمدا أراد أن يكسب تأييد اليهود والنصارى وقرر أن تكون قبلة الصلاة هي معبد «أورشليم». (السيرة النبوية ص ١١٦).

ويخلص من هذا العرض بقوله: إن إسلام أهل العقبة من الخزرج كان من آثار التعاليم اليهودية ونتيجة الاختلاط الشديد بيهود يثرب ، ليس هذا فحسب بل لا يتورع أن يضيف: «يمكن أن يقال إن اليهود كانوا من أهم الأسباب التي ساعدت على ظهور الإسلام وإن يكن ذاك بطريقة غير مباشرة»[١].

نود أن نناقش السيد ولفنسون في أفكاره التي طرحها؛فأولا:إن من المنظومة العقائدية في الإسلام الإيمان بالرسل السابقين، ونحن نؤمن باتصال السماء بالأرض عن طريق هؤلاء الأنبياء الذين اصطفاهم الله من خلقه، وكان جوهر دعوتهم جميعا تأكيد مفهوم الوحدانية، وتحرير تصوراتهم الخاطئة نحو الله وتخليص هذه المفاهيم من الوثنية والشرك والتعددية وإخلاص العبودية لله، أضف إلى ذلك حدد لكل واحداً منهم شرعة ومنهاجا لإرشاد قومهم إلى مسالك الطريق المستقيم.

ثانيا: إقرار الرسول ﷺ برسالة موسى وعيسى لا يعني أبدا أنه تأثر بأحدهما، أو اقتبس أفكاره من موسى كما يدعي ولفنسون، ولكن يعني أن الجميع يفيض عليهم الوحي بتعاليمه، ويشرق على نفوسهم بأوامره ونواهيه، وهم جميعا يعملون في اتجاه واحد لإنقاذ الأمم من الوثنية والشرك والتعددية في الألوهية وتحريرهم من الانخراط في إتيان الرذائل وارتكاب الموبقات.ودعوتهم إلى إعلان راية التوحيد.

وقد أحسن القول ولمس كبد الحقيقة من قال: «إن دين الأنبياء كله واحداً، فهم متحدون في المذهب منذ آدم إلى محمد، وقد نزلت كتب سماوية؛وهي الزبور والتوراة والقرآن»[٢].

ثالثا: كون القرآن جاء مصدقا بما ورد في التوراة لا يعني أن الرسول ﷺ تأثر بتعاليمها، وذكر سورة الكهف لا يفيد أن الرسول نقلها من التوراة !! ولكن يعني أن الكتب السماوية مصدرها الله العلي العظيم؛ الذي يعلم الجزئيات والكليات وعلمه بما كان وما سيكون، وكما أخبر موسى بقصة الكهف لدلالتها، أخبر رسوله محمد ﷺ لرمزيتها في تأكيد مفهوم الوحدانية والدفاع عنها، وقد دخل القرشيون الإسلام لعلمهم بصدق الرجل الذي عاش

---

(١) تاريخ اليهود ص ١٠١

(٢) الإسلام خواطر وسوانح ص ٥١

بين ظهرانيهم ولم يؤثر عنه إلا كل فضيلة وخيرية وهم الذين أطلقوا عليه صفة «الأمين»، ثم إن أحبار اليهود كانوا يبشرون بمقدم نبي جديد سيظهر في مكة، ويشيرون إلى إرهاصات ظهوره وعلامات بعثته ويفتخرون بهذا العلم على القرشيين، إن لم نقل يتعالون عليهم.

الإشكالية أن ولفنسون عنده قناعات مسيطرة عليه، واعتقادات راسخة في عقله، وفروض جاهزة مؤمن بها أشد الإيمان وهي أن اليهودية هي مصدر الأديان وهي الديانة الوحيدة التي دعت للوحدانية، وأن الرسول ﷺ تأثر بأفكارها لوجود علاقات بين مكة ويثرب حتى قبل أن يهاجر إليها بدليل قوله. يحتمل أن النبي قد اتصل باليهود منذ حداثته لاسيما بعد أن اشتغل بالتجارة عند السيدة خديجة، إذ كانت الأعمال التجارية في مدينة مكة مرتبطة ارتباطا شديدا بيهود يثرب وخيبر[١].

وعلى فرض أن الرسول ﷺ اتصل باليهود؛ هل هذا دليل ينهض على تأثره بعاداتهم وتقاليدهم، وفكرهم لمجرد هذا الاتصال، وأطاع تعاليمهم؟

أما أن الرسول ﷺ اتجه إلى بيت المقدس فهذا لا يطعن في رسالته، لأن هذا كان توجيها من الله ولم يكن «المقصود من ذلك استمالة اليهود» كما ذهب توماس أرنولد[٢]، وكرر الفكرة ذاتها ولفنسون.

نعم إن التوجه في الصلاة لبيت المقدس يعد أمرا إلهيا وتعبيرا عن أن مصدر الأديان من الله، وليس استرضاء لهذا الطرف دون الآخر، وكذلك التحول ثانية إلى الكعبة لأنها بيت الله

---

(١) تاريخ اليهود ص ٩٤. أذكر أنني كنت على علاقة طيبة طوال فترة دراستي في جميع المراحل التعليمية بأصدقائي من المسيحيين، ومازلت أذكرهم بالاسم، ولم تتغير قناعاتي في ديني، وحينما جندت في القوات المسلحة ضمنا ملجأ واحدا تحت الأرض كنا ننام فيه نحن الثلاثة؛ اثنان مسلمان؛ أنا وزميلي المسلم، والثالث، صديقي المسيحي مهندس زراعي، وكان يعلق صورة البابا كيرلس السادس، ويحمل في جيبه الإنجيل يقرأ فيه ويشرح لنا بعض النصوص، وكنت أقرأ في القرآن ونتناقش في آياته، عشنا أكثر من ثلاث سنوات، فلا هو تحول إلى الإسلام ولا أنا اعتنقت المسيحية وكانت تجمعنا صداقة قوية وعلاقات طيبة وتسامح واضح. وحينما عينت في دار المعلمين كان من أصدقائي أستاذ التاريخ المسيحي الذي كنت أزوره في بيته وأعارني كتاب الاعترافات للقديس أوغسطين الذي كتبت عنه دراسة، وظلت علاقتنا ممتازة حتى بعد أن رسم قسيسا لكنيسة مريم العذراء بمدينة دكرنس حتى توفاه الله.

(٢) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٣

الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم، ثم إن هذه كانت رغبة الرسول الدفينة أن يتوجه بصلاته إلى مكة.

يقول قطب الأقطاب وشهيد الإسلام: «أن المسلمين في مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فرضت الصلاة - وليس في هذا نص قرآني- وأنهم بعد الهجرة وجهوا إلى بيت المقدس بأمر إلهي للرسول ﷺ يرجح أنه أمر غير قرآني. ثم جاء الأمر القرآني الأخير: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾..

وفي الوقت ذاته كان الأمر شاقاً على المسلمين من العرب، الذين ألفوا في الجاهلية أن يعظموا حرمة البيت الحرام وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم. وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعونه من اليهود من التبجح بهذا الأمر، واتخاذه حجة عليهم! وكان الرسول ﷺ يقلب وجهه في السماء متجهاً إلى ربه، دون أن ينطق لسانه بشيء، تأدباً مع الله، وانتظارا لتوجيهه بما يرضاه..

ثم نزل القرآن يستجيب لما يعتمل في صدر الرسول ﷺ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤].

على أية حال فقد كان التوجه إلى بيت المقدس- وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى- سبباً في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام، إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة وأنهم هم الأصل، فأولى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام!»[1]

ونعود فنكرر إن توجه الرسول ﷺ إلى بيت المقدس ثم التوجه إلى الكعبة لا يقلل من شأن رسالته ما دمنا نؤمن بالوحي الذي يبلغ الأوامر الإلهية إلى الرسل، ويحدد لهم مسلكهم الديني، وإلا لماذا نؤمن بالوحي عند موسى وعيسى وننكره عند الحديث عن محمد ﷺ؟!!

ثم ما العلاقة بين وجود اليهود وظهور الإسلام، إذا كان يقصد أن أحبار اليهود بشروا

(١) في الظلال، تفسير البقرة .

بمقدم الرسول ﷺ فهذا ما نؤمن به، مع أنهم من أوائل الناس الذين وقفوا في وجه رسالته وتنكروا له وذهبوا يتحالفون مع الوثنيين من المشركين، أما إن كان يقصد أن الإسلام صورة من صور اليهودية ونسخة منها فهذا كلام لا يسعني إلا أن نرفضه لأنه من أبطل الأباطيل، إذ لم يقم عليه أي دليل سوى هذا الهوس الديني الذي يسيطر عليه بأن اليهودية هي منبع الأديان.

يبدو أن إقامة ولفنسون في مصر وارتياده جامعتها العريقة واختلاطه بأساتذة أجلاء وعلماء جهابذة ومشاركته في الأنشطة الثقافية وكتاباته في مجلة الرسالة وصحيفة الأهرام، لم يغير من أفكاره التي ترسبت في أعماقه منذ أن ولد في فلسطين وعاش بين أقرانه وتأثر بمقولات الرهبان وتعاليم الأحبار إلى درجة التعصب لليهودية، ولم يتأثر بالمحيط الإسلامي الذي عاش فيه سنوات مديدة تلميذا في جامعتها ثم أستاذا في دار العلوم.

ونحن لا نلومه في تمجيده لقومه والإعلاء من أخلاقهم وفنونهم وآدابهم وعبقريتهم فهذا حقه وهؤلاء قومه، حتى دفاعه عن كعب الأحبار (ت ٣٢هـ/٦٥٢م)[١] وإنكار إسلامه وتأكيده أنه ظل يهوديا في أعماقه، وهذا ما قاله أيضا عن موسى بن ميمون (١١٣٩- ١٢٠٥) وأنه لم يعتنق الإسلام، نقول ربما دفاعه هذا يجد مساغا مع أنه مخالف لحقائق التاريخ، لكننا كنا نود منه أن يكون منصفا، ويعترف بنبوة الرسول ﷺ ويقر برسالته، لكنه يناور ويداور، وما يعطيه باليمين، يسارع فيسحبه بالشمال. إذ من الواضح أنه ينهج نهج جمهرة المستشرقين الذين ينظرون إلى الرسول ﷺ على أنه زعيم ديني ومصلح اجتماعي، ويتجلى ذلك في تشخيص شخصيته بعد أن عاد من الطائف وأهين من سفهائها إساءة بالغة فيقول: إن هذه القصة تظهر مقدرته الفائقة التي لا توجد إلا عند كبار الأخيار من رجال التاريخ البشري[٢] وهذه عبارات تظهر بجلاء أن نظرة الرجل للرسول ﷺ لا تتعدى كونه من كبار الناس الطيبين في التاريخ والمصلحين الاجتماعيين وأخيار البشر، ونفي صفة النبوة والرسالة عنه نفيا واضحا.

---

(١) كعب بن ماتع الحميري، من كبار علماء اليهود في اليمن، أسلم في أيام أبي بكر وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة، خرج إلى الشام وسكن حمص وتوفي فيها. (الأعلام ج٥ / ٢٢٨). في حين أن جولد تسيهر يشير إلى إسلام كعب ودخوله الإسلام، وتعويل مفسري القرآن عليه في كثير من الحوادث التي ذكرت فيه ومنهم ابن عباس والطبري. (مذهب التفسير الإسلامي، ص ٨٦، ٨٧ وفي مواضع أخرى عديدة).

(٢) تاريخ اليهود ص ١٠٠ .

وأخيراً نلومه في هذه اليقينية التي يؤكد بها كلامه فيقول «التأثر بتعاليم اليهودية شديدا جدا» وهذا التأكيد يشبه تأكيدات العوام أنهم رأوا الجن عياناً، وكلام أنصاف المتعلمين عن المسيخ الدجال في أحاديثهم، وحكايات القساوسة عن الملائكة التي تضع القناديل ليلا وتجمعها بالنهار.الحقيقة أن طرحه للقضايا لا يشبه كلام العلماء[1].

- على أن الناظر في كتاب ولفنسون تأخذه الحيرة من موقف هذا الرجل الغامض كأنما يتعمد المداراة بين الاعتراف برسالة الرسول وقوله قال:الرسول، ثم في نص آخر يقرر بأن الرسول اقتبس قرآنه من نصوص التوراة، كما مر بنا حديثه، كأنما يتعمد الغموض والإخفاء ومحاولة التدليس والهروب من المواجهة، من منطلق أنه يعيش في مصر وأن أساتذته ربما يلومونه، أو لا يوافقون على رسالته، فحاول أن يجمع بين المتناقضات في حزمة واحدة.

ففي نص ثالث يقول: أراد الرسول ﷺ أن يؤلف بين قلوب اليهود والمسلمين فأحل للمسلمين أكل ما أحل لليهود أكله، وأحل لهم التزوج من بناتهم ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥][2]

كذلك أمر المسلمين أن يصوموا الأيام التي كان اليهود يصومونها.ثم يستطرد في عرض نصا خطيرا يحسم القضية التي نحن بصددها فيقول: «إن العقلية اليهودية لا تلين أمام شيء

(١) من الأمور المحيرة أن الشيخ أحمد أمين نشر كتاب ولفنسون دون أن يكلف أحدا من لجنة التأليف والترجمة لمراجعة الكتاب والتعليق عليه والرد على التجاوزات التي تخالف الإسلام، مثل لجنة دائرة المعارف الإسلامية التي كلفت مجموعة من الأساتذة في تعقب أقوال المستشرقين والرد عليها، وكما هو دأب أغلب من ترجموا كتب المستشرقين.
كذلك لم نعلم وجهة نظر الدكتور طه حسين في تلميذه الذي يهاجم رسولنا ويشير إلى أن الإسلام نسخة معدلة من اليهودية، ولم نر له تعقيبا أو ردا على تلميذه النابغة كما سماه، ولم نعلم ماذا قال له في أثناء المناقشة، وهل نقد أسلوبه الركيك في العرض وجمله القلقة وعباراته المضطربة وأخطائه اللغوية والنحوية البشعة وحتى في رصد أرقام الآيات من القرآن، وعدم تمكنه من اللغة العربية؟ كذلك كنا نود أن نعرف رأي الشيخ عبد الوهاب النجار فهو من علماء الأزهر الكبار ومؤلف رصين، وعنده حس ديني متميز، لا سيما وقد استشهد به المؤلف مرات عديدة. ولم نسمع أنه عقب على الكتاب ونقده. وربما يكون نقده ولم نطلع عليه.

(٢) تاريخ اليهود ص ١٢٠ .

يزحزحها عن دينها، وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبي من غير بني إسرائيل بل يعتقدون عقيدة راسخة أنه بعد أن ختمت صحف التوراة وكتب العهد القديم قد انقضى عهد بعث الرسل وظهور الأنبياء سواء كانوا من بني إسرائيل أو من غيرهم، كما يعتقد المسلمون أنه لن يبعث نبي بعد الرسول محمد»[1].

نعتقد أن النص الأخير يحسم القضية ويظهر أن ولفنسون رجل مدلس، وموقفه مثل الثعلب الذي يحفر لنفسه أنفاقا متعددة كي يدخل من بعضها ويهرب من بعضها الآخر. فالرجل يعتقد في أعماقه أن موسى خاتم الأنبياء، ولا يوجد نبي بعده لا عيسى ولا محمد، وهذه هي الحقيقة الساطعة والاعتقاد الراسخ عنده وعند بني قومه، لذلك يصبح الحوار معه بلا جدوى.

ومع هذا لا نيأس ونرد عليه بكل إيمان واعتقاد راسخ عندنا بأن محمدا ﷺ لم يكن مصلحا اجتماعيا أراد أن ينظم العلاقات الاجتماعية ويصلح الخلل الموجود في طبقات المجتمع القرشي، وليس زعيما دينيا أراد أن يرد الناس إلى مسالك الخير والنهج السليم ويحذرهم من التمرغ في أوحال الرذيلة والفاحشة، إنما محمدا مبعوثا من السماء مثل باقي الرسل الكرام الذين أرسلتهم المشيئة الإلهية لقيادة البشرية وانتشالها من طرق الظلمات والشر إلى طريق الفضيلة والخير و قبل كل هذا إعلان مفهوم التوحيد بأن الله واحد.

في ضوء ذلك لم يحلل الرسول ﷺ شيئا أو يحرمه، فالقضية ليست قضية نفعية متعلقة بتأليف قلوب اليهود وكسب ودهم، فنحن لسنا بصدد صفقة تجارية، معيارها المكسب والخسارة ولكن الرسول ﷺ ينفذ الأوامر الإلهية التي تنظر للوجود نظرة كلية شاملة وأن أهل الكتاب موحدون، فيمد لهم يد المحبة والأخوة، ويقيم وشائج القربى وسبل التعاون لإقامة مجتمع الفضيلة والتعاون والسلام.هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فالآية القرآنية لا تتكلم عن اليهود، وإنما تتحدث عن أهل الكتاب أي اليهود والنصارى.

يقول الشهيد سيد قطب في تفسير الآية: «هنا نطلع على صفحة من صفحات السماحة

(١) تاريخ اليهود ص ١٢٢

الإسلامية؛ في التعامل مع غير المسلمين، ممن يعيشون في المجتمع الإسلامي «في دار الإسلام»، أو تربطهم به روابط الذمة والعهد، من أهل الكتاب..

إن الإسلام لا يكتفي بأن يترك لهم حريتهم الدينية؛ ثم يعتزلهم، فيصبحوا في المجتمع الإسلامي مجفوين معزولين - أو منبوذين - إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة، والمجاملة والخلطة. فيجعل طعامهم حلا للمسلمين وطعام المسلمين حلاً لهم كذلك. ليتم التزاور والتضايف والمؤاكلة والمشاربة، وليظل المجتمع كله في ظل المودة والسماحة.. وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم - وهن المحصنات بمعنى العفيفات الحرائر - طيبات للمسلمين، ويقرن ذكرهن بذكر الحرائر العفيفات من المسلمات. وهي سماحة لم يشعر بها إلا أتباع الإسلام من بين سائر أتباع الديانات والنحل. فإن الكاثوليكي المسيحي ليتحرج من نكاح الأرثوذكسية، أو البروتستانتية، أو المارونية المسيحية، ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة!

وهكذا يبدو أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يسمح بقيام مجتمع عالمي[١].

ومن جهة ثالثة صيام الرسول ﷺ ليوم عاشوراء ليس من باب التزلف والمداهنة والنفاق لليهود ؛والصيام كان معلوما في كل الأمم السابقة وله أنواع شتى وعلل مختلفة. حينما وجد اليهود يصومونه، وعلم أنه اليوم الذي أنقذ فيه الله موسى من جبروت فرعون وطاغوته ، قال: أنا أولى بموسى.من منطلق أن نور الأنبياء يخرج من مشكاة واحدة كما عبر عن ذلك النجاشي وأن: الأنبياء أخوة وأمهاتهم شتى.

ثانيا: القرآن من تأليف الرسول ﷺ

١ - يعد جورج سيل (١٦٩٧- ١٧٣٦) gorge sal[٢] من أوائل المستشرقين الإنجليز الكبار؛ أتقن اللغة العربية و اشتهر بترجمته للقرآن إلى الإنجليزية وقد راجت رواجا عظيما طوال القرن الثامن عشر وعنها ترجم القرآن إلى الألمانية، وقد تزعم كبر هذا الادعاء الكذوب. وراح يروج له في الأوساط الفكرية إذ ذكر في

(١) تفسير الظلال سورة المائدة الآية ٥، وقد رصدها ولفنسون أنها رقم (٤٨)

(٢) ترجمته في موسوعة المستشرقين ص ٣٥٨

المقدمة المستفيضة لترجمته للقرآن بأسلوب تأكيدي دوجماطيقي: «أن محمدا في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيس له»،'وهذا أمر لا يقبل الجدل، وإن كان من المرجح أن المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة».

- وهذا الاتهام المنكر ليس جديدا في تاريخ الصراع بين الرسول ﷺ ومناوئيه، بين الحق والباطل والخير والشر، فليس «سيل» أول من طرح هذا الافتئات الواضح إذ سبقه بعض مشركي قريش إلى هذه الفرية حينما تحداهم القرآن تحديا مباشرا أن يأتوا بعشر سور مثله ثم صعّدَ التحدي وطالبهم بسورة واحدة، فوقفوا خجلين حائرين لا يحرون جوابا ولما شعروا بعجزهم وقلة حيلتهم، لجأوا إلى الحرب النفسية والدعاية الغوغائية، ونشروا فرية أنه يعلمه بشر (النحل ١٠٣)[١].

وأنها أساطير القدماء (الفرقان ٥)[٢]وباقي الاتهامات المشهورة في هذا المجال، وقد رد عليهم القرآن ردودا مطولة كلها تحدي وإقدام.

وبعد مشركي قريش لم نعدم من يبعث هذه الفكرة من أجداث التاريخ وأكفان الموتى، حيث بعثها ثانية رهبان العصور الوسطى وقساوسته، ولعله ورثها من الإرث الفكري الذي حمله عنهم في جعبته وترسب في جوانحه، وراح يردد هذا الكلام السقيم.

نخلص من ذلك أن اتهام سيل ليس بجديد في تاريخ الصراع بين الإسلام والمسيحية[٣].

٢- وقد تلقف كلود سفاري (ت ١٧٨٨) هذه الدعوة المنكرة والتقطها من التراث العدائي للإسلام وركام الماضي، وذهب ينبش في الكتب القديمة ويجدد هذه الاتهامات القديمة سواء جاءت على في كتب قساوسة العصور الوسطى أو عند جورج سيل ، وراح يردد هذا الكلام السقيم حيث يقول: «إن الرسول أراد أن يظهر أمام أمته وبيده كتاب إلهي، فألف القرآن وجدَ في نظمه، بسبب مهارته اللغوية ونشأته في البادية التي مهرت في الأسلوب

---

(١) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

(٢) ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

(٣) سوف نؤجل الرد على جورج سيل بعد عرض وجهة نظر زملائه ثم نرد عليهم مرة واحدة.

العربي الأخاذ، وقدرته الفائقة في رصف المفردات الموحية، وإيجاد الصور الخلابة التي تأخذ بالأنفس والألباب والتشبيهات الموحية، بدلا من أن يقنعهم بالحجة والبرهان.أي أنه سيطر عليهم وجدانيا[١].

وفي مكان آخر يقول: يرجع الفضل في نجاحه (محمد) إلى خطة بمقتضاها لم يكن ليظهر من القرآن إلا عدداً محدوداً من الآيات وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاماً. وبهذا الاحتياط الحكيم أصبح يتحكم في حديث السماء ليجعلها تتحدث حسب الظروف والملابسات[٢].

ويكرر نفس الفكرة في ترجمته للقرآن الكريم فيقول: «إن اتهام الكفار محمدا بأنه شاعر لم يكن قائما على غير أساس ؛فالقرآن مؤلف من آيات، والسور الأولى منه نثر مقفى، أما السور الأخيرة فبعضها شعر صريح، كما أن محمدا قد أبدع في تأليف قرآنه مستخدما ما في البلاغة والشعر من ثروات فنية»[٣].

- الحقيقة هذا الكلام لا يحتاج إلى وفور عقل في الرد عليهم، فهؤلاء المستشرقون برمجوا عقلهم على هذا الاعتقاد وتشبعوا بهذه الادعاء ات الزائفة والأكاذيب الفجة التي ورثوها من المحيط الأسري والاجتماعي وهنا تكمن الإشكالية، أما إذا خلوا بينهم وبين معتقداتهم، وطرحوا موروثهم الفكري خلف ظهورهم ، فليس من العسير علينا أن نقنعهم بأن هذا القرآن ليس من وضع الرسول ﷺ بل وحي من الله ونسوق جملة من الأدلة:

عاش الرسول ﷺ في مكة غلاما وشابا ورجلا وكهلا وهو مشهور بسمو النفس وحسن السيرة، ولم يعرف عنه اعوجاج في السلوك أو انحراف أخلاقي، ولم يعرف عنه أي ادعاء ات تتعلق بالكهانة أو مشاركة في طقوسهم الجاهلية، ولاشك أن هذه الفترة الطويلة في هذا المحيط الاجتماعي تعد شهادة صدق لما جاء به من آيات القرآن ومضمون الرسالة الخالدة.

---

(١) السيرة النبوية، وكيف حرفها المستشرقون، ص ٤٣

(٢) السيرة النبوية ص ٥٦

(٣) من ترجمة سفاري للقرآن (نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص٢٤). من المهم بمكان أن ننوه بأن هذا الرأي هو ما يتزعمه كافة المستشرقين بارتلمي سانت هيلير، نيولدكه، إدوار مونتيه، كليمان هيوار، ريجيس بلاشير. وغيرهم.كما سيأتي في هذا العرض.

وقد عبرت آيات القرآن عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

أضف إلى ذلك كان القرآن استجابة للوقائع التي كانت تقع في مكة والمدينة والأحداث التي تلم بهما، أو ردا على سؤال من اليهود الذين تحدوا الرسول ﷺ ووجهوا إليه عديدا من الأسئلة والاستفسارات والغرض منَ ذلك تعجيزه، أو حوارا مع نصارى نجران الذين قدموا عليه يجادلونه فطلب منهم المباهلة أن لعنة الله على الكاذبين، فنكصوا على أعقابهم وخشوا من لعنة الله أن تنزل عليهم، أو إجابة لمسلم جاء يستفسر من الرسول عن موقف من المواقف الحياتية سواء أكان يتعلق بالمعتقدات والعبادات والمعاملات أو بمسألة بينه وبين أخيه المسلم أو موضع أسري بينه وبين زوجه.هكذا نرى أن نزول القرآن منجما خلال هذه المدة الزمنية الطويلة كان استجابة للواقع الديني أو الموقف السياسي أو حلا لمشكلة اجتماعية أو تقريرا لحالة اقتصادية.

- نزل القرآن بلسان عربي مبين وفي أعلى مستويات البلاغة والفصاحة وقد تحدى العرب في أكثر من موضع وموقف، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يأتوا بآية واحدة وهم أصحاب السليقة الفائقة واللسان الفصيح والخيال الخصب وطلاقة السبك وأهل البلاغة، ولم يحروا جوابا، واعترف أئمتهم أن سبك القرآن ورصفه لا يجاريه أحدا ليس هذا فحسب بل فوق طاقة البشر، ومازال يتحدى البشرية طوال تاريخها حتى يومنا هذا[1].

- تحدث القرآن عن أحداث ماضية وعرض قصص الأقدمين الموغلة في القدم، سواء الأمم السابقة أو تاريخ الأنبياء وسيرتهم ومواقفهم مع قومهم، وهذه أحداث يجهلها الرسول ﷺ وقومه وتحتاج إلى مكتبة متنوعة الثقافات والفنون ودائرة معارف كاملة، زد على ذلك إخباره عن وقائع مستقبلية لم تخطر ببال أحد وقد تحققت مع مر الأيام.

- من المعلوم أن القرآن وضع قواعد للسلوك والتعامل الاجتماعي وحوي تشريعات

---

(١) عبقرية العرب الأولى في لسانهم إنهم لم يعتزوا بشيء اعتزازهم بلغتهم، إذ هي لم تكن بينهم مجرد أداة للتفاهم، بل كانت هي المجال الأساس الذي انصبت عليه طاقتهم الفنية. (زكي نجيب محمود: قيم من التراث، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٨

وسن قوانين وتناول كافة شؤون الحياة، السياسية والاقتصادية والعقائدية ونظم العلاقات بين المسلم وبين الله والكون والطبيعة والأمة والمجتمع وأهل الكتاب والقريب والغريب والجيران، ولم يترك شاردة ولا واردة تمس صميم حياة الإنسان إلا عالجها ووضع لها حلولا ناجعة وقواعد شاملة يستهدي بها البشر لتحقيق الخير العام والعدل والحق والاستقرار الاجتماعي والترابط الوجداني والوحدة الإسلامية. ومازالت هذه المقررات تؤتي أكلها كل حين، وتستجيب لمتغيرات المجتمعات وكر السنين و مر العصور.

- في جدال القرآن مع اليهود والنصارى والمشركين والدهريين، ساق كافة الأدلة التاريخية والفلسفية والمنطقية، وحاججهم بالدليل الحسي والأسلوب العاطفي الوجداني والاستدلال العقلي، وتعامل مع كل فريق على حسب منهجه، وكان من واقعيته وموضوعيته أن عرض لحجج المناوئين له وبسط وجهة نظرهم، ثم كر عليها بالنقض والدحض، وأطال النفس وظهر منه سعة الصدر واحترام رأي الآخرين ومع هذا نقدهم نقدا واسعا؛وهذا المنهج فوق طاقة البشر، وأقوى من ملكات الإنسان ومواهبه.

وقد كرر سفاري نفس التهمة مرة أخرى في قوله: أنفق النبي خمسة عشر عاما كاملة أسس نظامه الديني، وبرع في إعلانه بوضوح مثل فلق الصبح وفي إخفاء اليد التي تربط مصاير الناس بالسماء وتظاهر بأنه لا يعرف القراءة والكتابة، واعتمد على فصاحته الطبيعية، وعلى مواهبه المتدفقة التي لم تخنه أبدا[1].

وهذا كلام واضح التناقض، فكيف يكون كلام الرسول ﷺ واضح ومفهوم مثل فلق الصبح، ثم نرفض هذه الأفكار؟

وما معنى أنه عنده قدرة على إخفاء اليد التي تربط مصاير الناس بالسماء؟ والرسول ﷺ يعلن كل حين أن ما جاء به وحيا من السماء، ثم إن الإنسان من الممكن أن يدعي المعرفة والعلم لكن من الصعب ادعاء الجهل طوال هذه السنوات !

أما قوله إن «السور الأولى منه نثر مقفى، أما السور الأخيرة فبعضها شعر صريح» نقول أسلوب القرآن واحد، والسبك واحد والمصدر واحد، ولكن تختلف تعبيراته على حسب

---

(١) السيرة النبوية ص ٦٢

الموقف أو الحدث، فرده علي الكفار يختلف عن بشارته للمؤمنين، ووعيده للوليد بن المغيرة وتوعده بأشد العذاب من الضروري أن يتضمن الشدة والقوة والصور الرهيبة والإيقاع السريع، فلنقرأ هذه الآيات وندقق النظر فيها بإمعان، يشعر الإنسان بتدفق في الوعيد فالكلمات عنيفة في التعبير لها زمجرة مثل الرعد وتهز كيان الإنسان كزلزال له هزات متوالية، ولها وقع رهيب على الأذن مثل انفجارات القنابل ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ [المدثر: ٢٧].

لاشك أن هذا التصوير يختلف وهو يعاتب رسوله في إشاحته بوجهه عن ابن مكتوم ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾

[عبس: ١- ١٠]

نرى الآيات فيها روح العتاب ونسيم المساء وود المحبة ولطف الأب مع ابنه والرب مع رسله، شرح وتوضيح لدور الرسول ومهمته الهداية والإرشاد.

- فكل موقف يحتاج إلى تصوير يختلف عن الموقف الآخر، وهذا أمر يدركه المتأمل في آيات القرآن أحيانا تكون مثل العواصف المدمرة والأعاصير المهلكة، وأحيانا مثل النسيم العليل والأمواج الحانية في تمددها وانسياحها، ثم إن الناظر في حديث الرسول ﷺ يدرك البون الشاسع بين أسلوبه وبلاغته وأسلوب القرآن وصوره البلاغية.

- وقبل أن نختم الرد على أصحاب هذا الادعاء يتحير المرء من تقييم أستاذنا الدكتور بدوي لترجمة سيل إذ يمدحه بقوله: «كان سيلا» منصفاً للإسلام، بريئا من تعصب المبشرين (المنصرين) وأحكامهم الزائفة، فلم ينكر نبوة النبي محمد ﷺ، ذلك لأنه كان من أنصار نزعة التنوير التي انتشرت في أوربة في تلك الفترة[١].

(١) موسوعة المستشرقين ص ٣٥٩

ولا نعرف أين مواضع الإنصاف التي ساقها سيل؟ وما تعريف التعصب إذا لم يكن هذا عين التعصب ذاته؟ وهل هناك حكم أسوأ مما ساقه سيل عن القرآن؟ وإذا لم يكن سيل من أنصار نزعة التنوير ماذا يمكن أن يقول عن القرآن أفظع من ذلك؟

يبدو أن أستاذنا بدوي كتب هذا الكلام حينما كان محبا للمستشرقين غاض البصر عن مثالبهم، شغوفا بكتاباتهم مشيدا بأعمالهم عاشقا لمنهجهم، وقبل أن ينقلب عليهم انقلابا كليا ويسدد لهم الضربات الموجعة والنقد اللاذع في كتابيه «دفاع عن القرآن» ودفاع عن محمد.

٣ - وجهة نظر جورج بوش الجد (١٧٩٦ - ١٨٥٩)

مر بنا تردد بوش في هذه القضية فمرة يشير إلى تعليم بحيرى للرسول ﷺ وتعليمه القرآن، وفي قول آخر تستحوذ عليه الحيرة ويأخذ الشك بخناقه، فيرفض القول الأول، وينكص على عقبيه فيقول في مواضع متعددة من كتابه أن القرآن من تأليف الرسول ﷺ.

وقد أشرنا سابقا أن هذا القسيس ينتمي لمذهب الشكاك السفسطائيون لذلك يقف نفسه أمام إدعائه في شك وتردد وينقضه ثانية وهو لم يغادر قوله.

وتفصيل ذلك أنه يعود مباشرة بعد إيراد رأيه ينقد موقف همفري بريدو(١٦٤٨-١٧٢٤)[١] وجورج سيل(١٦٩٧- ١٧٣٦) اللذان زعما بأن محمدا يُعد المخطط الأصلي للقرآن ومؤلفه، وربما أعانه في ذلك آخرون في تأليف القرآن فيرد عليهما؛ لم تتأكد هذه الدعوى القائلة بأن آخرين ساعدوا محمدا على تأليف القرآن، وليست هناك أدلة مقنعة على هذا، فالمسألة لا تعدو قصصا افتراضية، صيغت لمواجهة صعوبة تفسير هذه المسألة[٢].

٤ - وجهة نظر توماس كارليل (١٨٨١)

المتأمل في وجهة نظر كارليل في القرآن تأخذه الحيرة ويتوه في دروب كلامه المتناقض كما

---

(١) مستشرق إنجليزي، له كتاب بعنوان حياة محمد المخادع، ملأه كعادة كتاب عصر النهضة بالأكاذيب، والاتهامات الساذجة والأقوال الفاحشة، وقد تتبع عبد الرحمن بدوي كثير من هذه الدعاوى المغرضة ورد عليها، بأسلوبه الناري ومفرداته الساخرة. ومع هذا فقد ختم بريدو كتابه بقوله عن الرسول: "امتاز بشجاعته وفطنة عقله وعدم غروره بانتصاراته، وبدرجة عالية من المجد مما أغراه بأن يكون له مكان بين أعظم الثوار الذين عرفهم العالم، وقد أنشأ إمبراطورية في أربع وعشرين عاما (دفاع عن محمد، ص ٣١، ٣٨ وما بعدها في صفحات متعددة.)

(٢) حياة محمد ص ٢٣٨. (نقلا عن كتاب الرد على بوش ص ٨١)

هي عاداته، مابين إقراره بأن الرسول ﷺ يهتف بصوت السماء ويؤيد فكرة الوحدانية ويحمل رسالة صادقة للإنسانية، ويعبر عن ضمير الكون، وإدعاؤه أن القرآن من تأليف الرسول ﷺ والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل إلى أفئدة سامعيه، لأن الكلمة إذا خرجت من القلب نفذت إلى القلب.

وبداية يوضح الفرق بين رؤية العربي للقرآن الذي يراه معجزة، ورؤية الأوربي (ولا شك أن كارليل واحدا منهم) الذي «يجد في قراءته أكبر عناء فهو يقرأه كما يقرأ الجرائد لا يزال يقطع في صفحاتها قفارا من القول الممل المتعب، ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلم لكي يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة».

على أنه يعود ويخفف من غلوائه بقوله: لا شك أن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة، وهذا دليل على اختلاف الذوق الأوربي عن الذوق العربي إذ إن القرآن يلائم أذواقهم[1].

ونحن نوافقه على أن الترجمة تذهب بنصاعة النص وبلاغة الأسلوب وقوة العرض وأبعاد المعنى ومعطيات الآية، وقد تنبه لذلك جمهرة أدباء العرب وأشاروا إلى ذلك ومنهم الجاحظ وأبو حيان التوحيدي، هذه نقطة.

والثانية نحن نتهم ذوقه وذوق الأوربيين معه، فليس العيب في النص ولكن الخلل في تذوقه وقراءاته للقرآن، ونحن لا نستطيع أن نصدقه ونكذب بلغاء العرب الذين أقروا بمعجزة القرآن واعترفوا بذلك صاغرين، وله أن يقول ما يرغب فيه.

ونقول له لا تنس القاعدة التي أشرت إليها وهي أن قوة الحق تحمل في باطنها رسوخ الجبال وديمومة الوجود. ولما كان القرآن يحمل قوة صدقه لذلك عبر القرون وعاش في ضمير الزمان ومازالت آياته تتلى آناء الليل وأطراف النهار أو كما يقول هو: في بلاد المسلمين

---

(١) الأبطال ص ٧٤، وقد أشارت كارين أرمسترونج إلى أن الترجمة تذهب ببهاء النص وأن في العربية شيئا ما لا يمكن نقله إلى الاستعمالات اللغوية الأخرى، لكنها تزمن أن القرآن من عند الله، وتنصف الرسول في مجمل سردها لحياته. (سيرة النبي ص ٧٧)، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور صالح البنداق ساق نماذج عديدة ومطولة للأخطاء التي وقع فيها جمهرة المستشرقين الذين ترجموا القرآن أمثال سفاري وكازيمر سكي، وبلاشير وغيرهم. (المستشرقون وترجمة القرآن، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠ / ١٩٨٠. ص ١١٦: ١٢٨)

يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم يتقاسمه ثلاثون قارئا وما برح هذا الكتاب يرن صوته في آذان الألوف من خلق الله وفي قلوبهم اثني عشر قرنا في كل آن ولحظة ويقال أن من الفقهاء من قرأه سبعين مرة[1].

الثالثة: أنه يعود مرة ثانية وثالثة يدافع عن الرسول ﷺ في وجه الذين يزعمون أن القرآن جملة من الخدع لفقها محمد لتكون أعذاراً له عما كان يرتكب ويقترف وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته. ويرد عليهم ردا قويا بقوله: «آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال، إني لأمقت كل من يرمي محمداً بالأكاذيب، ما كان ذو نظر صادق ليرى في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل، والقرآن لو تبصرون ما هو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أو قدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات»[2].

وهذا الكلام خليط وتخليط، لأنه يدافع عن الرسول ﷺ في وجه من يتهمونه بالتلفيق والخداع ثم يعود هو نفسه يتهمه بالكذب إذ يدعي أن القرآن تأملات لنفس صافية ونقول له: القرآن من عند الله لفظا ومعنى، وليس للرسول ﷺ إلا البلاغ والرسالة، ولم يكن صدى لتأملات الرسول ﷺ في هذه الصحراء الشاسعة، وكثيرا من المفكرين كانوا يعيشون في وسط الصحراء فلماذا لم يأتوا بنظير له في قوة البلاغة وجودة السبك وروعة الأسلوب والحديث عن وقائع الماضي والأخبار عن الحوادث المستقبلية.؟

لماذا لم نسمع أن واحدا من ملايين الرهبان والقديسين الذين يعيشون في الأديار بأعماق البيد الموحشة ويتأملون في السماء والأرض والنجوم والأشجار والكواكب والأطيار وفي جنبات هذا الكون الفسيح والملك والملكوت، ولم تنبجس في نفوسهم الطاهرة ينابيع صافية بمثل هذا القرآن العظيم؟؟!

رابعا: من الدلائل الساطعة على أن القرآن من عند الله عطاؤه الذي لا ينفد عبر مرور الأيام وتعاقب العصور؛ بمعنى أن المفسرين الذين تناولوا تفسير آياته، يستنبطون منه أفكاراً جديدة ومعاني فريدة وآراء طريفة، فنحن أمام آلاف من التفاسير وكل مفسر حينما يقف أمام

---

(١) الأبطال ص ٧٤ .

(٢) الأبطال ص ٧٤.

آياته ويعكف على تأملها يستنبط منها معاني جديدة لم تخطر على بال الآخر، وفي الوقت نفسه نجد أن عطاء الآيات دفاقاً ومتجددا ومتسقا مع ثقافة المتلقي، وطبيعة المكان، ومنسجما مع ثقافة العصر ومراحل التقدم العلمي ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] هذا من جهة.

ومن جهة أخرى؛ ما هو الكتاب في أي مكان في العالم. عند اليونان أو الفرس أو الرومان أو في أوربة أو أمريكا أو في الشرق أو الغرب أو في أي ركن من أركان الكرة الأرضية أو في أي عصر من عصور تاريخ الحضارة الإنسانية - حظي بهذا الاهتمام والعناية والتفسير؟ وقد قرأنا عن الإلياذة والأوديسة، وجمهورية أفلاطون، وأخلاق أرسطو، وتأملات ديكارت، وميتافيزيقا الأخلاق عند كانت، ورأس المال لماركس، وهكذا تكلم زرادشت لنيتشه، وكلها كتب ظهرت في سماء الفكر ثم اختفت في زوايا النسيان وطوايا الأيام ثم أنها انتشرت في مكان دون مكان وهناك من لم يسمع بها أصلا، وهناك من تصدى لنقدها وإظهار عوارها وسلبياتها وتهافتها.

ومن جهة ثالثة: يلاحظ أن كل عالم من العلماء يجد فيه بغيته ومقصده وما يخدم علمه، فعلماء النحو يعولون عليه ليبرهنوا على صحة آرائهم ، ويستند إليه المناطقة في نشر قواعدهم المنطقية وتأكيد صدقها، ويستخرج منه رجال القانون تشريعاتهم وتأصيل قوانينهم، وكذلك يجد أهل التصوف في طريقتهم ومقاماتهم وأحوالهم وأشواقهم ومواجيدهم سندا وأي سند، ولم يتأخر فلاسفة الإسلام عن الغوص في آياته و الاعتماد عليها فيما ذهبوا إليه من أفكار متعلقة ببراهين وجود الله وشمول العناية الإلهية ومصدر الخير والشر وخلق العالم وطبيعة البعث والحشر، وعلماء التربية يجدون في آياته ما يكفي لوضع قواعد آداب راقية للسلوك الإنساني، وقواعد أخلاقية تتجلى في قاعدة «حب لأخيك ما تحب لنفسك»: ولا جدال أنه يعد المكون الأساسي لكل العلوم الإسلامية بخاصة وقواعد الحضارة الإنسانية بعامة.

ونختم هذا الرد بقولنا له - ولكافة زملائه من المستشرقين: «هلُم إلى استشارة عقلك فَتبصر، وإلى استخارة ذهنك فتدبر»(١).

(١) الزمخشري: أسواق الذهب ص ٨٣

٥ - رؤية المستشرق الألماني كارل فوللر Kaerl Voellr (١٨٥٧- ١٩٠٩) في مصدر القرآن(١):

ترجع شهرة هذا المستشرق إلى دعوته غير المحمودة إلى استعمال اللغة العامية والكتابة حولها استكمالا لدعوة سبيتا، ودراسته حول جمع القرآن وتحريره وكتابه «القرآن بلهجة مكة الشعبية»، وفرضيته القائلة إن القرآن نظم بادئ الأمر بعامية مكية (هكذا)، ثم أعيدت صياغته بحسب قواعد الفصحى وهذا النص القديم أخفيت معالمه وطمست هويته، وهو زعم باطل، وضارب في أعماق الخيال الكاذب، ما لبث أن أثبت المستشرق الألماني نولدكه بطلانه، وزيف فرضيته(٢).

الحقيقة يتعجب الإنسان من جرأة بعض المستشرقين في خوض البحار المتلاطمة الأمواج دون معرفة بفن السباحة، والنزول إلى ميدان الوغى دون عدة القتال، والمغامرة الفكرية من خلال إطلاق الأقوال المرسلة بشأن القرآن دون أن يمتلكوا أدوات الفهم العلمي أو يعرفوا روائع بيانه، أو يحيطوا بعلومه الواسعة أو يتعمقوا في فنون العربية وهي محيط بلا شاطئ وبحر طمطم وأفق بلا حدود، ومن طرحهم فروضا خيالية لا تستند لأي حقيقة علمية أو مصدر موثوق به أو استدلال منطقي يستوعبه الإنسان، سوى الرغبة في الظهور والشهرة أو إثبات الذات بطريقة تثير الغضب والحنق أكثر من جلب الرضا والمدح. ولا شك أن بعضهم يفتقد المناعة الأخلاقية التي تلجمه عن الخوض فيما يجهل ولم يحط به علما.

فلو فرضنا جدلا أن الرسول ﷺ هو الذي ألف القرآن فكيف يكتبه بلغة عامية، والعرب كانوا أفصح القبائل وفي قمة سبك العبارة وجمالية التصوير البلاغي، أضف إلى ذلك كان الرسول ﷺ من أفصح الفصحاء وأعظم البلغاء وأبلغ الخطباء، ثم أين هي هذه العامية القرشية التي عرفها «فوللر» وما هي مفرداتها وما مظاهرها؟

---

(١) مستشرق ألماني، عمل أستاذا للغات الشرقية بجامعة فينا، وانتدب مديرا للمكتبة الخديوية، (لدار الكتب بالقاهرة) خلفا فلهلم سبيتا (١٨٥٣ ١٨٨٣) وقد أحيا دعوته إلى اللغة العامية، وواصل النضال من أجل ذلك فناله من النقد والهجوم والرفض ما نال زميله سبيتا، ولم تكن لدعوته قيمة في الحياة الأدبية أو في ميدان البحث العلمي الرصين. (يوهان فوك ص ٢٥٢، محمد الزيني: المستشرقون في مصر ص ٣٠٠).

(٢) فوك: تاريخ حركة الاستشراق ص ٢٥٢

وكيف جهل أساطين قريش وكبار شعرائهم هذا التحول العجيب؛ وهم الذين سمعوا القرآن من بداية نزوله وأقروا بفصاحته، واعترفوا بإعجازه وسحروا من أسلوبه؟ و لماذا لم يكتشف جهابذة قريش هذه القضية وكيف غضوا الطرف عنها، حتى جاء هذا المستشرق الهمام، ليخبرنا بهذا «الاكتشاف العظيم»؟

وهل قرأ مقولة الوليد بن المغيرة عن القرآن، «إن هذا الكلام له جذور في الروح لا يجتث بسهولة». حتى قال عنه أبي جهل: لقد صبأ الوليد !!(١)

نفس هذه الآيات التي تأخذ بالألباب وتشحن القلوب بالخوف والهلع كما تملأها سكينة ورحمة، هي ذاتها التي أثرت في شخصية عمر بن الخطاب؛هذه الشخصية الجبارة التي وقفت سدا منيعا في مواجهة المسلمين وكان من أشد أعداء الدعوة، هذا الرجل العملاق، حينما قرأ القرآن انسابت آياته في أعماقه وسرت في كيانه وأدرك بذوقه الفطري الذي ورثه من بيئته أن هذا ليس من كلام البشر، وذهب أعلن إسلامه أمام الرسول ﷺ.

لماذا لم يحدثنا بلغاء العرب وفصحاؤهم عن هذه العامية المزعومة؛ولم يشر إليها أمراء البيان وفرسان اللغة مثل الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠ هـ) والجاحظ (٢٥٥ هـ) ومحمد بن يزيد المبرد (٢٨٥ هـ) وأبي حيان التوحيدي (٤٠٣ هـ)؟ وكيف لم يتنبه إلى هذه الفضيحة اللغوية علماء النحو ومنهم؛ سيبويه (١٨٠ هـ) وأبي زكريا يحيى الفراء (٢٠٧ هـ) وأحمد بن يحيى الملقب بثعلب (٢٩١ هـ) وأبي إسحاق الزجاج (٣١١ هـ) ولا أبي سعيد السيرافي (٣٦٨ هـ)، ثم من هو الذي حول القرآن من العامية المبتذلة إلى الفصحى المعجزة؟ وما دليله على ذلك؟.

إن هذا المستشرق لا يحتاج إلى الحجاج العلمي والنقاش الهادئ، بقدر ما يحتاج إلى شخص سفيه من رعاع «زقاق المدق» ليرد عليه ردا يتناسب مع اتهامه لقرآننا العظيم. لقد أعجبني رد أحد الباحثين المعاصرين المتحمسين لنصرة الإسلام وإعلاء رايته في الآفاق، وهو

---

(١) اجتمع رهط من قريش للطعن في القرآن فقال:بعضهم إن محمد شاعر، وقال آخر:إنه كاهن، وقال ثالث إنه ساحر فأنكر عليهم الوليد بن المغيرة هذه الادعاءات وفندها جيما:وقرر بصراحة مطلقة:إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه ومشرق أسفله وأنه يعلي ولا يعلو عليه.(تهذيب سيرة ابن هشام ص ٦٠)

يفند مزاعم المستشرقين في قولهم بأن القرآن ليس معجزا، فتوجه إليهم بهذا التحدي: " إنكم كتبتم عن الإسلام أكثر من ستين ألف مجلد، فعلام هذا الشقاء كله؟ أما كان يكفيكم أن تكتبوا ملزمة واحدة فيها كلام يضاهي البيان القرآني ثم تريحون أنفسكم لأنكم قضيتم على الإسلام وأثبتم أن قرآنه كلام بشر وليس وحياً معجزاً؟ [١]

٦- جولدتسيهر (١٩٢١)

تقابلنا مرارا مع هذا المستشرق، وأدركنا أنه حرب شعواء، وإعصار مدمر على الرسول والقرآن والمسلمين، كأنها إسرائيل استمدت عنفوانها منه وتدميرها للمدن الفلسطينية من بعض حرويه على الإسلام والمسلمين. وقد ألمعنا إليه سابقا أنه يتهم الرسول ﷺ بأنه استمد في قرآنه كثيرا من الحقائق والقصص من اليهودية والنصرانية، ولا يستنكف أن يعود يكرر بأن الرسول ﷺ هو الذي ألف القرآن وصاغه بعبقريته على حسب تبدل مزاجه وتعدد مواقفه، وتغير موضعه من مكة إلى المدينة، ويستغل حديثه عن قوله تعالى ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ٣] فيقول: رحب المشركون بهزيمة النصارى، أما محمد فقد ساءه هزيمتهم إذ كانوا على كل حال أقرب لعاطفته، ولكنه عبر عن ثقته بأن الدائرة ستدور قريبا على الفرس[٢].

ونرد عليه أن الرسول ﷺ لم يتنبأ ولا يعلم الغيب، وليس بكاهن حتى يدعي كذبا بعلمه بأمور الماضي أو إحاطته بالمستقبل. نعم ينطق الرسول ﷺ بلسان الوحي المنزل عليه من ربه مثل كل الأنبياء الذين وصلتهم السماء واختارتهم من دون باقي البشر، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى لماذا تعاطف الرسول ﷺ مع النصارى ولم يسلك مسلك قريش؟ لأنهم أهل كتاب - بصرف النظر عن تحريفهم الإنجيل. فهم من الناحية الدينية والأخلاقية أقرب إلى قلبه ووجدانه، وألصق بمنهجه، وهناك قواسم مشتركة بينهما، في حين أن قريش فرحت بهزيمة أهل الكتاب وانضمت إلى الوثنيين أمثالهم.

---

(١) عبد العظيم المطعني: افتراءات المستشرقين على الإسلام، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٣٢.

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي ص ٣٠ .

٧- إدوار مونتيه (١٩٢٧)

هذا المستشرق عنده نوع من الانفصام مثل بعض زملائه من المستشرقين، ومضطرب في أحكامه كما مر بنا، وهو الذي ينكر العذاب المادي واتهم الرسول ﷺ أنه هو الذي وضع هذه الصور الحسية الجميلة والمخيفة لأنها تناسب عقلية البدو الدهماء على حد تعبيره. وينقل من زملائه لاسيما نولدكه وفوللر دون أن يقدم أي حجة للفكرة التي يتبناها، وأسلوبه فيه غموض، وعدم القدرة على صياغة فكرته في عبارة مفهومه، بحيث لا يفهم القارئ قصده بسهولة.

ويرى أن الرسول ﷺ استقى معلوماته في تأليف القرآن من مصدر يهودي ونصراني بطريقة غير مباشرة، ومصدر جاهلي وهو أمية بن أبي الصلت، وأخيرا يأتي المصدر الإسلامي أي عبقرية الرسول ﷺ وجهده الذاتي. وحينما يسوق أدلته على ذلك يجمع بين المدح والذم، والحسن والقبح.وهذه شهادته عن صياغة القرآن «إنها جدُ رائعة وجد متنوعة في آن، فهناك قطع ذات فصاحة عالية، وكثيرا منها ذو صياغة شعرية آسرة ينطلق فيها خيال النبي العبقري، وهذه الأقوال تستولي على النفس بما فيها من حق وعمق» بعد هذا الوصف الدقيق لأسلوب القرآن يعود يقول: «لكن الأسلوب القرآني، الذي يختلف باختلاف مراحل الدعوة، كثيراً ما يصيبه الخلل، ويرجع هذا بخاصة إلى أنه مؤلف من قطع قد نزلت في أوقات مختلفة ثم ألصقها جامعوه بعضها ببعض»[1].

وهذا كلام لا يشبه كلام العلماء، ولا الدهماء، ولا يدل على أنه قرأ في حقيقة القرآن وجمعه وترتيبه، لأنه اتبع كلام نولدكه وأعاد تكرار ما ذهب إليه، كيف نجمع بين هذا الأسلوب الآسر والصياغة الرائعة، ثم يقول إن الرسول ﷺ ألفه، وقد تساءلنا قبل ذلك لماذا النص القرآني هو الذي عاش في التاريخ، وكل النصوص الدينية التي قرأنها وسمعنا عنها طويت في عالم النسيان، وليس لها أي صفة من القداسة والتقدير والاحترام؟

ثم يعود يقول «آياته نزلت في أوقات مختلفة» كلمة النزول تعني أنه من مصدر علوي، وما معنى ألصقوها؟ ألم يعلم أن هذه الآيات نزلت في مناسبات متعددة، وإجابة على أسئلة

(١) من المقدمة التي كتبها لترجمته للقرآن (نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ١٣٤: ١٣٥

وجهت من الكفار واليهود إلى الرسول ﷺ. وشرح لموقف معين، وتعضيد لرأي الرسول وأحيانا بشارة له، وهكذا.

٨ - نولدكه (١٩٣٠)

مر بنا سابقا زعم هذا المستشرق بأن الرسول ﷺ اقتبس قرآنه من كتب اليهود والنصارى، على أنه لم يكتف بهذا الاتهام المغرق في الجهل، المجانف للصواب، المتعصب للضلال، بل ذهب إلى أن الرسول ﷺ كان يشارك في تأليف القرآن على حسب خواطره وحالته المزاجية وتبعا للمواقف الشعورية التي يتعرض لها، ويتخذ من حادثة أشار إليها مؤرخو الإسلام تكئة لذلك. يقول: لا بد أن محمدا منح المقاطع القرآنية شكلها النهائي الذي احتفظت به، من خلال تلاوته إياها من أجل أن تحفظ أو تدون.فحين أملى محمد مطلع سورة المؤمنون على عبد الله بن أبي سرح، أصيب هذا بالاندهاش من وصف قدرة الله الخالق فصاح: (فتبارك الله أحسن الخالقين). فأمره النبي أن يكتبها لأنها نزلت هكذا. يتضح لنا أن كلمات عبد الله بدت ملائمة لمحمد فاتخذها في هذا الموضع ارتجالا[(١)].

وفي موضع آخر من كتابه العجيب الذي لم يترك فيه سورة أو آية واحدة في موضعها إلا أبدى وجهة نظره فيها؛فهذه وضعها محمد وهذه قدمها من مكانها، وهذه زائدة وهذه أضيفت كلازمة، وهذه الآية اخترعها أبا بكر بدليل أن عمراً لم يسمعها، وتلك وضعها أبي بكر لتمجيد نفسه وأبويه وأبنائه، وتلك الآيات حذفها سيدنا عثمان لأنها تحط من شأن الأمويين، وهكذا يمضي هذا المستشرق في هذيانه مثل السكران الذي يفقد عقله وهو في الخمارة فيصبح مثل الثور الهائج؛ويطيح في السكارى أمثاله فيعتدي عليهم بالضرب والشتم، ويكسر الأكواب والأبواب ويسب الخدم، ويهشم قناديل الإنارة، ولا يصحو إلا وهو بين الشرطة.

الشاهد أنه يقول عن القرآن: فبالرغم من أن محمداً هو موضوعيا وفعليا مؤلف الآيات والسور الموضوعة في هذا الكتاب (أي القرآن)، فهو لا يعد نفسه صاحبها بل الناطق باسم الله والمبلغ كلامه وإرادته. لهذا السبب لا يتكلم في القرآن إلا الله والله وحده. لا يسع المتخصص في تاريخ الأديان إلا أن يرى في هذا الأمر وهما[(٢)].

(١) تاريخ القرآن ص ٤٥

(٢) تاريخ القرآن ص ٣٤٣

من الواضح أن حوارنا مع المستشرقين لن ينتهي، ولن نلتقي في كلمة سواء بسبب منطلقاتنا المتناقضة ومواقعنا المتباعدة، ومعتقداتنا المتباينة. ففي حين برمج المستشرق فكره وأطر معتقداته على أن محمدا ﷺ مفكر عظيم، ومصلح اجتماعي، ورجل نشيط ذو ثقافة عريضة وآمال طموحه، نهض بثقافته وسعة علمه ومهارته في التأليف إلى وضع القرآن، نرى نحن المسلمين أن سنة الله في الكون أنه يختار من عباده من يشاء ويصطفيه على خلقه، فيرسله لهداية البشرية، ويعد رسولنا ﷺ واحدا في موكب الرسل وقافلة الأنبياء؛ في ضوء ذلك نرى أن من العسير علينا علميا ونفسيا أن نبحث عن نقاط مشتركة بيننا وبين هؤلاء المستشرقون أو أن نتفق. هذا أولا.

ثانيا: على فرض صحة رواية المؤرخين التي وردت عند البخاري (٢٥٦ هـ) والزمخشري، لا نرى في ذلك عجبا، فتوارد الخواطر أمر معهود في النفس الإنسانية وعلماء النفس لا ينكرون ذلك، وسياق الآية يدفع الخاطر الإنساني أن يتفق تمام الاتفاق مع الخاطر الملائكي، وينطلق لسانه بها قبل أن يسمع تذييل الآية، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى هناك شواهد عديدة ساقها أدباء العربية على أن بعض العرب كان يقرأ القرآن ثم يخطئ في القراءة، فنرى المستمع يقوم بالتصحيح له مباشرة وبطريقة تلقائية بما يتفق مع منطوق القرآن، كأنما سليقته العربية وحسن التذوق وفطرته النقية تتسق تمام الاتساق مع منطوق الآية.

روى الأصمعي أنه كان يقرأ: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨] فأخطأ وقرأ وقال: والله غفور رحيم. وكان أعرابي يستمع إليه فقال ما هكذا أنزلت، أو سأله: كلام من هذا؟ فقال الأصمعي: كلام الله. فقال: ليس هذا كلام الله. قال الأصمعي فانتبهت فقرأتها: والله عزيز حكيم. فقال: الآن هو كلام الله. يا هذا، عز فحكم فقطع. لو غفر ورحم ما قطع.

وفي رواية أخرى: يحكى أن أعرابيا قال بعد ما استمع إلى أحدهم يقرأ مخطئا أو لاحنا في قوله تعالى: إن الله حكيم عزيز. ما هكذا أنزلت.

إنما هي: إن الله عزيز حكيم، لأن العزة والقوة سبب في الحكمة والتحكم فيجب أن تتقدم عليها.

ومن جهة ثالثة؛ علينا أن نقرأ الآيات ونتدبرها ونمعن الفكر في سياقها ونتأمل في مفرداتها فنلمس لمس اليد الوحدة العضوية في الآية، وتناسق ألفاظها في انسجام يلفت النظر ووحدة المعنى وتسلسل الأفكار وملائمة السياق وقوة الأسلوب وسلاسته ، وتجلى روح القرآن أشد ما يكون التجلي والظهور. لنقرأ ونتدبر هذه الآيات المحكيات ونتأمل في مفرداتها وتناسقها وسلاسة عرضها ثم نحكم حكما موضوعيا بعد أن نتجرد من مذاهبنا ومعتقداتنا ونحاول قدر الاستطاعة أن ننظر فيها نظرة علمية مجردة ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦]

بدأت الآية بالحديث عن خلق الإنسان من الطين أصله الأول، ثم نبهت على أن القدرة الإلهية وضعت لنا نظاما اجتماعيا لتحديد علاقة الرجل بالمرأة، فاستقرت نطفته في مكان أمين، ثم تحول هذا الحيوان المنوي في أطوار محكمة الصنع والخلق فتحول إلى علقة ثم مضغة أي قطعة من اللحم ثم بقدرته المطلقة صنع لها العظام ثم اكتست العظام لحما حتى رأينا أمامنا صورة الإنسان منتصب القامة رائع الخلقة حسن المنظر، ترى كيف ينطق لسان الإنسان من خلال تأمله في هذه الأطوار المتتابعة المدهشة حينما يستحضر في ذهنه صورة الحيوان المنوي الذي لا يرى إلا بالمجهر قد انتصب إنسانا تام الخلقة رائع المنظر يغير هذا العالم بما وهبه الله من المواهب والملكات والمهارات؟

أعتقد أن المتأمل أيا كانت عقيدته ومذهبه وجنسه ولونه، لا يجد مفرا إلا أن يصيح بصوت مرتفع يملأ الفضاء الذي حوله حتى تسمعه كافة الموجودات قائلا: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾.

ثالثا: من يقرأ كتاب نولدكه ويرى محاولاته العنيدة وبرهنته البائسة وسعيه الدءوب لإثبات أن القرآن ليس كتاب إلهيا وأن محمدا هو الذي ألفه ونظمه ونسقه ورتبه وزاد فيه وحذف ولم يتحرج من تكرار الآيات وتعديل مواضعها في المقاطع القرآنية أو نسخها

بحسب تبدل الظروف[١]، يشعر أنه يهيم في عالم الأحلام والخيالات ويطرح أفكارا عجيبة وأوهاما أبعد ما تكون عن الحقيقة وكلها باطل الأباطيل وسراب بقيعة، ويدرك أن جهوده العلمية الواسعة عبث وإهدار للوقت، وهذا الطرح يذكرني بأوهام «حسني علام» هذا الشاب الغني اللاهي العابث في قصة «ميرامار» رائعة نجيب محفوظ، فليس هناك قضية تشغله غير العبث بالميراث الذي ورثه عن أبيه وإغراء الفتيات على الوقوع في الرذيلة ولا يشغل عقله إلا هذه الخيالات البهيمية وأحلام اليقظة التافهة.

رابعا: بعد كل هذا الجهد والعناء الذي بذله نولدكه واطلاعه الواسع على مصادر التراث الإسلامي، وجهود المستشرقين من زملائه لم يستطع أن يصل إلى الحقيقة الساطعة، بأن هذا القرآن المعجز من عند الله والأدلة ساطعة أشرنا إليها سابقا، وعرب قريش أدرى منه الذين وقفوا مندهشين من بلاغته وسمو أسلوبه وصوره الخلابة، وإيراد أخبار الأمم الماضية، ووقائع مستقبلية، لذلك أقروا بنبوة محمد ﷺ ودخلوا في الإسلام مقتنعين موحدين. هذه من جهة. ومن جهة أخرى نعتقد اعتقادا جازما أن المتخصص في تاريخ الأديان -. ونحن متخصصون مثله في تاريخ مقارنة الأديان - لا يسعه إلا أن يرى بأن القرآن من عند الله، ويحكم على من يقول «إن هذا الأمر وهما» بأن تفكيره قاصر ليس هذا فحسب بل يعد تفكيرا صبيانيا خاليا من المنطق والعقل.

ومن جهة ثالثة: اللافت للنظر في كتاب نولدكه أنه مغرم بعرض آراء المستشرقين السابقين عليه وذكر أسمائهم، ثم توهين أدلتهم ونقضها، وتسفيه وجهة نظرهم ورفضها والتقليل من قيمة براهينهم وحججهم.

٩ - هنري لامنس (١٩٣٧)

هذا المستشرق من أسوأ الشخصيات التي من الممكن أن تقابلها في ميدان الاستشراق؛ كان حربا بلا هوادة على الرسول ﷺ، أنفق عمره في البحث عن أي شبهة ليلصقها به، وكان عاصفة هوجاء فعلا وليس مجازاً، لإثارة الغبار والأباطيل على سيرته الكريمة وكذلك على

---

(١) تاريخ القرآن ص ٤٣

القرآن، كأنه أخذ تفرغاً من الكنيسة لمهاجمة الإسلام والمسلمين وعلى رأسهم الرسول ﷺ بطبيعة الحال، وعقد شراكة مع الشيطان أن يشوه صورته المشرقة[١]، ومن هذه الأباطيل والأراء الطائشة والرياح الخماسينية المتربة التي أثارها حول القرآن قوله: إن اختلاف الأسلوب بين العهد المكي والعهد المدني يعد انعكاسا واضحا للبيئة التي وجد فيها، فالنصوص القرآنية تعكس طبيعة وبيئة وظروف كل مكان وكل زمان؛ فالأسلوب القرآني يمتاز في مكة بالشدة والعنف لأن أهلها أجلاف بينما يمتاز في المدينة باللين والوضوح والصفح لأن أهلها مستنيرون.

الحقيقة أن هذا الكلام ينم عن عدم فهم السيد لامنس لحقيقة تاريخ الجزيرة العربية وأحوال مكة والمدينة، وهو يكشف بجلاء مدى جهله الشديد بالتاريخ العربي قبل الإسلام، وأنه أنفق عمره في دراسة حياة الرسول ﷺ والقرآن ولم يتحرر من الغيظ المسيطر عليه والذي أغشى عينيه أن يبصر الحقيقة بعيدا عن هذه الادعاء ات المتهافتة هذا من جهة.ومن جهة أخرى هدف هذا المستشرق أن يشير بطرف خفي إلى بشرية القرآن وينكر صلته بالسماء وانه وحي يوحى..ونرد عليه في النقط الآتية.

أ. إن من يقرأ النص القرآني بموضوعية ويتحرر من الافتراضات المتعسفة التي تسيطر على ذهنه، يدرك أنه نظم محبك وسبك قوي وأسلوب فريد وبلاغة سامقة لا يقدر عليها البشر، ولذلك أقر كبار رجال قريش ببلاغته وعلو مكانته ولم يستطيعوا أن يعارضوه وكانوا هم أولا بهذه المعارضة.

ب. لم يقل أحدا من المؤرخين أن القرشيين كانوا أجلافا، بل كانوا تجارا مهرة وشيوخا متحضرين ورجلا ذوي خبرة، وقد اتصلوا بالعالم الخارجي من خلال رحلاتهم إلى الشام ومصر واليمن، أضف إلى ذلك كانت الكعبة تمثل مزارا لكافة قبائل العرب ويعد هذا التجمع تجمعا دينيا وثقافيا واقتصاديا.

---

(١) قال عنه أتين دينيه: قسيس يرسل نقده، ويقوم بهجومه في غير هوادة ولا رفق.ضاق ذرعا برؤية الإسلام ينتشر، ويبسط ظله، على إفريقيه وآسية، ويضيق صدر القسيس، فإذا به يسخط على القدر نفسه، ويقول: لماذا جاء القرآن فجأة، ليقضي على التأثير اللطيف، الذي كان الإنجيل قد أخذ يحدثه في ابن البادية (محمد رسول الله ص ٣٩).

ج - أما اختلاف الأسلوب فهذا يرجع لأسلوب الشدة الذي قاوم به القرشيين الدين الجديد الذي جاء يحدث ثورة دينية واجتماعية واقتصادية في المجتمع ويهز ثوابته، وهم قد تمرسوا على هذه العادات الراسخة ومن المعلوم أن العادات والتقاليد لها سلطة خفية وظاهرة، ناهيك عن أنهم عدوا هذا الدين تسفيه لما ورثوه عن آبائهم ولذلك قاوموه بعنف ولم يتريثوا حتى يفهموا أبعاده فكان رد الفعل عليهم قويا وقاسيا يتناسب مع شدتهم في مواجهة الرسول ﷺ وإنزال العذاب الشديد بأصحابه وصل إلى درجة القتل كما وقع لآل ياسر، وفي أثناء صراع الرسول ﷺ مع قريش كانت أصداء الدين الجديد ومضمون أفكاره يتردد صداه في المدينة وأخذ أهل المدينة يفكروا في الأمر مليا وأخذوا وقتا في استيعاب أركانه وبعد الاقتناع بمبادئه وتعاليمه بايعوا الرسول ﷺ وطلبوا منه القدوم وتعهدوا حمايته، ولما كانت آيات القرآن تنزل حسب المناسبات؛ تعديلا لأمر من الأمور أو تعضيدا لموقف من المواقف أو إنكاره ، أو إجابة على بعض الأسئلة الموجهة للرسول ﷺ أو شد أزره ، فكان من الطبيعي أن تشيد بهذا الموقف الإيماني، وتمدح مسلكهم المستقيم وتثني على موقفهم.

فالقضية ليست توصيفا بأن هؤلاء أجلاف وهؤلاء مستنيرون، نحن بصدد قوم معاندون لم يقبلوا الدعوة على الرغم من أن الرسول ﷺ نشأ بينهم ويعلمون صدقه، وقوم اقتنعوا بداية بموقفه فآمنوا به ورحبوا بقدومه وأقسموا على نصره.

د - إن الدارس لآيات القرآن والمتعمق في آياته يدرك أنه لا يحابي قبيلة على قبيلة ولا مدينة على مدينة ولا قوم على قوم، إنما المعيار هو التقوى والعمل من أجل نصرة الإسلام ونهضته، ومؤازرة رسوله ونصرته، ولذلك نجد الآيات المكية خاطبت القرشيين في مواقف لا حصر لها باللين و الرفق والمودة ويتجلى ذلك في قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥]، ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] وأيضا [الزخرف: ٨٩].

كذلك خاطبت الآيات المدنية الذين تخلفوا عن الرسول ﷺ بقدر كبير من اللوم والشدة، والغضب من الله ورسوله وتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] وكذلك خاطبت المنافقين والمؤمنين بمنتهى العنف والوعيد بالعذاب الذين نسجوا خيوط الإشاعات وأثاروا الغبار حول أم المؤمنين عائشة، يتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

هـ - ونستشهد بتقييم يوهان فوك لشخصية لامنس وبحوثه، إذ يقول:في بداية هذا القرن (التاسع عشر) تعرضت العلوم الإسلامية لحقبة متطرفة من الشكوك والنقد اللاذع، شأن غيرها من الفروع التاريخية الأخرى بوصفها نتيجة حتمية لمذهب النقد التاريخي، لاسيما المعضلات المرتبطة بشخصية محمد ونشوء الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام، قدمت حقلا شاسعا للتأويل التأملي، ويعد لامنس أبرز ممثل لهذا الاتجاه[1].

ثم بعد أن أشار إلى منهجه النقدي وتشكيكه في رسالة الرسول ورفض ﷺ نبوته رفضا تاما، وتناوله بالنقد أحاديث الرسول وأسرته في كتابه «فاطمة ومحمد» وهجومه على الصحابة؛يقول: قدم الروايات السلبية الخاصة بالرسول ﷺ، وكانت الصورة المرسومة هنا جانبية بالضرورة، ولم تتمكن غزارة المصادر ولا حنكة العرض، من سد ثغرات ضعف الحجج المقدمة[2].

وهذه وجهة نظر نولدكه الذي قيم أعمال هذه الرجل ووصفها بالتعسف والانحياز الأحمق إلى الباطل.يقول: يأخذ لامنس من المصادر كل ما هو قبيح وسيء من غير تمحيص؛ فينتج لفاطمة وعلي صورا كاريكاتورية فعلا. أما محمد نفسه فيقدمه لنا باعتباره أميرا شرقيا بهيا وأكولا ومجنونا بالأطفال. وفي هذا بطبيعة الحال مبالغة كبيرة، وينبغي أن تستعمل أعمال لامنس بحذر[3].

---

(١) يوهان فوك ص ٣٠٦

(٢) فوك ص ٣٠٧

(٣) تاريخ القرآن ص ٤٢٩. يعجبني تقييم أتين دينيه لمنهج لامنس ونرى أنه من أفضل من صور شخصية هذا=

١٠ - وجهة نظر بودلي (١٩٧٠):

الناظر في حديث بودلي عن القرآن - على الرغم من اضطرابه وغموضه في أحيانا كثيرة - يستشف منه أن محمدا كان يجيد القراءة والكتابة وهو الذي ألف القرآن بما سمعه من أقوال بحيرى ومحاوراته معه، وكذلك ما تعلمه من خلال مناقشاته مع ورقة وما التقطته أذناه من أحاديث عن قس بن ساعدة ، ويبرر ادعاء الرسول ﷺ بجهله بالقراءة، أنه تبادر إلى ذهنه بأن في اشتهار أمر أميته دعاية طيبة له، فصدور كتاب كالقرآن عن أعرابي جاهل يحدث ضجة تفوق ولا شك ما يحدثه صدور نفس الكتاب عن متعلم[١].

ثم يعود يناقض نفسه فيقول: بعض السور تبدأ «بـ اقرأ» أو «قل» «وهذه تدل على أمر جبريل له» ويمضي في مغامراته الخيالية وتناقضاته الصارخة فيقول: ومهما كان الطريق الذي جاء منه القرآن إلى الوجود فهو كتاب خالد، وسيان جاء عن طريق إملاء محمد لآياته على خديجة أو عليّ بن أبي طالب. وفي موضع آخر يقول: «كان (محمد) يفضل أن تكون الآيات التي يأتي فيها ذكر الله مبتدئة بـ «قل» ومن أمثلة ذلك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١، ٢] و(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)[٢].

وفي نص آخر يقول: بعد أن انقطع الوحي عن محمد وأصابه اليأس وكانت خديجة تشجعه، هذا الموقف دفعه أن يكتب الآيات كجزء من القرآن ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ - ٣]

وفي نص ثالث يقول: «إن القرآن هو العمل الوحيد الذي عاش أكثر من اثني عشر قرناً دون أن يبدل فيه، ولا يوجد شيء يمكن أن يقارن بهذا أدنى مقارنة لا في اليهودية ولا في الديانة المسيحية»[٣].

=القسيس المتعصب الحاقد فيقول: منهج لا منس ساذج كل السذاجة، إنه منهج العكس، أي المنهج الذي يأتي إلى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيقلبها متعمدا إلى عكسها.(محمد رسوا الله ص ٣٩).

(١) حياة محمد ص ٧٣ :

(٢) حياة محمد ص ٧٣: ٧٦

(٣) حياة محمد ص ٢٨٣

وفي نص رابع يقف موقفا حائرا مترددا بين الإيمان بأن القرآن من تأليف الرسول ﷺ أو هو وحي سماوي، فبعد أن يستعرض آيات لا بأس بها من القرآن تتحدث عن الأنبياء وسيرتهم ومعجزاتهم يقول: ما من شيء (يقصد سيرة الرسول وبيئته) ينبئ عن مشرع القوانين والدين والأخلاق، أو مؤلف الأساطير القديمة والقصص، أو واضع كتاب صلاة، وكل هذا في أسلوب رصين مكين، ربما كانت جميعها وحيا سماويا[١].

هكذا ينتقل هذا الرحالة من تناقض إلى تناقض، ومن شك إلى شك، ونستطيع أن نسلكه ضمن الشكاك أو اللاأدريين وأنه متردد بين الإثبات والنفي، ولا يتحرج أن يجمع بينهما مخالفا بذلك قانون عدم التناقض عند أرسطو[٢].

١١ - رأي بروكلمان (١٩٥٦):

يشتم من المقدمات التي قدمها بروكلمان عن أمل محمدا أن يكون مبعوثا في قومه وقد اختمرت هذه الفكرة في صدره حتى باح بها بعد تردد وخوف، أقول يستشف من ذلك أن الرسول ﷺ هو الذي نسج آيات القرآن بأسلوبه الذي اتسم بالصور الرائعة عابقة بالنفس الخطابي الذي يضج بين جنباته التناغم الموسيقي والإحساس الشعري وكانت أيضا كنفثات الكهان الوثنيين، قصيرة جدا، ومقدما لها بصيغ قَسَمية غير مألوفة[٣].

ونضيف إلى ما سبق قوله: إن الادعاء بتشبيه القرآن بكلام الكهان قول مهزوم، وتشبيه مرفوض، ويكفي في الرد على ذلك أن العرب أهل الفصاحة والبلاغة والقول المرسل والسبك القوي رفضوا هذا الرأي، واعتقدوا إن هذا القول تمويه على الحقيقة، ودليل على الضعف، وقد واجه عتبة بن ربيعة قومه وقال لهم هذا اتهام هزيل وأن آيات القرآن فوق مستوى البشر ، ونعتقد أن بروكلمان لن يكون أفصح من العرب وملم بمفرداتها وأسلوبها أكثر منهم، ثم إن القارئ لكلام الكهان يدرك أنهم يسوقون الكلام الغامض، والتعبيرات التي تحمل تفسيرا ت متعددة تخدم أغراضهم وإيهام المستمع أنهم يعلمون الغيب ويقرؤون

---

(١) حياة محمد ص ٢٨٩: ٢٩٣

(٢) سوف يأتي ردنا على بودلي من خلال تفنيد وجهة نظر المستشرقين في ذات القضية .يقول القانون: لا يمكن إثبات القضية ونفيها في زمن واحد ومن جهة واحدة.

(٣) تاريخ الشعوب ص ٣٧

حوادث المستقبل. وتعبيراتهم ساقطة ولا تقف أبدا في مواجهة فصاحة القرآن وقوة رصفه، وأخيرا قدم الرسول ﷺ إلى البشرية دينا شاملا متكاملا رسم خريطة واضحة المعالم للسير قدما في طريق البناء والنهضة والتقدم والحضارة، ونسأل ماذا أعطى هؤلاء الكهان للبشرية وما موقعهم من تطور الحضارة وأين الفكر الاجتماعي والسياسي والفلسفي الذي قدموه؟

من الواضح أنهم كانوا يمثلون شريحة نصف متعلمة داخل المجتمعات الأمية البدائية البائسة فقاموا بدور الطبيب والحكيم والمتنبئ ثم طواهم التاريخ مع تقدم العقل الإنساني ورقي المجتمعات.وهؤلاء الكهان يذكروننا بأنصاف المتعلمين في مصر في الثلاثينات والأربعينات حينما كان من يجيد القراءة والكتابة ويحفظ بعض آيات القرآن، كان هو شيخ القرية وخطيب الجمعة والمأذون ومن يقوم بقياس الأراضي ومن يفض المنازعات بين المتخاصمين(١).

١٢ - رؤية هاملتون جيب (ت١٩٧١):

في بحث له بعنوان «محمد والقرآن» ينطلق جيب من مقولة أن الرسول ﷺ حدث له نوع من التطور الفكري اعتمادا على الأفكار التي كانت سائدة عند العرب ويغلب عليها «الصفة الإحيائية» أي الاعتقاد بوجود حياة أو أرواح في الشجر والحجر، والأشياء المشخصة التي تحيط بهم وأن مفهوم الإله كان مفهوما غامضا مبهما، زد على ذلك تأثر بالبشارات الإنجيلية. وقد تمثلت الثورة التي جاء بها في تنقية التصور الإلهي وتحريره من شوائب الاعتبارات الطبيعية وأكد على وحدانية الله وأنه خالق السموات والأرض ومن فيهما؛ إله لا مرئي متعال، قادر على كل شيء، وبهذا ارتقى بالأفق الديني العربي، على أن هناك مشكلة عظمى اعترضته كما اعترضت سبيل أعاظم الذين شقوا سبلا جديدة في عالم الفكر، وهي بناء جملة حياة دينية وفكر ديني لشعب بأسره وهذا كان ضروريا للعرب ولمحمدﷺ نفسه، وقد انطلق من تصور الله الحاكم الأعظم، والخالق القادر على كل شيء، وتفتق حدسه من خلال جملة

(١) كان الشيخ مبارك والد علي مبارك باشا، ملم بالقراءة والكتابة لذلك كان يقوم بكل الشؤون الدينية في القرية؛فهو إمام مسجدها وخطيبه وهو (مأذونها) يعقد عقود زواجها، ويسجل صيغ طلاقها، ويستفتي في المسائل الدينية تعرض لأهلها، أحمد أمين: زعماء الإصلاح الحديث ص ١٨٤).

من الخطوات المقنعة للآخرين، وتمثل ذلك في القرآن الذي كان له وجهين: الأول سلبي هدمي؛ أي محو العبادة الإحيائية من أذهان أتباعه، والثاني: «الاستعاضة عن ذلك بتأويل الكون وما فيه تأويلا إلهيا إيجابياً» مثل؛ منع نذر بعض الحيوانات، ومنع اللعب بأسهم الميسر، وذلك أن محمداً شأنه شأن دكاترة الدين لم يحاول أن يفرض على ذهن معاصريه جملة أفكار معقدة جديدة غريبة، بل حافظ على رمزيتهم الدينية، واحتفظ بطاقتها الموروثة في إثارة ملكات تخيلهم، ولكنه نقل تلك الرمزية من جو إحيائي إلى جو توحيدي[1].

إذا دققنا في هذا النص المنذر بالخطر، فإن المتأمل فيه يستطيع أن يبلور جملة المسائل التي يريد أن ينشرها السيد جيب، ويبثها في وجدان القارئ نلخصها في الأفكار الآتية،

أ - يمثل محمد ﷺ أحد ثوريون التاريخ ومفكر كبير «مثل دكاترة الدين» استطاع من خلال حدسه وتفكيره المنظم العميق أن يضع دينا يوائم تفكير العرب القديم.

ب - كانت النزعة الإحيائية الدينية هي الغالبة على العرب أي تشخيص الموجودات والنظر لها أنها حية وتستقر فيها الأرواح، فقام محمد ﷺ بمجهود كبير من خلال التدرج الفكري أن يطرح فكرا دينيا جديدا يوائم بين تصورات العرب في الإحيائية والتصور الجديد الذي انتهجه، وطرح مفهوما متعاليا للإله، خالق كل شيء الإنس والجن.

ج - كان سلاح محمد ﷺ لإقناع مجتمعه، تأليفه القرآن بسبكه المعجز كما يدعي وزينة ألفاظه الموحية، ولغة الشعر التي استخدمها، على الرغم من تحرره من الوزن والعروض، وكما أن الكنيسة عمدت إلى الموسيقا لدعم الاشتداد العاطفي نحو مصالحها، عمد الإسلام إلى تنمية فن ترتيل القرآن لشد أزر ندائه للتخيل والإحساس[2] - ونوجز الرد على السيد جيب في النقط الآتية:

أ. أشرنا فيما سبق إلى أن هؤلاء المستشرقين عندهم أفكار راسخة تسري في عروقهم سريان الدم في الشرايين، أو هي جزء من الخلايا التي تتكون منها أجسامهم، ومهما

---

(١) علم الأديان ص ١٠٥ : ١٠٨، وما بين القوسين منقول بالنص.

(٢) علم الأديان ص ١١٥.

نالوا قسطا واسعا من العلم وحصلوا على أعلى الشهادات، واطلعوا على مصادر السيرة النبوية ورجعوا إلى أوثق المصادر إلا أنهم لا يراجعون رؤيتهم لسيرة الرسول ﷺ، ولما كان جيب نسيجا منهم وجزءً لا يتجزأ من هذه الكتلة الصلبة لذلك يسلك مسلكهم، ويهتف بهتافهم، وكنا نرجو أن يقيم حوارا صادقاً بينه وبين نفسه وينظر إلى القضية نظرة موضوعية متحررة من الإرث الثقافي والمخزون الفكري الذي أصبح مكونا أساسيا من منظومته الفكرية، وبخاصة أنه ولد في الإسكندرية وعشقها وكان يعود إليها بين الحين والآخر مع والدته يمضيان الصيف على شاطئها الساحر، أي أنه عاش في محيط إسلامي فأصبح قريبا من رؤية المسلمين يستطيع أن يبصر وجهة نظرهم بعيونه الداخلية كما يقول ويحاول أن يبحث عن الحقيقة ويتلمس معالمها، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية يقع في تناقض شديد حينما يقبل نبوة الأنبياء ويحتفي بهم، وفي الوقت نفسه ينكر نبوة محمد ﷺ إنكاراً صريحا، وكما ذكرنا يُعد هذا أشد أنواع التناقض، فكيف نقبل بعض معطيات القضية ثم نرفض بعضها الآخر، ويحدد رؤيته إليه أنه زعيم ثورة دينية في الجزيرة العربية، ومفكر ملهم استطاع عن طريق حدسه الصادق، وذكاؤه الخارق، تطوير الفكر الديني العربي ويرتقى به إلى فكرة الوحدانية.

ب. من المهم بمكان أن نبين أن التصور الإحيائي الذي تكلم عنه السيد جيب لم يكن سائدا عند العرب بل وجد في حضارات أخرى، نعم كانوا يعبدون الأصنام والأوثان لكن لم يكن عندهم تصور أنها حية أو تسكنها أرواح تخرج وتدخل داخل الصنم، ومن المعلوم أن مصدر هذه العبادة جاءت عن طريق حبهم لوطنهم فقد كان بعضهم حينما يسافر يأخذ بعض التراب أو قطع من الطوب ذكرى لوطنه الغالي، ثم مع تباعد الزمان، قدسوا هذه الأحجار، وهذا أيضا وقع في مصر الفرعونية فحينما كان إقليم ينتصر على إقليم فيتخذ المنتصر النسر أو الأسد أو الشمس رمزا له، ومع مرور الأيام وتباعد الزمان يقدس الناس هذا الرمز. هذه نقطة.

الثانية: من المهم بمكان أن نشرح أن مهمة الرسل منذ فجر البشرية إعلان التوحيد الخالص لله رب العالمين، والرسول ﷺ واحد من هؤلاء الرسل جاء يكمل مسيرتهم المباركة ويحرر الذهنية البشرية من أي تصورات أثنينية أو تعددية أو تجسيمية للألوهية، كما سجلها علماء مقارنة الأديان، فالأصل هو التوحيد، لكن مع تقلبات الأيام وتغير العصور تتحول المجتمعات من عقيدة التوحيد إلى عقائد الثنوية والشركية والتعددية.

ومن ثم فإن الرسول ﷺ لم يطور هذه المفاهيم الدينية لأنه ليس هناك علاقة بين عبادة الأصنام التي من أهم معالمها الشرك بالله، وعبادة إله واحد، بهذا التصور النقي الراقي الذي طرحه القرآن؛ الله الواحد الأحد القادر القاهر، فالله ليس كمثله شيء وهذا التصور لم ينشئه الرسول ﷺ فهو من عند الله فهو سبحانه الذي وصف به ذاته العلية، ، ثم إن الجزيرة العربية كانت تموج بمذاهب أصحاب الحنيفية الذين يعتنقون دين إبراهيم، وكان اليهود يفتخرون بدينهم ويقصون على الأعراب ما يعلمون من عظمة الله وجبروته ويبشرون بمجيء نبي، ويتعالون على العرب الوثنيين عباد الأصنام ويحدثونهم عن أمر البعث والقيامة والحساب والميزان[1]، وبعض العرب كان يعتنق النصرانية مثل ورقة بن نوفل، وإرهاصات ظهور نبي كان حديثا مشاعا في الجزيرة العربية وحدثا تنتظره البشرية[2].

فكيف بعد ذلك ننكر نبوة محمد ﷺ ورسالته؟[3]

ج - كنا نود أن يخبرنا جيب، كيف ألف محمد ﷺ القرآن الرجل الأمي ويعيش في أمة أمية ووسط اجتماعي يفتقر لأبسط وسائل الحياة، ومن أين استمد هذه التشريعات المحكمة، والموازين العادلة التي شملت كافة مجالات الحياة السياسية؛ مثل الحث على الشورى واحترام الرأي الجماعي وتنمية شخصية المسلم وحفظ كرامته والاقتصادية؛ فمنع الاحتكار والربا والسرقة وقرر حق الملكية، ووضع قواعد

---

(١) ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٧٤

(٢) محمد قطب (١٩١٩-٢٠١٤): إرهاصات نبوة محمد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٥ / ٢٠٠٤.

(٣) من الواضح تأثر هاملتون جيب بنظرية جوليان هكسلي (١٨٨٧ - ١٩٧٥) عالم البيولوجيا البريطاني، في تطور الفكر الديني من التعدد إلى التوحيد حيث يقول: «الإنسان خلق القوى الخارقة للطبيعة، ليلقي عليها عبء مالا يستطيع فهمه، فاعتقد الإنسان البدائي في السحر ثم في الأرواح المشخصة، ثم انتقل من الأرواح إلى آلهة كثيرة، ومن الآلهة الكثيرة إلى إله واحد. (هكسلي: الإنسان في العالم الحديث، ترجمة حسن خطاب، الألف كتاب، القاهرة. ص ٢٢١)

للعدالة الاجتماعية لكي لا تكون دولة بين الأغنياء، ونظم علاقة الإنسان بالله وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان على ظهر هذه الأرض وعلاقته بالكون كله، وعلاقاته مع الآخرين ليس هذا فحسب بل علاقاته بكل عناصر الوجود، وهذه التشريعات الاجتماعية المتعلقة بالزواج والطلاق والعلاقة الحميمية بين الرجل والمرأة وبين الابن وأبيه، وأركان الصلاة وشروط الصيام، وقواعد الزكاة ونظام الميراث الفريد؛ هذا التشريع المذهل، وقوانين الحرب وفنونها، وآداب السلام وشروطه ومعاملة الأسير والحث على الجهاد، وأسس التربية الأخلاقية، وآداب السلوك القويم، وآلاف من الأوامر والنواهي المتعلقة بمصلحة الإنسان أيا كان هذا الإنسان وحيثما كان، كيف يضع محمد ﷺ هذا الكم الهائل من التشريعات وقواعد التعامل الإنساني في هذه السنوات القليلة، وأنتم - معشر الماركسيين - تقولون بأن كارل ماركس ألف كتابه «رأس المال» في عشر سنين؟

د - كل مجتمع له عاداته وتقاليده المقبولة في العقل و المرذولة، وله أفكاره وتصوراته وخيالاته وحكاياته، ولم يكن المجتمع العربي بدعاً من ذلك، فكان من هذه البدع الشرك بالله والاعتقاد أن الأصنام تقربهم من الله وتلغي المسافات بينهم وبينه سبحانه، لذلك كانوا يذبحون بعض الحيوانات أمام الأصنام تقربا إليها، وكذلك شرب الخمر، وزواج الابن من زوجة الأب بعد موته، ولعب الميسر، فجاء الإسلام يستنكر هذه العادات، ويحرم الميتة والدم ولحم الخنزير الذي أثبت العلم الحديث والمعاصر خطورته على الصحة، وفي الوقت نفسه يرسم معالم الطريق الصحيح.

إذا نظرنا إلى هذه العادات نظرة مجردة نجد أنها عادات يستقبحها العقل، وينفر منها الذوق السليم، وتمجها النفس النقية وتتأذى منها الفطرة السوية، والرسول ﷺ مبلغ عن ربه ، وقد جاء القرآن بتحريم ذلك في آيات بينات واضحات. لا شك أن الإنسان لو خلي وفكره لاتجه إلى إله واحد، ولشعر بدوافع ذاتية إلى هذا الرب الوحيد، ولو خلي المرء وفكره لآثر الزواج على العهر، والصحو على السكر، والإخاء على الأثرة والنصيحة على الغش[١] هذا من جهة.

---

(١) محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٣٥.

ومن جهة أخرى، هناك فرق كبير بين الموسيقا التي تصاحب قراءة الإنجيل فنحن بصدد عمل خارجي وافد على النص، قد يؤثر في النفس ويشد انتباه الإنسان على حسب درجة حساسيته وقد لا يؤثر، وفن ترتيل القرآن، إذ إن آياته بذاتها مبهرة، ورصفه معجز وسبكه يؤثر في النفس ويغمر الشعور الإنساني بأمواج من الروحانية، و يحملك إلى آفاق من الأنوار تسبح في ألقها، فالتنغيم أمر داخلي متعلق بالنص، لم يفد عليه من الخارج ولم يضف إليه شيئا لأنه مبهر بذاته مؤثر في النفس بآياته، ومن ثم شتان ما بين موسيقا الكنيسة، وترتيل آيات القرآن.

ج - لا علينا إن لم يقتنع جيب أو إخوانه من المستشرقين، ولكن علينا أن نشرح أبعاد ديننا وندافع عن منظومته التعبدية والعقائدية، ومرور الأيام وتوالي العصور وكر الزمان وصراع الحياة هو الذي يمحص الحق من الباطل والخير من الشر.

يقول محمد عمارة وهو يرد على الدكتور نصر حامد أبو زيد في تحليله الماركسي وزعمه أن القرآن لم يكن له قبل تلاوة النبي له وجود مفارق للواقع، وأن الإيمان بمصدر إلهي للقرآن فهو كلام يقال، بعد أن أورد جملة من الآيات: هذه آيات تفصح بأفصح لسان وأوضح بيان عن أن القرآن الكريم قد نزل من عند الله إلى الواقع الأرضي والعالم البشري، وأنه قد كان له - أي التنزيل القرآني - كأي تنزيل، وجود مفارق لهذا الواقع الذي نزل فيه وهبط إليه، قبل النزول والتنزيل[1].

١٣ - فون جرونباوم (١٩٧٣)

في الفصل الذي عقده للحديث عن القرآن، نستنتج من كلام هذا المستشرق أن الرسول ﷺ هو الذي ألف القرآن ووضع هذا النص الأدبي، ولذلك تغير هذا الإيقاع النثري والشعري من مرحلة عمرية لأخرى تبعا لهذا التطور النفسي والتحول الاجتماعي.

وقد استهل عرضه بقوله بأن أسلوب القرآن لقي من الغربيين نقداً إجماعيا شديدا، وقد فقد منه جزء يسير، كذلك لا يجب ألا يغرب عن بالنا أن محمدا كان يبغي أن يعلم ويصلح، والواعظ والمعلم مجبران بحكم عملهما في ذاته، إلى التكرار بل إلى التكرار بنفس الألفاظ، ولم

(١) محمد عمارة: التفسير الماركسي للإسلام، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٤٢، ٤٣

يستعمل محمد ألبتة في القرآن شيئا من أوزان الشعر التقليدية بل راح يفك إسار النثر المسجوع ويقوم اعوجاجه ويملأ تضاعيفه حتى أصبح مركبا ذلولا لرؤاه العجيبة عن عذاب اليوم الآخر(١).

المتفحص لكتب بعض المستشرقين، يدرك أننا بصدد فريق متماسك عنده وحدة في الفكر وفي العمل له قائد وهو يوزع عليهم المهام الواجبة والأدوار المطلوبة، فكل مستشرق عليه أن يهاجم الرسول ﷺ والقرآن على حسب تخصصه، ولما كان جرونباوم متخصص في الأدب العربي، فمهمته فتح ثغرة من هذه الناحية، وهذا الموقف يذكرني حينما كنا شبابا أغرارا مراهقين في منظمة الشباب الاشتراكي (١٩٦٦)، فكانوا يوزعوننا في مجموعات حينما نخرج لاستقبال الرئيس وكل مجموعة عليها مهمة معينة من إلقاء الشعارات المسجوعة والمعدة مسبقا أو الهتاف وشق الحناجر، مع تنظيم الإيقاع وتبادل الأدوار.

حقيقي حينما أقرأ لهؤلاء القوم تقفز هذه الصورة المحفورة في ذاكرتي ،وهذا حال المستشرقين(٢).

ومع كل هذا فلن يأخذنا الملل أو اليأس في أن نرد عليه وعلى غيره، بأننا نتحداه أن يأتي بنص معجز مثل القرآن في تاريخ البشرية العريض !!، أما هذه الشنشنة عن الشعر والنثر المسجوع فكلام ليس له جدوى ولا معنى، لأن أساطين العرب وكبار رجال العربية الفصحاء أقروا ببلاغته وإعجازه، وهو كمستشرق لا يستطيع أن «يعرب» جملة واحدة أو يقرأ آية واحدة من القرآن قراءة صحيحة، أو أن يستوعب معطياتها، لأنه لم يتمتع بتذوق بلاغة العربية وسحر صورها ولم يعش في دفئها وجمالية أسلوبها، وقوة مفرداتها ولم يحط علما أن كل «كلمة» يتغير معناها على حسب سياق الآية، وأخيرا من يقرأ كتابه يشعر بتذبذب في

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٨: ١١٠

(٢) من الصور التي احتفظ بها في الذاكرة، حينما كنا في معهد إعداد القادة بحلوان(١٩٦٦)، وهي المرحلة الثالثة من إعدادنا سياسيا وتكويننا فكريا، أن الأوامر صدرت للموجهين السياسيين، بخروجنا لمقابلة الرئيس عبد الناصر وضيفه رئيس فنلندا، وخرجنا ووقفنا في صفوف متراصة على الجانبين أمام قصر القبة، وأخبرونا أن نعطي الانطباع الأخير للرئيس وضيفه لحسن الاستقبال قبل أن يدخل القصر، ووقفنا نهتف مثل الببغاوات نردد الشعارات التي أعدت إلينا سلفا (عفا الله عما سلف)، كما يفعل المستشرقون الآن .

موقفه بين أن القرآن موحي به بواسطة جبريل وقوله بأنه من إبداع الرسول ﷺ، كأنما يتخذ مذهب التقية والمداراة وغير قادر على أن يحسم موقفه.!؟

ونزيد في الرد لعل من لم يقتنع يفتح ذهنه لنسمات الفهم والمنطق، وينظر نظر التفكر والاعتبار، ويراجع نفسه فقد يثوب إلى طريق الحق والإنصاف.

ونضيف في الرد عليه قول هذا الباحث المتمكن: «الحق أن القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا يعد أكمل نموذج أدبي استطاعت اللغة أن تفصح عنه، فليس به أدنى اختلال، بل إن الاتساق البديع شامل لجميع نواحيه؛ في روحه الجليل الغامر، وفي نذره الرائعة المؤثرة، وفي مشاهداته الباهرة، وفي حلاوة وعوده الفائقة، وفي فكرته المتسامية المتشامخة، وأخيرا في أسلوبه البهي المعجز»[1].

١٤ - مونتجمري وات (٢٠٠٦)

يتناول هذا المستشرق قضية العلاقة بين القرآن والمفاهيم اليهودية والمسيحية، ثم يأخذها مدخلا للبحث عن مصادر القرآن، ويقرر أن المسلمين يعتقدون بأن القرآن من عند الله، لكنه يرى أن نستبعد هذه الفكرة، ويناقش قضية خطاب القرآن للرسول ﷺ ولأهل مكة وللمسلمين، ويذهب إلى أن الأفكار التي خاطب بها هذا الجمع شملت على أفكار أساسية مثل الوحدانية وهي مأخوذة من اليهودية والمسيحية، وقد أقنعهم القرآن بذلك لأنه خاطبهم بالأسلوب الذي يفهمونه، وقد أوحى بها الله لمحمد.أما ما ورد فيه عن قصص الأنبياء فهي قريبة مما جاء في المصادر اليهودية والمسيحية، أي من العهد القديم والجديد، وفي هذه الحالة يجد الباحثون الغربيون صعوبة في مقاومة الإغراء في أن يصلوا إلى نتيجة مؤداها أن القرآن من عمل محمد، وأنه أي محمد يكرر القصص التي سبق أن سمعها، لكن المسلمين لهم وجهة نظر أخرى[2].

غني عن البيان أن نقول إن منطلق المستشرقين واحدا، وهدفهم واحد، والاختلاف فقط في الوسيلة المستعملة لتحقيق هذا الهدف، نعني أنهم ينطلقون من نبع كراهية المسلمين

(١) الظاهرة القرآنية ص ٢٧٥

(٢) محمد في مكة ص ١٦٨، ١٦٩

والإسلام وحقدهم عليه بسبب هذا الانتشار الواسع، والهدف هو القضاء على الإسلام في أحسن الأحوال، أو تشويه صورته في العالم في أضعفها ومنع الأوربيين من إقدامهم على الدخول في ظلاله ، أما الأداة المستعملة لتحقيق ذلك فتختلف من مستشرق إلى آخر على حسب بيئته وثقافته وغليانه النفسي ومستوى عاطفته تجاه الإسلام.

في ضوء ذلك وجدنا وسيلة كارليل تختلف عن وسيلة بودلي، والأخير في هجومه يختلف سلاحه عن السلاح الذي تسلح به «وات»، هذا أولا.

ثانيا: ذكرنا أكثر من مرة أن القرآن لم يبرهن على وجود الله لأنها قضية فطرية في النفس الإنسانية وكل الحضارات التي ظهرت في التاريخ توصلت بطريقة أو بأخرى إلى وجود الله، ومن ثم فالمسألة لا تحتاج للتأثر باليهودية ولا بالمسيحية، ولكن ركز القرآن على قضية الوحدانية وتطهير عقول العرب من هذه التصورات الوثنية المتعلقة بالتعدد والشرك.

ثالثا: لم يقل أحدا أن بعض القرآن من الرسول ﷺ (مع أنه أنكر ذلك من قبل) وبعضه من الله، فهذه دعوى باطلة، وأكذوبة واضحة، إذ لو كان هذا صحيحا لأدرك أهل البلاغة اختلافا في مستوى الأسلوب ومنهج الأداء وطبقات البلاغة، ولما كان هذا غير موجود فعلمنا أن مصدر القرآن واحد، وهو الله كما ذكرنا قبل ذلك.

رابعا: ورود قصص الأنبياء بهذا التفصيل الوارد في القرآن، وهذا التفصيل الدقيق، والشرح المستفيض لأحوالهم ومواقف قومهم منهم مع دقة العرض في الإشارة إلى الأشخاص والأماكن والعظة والعبرة، يحتاج إلى مكتبة كبيرة وسعة اطلاع، ويدل على أن هذا فوق طاقة العرب جميعا، وفوق إمكانات الرسول ﷺ لاسيما بعد أن برهن كافة المؤرخين على أنه كان أميا، وهذا كله يؤكد أنه من عند الله.

خامسا وأخيرا: هذا المستشرق مثل الثعلب يتسم بالمراوغة والمناورة، والصعود والهبوط وغير قادر على أن يعبر عن رأيه بصراحة ولكنه يذهب ويجيء ويلف حول نفسه ويدور كالعنكبوت التائه، ثم يلقي برأيه على خوف ووجل كأنه لا يثق بنفسه، أو يخشى أن يراه أحدا.

ثالثا: الأدلة العقلية والنقلية على أن القرآن من الله

١- في نهاية هذه الردود، نؤكد أن من يقرأ القرآن، تنتابه مشاعر متعددة كلها تقوده إلى

مزيد من الإيمان والأمان، يشعر أن هناك عالما من النور والأنوار تشرق على كيانه كله وتشع من باطنه؛ فيوضات رحمانية يسبح في بحورها، تجربة فردية شعورية وجدانية متفردة تشعر فيها بالصفاء القلبي والجذب الصوفي، وأن اللغة عاجزة عن أن تصف هذه الحالة الشعورية، تحتاج إلى أبجدية غير الموجودة في القواميس، راحة شاملة تغمر الإنسان ، وطمأنينة تتسرب داخل روحه وتسري في كيانه سريان الماء في عروق الورد والدهن في السمسم، يشعر بالسلام الباطني يحيط به ينقله إلى عوالم أخرى بعيدا عن كثافة المادة وشهوات الجسد ورغبات النفس وأنه تحرر من الجاذبية؛جاذبية الأرض، وأنه منطلق في فضاء لانهائي يسبح في عالم من النور مثل مركبات الفضاء التي تحررت من الجاذبية وتسبح بقوتها الذاتية.. وتحرر أيضا من جاذبية المادة وغواشي الجسم؛كأنه صار عصفورا حرا طليقا سعيدا يملك الفضاء كله.

شعور آخر يغمر الإنسان بالصفاء النفسي ويملأه إحساس.طافح بالغربة في هذا العالم الخارجي المفعم بالحقد والأطماع، والمشغول بتدبير المؤامرات والانقلابات العسكرية والحروب والدمار والصراع على المناصب والكراسي حتى لو أدى ذلك إلى ذبح الملايين وتهجير أمثالهم وتدمير بلادهم وأوطانهم، يدرك الإنسان أنه في حالة «اغتراب» كتلك التي تحدث عنها «أبي حيان التوحيدي» في إشاراته الإلهية، ثم بعد تأمل عميق وتفكير هادئ يدرك بأن هؤلاء المجرمين القتلة الفجرة ليسوا من جنس البشر ولا يتمون إلى الإنسانية بأدنى صلة.

ويأسى لأصحاب هذه الأطماع التافهة والطموحات الكاذبة، ويتأمل في قصر العمر ثم رحلة الموت التي ستلقي بنا جميعا بكل هذه الملايين في حفرة حقيرة مليئة بالهوام والدود تأنف أن تأوى إليها الكلاب، فهذا هو مصير الجميع ونهاية البشرية، ثم يحاسبهم الله الحكيم العزيز العادل حسابا على ما قدموه من خير وشر.

شعور ثالث ؛يدرك الإنسان أنه قريب من الله في معيته بل مع الله يخاطبه ويناجيه، يسجد في حضرته في ظل أنواره يتضرع إليه ويبكي بحرارة يشكو إليه همومه ويبثه أحزانه المتعلقة بوطنه المسروق والمنهوب والمسلوب، ويرجو منه أن يقيل عثرته ويفك قيده ويوفقه

إلى الطريق القويم ويحرره من حفنة الخونة والانتهازيين و تحقيق آماله وطموحاته المشروعة للنهضة والتقدم، ويتضرع إليه يطلب منه الصفح والرحمة والغفران.

شعور رابع؛ كلما قرأ يشعر بسعادة غامرة تلفه، وحينما ينتقل من آية إلى آية أخرى يحس كأنما هناك من يجذبه بشدة ليعيد القراءة مرة ثانية، كأنما هناك من يسمع معه القرآن دون أن يراهم، وكلما قرأ جملة أحس إحساسا داخليا بالجاذبية تشده مرة ثانية وهاتفا باطنيا يرجوه التكرار ويستحثه على الإعادة والتلاوة ثانية، ونفس هذا الشعور حينما يصل إلى نهاية الصفحة يجد عينيه بطريقة لا إرادية عادت تقلب الصفحة حتى تعيد قراءتها، نعم إن القرآن له سحر خفي وجاذبية فريدة قلما يجدها الإنسان في أي نص أدبي آخر، وقوة خفية قاهرة لا يستطيع الإنسان مقاومتها حينما تستحثه على ضرورة القراءة ثانية وثالثة وهكذا.

وكلما قرأ لا يدركه الملل أبدا، ولا يتسرب لنفسه أي قدر من السأم، بل يزيد شوقه للقراءة والتأمل والتفكر في النص ومحاولة فهم مراميه ومعانيه ومعطياته.

فحينما يقرأ مثلا سورة الرحمن، ويسير مع الآيات صعدا وهي تنبه هذا المخلوق العنيد الظلوم بنعم الله عليه، وخيراته التي فاض بها عليه وغمره بعطاياه، وسخر له كل ما حوله حتى يعيش سعيدا على هذه الأرض، ويصل الإنسان إلى قوله ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يجد نفسه كلما ذكر نعمة من النعم يكرر تلقاء نفسه ختام الآية كأنما الفطرة النقية والشعور الباطني أصبح يتفق مع منطوق القرآن. ويشعر بلذة غامرة وهو يكرر هذا الختام كأنه إقرار علني بنعم الله الغامرة التي تحيط بالإنسان وتشمله برعايته وعنايته، واعتراف كامل بحسن صنعه ودقة تدبيره، إعلان صريح بوحدانية الخالق القادر القاهر[1].

موجز القول للقرآن تذوق فريد وجاذبية شديدة أقوى من جاذبية الأرض للقمر، وسحر خاص لا نعهده في دنيا الناس لا يعرف كنهه الفلاسفة ولا الشعراء ولا البلغاء، إلا من يعيش هذه التجربة الوجدانية الشعورية، القرآن يستحوذ على النفوس ويدفع الإنسان أن يقرأ ولا يكف عن القراءة.

---

(١) تقول كارين أن تجربة الشخص الغربي في قراءته للقرآن، تكون مختلفة تماما، ليس لأن الترجمة تفتقد جمال العربية، لكن تجربة القراءة تتطلب توجها غريبا على أمثالنا، وبخاصة أن القراءة تتم بروح عدائية ومن منظور استعلاء متخيل. (سيرة النبي ص ١٩٣).

يعد هامر برجشتال من المستشرقين الذين أسرتهم عبارات القرآن وهيمنت على عقولهم، وخلبت ألبابهم وقد ربط بين سحر لغة القرآن وطابعه الإلهي، إذ يرى أن حضور الله ينعكس في عظمة لغة القرآن[١]. وبعبارة صريحة يقر بالمصدر الإلهي وأن القرآن من عند الله.

يقول الشعراوي: «القرآن فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشرية، وما يستميلها، لأنه يخاطب ملكات خفية في النفس لا نعرفها وهذه الملكات تنفعل حينما يقرأ القرآن، ولذلك كان حرص الكفار على ألا يسمع أحد هذا القرآن، حتى الذين لا يؤمنون بالله..وذلك إن من يسمع القرآن سيجد له تأثيراً وحلاوة لا يستطيع أن يفسرها ولكنها تجذبه إلى الإيمان»[٢].

ويعجبني تعبير أحد الباحثين عن انطباعاته وشعوره تجاه القرآن فيقول في عبارة جميلة: «إن جمال القرآن جمال روحاني، ومعرفي لَدُني ، وحسنه حسن إلهي عُلوي، يسمو على كل أنواع الجمال؛إنه أسمى من الأسجاع، وأدق من الأوزان الشعرية، وأروع من المحسنات البديعية، وأوقع في النفس من فعل القوافي، وأنصع في الناظرين من الدرر الخوافي»[٣].

٢ - أثبت القرآن اتهامات المشركين للرسول مثل؛إنه كاهن وساحر، وشاعر، وأنه يخطه بيمينه واتهامات أخرى مشهورة، وإذا كان القرآن من تأليف محمد فلاشك أنه لن يشير إلى ذلك زد على ذلك أن يثبت اتهامات تقلل من شأنه وتحط من وضعيته في المجتمع.أضف إلى ذلك سجل القرآن دعاوى شائنة واتهامات باطلة صدرت عن المشركين في حق الرسول ﷺ؛ تهز كيانه وتهزأ من شخصيته مثل أنه أبتر ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، أو تساؤل الكفار لماذا لم ينزل القرآن على رجل عظيم من مكة أو الطائف غير الرسول اليتيم الفقير، ومن طبيعة الإنسان أنه يشير إلى محاسنه ومفاخره، وفضائله وكرائمه، ويكرر في كل موقف سجاياه الخلقية وصفاته التي تحسن من وضعيته

(١) نولدكه: تاريخ القرآن، من المقدمة ص ١٥ .

(٢) الشعراوي: أنت تسأل والإسلام يجيب، دار القدس، القاهرة، ١٤٢٣، ٢٠٠٣، ص ٣٧٧.

(٣) محمد أبو ليلة: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي ص ٢٩٦

وتعلو من شأنه بين المحيطين به ويزهوا بها، ويغض الطرف عن المواقف السلبية في حياته، ويلقيها في مخزن اللاشعور. هذا أولا.

ثانيا: أثبت القرآن جملة من المواقف التي عاتب فيها الله رسوله ﷺ بسبب أنه أخذ جانب اللين والرحمة من الكفار حينما أخذ الفداء من أسرى بدر، أو في موقفه من ابن مكتوم الذي انصرف عنه ومال بوجهه إلى صناديد قريش وشيوخهم، ليقنعهم برسالته ومجاهدته في كسبهم إلى صف الإسلام وجماعته، وكذلك في مسألة زواجه من السيدة زينب وشعوره بالحرج في أمر قرره الله وأوحى له به؛ ولو كان القرآن من تأليف الرسول ﷺ ومن قريحته لما أثبت كل هذه المواقف وعرض نفسه للعتاب والمؤاخذة، إذ إن من طبيعة البشر حب الثناء والمدح وذكر المواقف التي تدل على صواب رأيه وسعة حيلته ودلائل ذكائه، وإخفاء المواطن التي تقلل من قلة سداد رأيه أو عدم اختيار الرأي الصواب[1].

٣- الإخبار عن الحوادث الماضية

أ- إخبار القرآن بقصص الأمم القديمة التي طواها الزمان والحقب، وسرد بعض الوقائع والأحداث التي مرت بها مع الإشارة إلى بعض الأماكن والشخصيات، كذلك تناول سيرة الرسل وشرح ما لاقوه من عنت من أقوامهم. وتفصيل هذه الأحداث الدقيقة، وسرد وقائعها وتسجيل أدق الوقائع؛ التي لا يمكن إنسانا أن يعرفها مهما بلغ من العلم والدراية بأخبار الأمم الماضية، أو سيرة الرسل الكرام، فهذا أمر إذا نظرنا إليه نظرة موضوعية نجد أنه فوق طاقة إنسان يعيش في الجزيرة العربية بين مجتمع معظم أفراده أميين يعيشون حياة الشظف والكفاف، ولا يربطهم بالعالم الخارجي إلا رحلة الشتاء والصيف، ومعلوماتهم بجيرانهم ضئيلة لا تذكر ومعظمها مغلف بالخرافة والأساطير والخيالات الكاذبة المتعلقة بالاتصال بالجن وتلبسه بالإنسان على حسب وصف الجاحظ لاعتقادات العرب بهذا الخصوص.

---

(١) أفرد الشيخ عبد الله دراز مبحثا كاملا برهن فيه بالدليل النقلي، بيان مصدر القرآن وإثبات أنه من عند الله، ويعلم الله أنني عرضت وجهة نظري واستشهدت ببعض الأمثلة قبل أن أقرأ كتابه، وقد أفاض في عرض الأمثلة العديدة. ومن المعلوم أن العقل الجمعي إذا توجه لمناقشة قضية واحدة من الممكن أن يأتي بنتائج متشابهة ويقع الحافر على الحافر كما يقول أبو حيان التوحيدي. (النبأ العظيم ص ٢٠: ٣٤)

وقد أشار إلى هذه القضية الشيخ دراز بقوله: «في القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحتة التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط. ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقي والتعلم.ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق وما فصله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع؟ أيقولون إن التاريخ يمكن وضعه أيضا بإعمال الفكر ودقة الفراسة؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون إن محمدا قد عاصر تلك الأمم الخالية؟»....وينتهي إلى القول: «إنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب فذلك هو العلو النفيس الذي لم تنله يد الأميين ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين.وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محررا في القرآن[1].

ب - فصل القرآن تفصيلا واسعا قصة موسى وفرعون، بدءا من ميلاد موسى وتربيته في قصر فرعون، وقتله المصري ثم هجرته إلى مدين ثم عودته إلى مصر عن طريق سيناء وحواره مع الله من وراء حجاب، وانتهاء بالمعركة الفاصلة بينه وبين فرعون حينما خرج بجيشه العرمرم يسعى لقتل موسى وهزيمة جيشه، ثم جاءت المعجزة الفاصلة بنجاة موسى وجيشه وقومه، وهزيمة فرعون ومستشاريه وأنصاره وكانت من حكمة الله أنه ترك جثة فرعون عظة وعبرة للأباطرة والحكام الظلمة فهذا هو مصيرهم المحتوم يقول الشعراوي: لو لم يأمر الحق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون، أما كان من الجائز أن يقولوا: إنه إله، وإنه سيرجع مرة أخرى؟

ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أي حيوان غارق؛ حتى لا يكون هناك شك في أن هذا الفرعون قد غرق، وحتى ينظر من بقي من قومه إلى حقيقته، فيعرفوا أنه مجرد بشر، ويصبح عبرة للجميع، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية يقول لهم:

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وبعض من باحثي التاريخ يقول: إن فرعون المقصود هو «تحتمس»، وإنهم حلَّلوا بعضاً

---

(١) النبأ العظيم ص ٣٥: ٣٧

من جثمانه، فوجدوا به آثار مياه مالحة[1] ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢]

٤- الإخبار عن الحوادث المستقبلية

أ - في أحلك الظروف التي عانى منها مجتمع الإيمان من حصار الكفار لهم وقسوتهم على المسلمين، وشدة بأسهم، وصل إلى قتل سمية زوجة ياسر، ومطاردة كل من يثبت إسلامه وإنزال العذاب المهين به، وعلو صوت الباطل القرشي، وإحساسهم بمحاصرة المسلمين في دائرة ضيقة، في وسط هذا الصراع الدامي بين مجتمع الحق والعدل والإيمان، وصناديد قريش وشيوخ الجاهلية، والظلام الدامس، والحالة النفسية التي يعاني منها المسلمون ، جاءت البشارة بالنصر تهز وجدان المسلمين وترفع روحهم المعنوية، وتؤكد لهم إن نصر الله قريب، وعلى المسلمين أن يواجهوا جحافل الشر وقوى الوثنية وأن يثبتوا في الميدان لأن هذا صراع وجود، صراع حاسم، بين الفئة المؤمنة الصابرة وعصابة الشرك المغرورة، بين أنصار الخير وشياطين الشر، بين مسالك الحق الواضحة ودروب الباطل المعوجة، يقول المولى عز وجل ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥]

ب - يعد أبا لهب من صناديد قريش ومن عِلية القوم وقد حمل لواء العداوة العنيفة لمحمد بشكل يدل على خلل في شخصيته، واضطراب نفسي، وعناد أحمق، تجاوز كل العادات التي درج عليها المجتمع القرشي، والأعراف العربية، ومع محاولات الرسول المستميتة معه أن يعي ويرتدع لا سيما وأنه أحد أعمامه، إلا أنه مضى في غيه وتهوره وتنكيله بجماهير المسلمين، ولم يستثني من ذلك محمد ابن أخيه ولم يرع حق القرابة وصلة الرحم، هنا انبرى إليه علام الغيوب وأخبر بمصيره المحتوم وموته على الكفر مع فرعون وأعوانه !

وهذا دليل صادق عن العلم الإلهي الشامل الذي يعلم الكليات والجزئيات والغائبات

---

(١) تفسير الشعراوي سورة يونس.

والحاضرات، فلماذا لم يؤمن أبي لهب بعد أن سمع هذا التهديد المخيف والوعيد المروع والعذاب المنتظر، وتناقلت قريش تهديد القرآن له ووعيده؟

فلماذا لم يسارع ويدخل في الإسلام حتى يكذب إخبار القرآن بكفره، ويظهر أنه من تأليف محمد ﷺ؟ إلا أن أبا لهب مات على عناده وكفره فصدق فيه خبر القرآن ويرهن على أنه من علام الغيوب الذي يعلم خائنة الأنفس وما تخفي الصدور.

ج - من المعلوم الصراع الذي دار بين الإمبراطورية الفارسية الوثنية، والإمبراطورية الرومانية النصرانية، والحروب المستمرة التي دارت رحاها بينهما وكان العرب في الجزيرة العربية يتسمعون هذه الأخبار عن طريق إمارة المناذرة التي اصطنعها الفرس حماية لحدودهم، وكذلك من رعايا إمارة الغساسنة التي أقامها الرومان حماية لحدودهم الجنوبية من هجمات الأعراب.

وكان هوى المسلمين وقلوبهم مع النصارى أهل الكتاب في مواجهة الوثنية الفارسية، وكانوا يتألمون من انتصار الفرس على الرومان، فكانت بشارة القرآن بانتصار الروم النصارى على الفرس الوثنيين في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾. أليست هذه دلائل دامغة وحجج ساطعة وبراهين مادية قاطعة على أن القرآن من عند علام الغيوب.عالم الغيب والشهادة.؟

وفي هذا السياق نود أن نوضح أن كلود سفاري يعارض ذلك ويقول: «إن المسلمين بعد أن تحققت هذه النبوءة قد اتخذوها حجة قاطعة على نبوة محمد ﷺ، .. ولكن من السهل إدراك تهافت مثل هذه الحجج القائمة على نبوءة غامضة كهذه كان بمقدور أي إنسان يعرف حالة، الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية الفرس أن يتنبأ ذلك بدقة»[1].

إشكالية سفاري وأضرابه من المستشرقين أنهم ينطلقون من معتقد راسخ أن محمدا مفكر

(١) من ترجمته للقرآن ص ٣٦٥ (نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ٢٣)

سياسي ورجل حصيف عنده بُعد نظر وبسبب إحاطته بأحوال الروم والفرس فقد تنبأ بذلك، ونقول إن الرسول ﷺ لم يكن على دراية بالأحوال الداخلية لهاتين الإمبراطوريتين أو ملما بالتفسخ الاجتماعي هنا أو هناك أو المشكلات العقائدية التي تعاني منها الإمبراطورية الرومانية، وحتى إذا كان عنده أخبار بذلك لا يمكن أن يحدد تاريخ الهزيمة في بضع سنوات، لأنه لا يستطيع أن يقرأ الغيب، ونؤكد أن هذا وحي من الله لرسوله الذي اختاره هدى وبشرى للمؤمنين. ومن أراد أن يؤمن فليمؤن، ومن لا يبغي ذلك فالقيامة موعدنا. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

٥ - الحديث عن علوم ومعارف ليس للعرب دراية بها

بادئ ذي بدء، نحن نؤمن أن القرآن كتاب المسلمين المقدس، أنزله الله بعلمه، ووضع فيه الخطوط العريضة والقواعد الكلية لحركة المجتمع وتقدمه وتطوره في كافة مجالات الحياة - كما ذكرنا سابقا. و نعتقد أنه ليس كتابا في الفلسفة أو المنطق أو التاريخ أو الجغرافيا أو أي علم من العلوم ولكنه كتاب جامع شامل يضع منهجا قويا يسير على هداه المجتمعات المسلمة حتى يصل إلى بر الأمان في الدنيا والآخرة.

في ضوء ذلك لسنا من أنصار هؤلاء العلماء الذين يبحثون في آيات القرآن ما يتفق مع مبتكرات العلم المعاصر ويفتشون في آياته ما يلاحق النظريات العلمية، أو ماذا قال عن الذرة أو عن غزو الفضاء أو الاستنساخ.

ولكن يكفينا أنه يحثنا على طلب العلم بمعناه الواسع والشامل؛علوم الدين والدنيا، وأنه "أكثر الديانات ملائمة لاكتشافات العلم ومن أعظمها تهذيبا للنفوس وحملا على العدل والإحسان والتسامح. فيما ذهب جوستاف لوبون[١].

ولا يوجد فيه ما يعوق حركة الفكر أو يحجر عليه، أو يقلل من شأن قيمة العقل أو يعطل ملكات الإنسان ويمنع مواهبه من البحث والكشف والاختراع والانطلاق[٢].

---

(١) حضارة العرب ص ١٢٦

(٢) يقول مالك بن نبي: علينا أن نتساءل هل في آيات القرآن وروحها ما يعطل حركة العلم أو على العكس ما يشجعها وينميها. (إنتاج المستشرقين ص ٢٦).

ومع هذا نقول إذا توصل العلم إلى نظرية من النظريات وثبت صحتها ونجاحها وديمومتها، ورأى بعض العلماء أن هناك إشارات قوية وصريحة في القرآن وبرهن على أن دلالة الآيات تؤكد صحة ذلك فلا مانع من هذا التقرير والبحث العلمي الجاد.

فمثلا أثبت العلم أن عقل الإنسان حينما يولد لا يملك أي معرفة سابقة أو خبرة مختزنة، ويكون مثل الصفحة البيضاء، وأنه يكتسب المعرفة والعلم عن طريق مصادر المعرفة التي زُود بها وأهمها الحواس؛السمع والأبصار والشم واللمس والتذوق ونور العقل. وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة الساطعة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ومن اللافت للنظر أن القرآن قدم السمع على الأبصار، لمعنى مهم لم يكتشفه القدماء، ودلالة عميقة كنا نجهلها حتى برهن عليها العلم الحديث الذي قرر أهمية السمع في إدراك مفردات اللغة وتحصيل العلوم والإحاطة بما يدور في العالم الخارجي، إذ من الممكن للإنسان الذي فقد بصره أن يحيط بالعلوم كما نرى في حياتنا من أمثال بشار بن برد وأبي العلاء المعري وغيرهم، أما إذا فقد السمع كأنما أقيم سدا مانعا بينه وبين العملية التعليمية، هذا أولا.

ثانيا:أثبت الطب المعاصر أن حاسة السمع تعمل مباشرة عند المولود الذي يستطيع أن يسمع الأصوات العالية، في حين يحتاج إلى فترة زمنية حتى تنضج أجهزة الأبصار فيرى ما حوله. وثالثا: تعمل حاسة السمع في كل الأوقات سواء أكان الإنسان يقظا أو نائما، وتعمل بالليل والنهار وفي النور والظلام، في حين إذا نام الإنسان توقف عمل البصر، ومن المعلوم أننا لا نرى في الظلام أصلا[1].

وهنا ملحظ لطيف أشار إليه القرآن عن أهل الكهف، قوله عز وجل ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١] أي وضعنا حجابا على آذانهم حتى يستغرقوا في نومهم ويظلوا علي هذه الوضعية لا يوقظهم صوتا من الأصوات أو ضوضاء من الممكن أن يتعرضوا لها.

(١) محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩، ١١٨.

فإذا فرضنا أن محمدا ألف القرآن، فعلينا أن نتساءل كيف حصل هذه العلوم التي لم تكن معلومة لا في عصره ولا في العصور الموالية حتى كشفها العلم المعاصر؟؟. ثم أننا برهنا سابقا أنه كان رجلا أميا وبعث في أمة أمية.ولما بطل هذا الفرض وثبت تهافته ، فصح أن هذه المعارف والأسرار الخفية والمعطيات الجديدة تؤكد بما لا يدع مجالا للتردد أو الشك؛بأن القرآن من عند الله.

يتحدث علماء النفس عن طبيعة تكون العواطف الإنسانية مثل الحب والكره، فيقررون أن الإنسان يمر بثلاث مراحل؛مرحلة الإدراك أي رؤية الشيء وفهمه والإحاطة به، مثل رؤية الطفل للوردة اليانعة في الحديقة، ثم يتبعها مرحلة الوجدان أي الإعجاب بها والإحساس السار نحوها فتشغل عقله وتسيطر على قلبه وشعوره ، يليها مرحلة النزوع، أي توجه هذا الطفل نحوها وقطفها وشمها واللعب بها. وهي نفس الأطوار التي يمر بها الشاب حينما تتكون عاطفته تجاه فتاة ما، فأولا إدراك لها ورؤيتها وإمعان الفكر فيها وتبصر محاسنها، ثم الوجدان أي سريان شعور بالراحة نحوها، وتغمر روحه موجة من الأحاسيس السارة، وأخيرا النزوع أي الذهاب لخطبتها والزواج منها.

هذه المراحل الثلاث أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨].

نلاحظ هنا أن القرآن ذكر المراحل الثلاث؛ الإدراك ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ والوجدان ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ ثم النزوع ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ على أنه قدم مرحلة النزوع على الوجدان، بسبب صورة أهل الكهف المرعبة والتي تثير في النفس الخوف والفزع والهلع، فالإنسان الذي يشاهد منظرهم ينقص على عقبيه في لمحة خاطفة ويطلق ساقيه للريح بحركة لا إرادية لمجرد المشاهدة، ثم يدرك حجم الخوف الذي أحاط به والفزع الذي شمله. وهذا ما يقره علم النفس أيضا.

- يذكر القرآن مراحل نمو الطفل قبل الميلاد فيقول المولى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]

وهذا ما أثبته العلم في مشواره الطويل وأصبح من بديهيات الطب؛ فالظلمات الثلاث هي؛ ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة البطن.وفي تفسير آخر لبعض العلماء.يشير إلى المبيض، وقناة فالوب، والرحم.

لقد أثبت موريس بوكاي (١٩٢٠.١٩٩٨)[١] الطبيب الفرنسي الذي أسلم بعد دراسة علمية للقرآن استغرقت من عمره سنين عديدة ، نقول أثبت أنه لا يوجد بيان قرآني واحد لا يمكنه الصمود بصلابة للتمحيص العلمي، سواء تعلق هذا البيان بالحقائق الكونية أو الوراثية أو البحوث التي تجري في أعماق البحر. ثم يضيف بصدد قضيتنا لقد أثبت القرآن مصداقيته بالنسبة إلى ما جاء فيه من تفصيلات حول نمو الجنين - كما نعرفه اليوم - والتي لم يمكن التحقق منها إلا أخيرا، بفضل استخدام مجهر فحص داخل الرحم[٢].

وهذه الأدلة العلمية التي أصبحت حقائق يقينية وقوانين علمية، تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن مصدر القرآن من الله، لأن هذه المعارف كان يجهلها عصر الرسول ﷺ ولا يحيط بها قومه ولم تخطر ببال أحد منهم، وهي من مبتكرات العصر الحديث.

- زود الله الإنسان بوسائل حسية لمعرفة العالم الخارجي وإدراك ما يحيط به من موجودات، والارتقاء بحياته ولذلك قال أرسطو: من فقد حسا فقد علما، ومن هذه الحواس حاسة اللمس، وقد أظهرت الدراسات الحديثة أن بشرة الإنسان فيها ملايين الخلايا الحسية، هي وسيلة الإحساس بالبرودة والسخونة، وقد أشار القرآن إلى حاسة اللمس في قوله ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ [النساء: ٥٦] أي أن الجلود هي التي تنقل ألم العذاب ومس النار، فإذا احترق الجلد، انقطع الإحساس بالألم وتوقف معنى العذاب، لذلك قال الله سبحانه في قرآنه ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] حتى يستمر العذاب ويصير الكافر أو مرتكب الكبيرة في ديمومة من البؤس والتعاسة والشقاء.

---

(١) بوكاي طبيب فرنسي نشأ على المسيحية الكاثوليكية، اختاره الملك فيصل طبيبه الخاص، وفي أثناء عمله عكف على قراءة الكتب المقدسة، عند اليهود والنصارى والمسلمين، ومقارنة قصة فرعون في القرآن بما أثبته العلم، ويقال أنه أسلم، ألف عدة كتب منها؛ التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجم لسبع عشرة لغة منها العربية.

(٢) يوميات مسلم ص ١٧٩

والسؤال هنا: من الذي أخبر محمدا العربي الأمي ﷺ بهذه المعلومات الطبية التي اكتشفها العلم الحديث عن طبيعة الجلد كمصدر للإحساس، وموصل جيد للحرارة والبرودة، وحينما تأكله النار يحتاج إلى إعادة ثانية وخلق جديد، ولم نسمع عنه أنه كان طبيبا، ناهيك عن أن هذه المعلومات الطبية لم تكن متوفرة في بيئته، أما التي كانت متاحة فكانت محصورة في نطاق التداوي بالأعشاب والنباتات والكي وكلها وسائل بدائية.

إن هذه الأدلة الموضوعية والتجريبية تؤكد بما لا يدع مجالا لأي شك أن القرآن من عند الله.

وقد تناول مالك بني نبي عديدا من الإشارات البينات في القرآن تكشف للفكر الإنساني عن المصدر الغيبي التي تدفقت منه تلك الفكرة التي سبقت عصور التقدم الإنساني، واتفقت مع الحقائق التي كشف عنها العلم بعد ذلك بقرون، وتعد شاهدة على السر الأسمى للمعرفة القرآنية، وقد تتبع بعض الآيات التي تتحدث عن كروية الأرض، ومعنى نقصها من أطرافها ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤] ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وموافقة ذلك لحقائق العلم المعاصر والنظريات التي توصل إليها العلماء ووجدت مطابقة لدلالة الآيات(١).

ونورد مثالا واحدا وهو قوله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فيقول: منذ اكتشاف الطبقات العليا بفضل الطيران، استطعنا أن ندرك ظاهرة عضوية تنتج عن تمدد الهواء، إذ يشعر الصاعد في العلو صعوبة التنفس ويحس بالضيق والانقباض، وهذا يؤكد الاتفاق بين حقائق العلم المعاصر وفكرة القرآن. ويخلص إلى القول: «أو ليس عجابا مذهلا أن تضع الفكرة الموحاة - هكذا دائما - معالمها المضيئة أمام

(١) الظاهرة القرآنية ص ٢٩٣:٢٨٤

الفكر العلمي، حتى أنها تصف له الطريق ؟! وهل يستطيع أحد أن يقول:إن معالم كهذه انبثقت من عقل أمي»[١] لاشك أن هذا من الله.

ومادمنا تكلمنا عن برهنة العلم على صدق الإشارات العلمية التي جاءت في آيات القرآن، واتفاق ذلك مع التجارب العلمية، لذلك من المهم بمكان أن نشير إلى دراسات موريس بوكاي الشهيرة في هذا الميدان الذي عكف على دراسة التوراة والإنجيل والقرآن واستكشاف الأبعاد العلمية فيها وبذل جهودا مضنية ودراسات موضوعية متعلقة بالبحث عن دلالات الآيات وحقيقة مضمونها العلمي وهل هذا يتفق مع حقائق العلم؟ وكانت خلاصة دراساته أن هذا القرآن فوق مستوى محمد ﷺ وأنه من الله.

وقد استهل بحثه بالتمييز بين النظرية العلمية و الملاحظة الدقيقة؛لأن غاية النظرية توضيح مجموعة أحداث صعبة الفهم فهي إذن متغيرة في العديد من الأحوال وقابلة للتحول أو لأن تستبدل بغيرها، أما فعل الملاحظة المحقق تجريبيا لا يكون قابلا للتحول، فقد يمكن تحديد خصائصه بصورة أفضل[٢].

وقد تفرغ لدراسة الآيات القرآنية التي تتكلم عن كل ما في هذا الكون الواسع؛ السموات السبع بما فيها من شمس وقمر ونجوم وكواكب وأفلاك، والأرض وما فيها من جبال ووديان وكثبان أنهار، وأطيار وأشجار ونباتات وبحار ومحيطات، وما بينهما من الغلاف الجوي وما فيه من عناكب ونحل وحشرات، وتوقف أمام عظمة خلق الإنسان وأطوار حياته منذ كان منطويا في الصلب والترائب، والتقاء الحيوان المنوي مع البويضة وتحوله إلى علقة ثم مضغة، وعلى الجملة قام باستقراء جميع الآيات القرآنية الواردة بقصد الاستقصاء والتأمل فيها والنظر في أبعادها والتفكر في مغزاها وسبر أغوارها، ثم مقارنتها بما تحدث عنه العلم من حقائق مؤكدة وتجارب فرغ منها العلماء، ووجد أن هناك اتفاقا كاملا غير قابلا للشك أو إعادة التجارب بين دلالات الآيات القرآنية وما توصل إليه العلم من حقائق.

---

(١) الظاهرة القرآنية ص ٢٨٨: ٢٩٣

(٢) موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة حسن خالد، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٥١: ١٥٢

ويخلص إلى النتائج الآتية: إن القرآن لا يحوي أية يقينية علمية غير مقبولة. والرفض الكامل لمن يرون محمدا كاتبا للقرآن إذ كيف يتيسر لرجل حرم العلم في نشأته أن يصبح الكاتب الأول في الأدب العربي كله يخبر عن حقائق في النظام العلمي تتجاوز وسع أي كائن إنساني في هذا الزمن، ودون أن يكون منه أي خطأ مع ذلك.

يختلف وضع القرآن عن الأناجيل لأن الرسول والمؤمنين كانوا يحفظونه مع تتابع الوحي، ثم يكتبه في نفس الوقت الكتبة الذين كانوا حوله. وهكذا فقد توفر للقرآن من البداية عنصرا الأصالة اللذان لم يكونا أبدا متوفرين للأناجيل، وقد ظل الأمر كذلك حتى وفاة الرسول ﷺ.

إن معطيات العلم في تكوين العالم إذا لم تؤيد جميع المسائل المطروحة من القرآن في هذا الموضوع؛ فإنه على كل حال لا يوجد أقل تعارض بينها وبين المعطيات القرآنية في ذلك. وأن هذه الحقيقة تستحق أن تسجل لصالح الوحي القرآني في الوقت الذي ظهر بوضوح أن نص التوراة الذي بين أيدينا اليوم، قد جاءنا في هذه الوقائع بتحقيقات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية[١].

حري بنا أن نحيي هذه الجهود العلمية المخلصة التي توصل إليها هذا الباحث الموضوعي المنصف، الذي استبعد ثقافته التي تشبعها في طفولته وشبابه، ونحى كل ما تشربه عن المذهب الكاثوليكي، وقام بهذه الدراسة المعمقة التي تبحث عن الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة. وتعد هذه الدراسة من أبلغ الردود القوية على أكاذيب المستشرقين وعلى دعاوى الأفاكين، وهزيمة طائفة المستشرقين المفترين على رسولنا ﷺ والمجدفين في قرآننا والساخرين من ديننا.

٥- التحدي الإلهي

لعل أول ما يتبادر إلى ذهن المتلقي هذا التحدي الواضح من القرآن إلى العرب الفصحاء البلغاء الذين اشتهروا بمحاسن الكلم وروعة الأداء وطبقات البلاغة وسرعة البديهة وسبك الشعر بتلقائية مذهلة وحسن بناء القصيدة، لذلك تحداهم القرآن في ميدان عبقريتهم، ومجال تفوقهم وفخرهم واعتزازهم، بطريقة صريحة أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو بسورة واحدة.

---

(١) التوراة والإنجيل والعلم والقرآن ص ١٥٢:، ١٥٤، ١٥٨، ١٨٢، ٢٢٠

هذا التحدي ليس للقرشيين ولكنه قائم عبر الزمان والمكان وتعاقب العصور لكل منكر للقرآن ومدع أن محمدا ألفه، فيتحداه أن يصوغ مثله أو يؤلف نظيره.

يقول المولى عز وجل: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣].

٦- العصمة الإلهية والرعاية الربانية

كان الرسولﷺ يعين لنفسه حارسا يحرسه ليلا، يقوم بحراسته من خطر الأعداء وكيد المشركين وغدر المنافقين، ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧] ومن فوره صرف هذا الحارس إيمانا منه بالعناية الإلهية التي ترعاه وتحميه من كيد الأعداء وغدر المنافقين ، وإذا كان الإنسان ممكن أن يكذب على الناس، فمن المستحيل أن يكذب على نفسه، بمعنى أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يعرض نفسه للاغتيال من قبل المشركين لولا ثقته في الوعد لإلهي وان هذا التنزيل من رب العالمين. هذا نقطة.الثانية: لا شك أن حب الحياة شيء فطري مركوز في الفطرة الإنسانية وغير مستنكر، وحرص الإنسان على حياته أمر مشترك بين البشر جميعا، ومن غير المقبول في العقل أن يجازف الرسول ﷺ ويصرف حراسه وهو يعلم بالمخاطر التي يتعرض لها من قبل أعدائه، إلا إذا كان على يقين من حفظ الله له، وإذا كذب الإنسان على الناس فلا يمكن قطعا أن يكذب على نفسه.

يقول الشيخ الشعراوي حول هذه الآية: كأن الحق يقول لرسوله: اطمئن يا محمد؛ لأن من أرسلك هداية للناس لن يخلي بينك وبين الناس. ولن يجرؤ أحد أن ينهي حياتك. ولكني سأمكنك من الحياة إلى أن تكمل رسالتك. وإياك أن يدخل في رُوعك أن الناس يقدرون

عليك، صحيح أنك قد تتألم، وقد تعاني من أعراض التعب في أثناء الدعوة، ولكن هناك حماية إلهية لك(١).

من خلال هذا الموقف ومواقف سابقة، كلها تؤكد دلالاتها أن القرآن ليس من عند محمد ولكنه من الله العلي القدير.

٧ - القسم الإلهي

من يقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٣) وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

ويتأمل في الآيات ويحلل النص تحليلا دقيقا ويمعن فيه النظر والفكر، يدرك حرارة الإيمان وصدق القول وقوة العرض وسلامة المنهج، ومنطقية التحدي.

فيقسم الله بكل ما نبصره بحواسنا، ثم يخبرنا بأن هناك عالم غيب خفي على مدركاتنا الحسية والعقلية والوجدانية، فيقسم أيضا به حتى نشعر بعظمة القضية وخطورتها ونصغي جيدا لما سيلقيه علينا وما نستقبله من أفكار، وبعد أن يلفت انتباهنا لتلقي الخبر وهيئ نفوسنا وحرك عقولنا، وبكلمة واحدة يقرر أن القرآن من عند الله بواسطة الملاك جبريل، وينكر بشدة ادعاءات سفهاء قريش، ومزاعم مروجي الإشاعات، وحساد الرسول ﷺ، أنه شاعر، أو أنه كاهن، ثم يتوسع في أبعاد القضية وينبهنا أن من المستحيل أن يغير الرسول ﷺ في كلمات الله أو يزيد من عنده أقل القليل، وإلا فإن العناية الإلهية قادرة أن تسفك دمه وتقطع نياط قلبه، ولا أحد يستطيع أن يرد يد الله القادرة الباطشة ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾

[البروج:١٢].

٨ - عرض العلامة العقاد بعض أوجه إعجاز القرآن بأسلوبه العربي الفصيح ومفرداته المتفردة ونظراته العميقة وتحليلاته الذكية التي عادة ما تضيف أفكارا يتيمة في أي قضية يعكف على التأمل فيها ويتعمق في دراستها، يقول: ليست البلاغة وما

(١) تفسير الشعرواي.سورة المائدة.

انتظمت عليه من القوة البيانية هي التي تقطع لنا وحدها بإعجاز القرآن، ويضيف: إن وجه الإعجاز يرجع إلى خلود الرسالة التي جاء بها الكتاب؛وما فيه من هدى ونور وصلاح وإصلاح للبشرية.

ووجه الإعجاز في هذا الكتاب يرجع أيضا إلى ما أحدثه في حياة العرب من رقي ورفعة، وإلى ما أحدثه أيضا في حياة المسلمين من ثورة، وأنه لم يقف في سبيل العقل الإنساني بل حثه على النظر والفكر والتدبير واستجلاء الأسرار والعمل لما فيه الخير في الدنيا والآخرة[١].

ونخلص من هذا العرض على تأكيد بديهية أن القرآن من عند الله.

رابعا: تناقض القرآن

١- يعد جولد تسيهر (١٩٢١)[٢] من المستشرقين الذين وجهوا دراساتهم للدراسة القرآن دراسة موسعة وأولاه اهتماما ملحوظا لا تخطئه عين الباحث المدقق، لكنه وقف منه موقفا عنصريا وعدائيا، وذهب يطعن فيه طعنا شائنا، يشي عن مكنون كراهيته للإسلام والمسلمين أكثر مما يفصح عن دراسة جادة، تعبر عن حقيقة القرآن؛وقد تنبه مترجم الكتاب لمثل هذه الدعاوى الكاذبة، والافتراءات الفجة فنبه إلى ذلك قائلا: لا يحط من قيمته اشتماله علي قليل من النزغات الدينية التي نبهنا إلي أهمها لاسيما فيما يتصل من الدين بسبب أو نسب يمليها عليهم (المستشرقون) إلف ملازم أو هوي متبع أو قصد جائر ولو اعتمدنا ذلك في إطراح هذه الكتب وإهمالها لفاتنا خير كثير[٣].

---

(١) الإسلام دعوة عالمية ص ١٧٥: ١٧٦

(٢) من يقرأ ما كتبه الدكتور بدوي عن جولد تسيهر في كتابه التراث اليوناني (ص ٣٠٧: ٣١٩)، وموسوعة المستشرقين (ص ١٩٧: ٢٠٣) حيث مدحه وأشاد بكتاباته إلى درجة غير مقبولة حيث كان أسيرا لسحر المستشرقين ومبايعا لهم بالريادة والتفوق العلمي، ثم من يقرأ له وهو يقيم جولد تسيهر مرة أخرى ويهاجمه هجوما عنيفا ويسفه أفكاره ويحط من منهجه في كتابه دفاع عن القرآن وهجومه الشديد عليه بنفس قوة الحب السابقة يدرك مدى الصحوة التي انتابته وعودة الوعي له فعاد يصحح موقفه منه ومن غيره من المستشرقين. (دفاع عن القرآن ص ٧٥: ٨٨)

(٣) جولد تسيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ت عبد الحليم النجار، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٥. ص ٤

على أننا نرى أنه يشتمل على «كثير من النزغات» والافتراءات ويتجلى ذلك في قوله: «لا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافا عقديا على أنه نص منزل أو موحي به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في نص القرآن»(١).

وفي كتابه العقيدة والشريعة يكرر نفس هذا القول الباطل والزعم السخيف والمجازفة بالرأي بصياغة أخرى فيتهم القرآن بالتناقض فيقول: «من العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً موحداً متجانساً وخالياً من التناقضات ولم يصلنا من المعارف الدينية الأكثر أهمية وخطراً إلا آثار عامة نجد فيها إذا بحثنا في تفاصيلها أحياناً تعاليم متناقضة»(٢).

وفي مكان آخر من هذا الكتاب يقول: إن القرآن «أثر من آثار الأدب العالمي»، ثم يشير إلى الاختلاف العميق بين آيات القرآن المكية التي غلب عليها التخويف من الآخرة والعذاب الشديد للعاصين، وقوة الله خالق العالم واقتراب يوم الحساب، ويحض المسلمين على الصلاة والصيام، وأن النقد البلاغي للقرآن يبرر هذا ا التمييز؛ ففي العصر المكي قدم فيها محمد صورا أوحتها إليه حميته الملتهبة، في شكل وهمي خيالي.(هكذا).

وبعد أن هاجر إلى المدينة هدأت حمية النبوة وحدتها، وأخذت البلاغة تصبح ضعيفة شاحبة، كما الموحي نفسه ينزل إلى مستوى أقل ما كان يعالجه من موضوعات، حتى لقد صار في مستوى النثر العادي، و أصبح محمد «مجاهدا وغازيا ورجل دولة»(٣).

وفي نص رابع يقول: كانت السور الأولى في النزول على شكل سجع الكهان الذين تعودوا وضع نبواتهم فيه، ولو جاء في شكل آخر لما رضي أي عربي أن يرى فيه قرآنا موحي من الله، على أن محمدا قد أكد أن جميع ما جاء به من الوحي الإلهي، إلا أنه ما أعظم الفرق بين سجع السور المكية وسجع السور المدنية !!(٤)

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي ص ٤

(٢) العقيدة والشريعة ص ٦٨

(٣) العقيدة والشريعة ص ١٥: ٢١

(٤) العقيدة والشريعة ص ٢٢

هذا كلام لا وزن له في ميزان البحث العلمي ولا قيمة، ولو توقفنا أمام هذه القضايا الأربع وقمنا بتفكيكهما فسوف نلحظ جملة من الأخطاء؛ فأولا: ليس القرآن كتاب تشريعي فقط، ولا عقائدي فقط. وقد أشرنا سابقا. إلى أنه كتاب مقدس، شامل المنهج كلي الرؤية، معجز في أسلوبه، عالج كل قضايا الأسرة والمجتمع والإنسان والأمة والدولة والكون، ووضع لها الحلول الناجعة بطريقة كلية، فهو كتاب تناول علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وبالله وبالآخر وبالطبيعة ورسم مناهج علمية للسير على هداها وتحقيق سعادة البشرية في الدنيا والآخرة.

ثانيا: لم تعترف به «طائفة دينية» كما يقول، فهذه مغالطة واضحة، ومنطق مقلوب وتصور مجاف للواقع؛لأن الذي اعترف به وصدقه وآمن به واتخذه دستورا في تسيير حياتهم، أكثر من مليار ونصف مليار مسلم تشبعوا بعقيدته وتشريعاته وقواعده وصدق أقواله ورأوا رأي العين صحة نبوءاته وإخباره بالمستقبل، فأصبح مصدرا أساسيا لخطواتهم ومسلكهم وشؤون حياتهم.

ثالثا: لم يوضح لنا ما أوجه هذا «الاضطراب»، وأين مظانه؟ وما الدلائل على ذلك، وما مظاهره، وكيف لاحظ وهو المستشرق الذي درس اللغة العربية من الخارج، ولا يستطيع أن يعرب آية واحدة!! أو يفهم دلالة «المفردة اللغوية الواحدة» حينما تأتي في سياقات مختلفة.مثل كلمة :«الدين» «قضى» «ضرب» وغيرها.

ألم يسمع الأعرابية التي مدحها أحد الرجال لفصاحتها وبلاغتها فقالت له: وأين نحن من بلاغة القرآن وإيجازه وفصاحته فقد جاء في آية واحدة، بأمرين ونهيين وبشارتين وقرأت قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧].

رابعا:لم يأت القرآن كي يطرح مذهبا عقائديا واحدا، وينصر مذهبا على مذهب، ولكنه حدد لنا معالم منظومة عقائدية متكاملة تشير إلى عقيدة الوحدانية والإيمان بالله الواحد الأحد، وهي القضية الكبرى في كل الديانات ثم مطالبة المسلم بالإيمان بالملائكة والرسل والكتب

والقدر خيره وشره، والإيمان بالبعث والنشر والحساب والجنة والنار. إلى آخر ما اشتمل عليه من الحديث عن عالم الغيب والشهادة وتفاصيل ذلك، ثم يأتي العقل اليقظ فيحلل وينظر ويفسر، ويستنبط من الآيات ما يتفق مع فهمه واستيعابه وبيئته الثقافية ومحيطه الاجتماعي وعصره، ويصير عطاء القرآن عطاءً متجددا دائما ينسجم مع كل زمان ومكان. علاوة على ما فيه من الآيات التي تشتمل على المحكم والمتشابه، والقصد من ذلك تتقادح فيها العقول وتقف أمام آياته بالتفكير العميق والغوص على معانيه واستنباط الجديد منها وهذه عبقرية القرآن.

ثم إننا كنا نود منه أن يبين لنا هذا «التناقض المزعوم»، ولا شك أن التناقض في عقل هذا الأفاك الأثيم، ويتعجب المرء تعجبا شديدا من هذا الرجل هل يفهم بلاغة القرآن أكثر مما فهمه بلغاء العرب وجهابذة اللغة العربية، ولماذا لم يكتشف العرب البلغاء أصحاب هذه اللغة الشاعرة الجميلة هذا التناقض المزعوم، وهل كان علينا أن ننتظر أربعة عشر قرنا حتى يظهر لنا هذا الدّعيّ مزاعمه المتهافتة؟

يقول محمد عبده: «إن كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها، فليس فيه كلمة تقدمت ولا كلمة تأخرت لأجل الفاصلة، لأن القول برعاية الفواصل إثبات للضرورة؛كما قالوا في كثير من السجع والشعر ، والقرآن ليس بشعر ولا التزام فيه للسجع، وهو من الله الذي لا تعرض له الضرورة، بل هو على كل شيء قدير، وهو العليم الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه»[1].

خامسا: إن تباين الخطاب القرآني بين المكي والمدني يتعلق بطبيعة الأحداث التي جرت في مجرى دعوة الإسلام، وتباين المواقف بين موقف المشركين في العهد المكي، وموقف المنافقين واليهود في المدينة، والأسئلة التي كانت تلقى على الرسول ﷺ ولما كان القرآن ينزل تأييدا لموقف من المواقف، أو حثا للرسول ﷺ على الإقدام على عمل من الأعمال، أو إظهارا لخيانة اليهود، أو تصحيحا لعقائد النصارى، فلاشك أن أسلوب التعبير لابد أن يجاري هذا الموقف ويصوره تصويرا عقليه وحسيا مفهوما واضحا؛ فأسلوب الوعد والترغيب من الضروري آن يختلف عن أسلوب الترهيب والوعيد، ومن يقرر حقائق الإيمان بالله واليوم

---

(١) مجلة المنار ج٧ / ٩٣

الآخر غير من يضع قواعد تشريعية تتعلق بالميراث أو العلاقة الزوجية، ومن يحث المؤمنين على القتال والدفاع عن أرضهم وعرضهم يختلف في مفرداته عمن يتكلم عن السلم والصلح والقسط مع الأعداء.وهكذا.. أما الصياغة فهي واحدة ولم تختلف البلاغة السامقة بين المكي والمدني.وما يقوله هذا الرجل يعد لونا من التخريف والهذيان والجهل بتذوق اللغة العربية، ولو كان هناك تميزا في الأسلوب، لتكلم عنه فصحاء قريش وعلماء اللغة العربية وأساطين البلاغة. ولم نك في حاجة إلى الانتظار هذه الأعصر حتى يدلنا هذه المستشرق الجهبذ على تبدل حال الرسول ﷺ من حالة إلى حالة.

ويكذب من يقول إن أحوال الرسول ﷺ ومزاجه تغير من مرحلة إلى مرحلة؛ أو أنه كان مسالما داعيا بالحكمة والموعظة في مكة، ثم رفع السيف في المدينة حينما اشتدت عود دعوته وكثر أنصاره، فهذا كلام متهافت، وينبع من نظرة قاصرة، فنحن بصدد رسول من الرسل مؤيد من الله ينفذ أوامر إلهية، شعار دعوته المحبة والتعاون والسلام، مع اجتهاداته التي تحدوها العناية الإلهية، ومن لا يريد ألا يفهم ذلك، فهو حر في فهمه، ونحن أحرار أيضا في احترامنا لرسولنا ﷺ وتقديسنا له وإيماننا أنه لا ينطق عن الهوى، ولكل وجهة هو موليها.

وملحظ آخر من الذي أخبره أن القرآن أثر أدبي عالمي، ولماذا لم نجد «نص أدبي» يقدسه الملايين ويحفظونه عن ظهر قلب، وعاش في بيوتهم وقلوبهم وعقولهم وضمائرهم ومناحي حياتهم، ولماذا لم يأت الفلاسفة والأدباء والشعراء عبر تاريخ الحضارات بمثل هذا النص المقدس المعجز؟

سادسا: لم يقل أحدا من السابقين واللاحقين أن آيات القرآن تشبه سجع الكهان، وقد تحدثنا سابقا أن الكهان كانوا يتعمدون أن يكون كلامهم غامضا، ومبهما يحتمل كل تأويل أي القضية ونقيضها، ويستطيع كل شخص أن يفسره على حسب مزاجه ورغبته، مثل المشعوذين المعاصرين، زد على ذلك أنه ليس هناك مقارنة بين طرح القرآن وآياته المحكمة وتشريعاته الدقيقة ومنظومته الفكرية، ومقولات الكهان البائسة، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية؛ كانت جرأة العرب على وصف القرآن بالشعر أكثر من جرأتهم على وصفه بسجع الكهان؛ وذلك لأن للشعر تأثير على النفس وتغلغل في الروح، ولكن السجع لم

يجد من آذان العرب وقلوبهم نفس هذا التأثير. والشواهد على ذلك، أن الآيات التي نفت الشعر عن القرآن أكثر من تلك التي نفت عنه أنه قول كاهن(١).

ومن جهة ثالثة: إن من يدعي أن آيات القرآن تشبه سجع الكهان يشهد على نفسه بجهله بأبعاد اللغة العربية ومفرداتها وجمالياتها، وليس عنده ملكة التذوق، ولا يستطيع أن يفرق بين البلاغة في ذروتها وقوة السبك والموسيقا الداخلية وهزة النفس التي تنتاب الإنسان وهو يقرأ الآيات البينات، وتعابير الكهان الركيكة والجمل المفتعلة التي تثير الضحك والإشفاق أكثر مما تنفذ إلى ضمائرنا أو أن تقنع عقولنا.

لقد صدق مراد هوفمان في قوله: معظم المستشرقين لم يوفقوا في فهم الإسلام فهما متعمقا. فقد خدموا - بالوعي واللاوعي - المصالح الاستعمارية إلى حد كبير(٢). ونضيف أن أستاذنا عبد الرحمن بدوي حينما وصف جولدتسيهر بأنه سيد الباحثين فيه (الإسلام) من الناحية الدينية خاصة، والروحية عامة(٣). كلام ليس له صلة بالواقع، ومجافي للحقيقة.

خلاصة القول إن هذا كلام ينم غن الجهل المحض بالنص القرآني وبآياته المحكمة والمتشابهة ومفرداته المتفردة، والتقديم والتأخير والعموم والخصوص، ونحن نطلب منه أن يعطينا دليلا واحداً على كلامه؟

أدلة جولدتسهير على تناقض القرآن

يسوق جولدتسيهر بعض النماذج - من وجهة نظره .على تناقض آيات القرآن انطلاقا من قناعته أنه مؤلف بعبقرية محمد ﷺ، فهو يرى أن محمدا يصر بأن الله أوحى له ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: ١]، لكنه اضطر أن يعترف في المرحلة المدنية بأن القرآن ﴿مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) فضل حسن عباس: قضايا قرآنية، دار الفتح، عمان، ٢٠٠٠، ص ٤٥

(٢) يوميات مسلم ص ٢٢٤

(٣) التراث اليوناني ص ٣٠٧، من الواضح أن حكم بدوي لا يعتد به لأنه كتبه وهو في مرحلة المراهقة الفكرية وبداية اتصاله بالمستشرقين في أول حياته العلمية وانبهاره بهم.وقد عشنا هذه التجربة أيضا.

ثم يدلل على ذلك بأن الصحابة كانوا يشيرون «إلى تناقض عقيدي في القرآن» وهذا كان يثير غضبه فخرج عليهم قائلا:لقد ضلت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض....[١]

لا غرو أن من يقرأ هذا الكلام ينزل الاستشراق - والمستشرقون من عينه درجة ودرجات، ويدرك أن من أنفق عمره منهم في دراسة القرآن لم يستطع أن يستوعب هذه الآيات السابقة، وصور له شيطان ديكارت أنه بصدد تناقض صارخ، وهذا كلام يدعونا أن نخفف من احترامنا لجماعة المستشرقين الذين كنا نحترمهم فترة دراستنا بالجامعة، أو كما قال شيخنا الغزالي بأسلوبه الهجومي المدمر وحرارته الإيمانية وعاطفته المشبوبة تجاه القرآن والرسول ﷺ: «كلام هذا المستشرق عن القيمة البلاغية لسور القرآن مثل كلام أي ريفي في بلادنا عن شؤون الذَرَة»[٢]. وأضيف إن هذه الاتهامات المزورة مثل اتهامات امرأة العزيز ليوسف الصديق. هذا أولا.

ثانيا: لا يوجد تناقض البتة؛ فالآية الأولى تقرر بكل وضوح ويقين أن هذا القرآن سليم المنهج واضح الهدف مستقيم الطريق معجز الأسلوب ليس به نقص أو تناقض «والمراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه، وخروج شيء منه من الحكمة والإصابة فيه». فيما يقول الزمخشري[٣]. «ولا تستقيم حياة الناس في الدنيا إلا إذا ساروا جميعاً على منهج مستقيم يعصمهم من التصادم في حركة الحياة»[٤].

أما الآية الثانية فتقرر اشتمال القرآن على الآيات المحكمات أي التي تقرر حقيقة واضحة لا لبس فيها ولا اختلاف وجهات النظر؛ كما في قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

أما الآيات المتشابهات أي التي تحتمل التأويل وتباين النظر فيها كما نقول ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ

---

(١) العقيدة والشريعة ص ٧٩: ٨٠
(٢) دفاع عن العقيدة والشريعة ص ٢٧
(٣) الكشاف سورة الكهف.
(٤) تفسير الشعراوي سورة الكهف.

أَيۡدِيهِمۡۚ ﴾ [الفتح: ١٠] والقصد من ذلك إعمال العقل في الآيات وبذل الجهد في استنباط رؤى جديدة عبر العقول والعصور وتظل معطيات القرآن متجددة، وثرية، ونهر لا ينضب معينه ولا يتوقف تدفقه.

لو كان كله محكما لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمّل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه وردّه إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله، ولأنّ المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف، إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه المحكم، ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوّة في إيقانه[١].

ثالثا: لم يقل أحد من المؤرخين أو المفسرين أن بعض الصحابة ذكروا أن في القرآن تناقض، فهذا كذب بواح وافتراء عظيم.، لأنهم كانوا يؤمنون أنه من عند الله وليس به عوج وأنه تحدى العرب وأساطين اللغة، وجهابذة البلاغة، وهل إذا كان فيه تناقض كان صمت عنه كبار القرشيين أهل الفصاحة ولم يعارضوا الرسول ﷺ ويدخلوا معه في جدل، ويظهروا له أوجه التناقض المبثوث في طياته.

هل جولدتسيهر أفهم للقرآن من الوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة وعتبة ابني ربيعة وأمية ابن خلف والنضر بن الحارث؟

أما توجيه الرسول ﷺ فكان يتعلق بالنهي عن الجدل المذموم الذي يبغي المغالبة وحب الظهور وليّ الحقائق، وفي الوقت نفسه مدح القرآن الجدل المحمود أي الذي يقصد منه البحث عن الحقيقة وإظهارها والدفاع عنها، والوصول إلى الصواب وقال سبحانه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

---

(١) الكشاف تفسير سورة آل عمران

نستنتج من ذلك أن هذه الاتهامات المزيفة تخصم من رصيد جولدتسيهر العلمي وتكشف مدي جهله الواسع بمفردات القرآن وأسلوبه ومقاصده.

٢ - افتراءات جوستاف لوبون (ت ١٩٣١)

يقول جوستاف لوبون: «إذا أرجعنا القرآن إلى أصوله، أمكنا عد الإسلام صورة مختصرة من النصرانية، والإسلام يختلف عن النصرانية، مع ذلك في كثير من الأصول، ولاسيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي»[1].

يتعجب الإنسان من جرأة هؤلاء القوم في طرح اتهاماتهم بلا مبالاة، مثل الطفل الصغير الذي يلهو بلعبته ولا يأبه أن يحافظ عليها أو يكسرها، والاستخفاف بآيات القرآن، وبمشاعر المسلمين، وبعقلية القارئ، ولو كان كلامهم عن علم وفهم ودراية بأساليب العربية وفنون البلاغة وإحاطة بأغراض القرآن وأساليبه وشمول القضايا التي طرحها، لاحترمنا كلامهم وناقشناهم. لكن الحقيقة التي لا تقبل الجدل أن هؤلاء الأدعياء يدعون العلم، ويزعمون أنهم أصحاب منهج علمي ومؤسسي النظرة الموضوعية.وهم أبعد عن هذه الفضائل العلمية. ثم كيف يشكك في القرآن وهو أبدع العلوم وشيد المدن و الدول وصنع هذه الحضارة التي طلت أشعتها على أوربة وغمرتها بعلمها وأدبها وفنونها وشعرها ونثرها وهو نفسه يعترف بذلك حيث يقول: «إن العرب هم الذين فتحوا لأوربة ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي فكانوا ممدنين لنا وأئمة لنا مدة ستة قرون»[2].

أليس هذا هو عين التناقض؟؟

أولا: لاشك أن قوله أن الإسلام صورة مختصرة من النصرانية: «فيه استفزاز لمشاعر القارئ، ودعوى عريضة كاذبة وإفك واضح، و لا أحد ينكر أن الديانات جاءت جميعا من عند الله، وهناك قواسم مشتركة بينها، وحمل كافة الرسل مهمة إعلان وحدانية الله في مسامع الكون كله، ونقلها عبر مسار الحضارات، وهنا وجه التشابه بين الإسلام والنصرانية غير المحرفة.

---

(١) حضارة العرب، ص ١٥٨

(٢) حضارة العرب ص ٥٧٩

ثانيا: هناك هوة واسعة بين الإسلام والنصرانية التي نراها منذ شوهها بولس وأكدت المجامع الكنسية على هذا التشويه والتحريف، ففي حين يعلن الإسلام قضية الوحدانية واضح ساطعة، ويعلي من شأنها وتأتي في مقدمة أركان منظومته العقائدية، نجد النصرانية تتكلم عن الخطيئة والتجسد والتثليث والآلهة الثلاثة الذين يتجسدون في إله واحد، أضف إلى ذلك قولهم بالصلب والفداء والصلب والخلاص والاعتراف والرهبانية وتعذيب الجسد.

وجه التناقض ظاهر في طرحه حينما جمع بين القضية ونقيضها؛حينما قال إن الإسلام صورة من النصرانية، ثم عاد يقرر «أنه يختلف عن النصرانية» وإذا كان كلامه عن فهم وعلم فيخبرنا، أين هذه الصور التي أخذها الإسلام من النصرانية؟؟

هل صكوك الغفران؟ هل الوسائط بين العبد وربه ووجود طائفة من القساوسة والأساقفة يغفرون لصاحب الخطيئة بعد أن يبتزون أمواله؟ هل تقديس الأيقونات وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير؟

٣ – رؤية ديبور (ت ١٩٤٢) للقرآن

اشتهر ديبور عند قراء العربية بكتابه عن «تاريخ الفلسفة في الإسلام»، وهو كتاب شديد الإيجاز يعالج في سرعة بالغة وسطحية واضحة ونقاط مركزة نشأة العلوم الإسلامية بما فيها الفلسفة في المشرق والمغرب، وكذلك الإشارة إلى نشأة علماء الكلام وموضوعاته وأشهر الفرق الإسلامية، ويركز دائما على تجريد العقلية العربية من أي ابتكار أو طرح جديد، ويرجع النهضة العلمية وتأسيس العلوم إلى اليهود والنصارى والفرس واليونان، حتى علم الفقه لم ينس أن يشير – كعادة المستشرقين – إلى تأثره بالقانون الروماني. ربما فضل الكتاب يرجع إلى أنه من أوائل الكتب التي أرخت للفلسفة الإسلامية ومهدت الطريق للباحثين.

يقول ديبور: «قبل الرعيل الأول من المؤمنين ما في القرآن من تعارُض، وهو الذي نعلله نحن بتقلب الظروف التي عاش فيها النبي باختلاف أحواله النفسية، وسلموا به دون أن يتساءلوا: كيف أو لم؟»[1]

---

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٧١

هذا الاتهام السخيف والادعاء الباطل، أشار إليه عدد من المستشرقين وقد مر بنا سابقا، اتهامات شبيهة بهذا وردت عند جولتسيهر، ونولدكه، ولامانس، ونستطيع أن نحلله إلى شقين؛ الشق الأول أن هناك تعارضا في القرآن، يرجع للأحوال النفسية المتغيرة التي مر بها الرسول.

أولا: كنا نريد من هذا المستشرق أن يعرض لنا أوجه التعارض في القرآن وما مظاهر ذلك، فالبينة على من ادعى، ويعطينا أمثلة حتى ندرسها ونفندها، ونجتهد فنقول ربما يقصد حديث القرآن عن قضية القضاء والقدر أو الجبر والاختيار، ومن يقرأ الآيات بإمعان وفهم وقراءة موضوعية، ويستعرض كافة الآيات التي تكلمت عن القدرة الإلهية المطلقة، ثم الآيات التي تكلمت عن حرية الإرادة، ويبحث عن سياق كل آية سوف يخرج من المقارنة وهو مستريح البال مطمئن الضمير.

فهناك فرق كبير بين الآيات التي تتكلم عن القدرة الإلهية المطلقة وهي تعبير عن المشيئة الإلهية وعن التصرف في الكون التي تقول للشيء كن فيكون، وتجليات صفات الله؛ العلم والقدرة والإرادة والحياة ، والآيات التي تتكلم عن الحرية الإنسانية وتعطيه قدرا لا بأس به لبناء حاضره وصناعة مستقبله والتحرك في الحياة وتدبير شؤون حياته بعزم وقوة بعد تخطيط وتفكير، ويتحمل تبعة أعماله وكل ما يصدر عنه من سلوك. ولا يوجد أي تعارض البتة بين الإرادتين؛ أي الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية، إلا في رؤوس الجهلة وقصار النظر الذين لا يجيدون فهم سياق الآيات المباركة. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، شخصية الرسول ﷺ شخصية واحدة لها مقومات جسمية ونفسية وعقلية واجتماعية، ونحن نؤمن أنه بشر رسول كما وصفه القرآن، وإنسان موصول بالسماء، وهناك العين الإلهية التي ترعاه، ومن ثم فأحواله النفسية مهما تتغير من حالة إلى أخرى أي من حيث الانفعالات التي تنتابه، من الخوف والغضب الحزن أو العواطف التي تلم به حبه لأصحابه وكرهه للشرك والمشركين، وإشفاقه عليهم وحرصه على كسبهم لصف الإسلام حبا فيهم وعطفا عليهم، هذه الأحوال المتقلبة سواء أكانت في مكة أو في المدينة ليس لها صلة بنزول القرآن، لأن هذا وحي يوحى من الله، وهذا هو الخلاف بيننا وبين المستشرقين لأنهم ينكرون هذا البعد الغيبي في رسالته.

الشق الثاني: أخطأ دي بور حينما ذكر أن صحابة الرسول ﷺ لم يكن يسألوه، فهذا الكلام حقيقي يدل على سطحية فهمه لسيرته ، ولا أتجاوز الصواب إن قلت هذا هو الجهل بعينه !! لأننا نعلم جميعا أن الصحابة سألوه عن البعث، والروح، والتوكل على الله، وحرية الإنسان، وحتى العلاقة الزوجية، وهذه الأسئلة لم تكن قاصرة على الصحابة بل وجه بعض القرشيين واليهود والنصارى طائفة من الأسئلة إما بقصد التحدي أم الاستفسار وطلب العلم، وكان يرد للتو، أو ينتظر حتى ينزل الوحي(١).

خامسا: القيم الخلقية في القرآن مستمدة من المسيحية

١- هذا اتهام آخر وادعاء عريض وزعم كذوب يطرحه المستشرق كارادفو (ت ١٩٥٣) الذي ذهب في معرض حديثه عن القيم الخلقية عند الإمام الغزالي وطبيعتها يقول: إنه يوجد في الإسلام خُلقيةٌ صادرة عن كتاب المسلمين المقدس، وهي الخلقية القرآنية،.. ثم يمضي فيقرر: «إنما نرى أن نذكر أن هذه الخلُقية تُشْتقّ، على الخصوص، من الخلقية التوراتية التي كُيفتْ بحياة البادية في بدء الأمر، ثم جعلت أكثر علمية نتيجة للفتح بآثار من المحبة النصرانية، وأما من حيث الوجه الذي يِتمثلُ القرآن به قانون الأخلاق فإنه يُذكر أنه يعرضه على أنه أمرٌ إله قادر على كل شيء حاكم مطلق جبار»(٢).

سوف نوجز الرد في النقاط الآتية:

أ. لاشك أن آيات القرآن قدمت لنا منظومة متكاملة في التربية الإسلامية وآداب التعامل الأسري والاجتماعي، وقواعد السلوك السليم، ومن يقرأ سورة الحجرات

---

(١) نود الإشارة أن الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة رد ردا مطولا على هذا الاتهام في أكثر من عشرين صفحة (تاريخ الفلسفة الإسلامية هامش ص ٧١: ٩٣)

(٢) الغزالي ص ١١٩ / ١٢٠، من الجدير بالإشارة والإشادة والتقدير أن الأستاذ محمد عبد الغني حسن نقد العديد من أقوال كرادفو وعقب عليها وقد قال في مقدمة الكتاب: على الرغم مما في الكتاب من عمق في البحث، ورجوع إلى المصادر العربية التي لم تكن طبعت في ذلك الحين، وعلى الرغم مما فيه من إحاطة بالموضوع نرى الرجل تغلبه نزعة ليست غريبة على آذاننا ولا على أبصارنا، هي نزعة فريق من المستشرقين الذين لا يخلصون لقضايا العلم، فلا يكادون يمضون في طريق البحث حتى تغلبهم آراء خاصة، ليست علما خالص ولا يراد بها الوجه الصحيح للعلم، وإنما تحمل بين سطورها ما يشوه الصورة الصحيحة للإسلام بغمزه هنا، ولمزه هناك. (من المقدمة)

وهي تتكلم على آداب التعامل مع الرسول، وتعامل المسلم مع أخيه المسلم ، حتى أنه جرم بعض الظن، وأنكر الغيبة أي ذكر المسلم بسوء، وهذه التعاليم مبثوثة في الآيات معلومة لتلاميذ المرحلة الابتدائية، وكذلك سورة الإسراء التي تحدد طبيعة العلاقات بين الابن وأبويه وحثه على حسن التعامل معهما لاسيما في حالة الكبر، إلى باقي التعاليم التربوية والأخلاقية التي وضعت محددات السلوك القويم، وهذا أيضا ما نلحظه في نصائح لقمان الحكيم، من أول احترام الوالدين والرفق بهما وحسن التعامل إلى خفض الصوت في أثناء الحديث مرورا بالأمر بالمعروف، والصبر على حوادث الأيام.

ومن يدقق في مفردات هذه المنظومة الأخلاقية يلحظ أول ما يلحظ أنها تعالج المشكلات بواقعية، فتطالب المسلم أن العين بالعين، والسن بالسن، ومع ذلك فسحت له مجال الصبر وكظم الغيظ إذا استطاع ذلك، وفي المرحلة الثالثة الإحسان لمن أساء إلينا كما فعل سيدنا أبي بكر مع مسطح الذي اشترك في حادثة الإفك، وهذه الخطوات تساير الفطرة الإنسانية وتتعامل بواقعية مع طبائع البشر وتراعي الفروق الفردية.

أما في المسيحية فوقفت عند مرحلة التسامح السلبي يقول المسيح:أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم وصلوا من أجل المسيئين إليكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء.

وهذه أخلاق مثالية مبتوتة الصلة بالواقع وتجافي طبائع البشر و دوافع الإنسان، وتقضي على انفعالاته ومقومات شخصيته؛إذ وقفت عند حد الإذعان المطلق والتسامح المطلق.ثم إننا لم نر في الواقع هذا التسامح بل إن دول أوربة كافة وأمريكا هي التي اعتدت علينا وحارتنا وقتلت أولادنا واحتلت أراضينا واستنزفت ثرواتنا وجاهدت على تدمير شخصيتنا ومحو هويتنا، وحرصت دائما على تأخرنا وتخلفنا، وأن نبقى هكذا تابعين لها نسير في ركابهم، ولم تطبق أي وصية من وصايا المسيح.

ب . مما يلفت النظر أن جمهرة المستشرقين، يغضون النظر عن الصفات الإلهية التي تتحدث عن أسمائه القدسية، التي هي أسماء ونعوت، إذ إنها دالة على كماله، ومن أسمائه الرحمن، وهو دال على الرحمة وكذلك في باقي أسمائه؛الرحيم والرؤوف

والحليم والعاطي والمنعم والوهاب وهذه الأسماء تدل علي نعوتها من الرحمة والرأفة والحلم والعطاء والإنعام، والمحبة والعفو، ولا يلفت انتباههم إلا «صفات الحاكم المطلق الجبار» وهذا يدل على سوء القصد والنظرة الانتقائية التي لا ترى إلا ما تشتهيه النفس، والمنهج المعوج الذي يبحث عن الجوانب السلبية في الحضارة الإسلامية، وبصدد قضيتنا فكافة الصفات الإلهية هي صفات إيجابية وقد وصف الله بها ذاته المقدسة، سواء هذا يروق للمستشرقين أو لا يروق لهم.

ج - نستشهد بوجهة نظر أحد مفكري الغرب الذي عانى من ويلات المجتمع الغربي وسلوكه المادي الذي يهدد كافة الأديان وينذرها بالفناء.يقول: للمجتمع الغربي الصناعي تأثيرا ساما على كافة الأديان بما في ذلك المسيحية، من خلال نشره لقيم مؤسسة على فروض مادية محضة، إن الفكر النفعي، وتحقيق أقصى ربح، وعبادة زيادة الإنتاج، وأسطورة التقدم اللانهائي، وغطرسة علماء الطبيعة، واستشراء مذهب اللاأدرية، وتحييد القيم الأخلاقية، لدى المتعلمين، كل ذلك يحدد التوجه الغربي نحو إضفاء طابع عقلاني على كل مظاهر الحياة مما يشكل عدوان غاشما على الأديان[1].

٢ - خيالات هنري ماسيه

في كلام كثير مضطرب وقلق، ومتضارب عن القرآن يتكلم ماسيه عن نسق القرآن فيقول: تعرض محمد كثيرا لتأثير الوثنية العربية ونسق القرآن نسق إنشائي، وهو مكون من جمل موزونة بشكل غير منتظم ومسجوعة أحيانا فيما بينها، كذلك لا يخلو من مشابهة مع السجع، إنها مشابهة في الظاهر فقط لأن السجع الحقيقي يتطلب وضوحا موقعا ومتناسقا لا نجده في القرآن.وبعد أن يتكلم عن مهام الكاهن وأسلوبه وسماته، يقول:يجب الاعتراف أن خصوم محمد كان لهم بعض الحق في اعتباره، كاهنا أو شاعر، الأمر الذي يعود تقريبا إلى الشيء نفسه لأن الشاعر الوثني يلهمه شيطان أيضا، ومن ناحية أخرى منع محمد الشعر (الحاقة ٤١، ٤٢) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وأعلن أنه عدو الشعر (الشعراء الآية ٢٢٤) ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، وهذا لم يمنعه من اغتنام الفرصة

---

(١) مراد هوفمان: يوميات مسلم ص ٨٠

من مواهب الشعراء. وشاء بعضهم أن يرى في لغة القرآن لغة عامية نقحت فيما بعد !!![1] نعتقد أننا قمنا بالرد على هذه المزاعم التافهة والهوس الفكري والوساوس الشيطانية. ونكتفي بالرد عليهم بكلام رائع لجورج سيل أحد المستشرقين الذين ترجموا القرآن ونسبوه إلى الرسول ﷺ يقول: «إن الحث على الأخلاق الطيبة والفضائل التي يشتمل عليها القرآن،وبصفة خاصة الحث على عبادة إله واحد حق، تعد أموراً ممتازة إلى حد ما لدرجة أن المسيحي يود أن يراعيها حقا»[2].

من كل ما سبق نستنتج أن معظم ما طرحه المستشرقون بشأن الرسول ﷺ والقرآن وجملة ما كتبوه حول الحضارة الإسلامية يعبر عن «زُبالة الأذهان ونخالة الأفكار وعُفارة الآراء، ووساوس الصدور، ملؤوا به الأوراق سوادا والقلوب شكوكا والعالم فساداً» على حد تعبير ابن القيم.

سادسا : اتهامات أخرى موجهة للقرآن

١ - عدم الحديث عن الغيبيات

يتابع هيلير نقد بعض مواقف القرآن، و إظهار العيوب البادية فيه على حد تعبيره.

ومن هذه العيوب التي وجهها للقرآن والرسول ﷺ عدم إنصاف القرآن للمرأة، والادعاء بجبرية الإسلام، وأخيرا يقول: عيب أخير أقل خطورة ينبغي الإشارة إليه، أقصد خلو القرآن التام من المباحث الغيبية[3].

لاشك أن هذا الطرح يدل على الجهل العميق، ويعبر عن عدم فهم المستشرق لمعطيات القرآن بل يدل أنه لم يقرأه أصلا، وإذا كان قرأ فلم يفهم ولم يحط بمعانيه وأغراضه.

فالناظر في آيات القرآن يدرك بوضوح أنه تعرض للقضايا الغيبية وشرح أبعادها وأسهب فيها، وضرب الأمثلة الحسية المأخوذة من البيئة التي يعيش فيها ، نظرا لميل الإنسان

---

(١) الإسلام ص ١٠٤، ١٠٥

(٢) بفان موللر: الرسول في تصورات الغربيين ص ١٢٥

(٣) هيلير: محمد والقرآن، ص ١٧٩ فصاعدا (نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ١١٣)

إلى المحسوس واستغراقه في العالم المادي، وشرح ذلك من خلال الصور المباشرة التي تقع في مدار الإدراك الحسي للإنسان، وساق الأدلة الحسية والعقلية على الوحدانية وعلى حكمة البعث، وهذه الأمثلة لا تخطئها العين في القرآن ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وقد أشار سنت هيلير إلى حديث القرآن عن وحدانية الله والإيمان باليوم الآخر، ووصف القرآن للجنة والحدائق الغناء، والحور العين، على أن من المعلوم أن القرآن ليس كتاب فلسفة يورد المباحث بالطريقة التي نراها في كتب اللاهوت أو علم الكلام بحيث ندخل في نقاشات عقيمة وجدل مرفوض، وسفسطة لا مبرر لها.

٢ - خطأ فهم آية تحريم الأمهات والأخوات.

مر بنا كثيرا الإشارة إلى بعض الأخطاء البشعة التي وقع فيها المستشرقون بسبب عدم فهمهم لمعطيات آيات القرآن، ومن هذه النماذج، أن سانت هيلير بعد أن نقل آية التحريم كاملة ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٣] عقب عليها بما يفيد أن هذه الموبقات كانت منتشرة في المجتمع القرشي، وجاء الإسلام يحرمها، ثم انطلق من هذه الفكرة الخاطئة ليصف العرب أنهم مثل الحيوانات. يقول: حقا إن هذه الأعراف المنحطة تهبط بالإنسان إلى درك البهائم لم تكن وقفاً على العرب، فإن سفر «اللاويين» اضطر لاتخاذ إجراءات ذاتها مع العبرانيين... وإن مما يشرف محمدا أنه هو الذي قضى على عادة وأد البنات، لقد رد العرب إلى أسفل سافلين فباتوا إلى الوحوش أقرب منهم إلى الأناسي، وإن الإنسانية لتدين لذلك الذي جاهد لانتشالهم من الانحطاط والفحش[1].

(١) هيلير: محمد والقرآن ((نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ١١١)

هذا كلام ملتبس وخليط من الصدق والكذب فباستثناء الفقرة الأخيرة التي تشير إلى أن الرسول ﷺ انتشل البشرية من سقطتها – وليس العرب .فهذا الطرح كله خاطئ.فأولا: هذه الموبقات لم تكن موجودة في المجتمع الجاهلي، لكنها كانت منتشرة في المجتمع الفارسي وقد ذكر مؤرخو العرب إلى أنهم كانوا ينكحون أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم.

وقد أباحت الأعراف الاجتماعية عند العرب مسألة زواج الابن أرملة أبيه، فجاء القرآن بتحريم ذلك وعده فاحشة.

ثانيا: أكد مؤرخو العرب أن بعض القبائل هي التي كانت تئد البنات ولم تكن منتشرة بين العرب، ولكن بعض المؤرخين المسلمين أراد أن يبشع سلوكيات الجاهلية حتى يظهر صورة الإسلام مشرقة وضاءة، وكيف أنه نقلهم نقلة أخلاقية حضارية، فزاد في تسويد صفحة الجاهلية، وأضاف من خياله مزيدا من السلوكيات الهمجية، مع العلم أن بعض القبائل كانت تؤمن بالبعث، علاوة على الفضائل الأخلاقية التي اشتهروا بها، وقد أشرنا إلى ذلك سابقا.

ثالثا: جاء القرآن يرسم الخطوط العريضة لنهضة المجتمع المسلم، مجتمع الفضيلة والأخوة الإنسانية، ويحدد معالم الطريق الصحيح ويضع قواعد بناء الأسرة الفاضلة وللسلوك الاجتماعي المثالي فبين المحرمات من النساء والمباحات للإنسان ضمن تشريعاته للمجتمع النظيف.

وقد أوشكنا على نهاية هذا الفصل نوجه نصيحة طيبة لإخواننا السادة المستشرقين، نعم إخواننا على الأرض وفي الإنسانية وتجمعنا القيم المشتركة لكافة البشر مثل حب الحرية والعدالة والسلام نقول لهم: يا بن آدم أصلك من صلصال كالفخار، وفيك ما لا يسعك من التيه والفخار، تبصر خليلي مِم مُركبك ، وإلام منقلبك، فخفض من غلوائك، وخَل بعض خُيلائِك[1] والسلام.

---

(١) أسواق الذهب ص ٥٤



الفصل الثامن

قضايا العقيدة والأخلاق والسياسية

تمهيد:

تناول جمهرة المستشرقين أغلبية قضايا العقيدة، وسلوكيات الرسول ﷺ ومفاهيمه الدينية، وبعض مسائل الإسلام وموقفه من الديانات الأخرى ومسائل الأخلاق والسياسية، وقد تنكبوا الطريق في كثير منها وجانبوا الصواب، وسوف نحاول أن نتتبع مثل هذه القضايا ونتصدى لها بالنقد والتحليل والرد.

١. حوارات مع القسيس جورج بوش الجد (١٧٩٦ - ١٨٥٩)

أ - نود أن ننبه بادئ ذي بدء أن هذا الرجل في تحليله لشخصية الرسول ﷺ وسيرته، يعتقد أنه لم يستحق أن يكون أكثر من قائد قافلة (هكذا)، وبالرغم من ذلك أسس إمبراطورية عظيمة، لكنه لا يبخل عليه ببعض الصفات الجليلة، فهو أحد الرجال البارزين في التاريخ، وقد سبق عصره في فكره وفي سلوكه، ويعتقد أن الرسول ﷺ هو الذي بشر بفكرة الوحي وألف القرآن ووضعه بما يتناسب مع معارفه وثقافته التي استوعبها من عصره وبعض المعلومات والخبرات التي حصلها من رحلاته، زد على ذلك طبيعة مزاجه وأهوائه الخاصة وميوله الشخصية، لاسيما وقد كان رجلا حاد الذكاء سريع البديهة فاهما لطبائع البشر الذين يتعاملون معه على حد تعبير بوش.

ولا مراء أن هذا القسيس المفترى على رسولنا ﷺ وعلى الإسلام والمسلمين وعلينا، يمضي بلا مبالاة في وضع الصفات المتناقضة بجوار بعضها وهذا يدل على اضطراب تفكيره، وعدم قدرته على تكوين انطباع صادق عنه، ورسم صورة مقبولة في العقل والضمير عنه، كأنها هناك قوتان تتجاذبه في أعماقه؛ الواقع المعيش المدرك بالعيان، والحقيقة الساطعة أن

هذا رسول من عند الله، كافح طويلا في وجه الأعداء وأهل الشرك والشر وانتصر عليهم، ونشر دينا ونهض برسالة المحبة والسلام، وأقام دولة فتية وبني حضارة سامقة، ومن ناحية أخرى سطوة البيئة، وميراث المهنة ومميزات الوظيفة والمحيط الاجتماعي الذي يشده إلي جانب الإنكار والرفض والتناقض، والكتاب يعبر عن حيرة الإنسان الذي يعرف الحقيقة ويدرك أبعادها، لكنه لا يجرؤ أن يقر بها، أو يصارح ذاته من الداخل بصدقها.

يقارن هذا القسيس العنصري في كتابه (حياة محمد) بين عقيدة الوحدانية كما جاءت في سورة الإخلاص التي تحظى بتوقير عند المسلمين، وفكرة التثليث كما يتصورها المسيحيين، ويرى أن محمدا مؤلف القرآن كان يهدف إلى تخطئة تعدد الآلهة والوثنية المنتشرة بين أمم الشرق، ليس هذا فحسب بل كان يريد توجيه «ضربة قاضية للعقيدة المسيحية القائلة بأن المسيح هو ابن الله». ومن وجهة نظره أن الرسول ﷺ مثله مثل آخرين لم يستطع أن يفهم عقيدة المسيحيين في نسبة المسيح إلى الله، وفكرة بنوته أو انحداره منه مع أن هذه الفكرة لا تؤثر بشكل مباشر في حقيقة أن الله واحد. ثم يضيف فيما يتعلق بشخص المسيح وطبيعته هاجمها واضع القرآن (!!) بلا هوادة؛ لأنه لم يكن لديه القدرة على فهم الفرق بين عقيدة الثالوث الأقدس (كون الأب والابن والروح القدس إلها واحدا) وعقيدة التثليث التي تعني وجود ثلاثة آلهة منفصلين[1].

لا شك أن هذا الكلام متهافت، وتلاعب بالألفاظ، ولم يشرح لنا ما الفرق بين الثالوث، والتثليث؟، وكيف يجمع العقل بين فكرة الوحدانية، والآلهة الثلاثة، أو أن المسيح ابن الله؟ ومذاهب المسيحية تقول بأن الله تجسد في المسيح وأن الصلب وقع على الجزء اللاهوتي كما وقع على الجزء الناسوتي !!، وكيف نصدق أن مريم أم الإله؟ وكيف يتسق هذا المنطق مع قوله تعالى (قل هو الله أحد) إن ما ساد الإسلام من توحيد وثيق، وما كان من اهتمام دائم إلا لمكافحة العقائد النصرانية في الثالوث والتجسد. على حد تعبير أرنست رينان (ت ١٨٩٢)[2].

ويكفي أن نشير إلى ريموند لول أحد أساقفة الأندلس المتعصبين الذي وهب حياته

---

(١) جعفر عبد السلام: المصدر السابق ص ١٧٣ / ١٧٤

(٢) ابن رشد والرشدية، ص ١١٦

لهدم الإسلام، وطلب من كليمانس الخامس إيجاد منظمة حربية لمحو الإسلام، وطالب بحظر قراءة كتب ابن رشد على كل نصراني، نقول هذا الأسقف اعترف بأن العقائد النصرانية محالة في نظر العقل، ويتعذر إدراكها. (١)

وليس بعيد عنا نقد مارتن لوثر للشعائر النصرانية وعاداتها وهجومه المباشر على بابا روما، ولم يغب عن أذهاننا هجوم فولتير على رجال الدين والقساوسة والكنيسة، دعك من أعاصير فردريك نيتشه على المسيح والمسيحية !!

ب- اتهام الرسول بقتل كعب بن الأشرف

من بئر الاتهامات الذي ينضح منه القسيس بوش ويرشها في وجوهنا، تهمة قتل الرسول ﷺ لليهودي كعب، ويعرض هذه القضية بقدر كبير من التفصيل، ويسرف في العرض، يقول: تأجج الحقد في نفس النبي بعد انتصاره في بدر، وتجلى هذا في اغتيال كعب الذي كان بارعا في الشعر، وكان شديد المعارضة لمحمد، إذ توجه إلى مكة بعد غزوة بدر، لتحريض قريش على الثأر، وراح يرثي بقصائد مؤثرة، قتلى بدر الذين قتلوا بسيف النبي وعصابته من النهابين والسلابين، ثم عاد كعب إلى المدينة، وراح يشيع قصائده، ويهجو فيها النبي الذي استشير بشدة، لوقاحة الشاعر، فطالب أصحابه بقلته(٢).

كما ذكرنا من المؤكد أن هذا القسيس مصاب بانفصام في الشخصية، فهو من ناحية أثبت الحيثيات التي تؤكد التهمة على كعب بن الأشرف وإصراره الذهاب إلى مكة لإثارة عواطفهم ضد الرسول ﷺ، وإشعال النار في النفوس وتحريض القرشيين لإعادة رحى الحرب ثانية، وهجاؤه العنيف للرسول، ونضيف إلى ما سبق أن أبا سفيان سأل كعب من الذي على حق الكفار أم محمد؟ فأخبره أن الحق بجانب المشركين، وأنتم أهدى سبيلا مما عليه محمد، وكذلك تشبيبه بنساء المسلمين(٣).

---

(١) ابن رشد والرشدية ص ٢٧٠

(٢) حياة محمد ص ١١٨ (نقلا عن كتاب الرد على بوش ص ١٥١)

(٣) شرح الدكتور حسين هيكل أسباب مصرع كعب وأعماله المشينة تجاه المسلمين منها ذهابه إلى مكة يحرض على محمد وينشد الأشعار ويبكي أصحاب القليب، ويشبب بنساء المسلمين (حياة محمد ص ٢٩٠)؛ وكذلك أشار العلامة العقاد إلى جرائم كعب التي تدخل في باب الخيانة العظمى فقال: كان يهجو المسلمين، ويقدح في دينهم،=

ومع أن التهمة واضحة، وعريضة الاتهام مثقلة بالأدلة الناصعة والشواهد المادية ، وتهمة كعب هنا تصنف ضمن تهم الخيانة العظمى للعهود والمواثيق التي أعطاها الرسول ﷺ لليهود، ومن ثم فقَتلِه يعد أصدق أنواع العدالة، وأقوم سبيل لإرساء قواعد المعاملات الاجتماعية.وجزاء وفاقا لما اقترفه في حق المجتمع المسلم وانضمامه لطائفة الكفر وهو من أهل الكتاب، وقد فضح الله سره وكشف أمره في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١]. هذا أولا.

ثانيا: نعم الحياة تأتي بالعجائب والغرائب، وهذا ما نراه من موقف بوش المسيحي الذي يدافع عن كعب.في حين نجد أن ولفنسون اليهودي المتعصب يدين كعب لأعماله المخلة بالرجولة والشرف والأمانة ونصرته للكفار ويرى «أنها بمثابة إعلان حرب على الرسول ﷺ».

وقد أدان تصرف كعب جمهرة المستشرقين وصوبوا موقف الرسول ﷺ منهم بودلي والسيدة كارين وغيرهم.

ثالثا: من أعظم الأدلة على أنه مصاب بانفصام في الشخصية، أنه حينما تحدث عن وفاة الرسول ﷺ يقر بعظمة شخصيته وبالمشيئة الإلهية التي لم تتخل عنه وكانت تؤيده في كافة مواقفه يقول: بدأ محمد ثورة من أعظم الثورات التي عرفتها البشرية، لقد وضع أساس إمبراطورية استطاعت في ثمانين عاما فقط أن تبسط سلطانها على ممالك وبلاد أكثر وأوسع مما قامت به روما في ثمان مئة عاما!! وتزداد دهشتنا أكثر إذ تحدثنا عن صعود دينه وانتشاره السريع. يقول: الحقيقة أن ما حققه نبي الإسلام لا يمكن تفسيره إلا أن الله كان يخصهما (محمد والمسلمون) برعايته؛ فالنجاح الذي حققه محمد لا يتناسب مع إمكاناته، ولا يمكن تفسيره بحسابات بشرية معقولة.لا مناص من القول أنه كان يعمل في ظل حماية الله ورعايته[1].

=ويؤلب عليهم العداء، ويأتمر بقتل النبي ويدخل في كل دسيسة تنقض معالم الإسلام. وكان مع قومه بني النضير معاهدا على أن يحالف المسلمين، ويحارب من يحاربونهم.(عبقرية محمد ص ٥١)

(١) حياة محمد ص ١٥٦ (نقلا عن كتاب الرد على بوش ص ١٦١)

٢- حوارات مع يوليوس فلهوزن (١٩١٨)

أ- تبدل فكر الرسول بعد هجرته إلى المدينة

يرى فلهوزن أن الرسول ﷺ بعد أن أخفق في هداية قومه من قريش، هاجر إلى المدينة وكانت هجرته حادثا جليلا، بدأ به عهد جديد لكنه لم يتنصل من الماضي تنصلا كاملا حينما أصبح رئيسا سياسيا بعد أن كان مبشرا ونذيرا، ولما كان هناك فرق كبير بين الأفكار الدينية التي كان يؤمن بها الرسول ﷺ ثم حينما أراد أن يطبقها في الواقع لأن تقديرنا للأشياء يكون في أول الأمر بحسب الإمكان وليس بحسب الواقع. لذلك نجد أن سياسته الفعلية تغيرت عنها لما كانت فكرة، وعلى هذا صار الطابع السياسي يزداد بروزا والطابع الديني يزداد تراجعا[1].

لا جرم أن نقول هذا طرح خاطئ، وكلام يجافي واقع حياة الرسول السياسية والدينية وثرثرة لا معنى لها يكررها المستشرقون كافة ويزيدون فيها ويعيدون، وإشكالية هذا المستشرق أنه ينطلق من فكرة أن محمدا ﷺ رجل طموح أراد أن ينشئ دولة للعرب، دون أن يعترف برسالة الرسول ﷺ أي بالبعد الغيبي، وأن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتحركاته وتعاملاته وتقريراته، تهتدي بأوامر الله، وأنه يحمل رسالة سماوية لتثبيت أركان دين، وإقامة دولة فتية ووحدة أمة وجمع شمل البشرية تحت راية الإسلام.هذا أولا.ثانيا: لم يتراجع الجانب الديني عن الجانب السياسي، فالرسول ﷺ في مكة هو الرسول ﷺ في المدينة، والقرآن في مكة هو القرآن في المدينة، المتغيرات هي المتعلقة بحركة الحياة، وكيفية معالجتها، ومواجهة مشكلات الواقع المتغير والمتحرك بطبيعة الحال.

ب - اتهام الرسول بمداهنة اليهود والنصارى ثم الانقلاب عليهم

في سياق شرحه لهجرة الرسول ﷺ التاريخية للمدينة، يشير فلهوزن بشكل صريح بأن الرسول ﷺ كان مقتنعا بأن دين الإسلام يتفق مع اليهودية والنصرانية، وطبقا لهذا كان ينتظر أن يستقبله يهود المدينة مرحبين ، ولكنهم لم يعترفوا بنبوته ولا بالوحي، بل جعلوا منه

(١) تاريخ الدولة العربية ص ٦

خصما، ولما خاب أمله فيهم جعل الإسلام خصما لليهودية ثم خصما للنصرانية أيضا، وجعل لدينه علامة تبدو لنا غير ذات معنى وإن كانت في الحقيقة عظيمة الأهمية لأنها تعبر عن التمايز بين الشريعتين، فجعل يوم الجمعة، بدلا من يوم السبت أو الأحد، وجعل المؤذن بدلا من الأبواق والأجراس، وألغى صيام عاشوراء، وأحل محله صيام رمضان، وأخذ يقترب بالإسلام من دين إبراهيم اقترابا إيجابيا....ثم بحكم تأثير الظروف حول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة[1].

وإلى هذا الرأي ذهب جرونباوم فيقول: لم يكتف اليهود بإنكار مطابقة تعاليمه لتعاليم الأنبياء السابقين.بل راحوا يظهروا عدم إلمامه بالكتب المنزلة... حتى إذا تأكد محمد من موقفهم ولى وجهه شطر الكعبة وجعلها المركز الجغرافي لدعوته[2].

ونستطيع أن نضيف مستشرق فرنسي معاصر مر بنا قبل ذلك، ويسلك نفس مسلك الاستعلاء العنصري وتأكيد النرجسية الغربية، وقصده التشكيك في الإسلام ويشير إلى بعض القواسم المشتركة بين الإسلام واليهودية فيقول: كل من العقيدتين يتضمن تفصيل أعمال الحياة اليومية، ويعطي أهمية خاصة وأولية لصفاء النفوس كما ينص على محظورات غذائية، ويستشهد بقصة الإسراء بأن الرسول ﷺ بدأ من بيت المقدس، وفي المعراج قابل موسى الذي نصحه بطلب التخفيف من الله، ثم إن محمدا أمر المسلمين بإقامة الصلاة اتجاه القدس ، ثم تحول بعد ذلك إلى الكعبة في مكة[3].

أولا: الإشكالية الجوهرية هي في منطلقات هذا المستشرق، أنه ينطلق من كون محمد زعيم سياسي ورجل دولة ومصلح اجتماعي يريد أن يعلي من شان القيم الخلقية ويقضي على مفاسد قريش ومن جاورها ويقيم دولة عربية، حتى بلغت به الجرأة أنه قارن بين تشريعات الرسول وسولون (٦٤٠ - ٥٥٨ ق. م) المشرع أحد حكماء أثينا السبعة. لذلك هو يتحرك في ضوء الأحداث التي تحيط به فيناور هنا، ويخطط هناك ويستخدم اللين والمداهنة مرة وإذا لم يجد بديلا فلا مانع من الحيلة والوقيعة والخديعة ثم السيف أخيرا.

---

(١) تاريخ الدولة العربية ص١٧: ١٨

(٢) حضارة الإسلام ص١٠٦.

(٣) دومنيك سورديل: الإسلام ص ٢٢: ٢٣

وهذا هو الخطأ بعينه، وعلى الرغم من أن كتاب فلهوزن يشي بطريقة واضحة سعة اطلاعه على المصادر الإسلامية وسعة معارفه وعرضه لأحداث الدولة العربية بطريقة تفصيلية فيها الكثير من التحليل الصائب والنظرات الذكية وإنصاف القوى المتصارعة ووصف أغلب الشخصيات بصفاتها الحقيقية كما رأيناه وهو يصف الإمام علي وطلحة والزبير والسيدة عائشة ومعاوية، وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وباقي الصحابة، إلا أنه حينما تناول أحداث السيرة في مقدمة كتابه تعامل مع سيدنا محمد أنه ليس نبيا ولكنه اعتقد أنه نبي. وهذا هو الخلاف الحاد القائم بيننا. وكل ما نشرحه بعد ذلك يعد تفصيلا.

ثانيا: نعم كان اعتقاد الرسول ﷺ أن اليهود والنصارى أقرب له من وثنية قريش أو المشركين، وتعامل معهم من هذا المنظور الإيماني والتوجيه الرباني والموقف الصائب، ولكنهم راحوا يكيدون له ويضعون العراقيل أمام دعوته، وقد تأكد من عداوتهم، وخبثهم وكيدهم ولذلك تعامل معهم من هذا المنطلق.

ثالثا: توجد روايات تتحدث عن أن الرسول ﷺ وهو في مكة كان يصوم العاشر من محرم، وأمر الصحابة بذلك هناك أحاديث تؤكد ذلك[1]. هذه من جهة. ومن جهة أخرى؛ كل دين له سننه وله شعائره، وما يقوم به الرسول ﷺ هو وحي من الله، وكما فضل الله بعض الأنبياء على بعض، وفضل بعض الأماكن على أماكن أخرى، وفضل شهر رمضان على باقي الشهور، كذلك فضل يوم الجمعة على سائر الأيام، فأين المؤاخذة في ذلك، وقد نص القرآن الكريم على تفضيل يوم الجمعة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة:٩] وكذلك في تحويل القبلة فتذكر كتب التاريخ أن الرسول ﷺ حينما كان يتجه إلى بيت المقدس وهو في مكة كان يجعل الكعبة بينهما، وكان هواه أن يتجه إلى الكعبة فلبي الله رغبته وشوقه إليها في آيات كريمات تتلى حتى يومنا هذا.

رابعا: يعد سيدنا إبراهيم أبي الأنبياء وكان القرشيون يدركون ذلك ويقدسون الكعبة من شعائر إبراهيم، ويستنون بالكثير من السنن، وجاء محمد على هدى إبراهيم وإسماعيل.

---

(١) دفاع عن محمد ص ١٦٦

خامسا: من المعلوم أن الرسول ﷺ هو خاتم الرسل، وليس معنى اتفاقه في تحريم بعض «المحظورات الغذائية» كما يقول دومينيك أنه استعار ذلك من اليهودية، ولكن معناه أن مصدر أوامر التحليل والتحريم هو الله.

أما قصة فرض الصلاة خمسين صلاة ومراجعة رسولنا الكريم، فقد نقدت ذلك في أكثر من كتاب، وأنكرت هذه المساومة وقلت بأن الصلاة فرضت خمس صلوات أما القصة الإسرائيلية فمرفوضة، لأن الصلاة ليست محل مساومة بين الله ورسوله؛ وهي أهم الفروض الدينية على المسلم ولا تسقط عنه في معظم الأحوال، ثم إن الرسول ﷺ كان يتميز بالحياء والطاعة فكيف يراجع ربه ذهابا وإيابا؟، ثم لماذا راجع موسى ولم يراجع أباه إبراهيم في الرواية، فمن يقرأها يدرك أنها دسيسة إسرائيلية.

ج- اتهام سيدنا أبي بكر وعمر باغتصاب الخلافة

في سياق حديثه عن الحكومة الدينية التي أقامها الرسول ﷺ، وطبيعة الحكم الإسلامي، وتولي أبو بكر للخلافة يقول فلهوزن: «كان أبو بكر وعمر يعلمان أنهما لم يتوليا الخلافة بفضل حق شرعي، بل من طريق الاغتصاب، وهما لم يستطيعا أن يسبغا على رياستهما، التي كانت غير شرعية في أول الأمر ثوبا شرعيا إلا فيما بعد»[١].

هذا كلام شديد الخطر وفيه إهانة لتاريخ فلهوزن العلمي ومدى فهمه لتاريخ الإسلام ومصداقيته في أحكامه، ويظهر قراءاته غير المنصفة للرسول وصحابته الكرام وعدم حيادية في البحث، هذا الحكم القاسي لا يهز صورة الصحابيان الجليلان في أعيننا بقدر ما يسارع في سحب رصيد احترامنا لهذا المستشرق. وهو الذي اعتمد في تاريخه على روافد متعددة للحقيقة منها كتاب الطبري واستفاد منه، فكيف يلقي الكلام على عواهنه. وفي ضوء ذلك نرفض مقولة عبد الرحمن بدوي عنه رفضا قاطعا: يشاء الله أن يهب الإسلام من الأوربيين من يؤرخون له كسياسة فيجيدون التأريخ، وعلى رأس هؤلاء فلهوزن[٢]. هذا أولا.

ثانيا: لا نبغي أن نعيد معلومات يعرفها الجميع أن الإسلام أسس لمبدأ الشورى أي حق

---

(١) تاريخ الدولة العربية ص ٣٤

(٢) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، النهضة المصرية، ١٩٤٠، ص ٣٠٧

المواطن في اختيار حاكمه أو رئيسه أو الملك أيا كان المسمى وترك سبل الاختيار إلى طبيعة العصر وملابساته؛أي بالانتخاب المباشر كما كان يتم في العصر اليوناني، أو غير مباشر كما نرى في دولنا المعاصرة، ومن المعلوم تاريخ أبي بكر وعمر ودورهما في الدفاع عن الإسلام وجهادهما الكبير في تثبيت أركانه وانتصاره، وقد اختير الأول في سقيفة بني ساعده اختيارا حرا مباشراً عن جدارة واستحقاق ، ثم بويع على الملأ وجاءت كافة القبائل تبايع، وخطب في جمهور المسلمين خطبة تصلح أن تكون دستورا لحياة الكرامة والحرية بأسمى معانيها، إضافة إلى ذلك إيحاءات الرسول ﷺ وإشاراته بأن يصلي بالناس، أي رضاه عن تاريخه المشرف.ثم اختار عمر خليفة له، وقد وافقه أهل الحل والعقد أي الطليعة الدينية، ثم بايعه المسلمون عن رضا وقناعة ولا جدال في ذلك ويعد عمر مؤسس الدولة الإسلامية وقائد الانتصارات التي حققها ومؤسس للتسامح و العدل الاجتماعي والمساواة بين المسلمين وتحقيق تكافؤ الفرص، وفاضت خزائنه بالخيرات التي عمت أرجاء البلاد، وفاضت على الآخرين.

ثالثا: لا أحد يقول بهذا القول المنكر إلا المتطرفون من الشيعة، ومن ينكر فضل هؤلاء الصحابة الأجلاء الأطهار الأبرار الذين ضحوا بأرواحهم وأموالهم وعرقهم في سبيل نصرة الإسلام، ومن يقرأ كتاب «الخوارج والشيعة» يشعر بتشيع فلهوزن، ومناصرته لأهل البيت لا سيما في وصفه الدامي لمعركة كربلاء، ونحن نحب آل البيت وعلى رأسهم البطل الثائر الحسين سيد الشهداء، ولكن الحق أحق أن يتبع.فهذان الخليفتان توليا القيادة عن جدارة واستحقاق وعن تاريخ مشرف، وسارا بالدولة الإسلامية في طريق العدل والخير والحق المساواة والسلام.

رابعا: نستشهد بمستشرق ليس فوق الظنون، وهو متهم بتحامله على الإسلام ليس هذا فحسب بل هو كذاب أشر وداعية من دعاة الصهيونية في أيامنا الحاضرة ، ومع ذلك أنصف الخلافة الراشدة إنصافا واضحا، يقول: «جاء الخلفاء الأربعة الأول الذين يبجلهم التراث الإسلامي بإطلاق اسم الراشدين عليهم على أساس غير وراثي وفق طريقة يمكن أن توصف بأنها انتخابية بالمعنى الشرعي»[١].

(١) برنارد لويس: السياسة والحرب ص ١٩٢ (ضمن تراث الإسلام ج/١)، يعد هذا المستشرق الصهيوني من أشد=

وهذه الشهادة تؤكد لنا مدى تباين آراء المستشرقين في القضية الواحدة، واختلاف نظراتهم وأحكامهم التي تصل أحيانا إلى حد التعارض والتناقض.

٣- حوارات مع جولدتسيهر (١٩٢١)

أ- اتهام الرسول بمعاداة الرهبان الذين كانوا أساتذة له.

لا يتورع هذا المستشرق من توزيع الاتهامات يمينا وشمالا، وينتهز أدني مناسبة للتقليل من شأن الرسول ﷺ وتصغير أمره، ومن أمثلة ذلك قوله: شغل الجدل ضد اليهود والمسيحيين مكانا كبيرا في الوحي المدني، في حين كان يعترف بأن الصوامع والبيع والصلوات تعد أمكنة عبادة حقيقية، لكن الأمر تغير بعد هذا، وصار الأحبار والرهبان موضع مهاجمة منه، وقد كانوا أساتذة له[1].

ونستطيع أن نفكك هذا الاتهام الفاحش والخيال الزائف في ثلاث نقاط ونبسط الرد ونحلله في الآتي:

أولا: نعم أدار الرسول ﷺ حوارا عريضا مع اليهود والنصارى حوارا واسعا وشفافا وصادقا، لأنهم أصحاب كتاب، وهم موحدون ويؤمنون بالوحي، وهم أقرب إلى عاطفته الإيمانية من الوثنيين.

ثانيا: الآية جاءت في سياق الإذن للمسلمين بالقتال، للدفاع عن أنفسهم والإسلام وأماكن العبادات لليهود والنصارى التي كانت موجودة، ودفع العدوان عنهم، ولولا هذا الصراع بين الحق والباطل، وقيام فئة من خلصاء المؤمنين وأهل الحق لهزيمة الباطل وتدميره، لعلت راية الفجار الأشرار وأفضت إلى نشر الفساد:وقاموا بهدم أماكن العبادات،

=المستشرقين عداءً للإسلام والمسلمين، وهو دائم تحريض الغرب على المسلمين والدفاع في كافة المحافل عن عدوان إسرائيل وعنصريتها." ويرى أن المسلمين خطر عظيم على الإنسانية مثل خطر هتلر وستالين، وأن تنامي الإسلام ودوائره المرعبة أمر خطير لا يمكن السكوت عنه، لأن هذا التنامي في العالم الإسلامي وفي المجتمعات الغربية، سوف يصنع خطرا محدقاً بالحضارة الغربية من الداخل والخارج. (عبد الله يوسف سهر: مؤسسة الاستشراق والسياسة الغربية، مركز الإمارات للدراسات، أبو ظبي، ٢٠٠١، ص ٣٠)

(١) العقيدة والشريعة ص ٢٠ .

سواء أكانت بيع أو صوامع. يقول الشيخ المراغي (ت١٣٧١ هـ / ١٩٥٢)(١) ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] أي فليقاتل المؤمنون الكافرين، فلولا القتال وتسليط المؤمنين على المشركين في كل عصر وزمان لهدّمت في شريعة كل نبي معابد أمته، فهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود ومساجد المسلمين التي يذكرون فيها اسم الله كثيرا.

وفى هذا ترقّ وانتقال من الأقل إلى الأكثر حتى انتهى إلى المساجد وهى أكثر عمارا وأكثر عبّادا وهم ذوو القصد الصحيح(٢).

ثالثا: لم يقل أحد من المؤرخين المنصفين والعلماء المتبحرين الموضوعيين أن الأحبار والرهبان كانوا أساتذة للرسول ﷺ، وهذا اتهام يعد نقيصة فكرية، والقصد منه التصغير من شأن الرسول وتحقير موقفه، والاستخفاف بمكانته وإثارة الشبهات والشائعات حول سيرته. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى ؛لم يقدم دليلا واحدا على دعواه.وتؤكد شواهد المؤرخين ونصوصهم بأن علماء اليهود هم الذين كانوا يذهبون يستفسرون من الرسول ﷺ ويجادلونه إما بقصد الاستيثاق أنه نبيا أو بقصد التعجيز والتحدي، مثل أسئلتهم عن رجم الزانية، وطبيعة الروح وحقيقة المسيح والأدلة على ذلك مبثوثة في المراجع التاريخية نحن في غنى من إيرادها.

أما الرهبان فإذا كان يشير من طرفي خفي إلى «قصة بحيرى»، فقد ناقشنا هذا الأمر سابقا، ونضيف إن شهرة بحيرى في تاريخ الإسلام والمسيحية يرجع لاقتران اسمه بسيرة الرسول ﷺ ، وقصة مقابلته حينما كان في رحلته مع عمه إلى الشام، وإلا كان نكرة وضاع في زحمة الأحداث واختفى اختفاء تاما من التاريخ، فشهرة الرسول ﷺ ومكانته في تاريخ العالم ورسالته الكونية التي تحمل الخير للبشرية غنية عن أن تعلمها شخصية مغمورة مثل بحيرى أو غير بحيرى لأنه يتلقى علمه من لدن العليم الحكيم.

---

(١) الشيخ أحمد مصطفى المراغي، مفسر مصري عمل أستاذا للغة العربية والشريعة الإسلامية بكلية غوردن بالسودان، وهو غير الشيخ محمد المراغي شيخ الأزهر المتوفى عام (١٩٤٥) (الأعلام ج١ / ٢٥٨)

(٢) تفسير المراغي سورة الحج.

ب- اتهام المعتزلة بأنهم ينكرون الصراط والميزان

يتهم جولد تسيهر المعتزلة بأنهم ينكرون الصراط والميزان فيقول: أنكروا الصراط الذي يجب أن نجتازه قبل ولوج ما وراء ذلك، وهو في دقة الشعرة وأحد من السيف، والذي يمر عليه الأخيار إلى الجنة في سرعة البرق، في حين أن الأشرار يسقطون في الهاوية، وكذلك الميزان الذي توزن به أعمال النفس. هذا وذاك وعقائد أخرى من هذا الضرب، قد أنكروها من أساس الاعتقاد، وفسروها تفسيرا رمزيا مجازيا(١).

لاغرو أن نقول هذا كلام فيه افتراء على المعتزلة ومتابعة الهجوم القديم الذي شن عليهم من مخالفيهم في الرأي، وحقيقة القضية أن بعض أهل السنة تصوروا الصراط تصورا ماديا حسيا " أحد من السيف وأدق من الشعرة وفيه طريقان يمنى ويسرى فأهل السعادة يسلك بهم ذات اليمين، وأهل الشقاوة يسلك بهم ذات الشمال، وفيه طاقات كل طاقة تنفذ إلى طبقة من طبقات جهنم وطوله ثلاثة آلاف سنة صعود، وألف هبوط وألف استواء، وكذلك الميزان له كفتان كل واحدة منهما أوسع من طباق السموات والأرض وجبريل آخذ بعموده ناظر إلى لسانه وميكائيل أمين عليه ومحله يوم الحساب.

فما كان من المعتزلة أن حملوا ذلك محمل التأويل، فالصراط دليل على القسط والعدل، والميزان يعني إعطاء الناس حقوقهم بلا بخس، ولاشك أن الله يحتاج إلى هذا الميزان الأسطوري لمحاسبة عباده، والنص يسع ذلك التأويل ويحتمل ذلك التفسير، وهذا دليل على عبقرية اللغة العربية، ومن المعلوم جهود المعتزلة في الدفاع عن العقائد الإسلامية في مواجهة الهجمة الشرسة التي تعرض لها بعد الفتوحات من السمنية والطبيعيين والمجوسية والمانوية والمزدكية، زد على ذلك أحبار اليهود وقساوسة النصرانية وهذا أمر مشهود ومعلوم ، وقد أبلوا في هذا الميدان بلاء حسنا يحسب لهم في تاريخ الدفاع عن الفكر الإسلامي.

ج- اتهام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)

يروي جولتسيهر أن ابن تيمية ذكر في عظة من عظاته نصا يتعلق بنزول الله، فعمل على

---

(١) العقيدة والشريعة ص ١٠٣

نفي أن يكون النص من المتشابه وعلى أن يشهر عيانا فهمه لنزول الله فنزل بعض درجات المنبر قائلا: «كنزولي هذا»(١).

حقيقة الأمر أن ابن تيمية اشتهر عنه إثباته الصفات سواء أكانت صفات الذات أو الصفات الخبرية أي الصفات التي تخبر عن شيء مادي ويوهم ظاهرها التشبيه والتجسيم، مثل اليد والعين والوجه، فيقول بأن الله له يد ويدان وأيدي لكن ليست كأيدينا، وله عين وأعين ولكن بلا كيف وقد غال هو وتلميذه ابن القيم مغالاة شديدة في مسألة الصفات.

وهذا رأيهما نحترمه وندرك الأسباب التي دعتهما لذلك ولهما مطلق الحرية في اختيار ما يعتقدان أنه صواب، لكننا نأخذ بتأويل الصفات.

لكن اتهام ابن تيمية أنه كي يصور صفة النزول فنزل درجة من على المنبر رواية مدسوسة عليه ذكرها ابن بطوطة (ت٧٧٩ هـ) وادعى أن ابن تيمية قال: «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزول هذا ونزل درجة من درج المنبر»(٢).

ولا جدال أن أقوال ابن تيمية وكتبه تذكر هذه الرواية الملفقة، وما على الباحث إلا أن يقبل أقوال ابن تيمية الواردة في كتبه المعتمدة، وآراؤه مبسوطة ومعروفة، ويرفض رواية ابن بطوطة، فهذا نوع من الدس التافه والكيد المذهبي ومن الروايات السماعية التي قصد منها التنقص من شخصية الرجل، وتصفية الحسابات بين الفرق الإسلامية.

د - الادعاء بتأثر زهاد المسلمين برهبان النصارى

لا يخجل المستشرقون أن ينسبوا كل فكرة سديدة أو نظرية جيدة أو سلوك حميد إلى حضارتهم، كأنما عقول البشرية كافة قد تجمدت وتوقفت وعقمت عن التفكير والابتكار والاختراع والتجديد والتطوير، وهذا الادعاء يستند إلى نظريتهم العنصرية الاستعلائية لباقي الشعوب فهم الأصل والعرب الفرع، وهم المركز ونحن الأطراف. وهذه نرجسية ممقوتة وكل نرجسية مرفوضة بمنطق الواقع وبالاستدلال العقلي.

---

(١) العقيدة والشريعة ص ١٠٩

(٢) رحلة ابن بطوطة، مطبعة التقدم، القاهرة، ١٣٢٢ هـ.ج١ / ٥٧، وأيضا محمد الزيني: ابن القيم وآراؤه الكلامية، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٠

ومن هذه الأفكار فكرة الزهد ومجافاة طيبات الحياة والإعراض عنها. حيث يقول: إن زهاد المسلمين أخذ بلبهم نسك رهبان المسيحية وتأثروا بهؤلاء السائحين التائبين أثرا قويا، وهم التائبون الذين ورد ذكرهم في الشعر العربي القديم قبل عهد النبي. ويضيف: بأن عادات وتقاليد رهبان المسيحية هي التي أوحت بكلمتي سائحين وسائحات[١].

غني عن البيان والشرح أن هذا كلام لا يتمتع بأي مصداقية، ولا يستند لأي شاهد من شواهد الواقع. وقد ذكر جولدتسيهر العديد من الصحابة أخذوا أنفسهم بالزهد الشديد في طيبات الحياة والتجافي العنيف عن ما حلله الله لنا، وقد عاتبهم الرسول ﷺ ومنهم عبد الله ابن عمرو بن العاص، والثلاثة الذين حضروا إلى الرسول فمنهم من أراد أن يصوم الدهر ومن أراد أن لا يتزوج والثالث يقوم الليل قائما في الصلاة فنهاهم الرسول ﷺ عن هذا السلوك المتشدد لأن الله سخر عناصر الوجود وكل جماليات الحياة وطيباتها ولذائذها ومتعها من أجل سعادة الإنسان ورفاهيته. هذه نقطة.

الثانية: من المعلوم أن حياة الرسول ﷺ كانت مثالا فذا في الزهد والعفة والقدرة الهائلة على السيطرة على نوازع النفس ورغباتها وكان أنموذجا يقتدي به، ولا تحتاج القضية التأثر بسلوك الرهبان والراهبات.

الثالثة: تختلف طبائع الناس وسلوكياتهم وفلسفتهم الخاصة في الحياة نظرا للتربية والتنشئة والتوجيه والقدرات النفسية؛ فمنهم من يحب جمع المال وينفق حياته في جمعه ولا ينفقه كما رأينا بخلاء الجاحظ، ومنهم من يزهد فيه ويوليه ظهره، ومنهم من يحب الظهور وإثبات الذات ويبذل عمره في إيجاد مكانة متميزة في المجتمع[٢] ومنهم من يحب الانطواء على الذات ويكره المظهرية كما نرى عند أبي العلاء المعري وفي قبائل إفريقية، ومن هذا سلوك الزهد والتقشف والإعراض عن متع الحياة، والنظر إليها بعين الجفاء والاستخفاف، ثم تأتي تعاليم الدين تزكي هذه النزعة عند بعض الأفراد دون بعضهم الآخر.

---

(١) العقيدة والشريعة ص ١٤٧

(٢) لعل عثمان بيومي نموذجا حيا للموظف المتفاني في عمله والذي ضيع عمره حتى أثبت ذاته وقيمته داخل المجتمع، وحصل المنصب الذي يتوق إليه كما صوره نجيب محفوظ في قصة «حضرة المحترم».

الرابعة: ذكرنا قبل ذلك أن سلوك الرهبان والراهبات لم يكن أخلاقيا بالمرة وقد وقعت فضائح ومصائب سجلتها كتب التاريخ الغربية عن الاتصال الجنسي والانحرافات الأخلاقية التي وقعت بينهم، فأي سلوك مضاد للفطرة الإنسانية التي جبلنا الله عليها، لاشك سيفضي إلى مهالك وخيمة، وأعتقد اعتقادا جازما أن أي إنسان يدخل سلك الرهبنة إما أنه يريد أن يهرب من مشكلات الحياة ومسؤولياتها وهمومها التي لا تنتهي وعدم القدرة على مواجهتها فهو ضعيف الإرادة خائر القوي فاتر العزيمة، يغمره شعور باليأس والهزيمة، أو يكون قد أشبع نفسه من شهوات الدنيا وملذاتها لذلك دخل الدير ليكفر عن خطاياه ويتطهر منها بالندم والتوبة والعبادة، إما إنه مريضا نفسيا وجنسيا وليس عنده أي طاقة جنسية أو قدرة على ممارسة الجنس ، أما إذا كان عنده طاقة ويريد أن يترهبن هذا الأخير لا محالة واقع في الخطيئة ومرتكب من الآثام ما لا يحصيه إلا الله[1].

الخامسة: قوله إن زهاد المسلمين اقتبسوا كلمتي (السائحين والسائحات) من الرهبان، معنى كلامه أن الرسول ﷺ هو الذي ألف القرآن واستعار هاتين المفردتين ، وهذا كلام ينم عن الجهل؛فاللغة العربية من أعظم اللغات من حيث ثراء مفرداتها والكلمة الواحدة من الممكن أن يكون لها أكثر من معنى علي حسب السياق، وكتب اللغة العربية مشحونة بهذه المفردات وهاتين الكلمتين عربيتين ضمن مئات المفردات التي استعملها العرب في معاملتهم اليومية وتعني الصائمون شبهوا بذوي السياحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم. وقيل: هم طلبة العلم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه[2].

ومن الممكن أن تطلق على كل من يسيح في الأرض طلبا للعلم أو الرزق أو هربا من حاكم ظالم، أو استقصاء عن حقيقة ما، أو سعيا في جهاد ونصرة المظلوم فإشعاعات الكلمة لا تنفد، ومن المخجل أن يرجع جولدتسيهر الكلمة للرهبان كأنهم هم الذين أبدعوا الألفاظ العربية، ثم إن الكلمة مادامت ذكرت في القرآن فهي من الفصيح بلا جدال، ومن المفردات العربية المستعملة والتي لها دوران على ألسنتهم.

---

(١) يقول الشيخ الغزالي: «اعتقلتني بعض الحكومات، فلما أفرج عني وكابدت أعباء الحرية، غبطت المعتقلين الذين سقطت عنهم هذه الواجبات كلها، ثم أيقنت في ضوء التجربة أن الرهبنة أسلوب ماكر يبدو منه الفرار من الحياة وكأنه انتصار عليها». (دفاع عن العقيدة والشريعة ص ١٥١)

(٢) الكشاف سورة التوبة.

هـ- اتهام الرسول ﷺ بالاقتباس من الإنجيل

يصر جولتسيهر على التأكيد بأن الرسول ﷺ اقتبس كثيرا من الأفكار من اليهودية والنصرانية، وأثار غبارا كثيفا حول هذه القضايا وقد قمنا بالرد على بعضها. ثم يدعي أن حديث الرسول ﷺ عن التوكل:: "لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا، ولزالت بدعائكم الجبال. اقتبسه من قول السيد المسيح: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بعد يوم. ثم يواصل حديثه: بأن الزهاد المسلمون حاكوا نساك النصارى ورهبانهم في لبس الصوف الخشن[1].

- لاشك أننا لا نعدم الإجابة على هذا الرجل الذي ملأ كتابه بالافتراءات والادعاءات الكاذبة، كأنما أخذ عهدا من الشيطان ألا يدخر وسعا في تشويه صورة الرسول ﷺ ويلبلة الخاطر حوله، والحط من شأن الفكر الإسلامي، وكلما تذكرت إعجابي الشديد بهذا الرجل في المرحلة الجامعية تأثرا بموقف أساتذتنا المنحاز إليهم، ندمت ندما عظيما، ومازلت أطلب من الله العفو والمغفرة.هذا أولا.

ثانيا: نحن نؤمن أن القيم التي يحملها الرسل قيم أخلاقية واجتماعية وإنسانية، وقصدهم الرقي بسلوك المجتمع الإنساني وهم جميعا يستمدون من الوحي الإلهي وفيوضاته. والناظر في حديث الرسول ﷺ يدرك فيه الإحاطة والشمول، فهو يحث المسلم على التوكل أي الأخذ بالأسباب وبذل العرق والجهد واستفراغ الوسع والثقة في الله؛قبل الفعل وفي أثناءه وبعده، وكما يرزق الطير الذي ينشط ويخرج مبكرا يبحث عن رزقه وقوته، يرزق المسلم الذي يكد في الحياة ويسعى في مناكبها ويكابد مشقاتها.

ثالثا: توارد الخواطر مسألة تكلم عنها علماء العربية، وذكر العلماء إذا توجهت عقول مختلفة وتناولت قضية واحدة من الممكن أن تأتي بنتائج متشابهة وقد ذكر ذلك الإمام الغزالي وأبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة، وقد قال العلماء: إن استجابة الوعي الإنساني لقوى الطبيعة يتشابه في كل مكان.

رابعا: أكد مؤرخو المسلمين أن لبس الصوف كان منتشرا بين زهاد العرب وصحابة

---

(١) العقيدة والشريعة ص ١٥٣

الرسول ﷺ نظرا لبساطة المعيشة؛وهو الملبس المتوفر آنذاك حيث المهنة كانت رعي الأغنام، ليس هذا فحسب بل كان الصوف يمثل ركنا من أركان معيشتهم المتواضعة فيصنعون منه خيامهم وأغطيتهم من البرد ليلا، وحبالهم والقلائد التي كانت توضع في أعناق الإبل[١]، وذكر الحسن البصري (ت١١٠هـ) أنه شاهد أكثر من سبعين بدريا يلبسون الصوف و، هذا دليل على التقشف والزهد في متع الحياة، و يقصدون منه حمل النفس على الصبر والتجلد على شظف الحياة وتحمل المشاق والحرمان وترويضها على المصاعب وشدائد الحياة التي لا تنتهي، ومن هنا فنحن لا نحتاج أن نتأثر بساكني الأديار ولا بالرهبان الذين كانوا يبيعون الخمور للعرب، ويقدمون لهم البغايا وهم في طريقهم إلى الشام.

و- فكرة الرجعة مأخوذة من اليهودية والنصارى

من عقائد الشيعة الإمامية رجعة الإمام المختفي إلى الحياة الدنيا؛ولما كان جولد تسيهر يستكثر على العقلية المسلمة أي إبداع أو اختراع حتى لو كانت الفكرة تضرب بجذورها في عالم الخرافة ودنيا الأساطير، لذلك يقرر أن فكرة الرجعة ليست من وضع الشيعة أو من عقائدهم، ويحتمل أن تكون قد تسربت إلى الإسلام عن طريق المؤثرات اليهودية والمسيحية[٢].

- لا ضير علينا أن نرد عليه، فنقول: لما كان الإنسان عبر مراحل التاريخ وتعاقب العصور يواجه أصنافا من الظواهر التي لا يجد لها تفسيرا مقبولا، فينشط ويفكر في الأمر مليا ثم يطرح حلا من الحلول حتى تهدأ خواطره ويستريح ضميره وتطمئن نفسه، ومن هذه الظاهرات موت الأحبة والزعماء والقادة والمصلحين، ولما كان عقل الإنسان يأبي أن يذهب هؤلاء ويتواروا من الوجود ويصيروا إلى الفناء، فاخترع فكرة رجعة هؤلاء الأحبة والقادة. ولو رجعنا لكتب الأدب والتواريخ فسوف نجد قصصا بلانهاية عن إيمان البشرية برجعة أحبتها إلى الدنيا بعد أن طواهم الموت تحت جناحه الكوني، وقد ساد في مصر القديمة فكرة عودة الروح إلى الجسد ولذلك نشطوا في اختراع دواء لحفظ الجثة من الفناء حتى توصلوا إلى

---

(١) لقد ظل صوف الأغنام مستعملا في شؤون حياتنا حتى الخمسينات فكانت الأنوال اليدوية تصنع منه أغطية للشتاء، وقمصان للمواطنين يرتدونها ليلا وهم ذاهبون للحقول، ومن المهن التي انتشرت غزل الصوف وعمل أغطية منه للرؤوس (الطاقية المصرية). وكان الخروج بالرأس عاريا يعد عيبا وأمرا مستهجنا.

(٢) العقيدة والشريعة ص ٢١٥

فن التحنيط. وقد ذكر جولتسيهر أن الفكرة كانت موجودة عند الهنود، وعند نصارى الحبشة، ومحبي جنكيز خان.

وأذكر أن أفلاطون في الجمهورية حينما كان يبرهن على خلود النفس ذكر أن «إربن» الذي قتل في إحدى المعارك عاد إلى الحياة يصف نعيم الأبرار وجحيم العصاة.

وقرأت في إحدى القصص الأجنبية أن أفراد إحدى العائلات كانوا يزورون أرملة قريبة لهم فلاحظوا أنها تركت النافذة مفتوحة على الرغم من برودة الجو وشدته، فقالت لهم: لأنها تعتقد أن زوجها الذي مات من أعوام ربما يرجع في أي وقت، لذلك تركت له النافذة حتى يدخل منها.

نستنتج من ذلك أن هذه القضية ليست وقفا على اليهودية ولا النصرانية ولكنها تراث إنساني أسطوري يعبر عن أمنيات الإنسان المستحيلة حينما يؤلمه الواقع ومرارته وتؤرق الحقيقة كيانه وتقض مضجعه، فيهرب منها إلى أحضان الأوهام الدافئة والخيالات الكاذبة اللذيذة.

ز – تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة

من بين التهم التي وجهها جولد تسيهر للرسول ﷺ زعمه بأنه أراد كسب ود اليهود وتأييدهم حينما هاجر إلى المدينة لاسيما وهم كانوا قوة مؤثرة، لذلك توجه شطر المسجد الأقصى، ولما لم يحصل على تأييدهم ولا مساندتهم غير القبلة متجها إلى البيت الحرام في مكة. وقد تلقف هذا الزعم وكرره بعض المستشرقين منهم موير وكايتاني وولفنسون – كما مر بنا–

هذا الزعم عار عن الصحة واتهام مغرق في الخيال. وقد عرض المؤرخون ثلاثة آراء في هذه المسألة عن قبلة الرسول ﷺ قبل الهجرة :

– القبلة كانت الكعبة، الثاني: كانت القبلة دائما بيت المقدس، الثالث: كان الرسول ﷺ يقف في صلاته بحيث يرى أمامه الكعبة وبيت المقدس.

ويرى عبد الرحمن بدوي، أن القبلة قبل الهجرة كانت بيت المقدس ويعلل ذلك؛ بأن الكعبة كانت تمثل معبد الوثنية القرشية وفي الوقت نفسه كانت تتأهب لتكون قبلة الصلاة

للإسلام الوليد الذي جاء يقضي الوثنية، ومن ناحية أخرى أن الإسلام هو دين سيدنا إبراهيم وهو مجدد بناء الكعبة، وكان من الطبيعي أن يتحول المسلمون في صلاتهم إلى الكعبة. على أن بدوي يبين بها لا يدع مجالا لأي لبس، بعدم وجود أي علاقة بتوجه الرسول ﷺ إلى بيت المقدس في البداية وموقف اليهود منه(١).

وهذا ما عرضناه سابقا، وهذا المستشرق ومن تابعه يريد أن ينفي أي أصالة عن الإسلام، ويظهر أن الرسول ﷺ كون دينه من تعاليم اليهود وأقوال النصرانية، انطلاقا من مقولة أنه نبي مزيف وهو الذي ألفه أمشاج من هذه الديانات. وقد وصل به «السفه العلمي» والاستعلاء الديني أن يدعي أن الشريعة اليهودية أثرت في الشريعة الإسلامية ومن ملامح هذا التأثير أننا أخذنا منهم تغسيل الموتى؛ ومن المعلوم أن هذه الشعيرة قائمة منذ الأزمنة القديمة وحتى عند الأمم البدائية فيما يقرر بدوي(٢).

ومن المعلوم أن الفراعنة كانوا يغسلون موتاهم قبل وضعهم في المقابر، وكذلك العرب قبل الإسلام كانوا يغتسلون من الجنابة ويغسلون موتاهم وكانوا يكفنونهم ويصلون عليهم(٣)

٤- الرد على دي بور (١٩٤٢)

مر بنا قول دي بور بفكرة تأثر العلوم الإسلامية بالعلوم الهندية والفارسية واليونانية، وإصراره مع جمهرة المستشرقين على ترديد هذا القول، لذلك لا نتعجب منه حينما يقول: أظهر علماء المسلمين فيما بعد من التقدير لكتب العلوم اليونانية، مثل ما أظهره محمد من تقدير لكتب اليهود والنصارى(٤).

وهذا الكلام يتضمن شقين، الشق الأول، المتعلق بتأثر علماء الإسلام بالفكر اليوناني، وقد تطرقنا لهذا الموضوع سابقا، وقلنا إن نشأة العلوم في الحضارات المختلفة، تأخذ وتعطي، وتتأثر وتؤثر، وما قيل عن المعجزة اليونانية التي لا نظير لها ولا مثيل أثبت العلماء كذبها

---

(١) دفاع عن القرآن ص ٧٩:٧٨

(٢) دفاع عن القرآن ص ٨٠

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل ج٢ / ٢٤٨

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٤٨

واختراعها، وأن الحضارة اليونانية تأثرت بحضارة الفراعنة بما فيها من دين وفلك ورياضيات وكيمياء وطب، وبرهن العلماء على زيارة طاليس وأفلاطون لمصر واقتباسهم جملة من الأفكار المنتشرة آنذاك، وأكد «بول ماسون» في كتابه الفلسفة في الشرق، أن اليونانيين نقلوا كثيرا من الأفكار من جيرانهم وتأثروا بمعتقداتهم.

الشق الآخر المتعلق بالرسول ﷺ: لا شك أن تقدير الرسول للتوراة والإنجيل نابع من أن الأول كتاب موسى والثاني كتاب عيسى، وبما ذكره القرآن عن هذين الكتابين وأنهما يقرران وحدانية الله وباقي المنظومة الإيمانية التي جاءت تؤكدها الديانات، أما التحريفات التي وردت في الكتاب المقدس -وقد أشرنا إلى بعضها- فهي محل إنكار ورفض مثل تجويز الكبائر على الأنبياء وتأليه البشر وأنسنة الله. يقول الله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٦].

٥- حوار مع يوسف شاخت (١٩٦٩)

أ- الزعم بنسيان الرسول ﷺ بعض آيات القرآن.

رأينا سابقا أن شاخت انضم إلى فريق المستشرقين الذين شككوا في نبوة الرسول، وخاض مع الخائضين في مسألة الغرانيق، على الرغم من اعترافه في قطعية القرآن وثبوته وتنزهه عن الخطأ، وأنه وصل إلينا من غير تحريف، لكنه بعد هذه المقدمات الطيبة والافتتاحية الصادقة، والتمهيدات المفرحة، يشرع في إطلاق الرصاص في ظهورنا وعلى عيوننا، كما فعل الجيش المصري مع المتظاهرين في مذبحة الحرس الجمهوري والنهضة، فيقول: على الرغم من نسيان الرسول ﷺ لعدة من آيات الكتاب (القرآن) سورة البقرة الآية ١٠٦، وسورة الأعلى، الآية ٦ وما بعدها[١].

هذه الفرية الصارخة تبين لنا مدى جرأة المستشرقين على توجيه الاتهامات لرسولنا

---

(١) أصول الفقه ص ٢٢ وما بعدها . الآية هي: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ [الأعلى: ٦].

دون مبالاة، ودون فهم لمعطيات الآيات التي يستشهدون بها، ولا يتأملون في معانيها المتعددة أو في ذات السياق، ولكنهم لا يأبهون في توجيه الأكاذيب لرسولنا وقرآننا دون حرج أو خجل.لاشك أن هذا اتهام شديد الخطر، وتدليس واضح وكلام يشبه هواجس الدهماء وتخيلات المجانين، وحكايات الصبيان، فقد سبق القول إن الله سبحانه اختار أنبيائه ورسله من أطهر البشر وأنقاهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وأعدهم إعدادا نفسيا، وزودهم بالمواهب الفائقة ، ووهبهم الملكات العقلية ومنحهم الطاقات القاهرة التي تتجاوز قدرات البشر، ولا نغفل العطاء الإلهي الذي يفيضه عليهم وفوق ذلك كله المشيئة الإلهية التي ترعاهم وتتعهد بهم وتحدوهم في كل آن ومكان.

ومن المعلوم إن جبريل كان يراجع القرآن مع الرسول ﷺ في ليلة القدر من كل عام، وكان كتاب الوحي يسجلون هذه الآيات ويحفظونها، ثم كان الصحابة يتابعون حفظه بعد تلاوة الرسول له، وقصة جمع القرآن مشهورة ومعروفة وهناك إجماع من المسلمين على ذلك.هذا أولا.

ثانيا: الآية التي استشهد بها ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]

لا تنتج مدعاه، ولا تؤيد الفكرة التي يريد أن يشيعها عن الرسول وهي «فرية النسيان»، وللمفسرين تفسيرات طويلة عريضة معقولة، وتأويلات مقبولة، إذ يذهبون إلى القول: بأن المقصود من «الآية» المعجزة، أي أن الله يؤيد رسله بالمعجزات المختلفة، سواء أكانت معجزات حسية كما نرى عند الأنبياء السابقين عصا موسى، وإحياء عيسى للموتى، وناقة صالح وغيرها، أم معجزات عقلية خالدة مثل القرآن الكريم، فهو سبحانه يؤيد رسله بالآيات التي تتناسب مع العصر وعلى حسب استيعاب عقولهم لطبيعة المعجزة ، وقد ذيل الله الآية بقوله إنه عل كل شيء قدير دليل على المشيئة الإلهية، وطلاقة القدرة التي تخلق الموجودات من العدم وتعدمها من الوجود، فهو القاهر في ملكه والمتصرف في ملكوته.يقول شهيد الإسلام سيد قطب: والله خالق الناس، ومرسل الرسل، ومنزل الآيات، هو الذي يقدر هذا. فإذا نسخ آية ألقاها في عالم النسيان- سواء كانت آية مقروءة تشتمل حكماً من

الأحكام، أو آية بمعنى علامة وخارقة تجيء لمناسبة حاضرة وتطوى كالمعجزات المادية التي جاء بها الرسل- فإنه يأتي بخير منها أو مثلها! ولا يعجزه شيء. وهو مالك كل شيء، وصاحب الأمر كله في السماوات وفي الأرض.. ومن ثم تجيء هذه التعقيبات: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؟ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ؟ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ»..[1]

ويطرح الشعراوي وجهة نظر فيها طرافة وتجديد فيقول: «كل رسالة من الرسالات التي سبقت رسالة رسول الله ﷺ.. وجاءت لقوم محدّدين ولزمن محدّد ثم جاء نبي جديد لينسخ ما في الرسالة السابقة لقوم محددين.. وزمن محدد.. واقرأ قول عيسى عليه السلام حينما بعث إلى بني إسرائيل كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠]

فكأن عيسى عليه السلام جاء لينسخ بعض أحكام التوراة.. ويحل لبني إسرائيل بعض ما حرمه الله عليهم.. ورسول الله ﷺ وهو الرسول الخاتم أعطى الخير كله؛ لأنه دينه للعالمين وباق إلى يوم القيامة. ثم يتابع شرحه: قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾.. كلمة ننسخ معناها نزيل آية كانت موجودة ونأتي بآية أخرى بدلا منها.. كما يقال نسخت الشمس الظل..أي أن الظل كان موجودا وجاءت الشمس فمحته وحلت هي مكانه.. ويقال نسخت الكتاب أي نقلته إلى صور متعددة، ونسخ الشيب الشباب أي أصبح الشاب شيخا..

وقوله تعالى «ننسها» لها معان متعددة.. قد يعني ذلك أن الله يجعل الإنسان يسهو ويغفل عنها.. فتضيع من ذاكرته أو يتركها إلى غيرها[2].

أما بخصوص استشهاده بقوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ [الأعلى: ٦]

المتأمل في الآية لا يلمح فيها أبدا أي إشارة لنسيان الرسول؛أي تلاشي المعارف من ذاكرته،

(١) في ظلال القرآن، تفسير سورة البقرة.

(٢) تفسير الشعراوي، سورة البقرة .

أو تلميح بنسيانه أي كلمة من كلمات القرآن بله (آية) لا من قريب ولا من بعيد، ليس هذا فحسب بل يدرك أنها بشارة للرسول ﷺ تطمئنه على أن لهفته البالغة وعاطفته المشبوبة لحفظ الآيات وحرصه الشديد على استيعاب الآيات وتفتح حواسه وأجهزته الإدراكية واستقباله الشغوف لتلقي القرآن وإقباله بالكلية على سماعها، كل هذا ستكفل به العناية الإلهية، فيقوم جبريل بالقراءة والرسول ﷺ يقرأ وراءه فتنطبع الآيات في قلبه وتنتقش في عقله صورة مطبوعة بالقدرة الإلهية، فلا يخشى أبدا من نسيان أن أي آية من آيات القرآن[1].

يقول شهيد الإسلام: «فعليه القراءة يتلقاها عن ربه، وربه هو المتكفل بعد ذلك بقلبه، فلا ينسى ما يقرئه ربه.وهي بشرى للنبي ﷺ تريحه وتطمئنه على هذا القرآن العظيم الجميل الحبيب إلى قلبه.الذي كان يندفع بعاطفة الحب له، وبشعور الحرص عليه، وبإحساس التبعة العظمى فيه.. إلى ترديده آية آية وجبريل يحمله إليه، وتحريك لسانه به خيفة أن ينسى حرفا منه. حتى جاءته هذه البشائر المطمئنة بأن ربه سيتكفل بهذا الأمر عنه»[2].

ويؤكد الشيخ المراغي نفس التفسيرات السابقة فيقول: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] أي سننزل عليك كتابا تقرؤه، ولا تنسى منه شيئا بعد نزوله عليك.وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا نزل عليه القرآن أكثر من تحريك لسانه مخافة أن ينساه، فوعد بأنه لا ينساه.

ونحو الآية قوله: «﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾.

خلاصة ذلك- إنا سنشرح صدرك، ونقوّى ذا كرتك، حتى تحفظه بسماعه مرة واحدة، ثم لا تنساه بعدها أبدا. ولما كان هذا الوعد على سبيل التأبيد يوهم أن قدرته تعالى لا تسع تغييره جاء بالاستثناء فقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي فإن أراد أن ينسيك شيئا لم يعجزه ذلك[3].

---

(١) الوعي يعني احتفاظ الفرد بما مر به من خبرات وبما حصله من معلومات، وكسبه من عادات ومهارات. والنسيان عجز طبيعي جزئي أو كلي دائم أو مؤقت، عن تذكر ما كسبناه من معلومات ومهارات حركية. (عزت راجح: أصول علم النفس ص ٣٠٩

(٢) الظلال، تفسير سورة الأعلى.

(٣) تفسير المراغي .

نخلص من هذا العرض أن جوزيف شاخت لم يفهم إيحاءات الكلمات ولا معطيات الآية ولا معناها الذي يتبادر لذهن أي إنسان دارس للعربية، على الرغم من أنه عاش في مصر وقام بالتدريس في جامعتها، وهذا يظهر أن سمعة المستشرقين والهالة التي رسمها أساتذتنا حولهم ليس لها رصيد كبير في الواقع، وربما كانت من المجاملات الزائفة ، ولاشك أن أخطائهم توردهم موارد التهلكة.

ب- الادعاء بأن الرسول لم يضع نظاما لحركة المجتمع

وفي نص آخر يرفع شاخت تهمة أخرى في وجوهنا، يتجاوز فيها حدود المنطق الإنساني ويتعدى ميدان الفهم السليم إلى شطحات زائفة؛ فيذهب إلى القول: لم يكن قصد محمد ﷺ خلق نظام بضبط به حياة أتباعه، أو وضع أصول هذا النظام علي الأقل، بل ظل القانون العرفي العربي القديم - الذي تضمن كثيراً من العناصر الدخيلة من رومية إقليمية وبابلية ويمنية -يسير في الإسلام سيره الطبيعي[1].

لا جرم أن تصيبنا الدهشة والذهول وليس العجب من هذا المستشرق الذي يتكلم عن الفقه وأصوله الذي هو في مضمونه عبارة عن فلسفة جملة القواعد الشرعية التي أقرها الدين لتسيير دفة حياة المسلم التقي النقي أو القوانين الإلهية التي وضعها الله لهداية البشرية، وبتعبير آخر معاصر خريطة واضحة المعالم لخطة سير المسلم في حياته وعليها إشارات واضحة أو إحداثيات ظاهرة عليه أن يستهدي بها حتى يصل إلى غرضه المنشود وهو تحقيق سعادته في الدنيا والآخرة.

ألم تكن مهمة الرسول ﷺ من بداية انطلاق الدعوة، وضع حجر الأساس لنظام كامل شامل يحدد مسار حياة الإنسان في الحياة؟ إن كل كلمة في القرآن وفي أحاديث الرسول، هي هداية وإرشاد ومن خلال هذه الكلمات يتجلى لنا أعظم نظام يقر كل معاني العدالة الاجتماعية، ومنع التفاوت الطبقي وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص على أساس قيم الكفاءة والتميز وليس القرابة والنسب، والحفاظ على تماسك الأسرة والمجتمع، ووحدة الأمة، ورفض أسلوب الغش والتدليس، والكسب غير المشروع، وحفظ السلام العالمي.

---

(١) أصول الفقه ص ٤٩

إن مبادئ النظام الذي أقره القرآن وشيد أسسه الرسول ﷺ يبدأ من شهادة لا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق، والحفاظ على البيئة بما فيها من نباتات وحيوانات، هي دستور تام الأركان شامل القوانين التي تدفع الحياة إلى النماء والتقدم. ألم يقرأ سورة الإسراء حتى يتبين القيم الاجتماعية المنبثة فيها التي أعظمها حسن التعامل مع الوالدين وبرهما إلى أن نصل إلى التنبيه على أسلوب المشي المتواضع دون كبرياء أو غطرسة أو الزهو على الآخرين مرورا بالحفاظ على الأعراض والأموال والأنفس.

ألم يعكف الفقهاء على القرآن والسنة ووضعوا لنا أبواب الفقه التي تبدأ بالطهارة وانتهاء بالسنن التي يجب أن تتبع مع الميت ولم ينسوا أن يتكلموا عن تغسيله وتكفينه ودفنه، وليس حرق جثته كما تفعل بعض المذاهب، مرورا بقوانين السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والتعليم ومبادئ الأخلاق.

حقيقي لولا تمسك الإنسان بالصبر وأخلاق الإسلام حينما يقول: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين، أقول لولا ذلك لأعرضت عن الرد لأننا نناقش بديهيات أقرها الدين الإسلامي في أوسع معانيها.

وقد تعجب الشيخ أمين الخولي من طرح شاخت وعقب عليه بقوله: «هذا الحكم على القصد غريب في حساب المنطق العلمي».

أما شنشنة شاخت ومزاعمه عن أن الرسول ﷺ ظل يعمل «بالقانون العرفي العربي» فمسألة طبيعية إذ إن تغيير لحمة المجتمع ونسيجه لابد أن يمر بمراحل، تبعا لسنن التغير وتطوره التدريجي لأركان المجتمع، فهناك أشياء أقرها الرسول ﷺ وهي المأخوذة من سنة أبي الأنبياء وأخرى نبتت من انحراف السلوك الإنساني مثل الربا والبغاء وغيرها، وهذا التغيير لابد أن يمر في دورة اجتماعية حتى لا ينقلب المجتمع رأسا على عقب. وهذه سنة التغير في الكون.

ونرد عليه بقول مستشرق مثله يقول: «الواقع أن للقرآن صبغة تشريعية بارزة»[١].

(١) من المقدمة التي كتبها إدوار مونتيه لترجمته للقرآن (نقلا عن إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن ص ١٢٣)

ج - أفعال الرسول غير معصومة من الخطأ

في فقرة ثالثة لا يتورع شاخت أن يهمز الرسول ﷺ، ويشكك في تقريراته المتعلقة بأمور الدين، ويشير إلى أن القرآن عاتبه في بعض المواقف وهاك نص كلامه: «كانت أفعاله تعتبر بشرية بحتة حتى ما مس منها أمور الدين، فكانت بهذا لا تعتبر معصومة من الخطأ. ونقدت هذه الأفعال أكثر من مرة، وكان الكتاب (القرآن) نفسه يلومه أحيانا على بعض أفعاله (سورة ٦١ الآية ١)»[1].

الناظر في هذه المقولة نجد أنها تحمل في طياتها اتهامين مستقلين؛ الأول إنكار عصمة الرسول، الثاني: لوم القرآن له على بعض سلوكياته. ونرد في نقطتين مركزتين.

أولا: قسم علماء المسلمين أعمال الرسول إلى قسمين؛ الأعمال المتعلقة بأوامر الدين ونواهيه، وكل ما حمله الوحي وأمره أن يبلغه إلى أمته فهو معصوم فيه، لا شك في ذلك، من منطق الرسالة الخالدة التي نهض بإبلاغها، وإذا قبلنا المقدمة الأولى بأنه رسول من عند الله وحامل رسالة عالمية لرقي لبشرية، وأن العناية الإلهية تحرسه، فعلينا أن نؤمن بالنتيجة وهي أن الله عصمه من الخطأ، وآيات القرآن الصريحة في ذلك. ونكتفي بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤].

أما يتعلق بأمور الدنيا فالرسول ﷺ بشر ينظر و يفكر ويتأمل ويجتهد ويتعامل مع البيئة التي يعيش فيها، ويختار الرأي الصواب من وجهة نظره أو الذي ترتاح إليه نفسه، كما هو مشهور في قضية تأبير النخل، ثم قولته المشهورة: «أنتم أعلم بشؤون» أننا بصدد مجال فسيح لعمل العقل والخبرة اليومية وتجارب الحياة.

ثانيا: الآية التي أحالنا إليها السيد شاخت، يقول فيها المولى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

الحقيقة أن الناظر في الآية يلاحظ خلوها - والحمد لله رب العالمين - من أي عتاب للرسول، كما هو مشهور في سورة عبس في قضية عبد الله بن أم مكتوم، ناهيك عن ذلك أن

(١) أصول الفقه ص ٥٤، ٥٥

تحمل لوما، وهذه اللقطات ترشدنا على ضحالة فهم المستشرقين لآيات القرآن، وقصر إحاطتهم بإيحاءات آياته ومعطيات الألفاظ، أو ربما يكونوا فاهمين ثم يلبسون الحق بالباطل ويبغون تشتيت عقولنا وإثارة الشك في نفوسنا والاحتمال الأول أقرب للحقيقة.

فالآية الكريمة تصور موقف بعض المؤمنين من قضايا الدين والحياة، إذ نرى أن بعض الناس قد يتشيعون لموقف من المواقف ويتزعموا ذلك، ثم حين التنفيذ تخور قواهم وينكصون على أعقابهم، فنلحظ انفصام بين الاعتقاد والعمل أي مفارقة واضحة بين النظرية والتطبيق، وهذا ما تشير إليه الآية أن بعض المؤمنين تحمسوا للجهاد في سبيل الله، ثم حينما أعلن النفير خارت قواهم واضمحلت عزيمتهم، فنبههم القرآن بخطأ هذا السلوك، ولامهم على هذا التصرف.

يقول المراغي في تفسيره: قال ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد لأهل معصيته الذين جحدوا الإيمان به، وإقرار برسالة نبيّه، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فأنزل الله الآية[1]. وهذا ما ذهب إليه معظم المفسرين.

٦ - الرد على الأب تيري[2]

يقول الأب تيري أحد أساتذة الفلسفة بالمعهد الكاثوليكي: «حرم النبي صراحة أي استخدام للعقل في المشكلة الدينية، لأن وجود الله لا يمكن البرهنة عليه، والاجتهاد أو انطلاق العقل ليس من التوجيهات الأساسية للقرآن»[3].

لو قرأ هذا الكلام أي طالب في مراحل الدراسة؛ يدرك أننا أمام إنسان جاهل بدعوة الرسول ﷺ وحقيقة القرآن ولم يطلع أبدا على الفكر الإسلامي، وأن هذا الأب يخوض فيما

---

(١) تفسير المراغي سورة الصف.

(٢) أستاذ بالمعهد الكاثوليكي في باريس، من كتابه: محاضرات في الفلسفة الإسلامية والثقافة الفرنسية. ص٢٥ (نقلا عن كتاب: الظاهرة القرآنية ص ٢٠٢).

(٣) نقلا من كتاب الظاهرة القرآنية ص ٢٠٢ .

يجهله تماما دون أن نفتري عليه، بل إنني لا أجد من التعبيرات التي تصف هذا التقرير إلا بالجاهل والجهول، ومن المؤكد أن هذا الذي يدعي أنه متخصص في الفلسفة الإسلامية لم يطلع على أي دراسة تتعلق بمكانة العقل عند فلاسفة الإسلام سواء في المشرق عند الفارابي وابن سينا أو المغرب عند ابن طفيل وابن رشد.وصدق من قال: «إن الصلف مع العلم رذيلة، فكيف إذا كان الصلف مع عجز وقصور»[(١)].

لاغرو أن نقول إن هذه العبارات أكثر من مستفزة، وتسبب الغيظ للإنسان وتحمله ما لا يطيق، ومع كل هذا ستمسك بتعاليم ديننا الحنيف، وأخلاقه السمحة التي تشربناها.ونحلل هذه الفقرة في ثلاثة اتهامات فارغة من مضمونها، ونرد عليها كل على حده.

- حرم النبي صراحة أي استخدام للعقل.
- وجود الله لا يمكن البرهنة عليه.
- الاجتهاد أو انطلاق العقل ليس من التوجيهات الأساسية للقرآن.

أ- لم يقل أحدا من المؤرخين المسلمين القدامى والمعاصرين بأن الرسول ﷺ منع من التعويل على العقل، كأداة من أدوات الفهم والمعرفة والإحاطة بالنفس والمجتمع والعالم الخارجي، ولا يوجد نص من السنة النبوية، أو يوجد أي إشارة من الرسول لمصادرة حق المسلم في التفكير وتدبير يومه والتخطيط لمسيرة حياته؛ولو توقفنا عند بعض الحوادث في حياته نجد أنه اجتهد في القضايا السياسية والعسكرية والاجتماعية التي واجهته، أي أنه فكر وحلل وخطط وراجع المقدمات وحقيقة الخطوات وقيمة النتائج، كل هذا من نور العقل، وأبرز مثال على ذلك؛تخطيطه لهجرة أصحابه إلى الحبشة ثم، هجرته مع أبي بكر إلى المدينة، وكذلك غزوة بدر وغزوة أحد وحفر الخندق، وصلح الحديبية وغيرها، ولما ترك صاحب الناقة ناقته هكذا قال له: «اتركها وتوكل»، أي خذ بالأسباب وخذ حذرك واربط الناقة، ثم توكل على الله أي ثق في عنايته وحفظه، ولا نستطيع أن نتتبع هذه المواقف لأنها تحتاج إلى كتاب كامل، وكنا نريد من هذا الأب الفيلسوف أن يطرح علينا نصا مضمونه أن الرسول ﷺ نهى أصحابه من التعويل على العقل.

(١) محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث. من المقدمة.

- لم يقل الرسول ﷺ بأن وجود الله لا يمكن البرهنة عليه. ولكنه قال: تفكروا في مخلوقات الله ولا تتفكروا في ذاته.

إذ هناك فرقا واضحا لكل من له مسكة من العقل وبصيرة وقادة وفهم جيد، أن يدرك الفرق بين التعقل والتصور، فقد حثنا الرسول ﷺ على التعقل، لأننا نستطيع أن نناقش حقيقة الموجودات ونبحث عن مُوجدها، بمعنى إذا كان هناك إنسانا يسير في الصحراء ووجد كوخا قائما، يدرك ببداهة العقل ومنطق الأشياء أن هناك فاعلا هو الذي شيد الكوخ، أي أننا بصدد مجموعة من العمليات العقلية فنبدأ بالمقدمات ونتنقل خطوة في البحث والتحليل حتى نصل إلى النتائج، وهذا ما دعانا إليه الرسول ﷺ ومضمون رسالته قائمة على الدليل العقلي والاستدلال البرهاني.

أما نهيه عن البحث في حقيقة الذات الإلهية، لأن العقل البشري لن يستطيع أن يتصور ذلك.لماذا؟ لأننا نكون تصوراتنا بما مر في تجاربنا اليومية وخبرتنا الحسية، بمعنى إذا أردت أن أتصور صورة عمر بن الخطاب، فأستطيع أن أكون له صورة مما مر في خبرتي الحسية؛ طويل القامة مفتول العضلات، له لحية كثة، يسير بخطوة سريعة ولكن صورة الله وذاته المقدسة ليس لها نظير ولا شبيه، وكل ما خطر ببالك فالله فخلاف ذلك. وهذا مضمون نهي الرسول ﷺ أن نتفكر في مخلوقات الله التي هي تعبير قوي على القدرة الإلهية.

- نصل إلى الاتهام الصفيق الأخير؛بأن الاجتهاد وانطلاق العقل ليس من توجيهات القرآن. ونقول:هل قرأت القرآن، إننا لا نستطيع أن نحصي الآيات التي تحث على العقل على التبصر والادكار والفهم والنظر والتفقه والتدبر والتذكر والعبرة، فهذه آيات يحفظها طلاب الكتاتيب ألم يقرأ قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ١٧- ٢١] الحقيقة أن الآيات لا

تحصى، بل إن القرآن ذم الذين يعطلون ملكاتهم و يلغون عقولهم وشبههم بالأنعام بل أضل، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

يعجبني قول صالح المقبلي اليمني (١٠٤٧- ١١٠٨ هـ)، بأن الله سبحانه على طول وصفه الكفار بصفات متعددة، مثل الكبر والضلال، والطاغوت، لم يسب عقولهم أبداً إنما يقول أفلا تعقلون - أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ونحو ذلك أي أنه سبحانه يحتج عليهم بالعقل أبداً، ويذمهم ويوبخهم على إطراح العقل وإلغاء أفهامهم[1].

ألم يسمع عن محمد إقبال (١٩٣٥) وبرهنته على أن الإسلام خاتم الديانات، فساق من الأدلة مناشدته للعقل والتجربة على الدوام، وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية، وكلها صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة[2].

رحم الله العقاد حينما أفرد كتابا كاملا بعنوان «التفكير فريضة إسلامية». وفي كل كتاب من كتبه يركز على إلحاح القرآن على إعمال العقل وتحريره من قيد الخرافات، يقول: «إن قيام النبوة على إقناع العقل المسؤول بآيات الكون، قد اختتم سلطان الأحبار والقادة كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات، فلا يعذر الإسلام إنسانا يعطل عقله ليطيع السادة المستكبرين أو ليطيع الأحبار المتسلطين بسلطان المال والدين»[3].

كذلك من المسلمات التي يقررها العلماء أنه «ليس في تاريخ الثقافة الإنسانية كتاب ينشئ العقل المؤمن إنشاء، ويعرض آيات الله في الأنفس والآفاق لتكون ينابيع فكر يتعرف على الله، ويستريح إلى عظمته كما في القرآن»[4].

غني عن البيان أننا نتكلم في قضية لا تحتاج كل هذا الجهد، لكن المشكلة لو كان هذا

(١) محمد الزيني: صالح المقبلي وآراؤه الكلامية، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٠. (الطاغوت: كل ذي طغيان على الله؛ يعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له إنسانا كان ذلك المعبود أو شيطانا أو وثنا أو صنما أو كائنا ما كان من شيء) (تفسير الطبري)

(٢) تجديد الفكر الديني، ط، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ص ١٤٤

(٣) الإنسان في القرآن، دار الإسلام، القاهرة، ص ٢٦

(٤) محمد الغزالي: السنة النبوية ص ١٢٩

رجلا أميا لأفهمناه، ولكنه جاهل أي أنه عنده منظومة من الأفكار تخالف الواقع فيحتاج منا جهودا مضاعفة، أن نزيل هذا الركام الفاسد والأفكار الباطلة، ثم نشيد البناء من جديد على حسب منهج فرنسيس بيكون.أو منهج ديكارت في الشك المنهجي.





الخاتمة

١. من الواضح أن معظم المستشرقين - إن لم نقل كلهم - لا يعتقدون في رسالة محمد ﷺ ولا أنه رسول، ومبلغ فهمهم ومعتقدهم أنه زعيم ثوري وقائد محنك عظيم مثل عظماء التاريخ، ومصلح فذ من مصلحي الإصلاح الاجتماعي، ورائد من رواد الوعي الإنساني، وعسكري فذ ماهر في وضع الاستراتيجيات العسكرية يمتلك القدرة على تحقيق الانتصار تلو الانتصار، وبطل من أبطال التاريخ الكبار، نعم كل المستشرقين مستعدون الإقرار بذلك ليس هذا فحسب، بل والاعتراف أن الإسلام أخرج العرب من الظلمات إلى النور، وأحيى بمبادئه أمة هامدة، جوالة خاملة، فتحول الخمول إلى نباهة والضعة إلى رفعة والضعف قوة والشرارة حريقا عم ضوئه الأرجاء، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالغرب[1].

نعم مستعدون الإقرار بذلك والهتاف به دون أن يقروا أنه رسول من خيرة الرسل ومبعوث من السماء صاحب رسالة عالمية تحمل مضمونا فكريا وعقائديا وسياسيا واجتماعيا لهداية البشرية، وقيادتها إلى سبل الصدق والعدل والنجاح والأمان والرخاء والفوز بالدنيا والآخرة.

وقد لخص أحد المستشرقين وجهة نظرهم بقوله: «لم يبد لي قديساً كما يراه المعجبون به، ولا دجالا كما يزعم محقروه» إنما هو رجل كيس نبيل[2].

٢- الزعم بموضوعية المستشرقين وإنصافهم للإسلام زعم مشكوك فيه، وادعاء باطل، وخيال تائه؛ فالأمر الجليّ أن معظمهم لم يستطع أن يتحرر من النشأة الاجتماعية، أو يتخلص من ضغط الموروث الديني والخلفية الكنسية والصراع الحضاري الموروث والمعاصر، أو التراث الثقافي الذي تشرب عناصره، ولكن هذه العوامل تعمل فعلها في الخفاء مثل «الملقن في المسرحيات»، أو العامل اللاشعوري المترسب في العقل

---

(١) الأبطال ص ٨٢

(٢) بودلي: حياة محمد ص ٤١٣

الباطن كما ترى مدرسة التحليل النفسي، وتوجه المستشرق وجهة محددة كأنه قطار يسير على القضبان لا يستطيع أن ينفك عنها، ومن ثم يتحرك في اتجاه واحد وهو معاداة الرسول ﷺ ورسالته وقرآنه وكل ما يطرحه من أفكار ورؤى دينية عداء ظاهراً لا لبس فيه ولا خفاء.في أسوأ الأحوال، أو اللامبالاة والإهمال في أحسنها.

أما إذا كان الأمر متعلق بشؤون الحياة، فهو مستعد أن يُقيِّمه من منطلق العبقرية والبطولة وحسن التصرف والدبلوماسية الراقية، وسعة الصدر والذكاء النادر.نعم يسوق كل هذا المديح دون أن يكون هناك أدنى صلة بهذا الطرح وعالم الميتافيزيقا ، أو الوحي الإلهي أو تدخل المشيئة الإلهية. وقد أصاب أحد الباحثين في تقييمه لموقف المستشرقين في قوله: " إن المستشرقين أقل موضوعية بكثير مما يتصورون أو يدعون، وأن احتكار الطابع العلمي . الموضوعي مقولة قبلية فاسدة يراد منها لفت أنظار المثقف المسلم إلى ضرورة تبني آليات الفكر الأوربي بطابعه التاريخي الخاص[1].

٣- نأمل أن نقيم حوارا موسعا بين الدولة الإسلامية والعالم الغربي يزيل الفجوة القائمة بين العالمين، ويخفف من التاريخ العدائي القديم وكذلك مرحلة الاستعمار البغيض ، ويكف علماء الغرب وأجهزته الإعلامية عن تصغير شأن العرب أو النفخ فيما يسمى بالإسلام الفوبيا وإظهار روح العداء والهجوم المستمر على الإسلام والمسلمين وإيذاء أسماعهم من خلال تشويه صورة الرسول ﷺ والهجوم عليه كما رأينا عند «سليمان رشدي» والصور المسيئة التي تقوم بها بعض صحف الغرب بين الحين والآخر بدعوى حرية الرأي، فنحن نعيش على كوكب واحد وبيننا قواسم مشتركة عديدة، إذ ننتمي إلى جنس الإنسان، وأبانا في نهاية المطاف هو آدم ، ونلتجئ جميعا إلى إله واحد ونتوجه إليه في حاجاتنا ، ونصلي له لتلبية مقاصدنا المشروعة ونتضرع كذلك، ولنا آمال مشتركة وهو حب الحق والعدل والسلام والأمل في حياة هادئة تملأها السعادة والسرور والبهجة، سدتها الخير و الحق والجمال ولحمتها الأخوة والمحبة والسلام.

---

(١) الاستشراق قراءة نقدية ص ١٩٥

يجب أن تسود بيننا روح الأخوة والمحبة والحوار المستمر الذي يعمق روح العفو والتسامح ويشيع أفقا من التواصل الاجتماعي والسياسي، وإزالة أسباب الخلاف والتركيز على القواسم المشتركة.

تقول السيدة كارين: «أظهر التاريخ القصير للقرن الواحد والعشرين أن كلا الجانبين (العالم الغربي والعالم الإسلامي) لم يتقن الدرس، وإذا تعين علينا اجتناب الكارثة، فعلى المسلمين وعلى العالم الغربي أن يتعلموا، ليس فقط التسامح مع الآخر، بل تقديره.وتعد شخصية محمد نقطة انطلاق طيبة»(١).

٤- لو فرضنا أن سيدنا محمد ﷺ بعث ثانية، ومعه كل المعجزات الحسية التي أيد الله أنبياءه السابقين، من شق البحر، والعصا التي تتحول إلى ثعبان كبير مثل الجان، وقام بشفاء المرضى وبإحياء الموتى وشاهد المستشرقون كل ذلك ورأوه رأي العين، وخاطبوه وكلموه وتحاوروا معه وهو يمشي في أزقة مكة وحوله الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وسمعوا منه القرآن الكريم، وهو يقول ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ٦٤].

أقول لو جرى ذلك فإن موقف المستشرقين لن يختلف عن موقف الوليد بن المغيرة والحكم بن هشام وأبي لهب وعتبة وشيبة بن ربيعة وباقي عصابة الكفار الذين ظلوا يحاربوه حربا ضروسا حتى لقوا مصرعهم، وسوف يكررون موقف شيوخ قريش ويتدثرون بالعنجهية الأوربية والاستعلائية الاستعمارية، والعقلية النرجسية، ويقولوا لقد سكرت أبصارنا، وسحرت عقولنا وخلبت ألبابنا، إنما أنت ساحر، فلندع هؤلاء المستشرقون في غيهم وظلمهم وافتراءاتهم، والأيام بيننا، ولننتظر لمن يكون النصر في نهاية معركة الحضارة المعاصرة. والنصر للإسلام قادم لا محالة.

---

(١) محمد نبي لزماننا ص ١٩٢

٥- نعتقد اعتقادا جازما بانتصار الإسلام مستقبلا انتصاراً محققا وأن القرن القادم هو قرن سيادة الإسلام واجتياحه قارات العالم ، وهذا الكلام ليس نبوءة كاهن دجال، ولا تجديف عراف جاهل، ولا يعبر عن كوني مسلما مملوء بالحب العميق لديني والدفاع عنه والانتصار لمبادئه، أو موقف عاطفي حماسي له، وإن كان هذا كله من حقي، بل هذا التقرير ينطلق من خلال استقراء التاريخ وقراءة أحداثه الجسام ودورة صعود وسقوط الأمم والحضارات.

إن الناظر في كافة المذاهب السياسية والفلسفية والاقتصادية عبر تطور الدول يدرك أنها تظهر في الفضاء ثم تختفي مثل شمس الشتاء في لندن، أو نجوم الليل حينما تشرق الشمس ، ولا تصمد في وجه حركة تطور المجتمعات ولا تلبي حاجيات البشرية أو تحقق لها العدل المنشود والحق المطلوب، أو راحة النفس وطمأنينة الضمير و الاستقرار المأمول ونعمة السلام الباطني.

ظهرت الرأسمالية وانتشرت وطغت وسيطرت وعبرت القارات وتوحشت، وبدت مساوئها الجمة ماثلة أمام أبصار علماء السياسة و الاقتصاد والاجتماع، وعلى الرغم من كل التحسينات والتعديلات ومعالجة نواقصها، وسد ثغراتها، فعلماء الاقتصاد هم أول من يدركون عيوبها ويعتقدون أنها صائرة مستقبلا للاضمحلال والانحلال طال الزمان أم قصر.

ثم جاءت الشيوعية تعالج ثغرات النظام الرأسمالي وظلمه للعمال وهضمه لحقوقهم، وراحت تظهر مثالبه وعيوبه الرهيبة واستغلال رأس المال للسلطة السياسية، وظهر المنظرون ودبجت الكتب وتعددت الرؤى وتمدد المذهب الشيوعي حتى كاد أن يغطي نصف الكرة الأرضية، وأصبح مثل الورود الصناعية مبهرا ورائعا، وجاذبا لقلوب الشباب وعقولهم، خاصة الطبقات الفقيرة المحرومة، وفي الواقع كان يحمل في باطنه ميكروبات الأمراض الفتاكة وبذور التحلل وجرثومة الفناء، لذلك لم يكن غريبا أن يسقط هكذا بطريقة مدوية ومشينة ومروعة، كما سقطت سيناء في يد الصهيونية في ست ساعات في حرب ١٩٦٧ ، فبعد غوغائية عبد الناصر وتطاوله على الحكام العرب بطريقة غير أخلاقية، وجهازه الإعلامي الكذاب الفشار؛ والصاروخ القاهر والظافر وأنه «رجل ليس خرعا» تكشف كل

ذلك عن خواء، وباطل ما كان يصنعون، وسقوط مريع وهزيمة لم تنالها مصر في تاريخها القديم ولا الوسيط ولا الحديث، فهكذا المذهب الشيوعي كلاهما وجهان لعملة واحدة اعتمدت على الغوغائية والدعاية الكذابة والطبل الأجوف والدجل الأسود وتحريض طبقة على أخرى وإثارة الحقد والضغائن بينهما، فسقطوا سويا لأنهم ينبعان من جذر معاداة التاريخ وتطلعات الأمم ومجافاة مقررات الإسلام.والقيم الإنسانية كافة(١).

في ضوء ذلك فإن المارد الإسلامي هو القادم بلا جدال وهو الذي سيحقق الآمال العريضة والطموحات المتوثبة لملايين البشر الذين يتوقون لمعاني العدالة الاجتماعية المنشودة. ويتعطشون لكافة صنوف الحرية بكل أبعادها وتحقيق حياة أخلاقية إنسانية حضارية تليق بكرامة الإنسان الذي هو خليفة الله في الأرض.

نعم الإسلام هو المصير المحتوم لمستقبل البشرية في الأيام القادمة بإذن الله العلي العظيم. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾

[آل عمران: ٢٠٠]

محمد عبد الرحيم الزيني

مدينة روي – مسقط

الثلاثاء ٢٥ ذوالحجة ١٤٣٧ هـ

٢٧ سبتمبر ٢٠١٦م

---

(١) وصف مالك بني نبي هزيمة يونيو ١٩٦٧، بأنها، إفلاس مصقع وهزيمة شنيعة وفضيحة مخجلة، وفاجعة سيناء، (إنتاج المستشرقين ص ١٨) وأعتقد أن هذا التوصيف لا يصور المأساة التي عشناها ونحن في قمة الشباب، نصدق أكاذيب هذا النظام الفاشل وننتظر دخول جيشنا إلى تل أبيب كما غررت بنا الصحافة المصرية آنذاك ثم نستيقظ على حقيقة أمر من كل الأدوية في الوجود، وأشد مرارة من كل نباتات الحنظل في غابات العالم، حقيقة تساوي الدمار والهلاك، مازلت أذكر هذه الليلة السوداء حينما علمنا وتأكدنا من وصول القوات الإسرائيلية إلى شاطئ قناة السويس، شعرت كأنما سقطت فوق رأسي القنبلة الذرية فأصبحت لا شيء. فناء عدم.

ملحق

يقول لودفيجي مراكشي في كتابه دحض القرآن: اعتقدت دائما أن القرآن والإنجيل حين يعرضان على غير المؤمنين فإنهم يفضلون القرآن على الإنجيل، ويجب أن لا نشك في أن كتاب محمد لا يقدم للعقل أفكارا يصعب على العقل فهمها لا سيما العقل الفاسد وعدو الغموض، فمثلا لا يوجد إلا إله واحد حكيم قدير؛ خالق الأشياء كلها ومدبرها ومخاف للحوادث، ويجب أن يُصلى له بخشوع وخضوع، وأن يكون الإنسان متسامحا مع الفقراء، ويؤدي مناسك الحج، ويطهر بدنه بالصيام، ويحافظ على العدل والوسطية وطيبة القلب والشفقة، وكذلك كل الفضائل (ص ١٥٩) السهلة الأخرى؛ فلا يجوز أن يؤذي إنسان بل يجب أن يحمي من السرقة والقتل والزنا، وأن يحتقر كل ما في الدنيا باعتباره عابر سبيل، ويستمسك بالأعمال الصالحة التي لن يُضيع أجرها وسيكون لنا في النهاية يوم نعود فيه إلى الله لنجزي على ما فعلنا: فالطيبون سيجدون في السماء نعيماً مقيما وما يشتهون، وسيذوق الأشرار في جهنم عذابا لانهاية له.

كل هذه المبادئ وغيرها تنتشر في القرآن بطريقة مفهومة وواضحة أكثر من المبادئ الإنجيلية، ومن ناحية أخرى إذا سمع أحد الوثنيين كلام أحد المبشرين أن الإله الحق الواحد الذي يتكلم عنه هو واحد وثلاثة وأن الإله حل في رجل وأنه فقير وعانى وصلب ومات ودفن وكان هو نفسه معجزة، وفي سر القربان المقدس أن سر التوبة ضروري مطلقا وأن الزواج الأحادي لا بد منه وأن الرباط المقدس لا يفصم، وأن الحياة يجب أن تكون صليبا متصلا، وأنه الإنسان يجب أن يحسن إلى أعدائه ، وأن السعادة الحقة تكمن في أشياء لا تراها العين، ولم تسمعها الأذن، ولم تخطر على قلب الإنسان، وحكم أخرى مشابهة تكون في متناول السماع الإنساني أو تكون صعبة جداً إن لم تكن مستحيلة بالنسبة إلى حياتنا وحماقتنا الطبيعية، فأي وثني سيسمع هذه الموضوعات ويقارنها بمذهب القرآن، انظر إلى أي جهة سيتوجه؟ إنه سيتوجه حتما ناحية الإسلام.

(عبد الرحمن بدوي: دفاع عن القرآن ص ١٦٠)



أولا: المصادر والمراجع:

- إدريس(محمد جلاء) الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، العربي للنشر، القاهرة، ١٤١٦ / ١٩٩٥.

- أرمسترونج (كارين) سيرة النبي محمد، ترجمة فاطمة نصر، ومحمد عناني، سطور، القاهرة، ١٩٩٨.

- محمد نبي لزماننا، ترجمة فاتن الزلباني، الشروق الدولية، القاهرة، ١٤٢٩ / ٢٠٠٨.

- أرنولد (توماس ت ١٩٣٠): الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.

- تراث الإسلام (جزءان) ترجمة جرجيس فتح الله، منشورات الجمل، بيروت، ٢٠١٢.

- أسد (محمد ت ١٩٢٨)الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢.

- الألوسي (محمود شكري ت ١٢٧٠ هـ) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، المطبعة الرحمانية، القاهرة ، ١٣٤٣ هـ-١٩٢٤، وأيضا طبعة محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

- أمين (أحمد ت ١٩٥٤) حياتي، ط ، موفم، الجزائر، ١٩٨٧.

- أوليري (دي ساسي ت ١٩٥٧) الفكر العربي ومكانته في التاريخ، ترجمة تمام حسان، القاهرة. وأيضا طبعة إسماعيل البيطار.دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢.

- بدوي (عبد الرحمن ت٢٠٠٢) : دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، دار القلم، بيروت، ١٩٧٩.

- موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣.

هذه الموسوعة من أدق ما كتب عن المستشرقين، بسبب معايشة المؤلف لهم وصداقته

معهم وحضوره مؤتمراتهم، ورجوعه إلى كتبهم بلغاتهم، وتشيعه في بداية حياته لهم وإعلائه من شأنهم ومدحهم مدحا واسعا، وقد استفدت منها استفادة عظيمة، وأمدتني بمعلومات وافرة ودقيقة عن سيرة المستشرقين وإنتاجهم ومناهجهم وفلسفتهم ووجهة نظرهم في الرسول والقرآن والحضارة الإسلامية، وقد قيم د.بدوي أعمالهم تقييما لا يعرف المجاملة وإن كان اتسم بقدر من الغضب والانفعال في أحيانا ليست بالقليلة ، أو الإعجاب الزائد في أحيانا أخرى.

- دفاع عن محمد، ت، كمال جاد الله، الدار العالمية للنشر، بدون.

- دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية.د.ت.

هذان الكتابان ختما بهما د.بدوي حياته، وفيهما تراجع تراجعا واضحا عن تشيعه للمستشرقين ومناصرتهم وفقد حماسته المشبوبة لهم، وقدم خدمة جليلة بهذه المعلومات الغزيزة والمصادر النادرة والنقد العلمي الصارم للباحث المسلم، علاوة على وقوفه سدا منيعا في مواجهة افتراءاتهم، دافع عن الرسول والقرآن دفاعا علميا موثقا بالدليل والبرهان، وبعاطفة مشبوبة وإيمان راسخ وحب جارف للإسلام ظهر في أواخر حياته، بعد الفتور الذي انتابه طوال رحلته في الحياة، وإعراضه عن مناصرة الفكر الإسلامي ، يحسب له في ميزان حسناته.

- التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، النهضة المصرية، ١٩٤٠.

- بروكلمان (كارل ت١٩٥٦) تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة ، نبيه فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٨.

- البنداق (محمد صالح) : المستشرقون وترجمة القرآن، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠ / ١٩٨٠.

- بن نبي (مالك ١٩٧٣) الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٠ / ٢٠٠٠.ورجعت إلى طبعة القاهرة، ١٩٨٥.

- إنتاج المستشرقين، وأثره في الفكر الإسلامي، دار الإرشاد، بيروت، ١٣٨٨ / ١٩٦٩.

- البهي (محمد ١٩٠٥- ١٩٨٣):الفكر الإسلامي الحديث، وصلته بالاستعمار، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.

- بوازار (مارسيل) إنسانية الإسلام، ترجمة عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٠.

- بُودلي (ر. ف.ت ١٩٧٠) الرسول، حياة محمد، ترجمة عبد الحميد جودة السحار، ومحمد فرج. مكتبة مصر.

- بوكاي (موريس): التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة حسن خالد، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١١ / ١٩٩٠.

- الجابري (صلاح): الاستشراق قراءة نقدية، الأوائل، دمشق، ٢٠٠٩.

- الجبري (عبد المتعال): الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٦ / ١٩٩٥

- جراهام (مارك)كيف صنع الإسلام العالم الحديث، ترجمة عدنان خالد، هيئة أبو ظبي للثقافة، ٢٠١٠.

- جرونيباوم (فون ت ١٩٧٢): حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة مصر، د. ت. واعتمدت أيضا على طبعة الألف كتاب.القاهرة.

- جعيط (هشام): أوربا والإسلام، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠.

- الجندي (أنور): أهداف التغريب في العالم الإسلامي، اللجنة العليا للدعوة الإسلامية، الأزهر الشريف، القاهرة. يتسم الكتاب بالأسلوب الخطابي والمنهج الدعوي، والنزعة الانفعالية، والسرد التاريخي، ويركز على الجانب السلبي عند المستشرقين دون أن يذكر لهم أي فضل أو جهود في تحقيق المخطوطات وفهرستها، ومع ذلك يحمد للمؤلف العاطفة الدينية الجارفة، والدفاع المستميت عن الحضارة الإسلامية تراثها ورجالها وعلمائها. وهو ينتمي إلى مدرسة مصرية يقودها العالم الجليل الشيخ محمود شاكر و محمد حسين وعبد العظيم الديب، وقد أقسموا ألا يذكروا حسنة

واحدة لحركة الاستشراق ولا للمستشرقين، ونحن نؤمن بأنهم بشر يصيبون ويخطؤون، وقد وضعنا هذا الكتاب للرد عليهم دون أن نغفل عن إيجابياتهم.

- جورافسكي (اليكسي) الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف جراد، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٦.

- جولد تسيهر (اجتنس ١٩٢١): مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار، طبعة الخانجي بمصر (١٣٧٤ /١٩٥٥) وطبعة، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٥، ورجعت إلى ألطبعة المصرية.

- العقيدة والشريعة ترجمة محمد يوسف موسي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٤٦. وطبعة دار الكتب الحديثة، القاهرة.

- جيب وعادل العوا (هاميلتون ت ١٩٧١): علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، ترجمة عادل العوا، عويدات، بيروت، ١٩٧٧.

- الحاج (سامي سالم) الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢.

- حسن (محمد خليفة): آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، عين للدراسات، القاهرة، ١٩٩٧.

- حسين (د. طه ١٩٧٣) في الأدب الجاهلي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٢/ ١٩٣٣.

- حمدان (نذير) الرسول في كتابات المستشرقين، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي.

-الخربوطلي (علي حسني) المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨.

- الخطيب (محمد أحمد): مقارنة الأديان، دار المسيرة، الأردن، ٢٠٠٨.

- خليل (عماد الدين) من النافذة الإسلامية، دار السلام، القاهرة، ١٤٣٥ / ٢٠١٤.

- المستشرقون والسيرة النبوية. (ضمن مناهج المستشرقين، ج١ منظمة التربية والعلوم، تونس، ١٩٨٥)

- دراز (د. محمد عبد الله ١٩٠٥- ١٩٥٨): النبأ العظيم، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٥/ ١٩٨٥.

- درويش (د. أحمد): الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.

- دوزي (رينهارت ت ١٨٨٣): تاريخ مسلمي الأندلس (ثلاثة أجزاء)، ترجمة د. حسن حبشي، دار المعارف بمصر ١٩٦٣. وطبعة الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٤.

- الديب (عبد العظيم) المستشرقون والتراث، دار الوفاء بالمنصورة، مصر، ١٤١٣ / ١٩٩٢.

- دي بور (١٩٤٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة أبو ريدة، النهضة المصرية، واعتمدت على ط، النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١.

- دينيه (أتين، ناصر الدين ت ١٩٢٩) محمد رسول الله، ترجمة د. عبد الحليم محمود.، محمد عبد الحليم، د، ت.

- راسل (برتراند ١٩٧٠): حكمة الغرب (جزءان)، ترجمة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٣ - ورجعت إلى طبعة الدكتور زكي بعنوان، تاريخ الفلسفة الغربية، ت، زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥٦ .

- الراوي (فؤاد محسن): الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي، دار المأمون، عُمان، الأردن، ١٤٣٠ / ٢٠٠٨.

- رودنسون (مكسيم ت ٢٠٠٤) الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية (ضمن تراث الإسلام ج١، تصنيف جوزيف شاخت، ترجمة زهير السمهوري، عالم المعرفة الكويت، ١٩٨٥)

- رينان (إرنست ت ١٨٩٢): ابن رشد والرشدية، ترجمة عادل زعيتر، عيسي البابي،

القاهرة، ١٩٥٧. واعتمدت أيضا على ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨.

- زقزوق (محمود حمدي) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥. وكذلك طبعة دار المعارف، القاهرة.

- الإسلام في الفكر الغربي، دار القلم، الكويت، ١٤٠١ - ١٩٨١.

- الإسلام والغرب، الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٥.

- زكريا (هاشم زكريا) المستشرقون والإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٥ / ١٩٦٥. هذا الكتاب متأثر بمفردات الفترة الناصرية لذلك لا يخفى على العين الناقدة إشارته إلى القومية العربية؛ و«محمد بن عبد الله» رائد العروبة، وخطورة الاستعمار وضرورة مقاومته، وطابع الإسلام الاشتراكي والفرق بينه وبين الرأسمالية والشيوعية، الرجعية العربية، التقدمية، وتمجيد عبد الناصر ومشروعه الفاشل الذي انتهى بنا إلى هزيمة ٦٧، وتدميره للشخصية المصرية التي قتل كرامتها في السجون، وأهان إنسانيتها بالنفي والتعذيب، ويغلب على الكتاب الطابع السردي والنقل الواسع من نقاد الاستشراق العرب، وفيه رصد واسع لمؤلفات المستشرقين دون تحليل أو استنباط، ولغته لغة خطابية دعائية مثل الخطاب الناصري الغوغائي الكذوب.

الزمخشري (محمود بن عمر ت ٥٣٨ هـ): الكشاف.

- أطواق الذهب. تحقيق، أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، القاهرة.

- أبو زهرة (محمد ت ١٩٧٣): محاضرات في النصرانية، الرياض، ١٤٠٤ هـ. واعتمدت على طبعة دار الفكر العربي، القاهرة.

- الزبادي (محمد فتح الله) ظاهرة انتشار الإسلام، وموقف بعض المستشرقين منها، المنشأة العامة للنشر، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٣.

- زيدان (جورجي ت ١٩١٤) تاريخ آداب اللغة العربية ج/ ٤ دار الهلال، القاهرة، ١٩٣٧.

- الزيني (محمد عبد الرحيم) الاستشراق والتنصير، مكتبة الضامري، مسقط، ٢٠١٠.

- الاستشراق اليهودي، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١١.

- المستشرقون وعلم الكلام، مكتبة بيروت، مسقط والقاهرة، ٢٠١٣.

- المستشرقون في مصر، دار اليقين، ٢٠١٣.

- السامرك (سعدون): الاستشراق الروسي، دار المناهج، عمان، الأردن.

- الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية، دار المناهج، عَمان، الأردن، ١٤٣١ / ٢٠١٠.

- السباعي (مصطفى ت ١٩٦٤) الاستشراق والمستشرقون، المكتب الإسلامي. بيروت، ١٩٩٩.

- ستودارد (لوثروب ت ١٩٥٠) حاضر العالم الإسلامي (مجلدان)، ترجمة عجاج نويهض، تعليق شكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت.١٣٩٤/١٩٧٣.

- سفاري (كلود.ت ١٧٨٨): حياة محمد وقد ترجمت بعنوان: السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون، ترجمة محمد عبد العظيم علي، نقد ومراجعة عبد المتعال الجبري، دار الدعوة، القاهرة، ١٤١٤، / ١٩٩٤.

- سعيد (إدوارد ت ٢٠٠٣) الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، .

- سلطان (جمال) الغارة على التراث، مكتبة السنة، القاهرة، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ -

سوذرن (ريتشارد) صورة الإسلام في أوربا في العصور الوسطي، ترجمة ، د.رضوان السيد، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٤. وطبعة دار المدار الإسلامي بيروت، ٢٠٠٦.

- سورديل (دومنيك) الإسلام، ترجمة علي مقلد، دار التنوير، بيروت، ١٩٩٨.

- ابن سيد الناس (محمد بن عبد الله ٦٧١ ه - ٧٣٤ ه): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٤٠٦ / ١٩٨٦.

- سوسة (أحمد):أبحاث في اليهودية والصهيونية، دار الأمل، الأردن، ٢٠٠٢.

- سهر (عبدالله يوسف). مؤسسة الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين. مركز الإمارات للدراسات والبحوث، أبوظبي، ٢٠٠١.

- شاخت (جوزيف١٩٦٩) تراث الإسلام، ترجمة حين مؤنس، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨.

- أصول الفقه، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١. هذا الكتاب عبارة عن المادة العلمية التي نشرها في دائرة المعارف الإسلامية، حول موضوع أصول الفقه، مع التعقيبات المتميزة والتعليقات الوفيرة التي كتبها الأستاذ أمين الخولي (١٨٩٥- ١٩٦٦) إذ تعقب كل فقرة كتبها شاخت ورد عليه في حوار هادئ وأسلوب علمي، ورد الحجة بالحجة مع الاستشهاد بمصادر الإسلام المعتبرة، مع أن شاخت أدخل في موضوعه قضايا كثيرة متعلقة بالعقيدة، و علم الكلام ، وقد أشار إلى ذلك الشيخ أمين الخولي.

- شتينشنيدر (موريتس ت ١٩٠٧): أدب الجدل والدفاع في العربية بين المسلمين والمسيحيين واليهود، ترجمة، صلاح عبد العزيز محجوب، مراجعة، محمد خليفة حسن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥.

- شلبي (عبد الجليل ١٩٩٥) صور استشراقية، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٣٩٨/١٩٧٨.

- هل انتشر الإسلام بالسيف؟ دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٥.

- أبو شهبه (محمد) دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة.

- الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ): الملل والنحل، تحقيق سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

- طاش (عبد القادر): صورة الإسلام في الإعلام الغربي، الزهراء للإعلام، القاهرة، ١٤١٤/١٩٩٣.

- الطبري (أبو جعفر ت ٣١٠): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩.

- الطبري (محب الدين أبي جعفر ٦١٥: ٦٩٤ هـ):خلاصة سير سيد البشر ، تحقيق طلال بن جميل الرفاعي، مكتبة نزار مصطفى.

- الطيار (مساعد سليمان): الدخيل من اللغات القديمة على القرآن من خلال كتابات المستشرقين. (بحث منشور في الشبكة العالمية للمعلومات)

- الطيباوي (عبد اللطيف) المستشرقون الناطقون بالانجليزية ، ترجمة قاسم السامرائى، جامعة محمد بن سعود (١٤١١-١٩٩١)

- العالم (عمر لطفي) المستشرقون والقرآن، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩١.

- عباس (فضل حسن) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، دار الفتح، الأردن، ١٤٢١/ ٢٠٠٠.

- عاشور (سعيد عبد الفتاح) أوروبا العصور الوسطي، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٦.

- عبد الرحمن (د. عائشة ت ١٩٩٨): نساء النبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٩ / ١٩٧٩.

- عبود (د. أحمد): علوم القرآن في المنظور الحداثي، دار الكلمة، المنصورة، مصر، ١٤٣٦ / ٢٠١٥.

- العدناني (محمد) معجم الأخطاء الشائعة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥. استفدت من هذا الكتاب استفادة عظيمة، في تصويب العديد من الأخطاء النحوية التي وقعت فيها.

- عزوزي (حسن):آليات المنهج الاستشراقي في الدراسات الإسلامية، مطبعة آنفو، فاس، ٢٠٠٧.

- العقاد (عباس ١٩٦٤) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، المكتبة العصرية، بيروت.
- الإسلام في القرن العشرين، نهضة مصر، د.ت.
- أثر العرب في الحضارة الأوربية، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٨.
- الله، دار المعارف، القاهرة، ط٩، بدون.
- الإسلام دعوة عالمية، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩. يحتوي الكتاب على مجموعة متميزة من المقالات نشرت في المجلات المصرية في سنوات متطاولة وتشتمل على نقد العقاد لبعض الكتب، علاوة على مقالات متنوعة تختص بالرسول والقرآن والإسلام بخاصة و الحضارة الإسلامية بعامة.
- مطالعات في الكتب والحياة، دار المعارف، القاهرة، بدون.
- إبراهيم أبو الأنبياء، (ضمن موسوعة العقاد الإسلامية، المكتبة العصرية، بيروت، د. ت)
- المرأة في القرآن، نهضة مصر، القاهرة، د. ت.
- ما يقال عن الإسلام ، نهضة مصر، القاهرة، د.ت. وأيضا، اعتمدت على طبعة دار العروبة، القاهرة.د.ت.
- العقيقي (نجيب):المستشرقون. ثلاثة أجزاء، دار المعارف بمصر، ٢٠٠٦. هذا كتاب موسوعي لا يستغني عنه باحث في ميدان الاستشراق، وقد بذل مؤلفه عمرا طويلا وجهدا عظيما، و أضاف إليه إضافات جوهرية في طبعاته المتوالية ، وقد مال إلى الرصد والجمع والحصر والتسجيل لحياة أكبر عدد من المستشرقين ومؤلفاتهم وجهودهم في خدمة التراث الإسلامي، ولم يهتم في أغلب المواقف بنقد بعض آرائهم المخالفة للمسلمات الإسلامية إلا في القليل.لكنه عمل علمي يستحق الثناء والإشادة والتكريم.
- عمارة (محمد): التفسير الماركسي للإسلام، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢. هذا كتاب متميز في بابه، فيه مناقشة علمية هادئة لوجهة نظر بقايا أنصار الفلسفة

الماركسية في مصر، من عالم جليل متمكن خبير بمناوراتهم وقد هزمهم جميعا بأسلوبه القوي وحجته المنطقية وأدلته الداحضة، وحرارة إيمانه وعدالة قضيته.

- عمايرة (إسماعيل): المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية، دار حنين، عَمان، الأردن، ١٤١٢ / ١٩٩٢.

- المستشرقون ومناهجهم اللغوية، دار حنين، عَمان، الأردن، ١٩٩٢.

- المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية.دار حنين، عمان، الأردن، ١٩٩٢.

- العمري (أكرم ضياء) موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية.

- علي (السيد حامد) الرد على كتاب جورج بوش «حياة محمد»، تقديم الدكتور عبد العظيم المطعني. قام الكاتب بترجمة الكتاب الذي صدر في نيويورك عام (١٨٤٤)، وتقسيمه إلى فصول حسب الموضوعات التي طرحها بوش الجد، وكان من منهجيته ترجمة النص إلى اللغة العربية، مع إثباته باللغة الإنجليزية.ثم القيام بالرد عليه وتفنيد وجهة نظره.وقد استشهد بآراء كثيرا من الغربيين الذين أنصفوا الإسلام أمثال برنارد شو، وليو تولستوي وكارليل وغيرهم.

- عوض (د. إبراهيم) المستشرقون والقرآن، دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين، زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٣/١٤٢٣.قام المؤلف بتقديم أربع دراسات نقدية واسعة لأربع ترجمات للقرآن التي قام بها كلود سفاري، وإدوار مونتيه، وريجيس بلاشير وأحد المسلمين الجزائريين، وتتبع أخطائهم وهي فظيعة وتدل على الجهل التام بأبعاد المفردات العربية و بمعطيات القرآن، وعندهم تخليط واضح وجهل فاضح، وقد عقب المترجم على ذلك قائلا: فكرت أن أسمي الترجمات المهزلة القرآنية في المسألة القرآنية، أما الباب الثاني فيحتوي على أربع فصول عن القرآن أعدها سانت هيلير، ومونتيه وهيوار وبلاشير، وقد تتبع المؤلف تخريجاتهم الكاذبة وأفكارهم الخاطئة وعقب عليها تعقيبا مرضيا.

- عيد (ثابت) صورة الإسلام في التراث الغربي، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٩.

- الغزالي (الشيخ محمد ١٩٩٦) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥. وأيضا، دار الشروق، القاهرة.

- نحو تفسير موضوعي للقرآن، دار الشروق، القاهرة.١٩٩٧.

- مائة سؤال عن الإسلام، نهضة مصر، ٢٠٠٥.

- فقه السيرة ، دار الشروق، القاهرة. وأيضا اعتمدت على طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٢.

- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، دار الشروق، القاهرة.

- فرحات (عبد الحكيم) نبوة محمد في الاستشراق الفرنسي المعاصر، (جاكلين أنموذجا)

- إشكالية تأثر القرآن الكريم بالأناجيل في الفكر الاستشراقي الحديث.

- فلهوزن (يوليوس ١٩١٨) تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، مراجعة حسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٨.

- الخوارج والشيعة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، النهضة المصرية، القاهرة.، ١٩٥٨، وأيضا، اعتمدت على طبعة؛وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٨.

- فوك (يوهان) تاريخ حركة الاستشراق، ترجمة عمر لطفي العالم، دار المدى الإسلامي، بيروت، ٢٠٠١.

- قطب (الشيخ سيد أعدم ١٩٦٦): في ظلال القرآن.دار الشروق، القاهرة.

- مقومات التصور الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٨ /١٩٩٧.

- معالم في الطريق، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٢ / ١٩٨٢.

- هذا الدين، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١

- دراسات إسلامية، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٧ / ٢٠٠٦.

- قطب (محمد ت ٢٠١٤): إرهاصات نبوة خاتم المرسلين محمد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٥ / ٢٠٠٤.

- كارلسون (انجمار): الإسلام وأوربا، تعايش أم مجابهة؟، ترجمة سمير بوتاني، السويد، ١٩٩٤.

- كارليل (توماس ١٨٨١) الأبطال، ترجمة محمد السباعي. مكتبة مصر، القاهرة.

- كازاس (برتولمي دي لاس) المسيحية والسيف، ترجمة سميرة عزمي الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.

- كاستري (هنري دي ت ١٩٢٩): الإسلام خواطر وسوانح، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٨.

- الكبيسي (فاضل عواد): فيلب حِتى، عصر النبوة والخلافة الراشدة، دار الفرقان عمان، الأردن، ١٤٢٥ / ٢٠٠٥.

- ابن كثير (أبى الفداء إسماعيل ٧٠١ - ٧٤٧ هـ) السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٦ - ١٩٧١.

- كرد (محمد علي ت ١٩٥٣) الإسلام والحضارة العربية، دار الكتب المصرية، ١٣٥٣/ ١٩٣٤.

- لوبون (جوستاف ١٩٣١) حضارة العرب، ت، عادل زعيتر، دار العالم العربي، القاهرة، ٢٠٠٩.

- أبو ليلة (محمد): القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٤٢٣/ ٢٠٠٢. يتميز هذا الكتاب أنه تناول جمهرة من المستشرقين غير المشهورين، ورد عليهم ردودا مطولة، كذلك عكف على قراءة كتب الاستشراق في لغتها الأصلية بسبب إتقانه للغة الإنجليزية، وهذه ميزة مهمة، وربما نأخذ عليه استشهاده الكثيف بآيات القرآن الكريم في الرد علي المستشرقين، وهو أول من يعلم أنهم يتهمون الرسول بتأليفه ووضعه، ولذلك لا يعتدون بهذا الدليل ولا يؤمنون به. وكنا نود أن يعول أكثر على الحوار العقلاني والاستدلال المنطقي والبرهان العقلي.

- مازن (المطبقاني) الغرب في مواجهة الإسلام، مكتبة ابن القيم، المدينة المنورة.

- محمود (زكي نجيب ١٩٩٣): قيم من التراث. دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩.، ط ٢٠٠٠.

- تجديد الفكر العربي، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧١.

- قصة عقل، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٨.

- شروق من الغرب، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣.

- من زاوية فلسفية، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٢.

- رؤية إسلامية، مكتبة الأسرة القاهرة، ١٩٦٨.

- المعقول واللامعقول، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٧.

- محمود (عبد الحليم ت ١٩٧٨): أوربا والإسلام، دار المعارف بمصر .بدون.

- متز (آدم ١٩١٧) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة. المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨.وأيضا ط، دار الكتاب العربي، بيروت.

- المطعني (عبد العظيم): افتراءات المستشرقين على الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٣/ ١٩٩٢.

- مقبول (إدريس): الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم في رؤية المستشرقين.(بحث منشور في الشبكة العالمية)

- المنجد (صلاح الدين): المستشرقون الألمان، تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية ج١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٨.

- موللر (جوستاف بفان) الإسلام في الفكر الاستشراقي، ترجمة محمود حمدي زقزوق.

- سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ت، محمود حمدي زقزوق.مجلة مركز بحوث السنة، ١٤٠٧ / ١٩٨٧.

- نصري (أحمد) آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم، دار القلم، الرباط، ٢٠٠٦.

- النعيم (عبد الله الأمين): الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٧ / ١٩٩٧.

- الهادي (نقرة): المستشرقون والقرآن، (ضمن مناهج المستشرقين، تونس، ١٩٨٥)

- نولدكه (تيودور ت ١٩٣٠): تاريخ القرآن، ترجمة جورج تامر وآخرون، ط، بيروت، ٢٠٠٤.

- ابن هشام (عبد الملك ت ٢١٣ هـ): تهذيب سيرة ابن هشام، تحقيق عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦ / ١٩٨٥.

هارت (مايكل) الخالدون مائة أعظمهم محمد، ترجمة أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، القاهرة.

- هوفمان (مراد): يوميات ألماني مسلم، ترجمة عباس العماري، مركز الأهرام، القاهرة، ١٤١٤ / ١٩٩٣. يعد هذا الكتاب رحلة فكرية في عقل هوفمان وضميره وتعبيرا صادقا عن معاناة الإنسان الباحث عن الحقيقة وحيرته أمام جملة من الأفكار الدينية وصعوبة الاختيار، واللهفة في الوصول إلى شاطئ الإيمان، ورؤية معالم الطريق الصحيح، ومع القراءة المعمقة والاطلاع الواسع، يختار هذا الرجل دين الإسلام عن فهم و قناعة و محبة وسرور، ثم يصبح من المدافعين الأوربيين الأشداء عن مبادئ الإسلام وفكره وحضارته، ويشي الكتاب بالاطلاع الواسع على الفلسفات الغربية في كافة عصورها، وكذلك الفلسفة الإسلامية والطرق الصوفية، وعشقه للطريقة المولوية.

- هونكه (سيجريد) شمس العرب تسطع علي الغرب، دار المعارف بمصر،

- هيكل (محمد حسين ت ١٩٥٦) حياة محمد، دار المعارف بمصر. ط١٤.

وات (مونتجمري ٢٠٠٦): محمد في مكة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤.

- ولفنسون (إسرائيل ت ١٩٨٠) تاريخ اليهود في بلاد العرب، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٤٠ / ١٩٢٧. وكذلك اعتمدت على طبعة، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٦.

- ويلز (هـ، ج): معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جويد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، سلسلة الألف كتاب الثاني.

- ياسين (خليل): محمد عند علماء الغرب، دار الكتاب المصري، بيروت، ٢٠٠٧.

- يفوت (سالم): حفريات الاستشراق، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٨٩.

الموسوعات:

- عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣.

- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة. الرياض، ١٩٨٩.

- المعجم الفلسفي ، يوسف كرم ومراد وهبه، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٩.

- المعجم الفلسفي، المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣.

- الموسوعة الفلسفية العربية ، إشراف معن زيادة، بيروت، ١٩٦٨.

- الموسوعة العربية، إشراف محمد شفيق غربال، القاهرة.

***

كتب للمؤلف:

١.ابن القيم وآراؤه الكلامية، ط، الأمل، صنعاء، ١٩٩٩.ط٢، دار اليقين، المنصورة، مصر، ٢٠١٠.

٢ . مشكلة الفيض عند فلاسفة الإسلام، ديوان المطبوعات، الجزائر، ١٩٩٣م. ط٢، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٣.

٣ . وقفة مع الفلسفة الغربية ، ط، المنار، صنعاء ١٩٩٦.ط٢، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٣.

٤. مشكلة الموت بين الفلسفة والدين، القاهرة، ٢٠٠٢م.ط٢.دار اليقين، القاهرة، ٢٠١١.

٥ . أبو الهذيل العلاف وآراؤه الكلامية والفلسفية، مطبعة الأمل، صنعاء، ١٩٩٨م. ط٢، دار اليقين، المنصورة، مصر، ٢٠١٠.

٦.شهداء الفكر في الإسلام، ط، دار الهدى، الجزائر، ١٩٩٩، ط٢، مطبعة الأمل صنعاء - ٢٠٠٠م. ط٣، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١١

٧ . نشأة علم الكلام وأهدافه، مطبعة الأمل، صنعاء، ٢٠٠٠.، ط٢، دار اليقين القاهرة، ٢٠١٤.

٨. المقبلي وآراؤه الكلامية، ط١، مطبعة الأمجاد، صنعاء (١٤٢١هـ- ٢٠٠٠)، ط٢، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ٢٠٠١م. ط٣، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٠.

٩. قراءة في فكر الشيخ مصطفى عبد الرازق، مطبعة الأمجاد، صنعاء (١٤٢٢هـ- ٢٠٠١).ط٢ ، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١١

١٠ . أبو سليمان السجستاني، سيرته العلمية وآراؤه الفلسفية، دار القلم، دبي، الإمارات العربية، (١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧). ط٢، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٢.

١١.عمرو بن عبيد وأصوله الخمسة ، ط، مكتبة الأنفال، مسقط، ٢٠٠٧م.ط٢، دار اليقين، المنصورة، مصر، ٢٠١٠.

١٢. ابن السيد البطليوسي، وآراؤه الفلسفية والكلامية، مؤسسة ابن عمير، مسقط ٢٠٠٨.ط٢، دار اليقين، المنصورة، مصر، ٢٠١٠.

١٣. الاستشراق والتنصير رؤية موضوعية، مطبعة الضامري، مسقط، ١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠.

١٤. تجديد الخطاب الديني بين الواقع والمأمول. دار اليقين، القاهرة ,٢٠١١

١٥. منهج للحوار بين اتجاهات الفكر الإسلامي. دار اليقين، القاهرة، ٢٠١١

١٦. الاستشراق اليهودي، رؤية موضوعية. دار اليقين، القاهرة، ,٢٠١١

١٧ .هوامش على سيرة عبد الرحمن بدوي، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٢.

١٨ .المستشرقون وعلم الكلام ، ط١، مكتبة بيروت، مسقط، والقاهرة، ٢٠١٣. ط٢، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٥.

١٩ - المستشرقون في مصر، دار اليقين، القاهرة ،٢٠١٣.

٢٠. الاستشراق والمستشرقون، دار اليقين، القاهرة، ٢٠١٥.

٢١.التنصير والمنصرون، دار القين، القاهرة ، ٢٠١٥.

٢٢.قراءة في كتب المدرسة الإباضية. دار اليقين، القاهرة.٢٠١٥.

٢٣ - المنهج النقدي عند القيم ، دار اليقين، القاهرة ، ٢٠١٥.

٢٤ - المنهج النقدي عند الإمام السالمي، دار اليقين، القاهرة ، ٢٠١٦.

البحوث المنشورة:

١. جمال الدين الأفغاني رائد التنوير، مجلة الموافقات، العدد ٢، يصدرها المعهد العالي لأصول الدين جامعة الجزائر، ١٩٩٢م.

٢.الحرية الإنسانية عند العلاف، مجلة جرش، العدد الأول، الأردن، ديسمبر، ١٩٩٧م.

٣.القديس أوغسطين وفلسفته، مجلة كلية الآداب، العدد ٢١، جامعة صنعاء، ١٩٩٨م.

٤ ـ حياة العلاف ومؤلفاته، مجلة دراسات يمنية، العدد ٥٧، مركز الدراسات والبحوث اليمنى، صنعاء، ١٩٩٩م.

- منهج للحوار بين اتجاهات الفكر الإسلامي ، مجلة منبر الحوار، العدد ٣٩، بيروت، صيف وخريف ١٩٩٩م.

***




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

السيرة الذاتية للمؤلف

- محمد عبد الرحيم الزيني .مواليد دكرنس، الدقهلية، مصر.

- الليسانس من كلية الآداب، جامعة القاهرة (١٩٧٦)

- الماجستير في الفلسفة الإسلامية، في موضوع ابن القيم وآراؤه الكلامية، آداب القاهرة (١٩٨٠)، بدرجة ممتاز.

-الدكتوراه، في موضوع مشكلة الفيض عند فلاسفة الإسلام، آداب القاهرة.(١٩٨٣) بدرجة مرتبة الشرف.

التاريخ الوظيفي:

١ . العمل بالتدريس بدرجة مدرس فلسفة وعلم النفس، بدار المعلمين والمعلمات بدكرنس، المنصورة، من (٧٦ - ١٩٨٢).

٢ - العمل بالتدريس بدرجة مدرس فلسفة وعلم نفس بمعهد المعلمين ، بصور، سلطنة عمان. (١٩٨٦.٨٢)

٣ - التدريس بدرجة مدرس فلسفة إسلامية، بالمعهد العالي لأصول الدين، جامعة الجزائر. من (٧/ ١١/ ١٩٩٠: ٤/٩/١٩٩٣)

٤ - التدريس بكلية التربية، جامعة صنعاء، بدرجة مدرس فلسفة إسلامية،

٥- الترقية إلى درجة أستاذ مشارك (أستاذ مساعد) في ٢٥/٥/,١٩٩٩

٦- رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، بكلية التربية، جامعة صنعاء، من ١/ ١٠/ ١٩٩٣: العام الدراسي ٩٦/١٩٩٧ .حيث تم تصفية القسم.

٧- رئيس قسم العلوم التربوية في العام الدراسي ٩٧/,١٩٩٨

٨- رئيس قسم الدراسات الإسلامية من بداية العام الدراسي ٩٨/٢٠٠١.

٩- العمل بكلية العلوم الشرعية، بمسقط، سلطنة عمان، من ١٢ سبتمبر /٢٠٠١. ومازال على رأس عمله.

١٠- الترقية إلى درجة أستاذ في ٣ يوليو ٢٠٠٢، من جامعة القاهرة.

***